ديمتري غلوكوفسكي

ترجمة: أسعد الحسين وماجد الحسين

مراجعة: مخلوف سليمان

ميترو 2033

فريق متميزون
E-BOOK

رواية

دار نينوى

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ميترو ٢٠٣٣

رواية مترجمة..

الكاتب: ديمتري غلوكوفسكي.

ترجمة: أسعد وماجد الحسين

مراجعة: مخلوف سليمان

ملاحظة في المترو

إلى أهالي موسكو الأعزّاء، وضيوف عاصمتنا:

إنّ مترو موسكو أحد أشكال وسائط النّقل، لكنَّه يتضمّن مستوًى عاليًا من الخطر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدّمة..

إنّنا الآن في العام 2033. ضربة ماحقة نزلت على كلّ أوروبا، وتحوّل العالم إلى ركام وأنقاض وأصبح عالمًا سفليًّا مغلقًا مخيفًا. وانقرضت البشريّة تقريبًا ولم ينجو منها سوى بضعة آلاف لا يعرفون إن كانوا هم النّاجون الوحيدون على ظهر هذا الكوكب.

إنّهم يعيشون في مترو موسكو، أكبر ملجأ يحمي من الغارات الجويّة، بناه الإنسان قطّ. البشريّة في ملاذها الأخير في عالم لا غد فيه، وليس فيه مكان للأحلام أو الخطط أو الأمل. عالم لم يبق فيه من المشاعر سوى غريزة البقاء بأيّ ثمن.

فدنكه هي المحطّة المأهولة في أقصى الشّمال على هذا الخطّ، والّتي ماتزال آمنة. يظهر فيها خطر جديد رهيب. أرتيوم شاب يعيش في فدنكه يُكلّف بمهمّة اختراق قلب النّفق والذّهاب إلى محطة بوليس الأسطوريّة ليحذّر الجميع وينذرهم بالخطر المقيت، والحصول على المساعدة. هو يحمل مستقبل أهالي محطّته بيديه ومستقبل المترو وربّما مستقبل البشريّة كلّها أيضًا.

إنّ الرّوائيّ الرّوسيّ ديمتري غلوكوفسكي هو الصّوت المبدع لسلسة المترو الّتي بدأت حياتها على شبكة الإنترنت في العام 2002 بشكل المترو 2033. كان شغفه بمترو موسكو هو الّذي ألهمه بالرّواية، إذ ترعرع في موسكو وكان يركب المترو يوميًّا. وفي أحد الأيّام اكتشف أنّ مترو موسكو أكبر ملجأ نوويّ في العالم. فقد خُطّط وهُندِس ونُفِّذ كملجأ. افتتح المترو في عام 1935 ويضمّ الآن 188 محطّة بأنفاق يبلغ طولها 194 ميلاً. وبه 102 خط، ويوفّر النّقل لـ 7 ملايين شخص يوميًّا. كما تفيد بعض التّقارير غير المؤكّدة بوجود نفق ثان أعمق لخط مترو خاص بالحكومة والنّخبة، يعرف بالمترو 2 او دي 6.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول: نهاية الأرض

مَن هناك؟ اذهب يا أرتيوم وألقِ نظرة.

نهض أرتيوم بتردّد من مقعده القريب من النّار، ونقل بندقيّته الآليّة من على ظهره إلى صدره، وتوجّه نحو الظّلام. وقف على حافّة المنطقة المضاءة تمامًا، ثمّ حرّر مزلجة أمان بندقيّته، وصاح بصوت عالٍ أجشّ يحمل تهديدًا، بأقصى ما استطاع: قف، كلمة السرّ.

استطاع أن يسمع صوت خطوات سريعة متقطّعة في الظّلام، في المكان الّذي سمع فيه قبل لحظات حفيفًا غريبًا وتمتمةً جوفاء. تأرجح أحد ما في أعماق النّفق، وابتعد خائفًا من صوت أرتيوم الأجشّ، ومن قعقعة سلاحه. عاد أرتيوم مسرعًا إلى النّار، وأجاب على سؤال بيوتر أندريفيتش:

لا، لم يتقدّم أيّ أحد، أو يقترب. لم يكن هناك أيّ ردّ، لقد هربوا.

أنت أبله؟! لقد أخبرتك بوضوح، إن لم يردّوا، أطلق النّار عليهم فوراً. كيف يمكن لك أن تعرف من هو؟ ربّما يقترب الدّارك ونز ([1]) منّا أكثر.

لا، لا أظنّ أنّهم كانوا بشرًا، كانت الأصوات غريبة فعلًا، والخطوات لم تكن بشريّة أيضًا. ماذا؟ هل تعتقد أنّني لا أعرف كيف يكون صوت خطوات البشر؟ وفي كافّة الأحوال، متى هرب الدّارك ونز على هذا النّحو؟ أنت تعرف يا بيوتر أندريفيتش أنّهم مؤخّرا اندفعوا بقوّة إلى الأمام دون تردّد، وهاجموا دوريًّة بأيديهم العارية فقط. لقد تقدّموا مباشرة، وبخطّ مستقيم إلى نار البنادق الآليّة، أمّا هذا الشيء فقد هرب مباشرة مثل حيوان فزع.

حسنًا يا أرتيوم، أنت ذكي جدًّا فيما يخصّ مصلحتك، لكن لديك تعليمات، وبالتّالي اتّبعها، لا تفكّر فيها. ربّما كان كشّافا، وبات يعرف الآن كم هو قليل عددنا هنا، وكم سيحتاجون من الذّخيرة. ربّما يبيدوننا ويمسحوننا من هنا الآن، للتّسلية، ويضعون سكّينا على رقابنا، ويذبحون كل من هم في المحطّة مثل البوليزهافيسكايا تمامًا. وكلّ ذلك لأنّك لم تتخلّص من ذلك الواشي. راقبه، سأجعلك تطاردهم داخل النّفق في المرّة القادمة.

وهذا ما جعل أرتيوم يرتعد حين تخيّل النّفق بعد المتر سبعمائة. مجرّد التّفكير به كان مرعبًا. ولا يملك أحد الشّجاعة ليذهب إلى أبعد من المتر سبعمائة في الشّمال. كانت الدّوريّات تقتصر على المتر خمسمائة بعد أن تُنار المخافر الحدوديّة بالأضواء الكشّافة المركّبة على عربة الأتوبيس الكهربائي، وبعد أن يقنعوا أنفسهم أنّ الحثالة لم يعبروا هذه النّقطة. وكانوا يعودون بسرعة. حتّى الشبّان الكبار من الكشّافة ورجال البحريّة السّابقين، كانوا يقفون عند المتر ستّمائة وثمانية. يديرون سجائرهم المشتعلة إلى داخل راحات أيديهم المجوّفة، ويقفون جامدين بلا حراك،

متمسّكين وملتصقين بأدوات الرّؤية الليليّة الخاصّة بهم، ثمّ يعودون بهدوء، وبطء، دون أن يرفعوا عيونهم عن النّفق أو يديروا ظهورهم له.

إنّهم الآن يقومون بدوريّة في المتر أربعمائة وخمسين على بعد خمسين مترًا من المخفر الحدوديّ. تُفتّش الحدود مرّة في اليوم، وكان التّفتيش قد انتهى اليوم قبل عدّة ساعات. ومخفرهم الآن هو الأبعد، ومنذ التّفتيش الأخير، ستبدأ الوحوش الّتي يفترض أنّ الدّوريّة الأخيرة أرعبتها وأبعدتها، بالاقتراب والزّحف مرّة أخرى بالتّأكيد، ستقترب وقد انجذبت إلى اللّهب، وإلى النّاس.

أسند أرتيوم ظهره على مقعده، وسأل: ماذا حدث فعليًّا في بوليجافيسكايا؟

على الرّغم من أنّه كان يعرف مُسبقًا هذه القصّة الّتي تُجمّد الدّم في العروق- سمعها من تجّار في المحطّة- لكنّه كان مدفوعًا بحافز ملحّ كي يسمعها مرّة أخرى مثل طفل يشعر بحافز غير مسؤول ليسمع قصصًا مروّعة عن متحوّلين بلا رؤوس ودارك ونز يخطفون الأطفال الصّغار.

في بوليجافيسكايا؟ ماذا؟ ألم تسمع بها؟ إنّها قصّة غريبة، غريبة ومرعبة. أوّلًا بدأ كشّافتهم بالاختفاء، ذهبوا داخل النّفق ولم يعودوا. وبفرض أنّ كشّافتهم تنقصهم البراعة تمامًا، ولا يشبهون كشّافتنا أبدًا، لكنّ محطّتهم كانت أصغر، وعدد النّاس الّذين يعيشون هناك (أقصد الّذين كانوا يعيشون هناك) أقلّ أيضًا. ومع هذا بدأ كشّافتهم يختفون، وغادرت إحدى المفارز، ثمّ تلاشت. في البداية ظنّوا أنّ شيئًا كان يعيقهم، فالنّفق هناك يلتوي وينعطف كما يفعل هنا.

ارتبك أرتيوم، وشعر بعدم الرّاحة لـمّا سمع هذه الكلمات. ولم تستطع الدوريّات، أو حتّى الّذين في المحطّة أن يروا شيئًا مهمًّا، بالرّغم من شدّة الضّوء الّذي يسلّطونه على هذا الشّيء. لم يظهر أحد لمدّة نصف ساعة، ثمّ لمدّة ساعة، وساعتين. وتساءلوا أين يمكن للكشّافة أن يذهبوا فهم لم يتجاوزوا كيلومترًا واحدًا. ولم يكن مسموحًا لهم بالابتعاد أكثر بأيّ حال، وهم ليسوا بُلهاء تمامًا. باختصار، ودون الخوض في التّفاصيل، لم ينتظروا حتّى يكتشفوا الأمر. أرسلوا تعزيزات فتّشت، وفتّشت، صاحوا، وصاحوا، ولكن من غير جدوى. لقد اختفت الدوريّة واختفى الكشّافة وتلاشوا. ولم ير أحد ما حدث لهم. والأسوأ أنّه لم يسمع أحد أيّ صوت، ولم يظهر لهم أثر.

بدأ أرتيوم يشعر بالنّدم لأنّه سأل بيوتر أندريفيتش رواية قصّة بولجايفسكايا. كان بيوتر أندريفيتش إمّا مطّلعا أكثر، أو أنّه يزخرف القصّة إلى حدّ ما، لكنّه في كلّ الأحوال كان يروي تفاصيلًا من النّوع الّذي لم يحلم به التّجّار رغم كونهم سادة في سرد القصص، ومتحمّسين حقيقيّين لها. بثّت تفاصيل القصّة القشعريرة في نفس أرتيوم مع أنه يجلس إلى جانب النّار تمامًا، وشعر بالضّيق، وبات أيّ حفيف من النّفق الآن يثير خياله، حتّى الحفيف الأشدّ براءة فيه.

لم يسمعوا أيّ إطلاق نار، لهذا قرّروا أنّ الكشّافة تركوهم ببساطة، فربّما كانوا مستائين من شيء ما وقرّروا الهروب. لذا فليذهبوا الى الجحيم. إذا كانوا يريدون

تمضية أوقاتهم مع كل أنواع الدّهماء والحثالة فدعهم يستمتعون بذلك. كانت رؤية الأمر على هذا النّحو أسهل. ولكن بعد أسبوع، اختفى فريق آخر من الكشّافة، وكان من المفترض أنّهم لم يتجاوزا مسافة نصف كيلومتر واحد عن المحطّة، وتكرّرت أحداث القصّة القديمة نفسها مرّة أخرى. لا صوت، ولا أثر، كما لو أنّهم تلاشوا في الهواء، لهذا بدؤوا في المحطّة يقلقون. الآن يواجهون ورطة حقيقيّة، فقد اختفت مجموعتان خلال أسبوع واحد، وعليهم أن يفعلوا شيئًا بخصوص ذلك. وهذا يعني أنّ عليهم أن يتّخذوا الإجراءات الضروريّة. قاموا بنصب شريط حماية على بعد ثلاثمائة مترًا. وجرّوا أكياس رمل إلى شريط الحماية، ونصبوا بنادق آليّة وضوء كشّاف، وفقًا لقواعد التّحصين. ثمّ أرسلوا رسولًا إلى بيغوفايا، حيث كانوا قد أسّسوا اتّحادا كونفيدراليًّا مع بيغوفايا وشارع 1905. كان (أكتوبر فيلد) مشمولًا أيضًا، ولكن حدث شيء لم يعرف به أحد آنذاك، وأصبحت الأحوال غير قابلة للحياة، ففرّ الجميع منه.

ومع ذلك أرسلوا رسولاً إلى بيغوفايا حذّرهم من أنّ المصيبة حلّت، وطلب منهم المساعدة في حال حدوث شيء كما قالوا. وصل الرّسول الأوّل إلى بيغوفايا ولم يزل النّاس هناك يفكّرون بالرّدّ. ثمّ وصل الرّسول الثّاني إلى بيغوفايا وقد غرق في عرَقه، وأخبرهم أنّ شريط حمايتهم المحصّن انهار دون أن تُطلَق رصاصة واحدة، وذبحوا حتّى آخر رجل فيهم، وبدا الأمر كما لو أنّهم ذُبحوا في نومهم، وهذا هو المرعب. لكنّهم لم يكونوا نيامًا، خصوصًا بعد الخوف الّذي أصابهم، عداك عن التّعليمات والأوامر. عند هذه النّقطة أدرك أهالي بيغوفايا أنّهم لم يفعلوا شيئًا، وأنّ الحال نفسها ستصيبهم أيضًا. لذلك جهّزوا قوّة ضارية من المحاربين تتألّف من حوالي مئة رجل، وبنادق آليّة، وقاذفات قنابل. ولم يستغرق كلّ ذلك طبعًا سوى القليل جدًّا من الوقت، يوم ونصف يوم. وفي الوقت نفسه أرسلوا مجموعة للمساعدة، وحين دخلت المجموعة إلى بولجايفسكايا لم تر هناك روحًا واحدةً، ولم تكن هناك جثث حتّى. لم يجدوا هناك سوى الدّماء فقط، الدّماء الّتي انتشرت في كلّ مكان. ومن يعرف من الّذي فعلها بحقّ الجحيم؟ أنا أحد الّذين لا يصدّقون أنّ البشر قادرين على فعل شيء كهذا.

وماذا حدث لبيغوفايا؟ بدا صوت أرتيوم مختلفًا، وغير عاديّ.

لم يحدث لهم شيء. فهموا الأمر، ففجّروا النّفق المؤدّي إلى بولجايفيسكايا. سمعت أنّها كانت أربعين متراً من ممتلكات النّفق، ولم يكن هناك أعمال تنقيب عبره، ولا وجود لمعدّات آليّة، وحتّى لو توفّرت المعدّات، فلن يتمكّنوا من المضيّ عميقًا بعيدًا جدًّا. وأين ستجد ذلك النّوع من المعدّات الآليّة بأيّ حال؟ لقد بليت معدّاتنا الآليّة منذ خمس عشرة سنة.

ثمّ صمت بيوتر، وحدّق في النار. سعل أرتيوم بصوت عالٍ وقال: إيه..كان يجب أن أطلق النّار على ذلك الشّيء طبعًا.. كنتُ أبلهًا.

سُمعت صيحة من الجنوب، من جهة المحطّة: هيه، أنتم هناك، في نقطة المتر أربعمائة، هل كلّ شيء على ما يرام عندكم؟

طوى بيوتر أندريفيتش يديه على شكل بوق، وصاح ردًا على الصّوت: اقترب أكثر، لدينا وضع هنا.

ظهرت ثلاثة أشكال في النّفق، وتألّقت أضواؤهم الكشّافة من المحطّة، ربّما كانوا أفراد دوريّة من نقطة المتر ثلاثمائة، وبعدما كُشفوا في ضوء النّار أطفؤوا مصابيحهم الكشّافة، وجلسوا.

مرحبا، هناك بيوتر؟! إذًا أنت هنا. وأنا أقول لنفسي من الّذي أرسلوه إلى حافّة الأرض اليوم؟ قال المسؤول الأعلى في الدّوريّة وهو يبتسم ويهزّ سيجارة من صرّته.

اسمع يا أندريوخا، أحد فتياني رأى أحدًا ما هنا، لكنّه لم يطلق النّار عليه، واختبأ هذا الشّيء في النّفق، وقال إنّه لا يبدو كالبشر.

ألا يبدو كبشريّ؟ كيف كان يبدو إذًا؟ التفت أندريه إلى أرتيوم..

أنا لم أره حتّى، سألته عن كلمة السّرّ فهرب مباشرة متّجها نحو الشّمال، لكنّ أصوات الخطوات لم تكن أصوات خطوات بشريّة، كانت سريعة جدًّا، وخفيفة كأنّ له أربعة أرجل بدلًا من اثنتين.. أو ثلاثة، غمز أندريه وهو يتظاهر بالخوف.

غصّ أرتيوم، وتذكّر القصص الّتي تتكلّم عن النّاس ذوي الثّلاثة أرجل من فيليفسكايا، حيث ارتفعت بعض المحطّات إلى السّطح، ولم يكن النّفق عميقًا جدًّا هناك، لذا كانوا تقريبًا بلا حماية من الإشعاع. كانت هناك أشياء بثلاثة أرجل، وأشياء برأسين، وكلّ أنواع القذارة الغريبة تدبّ في كلّ جزء من أرجاء المترو.

أخذ أندريه مجّة من سيجارته، وقال لرجاله: حسنًا أيّها الفتيان، بما أنّنا بتنا هنا، لم لا نجلس لبرهة من الوقت؟ وإذا زحف، أو دبّ أيّ من الأشياء ذات الثّلاثة أرجل على هؤلاء الفتيان مرّة أخرى، سنقدّم لهم يد العون. هيه يا أرتيوم، هل لديك غلّاية شاي؟

نهض بيوتر أندرييفتش، وصبّ بعض الماء من علبة صغيرة في غلّاية بالية غطّاها السّخام، ثمّ علّقها فوق اللّهب. وبعد بضع دقائق بدأت الغلّاية تصفّر لـمّا اقتربت حرارة الماء من درجة الغليان. هذا الصّوت المنزليّ جدًّا، والمريح، جعل أرتيوم يشعر بدفء وهدوء أكثر. نظر حوله إلى الرّجال الّذين كانوا يجلسون أمام النّار، كلّهم أشخاص أقوياء يمكن الاعتماد عليهم، عركتهم الحياة الصّعبة المتطلّبة الّتي عاشوها هنا، ويمكن الوثوق برجال كهؤلاء، والاعتماد عليهم. ولطالما اشتهرت محطّتهم بكونها المحطّة الأنجح في الخطّ كلّه، وكلّ ذلك كان بفضل الرّجال المتجمّعين هنا، والآخرين من أمثالهم، وكانت تربطهم ببعضهم بعضًا روابط حميميّة وأخويّة تقريبًا.

كان أرتيوم قد تجاوز الواحد والعشرين عامًا من العمر. وقد جاء إلى هذا العالم حين كانت الحياة ما تزال هناك على السّطح. لذلك لم يكن نحيلًا وشاحبًا مثل الآخرين الّذين ولدوا في المترو، الّذين لم يجرؤوا على الصّعود إلى السّطح خوفًا من الإشعاعات، وأشعّة الشّمس الحارقة المدمّرة جدًّا للسّاكنين تحت الأرض. يذكر أرتيوم أنّه لم يصعد إلى السّطح سوى مرّة واحدة فقط، وكان ذلك للحظة واحدة، فقد

كانت الطاقة الإشعاعيّة المحيطة بالمكان هناك سيّئة جدًّا، لذلك من لديه القليل من الفضول كان سيُقلى خلال ساعتين فقط، وقبل حتّى أن ينجح في الاستمتاع بمشية جيّدة، أو يرى كفايته من العالم الغريب المتواجد على السّطح.

هو لا يذكر والده أبدًا، كانت أمّه معه حتّى بلغ الخامسة من العمر، وعاشوا في تيميريازيفسكايا. كانت الحالة جيّدة، والحياة تسير بسلاسة وسلام حتّى سقطت تيميريازيفسكايا ضحيّة لبلاء الجرذان.

في يوم من الأيّام صعدت جرذان رماديّة ضخمة مبلّلة من نفق في الجانب المظلم من المحطّة دون أيّ إنذار. كان نفقًا جانبيًّا غائرًا، أو بالأحرى كان شعبة مهملة من الفرع الشّماليّ الرّئيسيّ الّذي ينحدر إلى أعماق عظيمة يتوه المرء فيها، ويضيع في شبكة معقّدة من مئات الدّهاليز، متاهات رعب مجمّدة ونتنة. كان النّفق يمتدّ إلى مملكة الجرذان حيث لا يجرؤ حتّى أشدّ المغامرين بأسًا على الولوج فيه، وحتّى المتجوّل الّذي يتوه لا يجد دربه باستخدام خرائط تحت أرضيّة وممرّات، وإنّما سيقف عند العتبة، ويدرك بغريزته الخطر الأسود الشّرّير المنبثق منه، فيهرع بسرعة ويبتعد عن الصّدع العميق المفتوح كما لو كان المدخل بوّابة من بوّابات مدينة موبوءة.

لم يكترث أحد بالجرذان، ولم ينزل أحد إلى مناطق سيادتهم كما لم يجرؤ أحد على انتهاك حدودهم.

الجرذان جاءت إلى النّاس...

مات ناس كثيرون في ذلك اليوم، حين تدفّق سيل قويّ من جرذان عملاقة، أكبر من أيّ جرذان شوهدت في كلا المحطّتين أو حتّى في النفق، ودفنت كلّ المدافعين عن أشرطة الحماية والمحطّة والسّكّان، لقد كتمت كتلة أجسادها صرخات احتضارهم. واستهلكت الجرذان كلّ شيء في دربها، الأحياء والأموات وحتّى رفاقها الّذين نفقوا. وتقدّمت إلى الأمام أكثر فأكثر وهي تمزّق وتثقب على نحو أعمى، مدفوعة بعناد شديد، أبعد من قدرة البشر على الفهم.

لم ينجُ سوى قلّة من الرّجال، أمّا النّساء الرّجال المسنّون والأطفال، فلم ينجو منهم أحد. خمسة رجال أصحّاء فقط تمكّنوا من النّجاة أمام سيل الموت المدمّر الجارف، والسّبب الوحيد الّذي جعلهم يسبقون الجرذان هو أنّهم كانوا يقفون بالصّدفة قرب عربة ترام تقوم بالحراسة في النّفق الجنوبيّ. ركض أحد الحرّاس في العربة ليرى ما يحدث حين سمع الصّراخ في المحطّة، وفور دخوله المحطّة لاحظ أنّ تيميريازيفسكايا قد هلكت وفنيت مسبقًا. وفهم ما حدث من مدخل المحطّة لـمّا رأى جداول الجرذان الأولى تتسرّب عند المنصّة. وعرف أنّه لن يستطيع مساعدة هؤلاء الّذين كانوا يدافعون عن المحطّة. وحين استدار ليعود، أمسك بيده أحدهم فجأة من الخلف. التفت حوله فرأى امرأة شوّه وجهَها الرّعب، تشدّ كمّ سترته بإصرار، وتصرخ في محاولة منها للتغلّب على أصوات جوقة اليأس المرتفعة، وقالت: أنقذه أيّها الجنديّ، الرّحمة.

رآها تسلمه يد طفل، يدًا صغيرة ممتلئة، فأمسك باليد دون أن يفكر حتى أنّه كان ينقذ حياة شخص. جرّ الطّفل خلفه، ثمّ حمله ودسّه تحت ذراعه، وتسابق مع قادة الجرذان في سباق مع الموت. وتقدّم إلى الأمام عبر النّفق حيث كانت عربة التّرام وأصدقاؤه ينتظرونه على المنصّة. بدأ يصرخ لهم من بعيد، من بُعد خمسين مترًا تقريبًا، وطلب منهم أن يشغّلوا العربة. كانت عربتهم مزوّدة بموتور، وهي الوحيدة من نوعها في المحطّات العشرة القريبة، ولهذا السّبب فحسب كانت قادرة على مسابقة الجرذان. تقدّم رجال الدّوريّة إلى الأمام بسرعة، وانطلقوا عبر محطّة ديمتروفسكايا المهجورة بأقصى سرعة، حيث التجأ بضعة نسّاك، وتمكّنوا أن يصيحوا لهم، ويحضّوهم: اركضوا.. جرذان، لكنّهم لم يدركوا أنّه ما من فرصة أمام النّسّاك لإنقاذ أنفسهم. وحين اقتربوا من شرائط حماية سافويلوفسكايا الّتي عقدوا معها تسويات سلميّة بفضل الرّبّ، خفّفوا سرعتهم كيلا يتعرّضوا لإطلاق النّار، إذ سيعتبرهم حرّاس سافويلوفسكايا مُغيرين بسرعة عالية. وصرخوا بأعلى أصواتهم للحرّاس: جرذان، إنّها قادمة. كانوا مستعدّين لمواصلة الرّكض عبر سافويلوفسكايا وأبعد منها، على طول الخطّ، ومستعدّين لتوسلّهم كي يتركوهم يمرّوا طالما مايزال هناك مكان أبعد يذهبون إليه، وطالما لم تغمر الحمم الرّماديّة المترو بكامله.

ولكن لحسن الحظّ ثمّة شيء ما في سافويلوفسكايا سينقذهم وينقذ المحطّة، وربّما كلّ شعبة سيربوخوفسكو- تيميريافيزكايا. كانوا في المحطّة والعرق يتصبّب منهم، ويصيحون بحرّاس سافويلوفسكايا بشأن نجاتهم بصعوبة من الموت. في هذا الوقت كان الحّراس في المخفر يرفعون الغطاء عن نوع من قطعة سلاح تبدو مثيرة للإعجاب.

كانت عبارة عن قاذف لهب جمعه الحرفيّون المحلّيون من قطع غيار احتياطيّة (صناعة بيتيّة) لكنّه سلاح فعّال على نحو لا يصدّق. وحين باتت الصّفوف الأولى من الجرذان مرئيّة، حيث كانت تستجمع قواها، كما يمكن سماع خشخشة وخربشة مخالب ألف جرذ في الظّلام، أشعل الحرّاس قاذف اللّهب، ولم يطفئوه حتّى نفد الوقود. امتدّ لهب برتقاليّ لعشرات الأمتار داخل النّفق، وحرق الجرذان، حرقها كلّها دون توقّف لمدّة عشر دقائق، أو خمس عشرة دقيقة، أو عشرين دقيقة. وامتلأ النّفق برائحة الجرذان المحروقة المنفّرة وراء حرّاس سافويلوفسكايا الّذين أصبحوا أبطالًا، واشتهروا على طول خطّ المترو. توقّفت العربة واستقرّت، وكان على متنها الرّجال الخمسة الّذين فرّوا من محطّة تيميريازيفسكايا، ومعهم شخص إضافيّ، إنّه الطّفل الّذي أنقذوه، الصّبيّ أرتيوم.

تراجعت الجرذان.. فقد كسر إرادتَها العمياءَ واحدٌ من الاختراعات الأخيرة للعبقريّة العسكريّة البشريّة. لطالما كان البشر أفضل من أيّ شيء حيّ آخر في القتل.

تراجعت الجرذان كالسّيل، وعادت إلى مملكتها الهائلة الّتي لم يكن أحد يعرف أبعادها الحقيقيّة. وبدت كلّ هذه المتاهات الممتدّة إلى أعماق لا تصدق، والغامضة جدًّا، غيرَ نافعة تمامًا لعمل المترو ووظيفته. ومن الصّعب التّصديق أنّ من بناها وشقّها، هم عمّال مترو عاديّين رغم تأكيدات أشخاص كثيرين في السّلطة.

كان أحد هؤلاء الأشخاص المسؤولين يعمل معاون مرشد في قطار كهربائيّ في الأيّام القديمة، ولم يبقَ من هذا النّوع إلّا ما ندر. فكان أولاء الأشخاص موضع احترام كبير لأنّهم أثبتوا أوّلًا أنّهم الوحيدون الّذين استطاعوا إيجاد طريقهم هنا وهناك، ولم يستسلموا للخوف لحظة. وجدوا أنفسهم خارج كبسولات القطار الآمنة والمريحة في أنفاق مترو موسكو المظلمة، في أحشاء العاصمة الحجريّة الكبرى. كان كلّ من في المحطّة يعامل مساعد المرشد باحترام، ويعلّم أولاده أن يفعلوا المثل، وربّما هذا هو السّبب الّذي جعل أرتيوم يتذكّره طوال حياته (رجل نحيل ومنهك، أضعفته سنون طويلة من العمل تحت الأرض. يلبس زيّ عمال المترو الموحّد البالي، الباهت، الّذي فقد مطابقته للزّيّ الحديث وشياكته منذ زمن بعيد، لكنّه كان يرتديه بنفس فخر أدميرال متقاعد حين يلبس زيّ الاستعراض العسكريّ خاصّته) حتّى أرتيوم الّذي كان صغيرًا آنذاك، كان يرى قدرًا من الكرامة والسّلطة في شكل مساعد المرشد العليل.

كان موظفو المترو بالنّسبة للّذين نجوا مثل أدلّاء البعثات العلميّة المحلّيين في الغابات. وكانوا يؤمنون بهم، ويصدّقونهم، ويعتمدون عليهم تمامًا، كما كان بقاء كل شخص آخر على قيد الحياة يعتمد على معرفتهم ومهارتهم. وقد أصبح الكثير منهم رؤساء محطّات حين تفكّك نظام الحكم الاتّحادي، وتبدّل المترو من كيان مركّب للدّفاع المدنيّ، وملجأ ضخم من تساقط الجزئيّات المشعّة، إلى عدد كبير من المحطّات لا ترتبط بسلطة واحدة غارقة في التّشوّش الكلّيّ والفوضى. أصبحت المحطّات مستقلّة، ومكتفية ذاتيًا، وعبارة عن دول قزمة مميّزة بأيديولوجيّاتها وأنظمة حكمها الخاصّة بها، وقادتها وجيوشها. تحاربت تلك المحطّات فيما بينها، وانضمّت إلى شكل من الفيدراليّات والكونفيدراليّات، وأصبحت مراكز مدنيّة لإمبراطوريّة تنشأ اليوم وفي اليوم التّالي تخضع وتُستعمر من قبل أصدقائها السّابقين أو من قبل عبيدها. كانت تشكّل اتّحادات قصيرة الأجل ضدّ تهديد مشترك، لكنّها كانت تنقضّ على بعضها بعضًا مرّة أخرى، وبطاقة متجدّدة في اللّحظة الّتي ينتهي فيها الخطر. تشاجرت حول كلّ شيء بانتهاك كليّ، على أماكن العيش والطعام ومزارع الخميرة الزّلاليّة، ومحصول الفطر الّذي لا يحتاج إلى ضوء الشّمس، وقنن الدّجاج ومزارع الخنازير حيث تُربّى الخنازير تحت أرضيّة، والصّيصان المضعّفة على الفطور تحت أرضيّة والّتي لا لون لها. تقاتلت فيما بينها على الماء طبعًا، وعلى المصافي. البرابرة الّذين لم يعرفوا إصلاح أنظمة التّصفية الّتي أهملت، وكانوا يحتضرون بسبب الماء الّذي تسمّم بالإشعاع، رموا بأنفسهم بهياج حيوانيّ في معاقل الحياة المتحضّرة، والمحطّات الّتي كانت تعمل فيها آلات التّوليد والمحطّات الكهرومائيّة المصنوعة محلّيًا على نحو صحيح، وتُصلّح فيها المصافي، وتُنظّف بانتظام حيث تعتني فيها اليد الأنثويّة، بأرضها الرّطبة الّتي تنقّط بقمم الفطر البيضاء الصّغيرة، وتنخر في حظائرها الخنازير جيّدة الإطعام.

كان هجومهم اليائس اللّانهائيّ مدفوعًا بغريزة الحفاظ على البقاء، وبذلك المبدأ الثوريّ الأبديّ (احتلّ وقسّم) تصدّى المدافعون عن المحطّات النّاجحة بعد أن انتظموا في فرق مستعدّة للقتال بواسطة محترفين عسكريّين، لهجوم المخرّبين حتى

آخر نقطة من دمائهم. واستمرّوا في شنّ هجمات معاكسة، فاستعادوا كل متر من أنفاق المحطّات بالقتال. وجمّعت المحطّات قوّتها العسكريّة لكي تردّ على أيّ غارة بحملات تأديبيّة. ولكي تدفع جيرانها المتحضّرين من الأرض الّتي كانت مهمّة لمدّها بأسباب الحياة، إن لم تنجح في إحراز ذلك في اتّفاقات سلميّة. ولكي توفّر المقاومة بوجه الحثالة الّذين كانوا يتسلّقون، ويخرجون من حفرة ما أو نفق ما في المترو. كانت هذه الحثالة مخلوقات خطيرة وغريبة، ذوو مناظر شاذّة، وأمثالهم يجعلون داروين نفسه يائسًا لعدم انسجامهم الواضح مع قوانين التّطوّر. انقلبت تلك البهائم، الّتي تختلف كثيرا جدًّا عن الحيوانات الّتي اعتاد عليها البشر، من حيوانات مدنيّة مسالمة إلى نسل الجحيم. وتظلّ هذه المخلوقات جزءًا واضحًا من الحياة على الأرض، سواء انبعثوا وتوالدوا تحت أشعّة الشّمس غير المرئيّة والمدمّرة، أو أنّهم استوطنوا في الأعماق دائمًا وتعرضوا لمضايقة البشر الآن. إنّهم مخلوقات مشوّهة وشاذّة، لكنّها جزء من الحياة هنا رغم كلّ ذلك، وتخضع للدّافع نفسه المعروف لكلّ شيء عضويّ على هذا الكوكب (انجُ بحياتك مهما كان الثّمن)

قبل أرتيوم بشرب الشّاي من فنجان أبيض مطليّ، كان يشرب فيه أحيانًا بعض الشّاي المصنوع محلّيًّا. طبعًا لم يكن شايًا حقيقيًّا، وإنّما خليطًا من الفطر المجفّف وإضافات أخرى، فقد كان الشّاي الحقيقيّ نادرًا، وكانوا يوزّعونه بحصص، ويشربونه في العطل الرّسميّة الرّئيسيّة فقط، وسعره أغلى بعشرات المرّات من سعر نقيع الفطر. لكنّهم مع ذلك أحبّوا شراب محطّتهم المخمّر، وكانوا فخورين بتسميته (شايًا). صحيح أنّ الغرباء كانوا يبصقونه أوّل الأمر لأنّهم لم يعتادوا عليه، لكنّهم كانوا يعتادون عليه بسرعة. وقد انتشرت شهرة شايهم وراء حدود محطّاتهم، حتّى أنّ التّجّار كانوا يأتون للحصول عليه واحدًا تلو الآخر مخاطرين بحياتهم. وخلال فترة قصيرة وصل شايهم إلى كلّ خطّ المترو، حتّى عصبة هانسيت بدأت تهتمّ به، وتدحرجت قوافل عظيمة من النّقيع السّحريّ نحو محطّة فدنكه، وبدأ المال يتدفّق. وأينما تكون النّقود، تكون الأسلحة وحطب الوقود والفيتامينات والحياة. بدأت محطّة فدنكه تزداد قوّة منذ أن بدأت بصنع نوع الشّاي نفسه. وانتقل أناس من المحطّات المجاورة إليها، ورُفدت المحطة بمسارات جديدة، ووصل الرخاء والازدهار. كان أهالي فدنكه فخورين بخنازيرهم أيضًا، وشاعت أسطورة مفادها أنّ الخنازير دخلت إلى المترو من هذه المحطّة تحديدًا.

في الماضي، في بدايات الأشياء، حين شقّ متهوّرون طريقهم إلى جناح تربية الخنازير في المعرض، ونجحوا في سوق الحيوانات والعودة بها إلى المحطّة.

اسمع يا أرتيوم: كيف تسير الأمور مع سوخوي؟ سأل أندريه، وهو يشرب شايه في رشفات صغيرة حذرة، وينفخ عليه بعناية.

مع العمّ ساشا، كلّ شيء على أفضل حال. زقد عاد منذ وقت قريب من نزهة على الأقدام في الخطّ مع بعض من شعبنا. كانوا في بعثة، والمحتمل أنّك تعرف.

كان أندريه أكبر من أرتيوم بخمس عشرة سنة. عمومًا لقد كان كشّافا، ونادرًا ما كان يقف في مرصد أقرب من النّقطة أربعمائة وخمسين مترًا، ثمّ بعد ذلك كان آمر

شريط حماية. وضعوه هنا في نقطة الثلاثمائة مترًا مع تغطية جيّدة، لكنّه في الوقت نفسه كان يشعر بحافز على التّوغّل أعمق، واستغلال أيّ عذر أو إنذار خادع للاقتراب أكثر من الظّلام، وأقرب إلى السرّ. كان يحبّ النّفق، ويعرف تفرّعاته وشعابه جيًّدا، وكان يشعر بعدم الارتياح في المحطّة وسط المزارعين، والعمّال، ورجال الأعمال، والإدارة. ويشعر بأنّهم ربّما لا يحتاجون إليه. لم يستطع إقناع نفسه، والاعتياد على حراثة الأرض من أجل الفطر، أو حتى على الأسوأ وهو إطعام الفطر للخنازير في المحطّة والوقوف في الرّوث حتّى ركبه. ولم يستطع العمل كتاجر أيضًا، فهو لم يكن يطيق التّجار منذ يوم ولادته. كان دائمًا جنديًّا ومحاربًا، ويؤمن بكلّ روحه بأنّها مهنته الوحيدة الجديرة به كرجل. كان فخورًا بأنّه لم يفعل أيّ شيء في حياته كلّها سوى الدّفاع عن المزارعين النّتنين، والتّجار النيّقين، والإداريّين الّذين كانوا أقرب إلى رجال الأعمال في مبالغاتهم، والنّساء والأطفال. لقد انجذبت النّساء إلى قوّته المتغطرسة، وثقته التّامّة بنفسه، وشعوره بالهدوء فيما يتعلّق بنفسه والمحيطين به ما بعد نقطة الخمسين مترًا، وراء نقطة التّحوّل، حيث تختفي أضواء المحطّة ولا تلحق به النّساء. لِم لا؟

شعر الآن بالدّفء الجميل نتيجة شرب الشّاي، فأزاح قبّعته (البيريه) السّوداء القديمة عن رأسه، ومسح شاربه الرّطب بسبب البخار بكمّ سترته. وبعدئذ بدأ باستجواب أرتيوم متلهًّفا عن الأخبار والإشاعات من الجنوب الّتي جلبتها آخر حملة قام بها زوج والدة أرتيوم، الرّجل ذاته الّذي انتزع أرتيوم من الجرذان في تيميريازيفيسكايا قبل تسع عشرة سنة، ولم يقدر على ترك الطّفل، فربّاه.

(أنا نفسي ربّما أعرف شيئًا أو شيئين، لكنّي سأصغي باستمتاع ورضا حتّى لو للمرّة الثانية. ما رأيك؟) أصرّ أندريه.

لم يضطّر إلى إضاعة الوقت في إقناعه، فأرتيوم نفسه يستمتع في تذكّر ورواية قصص زوج أمّه من جديد، وأخيراً كلّ واحد كان يصغي إليها بفم مفتوح.

حسنًا، أنت ربّما تعرف أين ذهب... بدأ أرتيوم.

أنا أعرف أنّهم ذهبوا إلى الجنوب. وقاموا بذلك بسرّيّة تامّة، هؤلاء (المتنزّهون) خاصّتك، ضحك أندريه: كانوا في مهمّات خاصّة للإدارة كما تعرف، غمز إلى أحد أهله.

هيّا، لم يكن ثمّة سرّ في ذلك، لوّح أرتيوم بيده رافضًا: كانت البعثة من أجل الاستطلاع وجمع المعلومات... المعلومات الموثوقة، لأنّك لا تستطيع تصديق الغرباء والتّجار الّذين يهزّون ألسنتهم لنا هنا في المحطّة. بمقدورهم أن يكونوا تجّارا، ومهيّجين ينشرون معلومات مضلّلة وخاطئة.

دمدم أندريه:لا يمكنك الوثوق بالتجّار أبدًا، فهم يذهبون إلى الخارج من أجل مصلحتهم. كيف يفترض بك أن تعرف أنّك تثق بأحدهم؟ أو لست كذلك؟ فهو يبيع شايك إلى الهانسا في يوم، وفي اليوم التّالي يبيعك وأحشاءك إلى واحد آخر، وقد يجمعون المعلومات هنا وسطنا. صدقًا أنا شخصيًّا لا أثق بتجّارنا أيضًا.

قال أرتيوم محاولًا الدّفاع عن التّجّار المحليّين: حسنًا، أنت مخطئ باستهداف تجّارنا يا أندريه أركاديتش. فتياننا جيّدون، وأنا أعرف أغلبهم، إنّهم بشر مثل غيرهم تمامًا في أيّ مكان، ويحبّون النّقود أيضًا، ويريدون أن يعيشوا أفضل ممّا يعيش الآخرون، هم يجاهدون نحو شيء ما.

هنا بيت القصيد، وهذا ما أتحدّث عنه بالضّبط، إنّهم يحبّون النّقود ويريدون أن يعيشوا أفضل ممّا يعيش أيّ شخص آخر. من يعرف ماذا يفعلون حين يرحلون داخل النّفق؟ هل تستطيع أن تقول لي إنّك متأكّد أنّ العملاء السّرّيين لا يجنّدوهم في المحطّة التّالية؟ هل تستطيع؟ أم لا؟

أيّ عملاء؟ لأيّ عملاء خضع تجّارنا؟

إليك ما سأقوله يا أرتيوم: أنت ما تزال صغيرًا، وهناك الكثير الّذي لا تعرفه. وعليك أن تصغي إلى الأكبر منك عمرًا، استمع وانتظر وقتا قليلًا آخر.

قال أرتيوم دون أن يتراجع: يجب على أحد ما أن يقوم بعملهم، لولا التجّار لكنّا جالسين الآن هنا بدون مؤن عسكريّة مع بنادق بيردان، وكنّا نقذف الملح على الدّارك ونز، ونشرب شاينا.

حسنًا، حسنًا، لدينا عالم اقتصاد وسطنا... يغلي الآن. من الأفضل أن تخبرنا عمّا رأى سوخوي هناك، ماذا يجري هناك مع الجيران؟ في أليكسيفسكايا؟ في ريجسكايا؟

في أليكسيفسكايا؟ لا شيء جديد. هم يزرعون الفطر. وماهي أليكسيفسكايا بأيّ حال؟ فناء مزرعة، هذا كلّ شيء... هكذا يقولون. أخفض أرتيوم صوته على ضوء سرّيّة المعلومات الّتي كان سيدلي بها: يريدون الانضمام إلينا، وريجسكايا ليست ضدّها أيضًا. إنّهم يواجهون ضغطًا متزايدًا من الجنوب. وهناك مزاج كئيب، الكلّ يهمس عن نوع من التّهديد، والكلّ خائف من شيء ما لا يعرفه أحد. إنّه إمّا نوع من إمبراطوريّة جديدة في نهاية الخطّة البعيدة، أو أنّهم خائفون من أهالي هانسا، ويظنّون أنّهم يريدون التّوسّع، أو إنّ الأمر شيء آخر تمامًا. لقد بدأ الكلّ يلتمس ودّنا، ريجسكايا وأليكسيفيسكايا، كلاهما.

سأل أندريه: لكن ماذا يريدون بعبارات محدّدة؟ ماذا يعرضون؟

يريدون أن ينشؤوا اتّحادا فيدراليًّا معنا له نظام دفاع مشترك، وتقوية الحدود لكلا الطّرفين، ونصب إنارة متواصلة داخل أنفاق المحطّات، وإنشاء قوة شرطيّة، وسدّ الأنفاق الجانبيّة، والدّهاليز، وإطلاق عربات نقل، ومدّ كبل هاتف، واختيار وتعيين أيّ فراغ متاح لزراعة الفطر... ويريدون اقتصادًا مشتركًا يعمل ويساعد بعضه بعضًا عند الضّرورة.

وأين كانوا عندما احتجنا إليهم؟ أين كانوا عندما كانت الهوام تزحف علينا من الحدائق النّباتيّة؟ ومن ميدفيدكوف؟ وأين كانوا لـمّا كان الدّارك ونز يهاجموننا؟ زمجر أندريه.

لا تتحسنا يا أندريه، احذر. تدخّل بيوتر أندريفيتش: لا يوجد دارك ونز هنا في الوقت الحالي، وكلّ شيء على ما يرام. لم نكن نحن من دحرهم. لقد حدث شيء ما من صنع أيديهم، كان شيئًا بينهم. والآن هدؤوا، ربّما يدّخرون قوّتهم، لهذا فإنّ الاتّحاد لن يضرّنا، إن اتّحدنا مع جيراننا سيكون ذلك لمنفعتهم ولمصلحتنا أيضًا.

وسننال الحرّيّة والمساواة، والأخوّة... قال أندريه ساخرًا وهو يعدّ على أصابعه.

سأله أرتيوم باستياء: لماذا لا تريد أن تصغي؟

كلّا، تابع يا أرتيوم، قال أندريه: سنناقش الأمر مع بيوتر لاحقًا، فهذا جدال قديم جدًّا بيننا.

ويقولون إنّ زعيمهم يوافق كما يفترَض، وليس لديه أيّ اعتراضات رئيسيّة، لكن من الضّروري دراسة التّفاصيل. قريبًا سيكون هناك اجتماع مجالس، ومن ثمّ استفتاء شعبيّ.

ماذا تقصد بالاستفتاء؟ إذا قال الشّعب نعم، يتمّ الأمر، وإذا قال لا، فالشّعب عندئذ لم يركّز ويحاول بما يكفي. دعوا الشّعب يفكّر ثانية، هزّأ أندريه.

حسنا يا أرتيوم، وماذا يحدث أبعد من ريجسكايا؟ سأل بيوتر أدريفيتش، غير منتبه لأندريه.

ماذا بعد؟ إنّها محطّة بروسبيكت مير، من المنطقيّ أنّها بروسبيكت مير، تلك حدود عصبة الهانسا. زوج أمّي يقول إنّ كلّ شيء مايزال على حاله بين الهانسا والحمر، لقد حافظوا على السّلام، ولم يعد أحد يفكّر بالحرب بعد الآن، قال أرتيوم.

عصبة الهانسا كان اسم اتّفاق محطّات الخطّ الدّائريّ (الرّينغ لاين)، وتقع هذه المحطّات عند تقاطع كلّ الخطوط الأخرى، ومنه إلى كلّ طرق التّجارة. وقد ربطت الخطوط ببعضها البعض بواسطة أنفاق، وأصبحت مكان اجتماع لرجال الأعمال من كلّ أنحاء المترو. ازداد غنى رجال الأعمال هؤلاء بسرعة خياليّة، وعرفوا سريعًا أنّ ثروتهم كانت تُأجّج حسد الكثيرين، فقرّروا ضمّ قواهم معًا. كان الاسم الرسميّ غير عمليّ أبدًا، لهذا كان لقب الاتّفاق وسط النّاس (بـــالهانسا) قارنه أحد الأشخاص مرّة مع اتّحاد المدن التّجاريّة في ألمانيا في العصور الوسطى، فكان الاختصار جذّابا وثابتًا. في البداية كانت الهانسا تتألّف من بضع محطّات فقط، واكتمل الاتّفاق بالتّدريج. إنّ قسم الرّينغ من كييفسكايا إلى برسبيكت مير، أو ما يسمّى بالقوس الشّماليّ يشمل كورسكايا وتاغانسكايا وأوكتيابرسكايا. بعدئذ انضمّت بافليتسكايا ودوبرينسكايا معًا، وشكّلتا قوسًا آخر، أو القوس الجنوبيّ.

وكان خط سوكول هو العائق الأكبر، والمشكلةَ الأكبر في وجه توحيد القوسين الشّماليّ والجنوبيّ.

أخبرهم أرتيوم أنّ الشّيء، كما سمّاه زوج أمه، خطّ سوكول كان دائمًا نوعًا خاصًّا. فحين تلقي نظرة على الخريطة، يلفت انتباهك على الفور أوّلًا، وقبل كلّ شيء، هو خطّ مستقيم باستقامة السّهم. ثانياً، هو معلّم بلون أحمر ساطع على خرائط المترو.

كما أنّ أسماء محطاته تساهم في ذلك أيضاً: كراسنوسيلسكايا، وكراسني فوروتا، وكومسمولسكايا، وبيبليوتيكا إيمينا، ولينينيسكي غوري. وبسبب هذه الأسماء، أو بسبب شيء آخر كان الخطّ يجذب إليه كلّ من كان يحنّ إلى الماضي السّوفييتيّ المجيد. لقد انتشرت فكرة بعث دولة سوفييتيّة هناك بسهولة، واستولت على النّاس. في البداية عادت محطّة واحدة فقط إلى المثل الشيوعيّة وشكل الحكم الاشتراكيّ، ومن ثمّ تلتها المحطّة الّتي بجانبها، وبعد ذلك سمع النّاس الّذين على الجانب الآخر من النّفق أخبار هذه الثّورة المتفائلة فطردوا إداراتهم، وما إلى ذلك... اجتمع الأحياء من المحاربين القدامى، ورجال الكومسمول السّابقين، وموظّفو الحزب، وأعضاء البروليتاريا الدّائمون كلّهم معًا في محطّات ثوريّة، وأسّسوا لجنة مسؤولة عن نشر وبثّ هذه الثّورة الجديدة وفكرها الشّيوعيّ عبر كلّ أنظمة المترو، تحت اسم من الفترة اللّينينيّة «الانتقاليّة». وجهّزت فرقًا من ثوريّين محترفين، ومروّجين دعائيّين، وأرسلتهم إلى المحطّات المعادية. لقد أُريقت عموماً دماء قليلة، وبما أنّ السّكّان المحرومين الجائعين في خطّ سوكول كانوا متعطّشين لإحياء العدالة كما فهموها بمعزل عن مبدأ المساواة غير العادل، ولم يكن أمامهم أيّ خيار آخر، عندها تحمّس واشتعل كلّ الفرع، من أوّله إلى آخره. وغمره لهيب الثّورة القرمزيّ على الفور، وعادت المحطّات إلى سابق عهدها، إلى الأسماء السوفييتيّة: كريستي برودي أصبحت كيروفسكايا ثانية، وليوبيانكا أصبحت دزيرجينسكايا، وأوختوني رياد أصبحت برسبيكت ماركس، وأعيدت تسمية المحطّات ذات الأسماء الحياديّة بوضوح أيديولوجيّ أكبر: سبورتفنايا أصبحت كوميونيستيشيسكايا، وسوكولينكي أصبحت ستالينسكايا، وبرياوبراجينسكايا بولشتشاد أصبحت زناميا ريفوليوستايا، والخطّ نفسه الّذي كان سوكول في الأيّام القديمة، سمّاه الأغلبيّة الآن «الخطّ الأحمر» اعتاد الموسكوفيون في الأيّام القديمة على تسمية خطوط متروّاتهم بألوانها على الخريطة، أمّا الآن فقد سُمّي الخطّ على نحو رسميّ «الخطّ الأحمر».

لكنّه لم يذهب بعيدًا أبدًا.

حين شكّل الخطّ الأحمر نفسه، وكان لديه أفكار حول نشر نفسه عبر المترو، كان صبر المحطّات الأخرى ينفد بسرعة. وتذكّر الكثير من النّاس في المرحلة السوفييتيّة، ورأى أناسًا كثيرين مهيّجين، أرسلتهم (الإنترستيشنال) في كلّ مكان من المترو مثل ورم خبيث كان ينتشر ويهدّد بقتل كلّ أشكال الحياة. قدّم المهيَّجون والدّعائيّون وعودًا كثيرة بأنّ الكهرباء ستكون موجودة في كلّ المترو، وأنّ النّاس سيكتشفون الشّيوعيّة الحقيقيّة بعد الانضمام إلى السّلطات السّوفييتيّة (و من غير المحتمل أن يكون هذا من شعارات ليني، فقد كان استغلاليًّا جدًّا) لكنّهم لم يستطيعوا إغواء النّاس خارج حدودهم. وأُلقي القبض على واضعي شعارات (الإنترستيشنال) وأعيدوا إلى الأراضي السوفييتيّة. بعدئذ قرّرت قيادة الحمر أنّ الوقت حان للتصرّف بعزم وتصميم أكبر، إذا لم تتبنّى بقيّة محطات المترو شعلة الثّورة البهيجة، فإنّها ستحتاج إلى إشعال من الأسفل. ووصلت المحطّات المجاورة القلقة حول تقوية الدّعاية الشّيوعيّ إلى الاستنتاج نفسه أيضًا. إنّ التّجربة التّاريخيّة تُبرهن

على نحو جيّد على أنّه ليس هناك طريقة أفضل من الحرب لحقن عصيّات الشيوعيّة في داخل المنطقة.

ودوّى الرّعد...

اخترق تحالف المحطّات الشّيوعيّة المعادي الّذي توجّهه هانسا الخطّ الأحمر، وأراد إغلاق دائرة الرّينغ. ولم يتوقّع الحمر طبعًا مقاومة منظّمة، وبالغوا في تقدير قوّتهم الخاصّة، لكنّهم لم يروا الانتصار السّهل الّذي توقّعوه حتّى في المستقبل البعيد. لقد تبيّن لهم أنّ الحرب ستكون طويلة، ودامية. واستمرت الحرب ببطء، في حين لم يكن سكّان المترو بهذه العدد، واستمرّت لمدّة سنة ونصف تقريبًا، وتألّفت في المقام الأوّل من معارك من أجل موقع ما، وشملت غارات عصابات صغيرة، وهجمات مضلّلة، وبناء متاريس في الأنفاق، وإعدام الأسرى، وأنواع عديدة من الأعمال الوحشيّة الأخرى الّتي ارتكبها الجانبان.

لقد حدث كلّ شيء: عمليات عسكريّة، وتطويق، واختراق التّطويق، وأعمال بطوليّة متنوّعة، وكان ثمّة قادة وأبطال وخونة، لكنّ الميزة الرئيسيّة لهذه الحرب أنّ أيًّا من الطّرفين المتحاربين لم يستطع زحزحة خطّ الجبهة إلى أيّ مسافة مهمّة.

أحيانًا، كان أحد الطرفين يكسب حدًّا ويستولي على محطّة متاخمة، لكن خصمه يقاوم ويعبّئ قوّات إضافيّة، فتنقلب الموازين للطّرف الآخر.

لكنّ الحرب أنهكت الموارد، واجتثّت أفضل النّاس. لقد كانت حربًا مرهقة عموماً، وازداد ضجر الّذين نجوا منها. واستبدلت الحكومات الثّوريّة ببراعة مشاكلها الأوليّة بأخرى أكثر تواضعًا. ففي البداية كانت تجاهد من أجل توزيع السّلطة الاشتراكيّة والأفكار الشّيوعيّة على كلّ جزء تحت الأرض، أمّا الآن فلم يعد يريد الحمر سوى السّيطرة على ما رأوا أنّه الحرم الدّاخليّ (المحطّة الّتي تدعى ساحة الثّورة) بسبب اسمها أوّلًا، والسّبب الثّاني هو كونها أقرب من أيّ محطّة أخرى في المترو إلى السّاحة الحمراء والكرملين الّذي لاتزال أبراجه مزيّنة بالنّجوم الياقوتيّة. إن صدق الرّجال الشّجعان الّذين كانوا أقوياء أيديولوجيًّا، واخترقوا السّطح ليتفرّجوا عليها فقط، ويوجد بالطّبع على السّطح قرب الكرملين، وفي وسط السّاحة الحمراء تمامًا، ضريح لينين. لكنّ أحدًا لا يعرف إن كان الجسد مايزال فيه، وهذا لم يكن مهمًّا فعليًّا، فمنذ سنوات كثيرة خلال الفترة السّوفييتيّة لم يعد الضّريح قبرًا، وإنّما أصبح مزارها الخاصّ ورمزًا مقدّسا لاستمرار سلطتها.

القادة العظام كانوا يقيمون استعراضاتهم هناك، ويتوق القادة الحاليّون إليه. ويقولون أيضًا إنّ هناك ممرّات سرّيّة من مكاتب محطّة ساحة الثّورة إلى مختبرات الضّريح الخفيّة الّتي تؤدّي مباشرة إلى التّابوت نفسه.

ومايزال الحمر يسيطرون على ماركس بروسبيكت (أوختونيا رياد سابقًا) الّتي حُصّنت وأصبحت قاعدة تنطلق منها هجمات على ساحة الثّورة. لقد باركت قيادة الثّورة أكثر من حملة صليبيّة، وأرسلتهم لتحرّر هذه المحطّة وقبرَها، لكنّ المدافعين عنها أدركوا معناها وأهميّتها بالنّسبة للحمر، فدافعوا عنها حتّى آخر رمق. وقد

تحوّلت ساحة الثورة إلى قلعة لا يمكن الاقتراب منها، وجرت أغلب المعارك الدّامية والقاسية قرب المحطّة، فقد قُتِل العدد الأكبر من النّاس هناك. كان في تلك المعارك الكثير من البطولات، هؤلاء الّذين تصدّوا للرّصاص بصدورهم، والرّجال الشّجعان الّذين ربطوا القنابل بأجسادهم ليفجّروا أنفسهم معًا عند نقطة مدفعيّة العدو، وهؤلاء الّذين استخدموا قواذف اللّهب المحرّمة ضدّ النّاس... كلّ ذلك لم يجدِ نفعًا. استردّوا المحطّة لمدّة يوم واحد، لكنّهم لم ينجحوا في تحصينها، فدُحروا وتراجعوا في اليوم التّالي حين عاد التّحالف بهجوم معاكس.

حدث الشّيء ذاته في مكتبة لينين حيث كانت «قلعة» الحمر، وحاولت قوّات التّحالف الاستيلاء عليها على نحو متكرّر. لما للمحطّة من قيمة استراتيجيّة هائلة، فهي تقسم الخطّ الأحمر إلى قسمين، وبعد ذلك يكون لديهم ممرّ مباشر إلى الخطوط الثّلاثة الأخرى الّتي لا يتقاطع الخطّ الأحمر معها في أيّ مكان آخر. كانت المكانَ الوحيد، كانت مثل غدّة لمفاويّة أصيبت بالطّاعون الأحمر الّذي سينتشر بعد ذلك في كلّ جزء من جسد الكائن الحيّ. ولمنع هذا، كان عليهم أن يستولوا على مكتبة لينين بأيّ ثمن.

لكنّ جهود التّحالف لطردهم من مكتبة لينين كانت عقيمة مثل محاولات الحمر الفاشلة للاستيلاء على ساحة الثورة تمامًا. وفي هذا الوقت ضجر النّاس من القتال، فانتشر الفرار من الجنديّة، وكان هناك عدد من حوادث التّآخي بين الجنود من كلا الطّرفين، ألقوا فيها أسلحتهم عند المواجهة...

ولكن بخلاف الحرب العالميّة الأولى لم يكسب الحمر أيّ فائدة، وأخفق فتيلهم الثّوريّ بهدوء بعد بدايته المبشّرة، ولم يكن إنجاز التّحالف أفضل، فقد استاء النّاس من البقاء في خوف دائم، فحملوا أنفسهم ورحلوا في جماعات عائليّة كاملة من المحطّات المركزيّة إلى المحطّات الخارجيّة، وبذلك فرغت الهانسا وضعفت. كان أثر الحرب على التّجارة سيّئًا جدًّا، حيث وجد التّجّار وسائل أخرى حول شبكة المترو والطّرق التّجاريّة الهامّة، لأنّها كانت فارغة وهادئة. فاضطرّ السّياسيّون المدعومون من عدد قليل جدًّا من الجنود إلى إيجاد طريقة لإنهاء الحرب فورًا قبل أن تنقلب البنادق ضدّهم. ولهذا، وتحت أصعب الظّروف السّرّيّة، وفي محطّة محايدة بالضّرورة، التقى الطّرفان المتخاصمان، رئيس هانسا لوغينوف، ورئيس اتّحاد أربات الكونفيدراليّ كولباكوف. وقّعا اتفاقيّة سلام بسرعة، وتبادل الفريقان بعض المحطّات، فتسلّم أهل الخطّ الأحمر ساحة الثّورة المدمّرة، لكنّهم تنازلوا عن مكتبة لينين لاتّحاد أربات الكونفيدراليّ. لم تكن خطوة سهلة بالنّسبة لكلا الطّرفين، حيث خسر الاتّحاد الفيدراليّ واحدًا من أقسامه الّذي من خلاله كان له تأثير على الشّمال الغربيّ. وأصبح الخطّ الأحمر مقطّعا فقد باتت هناك محطّة في وسطه لا تخصّه، قسمته إلى نصفين. فتكفّل الطّرفان لبعضهما بحقّ الآخر في العبور الحرّ عبر أراضيه السّابقة. لكنّ هذا الوضع لم يساعد، وإنّما أزعج الحمر. ولكنّ الاقتراح الّذي قدّمه التّحالف كان مغريًا جدًّا، ولم يرفضه الخطّ الأحمر. وقد كسبت هانسا أكثر من فائدة واحدة من الاتّفاق طبعًا، لأنّها استطاعت إغلاق الحلقة وإزالة العقبات النّهائيّة أمام ازدهارها ونجاحها الاقتصاديّ.

واتفقوا أيضًا على مراعاة الوضع القائم، ومنع توجيه الدّعاية والنّشاطات التّخريبيّة في أراضي الخصم. ورضي الطّرفان بذلك. والآن، حين صمتت المدافع، وصمت السّياسيّون، ظهر دور مروّجي الدّعاية ليعلّلوا للجماهير أنّ جانبهم نجح، وأظهر مقدرة دبلوماسيّة فذّة، وأنّهم كسبوا الحرب جوهريًّا.

مرّت السّنون، ومنذ ذلك اليوم الجديد بالذّكر، الّذي وقّعت فيه اتفاقيّة السّلام، لوحظ من كلا الفريقين أيضًا، أنّ هانسا وجدت في الخطّ الأحمر شريكًا اقتصاديًّا محبّبًا، وأنّ الأخير ترك نواياه العدوانيّة وراءه. وأثبت الرّفيق موسكفين الأمين العام للحزب الشيوعيّ في مترو موسكو المدعو ف. أ. لينين، إمكانيّة بناء الشّيوعيّة في خطّ مترو منفصل واحد، ونُسيت العداوة القديمة.

تذكّر أرتيوم هذا الدّرس في التّاريخ الحديث جيّدًا، حين جاهد ليتذكّر كلّ شيء أخبره به زوج أمّه.

قال بيتر أندريفيتش: جيّد أنّ المذبحة توقّفت، فقد كان الذّهاب إلى أيّ مكان قريب من الحلقة مستحيلًا، واستمرّ ذلك مدّة سنة ونصف، كانت هناك شرطة حماية في كلّ مكان، وكانوا يفتّشون وثائقك مئات المرّات. وكان عندي معاملات هناك في ذلك الوقت، ولم يكن سوى طريق واحد للذّهاب هو الطّريق عبر هانسا. أوقفوني عند بروسبيكت مير تمامًا، ووضعوني بمواجهة جدار.

أنتَ لم تخبرنا قطّ عن هذا يا بيوتر، كيف سارت الأمور، ونجحت؟ كان أندريه مهتمًّا.

استرخى أرتيوم قليلًا لـمّا رأى أنّ كشّاف القصاص قد ذهب من يديه، لكنّه قرر أن يظلّ مهتمًّا، ومشاركًا. لهذا لم يزعج نفسه ويقاطعه.

حسناً، كان الأمر بسيطًا جدًّا، اعتبروني جاسوسًا أحمر، خرجت من النّفق عند بروسبيكت مير إلى جانب خطّنا. كانت بروسبيكت تحت هانسا أيضاً، أي ملحقة بها. ولم تكن الأمور صارمة بعد، وكان لديهم سوق هناك (منطقة تجاريّة) وكما تعرف كيف كان الحال في كلّ مكان في هانسا. كانت محطّات الرّينغ تشكّل شيئًا مثل أراضيها الدّاخليّة، ومعابر التّنقّل من محطّات الرّينغ مثل أنصاف أقطار دائرة. وقد وُضعت رسوم جمركية، ومراكز لضبط جوازات السّفر هناك...

هيّا، كلّنا نعرف ذلك، بماذا تحاضر بنا؟ أخبرنا ماذا حدث لك هناك بدلًا منه، قاطعه أندريه.

(ضبط الجوازات)، كرّر بيوتر أندريفيتش وهو يشدّ حاجبيه معًا، ويعبس، مصممًّا أن يسجّل نقطة (في المحطّات نصف القطريّة، لديهم أسواق شرقيّة، يُسمح بوجود الأجانب فيها، لكنّك لا تستطيع عبور الحدود ولا بأيّ شكل. خرجت إلى بروسبيكت مير وكان لديّ نصف كيلو من الشّاي، وكنت محتاجًا إلى بعض الذّخيرة لبندقيّتي. فكّرت أن أقايض وتبيّن لي أنّهم تحت قانون عرفيّ لا يسمحون بموجبه بخروج أيّ مؤونة عسكريّة. ومع ذلك سألت أحد الأشخاص، ثمّ سألت غيره وغيره، فاعتذروا كلّهم، وابتعدوا عنّي. همس لي واحد فقط منهم: أيّ ذخيرة أيّها المغفّل؟ انصرف من

هنا بسرعة، ربّما بلغوا عنك مسبقًا. شكرته، واتجهت بهدوء عائدًا إلى داخل النّفق. وعند المخرج تمامًا، أوقفتني دوريّة، ودوّت الصّفّارات من المحطّة، وركض عناصر إحدى المفارز نحونا. طلبوا منّي ثبوتيّاتي، فأعطيتهم جواز سفري مع خاتم محطّتنا. نظروا إليه بحرص وسألوا: وأين جواز

مرورك؟ أجبت باندهاش: أيّ جواز مرور؟! تبيّن لي أنّه لكي تصل إلى المحطة، عليك أن تحصل على جواز مرور. وقرب مخرج النّفق هناك طاولة صغيرة ومكتب، يدقّقون فيه بهويّتك ويُصدرون جواز مرور في حالة الضّرورة. هم غارقون حتى آذانهم في البيروقراطيّة، الجرذان...

لا أعرف كيف نجحت في تجاوز تلك الطّاولة، ولماذا لم يوقفني هؤلاء الحمقى. والآن، أنا الوحيد الّذي عليّ أن أشرح نفسي للدّوريّة. وقف الحارس ذو الرّأس العضليّ بجمجمته الحليقة، وتمويهه، وقال: لقد انسلّ، لقد تسلّل، زحف... قلّب أكثرَ في جواز سفري، فرأى خاتم سوكول هناك. فقد عشت هناك في وقت مضى في سوكول... رأى الختم وامتلأت عيناه بالدّم، مثل ثور يرى لونا أحمر، هزّ بندقيّته من كتفه وزأر: ضع يديك فوق رأسك أيّها الحثالة. لقد ظهر مستوى تدريبه على الفور. أمسك بي من مؤخّرة عنقي، وجرّني عبر المحطّة كلّها، وأخذني إلى رئيسه في نقطة العبور، وقال مهدّدًا: انتظر هنا، وكلّ ما أحتاجه هو الحصول على إذن من الآمر. قف مواجه الجدار أيّها الجاسوس. كاد أن يغمى عليّ، حاولت تبرئة نفسي فقلت: أيّ نوع من الجواسيس أنا؟ أنا رجل أعمال، جلبت بعض الشّاي من فدنكه.

وأجابني بأنّه سيحشو فمي ويملأه بالشّاي، ويدكّه بسبطانة بندقيّته. رأيت أنّني لم أكن مقنعًا جدًّا. وإن أعطاه ضبّاطه الأعلى منه موافقتهم، فإنّه سيقودني إلى نقطة الألفي متر، ويضع وجهي إلى الأنابيب، ويملأ جسدي ثقوبًا برصاصه تماشيًا مع قوانين الحرب. لم تكن الأمور جيّدة قطّ، فكّرت عندما اقتربنا من نقطة جوازات المرور، وبدأ رأسي القويّ يفكّر في أفضل مكان يُطلق النّار فيه عليّ. نظرت إلى رئيسه فإذا بحمل ثقيل يسقط من فوق أكتافي، لقد كان باشكا فيدوتوف زميل مدرستي سابقًا، وبقينا أصدقاء حتّى ما بعد المدرسة، ومن ثمّ فقدنا أثر بعضنا بعضًا.

حسنًا، اللّعنة، لقد أرعبتني، ظننت أنّك انتهيت، وأنّهم سيقتلونك، قال أندريه الّذي تدخّل بحقد. فانفجر ضاحكًا هو وكلّ الرّجال الّذين تجمّعوا حول موقد النّار في المتر أربعمائة وخمسين.

حتّى بيوتر أندريفيتش نفسه، الّذي حدّق بغضب في أندريه، لم يستطع أن يمنع نفسه عن الابتسام. وعلا صوت الضّحك عبر النّفق، وولد في مكان ما في الأعماق، صدى مشوّها، كان عبارة عن صراخ مشؤوم. صوته لا يشبه أيّ شيء، فصمت الكلّ عند سماعه واحدًا تلو الآخر.

من أعماق النّفق، من الشّمال، كانت الأصوات المريبة أكثر وضوحًا الآن، كان هناك خشخشة، وخطى متناغمة خفيفة.

وأندريه أوّل من سمعها طبعًا، سكت على الفور، ولوّح بيده ليشير للآخرين أن يهدؤوا أيضًا. والتقط بندقيّته الآليّة من على الأرض، وقفز من المكان الّذي كان جالسًا فيه.

فكّ رباط الأمان ببطء، ولقّم خرطوشة، كان ظهره للجدار، ثمّ انتقل بصمت من جانب الموقد إلى داخل النّفق. نهض أرتيوم أيضًا وكان متشوّقًا ليرى من فقده في المرّة السّابقة، لكن أندريه استدار وعبس في وجهه بغضب. وقف عند حدّ الظّلام، ووضع بندقيّته على كتفه، ثمّ انبطح وهو يصيح: أعطوني مصباحًا.

أحد فتيانه كان يحمل مصباح بطاريّات جبّار، جُمع من مصابيح أماميّة لسيّارات قديمة، فأناره. شقّ الشّعاع السّاطع الظّلام، وانتزع منه صورة ظليلة مشوّشة ظهرت على الأرض لمدّة ثانية واحدة. كان شيئًا ما، صغيرًا، شيء منظره غير مخيف في الواقع، شيء اندفع للوراء بقوّة باتّجاه الشّمال.

لم يستطع أرتيوم أن يكبح نفسه، فصاح: أطلق النّار، إنّه يهرب.

لكنّ أندريه لم يطلق النّار لسبب ما. نهض بيوتر أندريفيتش أيضًا محافظًا على جاهزيّة بندقيّته، وصرخ ضاحكًا: أندريوخا، هل مازلت حيًّا؟

همس الفتيان المتحلّقين حول موقد النّار في هلع، لـمّا سمعوا أندريه يعيد لوحة أمان البندقيّة إلى مكانها. أخيرا ظهر أندريه في ضوء المصباح ينفض التّراب عن سترته.

نعم أنا حيّ، أنا حيّ.

لِم أنت مندهش؟ سأله بيوتر أندريفيتش بارتياب.

له ثلاثة أقدام ورأسان... المتحوّلون، إنّ الدّارك ونز هنا، سيقطعون رقبتك، أطلقوا النّار وإلّا فسوف يهربون، لابدّ أنّ ثمّة الكثير منهم، لابدّ. استمرّ أندريه في الضّحك.

لماذا لم تطلق النّار؟ جميل أنّ فتاي لم يفعل، لأنّه صغير ربّما، هل فهمتم الأمر؟ أمّا أنت فلماذا أفسدت الأمر؟ أنت لست جديدًا على هذا، وتعرف ماذا حدث في بولجيفايسكايا، سأل بيوتر أندرييفتش بغضب لـمّا عاد أندريه إلى الموقد.

أجاب أندريه منزعجًا: نعم، سمعت عن بوليجايفسكايا عشرات المرّات، لقد كان كلبًا، جروًا وليس كلبًا حتّى، إنّها المرّة الثّانية الّتي يقترب فيها من الموقد، إلى الحرارة والضّوء. أنت أخرجته، وتسألني الآن لماذا كنت لطيفًا جدًّا؟ يا قصّابين.

كيف لي أن أعرف أنّه كان كلبًا؟ قال أرتيوم مستاءً. لقد صدرت منه تلك الأصوات، وبالإضافة إلى ذلك كانوا يتحدّثون عن رؤية جرذ بحجم الخنزير قبل أسبوع.

أنت تصدّق الخرافات، انتظر ثانية واحدة وسأجلب لك جرذًا، قال أندريه، ثمّ قذف بندقيّته على كتفه، ومشى إلى داخل الظّلام.

وبعد دقيقة واحدة، سمعوا صفيرًا ناعمًا قادمًا من ناحية الظّلام، ثمّ نادى صوت حنون ملاطف: تعال إلى هنا، تعال أيّها الصّغير، لا تخف.

لقد أمضى وقتًا طويلًا في إقناعه، أمضى حوالي عشر دقائق وهو يناديه ويصفر له. وأخيرًا ظهر من جديد في النّفق.

عاد إلى الموقد، ثمّ ابتسم مبتهجًا بالنّصر عندما فتح سترته، وسقط منها جرو على الأرض. كان مبلّلًا ومثيراً للشّفقة، وقذرًا على نحو لا يُحتمل، له فرو ملبّد، ول ونه مميّز، وعيناه سودوتان يملؤهما الرّعب، وأذناه مسطّحتان.

وحين لامس الأرض حاول الهرب مباشرة، لكنّ يد أندريه القويّة أمسكته، وثبّتته في مكانه. رَبت بيده على رأسه، وخلع سترته وغطّى الكلب الصّغير.

الجرو بحاجة للدّفء، شرح قائلًا.

هيّا يا أندريه، إنّه كيس قمل، قال بيوتر أندريفيتش محاولًا أن يعيد أندريه إلى قواه العقليّة، ويمكن أن يكون فيه دود حتّى. وعمومًا يمكن أن تلتقط منه مرضًا معديًا، وتنشره في كلّ أرجاء المحطّة.

حسنا يا بيوتر، هذا يكفي، توقّف عن النّحيب، وانظر إليه فحسب. وجرّ أطراف سترته ليُظهر لبيوتر أنف الجرو الّذي كان يرتعش إمّا من الخوف أو من البرد. انظر إلى العينين، هاتان العينان لا تكذبان أبدًا.

نظر بيوتر أندرييفيتش إلى الجرو بريبة، كانت عيناه خائفتين لكنّهما صادقتان بلا شكّ، لقد لانَ بيوتر أندرييفيتش قليلًا.

حسنًا، أنت محبّ للطّبيعة. انتظر، سأجد شيئًا ما له ليأكله، دمدم وبدأ يفتّش في حقيبة الظّهر الخاصّة به.

ألقِ نظرة، ألقِ نظرة، فأنت لا تعرف أبدًا، ربّما يصير شيئًا مفيدًا، فقد يكون كلب جيرمان شيبرد مثلًا، قال أندريه، ونقل السّترة الّتي تحتوي الجرو إلى القرب من الموقد.

لكن ما المكان الّذي يمكن لجرو أن يأتي منه، ويصل هنا؟ ليس هناك بشر في تلك الجهة سوى الدّارك ونز. هل يربّي الدّارك ونز الكلاب؟ سأل أحد رجال أندريه وهو ينظر بريبة إلى الجرو الّذي أصابه النّعاس من الحرارة. وكان المتكلّم رجلًا نحيلًا، وشعره أشعث، ولم يكن قد قال شيئًا حتّى هذه اللّحظة.

أنت محقّ طبعًا يا كيريل، ردّ أندريه بجدّية: إنّ الدّارك ونز لا يربّون الحيوانات الأليفة حسب معرفتي.

حسنًا، كيف تعيش إذن؟ ماذا تأكل؟ سأل رجل آخر وهو يحكّ ذقنه غير الحليقة بصوت مفرقع كهربائيّ خفيف.

كان رجلًا ضخمًا، قسّته المعارك على نحو واضح، وله كتفان عريضان وسميكان، ورأسه حليق تمامًا، يلبس عباءة جلديّة طويلة مخيطة على نحو جيّد يندر وجودها في هذا الزّمن.

ماذا تأكل؟ يقولون إنّها تأكل كل أنواع النّفايات، تأكل الجيف، تأكل الجرذان، تأكل البشر، فهي ليست صعبة الإرضاء كما تعرف، ردّ أندريه لاويًا وجهه في اشمئزاز.

آكلة لحوم البشر؟ سأل الرّجل ذو الرّأس الحليق دون أيّ أثر للدّهشة، وبدا كما لو أنّه صادف آكلي لحوم بشر من قبل.

آكلو لحوم البشر، هم ليسوا بشرًا حتّى، ولا موتى. من يعرف من هم؟ الشّيء الجيّد أنّهم لا يملكون أسلحة، لهذا نحن قادرون على اتّقاء شرّهم، وردّ خطرهم في الوقت الحالي. هل تذكر يا بيوتر لـمّا نجحنا في أسر واحد منهم قبل ستّة أشهر؟

نعم أذكر، تكلّم بيوتر أندريفيتش بصوت عال: لقد جلس في سجننا لمدّة أسبوعين، لم يشرب من مائنا، ولم يلمس طعامنا، وبعد ذلك نفق.

ألم تستجوبه؟ سأل الرجل.

لم يفهم كلمة واحدة ممّا نقول في لغتنا، تكلّموا معه بلغة روسيّة بسيطة، وظلّ صامتًا هادئاً طوال الوقت، وكأنّ فمه مملوء بالماء. ضربوه ولم يقل شيئًا، وأعطوه طعامًا يأكله ولم يقل شيئًا. كان يدمدم كلامًا ما كلّ برهة، وصار يعوي بصوت عال قبل أن يموت، لدرجة أنّه أيقظ كلّ من في المحطّة.

إذًا كيف وصل الكلب إلى هنا، على كلّ حال؟ ذكّرهم كيريل.

ومن يعرف كيف وصل إلى هنا؟ ربّما هرب منهم، ربّما أرادوا أن يأكلوه. وإنّ المسافة من هناك إلى هنا كيلومتران، أفلا يستطيع الكلب الرّكض لتلك المسافة؟ وربّما تعود ملكيّته إلى شخص ما، ربّما جاء أحد ما من الشّمال ووقع بين أيدي الدّارك ونز، ونجح كلبه الصّغير في الهرب. لا يهمّ كيف وصل إلى هنا بأيّ حال. انظر إليه بنفسك، هل يبدو كمسخ؟ هل يبدو كمتحوّل؟ لا، إنّه جرو صغير، لا شيء مميز أو مخيف فيه. وهو ينجذب إلى البشر، وهذا يعني أنّه معتاد علينا وإلّا لماذا حاول ثلاث مرّات الاقتراب من النّار؟

ظلّ كيريل صامتًا يفكّر بالحجّة، بينما ملأ بيوتر أندرييفتش غلّايته بماء من العلبة الصّغيرة، وسأل: هل يريد أحد منكم المزيد من الشّاي؟ دعونا نشرب فنجانًا ختاميًّا، فقريبًا سيحين وقت تبديل نوبتنا.

شاي، بما أنّكم تتحدّثون الآن، فلنشرب بعض الشّاي، قال أندريه. ابتهج الآخرون للفكرة أيضًا.

بدأ الماء في الغلّاية يغلي، وصبّ بيرتر أندريفيتش فنجانًا آخر لمن طلب الشّاي.

أنتم أيّها الفتيان، ليس هناك أيّ فائدة من الحديث عن الدّارك ونز الأشرار، ففي آخر مرّة كنّا نتحدّث عنهم بمثل هذه الطّريقة زحفوا علينا. وقد أخبرني فتيان آخرون أنّ الشّيء نفسه حدث لهم. ربّما كان الأمر مجرّد مصادفة وأنا لا أؤمن بالخرافات، لكن ماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ ماذا لو كانوا يستطيعون الإحساس بذلك؟ ونوبتنا تكاد تنتهي، فما حاجتنا لهذه الخدع في اللّحظة الأخيرة؟

نعم، فعلا، إنّها لا تستحق على الأرجح، أثنى عليه أرتيوم.

حسنًا، ذلك يكفي يا رجل، لا تُحبّط معنوياتنا بخوفك، سوف نصل هناك في النّهاية، قال أندريه محاولًا تشجيع أرتيوم، لكنّه لم ينجح في إقناعه حقيقة. إنّ مجرّد فكرة الدّارك ونز الأشرار كانت ترسل رعشة بغيضة في كلّ واحد، بمن فيهم أندريه رغم محاولته إخفاء ذلك. ولم يكن يخاف من البشر أيًّا كان نوعهم، لم يكن يخاف من قُطّاع الطّرق أو الفوضويّين السّفّاحين، أو حتّى جنود الجيش الأحمر. لكنّ الكائنات الّتي لا تموت تُثير اشمئزازه، لم يكن يخافها، وإنّما لا يستطيع أن يبقى هادئًا عندما يفكّر بها، أو بأيّ خطر آخر في الواقع.

سكت الجميع، وخيّم صمت ثقيل قاس على الرّجال الّذين تجمّعوا حول الموقد. كانت عُقد زنود الحطب الّتي في الموقد تُطقطق، وإلى الشّمال يمكن سماع صوت نقيق مكتوم عميق من حين لآخر في مكان بعيد، في النفق، كما لو أنّ مترو موسكو كان مصرانًا عملاقًا لمسخ غير معروف، إنّ هذه الأصوات كانت مرعبة حقًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني: الصيّاد

بدأت كلّ أنواع التّرّهات تملأ رأس أرتيوم مرّة أخرى، الدّارك ونز... لقد صادف تلك المخلوقات غير البشريّة اللّعينة مرّة واحدة فقط أثناء حراسته، وأصابه الفزع على نحو سخيف. ولكن كيف يمكنه أن لا يخاف ويفزع إذ بينما أنت جالس هناك تحرس، وتُنشد الدّفء بجانب النّار، تسمع فجأة، من مكان ما في أعماق النّفق، قرعَ أجراس منتظمًا وبليدًا. يأتي أوّلًا من مسافة بعيدة، هادئًا، ثمّ يقترب أكثر، ويعلو الصّوت أكثر. وفجأة، يضرب سمعَك ولولة مقبرة رهيبة وتقترب أكثر، ثمّ تشويش تام... فيثب الكلّ بسرعة، ويكدّسون أكياس الرّمل وصناديق الشّحن، لتكون سدًّا وحاجزًا يختبئون خلفه، ويصيح أقدم واحد فيهم بكلّ قوّته، وبأعلى صوته: (إنذار)

فسرعان ما تأتي قوّات الاحتياط من المحطّة لتقديم العون في المتر ثلاثمائة الّذي يمتصّ الضّربة الرّئيسيّة. وتزيل الغطاء عن مدفعها الرّشّاش، ويلقي المقاتلون بأنفسهم على الأرض خلف أكياس الرّمل، ويوجّهون بنادقهم إلى فم النّفق، ويسدّدون على أهدافهم... وينتظرون اقتراب الدّارك ونز. وأخيرًا يُشعلون ضوء المصباح الكشّاف فتظهر صور ظليلة مشوّشة غريبة في شعاعه. إنّهم عراة يغطّيهم جلد أسود لمّاع، ولهم عيون واسعة وأفواه مثل جروح عميقة غائرة. يمشون بخطى واسعة متناغمة للأمام، نحو التّحصينات والموت، في تهتّك طائش، دون ارتجاف أو خوف، ويقتربون أكثر فأكثر، إنّهم ثلاث بهائم، خمس... ثمان... قذف أوّلهم رأسه للوراء فجأة، وأطلق عواء يشبه موسيقى قدّاس الموتى.

حينها، تشعر بالرّعشة في كلّ جلدك، فتقاوم الحافز الّذي يحثّك على أن تقفز وتهرب، وتُلقي بندقيّتك جانبًا، وتترك رفاقك، وتتخلّى عنهم، وترمي بكلّ شيء إلى الشّيطان وتهرب. يوجّهون الكشّاف ويسلّطونه على أنوف هذه المخلوقات الكابوسيّة وأفواهها، فيصيب الضّوء السّاطع أحداق عيونها لكنّها لا تغمض أو ترمش، أو تحرّك أيديها لتغطّي عيونها، بل تنظر إلى المصباح الكشّاف بعيون مفتوحة، وتواصل التحرّك بثبات إلى الأمام.

فهل لعيونها أحداق؟

وأخيرًا تجمّع الفتيان في المتر ثلاثمائة، ومعهم بنادق رشّاشة وقد استلقوا بجانب بعضهم، ورفرفت الأوامر فوق الرّؤوس، كلّ شيء جاهز، ودوّى الأمر الّذي طال انتظاره (أطلقوا النّار). فرقعت أصوات بنادق كثيرة، ودوّى المدفع الرّشّاش على الفور، لكنّ الدّارك ونز لم يتوقّفوا أو ينحنوا. بل مشوا بخطى واسعة إلى الأمام، وبقامات منتصبة تمامًا دون حتّى أن يخفّفوا من سرعتهم، وبثبات وهدوء كالسّابق. لقد رأينا على ضوء الكشّاف، كيف كانت الطّلقات تمزّق أجسادهم اللّمّاعة، وكيف كانوا يُدفعون للخلف ويسقطون. لكنّهم كانوا يقفون ثانية وينهضون بقامات منتصبة، ويواصلون التقدّم. ويرنّ صوت عويل شرّير أجشّ مرّة أخرى الآن بعد أن ثقّب الرّصاص رقابهم. سوف تنقضي عدّة دقائق أخرى، حتّى تكسر العاصفة الحديديّة

هذا العناد اللاإنساني غير العاقل. وبعد ذلك أجهز الفتيان على تلك الغيلان بعد أن سقطت بلا نفس أو حراك بطلقات في الرّأس من مسافة خمسة أمتار للتأكّد من فنائها. وبعدما انتهى كلّ شيء، وألقيت الجثث في القناة الأنبوب، تظلّ تلك الصورة الشّرّيرة تحوم أمام عينيك لوقت طويل. رصاصات تغطس داخل تلك الأجساد السّود، ومصباح يحرق تلك العيون المفتوحة، لكنّهم ظلّوا يتقدّمون بثبات كالسّابق دائمًا.

تشنّج أرتيوم من الفكرة، وقال لنفسه: نعم من الأفضل عدم التحدّث عنهم، إلّا عند الضّرورة فقط.

هيه، أندريفيتش، استعدّوا نحن في طريقنا. صاحوا من الجنوب، من الظلام: انتهت نوبتكم.

بدأ الرّجال بجانب الموقد بالتّحرّك، وقد تخلّصوا من سباتهم. فوقفوا على أقدامهم، ومطّوا أطرافهم، ولبسوا حقائب الظّهر، وعلّقوا أسلحتهم على ظهورهم، والتقط أندريه الجرو الصّغير. عاد بيوتر أندريفتش وأرتيوم إلى المحطّة. أمّا أندريه ورجاله، فعادوا إلى المتر ثلاثمائة لأنّ نوبتهم لم تنته بعد.

تقدّم بدلاؤهم وتصافحوا وتحقّقوا من عدم حدوث أيّ شيء غريب أو مميّز، وتمنّوا لبعضهم الرّاحة الّتي يستحقّون، وجلسوا في موضع أقرب إلى الموقد، واستمرّوا في محادثتهم الّتي بدؤوها في وقت سابق.

بعد أن توجّهوا نحو الجنوب، وساروا في النّفق إلى المحطّة، بدأ بيوتر أندريفتش يتكلّم بحرارة مع أندريه عن شيء من الواضح أنّه يعود إلى أحد جدالاتهما الأبديّة. أمّا الرّجل الضّخم ذو الرّأس الحليق الّذي سألهم عن عادات الدّارك ونز في الطّعام فقد ابتعد عنهم، واقترب من أرتيوم وبدأ يجاريه في سرعة مشيه، ثمّ سأله بصوت منخفض مكتوم دون أن ينظر في عينيه: إذًا، أنت تعرف سوخوي؟

العم ساشا، حسنًا، نعم إنّه زوج أمّي، وأنا أعيش معه، ردّ أرتيوم بصراحة وصدق.

لم تقل إنّه زوج أمّك، أليس كذلك؟ لم أسمع بهذا قطّ، تمتم الرّجل.

وما هو اسمك؟ قرّر أرتيوم أن يسأل بعد أن استنتج أنّه إن سألك شخص عن أقربائك فذلك يعطيك الحقّ في سؤاله بالمقابل.

اسمي؟ سأل الرجل مندهشًا، ومن يحتاج إلى معرفته؟

حسنًا، سأخبر العم ساشا سوخوي، أنّك سألت عنه.

أخبره أنّ هنتر (الصّيّاد) هو من سأل عنه، الصّيّاد، وبلّغه تحيّاتي.

هنتر؟ هذا اسم غريب، هل هو اسمك الأخير؟ لقبك؟ سأل أرتيوم.

الاسم الأخير؟ همممم... ابتسم هنتر بتكلّف: ماذا في ذلك؟ إنّه كامل وتامّ. كلّا يا ولدي، إنّه ليس الاسم الأخير. إنّه... كيف سأشرح لك الأمر؟ مهنة. وما هو اسمك؟

أرتيوم.

رائع إذًا، سررت بلقائك، وأنا متأكّد من أنّنا سنتقابل مرّة أخرى. وفي القريب العاجل، في صحّتك.

غمز أرتيوم قبل أن يفترقا، وبقي في الخلف، في المتر ثلاثمائة برفقة أندريه.

لم يبق أمامهما سوى مسافة قصيرة، فقد سمع ضجيجًا نشطًا من المحطّة، كان بيوتر أندريفيتش يمشي بجانب أرتيوم، وسأل بقلق: اسمع يا أرتيوم، من هو ذلك الرّجل بأيّ حال؟ ماذا كان يقول لك هناك؟

إنّه نوع غريب من الرّجال، كان يسألني عن العمّ ساشا. أظنّه أحد معارفه، هل تعرفه؟

لا يبدو لي كذلك، لقد جاء إلى محطّتنا منذ يومين فقط، من أجل نوع من أعمال التّجارة كما يبدو. يبدو أنّ أندريه التقى به للتوّ أيضًا وكان الوحيد الّذي أصرّ على أن يكون معه في نوبة الحراسة نفسها. ومن يستطيع التكهن بضرورة ذلك من قبل أندريه؟ إنّ وجهه مألوف لي نوعًا ما.

نعم، ربّما من الصّعب نسيان هيئة كهيئته، قال أرتيوم.

بالضّبط، أين رأيت تلك الهيئة؟ ما اسمه؟ هل تعرف؟ سأل بيوتر أندرييفيتش.

(هنتر) هذا ما قاله لي (هنتر) أفكّر في ما يفترض أن يكون.

هنتر؟ ليس اسمًا روسيًّا، عبس بيوتر أندرييفيتش.

ظهر وهج أحمر من بعيد، فمحطّة دي إن كي اتش ليس فيها إضاءة عاديّة مثل أغلب المحطّات، ويعيش النّاس فيها تحت أضواء الطّوارئ القرمزيّة منذ ثلاثين سنة. وبين الحين والآخر تكون هناك أضواء مصابيح كهربائيّة عاديّة في شققهم وخيامهم وغرفهم. وكانت بعض من أثرى محطّات المترو تُنار بضوء مصابيح الزّئبق الحقيقيّ، فتشكّلت أساطير حولها، ونماذج محلّيّة من محطّات نائية بائسة، كانت تُغذّي الحلم لسنوات متتالية في الوصول إلى هناك، ومشاهدة المعجزة. سلّموا أسلحتهم للحرّاس الآخرين عند مخرج النّفق، ووقّعوا أسماءهم في السّجل الرّئيسيّ. وصافح بيوتر أندريفيتش أرتيوم قبل أن يفترقا، وقال:

حان وقت نومنا، وأنا بالكاد أستطيع الوقوف على قدميّ، وأنت جاهز للنّوم على الأرجح. بلّغ سوخي تحيّاتي الحارّة، وعليه أن يشرّفني بزيارة.

شعر أرتيوم بتعب مفاجئ بعد أن ودّع بيوتر، فذهب إلى شقّته.

يعيش أرتيوم في فدنكه مع مائتي شخص. سكن بعضهم في مراكز الخدمات، أمّا أغلبهم فسكنوا في خيام على المنصّة، وكانت تلك الخيام إصدارات عسكريّة باتت قديمة ومهلهلة الآن، لكنّها لاتزال سليمة إذ لم تضطرّ إلى مقاومة الرّيح أو المطر تحت الأرض. وكانت مصانة على نحو جيّد، لهذا كان العيش فيها ممكنًا، فهي لا

تخسر الحرارة والضّوء، وحتى لا تسمح بدخول الضّجيج. وماذا يريد المرء أكثر من هذا في مسكنه؟

ثُبّتت الخيام قبالة الجدار على كلا الجانبين بموازاة المسارات، وفي القاعة المركزيّة. فتحوّلت المنصّة إلى شيء يشبه الشّارع، وكان هناك ممرّ واسع نوعًا ما على في وسطها. بعض الخيم كانت واسعة وتؤوي العائلات الأكثر عددًا، وكانت تملأ الفراغ تحت مدخل القناطر. وبقيت قناطر أخرى كثيرة شاغرة للمرور في كلّ طرف من القاعة، وفي مركزها. وهناك أماكن إقامة وسكن تحت المنصّات أيضًا، لكنّ السّقف هناك لم يكن عاليًا جدًّا، ولم تكن مناسبة للسّكن فاستخدموها في فدنكه لتخزين المؤن.

رُبط النّفقان الشّماليّان بنفق جانبيّ طوله عشرات الأمتار أبعد من المحطّة، ويسمح هذا النّفق للقطارات بالدّوران والعودة إلى المحطّات الأخرى. في الماضي وحتّى الآن، لم يسدّوا أيًّا من هذين النّفقين، إذ تركوا النّفق الآخر الّذي يؤدّي إلى الشّمال نحو الحديقة النباتيّة وإلى مايتسشي، كطريق للتّراجع في حال تعرّضهم لظرف عصيب. وهناك كان أرتيوم يحرس. أمّا بقيّة القسم من النّفق الثّاني والامتداد الموحّد بين النّفقين، فقد خُصّص لمزارع الفطر. فُكّكت السّكّة الحديديّة هناك، وفُلحت الأرض، وسُمّدت، ونقلوا البقايا النّاتجة بالعربات عن طريق المجاري. صفوف مرتّبة وأنيقة من قمم الفطر البيضاء تلمع على طول النّفق. وقد انهار واحد من النّفقين الجنوبيّين أيضًا في المتر ثلاثمائة، واستخدموا تلك المنطقة عشًّا للدّجاج والحمام.

يقع بيت أرتيوم على الطّريق الرّئيسيّ، وقد عاش هناك في واحدة من الخيام الصّغيرة مع زوج أمّه. وكان زوج أمّه رجلًا مرتبطًا بالإدارة، وحافظ على اتصال مع محطّات أخرى، لهذا ادّخرت السّلطات الخيمة له، ومُنحت له كخيمة شخصيّة وكانت من الطّراز الأوّل. كان زوج أمّه يختفي على نحو متكرّر لأسبوعين أو ثلاثة في المرّة الواحدة. ولم يأخذ أرتيوم معه أبدًا، وهو يبرّر ذلك بقوله إنّه منشغل بمسائل في منتهى الخطورة، ولا يريد أن يعرّض أرتيوم لأيّ خطر. في كلّ مرّة يعود من رحلاته أكثر نحافة، وبشعر أشعث، وجريحًا أحيانًا. لكنّه دائما وفي كلّ مرّة يجلس مع أرتيوم في المساء الأوّل من رجوعه، ويحكي له عن أشياء يصعب تصديقها حتّى بالنّسبة لساكن في هذا العالم الصّغير الغريب، ولشخص اعتاد على القصص الّتي لا تصدّق.

شعر أرتيوم بحافز يدفعه للسّفر، لكنّ التّجوّل في المترو ذهابًا وإيابًا بلا سبب وجيه خطر جدًّا. إضافة إلى أنّ حرّاس الدّوريّات في المحطّات المستقلّة شكّاكون جدًّا، ولم يتركوا أيّ شخص يمرّ ومعه سلاح. والتّوجه داخل النّفق بلا سلاح يعني الموت الأكيد. وهكذا، ومنذ جاء أرتيوم وزوج أمّه من سافويولوفسكايا لم يحظ بفرصة المشاركة في نزهة ممتعة. أحيانًا، كان يُرسل إلى أليكسيفسكايا في تجارة، لكنّه لا يذهب لوحده طبعًا.

كانوا يذهبون في مجموعات لمسافات بعيدة حتى ريجيسكايا أحيانًا. بالإضافة إلى هذا ذهب مرّة في رحلة أخرى حظِي بها مسبقًا، ولم يخبر أحدًا بالأمر رغم أنّه أراد ذلك بشدّة.

لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، حين لم تكن ثمّة إشارة للدّاكنين الأشرار في الحديقة النباتيّة. وحين كانت مجرّد محطّة مهجورة مظلمة، والدّوريّات من فدنكه تتمركز في مكان أبعد إلى الشّمال. في ذلك الوقت كان أرتيوم مايزال ولدًا صغيرًا. في تلك الأيّام قّرر هو ورفاقه أن يجازفوا، فتسلّلوا أثناء تبديل مناوبة الحراسة، وعبروا الشّريط المحميّ الخارجيّ بمصابيح كشّافة، وأخذوا معهم بارودة ذات ماسورتين كانوا قد سرقوها من والد أحدهم، وزحفوا لوقت طويل حول محطّة الحديقة النّباتيّة. كانت غريبة ومخيفة، لكنّها كانت ممتعة. استطاعوا في ضوء المصابيح الكشّافة رؤية بقايا السّكن البشريّ في كلّ مكان (رماد، وكتب محروقة، ودمى مكسّرة، وثياب ممزّقة... جرذان تندفع في المكان). وأصوات غريبة مدوّية ترنّ من وقت لآخر في النّفق الشماليّ. قال أحد أصدقاء أرتيوم، الّذي لم يتذكّره، ربّما كان جيناي الأكثر نشاطًا وفضولًا بين الثّلاثة:

ماذا لو حاولنا أن ننزل إلى الحاجز، ونصعد إلى السّطح عن طريق السّلّم الدّوّار؟ لنرى كيف هي الأشياء هناك.

احتجّ أرتيوم على الفور بأنّه ضدّ هذه الفكرة، فقد كانت الحكايات الّتي رواها له زوج أمّه الّذي أمضى وقتًا على السّطح، حيَّة وجديدة في ذهنه، وهي حكايات عن المرض الطّويل الّذي ابتلوا به بعدئذ، وأشكال الرّعب الّتي شهدوها هناك. لكنّهم بدؤوا يتجادلون حول فكرة أنّ هذه فرصة نادرة. متى سيتمكّنون من القيام بذلك دون أن يكون معهم أشخاص بالغين، ويذهبون إلى محطّة مهجورة كما يستطيعون الآن؟ الآن لديهم الفرصة للصّعود إلى السّطح ليروا بأعينهم كيف يكون الوضع حين لا يكون أيّ شيء فوق رؤوسهم. وحين فقدوا الأمل في إقناعه بالحسنى قالوا له: ما دمت جبانًا إلى هذه الدّرجة فاجلس، وانتظرنا في الأسفل حتّى نعود. كانت فكرة البقاء لوحده في محطّة مهجورة، والأهمّ من ذلك تشويه سمعته لدى صديقيه المفضّلين، أمر لا يطاق نهائيًّا بالنّسبة لأرتيوم. لذا، استجمع شجاعته ووافق.

ولدهشة الجميع اشتغلت الآليّة الّتي تجعل الحاجز يفصل المنصّة عن السّلّم الدّوّار، وكان أرتيوم هو من شغّلها بعد نصف ساعة من المحاولات اليائسة. انزاح الجدار الحديديّ الصّدئ جانبًا مصدرًا صوتًا بغيضًا خشنًا. وظهر أمام أعينهم صفّ قصير من درجات السّلّم المؤدّية إلى الأعلى. بعض الدّرجات منهارة، ورأوا عبر الفجوات الواسعة، وعلى ضوء المصابيح الكشّافة مسنّنات جبارة توقّفت عن العمل منذ سنين، وأتلفها الصّدأ الّذي نما فوق شيء بنّيّ كان يتحرّك على نحو غير ملحوظ تقريبًا. لم يكن سهلًا عليهم إجبار أنفسهم على الصّعود إلى هناك. مرّات كثيرة انهارت الدّرجات الّتي وضعوا أقدامهم عليها، وأصدرت صريرًا، وسقطت للأسفل. وقد عبروا الهوّة بأن تعلّقوا بمصابيح المترو القديمة. ولم يكن الممرّ إلى السّطح طويلًا، لكنّ تصميمهم بادئ الأمر كان يتبخّر بعد انهيار أوّل درجة، ومن أجل رفع معنويّاتهم تخيّلوا أنفسهم مطاردين حقيقيّين.

مطاردون...

إنتشرت هذه الكلمة بسرعة رغم كونها غريبة وأجنبيّة على اللّغة الروسيّة. وقد أطلق هذا الاسم في وقت سابق، على النّاس الّذين أجبرهم الفقر على أن يشقّوا طريقهم إلى مناطق عسكريّة مهجورة للرّماية، ويفكّكوا صواريخ وقنابل لم تنفجر، ليبيعوا الأغلفة النّحاسيّة للّذين يشترون معادن غير حديديّة. كما أطلق هذا الاسم على النّاس الغرباء الّذين نزلوا في المجارير في زمن السّلم. هناك شيء مشترك بين كلّ هذه المعاني وهو أنّ كلّ هذا كان دائمًا مهنة خطيرة جدًّا جدًّا، ومواجهة دائمة مع المجهول والغامض والمشؤوم. من يعرف ماذا حدث في حقول الرّمي المهجورة تلك؟ حيث الأرض النّشطة إشعاعيًّا الّتي شوّهتها آلاف الإنفجارات، وحرثتها الخنادق، وحفرتها سراديب الموتى الّتي تربّي البراعم والأوراق الهائلة. لا يستطيع المرء إلّا أن يخمّن ماذا يقطن في مجارير مدينة كبيرة تعجّ بالنّاس، بعد أن أغلق البنّاؤون الفتحات الصّغيرة خلفهم، تاركين تلك الممرّات الضيّقة الكئيبة القذرة للأبد.

في المترو، يُسمَّى المتهوّرون النّادرون الّذين لديهم الشّجاعة ليغامروا، ويخرجوا إلى السّطح، بالمطاردين. كانوا يرتدون بدلات واقية وأقنعة غاز، ونظّارات ملوّنة، ويتزوّدون بأسلحة كثيرة حين يصعدون إلى السّطح بحثًا عن أشياء كانت ضروريّة لكلّ واحد، مثل ذخائر عسكريّة ومعدّات، وقطع تبديل ووقود... وهناك مئات الرّجال الّذين تجرّؤوا على القيام بهذا. أمّا هؤلاء الّذين كانوا قادرين على العودة أحياء يعدّون على الأصابع، هؤلاء الرّجال يستحقّون وزنهم ذهبًا، وكانوا موضع احترام وتقدير أكثر من موظّفي المترو السّابقين. كلّ أشكال الأخطار كانت بانتظار هؤلاء الّذين تجرّؤوا على الصّعود إلى الأعلى، من الإشعاع إلى المخلوقات الغوليّة الّتي خلقها الإشعاع. كانت هناك حياة على السّطح أيضًا، ولكنّها لم تعد حياة حسب المفهوم البشريّ المعتاد.

أصبح كلّ واحد من المطاردين أسطورة حيّة، ونصف إله بنظر الجميع، يحدّقون به باندهاش كبير. في عالم ليس فيه مكان للإبحار أو الطّيران، أصبحت فيه كلمتا «طيّار» و«بحّار» باهتتين وبلا معنى، حتّى الأطفال باتوا يحلمون بأن يصبحوا مطاردين، لكي يذهبوا إلى خارج النّفق، ويرتدوا دروعًا لمّاعة، وتصحبهم مئات نظرات الافتتان والعرفان بالجميل. ويتسلّقوا إلى السّطح حيث مملكة الآلهة، ليحاربوا المسوخ، ثمّ يعودوا إلى النّفق، ويجلبوا للنّاس الوقود والذّخائر العسكريّة، والضّوء والنّار... يجلبون الحياة.

أراد أرتيوم وصديقاه جينيا، وفيتاليك المنشقّ، أن يصبحوا مطاردين. وبعد أن أجبروا أنفسهم على تسلّق السّلّم الدّوّار المخيف الّذي يصدر الصّرير، ودرجاته المنهارة، تخيّلوا أنفسهم في بدلات واقية، ومعهم أجهزة تُراقب الضّرر الّذي يسبّبه الإشعاع، وبنادق آليّة ضخمة وثقيلة، جاهزة وملقّمة كما يتوقّع المرء من المطاردين الحقيقيّين. لكن لم يكن لديهم بنادق، أو أجهزة تراقب الإشعاع. وبدلًا من البنادق الآليّة المهيبة العسكريّة، كان لديهم بندقيّة قديمة جدًّا ذات ماسورتين، قد لا تُطلق النّار أبدًا.

بعد أن صعدوا السّلم بوقت قليل، وجدوا أنفسهم على السّطح تقريبًا. ولحسن الحظ كان الوقت ليلًا، وإلّا لأصاب عيونهم العمى، فالعيون الّتي اعتادت الظّلام وضوءَ الموقد القرمزيّ، ومصابيح الطّوارئ، سنوات طويلة تحت الأرض لا تستطيع تحمّل وهج الشّمس. وهو ليس أمرًا محتملًا عندما يصبحوا عميان وعاجزين أن يعودوا لوطنهم مرّة أخرى.

كان مدخل محطّة الحديقة النّباتيّة مدمَّرا تقريبًا، ونصف السّقف منهار، والرّؤية ممكنة في الغبار المشعّ للسّماء الزّرقاء القاتمة الصّيفيّة، الّتي غابت عنها الغيوم حديثًا ولمعت فيها عشرات آلاف النّجوم. لكن ما الّذي تعنيه السّماء المملوءة بالنّجوم لطفل غير قادر حتّى على تخيّل عدم وجود سقف فوق رأسه؟ حين ترفع رأسك ولا يصطدم بأغطية إسمنتيّة وشبكات بغيضة من الأسلاك والأنابيب، ويتوه نظرك بدلًا من ذلك، في هاوية زرقاء داكنة فاغرة فوهها فوق رأسك. أيّ انطباع؟ والنّجوم؟ هل بمقدور أيّ شخص لم ير النّجوم قطّ أن يتخيّل ما هو اللّاتناهي؟ إذ أنّ مفهوم اللّاتناهي نفسه الّذي ظهر لأوّل مرّة وسط البشر، كانت قد أحدثته قبّة السّماء اللّيليّة في الماضي البعيد على الأرجح. ملايين الأضواء المتألّقة، والمسامير الفضيّة، دُقّت داخل قبّة من المخمل الأزرق الدّاكن.

وقف الأولاد مدّة ثلاث دقائق، ثمّ خمس وعشر أخرى عاجزين عن التّفوّه بكلمة. ولو لم يسمعوا عويلًا مروّعا وفظيعًا يرنّ في الخارج قريبًا منهم لما تحرّكوا، ولكانوا سُلقوا وهم أحياء في الصّباح. لمّا عاد إليهم شعورهم، اندفعوا بتهوّر وعادوا مسرعين إلى الدّرج الدّائريّ، وتسابقوا بأقصى ما حملتهم أرجلهم إلى النّزول. وبعد أن ألقوا بكلّ الحذر في مهبّ الرّيح كادوا يغطسون في الأسفل مرّات كثيرة في أسنان التّروس. لقد استغرقت رحلة العودة ثواني لأنّهم كانوا يسندون ويسحبون بعضهم بعضًا.

اندفعوا إلى الأمام نحو لوحة الحاجز، وبعد أن لفّوا الدّرجات العشر الأخيرة بسرعة ونجاح، وضيّعوا البندقيّة ذات الماسورتين في الطّريق. لكن، اللّعنة، لقد أصبح الحديد الصّدئ عالقًا، ولا يرتدّ إلى مكانه، فركضوا بأقصى سرعة باتّجاه البيت، إلى النّطاق المحميّ الشماليّ، وهم مذعورون حتّى الموت من أن تُلاحقهم المسوخ.

لكنّهم انتبهوا إلى أنّهم ربّما فعلوا شيئًا سيّئًا جدًّا بتركهم البوّابات محكمة السدّ مفتوحة، وتركهم الممرّ المؤدّي إلى الأسفل إلى داخل المترو، حيث النّاس، مفتوحًا للمتحوّلين. توفّر لهم الوقت الكافي ليتّفقوا على إبقاء شفاههم مغلقة، وعلى عدم إخبار أحد من الرّاشدين عن المكان الّذي ذهبوا إليه. ولمّا وصلوا إلى الشّريط المحميّ قالوا إنّهم ذهبوا إلى نفق جانبيّ ليصطادوا الجرذان، وضيّعوا بندقيّتهم، فخافوا وعادوا. تعرّض أرتيوم إلى عقاب شديد من زوج أمّه، حيث ظلّت مؤخّرته تخزّه لوقت طويل جرّاء ضربات الحزام العسكريّ، لكنّه صمد وتماسك مثل أسير لم يفش سرّه العسكريّ. وكذلك فعل صديقاه.

وقد صدّقهم الجميع.

لكنّه عندما يفكر في مغامرتهم الطائشة الآن، يستغرق أكثر فأكثر في تأمّل طويل، ويتساءل: هل كانت هذه الرّحلة الأكثر أهميّة؟ هل كان هذا الحاجز الّذي فتحوه متّصلًا بشكل ما بالحثالة الّتي كانت تهاجم نطاقاتهم المحميّة في السّنين الأخيرة؟ شقّ أرتيوم طريقه إلى البيت. وصادف بعض المارّة فألقى عليهم التّحيّة، وتوقّف بين فينة وأخرى، ليستمع إلى بعض الأخبار، أو يصافح صديقًا، أو يضع قبلة حميميّة على خدّ فتاة، أو يحكي للأجيال الأكبر عن علاقات زوج أمّه، حتّى وصل إلى بيته أخيرًا. لم يكن هناك أحد، فقرر ألّا ينتظر زوج أمّه، وذهب للنّوم. إنّ الحراسة لمدّة ثمان ساعات كافية لإنهاك أيّ شخص. رمى حذاءه ذا السّاق الطّويلة ونزع سترته، وزرع وجهه في الوسادة. فالنوم لم يتركه ينتظر.

رُفعت أطراف الخيمة، وتسلّل رجل ضخم بهدوء إلى الدّاخل. لم يكن وجهه مرئيًّا. فالشّيء المرئيّ الوحيد كان اللّمعان الشّرّير لجمجمة ملساء تعكس أضواء الطّوارئ الحمراء. سمع صوتًا مكتومًا: نتقابل مرّة أخرى. أرى أنّ زوج أمّك ليس هنا. لا يهمّ، سنجده عاجلًا أم آجلًا. لن ينجو أو يهرب. أمّا الآن فيجب أن تأتي معي، فلدينا شيء نتحدّث عنه، كأمر الحاجز عند الحدائق النّباتيّة مثلًا.

عرف أرتيوم، الّذي جمّده الخوف، الرّجل الّذي قابله في الشّريط المحميّ سابقًا، الرّجل الّذي عرّف بنفسه بأنّه هنتر.

اقترب الرّجل ببطء، وصمت وظلّ وجهه غير مرئيّ. ولسبب ما كان الضّوء يسقط عليه بطريقة غريبة. أراد أرتيوم أن ينادي طالبًا النّجدة، لكنّ يدًا جبّارة باردة كالموت أطبقت على فمه، ومع ذلك نجح في الإمساك بالمصباح وأداره، فأنار وجه الشّخص. ما رآه جعله عاجزًا لمدّة دقيقة وملأه رُعبا، فالّذي لاح مقابله وخيّم عليه، لم يكن وجهًا بشريًّا، وإنّما أنف حيوان أسود فظيع، مع عينين هائلتين تخلوان من البياض والتّعبير، وفمٌ مفتوح.

اندفع أرتيوم، ورمى بنفسه إلى خارج الخيمة، فانطفأ الضّوء فجأة، وأصبحت المحطّة مظلمة تمامًا. كان هناك ضوء ضعيف منعكس من موقد صغير في مكان بعيد. ودون التّوقّف للتّفكير، اندفع أرتيوم مسرعًا في ذلك الاتّجاه نحو الضّوء. وقفز الغول نحوه من الخلف، وهدر بكلمات: قف، فليس هناك أيّ مهرب، وزأر بضحكة مروّعة أصبحت عويل مقبرة مألوف. هرب أرتيوم ولم يلتفت لينظر، لكنّه سمع وقع أقدام حذاء ثقيل خلفه غير مستعجل، وكأنّ مُطاردَه يدرك عدم وجود مهرب أمام أرتيوم، وأنّه سيمسك به عاجلًا أم آجلًا.

ركض أرتيوم باتّجاه نار الموقد، ورأى شكل شخص يجلس هناك وظهرُه باتّجاهه. كاد ينقر كتف الشّخص الجالس ويطلب منه النّجدة، لكنّ الشّخص سقط على ظهره فجأة. من الواضح أنّه ميت منذ وقت طويل، فوجهه مغطّى بصقيع متجمّد لسبب ما، وعرف في وجه هذا الشخص المتجمّد ملامح العمّ ساشا، زوج أمّه.

هيه، أرتيوم، كان ذلك نومًا جيّدًا، انهض الآن، لقد غفوت سبع ساعات... انهض أيّها النّائم، لقد جاءنا ضيوف، رنّ صوت سوخوي عاليًا.

جلس أرتيوم في السّرير وحدّق به، أوه، العمّ ساشا، أنت...؟ هل كل شيء على ما يرام معك؟ سأل أخيرًا بعد أن ظلّ يفتح ويغمض عينيه لمدةّ دقيقة. وكان صعبًا عليه أن يتغلّب على رغبته بأن يسأله إن كان حيًّا أم لا، لكنّه كان يقف بمواجهته.

نعم، كما تراني. تعال، هيّا، انهض، لا فائدة من الاستلقاء في السّرير. أريد أن أعرّفك بصديقي، قال سوخوي. كان ثمّة صوت مألوف قريب لكنّه مكتوم. غطّى العرق أرتيوم وهو يتذكّر كابوسه الجديد. (إذًا، لقد التقيتما مسبقًا)؟ كان سوخوي مندهشًا (حسنًا يا أرتيوم، أنت ذكيّ). أخيراً دخل الضّيف إلى الخيمة. فارتعد أرتيوم، وضغط نفسه على جدار الخيمة، لقد كان هنتر. عاد الكابوس إلى الحياة مرّة أخرى، عينان داكنتان فارغتان، وهدير حذاء ثقيل خلفه، الجثّة المتيبّسة تجلس بجانب نار الموقد...

نعم، لقد التقينا. لقد نجح أرتيوم في عصر جوابه بتردّد، ومدّ يده للزّائر. كانت يد هنتر حارّة وجافّة. وبدأ أرتيوم بإقناع نفسه على مهل بأنّه مجرّد حلم، وليس هناك شيء سيّء حول هذا الشّخص، وأنّ الأمر من صنع خياله الّذي أشعله الخوف بعد ثمان ساعات في الشّريط المحميّ الّذي يتلاعب بأحلامه.

اسمع يا أرتيوم، أسد لنا معروفًا، اغلِ بعض الماء من أجل الشّاي. هل جرّبت شاينا؟ غمز سوخوي للزّائر، شاي سام

أعرفه، أجاب هنتر وهو يومئ برأسه: شاي طيّب. يصنعونه في بيشاتنيكي أيضًا من نفاية الخنازير، لكنّ الأمر مختلف هنا.

ذهب أرتيوم لإحضار الماء، ثمّ إلى المشعّ ليغلي الماء في الغلّاية. وكان إشعال النّار داخل الخيم محظورًا بشدّة، فقد احترقت محّطتان بالكامل بسبب إشعال النّار.

على الطّريق فكّر أرتيوم في بيشاتنيكي الّتي في الطّرف الآخر من منظومة المترو، فمن يعرف كم من الوقت يستغرق الوصول إليها، وكم تحويلة ومعبر ومحطّة، سيجتاز، بالكذب أحيانًا، والقتال أحيانًا أخرى، ومرّات بفضل العلاقات والمعارف. وهذا الرّجل يقول عرضًا في حديثه: هم يصنعونه في بيشاتنيكي أيضًا... نعم، إنّه شخص ممتع مع أنّه مخيف قليلًا. إنّ قبضته تعصر مثل ملزمة، وأرتيوم لم يكن شخصًا ضعيفًا، وهو يحبّ دائمًا أن يقارن قوّته بقوى الآخرين عند المصافحة باليد.

عاد إلى الخيمة بعد أن غلى ماء الغلّاية. وكان هنتر قد رمى معطفه المطريَّ مسبقًا، فظهرت كنزة سوداء برقبة، امتلأت تمامًا بعنق جبّار وجسد قويّ متورّم. وكان يرتدي بنطالًا عسكريًّا، ويشدّ حزامًا عسكريًّا بقوّة. وفوق السّترة صدرة لها جيوب كثيرة، وجراب مسدّس تحت ذراعه يحتوي على مسدّس مصقول ذي حجم هائل. وعند التفحّص الدّقيق، رأى أرتيوم أنّه كان مسدّس «ستتشكين» مع كاتم صوت طويل، وله شيء مربوط به، تبيّن من مظهره أنّه جهاز تسديد ليزريّ. إنّ مسدًّسا عملاقًا مثله يكلّفك كلّ ما تملك. لاحظ أرتيوم على الفور أنّ السّلاح لم يكن سلاحًا بسيطًا، لم يكن للدّفاع عن النّفس، وهذا أكيد.

هيّا يا أرتيوم، صبّ بعض الشاي للضّيف، نعم، وأنت يا هنتر تفضّل بالجلوس، وأخبرنا عن أحوالك. كان سوخوي متشوّقًا: يعرف الشّيطان كم مرّ من الوقت مذ رأيتك آخر مرّة.

سأخبرك عن نفسي لاحقًا فليس هناك الكثير لقوله، لكنّني سمعت بحدوث أشياء غريبة معك، عفاريت تدبّ في المكان، وتأتي من الشّمال. سمعت اليوم خرافات عندما كنت واقفًا مع الدّوريّة. ماذا هناك؟ وما الذي يحدث؟ تكلّم هنتر بعبارات موجزة، ومتقطّعة.

إنّه الموت يا هنتر، تعكّر مزاج سوخوي فجأة: إنّه موتنا الّذي يسرقنا من المستقبل، قدرنا يزحف إلينا، هذا هو الأمر.

ولماذا الموت؟ سمعت أنّكم سحقتموهم بنجاح كبير، وجرّدتموهم من أسلحتهم. حسنًا، من أين أتوا؟ ومن هم؟ لم أسمع قطّ بشيء كهذا في أيّ محطّة من المحطّات الأخرى، أبدًا. وهذا يعني أنّ الأمر لم يحدث في أيّ مكان آخر. أُريد أن أعرف ماذا يحدث. أنا أحسّ بخطر عظيم، أريد أن أعرف درجة الخطر. أريد أن أفهم طبيعته، لهذا السبب أنا هنا.

يجب أن يُزال الخطر تمامًا. أليس صحيحًا يا هنتر؟ أنت لاتزال راعي بقر يا هنتر. لكن هل يمكن تصفية الخطر؟ هذا هو السّؤال. كشّر سوخوي بحزن: هذه هي العقدة. كلّ شيء هنا معقّد أكثر ممّا يبدو لك، أعقد بكثير. هذا الخطر ليس مجرّد زومبيّين، وجثث تمشي عبر شاشات السّينما، فذاك بسيط جدًّا، تحشو مسدّسك برصاصات فضيّة (أوضح سوخوي بأن ضمّ راحتي كفّيه معًا، وتظاهر بتسديد من مسدّس) وأكمل: بم، بم، وتذبح قوى الشرّ. لكنّ هذا شيء مختلف. شيء مخيف، مع أنّك تعرف جيّدًا أنّه من الصّعب إخافتي، وترويعي.

هل أنت مرعوب؟ سأله هنتر مندهشًا.

إنّ الرّعب سلاحهم الأساسيّ. بالكاد يحافظ النّاس على مواقعهم، ويناموا مع بنادقهم الآليّة (اليوزي)، أمّا هم فيأتون إلينا عزّلًا، ونعرف كلّنا أنّ نوعيّة أفضل منهم، وعددًا أكبر، سيأتي. يكاد النّاس يفرّون، وويكاد يصيبهم الجنون من الرّعب، وقد جُنّ البعض حقًّا. بيني وبينك، هذا ليس مجرّد خوف يا هنتر. أخفض سوخوي صوته: هذا... لا أعرف حتّى كيف أشرحه لك بوضوح... إنّه يصبح أقوى في كلّ مرّة. هم يدخلون رؤوسنا بطريقة ما... ويبدو لي أنّهم يفعلون هذا عمدًا. يمكن أن تشعر بهم من بعيد، ويصبح الشّعور أقوى، فأقوى، ويُسيطر الهياج القذر، وتبدأ ركبتاك بالارتجاف، وبعدها لا تسمع شيئًا، ولا ترى شيئًا لكنّك تعرف مسبقًا أنّهم يقتربون منك أكثر، فأكثر... ثمّ يلي ذلك عويل، وعندها لا تريد شيئًا سوى الهروب، لكنّهم يقتربون أكثر، وأنت تبدأ بالارتجاف، وبعد برهة تراهم يمشون بعيون مفتوحة إلى المشاعل الكهربائيّة الكشّافة...

ارتعد أرتيوم، وبدا له أنّه ليس الوحيد الّذي عذّبته الكوابيس، فقد اعتاد أن لا يتكلّم عنها لأيّ شخص خشية أن يعتبروه جبانًا، أو مجنوناً.

هؤلاء الحقيرون يعطلون عقولنا، تابع قائلًا: وكأنّهم يولفون أنفسهم حسب طول موجتك، وحين يأتون في المرّة التّالية، تشعر بهم بقوّة أكبر، وخوف أعظم، وأقول لك إنّ هذا ليس مجرّد خوف.

سكت فجأة. جلس هنتر، ولم يتحرّك، وكان على مايبدو يدرس الأمر، ويفكّر مليًّا بما سمع، ثمّ أخذ جرعة ملء فمه من الشّراب المخمّر، وتكلّم ببطء وهدوء: هذا تهديد لكلّ شخص يا سوخوي، لكلّ المترو القذر، وليس لمحطّتكم فقط.

كان سوخوي ساكتًا، كما لو أنّه لم يرغب بالرّدّ، لكنّه انفجر فجأة: هل تعتقد أنّه تهديد للمترو كلّه؟ لا، لا، ليس المترو فقط. إنّه تهديد لتقدّم البشريّة كلّها الّتي أوقعت نفسها مسبقًا بمشاكل فيما يخصّ مستقبلها. وقد حان وقت السّداد. إنّها معركة الأجناس والأنواع يا هنتر، معركة الأنواع. وهؤلاء الدّارك ونز الأشرار ليسوا أرواحًا شرّيرة، وليسوا نوعًا من الغيلان، إنّهم (الهومونوفوس) البشر الجدد، المرحلة التّالية للتّطوّر، الّذين تكيّفوا مع البيئة على نحو أفضل منّا. إنّ المستقبل خلفهم يا هنتر، ربّما لن يفنى البشر الحاليّين لعقدين آخرين، أو لخمسين عقد آخر في هذه الحفرة الشيطانيّة الّتي نحفرها لأنفسنا. في الماضي حين كانت هناك وفرة، لم يكن الكلّ مهيّأ للعيش فوق الأرض. لهذا فالنّاس الأكثر فقرًا كانوا يُساقون بالقوّة إلى تحت الأرض في رابعة النّهار. سوف نصبح شاحبين ومرضى، مثل المورلوك الّذين كتب عنهم ويلز. هل تتذكرّهم؟ من آلة الزّمن، حيث كانت بهائم المستقبل تعيش تحت الأرض. لقد كانت هذه البهائم بشرًا أيضًا في السّابق. نعم، نحن متفائلون، نحن لا نريد أن نموت. سوف نحرث، ونزرع الفطر بروثنا، وسيصبح الخنزير صديق الإنسان الوحيد كما يقولون، وشريكنا في البقاء. سوف نتجرّع فيتامينات متعدّدة بطحن شهيّ أعدّه أسلافنا الحريصون بالأطنان. سوف نحبو بحياء إلى السّطح لنسرق علبة صغيرة أخرى من البنزين وقليل من الخرق، وحفنة من الخراطيش، إذا كنّا محظوظين فعلًا، ونُسرع بالهرب، ونعود إلى داخل القبب الضّيّقة، وننظر حولنا مثل لصوص يخافون أن يراهم أحد ما. كلّ هذا لأنّنا لم نعد في بيتنا، وعلى راحتنا حين نكون على السّطح بعد الآن. العالم لم يعد لنا يا هنتر... لم يعد العالم لنا بعد الآن.

سكت سوخوي، وكان ينظر إلى البخار المتصاعد من فنجان شايه ببطء، ويتكثّف في شفق الخيمة. لم يقل هنتر شيئًا، وفكّر أرتيوم في أنّه لم يسمع أيّ شيء كهذا، من زوج أمّه، من قبل أبدًا. لم يتبقّ شيء من ثقته السّابقة بأنّ كلّ شيء سيكون رائعًا. ولم يتبقّ شيء من جملته (لا تفزع، سوف نجتاز الأمر) ولم يتبقّ شيء من غمزاته المشجّعة، هل كان ذلك كلّه مجرّد عرض؟

أليس لديك ما تقوله يا هنتر؟ لا شيء؟ عارضني، أين حججك؟ أين تفاؤلك؟ في آخر مرّة كلّمتك فيها كنت متأكّدًا من أنّ مستويات الإشعاع ستنخفض، وسيستطيع النّاس العودة إلى السّطح مرّة أخرى. إيه يا هنتر... (الشّمس ستشرق فوق الغابات، ولكن ليس من أجلي فقط...)

غنّي سوخوي بصوت معذب: سنتمّسك بالحياة بأسناننا، ونتشبّث بها بكل قوّتنا، لكن ما الّذي سيقوله الفلاسفة، ويؤكّده الطّائفيّون إن لم يكن هناك شيء نتشبّث به؟ أنتم لا تريدون تصديقه، ولا تستطيعون تصديقه، لكنّكم في مكان ما، في أعماق نفوسكم، تعرفون حقيقة الأمر، ونحن نحبّ هذا العمل كلّه يا هنتر، أليس كذلك؟ أنا وأنت نحبّ العيش، سوف نزحف عبر نفق المترو النّتن، وننام ونحن نعانق الخنازير، ونأكل الجرذان، لكنّنا سننجو ونبقى أحياء، أليس هذا صحيحًا؟ استيقظ يا هنتر. لن يؤلّف أحد عنك كتابًا بعنوان (قصّة شخص حقيقيّ) ولن يتغنّى أحد بإرادتك القويّة للعيش، وغريزتك المتضخّمة في الحفاظ على الذّات... كم من الوقت ستعيش على الفطر والفيتامينات المتعدّدة ولحم الخنزير؟ استسلموا أيّها البشر، أنتم لم تعودوا ملوك الطّبيعة وسادتها، لقد تمّ خلعكم عن العروش، لا، لا يجب أن تموت فورًا، ولن يصرّ أحد على ذلك. ازحف على أطرافك، وتألّم واختنق بغائطك لفترة أطول، لكن اعرفوا هذا أيّها البشر: أنتم من طراز قديم ومهجور، إنّ التطوّر الّذي فهمتم قوانينه خلق فرعه الجديد، وأنتم لستم مرحلته الأخيرة، وتاج خلقه بعد اليوم. أنتم ديناصورات. يجب عليكم أن تتنحّوا جانبًا من أجل جنس أكثر كمالًا منكم. يجب أن لا تغترّوا كثيرًا. انتهت اللّعبة، وحان الوقت لتدعوا الآخرين يلعبون هم أيضًا، انتهى وقتكم، أنتم منقرضون. لندع الأجيال القادمة تُتعب عقولها في السّؤال عن السّبب الّذي جعل البشر ينقرضون. لكنّي أشكّ في أنّ أحدًا سيهتمّ بذلك.

رفع هنتر الّذي كان يتفحّص أظافره خلال هذا المونولوج، عينيه إلى سوخوي وقال بتجهّم: أنت تخلّيت عن كلّ شيء فعلًا منذ آخر مرّة رأيتك فيها. أتتذكّر أنّك أخبرتني أنّنا إن حافظنا على الثّقافة، ولم نفسد، ولم نتوقّف عن استخدام اللّغة الرّوسيّة اللّائقة، وإن تعلّم أولادنا القراءة والكتابة، فسنكون بخير عندئذ، وسنبقى هنا في النّفق... ألم تقل كلّ ذلك؟ أم أنّك لم تكن نفسك آنذاك؟ والآن انظر إليك، استسلم أيّها البشريّ، ما هذا الهراء الّذي تتفوّه به؟

نعم، حسنًا، لقد اكتشفت شيئًا واحدًا، أو شيئين يا هنتر، شعرت بشيء عليك أن تصل إليه، وربّما لن تصل إليه أبدًا، نحن ديناصورات، ونعيش الأيّام الأخيرة من حياتنا، وقد تطول الفترة إلى عشر سنوات، أو حتّى إلى مائة عام، لكنّ ذلك سيّان ولن يغيّر شيئًا.

هل تقصد أنّ المقاومة عقيمة، وبلا جدوى؟ اقترح هنتر في صوت رجل: ما الّذي تهدف إليه؟

كان سوخوي ساكتًا، ومغمضًا عينيه. ومن الواضح أنّ هذا يكلّفه الكثير، فهو لم يعترف بضعفه لأحد قطّ، ولم يقل شيئًا كهذا لصديق مقرّب. والأسوأ أنّ ذلك حدث أمام أرتيوم. لقد كان رفع الرّاية البيضاء مؤلمًا جدًّا له.

لكن لا، أنت لن تنتظر، قال هنتر ببطء، وهو يقف بكامل قامته: وهم لن ينتظروا، ألم تقل إنّهم جنس بشريّ جديد، ومرحلة متقدّمة من التطوّر، وإنّ انقراضنا محتّم، وتحدّثت عن الرّوث والخنازير والفيتامينات؟ أنا لم أصل إلى هذه المرحلة، ولست خائفًا من كلّ ذلك، هل فهمت؟ أنا لن أرفع يديّ وأستسلم طوعًا. غريزة الحفاظ على

الرّوح؟ سمّيت هكذا. نعم، نعم، سأغرز أسناني في قلب الحياة. وليذهب التّطوّر الّذي تتحدّث عنه إلى الجحيم. دع الأجناس والأنواع الأخرى تنتظر دورها. فأنا لست حملًا وديعًا يُقاد للذّبح. استسلم وارحل مع كائناتك الأكثر كمالًا وتكيُّفا، أعطها مكانك في التاريخ. إن كنت تشعر بأنّك قاتلت كلّ القتال الّذي قدرت عليه، فتقدّم وتخلّى عن القتال، فأنا لن أحكم عليك، لكن لا تحاول أن تخيفني، ولا تحاول أن تجرّني معك إلى داخل المسلخ. لماذا تلقي عليّ هذه الخطبة؟ إن لم تفعلها لوحدك، فلماذا تفعلها على نحو جماعيّ؟ ألا تخجل من نفسك؟ أم أنّ العدو وعدك بزبديّة من الثّريد الحارّ لكلّ أسير تجلبه له. قتالي ميؤوس منه؟ ألم تقل إنّنا على حافّة الهاوية؟ فأنا أبصق على هاويتك. إن كنت تظنّ أنّك في قعر الهاوية، فخذ نفسًا عميقًا وتقدّم إلى الأمام. أمّا أنا، فلن أشارك في هذه الرّحلة. إن اختار الإنسان العاقل والكائن البشريّ المتحضّر والمثقّف، الاستسلامَ، فسأرفض. عندئذ سأفضّل أن أصبح بهيمة، وأغرز أسناني في الحياة مثل بهيمة، وأتغذّى على رقاب الآخرين لكي أبقى حيًّا، وسأبقى حيًّا. هل فهمت؟ سوف أحيا.

جلس بهدوء، وطلب رشفة أخرى من الشّاي. قام سوخوي بنفسه، وذهب ليملأ الغلّاية وهو عابس وصامت. وبقي أرتيوم في الخيمة لوحده مع هنتر. أثّرت كلمات هنتر الأخيرة الّتي ترنّ بالاحتقار وبثقته الخبيثة بأنّه سيبقى حيًّا، وبأنّه سينجو من النّار، في نفس أرتيوم الّذي كان يحاول منذ وقت طويل أن يقرّر إن كان سيقول شيئًا أم لن يفعل. التفت هنتر إلى أرتيوم، وقال:

وأنت، ما الّذي تراه يا صديقي؟ أخبرني ولا تخجل، هل تريد أن تتحوّل إلى حياة نباتيّة خاملة، أو ديناصور، وتجلس دون أن تُحرّك ساكنًا، وتنتظر حتّى يأتي أحد من أجلك؟ هل تعرف الحكاية الرّمزيّة عن الضّفدع في القشدة؟ لقد وُضِع ضفدعان في سطل من القشدة، فكّر أحدهما على نحو منطقيّ، وفهم مباشرة أنّه لا فائدة من المقاومة، وأنّه لا يستطيع خداع قدره ونصيبه. لكن ماذا لو كان هناك آخرة وحياة بعد الموت، فلماذا يربك نفسه بالقفز هنا وهناك، ويعلّل النّفس بآمال كاذبة من غير جدوى؟ فقرفص وغطس إلى القاع. أمّا الضّفدع الثّاني الأحمق، وكان ملحدًا على الأرجح، فقد بدأ يخفق ويرتفع، ويهبط في المكان، ويرفرف ويخفق، ويضرب... حتّى تحولت القشدة إلى زبدة فزحف فوق الزّبدة، وخرج من السّطل. نحن نُجلّ ذكرى صديقه الضّفدع الّذي حُكم عليه بالهلاك من أجل التّقدّم والتّفكير المنطقيّ.

من أنت؟ غامر أرتيوم، وسأل أخيرًا.

من أنا؟ أنت تعرف مسبقًا من أكون. أنا الّذي يصيد.

لكن ماذا يعني ذلك؟ الرّجل الّذي يصيد؟ ما هي مهنتك؟ هل هي الصّيد؟

كيف أشرحها لك؟ أنت تعرف كيف يُبنى الجسم البشريّ؟ إنّه مكوّن من ملايين الخلايا بالغة الصّغر، بعضها تُصدر إشارات كهربائيّة، وأخرى تُخزّن المعلومات، وغيرها تمتصّ المواد الغذائيّة وتنقل الأكسجين. ولكن كلّها وحتّى الأكثر أهميّة فيها، ستموت في أقلّ من يوم واحد، ويموت الكائن الحيّ كلّه إن لم تكن هناك خلايا

مسؤولة عن المناعة. إنّها تسمى خلايا ماكروفيج، وتعمل بطريقة ممنهجة ومنتظمة مثل السّاعة وبندول الإيقاع.

حين يدخل مرض معد إلى جسد الكائن الحيّ تجده هذه الخلايا وتتعقّبه حيثما يختبئ، وتصل إليه عاجلًا أم آجلًا و... وأومأ كما لو أنّه يلوي عنق شخص، ثمّ أطلق صوتًا ساحقًا بغيضًا (تصفّيه)

ولكن ما علاقة ذلك بمهنتك؟ أصرّ أرتيوم.

تخيّل معي أنّ المترو كائنًا بشريًّا حيًّا واحدًا. وهو كائن حيّ معقّد مكوّن من حوالي أربعين ألف خليّة. فأنا خلايا الماكروفيج، أنا الصيّاد، هذه وظيفتي. أيّ خطر جدّيّ يشكّل تهديدًا على الكائن الحيّ يجب أن يُصفّى، وهذا ما أفعله. عاد سوخوي أخيرًا مع غلّاية الشّاي وصبّ الشّراب المغليّ في الأكواب. ومن الواضح أنّه قد جمع أفكاره في هذا الوقت الفاصل، وقال لهنتر: أنت ستتولّى تصفية مصدر الخطر يا راعي البقر، أليس كذلك؟

سوف تذهب للصّيد، وتُردي كلّ الدّارك ونز الأشرار قتلى؟ من الصّعب جدًّا أن يكون لهذا أيّ فائدة، ليس هناك ما يمكن فعله يا هنتر، لا شيء.

دائمًا يظلّ هناك خيار واحد أخير (الملجأ الأخير). نسف نفقك الشماليّ وتدميره تمامًا. عزل ذلك الجنس الّذي تحدّثت عنه. دعهم يتكاثرون في الأعلى ويتركوننا وشأننا، فموطننا الطبيعيّ الآن هو تحت الأرض.

سأخبرك بأمر مشوّق.. لا يعرف هذا الأمر سوى قلّة قليلة من النّاس في هذه المحطّة. لقد نسفوا النّفق مسبقًا، لكن فوقنا وفوق النّفق الشّماليّ جدول من ماء الأرض، ولمّا نسفوا النّفق الشّماليّ الثّاني كدنا نغرق بالسّيل. لو كان الانفجار أقوى قليلًا، لكنّا ودّعنا العزيزة فدنكه. لذا، إذا نسفنا المتبقّي من النّفق الشّماليّ الآن سنغرق بالفيضان، وستغمرنا النّفاية المشعّة النّشطة وستكون تلك النّهاية، ليس لنا فحسب. وفي هذا يكمن الخطر الحقيقيّ للمترو. إذا بدأنا حربًا بين الأجناس الآن، وبهذه الطّريقة سيخسر جنسنا، وكما يقولون في الشّطرنج (كش مات)..

ماذا عن البوّابة محكمة السدّ؟ بالتّأكيد نستطيع إغلاق البوّابة المحكمة ببساطة في ذلك النّفق، أليس كذلك؟ سأل هنتر.

لقد فكّك فتيان أذكياء البوّابة المحكمة مسبقًا مع بقيّة بوابات الخطوط قبل خمس عشرة سنة، وأرسلوا المواد ليحصّنوا واحدة من المحطّات، ولا أحد يذكر أيّ محطّة كانت. وبالتّأكيد عرفت أنت بهذا، هنا كش مات مرّة أخرى.

أخبرني: هل زادوا من ضغوطاتهم مؤخّرا؟ كان هنتر كما يبدو، يسلّم المحادثة وينقلها إلى وجهة أخرى.

زادوا؟ وكيف؟ من الصّعب التّصديق بأنّنا لم نعرف بوجودهم إلّا منذ فترة قريبة، والآن ها هم يشكّلون تهديد رئيسيّ. وصدّقني إنّ اليوم الّذي سيكنسوننا فيه، ويسحقوننا مع كلّ تحصيناتنا ومصابيحنا الكشّافة وبنادقنا الآليّة، قريب. يستحيل أن

تجعل المترو كله يهبّ ليدافع عن محطة تافهة واحدة، نعم، نحن نصنع شايًا طيًّبا، لكن من غير المحتمل أن يخاطر أحد بحياته، حتّى لو من أجل شاي ممتاز كشاينا. وفي النّهاية هناك تنافس دائم مع بيشاتنكي... كش مرّة أخرى. كشّر سوخوي وقال بحزن: لا أحد يحتاجنا، نحن أنفسنا لن نكون بعد وقت قريب في وضع يمكننا فيه التّعامل مع الهجوم، ولن نستطيع نسف النّفق وفصلهم. ولا نملك الوسيلة أيضًا للذّهاب إلى السّطح، وحرقهم تمامًا لأسباب واضحة... كش مات. كش مات لك يا هنتر، كش مات لي، كش مات لنا كلّنا في المستقبل القريب إذا كنت قد فهمت ما قصدته، كشّر سوخي بمرارة.

سنرى، ردّ عليه هنتر على نحو مفاجئ: سنرى.

جلسا هناك فترة أطول قليلًا، يناقشان كلّ أنواع المواضيع. وذُكرت أسماء كثيرة في النّقاش لم تكن مألوفة لأرتيوم. وكانت ثمّة إشارات إلى أجزاء وقطع من القصص، ومن حين لآخر تومض حجّة قديمة لم يفهم منها أرتيوم سوى القليل. لكنّ نقاشاتهما كانت تدور منذ سنين كما هو واضح، وكانت تقلّ حين لا يرى الرّجلان بعضهما لفترة، وتشتعل ثانية لـمّا يلتقيان.

أخيرًا، وقف هنتر وقال إنّ وقت نومه قد حان لأنّه لم ينم منذ وقت دوريّته، على العكس من أرتيوم. ودّع سوخوي، ولكن قبل أن يغادر التفت إلى أرتيوم فجأة، وهمس له: اخرج لدقيقة واحدة.

قفز أرتيوم مباشرة، ولحق به دون أن ينتبه إلى النّظرة الّتي ظهرت على وجه زوج أمّه. انتظره هنتر في الخارج بصمت وهو يزرّر معطفه المطريّ، ويرفع مزلاج البوّابة.

هل سنمرّ؟ اقترح، وخطا إلى الأمام بسرعة على المنصّة نحو خيمة الضّيوف حيث يقيم. وتحرّك أرتيوم متردّدا ليتبعه، وحاول أن يخمّن ماذا يريد هذا الرّجل. هل يريد النّقاش معه وهو مجرّد صبيّ لم يقم بأيّ عمل هامّ أو مفيد لأيّ شخص حتّى الآن.

ما رأيك بالوظيفة الّتي أقوم بها؟ سأل هنتر.

إنّها ممتازة، أقصد إن لم تكن لك... حسنًا، والآخرون أمثالك، إن كان هناك مثل هؤلاء النّاس... لكنّنا منذ زمن طويل... دمدم أرتيوم وهو يشعر بالضّيق. انعقد لسانه، وشعر بالحرّ فجأة. كان يحمرّ من الخجل مثل فتاة عذراء، ويبدأ بالتّعذّب والثّغاء مثل حمل حالما ينتبه إليه أحد مثل هنتر ويريد أن يخبره بشيء حتّى لو كان مجرّد طلب أن يأتي معه إلى الخارج لدقيقة واحدة، لوحده دون زوج أمّه.

هل تنظر إليها باحترام؟ حسنًا، إذا نظر النّاس إليها باحترام. كشّر هنتر: فذلك يعني أنّه لا فائدة من الإصغاء إلى الانهزاميّين بيننا. كان زوج أمّك جبانًا. هذا كلّ الكلام، لكنّه رجل شجاع في الحقيقة. وبأيّ حال كان هكذا سابقًا. يحدث شيء مروّع هنا يا أرتيوم، شيء لا يمكن السّماح باستمراره. إنّ زوج أمّك على حقّ، فهؤلاء ليسوا الغيلان الّتي رأينا منها العشرات في محطّات أخرى، وليسوا الوندال (مخرّبو ممتلكات الآخرين) وليسوا المتفسّخين. هذا شيء جديد، شيء أحقر. هناك برودة في

الهواء. أنا هنا منذ يومين فقط، واخترقني الخوف مسبقًا، وكلما عرفت عنهم أكثر، ودرستهم أكثر، ورأيتهم أكثر، يزداد خوفك أكثر، أنت مثلًا هل رأيتهم كثيرًا؟

مرّة واحدة فقط حتّى الآن، لقد بدأت للتوّ بالعمل في الدوريّة الشماليّة، ومع ذلك... اعترف أرتيوم: حتّى أكون صادقًا، مرّة واحدة فحسب تكفي، فلقد تعذّبت بالكوابيس منذ ذلك الحين، كما حدث لي اليوم مثلًا بعدما رأيتهم ببرهة.

هل قلت كوابيس؟ أنت أيضًا؟ عبس هنتر: نعم، لا يبدو الأمر مصادفة، وإذا عشت هنا فترة أطول، لشهرين آخرين، وذهبت في دوريّات على نحو منتظم، عندها سأفسد أيضًا بلا شكّ. لا يا ولدي، زوج أمّك مخطئ، ومن تكلّم ليس أو هو وليس تفكيره. إنّهم هم الّذين يفكّرون عنه، وهم الّذين يتكلّمون عنه. هم من يقولون له استسلم، وأنّ المقاومة عقيمة. وهو النّاطق باسمهم. هو لا يعرف ذلك على الأرجح، وصحيح كما أخمّن أنّهم يولّفون النّاس. أصدقاء! أخبرني يا أرتيوم، التفت إليه هنتر مقتربًا، وقد فهم الصّبيّ الّذي كان على وشك أن يخبره شيئًا مهمًّا فعلًا، هل لديك سرّ؟ شيء لم تخبره لأحد في المحطّة، وتستطيع قوله لعابر سبيل؟

حسنًا... تردّد أرتيوم. أمّا بالنّسبة لشخص حادّ الملاحظة مثل هنتر، فهذا كافيا ليدرك وجود مثل ذلك السّرّ.

وأنا لديّ سرّ أيضًا. لماذا لا نتبادل أسرارنا؟ أحتاج إلى مشاركة أحد ما بهذا السرّ، لكن أريد أن أتأكّد من أنّه لن يفشيه. ولهذا السّبب أعطني سرّك، ولا تدعه يكون تذمّرا حول فتاة، وإنّما شيئًا هامًّا وخطيرًا. شيء يجب أن لا يسمعه شخص آخر أبدا سوانا. وأنا سأخبرك شيئًا وهذا مهمّ لي، مهمّ جدًّا. هل تفهم؟

اضطرب أرتيوم، وغلبه الفضول طبعًا، لكنّه ارتعب من إفشاء سرّه لرجل لم يكن التحدّث معه ممتعًا، وخاض مغامرات كثيرة. فضلًا عن أنّه كان قاتلًا قاسيًا، ولم يكن يتردّد البتّة في إزالة أيّ عقبة في طريقه.

نظر هنتر في عينيه مطمئنًا: ليس ثمّة شيء يجعلك تخاف منّي، أنا أضمن لك الحصانة، وغمز بودّ.

سارا معًا حتّى خيمة الضّيوف الّتي سُبق وأُعطيت لهنتر ليقضي ليلته فيها، لكنّهما بقيا في الخارج. فكّر أرتيوم ثانية وللمرّة الأخيرة، وقرّر ماذا سيفعل. استنشق المزيد من الهواء، ثمّ وبنفس واحد وبسرعة كشف عن قصّة رحلتهم إلى الحدائق النباتيّة كلّها. وحين أنهى قصّته، ظلّ هنتر صامتًا لبرهة، يهضم ما سمعه ويتأمّله، ثمّ قال بصوت أجشّ: حسنًا... عمومًا، يجب أن تُقتل مع أصدقاءك لفعلتكم هذه من وجهة نظر انضباطيّة، لكنّي ضمنت لك الحصانة مسبقًا، أمّا أصدقاؤك فلن يشملهم ذلك.

وثب قلب أرتيوم، وشعر أنّ جسده تجمّد من الخوف، وترنّحت ساقاه. لم يقدر على الكلام وانتظر في صمت من أجل الحكم.

ولكن بسبب عمرك، وحماقة ما فعلتم، وحقيقة أنّه حدث منذ زمن بعيد، فقد تمّ العفو عنك. استمر، ولكي يخرج أرتيوم من انهياره بوقت أسرع، غمزه هنتر مرّة أخرى،

وكان أرتيوم مطمئنًا أكثر هذه المرّة. ولكن اعلم أنّك لن ترى أيّ رحمة برفاقك السّاكنين في هذه المحطّة، لهذا أنت سلّمتني طوعًا سلاحًا جبًّارا ضدّ نفسك، والآن استمع إلى سرّي.

وبينما كان أرتيوم يعتذر، تابع هنتر قائلًا: أنا لم أعبر منظومة المترو كلّها، وجئت إلى هذه المحطّة بدون مبرّر. وأنا لن أتخلّى عن واجبي. ويجب أن يستأصل الخطر كما سمعت مرّات كثيرة اليوم. يجب ذلك، وسوف يُستأصل. وأنا سأفعل ذلك. زوج أمّك خائف منه، إنّه يتحوّل إلى أداة لهُم ببطء حسب ما أرى، وهو يقاومهم بتردّد، أكثر فأكثر، ويحاول أن يكسبني للانضمام إليه. إذا كان موضوع الماء الأرضيّ صحيح عندها سيكون خيار تفجير النّفق مُلغى طبعًا. لكنّ قصّتك وضّحت لي شيئًا. إذا وجد الدّارك ونز طريقهم إلى هنا بعد بعثتكم، فإنّهم جاؤوا من الحدائق النّباتيّة. فهناك شيء غير سليم ينمو في الحدائق النّباتيّة. وإن كان ذلك هو المكان الّذي ولدوا فيه، فذلك يعني أنّنا نستطيع سدّ طريقهم هناك، وهذا أقرب الى السّطح دون التّهديد بإطلاق عنان المياه الأرضيّة. لكنّ الشّيطان وحده يعرف ماذا يحدث في المتر سبعمائة من النّفق الشّماليّ. فهناك تنتهي سلطاتنا وقوّتنا، وتبدأ قوّة وسلطة الظّلام، الحكومة الأوسع انتشارًا في منظومة المترو كلّها. أنا سأذهب إلى هناك، ويجب أن لا يعرف أحد بهذا. أخبر سوخوي أنّني سألتك الكثير من الأسئلة عن أحوال المحطّة، وستكون تلك الحقيقة. لا يجب أن تشرح أيّ شيء. مفهوم. إن سار كلّ شيء بسلاسة، فسأشرح كلّ شيء لكلّ من يحتاج المعرفة. لكن يمكن أن... تتوقّف لمدّة ثانية واحدة، ونظر إلى أرتيوم عن قرب أكثر، لا أعود. إن كان هناك انفجار أم لا، إن لم أرجع قبل صباح اليوم التّالي، يجب على أحد ما أن يخبر عمّا حدث لي، ويخبر زملائي عن الشّياطين الّذين سبّبوا المشاكل في أنفاقكم الشّماليّة. أنا رأيت كلّ معارفي السّابقين هنا في هذه المحطّة، ومن ضمنهم زوج أمّك. وأكاد أرى أنّه ثمّة دودة صغيرة من الشّكّ والرّعب، تدبّ في أدمغة كلّ واحد تعرّض لتأثيرهم. أنا لا أستطيع الاعتماد على أناس بأدمغة يأكلها الدّود. أحتاج إلى شخص سليم ومعافى لم تقتحم هذه الغيلان قدرته على التّفكير والاستنتاج، وتعصف بها. أنا أحتاجك.

تحتاجني أنا؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟ كان أرتيوم مُندهشًا ومتفاجئًا.

أصغِ إليّ، إذا لم أرجع يجب عليك بأيّ تكلفة،بأيّ تكلفة، أتسمع؟ أن تذهب إلى بوليس، إلى غورود... وتبحث هناك عن رجل لقبه ميلنك، وتخبره بكامل القصّة. وهناك شيء آخر، سأعطيك شيئًا تعطيه له كدليل على أنّني أنا من أرسلك، تعال إلى الدّاخل لدقيقة واحدة.

نزع هنتر قفل المدخل، ورفع طرف الخيمة ودخل مع أرتيوم.

لم يكن هناك فسحة كبيرة في الخيمة بسبب حقيبة ظهر مموّهة ضخمة وصندوق واسع على نحو يُثير الإعجاب، وضعا على الأرض. وعلى ضوء المصباح رأى أرتيوم ماسورة بندقيّة سوداء تلمع في أعماق الحقيبة، كانت بندقيّة آليّة يدويّة أعاد الجيش تجميعها. وقبل أن ينجح هنتر بإغلاق الحقيبة، لمح أرتيوم صندوقًا معدنيًّا أسود باهتًا، يحتوي على مخازن بندقيّة آليّة، وضعت في صفّ مزدحم بجانب

السّلاح، وقنابل يدويّة خضراء صغيرة، مضادّة لأفراد المشاة، على الجانب الآخر للسّلاح. ودون أيّ تعليق على مستودع السّلاح هذا، فتح هنتر الجيب الجانبيّ من حقيبته، وسحب كبسولة صغيرة منه، مصنوعة من غلاف خرطوشة بندقيّة آليّة، جعّد طرفها الّذي يجب أن يكون فيه رصاصة، وحوّلها إلى لفّة صغيرة.

خذ هذه، ولا تنتظرني أكثر من يومين. ولا تخف، ستقابل أناسًا يساعدونك في كلّ مكان. يجب عليك أن تقوم بهذا، أنت تعرف أنّ كلّ شيء معتمد عليك. ولستُ مضطرًّا إلى شرح ذلك لك، صحيح؟ هكذا هو الوضع، تمنّى لي النّجاح، واخرج من هنا، أريد أن أحظى ببعض النّوم.

نجح أرتيوم في التلفّظ بكلمة الوداع، وصافحه هنتر باليد وبدأ يتجوّل في خيمته وقد حنى ظهره ثِقل المهمّة الملقاة عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث: إذا لم أرجع

كان أرتيوم متأكّدًا من أنّه سيخضع للاستجواب حالما يصل إلى البيت. سيعصره زوج أمّه، ويحاول أن يعرف ما دار بينه وبين هنتر. ولكن على العكس من توقّعاته لم يكن زوج أمّه بانتظاره، بآلة تعذيب وحذاء إسبانيّ طويل السّاق. بل كان يشخر بسلام وهدوء، حيث لم تتوفّر له فرصة نوم في السّاعات الأربع وعشرين الأخيرة. وبما أنّ أرتيوم كان في دوريّة ليليّة، فقد نام في ذلك النّهار لأنّه سوف يعمل في النّوبة اللّيليّة، وهذه المرّة في مصنع الشّاي.

عقود من الحياة تحت الأرض، في ظلام موشّى برقع من ضوء أحمر بليد، تجعلك تفقد إحساسك الحقيقيّ باللّيل والنّهار. في اللّيل يكون ضوء المحطّة أضعف قليلًا (كما كان في القطارات قبل زمن طويل، لكي يستطيع النّاس النّوم) لكنّ الأضواء لا تُطفأ تمامًا إلّا في حالة حادث مشؤوم ومفاجئ. بيد أنّ الوضع تفاقم جرّاء سنوات من العيش في الظّلام، وكان بصر البشر مشابهًا لبصر المخلوقات الأخرى الّتي عاشت في الأنفاق والممرّات المهجورة.

لقد حدثت القسمة بين النّهار واللّيل بقوّة العادة على الأرجح أكثر من قوّة الضّرورة. حيث بدا اللّيل مقبولًا لأنّ غالبيّة السكّان في المحطّة يكونون فيه أكثر راحة، مع فكرة أنّ الجميع نيام في الوقت نفسه. فيتركون القطيع يرتاح، ويطفئون الأنوار، ويفرضون قيودًا على الضّجيج. ويستطيع النّاس معرفة الوقت بواسطة ساعتي المحطّة الجداريّتين المتوضّعتين على طرفي النّفق. اعتُبرت السّاعتان شيئًا استراتيجيًّا مثل مخزن السّلاح، ومصافي المياه، والمولّد الكهربائيّ، وكانتا تحظيان برعاية دائمة، وتُعالج أصغر علّة فيهما على الفور، وأيّ منتهك يحاول إنزالهما أو نزعهما، يعامل بصرامة شديدة ويُرسل من المحطّة إلى منفى أحيانًا.

هنا، في فدنكه، يوجد قانون جنائيّ يُحاكَم به المجرمون في محاكمات سريعة، ويطبّق دائمًا على الأوضاع غير العاديّة الّتي تحلّ، ثمّ تشرّع قواعد قانونيّة جديدة بعد ذلك. أيّ عمل ضدّ الأشياء الاستراتيجيّة يجلب على فاعله أشدّ العقوبات وأقساها. في حالات التّدخين وإشعال النّيران على المنصّات، والتّعامل الطّائش مع الأسلحة والمتفجّرات يُطرد المرتكب من المحطّة أيضًا، فورًا، وتُصادر ملكيّته.

هذه الإجراءات القاسية جدًّا تفسّرها حقيقة احتراق الكثير من المحطّات، وتحوّلها الى رماد. تنتشر النّيران عبر مدن الخيام الصّغيرة في الحال، وتلتهم كلّ شيء، وتظلّ صرخات وحشيّة من الألم المبرّح ترنّ في آذان المحطّات المجاورة لمدّة أشهر بعد ذلك، وتلتصق الأجساد المتفحّمة بالبلاستيك المنصهر، وقماش الخيام، وتتكسّر الأسنان من حرارة اللّهب التي لا يمكن تصوّرها في ضوء المصابيح الّتي يحملها تجّار مرعوبون أتوا صدفة إلى جحيم المسافرين هذا.

وليتجنبوا تكرار مثل هذا المصير المروّع في المحطّات الأخرى، أصبح إشعال النّار الطّائش جريمة جنائيّة خطيرة. وكانت السرقة وأعمال التّخريب، والتهرّب من

العمل، جرائم يُعاقب عليها بالنّفي أيضًا. ولكن باعتبار أنّ كل واحد تقريبًا كان مرئيًّا للآخر، ولم يكن في المحطّة سوى مائتي ساكن، كانت هذه الأعمال نادرة ولا يرتكبها سوى الغرباء عادة.

والعمل كان إجباريًّا، ويجب على كلّ صغير أو كبير أن يُنجز حصّة عمل يوميّة: مزرعة الخنازير، ومزرعة الفطر، ومصنع الشّاي، ومصنع تعليب اللّحوم، وخدمات الإطفاء والمهندسين، ومتجر الأسلحة، كلّ ساكن يعمل في واحد أو اثنين من تلك الأماكن، ويُطلب من الرّجال أيضًا أن يؤدّوا واجبًا عسكريًّا في واحد من الأنفاق، كلّ ثمان وأربعين ساعة. وحين ينشأ نوع من أنواع الصّراع، ويظهر خطر جديد من أعماق المترو، تُعزّز الدّوريّات، وتُوضع بعض القوّة الاحتياطيّة في الطّرق، في حالة جاهزيّة.

كانت الحياة مرتّبة، ومنظّمة هنا على نحو دقيق جدًّا، وقد وطّدت «دي إن كي إتش» سمعة طيّبة بفضل هذا.

هناك الكثيرون تمنّوا أن يعيشوا في فدنكه، ولكن قَبول الغرباء في المستوطنة كان أمرًا نادرًا. بقي هناك بضع ساعات أخرى على نوبة مصنع الشّاي اللّيليّة، ولم يعرف أرتيوم ماذا يفعل. مشى جاهدًا ليرى صديقه جينيا، وهو الشّاب نفسه الّذي تولّى المغامرة المدوّخة إلى السّطح. كان جينيا بعمره، لكنّه على خلاف أرتيوم، فهو مع عائلته الحقيقيّة: والده ووالدته، وأخته الّتي تصغره بالعمر. هناك قدر ضئيل من الأحداث مع هذه العائلة، حيث كان إنقاذ عائلة كاملة ممكنًا حينها. حسد أرتيوم صديقه سرًّا. مع أنّه أحبّ زوج أمّه كثيرًا، واحترمه حتّى بعد أن تغلّب عليه غضب الرّجل. ولكن على الرّغم من هذا عرف أنّ سوخوي لم يكن والده، ولا يمتّ له بصلة أبدًا، ولم يناده قطّ (أبي).

في البداية، طلب سوخوي من أرتيوم أن يناديه (العم ساشا) لكنّه ندم على ذلك لاحقًا. لقد مرّت السّنون وذئب النّفق القديم لم ينجح في تأسيس عائلة خاصّة به، ولم يكن لديه امرأة تنتظر عودته من حملاته. وكان قلبه يدقّ بقوّة حين يرى أمًّا وطفلها. وحلم بأنّه سيأتي يوم لن يتوجّب عليه فيه أن يخرج، ويدخل في الظّلام، وأن يختفي من حياة المحطّة لأيّام وأسابيع، وربّما إلى الأبد. وتمنّى أيضًا أن يجد امرأة تكون مستعدة لتكون زوجة له، وتحمل له أطفالًا لا ينادونه (العم ساشا) عندما يتقنون الكلام، وإنّما ينادونه (بابا) وكان كبر السّنّ والضّعف يقتربان منه أكثر، والوقت المتبقّي يقلّ أكثر وأكثر، وهو بحاجة لأن يعجّل. ولكنّ التّوقّف من أجل حياته كان صعبًا جدًّا رغم كلّ هذا. فقد توالت المهمّات، الواحدة تلو الأخرى، ولم يستطع أن يجد أحدًا يتولّى عمله، ويأتمنه على علاقاته وأسراره المهنيّة، فيتفرّغ العم ساشا لعمل غير يدويّ في المحطّة أخيرًا. لقد فكّر طويلًا في القيام بعمل أقل تعبًا، وعرف أنّه يمكنه أن ينسحب إلى وظيفة إشراف في المحطّة بفضل سلطته، وسجلّه الممتاز، وعلاقاته الودّيّة مع الإدارة. ولكن الآن لا يوجد بديل عنه، ولا في الأفق القريب. لهذا علّل نفسه بأفكار تتعلّق بمستقبل سعيد، وعاش يومه مؤجّلًا عودته النّهائيّة، ومستمرًّا في بذل عرقه ودمه، من أجل غرانيت المحطّات الأخرى، وإسمنت الأنفاق النّائية.

عرف أرتيوم أنّ زوج أمّه لم يعتبره خليفته في المسائل المهنيّة رغم الحبّ الأبويّ الّذي يكنّه له. وعلى الأغلب كان يحسب أرتيوم شخصًا أحمق لا يستحقّ هكذا مسؤوليّة نهائيًّا. فهو لم يأخذ أرتيوم في الحملات الطّويلة، متجاهلًا حقيقة أنّ أرتيوم كبر ونضج. ولم يعد يقنع بأنّه مايزال صغيرًا، أو بأنّ الزّومبي سيجرّونه، أو بأنّ الجرذان ستأكله. لم يفهم أنّ التّعبير عن نقص ثقته في أرتيوم دفع بالصّبيّ إلى مغامرات متهوّرة يائسة عاقبه عليها فيما بعد. لقد أراد على الأرجح، ألّا يخضع أرتيوم إلى خطر التجوّل الأحمق المميت في المترو، وإنّما سمح للصّبيّ بأن يعيش بالطّريقة الّتي أرادها سوخوي لنفسه أن يعيشها، في سلام وأمان، يعمل ويربّي أطفالًا، ولا يضيّع شبابه بلا سبب. ولكن خلال تمنّيه حياة كهذه لأرتيوم، نسي أن يكافح هو من أجل هذه الحياة لنفسه، ومرّ عبر النّار والماء، ونجح في النّجاة في مئات المغامرات، وكان مسروراً بها. والحكمة الّتي اكتسبها مع السّنين لم تكن تتكلم معه بعد الآن، وكلّ ما تكلّم معه هي السّنين نفسها والإرهاق الّذي جلبته. لدى أرتيوم طاقة تغلي وتفور داخله، فقد بدأ الحياة للتوّ، وبدا له منظر الكدح في بقايا نباتيّة من الفطر المفتّت والمجفّف، وتبديل الحفّاضات، واستحالة الذّهاب أبعد من المتر خمسمائة، أشياء لا يمكن تخيّلها إطلاقًا. وكانت الرّغبة في الفرار من المحطّة تكبر فيه يوميًّا بعدما أدرك بوضوح أكبر، الحياةَ الّتي يرسمها له زوج أمّه. إنّ مهنة العامل في مصنع الشّاي، ووظيفة الأب مع الكثير من الأولاد، كانت أقلّ إغراء له من أيّ شيء على وجه الأرض.

لقد جذبته المغامرة، وأراد أن تحمله سيول النّفق مثلما حملت تمبل ويد، وأن يتبع هذه السّيول إلى المجهول ليلتقي بقدره، وهذا ما رآه فيه هنتر ربّما. ولذا طلب منه أن يشارك في مغامرة فيها خطر هائل. هذا الرّفيق، هنتر، لديه حاسّة شمّ دقيقة، حين يتعلّق الأمر بالنّاس. وبعد ساعة واحدة من المحادثة بينهما، أدرك أنّه يستطيع اقتراح خطّة لأرتيوم. حتّى لو لم يصل أرتيوم إلى المكان المختار، فعلى الأقلّ ثمّة أمل في مغادرة المحطّة وتركها وفقًا لأوامره في حال حدوث شيء لهنتر في الحدائق النّباتيّة.

لم يكن هنتر مخطئًا في اختياره. ولحسن الحظّ جينيا كان في البيت، ويستطيع أرتيوم الآن قضاء المساء هناك ليناقشا آخر الأقاويل، ويتحدّثا عن المستقبل أثناء شرب الشّاي.

عظيم، هتف صديقه ردًّا على تحيّة أرتيوم أنت: أيضًا في مهمّة ليليّة في المصنع، اليوم؟ لقد وضعوني هناك أيضًا. وأنا مللت منها، وأردت أن أطلب من الرّئيس أن يبدّلني. ولكن إذا وضعوني معك فهذا رائع، أستطيع التّعامل مع الأمر حينها. كنتَ في الدّوريّة اليوم، أليس كذلك؟ حسنًا، أخبرني فقد سمعت أنّه كان لديكم حالة طوارئ هناك. ماذا حدث؟

ألقى أرتيوم نظرة جانبيّة إلى أخت جينيا الصّغيرة لمّا أصبحت مهتمّة بحديثهما، وعندما توقّفت عن حشو بقايا الفطر داخل الدّمية الخِرقة الّتي خيّطتها لها أمّها، وصارت تراقبهما بأنفاس محبوسة وعينين مدوّرتين، من طرف الخيمة.

اسمعي أيّتها الصغيرة، قال جينيا بصرامة بعد أن فهم قصد أرتيوم (أنتِ، تابعي، اخرجي من هنا مع شيئك الصّغير هذا، واذهبي والعبي عند الجيران، أظنّ أنّ كاتيا دعتك إلى خيمتهم. ويجب أن نكون ظرفاء مع الجيران، لذا، اذهبي وخذي دميتك الصّغيرة معك) عبّرت الفتاة الصّغيرة عن سخطها، وبدأت تجمع أشياءها، ونظرة كئيبة تعلو وجهها، ثمّ أومأت للعبتها الّتي كانت تنظر نظرة فارغة إلى الأعلى حيث السّقف، بعينيها شبه الممحيّتين: تظنّان أنّكما مهمّان جدًّا، على أيّ حال أنا أعرف كلّ شيء.

أنت يالينكا، ما تزالين صغيرة جدًّا على مناقشة موضوع الفطر. حتّى الحليب الّذي على شفتيك لم يجفّ بعد. وضعها أرتيوم في مكانها.

أيّ حليب؟ سألت الفتاة وارتبكت، ولمست شفتيها.

لكنّهما لم يهتمّا بأن يشرحا لها، وظلّ السّؤال معلّقًا في الهواء.

بعد أن غادرت، ربط جينيا أطراف الخيمة، وسأل: حسنا، ماذا حدث؟ استمر، تكلّم، لقد سمعت الكثير عنها مسبقًا. أحد الفتيان قال إنّ جرذًا ضخمًا زحف وخرج من النّفق. وقال فتى آخر إنّك خفت من أن يكون جاسوسًا للدّاكنين، وإنّك جرحته حتّى. فمن يجب أن نصدّق؟

لا تصدّق أحدًا، نصحه أرتيوم: كلّهم يكذبون. لقد كان كلبًا، بل جروًا صغيرًا، التقطه أندريه البحّار، وقال إنّه كلب رعي ألمانيّ شديد الذّكاء. ابتسم أرتيوم.

نعم، لكنّي سمعت من أندريه أنّه كان جرذًا، قال جينيا حائرًا: هل كذب عمدًا؟ أو ماذا؟

ألا تعرف أنت؟ ذلك هو شعاره المفضّل، الشّعار عن الجرذان الّتي بحجم الخنازير، إنّه ممثّل هزليّ كما ترى. ردّ أرتيوم: وأنت، ما الجديد عندك؟ ماذا سمعت من الصّبيان؟

كان أصدقاء جينيا تجّارا، يقومون بتوصيل الشّاي ولحم الخنزير، إلى السّوق في بروسبيكت، ويجلبون معهم الفيتامينات والقماش، وكلّ أنواع السّلع المستعملة، وأحيانًا يجلبون الزّيت، وأحيانًا أخرى يجلبون كتبًا متّسخة فقدت منها صفحات كانت قد أحضرت أخيرًا إلى بروسبيكت مير، على نحو غامض بعد أن قطعت نصف منظومة المترو وهي تنتقل من صندوق لآخر، ومن جيب لآخر، ومن تاجر لآخر، قبل أن تجد مالكيها المناسبين.

كانوا فخورين في فدنكه بحقيقةٍ وهي أنّهم رغم المسافة البعيدة عن المركز وطرق التّجارة الرّئيسية، لم يكن المستوطنون هناك قادرين على البقاء والتّغلّب على الظّروف الّتي كانت تزداد سوء كلّ يوم فحسب، وإنّما على المحافظة داخل المحطّة على الثّقافة الإنسانيّة الّتي كانت تحتضر تحت الأرض بسرعة.

حرصت إدارة المحطّة على أن تُولي هذه القضيّة أقصى اهتمام ممكن، وكان تعليم الأطفال القراءة إجباريًّا، حتّى أنّ لدى المحطّة مكتبتها الصّغيرة الخاصّة بها،

تَضاف إليها كل الكتب التي ينجحون في تحصيلها من الأسواق. والمشكلة أنّ التجار لا يختارون الكتب في الحقيقة، وإنّما يجلبون ما يُعطى لهم، ويجمعونها كما لو كانت خردة ورق.

ولكنّ النّاس في المحطّة يُجلّون الكتب كما لو كانت تذكارات، ومذكّرا أخيرًا بالعالم الرّائع الّذي غرق في عالم النّسيان. فلذلك هم لا يمزّقون صفحة واحدة خشنة من أسخف رواية خياليّة. والأشخاص البالغون الّذين قدّسوا كلّ ثانية من المذكّرات الّتي قرؤوها، نقلوا حبّ الكتب هذا إلى أولادهم الّذين لا يملكون شيئًا يذكّرهم بالعالم الآخر، ولم يعرفوا سوى الأنفاق المتقاطعة الكئيبة الّتي لانهاية لها، والدّهاليز والممرّات.

في المترو توجد أماكن قليلة جدًّا فقط تؤلّه فيها الكلمة المكتوبة بهذا الشّكل، وساكنو فدنكه يعتبرون أنفسهم أحد حصون الثّقافة الأخيرة، وأهمّ مركز للحضارة في الشّمال على خطّ كلاجسكو-ريجيسكوي.

قرأ أرتيوم الكتب أيضًا، وكذلك فعل جينيا. حيث كان جينيا ينتظر عودة أصدقائه التّجّار من السّوق. وحين يصلون يهرع إليهم ليسألهم إن جلبوا أيّ شيء جديد. وهكذا كانت الكتب تقع بيد جينيا أوّلًا، ومن ثمّ تذهب إلى المكتبة.

كان زوج أمّ أرتيوم يجلب لأرتيوم كتبًا من حملاته، كما أنّ لديهما رفّ كتب كاملًا في خيمتهما. اصفرّت الكتب على الرّفّ، وكانت الفئران تأكلها أحيانًا، والعفن أحيانًا أخرى. وبعضها تكون مرشوشة ببقع بنّيّة من الدّم. إنّ لديهما أشياء لا يمتلكها غيرهما في المحطّة، وربّما في كلّ منظومة المترو: ماركيز، وكافكا، وبرغيس، وفيان، وبعض الكتّاب الرّوس من الطّراز الأوّل.

الفتيان لم يجلبوا شيئًا هذه المرّة، وقال جينيا: ليخا يقول إنّ حملًا من الكتب سيحضره فتى في بوليس، ووعد أن يجلب زوجين منها إلى هنا.

أنا لا أفكّر في الكتب، قال أرتيوم: وإنّما فيما سمعت، كيف هو الوضع؟

الوضع؟ لا شيء كما يبدو. ثمّة إشاعات من كلّ نوع طبعًا، لكنّ ذلك ليس مختلفًا عن العاديّ. أنت تعرف أنّ التّجّار لا يمكنهم البقاء دون أقاويلهم وقصصهم، فهم يذبلون ويتلاشون، إن لم تغذّهم ببضع إشاعات. لكن إذا كنت ستصدّق هراءهم أم لا، فهذه قضيّة أخرى. يبدو كما لو أنّ كلّ شيء هادئ لو قارنته مع الأوقات الّتي كانت فيها هانسا في حرب مع الحمر، لكن انتظر، تذكّر شيئًا: في بروسبيكت مير منعوا بيع الأعشاب الضّارّة. وإن وجدوا الآن أيّ أعشاب ضارّة عند تاجر، يصادرونها كلّها ويطردونه من المحطّة، ويضعون اسمه على السّجل أيضًا. وإن وجدوها عنده مرّة ثانية لا يسمحون له بدخول هانسا لبضع سنين كما قال ليخا، وهذا هو الموت بالنّسبة للتّاجر.

هيّا، ماذا؟ هل منعوها فحسب؟ بماذا يفكّرون؟

يقولون إنّهم اعتبروها مخدّرًا يؤثّر على الطّريقة الّتي ترى فيها الأشياء، وإذا تعاطيتها مرّات كثيرة سيبدأ دماغك في التّآكل. وهم يفعلون ذلك لأسباب صحيّة.

يجب أن يعتنوا بصحّتهم، لم قلقوا علينا فجأة؟

أتعرف؟ قال جينيا بصوت منخفض: قال ليخا إنّهم أخمدوا كلّ أنواع (المس إنفو) المُضرّة بالصّحّة.

وما هو المس إنفو؟ سأل أرتيوم بدهشة.

المعلومات الكاذبة. اسمع، مشى ليخا مرّة بمحاذاة الخطّ، وتجاوز بروسبيكت مير، ووصل إلى سوخاريفسكايا. وكان يقوم ببعض التّجارة السّرّيّة،لم يقل ما هي، وهناك قابل رجلًا معمَّرا ظريفًا، وكان الرّجل مشعوذا.

من؟ لم يستطع أرتيوم مسك نفسه، فقهقه ضاحكًا: مشعوذ في سوخاريفسكايا؟ هيّا، إنّ صديقك ليخا يكذب عليك، وماذا؟ هل أعطاه المشعوذ عصًا سحريّة أم عودًا يتحوّل إلى زهرة؟

أنت أبله، قال جينيا باستياء: هل تعتقد أنّك تعرف كلّ شيء؟ أنّك لم تلتق بسحرة لا يعني أنّهم غير موجودين، هل تصدّق بوجود المتحوّلين في فيلفسكي؟

ومن يحتاج إلى أن يصدّق ذلك؟ هم هناك، وهذا واضح جدًّا. زوج أمّي أخبرني عنهم، لكن لم أسمع قطّ عن وجود السّحرة.

على الرّغم من احترامي الكبير لسوخوي، إلّا أنّني لا أظنّه يعرف كلّ شيء في كلّ العالم. وربّما هو لم يُرد أن يخيفك فقط. وإن كنت بالأساس لا تريد أن تسمع عنهم فتبًّا لك.

حسنًا، حسنًا يا جينيا، تابع، فهو بأيّ حال شيء ممتع. حتّى لو بدا مثل... كشّر أرتيوم.

حسنًا. هم يقضون اللّيل بجانب نار الموقد، ولا أحد يعيش في زوخاريفسكايا بشكل دائم كما تعرف. لهذا يتوقّف التّجّار من المحطّات الأخرى هناك لأنّ سلطات هانسا تُبعدهم من بروسبيكت مير بعد إطفاء الأنوار. حسنًا، وكلّ الحشد ينتظر هناك، مشعوذون متنوّعون ولصوص، كلّهم يلتصقون بالتّجّار، كما يستريح جوّالون متنوّعون هناك أيضًا قبل أن يتوجّهوا إلى الجنوب. لهذا، ينتشر في الأنفاق بعد زوخاريفسكايا نوع من الفوضى. ولا أحد يعيش هناك، لا جرذان ولا متحوِّلين. والنّاس الّذين يحاولون المرور عبر تلك الأنفاق يختفون غالبًا، يختفون تمامًا، ولا يبقى لهم أيّ أثر. وراء زوخاريفسكايا تورغينيفسكايا. إنّها بجانب الخطّ الأحمر، وهناك ممرّ إلى كريستي برودي، لكنّ الحمر سمّوها كيروف مرّة أخرى. ويقولون إنّ شيوعيًّا كان يحمل ذلك الاسم... والنّاس خائفون من العيش قرب تلك المحطّة. وقد وضعوا جدارًا حول الممرّ، أمّا الآن تورغينيفسكايا فارغة ومهجورة.

هذا النّفق هناك، الممتدّ من زوخارفسكايا إلى أقرب مستوطنة بشريّة، طويل جدًّا. وهناك يختفي النّاس، ففي حال ذهب النّاس واحدًا تلو الآخر، فإنّهم لن ينجحوا في ذلك بالتّأكيد. ولكن لو يذهبون في قافلة فيها أكثر من عشرة أشخاص، فإنّهم سيمرّون. إنّه لا شيء كما يقولون، مجرّد نفق عاديّ، نظيف وهادئ، وليس فيه أيّ

ممرّات جانبيّة. ولا يبدو فيه وجود أيّ مكان للاختفاء، لم تَر هناك روح واحدة أو صوت، أو دابّة... ومن ثمّ في اليوم التّالي، يسمع أحد عن النّفق أنّه كان نظيفًا وسهلًا، فيبصق على الخرافة، ويذهب في داخل النّفق لوحده، ثمّ مثل ملاعبة الطّفل، مرّة تراه، ومرّة لا تراه.

كنت قد قلت شيئًا عن مشعوذ، ذكّره أرتيوم بهدوء.

سآتي على سيرة المشعوذ، انتظر دقيقة، قال جينيا: إليك قصّته، خاف النّاس من الذّهاب لوحدهم عبر هذا النّفق إلى الجنوب، وبحثوا عن رفاق زوخاريفسكايا ليستطيعوا العبور معًا. وإذا لم يكن يومًا من أيّام السّوق، فلن يكون هناك أشخاص كثيرون. وكانوا أحيانًا ينتظرون أيَّاما وأسابيع حتّى يكون هناك ما يكفي من النّاس للانطلاق في رحلتهم. لهذا، كلّما كان النّاس أكثر كانت الرّحلة أكثر أمانًا. ويقول ليخا: إنّ المرء يقابل أحيانًا أشخاصًا ممتعين هناك. ويوجد وفرة من المتبطّلين أيضًا، وعليك أن تعرف كيف تفرّق بينهم. لكن أحيانًا لا تكون محظوظًا، وهكذا التقى ليخا بمشعوذه هناك. إنّه ليس كما تظنّ، وليس المارد الّذي يخرج من المصباح...

المارد كان جنّيًّا وليس ساحرًا، صحّح له أرتيوم بحذر، لكنّ جينيا تجاهل تعليقه، وواصل: كان الفتى منجِّما، قضى نصف حياته يدرس كلّ أنواع الأدب الصوفيّ، وقد أخبر ليخا عن فتى من كاستاندا. لهذا يقرأ الرّجل كثيراً، وينظر في المستقبل ويجد الأشياء الضّائعة، ويعرف عن الأخطار المستقبليّة، ويقول إنّه يرى الأرواح. هل تتخيّل؟ إنّه حتّى... توقّف جينيا على نحو مفاجئ يذهب عبر المترو دون سلاح، أقصد أعزلَ تمامًا، لا يملك سوى مطوى لتقطيع الطّعام، وعصا بلاستيكيّة أيضًا. هل تفهم؟ ويقول إنّ كلّ من يأخذ العشبة الضارّة، وكلّ الاشخاص الّذين يشربون أيضا، هم مجانين. لأنّها ليست كما نظنّ أبدًا، فهي ليست من النّبات الحقيقيّ، وذلك الفطر ليس فطرًا أيضًا. إنّ هذا الضّرب من الفطور لم ينبت في المنطقة المركزيّة أبدًا من قبل. وقد بحثت في كتاب عن الفطور في أحد الأيّام، وهو كتاب صحيح، ولم أجد فيه كلمة واحدة عن أنواع الفطور الّتي لدينا هنا، وليس هناك شيء يشبهها ولو من بعيد. هؤلاء الّذين يأكلونها، ويعتقدون أنّها مجرّد مادّة تُسبّب الهلوسة، ويستطيعون مشاهدة الرّسوم الكاريكاتوريّة عليها، مخطئون تمامًا كما يقول المشعوذ. ولو طبخت هذا النّوع من الفطور بطريقة مختلفة قليلًا يمكنك عندئذ أن تدخل في حالة تستطيع فيها تعديل الأحداث وتنظيمها في العالم الحقيقيّ.

الّذي لديك هنا ليس مشعوذًا فقط، بل مشعوذ أشبه بمدمن مخدرّات، صرّح أرتيوم بقناعة: الكثير من النّاس هنا يتسلّون بالنّبتة الضّارّة لكي يسترخوا كما تعرف، ولم يدمن أو يتعوّد عليها أحد على النّحو الّذي ذكرت. فذاك هو مدمن مئة بالمئة، ولن يعمّر طويلًا. اسمع، أخبرني العمّ ساشا هذه القصّة: هناك محطّة ما لا أتذكر أيّها، حيث جاء إليه رجل مسنّ لا يعرفه، وأخبره أنّه يمتلك حاسّة جبّارة إضافيّة، وأنه يشنّ حربًا مستمرّة مع خوارق طبيعيّة، وغرباء حقودين وماكرين، وأنّهم كادوا يهزمونه، وأنّ كلّ قوّته تُستنزف في القتال. والمحطّة مثل زوخاريفسكايا، نصف محطّة حيث يجلس النّاس حول المواقد في وسط المنصّة بعيدًا عن فم النّفق، وبهذا

يحصلون على قسط من النّوم قبل أن يواصلوا المسير. وهناك، دعني أقول، كان ثلاثة فتيان مرّوا بزوج أمّي والرّجل المسنّ، فقال الرّجل المسنّ له مرتعبًا: هل ترى هناك، ذلك الشّخص الّذي في الوسط، إنّه واحد من الخوارق الرّئيسيّة الشّرّيرة، وواحد من أتباع الظّلام. والاثنان على جانبيه من الغرباء المغايرين يساعدانه، وقائدهم يعيش في أعمق نقطة في المترو. وقال أيضًا: هم لا يريدون أن يأتوا إلّي لأنّك تجلس معي، ولا يريدون للنّاس العاديّين أن يعرفوا شيئًا عن قتالنا، لكنّهم يهاجمونني بطاقتهم الآن، وفي هذه اللّحظة. وأنا أرتدي درعًا، وسوف أواصل القتال. هل تعتقد أنّ الأمر مضحك؟ لكنّ زوج أمّي لم يعتبره مضحكًا في وقته. تخيّل، من يعرف ماذا يمكن أن يحدث في ركن مهجور من المترو... أنا أعرف أنّ الأمر يبدو هراء، لكنّ الفتى الّذي كان يمشي مع الغرباء المغايرين على جانبيه نظر إليه باحتقار، وهناك شيء يومض في عينيه.

يا له من قذر! قال جينيا غير مصدّق.

ربّما يكون قذرًا، لكنّك تعرف جيّدًا أنّه يجب أن تكون مستعدًّا لأيّ شيء في المحطّات البعيدة. وقال الرّجل العجوز لزوج أمّي إنّه سيواجه معركته النّهائيّة مع الخارقين الأشرار قريبًا. وإذا خسر وكانت قواه أقلّ من قواهم، عندها ستكون نهاية كلّ واحد. وقال سابقًا كانت هناك خوارق أكثر إيجابيّة، وكانت المعركة متعادلة، لكن الآن بدأت الخوارق السّلبيّة تنتصر. وهذا العجوز كان واحدًا من آخر الصّامدين، وربّما الصّامد الوحيد الأخير، وحتّى إن قتل سينتصر الشرّ عندها. كش مات.

نحن مُسبقًا في وضع كش مات، برأيي، قال جينيا.

حسنًا، لنقل إنّنا لسنا في وضع كش مات تمامًا. فماتزال هناك إمكانيّات، ردّ أرتيوم: لهذا قال له الرّجل العجوز عند افتراقهما: يا بنيّ، أعطني شيئًا آكله من فضلك. لم يبق من قوّتي سوى القليل، والمعركة النّهائيّة الحاسمة تقترب أكثر، ومستقبل كلّ البشر يعتمد على نتيجتها، ومستقبلك أنت، هل لديك منه؟

أتقول إنّ العجوز كان يستجدي الطّعام؟ ذلك هو ساحرك. وفقد بعض قواه العقليّة أيضًا، ولكن لسبب آخر.

أنت أحمق تماماً، أنت لم تُصغ إلى النّهاية حتّى، وبأيّ حال من قال لك إنّ العجوز كان يكذب؟

ماذا كان اسمه بالمناسبة؟ هل أخبرك زوج أمّك؟

أخبرني، لكنّي لا أذكر الاسم الآن. اسم مضحك يبدأ بـِ"تشو"، ربّما "تشوم" أو "تشامب... للمتبطّلين ألقاب مضحكة دائمًا بدلًا من أسمائهم الحقيقيّة. وماذا كان اسم ساحرك؟

ليخا أخبرني أنّهم ينادونه بكارلوس الآن بسبب التّشابه. وأنا لا أعرف ماذا يقصد بذلك، لكنّه فسّر الأمر هكذا. ولكن عليك أن تصغي إلى نهاية القصّة. في نهاية محادثتهم أخبر ليخا أنّه من الأفضل له عدم الذّهاب عبر النّفق الشّماليّ، رغم أنّ

ليخا كان يحضّر للرّجوع في اليوم التّالي. استمع ليخا إليه ولم يذهب، وكان على صواب، ففي ذلك اليوم هاجم بعض السّفّاحين قافلة في النّفق الشّماليّ، بين زوخاريفسكايا وبروسبيكت مير، علما أنّها تُعتبر منطقة آمنة، وقُتل نصف التّجّار، ونجح البقيّة بالكاد في صدّهم وطردهم.

هدأ أرتيوم، ثمّ غرق في التّفكير.

حسنًا، على العموم يستحيل أن نعرف. كلّ شيء يمكن أن يحدث، وأشياء كهذه تحدث عادة، هذا ما قاله زوج أمّي. وقال أيضًا إنّه في المحطّات النّائية والبعيدة جدًّا، حيث يُصبح النّاس جامحين وبدائيّين، وينسون أنّ الانسان كائن عاقل، تحدث أكثر الأشياء غرابة، أشياء لا تستطيع عقولنا المنطقيّة تفسيرها. لكنّه لم يذهب إليها، ولم يخبرني عنها، وقد صل الأمر إلى مسامعي بالصّدفة.

ها، أقول لك: أحيانًا هم يصفون أشياء لا يصدّقها النّاس العاديّون. آخر مرّة، أشار لي ليخا بقصّة أخرى، هل تريد سماعها؟ أنت لم تسمع هذه القصّة من زوج أمّك. تاجر من خط سيبوخوفسكايا حكاها لليخا... هل تؤمن بالأشباح؟

حسنًا... في كلّ مرّة أتحدّث إليك فيها أتساءل إن كنت أؤمن بها أو لا، ولكن حين أصبح لوحدي أو مع أناس آخرين، أعود إلى صوابي، ردّ أرتيوم، ونجح بصعوبة في منع نفسه من الابتسام.

هل أنت جادّ؟

حسنًا، لقد قرأت بعض الأشياء طبعًا، كما أنّ العم ساشا أخبرني الكثير من القصص. لكن ولكي أكون صادقًا سأقول إنّي في الواقع لا أصدّق كلّ هذه القصص. وعمومًا يا جينيا أنا لا أفهمك حقيقة. هنا، في المحطة، نحن نعيش كابوسًا لانهاية له مع هؤلاء الدّارك ونز الأشرار، شيء لا تجده في جزء آخر من المترو. وفي مكان ما وسط منظومة المترو، هناك أطفال يتحدّثون عن حياتنا هنا، ويروون قصصًا مرعبة، ويسألون بعضهم: هل تصدّق الحكايات عن الدّارك ونز الأشرار أو لا؟ وذلك لا يعني لك أيّ شيء. أتريد أن تخيف نفسك بأشياء أخرى بعد؟

لكن لا تقل لي إنّك لا تهتمّ إلّا بما تراه، وتشعر به فقط؟ أنت لا تؤمن بحقيقة أنّ العالم منظّم في أشياء تسمعها وتراها فحسب؟ خذ الخلد مثلًا، لا يري وهو أعمى منذ الولادة، لكنّ ذلك لا يعني أنّ كلّ الأشياء الّتي لا يراها الخلد ليست غير موجودة فعلًا، وهذا ما تقوله أنت...

حسنًا، ماهي القصّة الّتي أردت قصّها عليّ؟ عن تاجر من خط سيربوخوفسكايا؟

عن التاجر؟ حسنًا، قابل ليخا هذا الرّجل في سوق هناك بطريقة ما، وأعتقد أنّه لم يكن بالتّأكيد من سيربوخوفسكايا، وإنّما من الرّينغ. وهو مواطن من الهانسا. لكنّه يعيش في دوبرينينسكايا، ولديهم هناك ممرّ إلى سيربوخوفسكايا.

لا أعرف إن كان زوج أمّك قد أخبرك بأنّ لا أحد يعيش على الخط وراء الرّينغ حتّى المحطّة التّالية، وهي تولسكايا، حيث توجد هناك دوريّة لهانسا. اتّخذوا

إجراءاتهم لحمايتها، ويعتقدون أنّ الخط غير مسكون، ولا يعرف المرء ماذا سيخرج منه من دواب. ولهذا أنشؤوا منطقة آمنة هناك، فلا يذهب أحد أبعد من تولسكايا. ويقولون أنّه لا يمكنك إيجاد شيء هناك. فالمحطّات فارغة تمامًا، والمعدّات معطّلة، والحياة مستحيلة. إنّها منطقة ميّتة لا وجود فيها لحيوان واحد، أو أيّ نوع من الهوام، ولا حتّى الجرذان. لكن للتّاجر واحد من معارفه من المتجوّلين، ذهب أبعد من تولسكايا. وأنا لا أعرف ما هو الشّيء الّذي كان يبحث عنه هناك، وقد أخبر التّاجر أنّ الأمور لم تكن بسيطة على خطّ سيفروخفسكايا، وأنّها ليست فارغة بلا سبب، وقال أنّه لا يمكنك تخيّل ما يحدث هناك، وأن هناك سببًا منع الهانسا من استعمار المنطقة، أو حتى مجرّد التّفكير بجعلها مكانًا لمزرعة، أو زريبة خنازير.

سكت جينيا، وشعر أنّ أرتيوم نسي سخريته القويّة السّابقة، وبات يستمع إليه بفم مفتوح. ثمّ جلس جينيا على الأرض بوضع مريح أكثر، مع شعور داخليّ بالانتصار:نعم، حسناً، لست مهتمًّا ربّما بكلّ هذا الهراء. خرافات وحكايا عجائز. أتريد بعض الشاي؟

أجّل أمر الشّاي، وبدلًا من ذلك أخبرني لماذا لم تستعمر الهانسا المنطقة؟ أنت محقّ، وهو أمر غريب. يقول زوج أمّي إنّ هناك مشكلة الكثافة السّكّانيّة على كلّ حال، ليس ثمّة متّسع لشخص جديد. فلماذا تخلّوا عن فرصة كسب مساحة أكثر؟ هذا مخالف لعادتهم.

آه، إذًا أنت مهتمّ؟ حسنًا، وهكذا مضى هذا الغريب بعيدًا وعميقًا فيها. قال إنّك تمشي وتمشي هناك ولا ترى أيّ روح، وليس هناك شيء مثل النّفق الّذي بعد زوخاريفسكايا. هل يمكنك التخيّل؟ ليس هناك حتّى جرذ واحد. ولا تسمع سوى صوت نقاط الماء. محطّات مهجورة تجثم هناك في الظّلام، لم يعش فيها أحد قطّ. لذلك ينتابك شعور بالخطر دائمًا، شعور مستبدّ... كان يمشي بسرعة، واجتاز أربع محطّات في نصف يوم تقريبًا. وهو شخص يائس، ولا شكّ في ذلك، أقصد أن تدخل في لعبة كهذه لوحدك. وهكذا وصل إلى سيباستوبولسكايا حيث يوجد ممرّ إلى كاخوفسكايا، وأنت تعرف خطّ كاخوفسكايا الّذي لا يوجد فيه سوى ثلاث محطّات فقط. فهو ليس خطًّا، وإنّما فكرة غير مكتملة، شيء مثل الرّينغ. وقرّر أن يمضي اللّيلة في سيباستوبولسكايا. بعد أن أرهقت فطنته كان متعبًا، ووجد بعض رقائق الخشب فأشعل نارًا، وهكذا لم يكن الوضع بغيضا جدًّا، فزحف إلى داخل حقيبة نومه. وأثناء اللّيل... عند هذه النّقطة من الحكاية وقف جينيا على قدميه، ومطّ أطرافه، وقال بابتسامة ساديّة: حسنًا، أنا لا أعرف عنك، أمّا أنا فأريد بعض الشّاي فعلًا. ودون انتظار الجواب، أخرج الغلّاية وخرج لإعداد الشّاي، وترك أرتيوم لوحده مع انطباعاته عن القصّة.

بالطّبع كان أرتيوم غاضبًا من جينيا لأنّه تركه هناك، لكنّه قرر أن ينتظر بصبر نهاية القصّة، ثمّ يقول لجينيا وجهة نظره. وفجأة، تذكّر أرتيوم هنتر وتذكّر طلبه. كان أكثر من أمر حقيقيّ، لكنّ أفكاره عادت بعدئذ إلى قصّة جينيا.

بعد أن عاد مع الشاي صبّ لنفسه بعضًا منه في كوب شاي له غلاف خارجيّ معدنيّ نادر من النّوع نفسه الّذي يستخدمونه في القطارات، وواصل كلامه قائلًا: وهكذا نام بجوار النّار، وكان كل ما حوله صامتًا. كان صمتًا ثقيلًا كما لو أنّ أذنيه ملئتا بالقطن. وفي منتصف اللّيل سمع صوتًا.. صوتًا مستحيلًا يتحدّى سلامة العقل. غطّى جسمه عرق بارد على الفور، ووثب واقفًا، فسمع ضحك أطفال يأتي من النّفق. هذه رابع محطّة عن أقرب مكان فيه بشر. حتّى الجرذان لا تعيش هناك، هل تتخيّل؟ أصابه الهلع، لذا قفز من مكانه، وركض تحت القناطر حتّى النفق. وهناك شاهد قطارًا قادمًا إلى المحطّة، قطارًا حقيقيًّا. كانت أضواؤه الأماميّة تسطع، ولو لم يغطّي المتجوّل عينيه بيديه في الوقت المناسب لأعمته الأضواء. كانت نوافذ القطار مضاءة بلون أصفر، وبداخله أناس. واستمرّ هذا في صمت تام، ليس هناك صوت واحد حتّى. لم تكن هناك ضجّة للمحرّك، ولا قرقعة للعجلات. انزلق القطار إلى داخل المحطّة في صمت مطبق، هل ترى؟ جلس الفتى بعد أن شعر أن علّة أصابت قلبه. النّاس الّذين في القطار مثل النّاس الحقيقيّين، يتحدّثون مع بعضهم من بعيد بصوت غير مسموع. مرّت عربات القطار من أمامه، عربة وراء أخرى، وكان وراء النّافذة الأخيرة من العربة الأخيرة طفل في السّابعة من عمره ينظر إليه. ينظر إليه، ثمّ يشير إليه، ويضحك، وكان الضّحك مسموعًا. كان هناك صمت قويّ لدرجة أنّ الفتى كان يسمع ضربات قلبه مع ضحكات الطّفل. غاص القطار في النّفق، وأصبح الضّحك أهدأ، فأهدأ... ثمّ صمت في المسافة البعيدة، وعاد الفراغ والصّمت المطلق المرعب مرّة أخرى.

وهل استيقظ بعدئذ؟ سأل أرتيوم بغلّ، وبعض الأمل في صوته.

أتمنّى ذلك، فقد عاد إلى الخلف مسرعًا، نحو النّار المطفأة، وجمع أمتعته بسرعة، وركض عائدًا إلى تولسكايا دون توقّف. لقد قطع الطّريق كلّه في ساعة واحدة، فالأمر كان مرعبًا جدًّا، وعليك أن تتأمّل.

هدأ أرتيوم بعد أن كان وجلًا للحظة. وحلّ الصمت في الخيمة. أخيراً، بعد أن جمع أرتيوم فطنته، وسعل، وتأكّد من أن صوته لن يخونه، سأل جينيا بأقصى ما استطاع من اللّامبالاة: وهل صدّقت كلّ هذا؟

حسنا، إنّها ليست المرّة الأولى الّتي أسمع فيها هذا النّوع من القصص عن خط سيربوخوفسكايا، ردّ جينيا، لكنّني لم أخبرك بها دائما. ومن غير الممكن التّحدّث عن هذه الأشياء معك بطريقة عاديّة، فأنت تبدأ بمقاطعتي مباشرة. لقد جلسنا أنا وأنت، لبعض الوقت، وحان موعد ذهابنا إلى العمل تقريبًا. لنحضّر نفسينا. ويمكننا التّحدّث أكثر عندما نصل إلى هناك.

نهض أرتيوم بتردّد، وجرّ نفسه إلى البيت. كان بحاجة للحصول على وجبة خفيفة يأخذها إلى العمل. أمّا زوج أمّه فلا يزال نائمًا. والهدوء التّام مسيطر على المحطّة، فأغلب النّاس انصرفوا من أعمالهم، وبقي القليل من الوقت لتبدأ النّوبة اللّيليّة. وعليه أن يسرع. مرّ بخيمة الضّيوف الّتي كان يقيم فيها هنتر. انتبه أرتيوم إلى أنّ أطراف الخيمة قد شُدّت جانبًا، والخيمة فارغة. سمع نبض قلبه.. أخيرًا فهم أنّ كلّ شيء

ناقشه مع هنتر لم يكن حلمًا، وحدث فعلاً. وأنّ تطوّر الأحداث قد يؤثر عليه مباشرة. لقد عرف أيّ قدر ينتظره.

يقع معمل الشّاي في الطّرف النّائي، في مخرج مسدود تحت الأرض، حيث توجد مصاعد تؤدّي إلى الأعلى. وكان العمل في المعمل يدويًّا كلّه، فتضييع الطّاقة الكهربائيَّة على الإنتاج كان إسرافًا مفرطًا.

خلف السّتائر الحديديّة الّتي تفصل أرض المعمل عن بقيّة المحطّة هناك سلك معدنيّ سُحب من جدار لجدار ليجفّف الفطر عليه، حيث يشعلون نيرانًا صغيرةً تحت الفطر حين يكون رطبًا لكي يجفّ على نحو أسرع، ولكيلا يغطّيه الوحل. وتحت السّلك طاولات يقطّع عليها العمال الفطرَ، ويسحقون الفطر الجافّ. ويعبّأ الشّاي المحضّر في رزم من الورق أو البوليثلين، حسب المتوفّر في المحطّة. ويُضاف إليه بعض عُصارات النّباتات والمساحيق. ولا أحد يعرف طريقة التّحضير سوى رئيس المعمل. تلك هي عمليّة إنتاج الشّاي البسيطة. إنّ نوبة عمل تمتدّ حتى ثمان ساعات في تقطيع قمم الفطر وهرسها، بدون أيّ حديث إلّا الحديث الضروريّ جدًّا أثناء العمل، ربّما يكون من أكثر الأعمال إجهادًا.

عمل أرتيوم في هذه الورديّة مع جينيا، وفتى جديد شعره أشعث يسمّى كيريل، وهو فتى كان معه في الدوريّة أيضًا. أصبح كيريل نشيطًا جدًّا لـمّا رأى جينيا، ومن الواضح أنّهما تقابلا وتكلّما من قبل. وبسرعة بدأ يحكي له حكاية يبدو أنّها قُطعت في آخر مرّة كانا يتحدّثان بها. جلس أرتيوم في الوسط، ولم يهتمّ كثيرًا بالإصغاء، لذا غرق في أفكاره الخاصّة. بدأت الحكاية عن خطّ سيربوخوفسكايا الّتي حكاها له جينيا للتوّ تخبو في ذاكرته، وطفت إلى السّطح محادثته مع هنتر

ما الّذي يمكن فعله؟ لقد كانت الأوامر الّتي أعطاها له هنتر جدّيّة جدًّا، ولا تحتاج إلى تفكير ومراجعة. ماذا لو لم يستطع هنتر أن يُنجز ما أراده؟ لقد التزم بفعل أحمق تمامًا، إذ تجرّأ وغامر بالدّخول إلى قلب عرين العدو، إلى داخل بؤرة النّار الحامية مباشرة. إنّ الخطر الّذي عرّض نفسه له هائل، وهو حتّى لا يعرف حدود هذا الخطر. لا يستطيع سوى أن يخمّن ما ينتظره في المتر خمسمائة فقط، حيث تضعف آخر نار في المخفر الحدوديّ، آخر شعلات من صنع البشر إلى الشّمال من فدنكه. وكلّ ما يعرفه عن الدّارك ونز الأشرار يعرفه أيّ شخص آخر، ولكن لم يفكّر أحد في الذّهاب الى هناك. في الواقع لم يكن معروفًا حتّى إن كان هناك ممرّ حقيقيّ عند الحدائق النباتيّة حيث تدخل البهائم إلى المترو من الأعلى.

كان الاحتمال القويّ جدًّا أنّ هنتر لن يقدر على إتمام المهمّة الّتي تكفّل بها، ومن الواضح أنّ الخطر من الشّمال كان عظيمًا جدًّا، ويتعاظم بسرعة، وأنّ أي ّتأخير غير مقبول. ربّما عرف هنتر شيئًا عن طبيعته، ولم يكشف عنه في لقائه مع سوخوي. أو ربّما أدرك درجة الخطر، وفهم أنّه قد لا يكون كفئًا لهذا الواجب، وإلّا لماذا أعدّ أرتيوم في حال تحوّلت الأحداث، وخالفت التوقّعات المرجوّة؟ لم يكن هنتر بالشّخص المبالغ في حذره، وهذا يعني أنّ احتمال عدم عودته إلى فدنكه موجود، وربّما هو الأهمّ.

لكن كيف يتخلى هنتر عن كل شيء، ويغادر المحطة دون أن يخبر أحدًا بأيّ كلمة؟ هنتر نفسه كان خائفًا من تحذير أيّ أحد آخر. وكان خائفًا من «العقول الموسوسة» الموجودة هنا. كيف يمكنه الوصول إلى بوليس، بوليس الأسطوريّة لوحده تمامًا عبر كلّ الأخطار الواضحة والغامضة الّتي تنتظر المسافرين في الأنفاق المظلمة الخرساء؟ ندم أرتيوم فجأة لأنّه استسلم لسحر هنتر القويّ، ونظرته المنوّمة مغناطيسيًّا الّتي جعلته يكشف له عن سرّه، ويوافق على مهمّة بهذه الخطورة.

هيه، أرتيوم، أرتيوم، هل أنت نائم أم ماذا؟ لماذا لم تقل شيئًا؟ هزّ جينيا كتفه هل سمعت الّذي قاله كيريل؟ غدًا ليلًا سينظمّون قافلة إلى ريجسكايا. يقولون إنّ إدارتنا قرّرت أن تعقد معاهدة معهم. وفي الوقت الرّاهن يبدو أنّنا سنرسل لهم مساعدات إنسانيّة، ونتطلّع إلى نكون أخوة. ويبدو أنّهم وجدوا مستودعًا يحتوي على كابلات. فالقادة يريدون أن يحفروا، ويستخرجوها. يقولون إنّهم سينشئون شبكة للهاتف بين المحطّات، أو شبكة برق في أيّ حال. ويقول كيريل إنّ كلّ من ليس لديه عمل غدًا يمكنه الذّهاب، فهل تريد؟

فكّر أرتيوم مباشرة أنّ القدر نفسه يعطيه فرصة لينجز مهمّته، إن وصلت الأمور الى ذلك الحدّ. أومأ برأسه بصمت.

عظيم، كان جينيا مسرورًا: أنا سأذهب أيضًا، سجّل أسماءنا يا كيريل. في أيّ وقت سينطلقون غدًا؟ في التّاسعة؟

انتهت الورديّة ولم يقل أرتيوم كلمة واحدة، ولم يكن في مزاج مناسب ليتخلّص من أفكاره المتشائمة المحيّرة.

ترك جينيا لوحده يتعامل مع كيريل ذي الشّعر الأشعث، ومن الواضح أنّه شعر بالاستياء. استمرّ أرتيوم في تقطيع الفطر بحركات ميكانيكيّة، وتفتيته الى تراب، وكان يأخذ القمم الصّغيرة من السّلك، ويفرمها ثانية، وهكذا...

حام وجه هنتر أمام عينيه، مجمّدًا في اللّحظة الّتي قال فيها إنّه قد لا ينجح في العودة، الوجه الهادئ لشخص اعتاد على المخاطرة بحياته، وقد أفسدت لطخة حبر قلبه بحسّ داخليّ، بمشكلة وشيكة.

بعد العمل عاد أرتيوم الى خيمته، ولم يكن زوج أمّه هناك فقد خرج مسبقًا للاهتمام بعمل ما. رمى أرتيوم بنفسه فوق السّرير، وطمر وجهه في الوسادة، وغفا مباشرة رغم أنّه خطّط لأن يفكّر ثانية بوضعه في لحظة سلام وهدوء.

كان نومه بعد أحاديث اليوم السّابق، وأفكاره ومخاوفه، هذيانًا غلّفه وحمله بعيدًا، إلى داخل هاوية.

رأى أرتيوم نفسه جالسًا بجانب النّار في محطّة زوخاريفسكايا، وبجانبه جينيا، والسّاحر المتجوّل صاحب الاسم الإسبانيّ غير العاديّ كارلوس. كان كارلوس يعلّم جينيا كيف يصنع سيجارة من الفطر، ويعلّل ذلك بأنّ المرء يجب أن يستخدمه كما يستخدمونه في فدنكه. جريمة ظاهرة لأنّ هذه الفطور ليست فطورًا أبدًا، بل نوعًا جديدًا من الحياة العاقلة على الأرض، ستحلّ محلّ البشر مع الوقت. إنّ هذه الفطور

ليست مستقلة عن الكائنات البشريّة، وإنّما مجرد عناصر متصلة بعصبونات مع كل الوحدة. وتنتشر عبر مترو كامل من الفطور العملاقة، وإنّ الشّخص الّذي يستهلك العشبة في الحقيقة لا يستخدم مادة تؤثّر على العقل فحسب، وإنّما يقوم باتّصال، عبر النّبتة، مع شكل جديد من الحياة العاقلة. وإن فعل ذلك على نحو صحيح، فإنّه يستطيع عندئذ إقامة صداقات معها تساعد الشّخص الّذي يتواصل معها. ظهر سوخوي بعدئذ، وهدّد أرتيوم بسبّابته، وقال:

يجب ألّا تأخذ النّبتة إطلاقًا لأنّك إن استخدمتها لمدّة طويلة من الزّمن فسيصبح دماغك موسوسًا. لكنّ أرتيوم قرّر أن يجرّبها ليرى إن كانت حقيقة فعلًا. أخبر الجميع أنّه سيخرج لاستنشاق بعض الهواء، لكنّه ذهب بحذر خلف ظهر السّاحر ذي الاسم الإسبانيّ، ورأى أنّ السّاحر ليس لرأسه قفا، وأنّ دماغه كان ظاهرا تملؤه الثّقوب الدّوديّة. ديدان طويلة يميل لونها إلى البياض، تتجعّد في دوائر، وتمضغ في نسيج دماغه، وتشقّ أنفاقًا جديدة. والسّاحر مستمرّ بالحديث كأنّ شيئًا لم يحدث... بعدها خاف أرتيوم، وقرّر أن يهرب منه، فشدّ جينيا من كمّ قميصه ليأتي معه، لكنّ جينيا أبعده، وطلب من كارلوس أن يواصل. ورأى أرتيوم الدّيدان تنزل وتزحف من رأس السّاحر نحو جينيا، وتصعد على ظهره، وتحاول أن تدخل في أذنيه.

قفز أرتيوم بعدئذ وأطلق ساقيه للرّيح هاربًا من المحطّة بكلّ قوّته، لكنّه تذكّر أنّه لا يُفترض بالمرء أن يمشي داخل هذا النّفق وحيدًا، وإنّما في جماعات. لذا استدار، وركض عائدًا إلى المحطّة، لكنّه لم يستطع أن يدخلها لسبب ما. وفجأة كان هناك ضوء واضح خلفه، وهذا شيء غير عاديّ في الأحلام. ورأى أرتيوم ظلّه على أرض النّفق، فاستدار إلى الوراء، فرأى قطارًا قادمًا من أحشاء المترو متوجّها نحوه بلا توقّف، وعجلاته تصرّ وتجلجل بضجيج يصمّ الآذان، وأضواؤه الأماميّة تعمي الأبصار.

رفضت ساقاه التّزحزح، وفقدتا كلّ القوّة، ولم تعودا ساقين بعد الآن، وإنّما بنطالًا فارغًا محشوًّا بالخرق. ولـمّا أوشك القطار أن يصل إلى أرتيوم فقدت الرؤى لونها، واختفت.

وظهر بدلًا منها شيء جديد، شيء مختلف.. رأى أرتيوم هنتر وهو يرتدي الأبيض النّاصع في غرفة لا أثاث فيها، ذات جدران بيضاء تعمي العيون. كان واقفًا هناك وقد طأطأ رأسه للأسفل، وحفرت نظراته الأرض. ثمّ رفع عينيه، ونظر مباشرة إلى أرتيوم. كان الشّعور غريبًا جدًّا لأنّ أرتيوم لم يتمكّن من الشّعور بجسده في هذا الحلم، وحدّق كما لو أنّه كان ينظر إلى ما يحدث من كلّ الزوايا في وقت واحد. لـمّا نظر أرتيوم في عيني هنتر ملأه قلق مبهم، وترقّب شيئًا هامًّا جدًّا قد يحدث في أيّ لحظة.

بدأ هنتر يحدّثه، وشعر أرتيوم أنّ ما كان يحدث حقيقيّ. حين كانت الكوابيس تتتابه سابقًا، يقول لنفسه ببساطة إنّه كان نائمًا، وإنّ كلّ الّذي حدث مجرّد ثمرة خيال مهتاج. ولكن في هذه الرّؤيا، فمعرفته بأنّه يستطيع الاستيقاظ في أيّ لحظة، لو أراد، غائبة تمامًا.

حاول هنتر أن يُواجه نظرة أرتيوم الذي اعتقد أنّ هنتر لا يستطيع رؤيته فعليًّا، وأنّه تعهّد بالقيام في واجبه على نحو أعمى. ثمّ قال هنتر ببطء وتجهّم: إنّ الوقت قد حان، ويجب عليك أن تنفّذ ما وعدّتني به، يجب أن تقوم به. وتذكّر: هذا ليس حلمًا، هذا ليس حلمًا..

فتح أرتيوم عينيه إلى أقصى درجة، وسمع بوضوح مرعب الصَّوت الأجشّ يقول مرّة أخرى في رأسه (هذا ليس حلمًا) فكرّر أرتيوم (هذا ليس حلمًا). مُحيت تفاصيل الكابوس، والدّيدان، والقطار، من ذاكرة أرتيوم بسرعة كبيرة، لكنّه استطاع تذكّر الرّؤيا الثّانية بكلّ تفاصيلها تمامًا، ثياب هنتر الغريبة، والغرفة البيضاء الفارغة الغريبة، والكلمات (يجب عليك أن تنفّذ ما وعدتني به) لم يستطع طردها من عقله.

دخل زوج أمّه وسأله بقلق: أخبرني، هل رأيت هنتر بعد لقائنا معًا؟ لقد حلّ المساء ومايزال مفقودًا، وغرفته فارغة. هل رحل؟ هل أخبرك شيئًا عن خططه البارحة؟

لا، يا عم شاسا، سألني عن أحوال المحطّة، وعمّا يحدث فيها فقط. لقد كذب أرتيوم مراعاة لاتّفاقه مع هنتر.

أنا قلق عليه. ربّما قام بشيء سخيف من تلقاء نفسه، وقد يسبّب ضررًا عامًّا لنا. كان سوخوي منزعجًا على نحو واضح: هو لا يعرف مع من سيتعامل... إيه، ماذا، أنت لا تعمل اليوم، أليس كذلك؟

وقّعنا أنا وجينيا، على الانضمام إلى قافلة ريجيسكايا اليوم لنساعدهم في العبور، وسنبدأ فكّ الأسلاك المعدنيّة من هناك، ردّ أرتيوم. وفجأة، أدرك أنّه قرّر الذّهاب. عند هذه الفكرة انكسر شيء داخله، وشعر ببرق غريب، ونوع من الفراغ الدّاخليّ، مثل شخص انتزع ورمًا من صدره كان يرزح ثقيلًا على قلبه، ويتصادم مع تنفّسه.

القافلة؟ الأفضل لك أن تجلس في البيت بدلًا من الخوض عبر الأنفاق. يتوجّب عليّ الذّهاب إلى هناك بأيّ حال، إلى ريجيسكايا، لكنّي لا أشعر أنّني في حال جيّدة اليوم. وقت آخر، ربّما... هل ستخرج الآن؟ في التّاسعة؟ حسنًا. إذًا لنودّع بعضنا. جهّز أشياءك في هذا الوقت. وترك أرتيوم لوحده.

بدأ أرتيوم برمي الأشياء داخل حقيبة ظهر، أشياء يحتاجها وتنفعه على الطّريق، وهي: مصباح صغير، وبطاريّات، وفطر، وعلبة شاي، ونقانق كبد، ولحم خنزير، ومشط بندقيّة آليّة مملوء كان قد سرقه من أحد ما سابقًا، وجواز سفر، ليس له فائدة في ريجيسكايا طبعًا. ولكن بعد تلك المحطّة سوف يُحتجز ويوضع قبالة الجدار من قبل أوّل دوريّة في تلك المحطّة ذات السّيادة. وذلك اعتمادًا على سياستها، لذا سيحتاجه. وهناك الكبسولة الّتي أعطاه إيّاها هنتر، وهذا كلّ ما سوف يحتاجه.

رمى أرتيوم الحقيبة على ظهره، ونظر خلفه إلى البيت لآخر مرّة، ومشى مبتعدًا عن الخيمة في تصميم.

تجمّعت المجموعة الّتي ستذهب مع القافلة على المنصّة، عند المدخل المؤدّي إلى النّفق الجنوبيّ. وهناك على القضبان عربة محمّلة بصناديق اللّحم والفطر، وعلب

الشاي، وفوقها نوع من أداة ذكيّة جمعها الخبراء المحليّون، ربّما كان جهاز تلغراف.

في القافلة، عدا كيريل، كان هناك زوجان آخران: متطوّع وآمر من الإدارة سيقيم علاقات ويصل إلى اتّفاق مع الإدارة في ريجينسكايا. لقد حزموا أمتعتهم، وكانوا يلعبون الدّومينو بانتظار إشارة المغادرة.

كانت البنادق الرّشّاشة المختارة لهم من أجل الرّحلة مكوّمة بجانبهم، وقد شكّلت هرمًا بمواسيرها الموجّهة للأعلى، وأمشاطها الاحتياطيّة المعلّقة بأسفلها بشريط أزرق عازل.

وأخيرا ظهر جينيا. فعليه إطعام أخته وإرسالها إلى الجيران قبل أن يغادر لأنّ أباه وأمّه ما يزالان في العمل.

في الثّانية الأخيرة تذكّر أرتيوم فجأة أنّه لم يودّع زوج أمّه. بعد أن التمس العذر لنفسه، ووعد بأنّه سيعود مباشرة، رمى حقيبته عن ظهره، وركض إلى البيت. فلم يكن زوج أمّه في الخيمة. فركض إلى المحطّات الّتي يتسكّع فيها موظّفو الخدمة، والّتي تعود ملكّيتها الآن إلى إدارة المحطّة. كان سوخوي هناك، جالسًا مقابل ضابط الدّوريّات في المحطّة، الرّئيس المنتخب من فدنكه، وكانا يتحدّثان عن شيء ما بحيويّة. دقّ أرتيوم على عضادة الباب وسعل بهدوء:

التّحيّات لك يا أليكساندر نيكولايفيتش. هل يمكن أن أكلّم العمّ ساشا، لدقيقة واحدة؟

طبعًا. ادخل يا أرتيوم، هل تريد بعض الشّاي؟ قال ضابط الدوريّات بطريقة مضيافة.

هل أنت مغادر؟ ومتى ستعود؟ سأل سوخوي بينما كان يدفع كرسيّه للوراء بعيدًا عن الطّاولة.

لا أعرف بالضّبط، دمدم أرتيوم: سنرى كيف تسير الأمور...

وأدرك أنّه قد لا يرى زوج أمّه مرّة أخرى. ولم يرد أن يكذب عليه، فهو الرّجل الوحيد الّذي أحبّه بصدق، فيقول له إنّه سيعود غدًا، أو بعد غد، وإنّ كلّ شيء سيستمرّ كما كان.

شعر أرتيوم فجأة بقرصة في عينيه، ولخجله وجد أنّهما مبلّلتين. خطا إلى الأمام، وعانق زوج أمّه.

ما المسألة الآن يا أرتيوم؟ أنت ستعود غدًا في نهاية الأمر، حسنًا؟ قال زوج أمّه المندهش مطمئنًا.

ليل غد إن سار كلّ شيء وفق الخطّة، أكّد ألكساندر نيكولايفيتش.

اعتني بنفسك عمّ ساشا، أتمنّى لك حظًّا جيّدًا، تكلّم أرتيوم بصوت أجشّ، وصافح زوج أمّه، ثمّ غادر مسرعًا.

راقبه سوخوي باندهاش وهو يغادر.

لماذا كان مضطربًا؟ هذه ليست المرّة الأولى الّتي يذهب فيها إلى ريجيسكايا.

لا شيء يا ساشا، لا شيء، سيكون هناك وقت يكبر فيه ولدك، وستحنّ إلى الأيّام الّتي ودّعك فيها والدّموع في عينيه حين ذهب إلى المحطّة لمدّة يومين فقط. لهذا ما هو رأيك عن مسألة أليكسيفسكايا، وتشكيل دوريّات حراسة في الأنفاق؟ هل ستكون مفيدة لنا؟

عندما عاد أرتيوم راكضًا إلى المجموعة، أعطى الآمر بندقيّة لكلّ شخص، وقال: والآن أيّها الرّجال، ما رأيكم في أن نجلس للحظة قبل أن نذهب؟ وجلس على المنضدة الخشبيّة القديمة، وفعل البقيّة مثله بصمت.

حسنًا، ليكن الربّ معنا، وقف القائد وقفز في الممرّ، وأخذ مكانه مقابل الجماعة.

تسلّق أرتيوم وجينيا العربة لكونهما أصغر أفراد المجموعة، واستعدّا للعمل المرهق. وأخذ كلّ من كيريل والمتطوّع الثّاني مكانيهما في الخلف وأكملا عقد المجموعة.

دعونا نذهب، صاح القائد.

استند أرتيوم وجينيا على الرّوافع، ودفع كيريل العربة من الخلف فأصدرت صريرًا، ثمّ تقدّمت إلى الأمام، وبدأت بالانزلاق قُدمًا إلى خطّ آخر. مشى الشّابّان الأخيران خلفها، واختفت المجموعة في فم النّفق الجنوبيّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع: صوتُ الأنفاق

طاف ضوء المصباح الّذي لا يعوّل عليه في يد القائد، مثل لطخة صفراء باهتة على جدران النّفق، ولعق الأرض الرّطبة، واختفى ضوؤه تمامًا لـمّا وجّهه إلى مسافة بعيدة. كان الظّلام في الأمام داكنًا، والتهم أشعّة مصابيح الجيب الضّعيفة خاصّتهم من على بعد عشرة خطوات. أصدرت عجلات العربة صريراً مع نحيب، وصوتًا كئيبًا، ثمّ انزلقت إلى داخل اللّامكان، ولم يقطع الصّمت سوى تنفّس الأشخاص الّذين يمشون خلفها، ووقع خطى أحذيتهم.

صارت النّطاقات الجنوبيّة المحميّة خلفهم الآن، وتلاشى ضوء نيرانها المتقطّع منذ زمن بعيد. كانوا وراء أراضي فدنكه. وبالرّغم من أنّ الرّحلة من فدنكه إلى ريجسكايا تُعتبر آمنة بسبب العلاقات الجيّدة بين المحطّات، ووجود قدر واف من الحركة والتّنقّل بين الاثنتين، فإنّ القافلة ظلّت في حاجة إلى البقاء في حالة تيقّظ وجاهزيّة.

لم يكن الخطر مجرّد شيء يأتي من الشّمال أو من الجنوب، جهتَي النّفق. بل يمكن أن يكون مختبئًا فوقهم في أعمدة الهواء، أو على الجانبين في شعاب النّفق الكثيرة، أو خلف الأبواب محكمة السدّ لغرف المرافق العامة السّابقة، أو في المخارج السرّيّة.

وثمّة أخطار تنتظرهم في الأسفل أيضًا، في فتحات دخول مخفيّة تركها خلفهم بنّاؤو المترو، وطواقم الصّيانة نسوها، وأهملوها وراءهم حين كان المترو مايزال مجرّد وسيلة نقل، وحيث تترصّد الأشياء الفظيعة الآن في أعماقه، والأشياء الّتي بإمكانها أن تعصر عقل أشدّ المتهوّرين طيشًا في ملزمة من رعب غير منطقيّ.

لهذا السّبب كان مصباح القائد يطوف على طول الجدران، وكانت أصابع النّاس وراء القافلة تضرب أقفال أمان بنادقهم الآليّة الجاهزة، لتثبيتها على وضعيّة الإطلاق بأيّ لحظة. لهذا كان كلامهم قليلًا أثناء مشيهم، فالحديث يضعف ويتعارض مع قدرتهم على السّمع في النّفق.

بدأ التّعب يحلّ بأرتيوم، فجاهد وجاهد، لكنّ القبضة كانت تهبط وتعود إلى مكانها السّابق، وتُصدر صريرًا رتيبًا فتدور العجلات مرّة تلو أخرى. كان ينظر إلى الأمام، لكنّه لم يفلح، ورأسه يلفّ على إيقاع العجلات على نحو ثقيل وهستيريّ مثل العبارات الّتي سمعها من هنتر قبل أن يغادر (كلماته عن قوّة الظّلام، وشكل الحكومة الأكثر انتشارًا في أرض شبكة مترو موسكو)..

حاول أن يفكّر في كيفيّة الوصول إلى بوليس، وحاول أن يضع خطّة، لكن التّعب الحارق كان ينتشر في عضلاته ببطء، ويصعد من ساقيه المحنيّتين عبر عجزه إلى ذراعيه، ويبعد أيّ فكرة معقّدة عن رأسه مباشرة.

تساقطت حبّات العرق الحارّ والمالح من جبهته في البداية على نحو بطيء، بنقاط صغيرة جدًّا، ثمّ كبرت الحبّات وأصبحت أثقل، وانهمرت على وجهه، ودخلت إلى عينيه، ولم تتوفّر له فرصة مسحها حتّى. لأنّ جينيا كان على الطّرف الآخر من الآلة، وإن حرّر أرتيوم القبضة سيُلقي الجهد كلّه على جينيا حينها. كان الدّم يضرب بصوت أعلى وأعلى في أذنيه. وتذكّر أرتيوم أنّه حين كان صغيرًا أحبّ مرّة أن يتّخذ وضعًا غير مريح ليسمع صوت ضخّ الدّم في أذنيه، لأنّ الصّوت يذكّره بوقع خطى الجنود في الاستعراض، ولمّا أغلق عينيه استطاع أن يتخيّل أنه ماريشال يقود العرض، وتمرّ الفرق المخلصة أمامه، ويقيس سرعة خطاها، وتحيّيه. ذلك موصوف الآن في كتب عن الجيش.

أخيرًا قال الآمر دون أن يلتفت حوله:

حسنًا يا فتيان، انزلوا وتبادلوا الأماكن، لقد وصلنا إلى منتصف الطّريق.

تبادل أرتيوم وجينيا النّظرات، وقفزا من العربة وجلسا على القضبان دون أن ينبسا ببنت شفة علمًا أنّهما كانا ذاهبين إلى مؤخّرة العربة كما يفترض.

نظر الآمر إليهما بلطف وقال متعاطفًا: (شبّان مخنّثون)

نعم، شبّان مخنّثون، اعترف جينيا بسهولة.

انهضوا، انهضوا، لن يكون هنا جالسين، حان وقت الذّهاب، سأحكي لكم قصّة قصيرة.

نحن نستطيع أن نحكي لك بعض القصص أيضًا، قال جينيا متحدًّيا، غير راغب في النّهوض.

نعم، أنا أعرف كلّ قصصكم. عن الدّارك ونز الأشرار، وعن المتحوّلين... عن فطوركم الصّغيرة طبعًا. لكن هناك بضعة حكايات لم تسمعوها قطّ. نعم، حقًّا، وربّما هي ليست حكايات، إذ لم يستطع أحد أن يؤكّدها. وهناك أشخاص حاولوا أن يؤكّدوا القصص، لكنّهم لم يخبرونا لكي نتأكّد.

أمّا بالنّسبة لأرتيوم، فهذا الخطاب القصير كان كافيًا ليعطيه لفّة ثانية. والآن أيّ معلومة عمّا حدث وراء محطة بروسبيكت مير، باتت تحمل معنى عظيمًا بالنّسبة له. حاول أن ينهض عن القضبان، وينقل بندقيّته الآليّة من على ظهره إلى صدره، وأخذ مكانه خلف العربة.

وبدفعة خفيفة بدأت العجلات تغنّي أغنيتها الحزينة مرّة أخرى. وتحرّكت المجموعة إلى الأمام، والقائد ينظر إلى الأمام يحدّق باحتراس في الظّلام فلم يكن كلّ شيء مسموعًا.

يهمّني أن أسمع ماذا يعرف جيلكم عن المترو بأيّ حال، قال القائد: تروون لبعضكم البعض حكايات كهذه. شخص ما ذهب إلى مكان ما، وشخص ما لفّقها كلّها. الأوّل يروي الحكاية الخطأ إلى الشّخص الّذي يليه، فيهمس الثّاني بدوره إلى شخص ثالث، وبدوره تمتدّ الحكاية فوق فنجان من الشّاي مع شخص رابع يتظاهر أنّها

كانت مغامرته. تلك هي المشكلة الرئيسيّة مع المترو، ليس هناك أيّ خطوط اتّصال موثوقة، ومن غير الممكن أن تنتقل من طرف لآخر بسرعة. لا يمكنك العبور من بعض الأماكن، إنّه مقسّم إلى أجزاء تستمرّ فيها القذارة، والظّروف تتغيّر كلّ يوم. فهل تعتقدون أنّ منظومة المترو هذه بكلّ ذلك الكبر والاتّساع؟ حسنًا، يمكنكم اجتيازه من أوّله إلى آخره في ساعة واحدة بالقطار. والآن يتطلّب الأمر من أيّ شخص أسبوعًا ليفعل ذلك، هذا في حال نجح. ولا تعرف أبدًا ما ينتظرك في كلّ منعطف. لهذا انطلقنا إلى ريجسكايا مع مساعدة إنسانيّة، لكنّ المشكلة أنّ أحدًا (بما فيهم أنا وضابط الدّوريّات) غير مستعدّ لأن يضمن أنّنا لن نُواجَه بنيران ثقيلة عندما نصل إلى هناك، أو أنّنا لن نجد محطّة محروقة تمامًا ليس فيها روح واحدة حيّة، أو أنّنا لن نكتشف فجأة وعلى نحو واضح أنّ ريجيسكايا لم تضمّ قوّاتها إلى هانسا وتقيمان حلفًا. وبذلك لن يبقى لنا هناك ممرّ إلى بقيّة المترو أبدًا. لا توجد معلومات دقيقة وصحيحة. تلقّينا بعض البيانات أمس، لكن كلّ شيء كان قديمًا ومنتهيًا عند المساء. ولا يمكنك الاعتماد عليها في اليوم التّالي. إنّها مثل الذّهاب عبر رمل متحرّك مستخدمًا خارطة عمرها مائة عام. يتطلّب عبور الرّسل مع الرّسائل الّتي يحملونها وقتا طويلًا، ويحدث غالبًا أن لا تعد هناك حاجة للمعلومات، أو تكون معلومات غير موثوقة. بمعنى أنّ الحقيقة مشوّهة. لم يعش النّاس تحت هذا الظّروف أبدًا، ومن المروّع التّفكير بما سيحدث حين لا يبقى أيّ وقود للمولّدات، أو كهرباء بعد الآن. هل قرأتم آلة الزّمن لويلز؟ حسنًا، هناك لديهم هؤلاء المورلوك([2])...

كان هذا هو الحديث الثّاني من نوعه في اليومين الأخيرين، وأرتيوم يعرف مسبقًا عن المورولوك، وعن هربرت ويلز، ولا يريد أن يسمع عنهما مرّة أخرى. لهذا أعاد الحديث إلى وجهته الأصليّة، متجاهلًا اعتراضات جينيا.

إذًا، ماذا يعرف جيلكم عن المترو؟

مممم... إنّ الحديث عن الشّياطين وأعمالهم في المترو فأل سيّئ، أليس كذلك؟ ولن أتحدّث عن المترو، ولا عن المراقبين الخفيّين أيضًا. لكن يمكنني أن أحدّثك بشيء من الإمتاع عمّن يعيش، وأين يعيش. لهذا هل تعرف مثلًا أنّ المكان الّذي كان محطّة بوشينسكايا، والّتي يوجد فيها معبران اثنان آخران للمشاة إلى تشيكوفسكايا وتفيرسكايا، استولى عليه الفاشيّون الآن؟

ماذا؟ أيّ فاشيّون؟ سأل جينيا محتارًا.

فاشيّون حقيقيّون. منذ فترة بسيطة حين كانوا يعيشون هناك، أشار القائد إلى الأعلى: كان هناك فاشيّون، وهناك أيضًا فوضويّون سمّوا أنفسهم ر ن ي، وآخرون ضدّ الهجرة. وكان هناك كلّ أنواع النّماذج المختلفة لأنّ هذه هي النّزعة الشّائعة في تلك الأيّام. في الماضي، حتّى الأحمق كان يعرف معنى هذه الحروف الأولى، أمّا الآن فلا أحد يتذكّرها. هم أنفسهم لا يتذكّرونها، ويبدو أنّهم اختفوا على الأرجح بعدئذ. أنتم لم تسمعوهم، أو تروهم، لكنّهم ظهروا ثانية منذ وقت قريب، وفجأة. (المترو للرّوس) هل سمعتم بذلك؟ أو قوموا بصنيع جيّد، نظّفوا المترو. لقد تخلّصوا من كلّ النّاس غير الرّوس في بوشكينسكايا، ثمّ في تشيخوفسكايا وتفيرسكايا. وفي النّهاية

أصبحوا مسعورين، متطرّفين، وبدؤوا يعاقبون النّاس. لديهم رايخ الآن. الرّايخ الرّابع، والرّايخ الخامس... شيء كهذا. هم لم يتقدّموا إلى أماكن أبعد بعدُ، لكنّ جيلنا مايزال يتذكّر القرن العشرين. ومن يكون الفاشيّون؟ والمتحوّلون في خطّ فيليفسكايا موجودون في الواقع الفعليّ... والدّارك ونز الأشرار الّذين نعرفهم... وهناك أنواع متعدّدة من الطّائفيّين، وعبدة الشّيطان، والشّيوعيّين... إنّها غرفة الغرائب والعجائب.

مرّوا من تحت الباب المكسور إلى غرفة مهجورة. ربّما كانت مرحاضًا، أو ربّما كانت ملجأ قبل ذلك، مملوءة بالأثاث، أسرّة حديديّة على شكل طوابق وأنابيب سمكرة،كلّها مسروقة منذ وقت طويل. ولم يحاول أحد أن يدخل إلى تلك الغرف المظلمة الفارغة المنتشرة على طول مسافة الأنفاق. ولا يوجد أيّ شيء هناك.. لكنّ الحقيقة لن تعرفوها أبدًا.

كان ثمّة وميض ضوء ضعيف في الأمام. إنّهم يقتربون من أليكسييفسكايا. كانت المحطّة مأهولة في الحدّ الأدنى، والدّوريّة تتألّف من شخص واحد في المتر خمسين. لم يسمحوا لأنفسهم بالابتعاد أكثر. وأصدر القائد أمرًا بالتوقّف على بُعد أربعين مترًا عن النّار الّتي أشعلتها الدّوريّة في أليكسييفسكايا، ثمّ أطفأ وأنار مصباحه الكشّاف عدّة مرّات في تتابع دقيق، إشارة للدّوريّة. ارتسم شكل أسود بواسطة ضوء النّار لكشّاف قادم نحوهم.

ومن مسافة بعيدة صرخ الكشّاف: توقّفوا، لا تقتربوا.

سأل أرتيوم نفسه: هل يمكن في يوم من الأيّام أن لا يعرفونهم في محطّة تربطهم بها علاقات ودّيّة، وأن يقابلوهم بعداونيّة؟

كان الشّخص يقترب منهم ببطء. وهو يرتدي بنطالًا ممزّقا مموّها، وسترة مقلّمة مرسوم عليها الحرف A بخطّ عريض. وعلى ما يبدو هو الحرف الأوّل من اسم المحطّة. خدّاه الغائران غير حليقين، وعيناه تُومضان بنظرة شكّ، وكانت يداه تضربان جسم البندقيّة الآليّة المتدليّة من رقبته. نظر إليهم في وجههم مباشرة، وابتسم.. لقد عرفهم. وبتلويحة منه أظهر ثقته، وترك البندقيّة الآليّة، ووضعها على ظهره.

عظيم أيّها الفتيان، كيف أحوالكم؟ هل أنتم الفتية المتّجهون إلى ريجسكايا؟ نحن نعرف، نحن نعرف، هم نبّهونا. دعونا نذهب.

بدأ القائد يسأل الخفير شيئًا لم يكن مسموعًا لنا، وأرتيوم الّذي تمنّى أن لا يكون مسموعًا هو أيضًا قال لجينيا بهدوء: هذا الرّجل يبدو مرهقًا من العمل، وعنده سوء تغذية. لا أظنّ أنّهم يريدون ضمّ قوّاتهم إلينا لأنّهم يستمتعون بحياة جيّدة.

حسنًا، وماذا في ذلك؟ ردّ صديقه: نحن لدينا مصالحنا في هذا الأمر أيضًا. إن لاحقتها إدارتنا فهذا يعني أنّها تريد شيئًا منها. ليس عملًا خيريًّا أن نأتي لنطعمهم.

اجتازوا نار المخيّم في المتر خمسين حيث كان هناك خفير ثان يجلس، وقد ارتدى مثل الخفير الأوّل الّذي التقوه للتّو. تدحرجت عربتهم نحو المحطّة. كانت

أليكسييفسكايا مضاءة على نحو رديء، وبدا النّاس الذين يعيشون هناك تعساء، وقليلي الكلام. في فدنكه ينظر الأهالي إلى الضّيوف بودّ وحميميّة. توقّفت المجموعة وسط المنصّة، وأعلن القائد عن فسحة للتّدخين. بقي أرتيوم وجينيا على العربة لحمايتها، ودُعي الآخرون للجلوس بقرب النّار.

لم أسمع قطّ عن الفاشيّين، والرايخ، قال أرتيوم.

لقد سمعت عن وجود فاشيّين في مكان ما تحت الأرض ردّ جينيا: لكنّهم قالوا إنّهم كانوا في نوفوكوزنيتسكايا فقط.

من أخبرك؟

ليخا فعل، اعترف جينيا متردِّدا.

لقد روى لك الكثير من القصص المشوّقة الأخرى، ذكّره أرتيوم.

لكن هناك فاشيّون فعلًا، لقد وصل الفتى إلى المكان الخطأ. لم يكن يكذب، أليس كذلك؟ قال جينيا مدافعًا. سكت أرتيوم وغرق في أفكاره. كانت فرصة التّدخين في أليكسييفسكايا لا يقلّ وقتها عن نصف ساعة كما يفترض. وكان القائد في حديث ما مع القائد المحلّيّ، وعلى الأرجح حول التّعاون المستقبليّ. وبعد ذلك كان يفترض بهم أن يدفعوا قدمًا لكي يصلوا إلى ريجسكايا في نهاية اليوم. سيُمضون اللّيل هناك، ثمّ يقرّرون ما يجب أن يقرّروه، وينظرون إلى الأسلاك المكتشفة حديثًا، ثمّ يرسلون رسولًا إلى محطّتهم من أجل التّعليمات التّالية. إذا كان استخدام الأسلاك ممكنًا من أجل الاتّصال بين المحطّات الثّلاثة، فإنّ تفكيكها عندئذ مجدي من أجل تأسيس ربط هاتفيّ. لكن في حال بدا الأمر غير عمليّ فمن الضّروري أن يعودوا إلى المحطّة حالًا.

لهذا كان لدى أرتيوم فترة إعفاء لا تزيد عن يومين. وخلال هذا الوقت سيكون من الضّروري أن يبتكر عذرًا يمكّنه من اجتياز النّطاق الخارجيّ للجند. وفي ريجسكايا الاتّهاميّين والّذين يشكّون، أكثر من نظرائهم في نطاق الجند الخارجيّ في فدنكه، ولم يكن هذا الافتقار للثّقة مفهومًا على الإطلاق، هناك في الجنوب حيث يبدأ المترو الأوسع، كان نطاق ريجيسكايا الجنوبيّ المحميّ بالجند عُرضة لهجمات متكرّرة، ورغم ذلك لم تكن الأخطار المهدّدة لسكّان ريجيسكايا غامضة ومخيفة مثل تلك الّتي تحوم فوق فدنكه، الّتي كانت مختلفة في تنوّعها المذهل، والمقاتلون الّذين يحمون، ويحرسون الممرّ الجنوبيّ حتّى ريجيسكايا لم يعرفوا قطّ ماذا يتوقّعون، لذلك يجب عليهم أن يستعدّوا لكلّ شيء.

هناك نفقان يذهبان من ريجسكايا إلى بروسبيكت مير، وهدمُ أحدهما لم يكن ممكنًا لسبب ما، لذلك اضطرّ أهالي ريجيسكيا لنصب العوائق في كليهما. لكنّ هذا فرض عبئًا ثقيلًا على قوّاتهم، وأصبح من المهمّ والحيويّ أن يصونوا النّفق الشّماليّ على الأقلّ. ضمّوا قوّاتهم إلى أليكسييفسكايا، والأهم من ذلك إلى فدنكه، ونقلوا عبء الدّفاع عن الجهة الشّماليّة، ممّا وفّر بعض السّلام في الأنفاق بين المحطّات، وبذلك

استطاعوا التّركيز على أهدافهم الدّاخليّة الوطنيّة. أما في فدنكه، فقد رأوا هذا الأمر فرصة لتوسيع مجال تأثيرهم.

في ضوء الاتّحاد الوشيك، أبدت المخافر الأماميّة في ريجيسكايا يقظة متزايدة، وكان من الضّروري الإثبات لحلفائها المستقبليّين أنّه يمكن الاعتماد عليها في الدّفاع عن الحدود الجانبيّة. لهذا السّبب بات المرور من كلا الاتّجاهين مهمّة. ولدى أرتيوم يومان فقط في أقصى حد لحلّ ذلك.

لكنّ الأمر لم يبدو مستحيلًا رغم التّعقيدات. وكان السّؤال المطروح ماذا سيفعل بعد ذلك. حتّى لو مرّ من المخافر الأماميّة الجنوبيّة يبقى من الضّروري أن يجد مسارًا آمنًا تمامًا إلى بوليس. بما أنّه اتّخذ قرارًا عاجلًا لم يتسنّ له الوقت للتّفكير بالتّحرّكات التّالية الّتي تمكّنه من النّجاح في الوصول إلى بوليس. في الوطن، بإمكانه سؤال التّجّار الّذين يعرفهم عن الأخطار هناك في الخارج دون أن يثير الشّكوك. لقد عرف أنّه سيثير الشّكوك بمجرّد أن يسأل جينيا أو غيره من المجموعة عن الطّريق إلى بوليس، وسيعرف جينيا فورًا أنّ أرتيوم يبيّت شيئًا. ليس لدى أرتيوم أصدقاء في أليكسييفسكايا أو ريجيسكايا، وبالنّسبة لأسئلة مثل أسئلته لا يستطيع أن يثق بأناس هم مجرّد معارف.

اغتنم أرتيوم فرصة أنّ جينيا ذهب ليتمشّى ويتحدّث مع فتاة كانت تجلس بجواره على الرّصيف، فأخرج خلسة خارطةً صغيرة جدًّا من حقيبته. كانت مطبوعة على ظهر بطاقة تفحّمت أطرافها، عبارة عن إعلان عن معرض تسوّق (منذ زمن بعيد)، ووضعت دوائر حول بوليس بقلم رصاص.

بدا الطّريق إلى بوليس سهلًا وقصيرًا، وذلك في الأزمنة القديمة، في الأزمنة الأسطوريّة الّتي وصفها القائد حين لم يكن حمل أسلحة فيها واجب على النّاس، وحين لم يذهبوا من محطّة إلى أخرى، ويبدّلوا القطارات عند الضّرورة، ويستقلّوا خطًّا آخر. في الوقت الّذي كانت الرّحلة من أوّل الخطّ إلى آخره لا تستغرق أكثر من ساعة واحدة، في تلك الأزمنة حين كانت الأنفاق غير مأهولة إلّا بالقطارات المجلجلة المندفعة فقط.. لو عدنا إلى ذاك الزّمن، لكانت المسافة بين فدنكه وبوليس قصيرة وواضحة.

كانت بوليس على الخطّ المؤدّي إلى تورغينيفسكايا مباشرة، ومن هناك ثمّة نفق مشاة إلى كريستي برودي كما كانت تسمّى على الخارطة القديمة الّتي كان يتفحّصها أرتيوم. أو يأخذ أحدهم خطّ كيروفسكايا والخطّ الأحمر وخطّ سوككولنيشيسكايا مباشرة إلى بوليس. أمّا في عهد القطارات والأضواء المشعّة تستغرق هذه الرّحلة حوالي ثلاثين دقيقة. لكن ومنذ أن كتبت كلمات «الخطّ الأحمر» بأحرف كبيرة، وعُلّقت الرّاية القماشيّة الحمراء فوق نفق المشاة إلى كريستي برودي، لم يبق أيّ مجال للتّفكير حتّى في طريق مختصرة إلى بوليس.

منعت قيادة الخطّ الأحمر المحاولات، وذلك كي تُجبر سكّان المترو كلّهم أن يكونوا سعداء بفرض السّلطة السّوفييتيّة عليهم بالقوّة. وتبنّت عقيدة جديدة، ووطّدت الشّيوعيّة على طول خطّ منفصل من شبكة المترو، لكنّها لم تكن قادرة على

التخلص من حلمها الأصليّ، واستمرت بتسمية شبكة المترو بـِ«حاضرة ف اي لينين» إلّا أنّها لم تتّخذ خطوات عمليّة لمتابعة الخطّة الكبرى.

لكنّ طبيعة النّظام الحاكم الجنونيّة الشّكّاكة الدّاخليّة لم تتبدّل أبدًا على الرّغم من سلوكه الظّاهريّ المسالم للنّظام. مئات العملاء من وكالة الأمن الدّاخليّ، مثل الأيّام القديمة، مع حنين مؤكّد للـ«كي جي بي»، كانوا يراقبون سكّان الخطّ الأحمر السّعداء. وكان اهتمامهم بالضّيوف من الخطوط الأخرى لا حدود له. بلا إذن خاصّ من إدارة «الحمر»، لا يستطيع أحد الذّهاب إلى أيّ محطّة أخرى. لقد فُرض الرّصد المستمرّ على جوازات السّفر، والمراقبة الشّاملة، والاشتباه المؤكّد العام على المسافرين العرضيّين، وعلى الجواسيس الّذين أُرسلوا إلى هناك أيضًا، وساووا بين المسافرين والجواسيس، وكان مصير الاثنين تعيسًا. لذا لا فائدة لأرتيوم في التّفكير بالوصول إلى بوليس عبر محطّات ثلاث تعود ملكيّتها إلى الخطّ الأحمر.

عمومًا ليس هناك مسلك سهل إلى قلب المترو. إلى بوليس... وقد كان مجرّد ذكر هذا الاسم في حديث ما، يجعل أرتيوم يغرق في صمت تبجيليّ. تذكّر بوضوح المرّة الأولى الّتي سمع فيها الكلمة في قصّة رواها له أحد أصدقاء زوج أمّه، وبعد أن غادر هذا الضّيف سأل سوخوي بهدوء عن معنى الكلمة، فنظر إليه زوج أمّه عندئذ باهتمام، وكان في صوته حزن غامض، وقال: تلك على الأرجح آخر مكان على وجه الأرض يعيش النّاس فيه كبشر، ولم ينسوا ماذا تعني كلمة (شخص)، والأكثر كيف يجب أن يرنّ صوت هذه الكلمة. ابتسم زوج أمّه بحزن، وأضاف: إنّها مدينة.

تقع بوليس حيث تتقاطع خطوط المترو الأربعة، ولديها وحدها أربع محطّات: ألكساندر غاردن، أرباتسكايا، بوروفيزسكايا، ولينين ليابراري. كانت هذه الأرض الهائلة، موطن الحضارة الأصيلة الأخيرة، والمكان الأخير المأهول بهذا العدد الهائل من السّكان. والذي لم تستطع الأنواع المحلّيّة الّتي حدث وكانت عليها، إلّا أن تطلق عليها اسم مدينة. أعطيت اسمًا افتراضيًّا، لكنّه كان يعني الشّيء نفسه على أيّ حال: بوليس. وربّما كان السّبب هو أنّ لهذه الكلمة رنّة أجنبيّة، وصدى لحضارة قديمة جبّارة عجيبة بدت أنّها تحمي المستوطنة، وظلّ الاسم عالقًا بها. بقيت بوليس ظاهرة فريدة في المترو. فهناك فقط، مايزال بالإمكان اللّقاء بحرّاس ذوي معرفة قديمة وغريبة لا يمكنك أن تجدها في هذا العالم الجديد القاسي مع قوانينه المتلاشية. إنّ معرفة سكّان أغلب المحطّات الأخرى، وجوهريًّا كلّ المترو، هذه المحطّات الّتي كانت تغطس ببطء في قلب هاوية من التّشوش والجهل، أصبحت بلا فائدة. وهؤلاء الّذين يحملون هذه المعرفة اندفعوا من كلّ مكان، ووجدوا الملجأ الوحيد في بوليس، حيث رُحّب بهم بأذرع مفتوحة لأنّ زملاءهم كانوا في السّلطة هناك. ولهذا السّبب في بوليس، وفي بوليس فقط، يمكنك أن تلتقي أساتذة جامعيّين قديمين عملوا في موقع ما في أقسام جامعات مشهورة أصبحت الآن فارغة وخرابًا، تعجّ بالجرذان. كما عاش هناك آخر من بقي من فنّانين أيضًا، ممثّلين، وشعراء، وآخر علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء. هؤلاء الّذين خزّنوا أفضل إنجازات الإنسان في جماجمهم، وعرفوا ألف سنة من التّاريخ، هؤلاء الّذين ستضيع معرفتهم عندما يموتون.

كانت بوليس تحت ما كان يعرف بمركز المدينة. وفوق بوليس مباشرة يقع بناء مكتبة لينين، أوسع مخزن للمعلومات الآتية من كلّ العصور. هناك مئات آلاف الكتب بعشرات اللّغات. ومئات الأطنان من الوثائق المعلّمة بكلّ أنواع الحروف والإشارات والأحرف الهيروغليفية، بعضها لا أحد يعرف قراءتها الآن لأنّ لغتها ماتت مع آخر المتكلّمين بها. لكنّ المجموعة الأضخم من الكتب ما تزال مقروءة ومفهومة. والنّاس الّذين ماتوا قبل مائة عام، بعد أن كتبوها، ماتوا ولديهم الكثير ليقولوه للأحياء.

ومن بين كلّ الاتّحادات الفيدراليّة والإمبراطوريّات، والمحطّات الجبّارة الّتي كان لديها الوسائل لإرسال بعثات إلى السّطح، كانت بوليس وحدها من أرسلت صيّادي طرائد إلى الأعلى من أجل الحصول على الكتب. وكانت المكان الوحيد الّذي يجلّ المعرفة، ويعطيها قيمة كبيرة جدًّا. وكان النّاس فيها مستعدّين للمخاطرة بحياة المتطوّعين منهم في سبيل الكتب، وقد دفعوا مبالغ هائلة لهؤلاء الّذين استأجروهم لجلبها، وخسروا أصولًا ماليّة، وأرصدة بنكيّة من أجل اكتساب أصول وأرصدة روحيّة.

وقفت بوليس قويّة، سنة تلو أخرى، ومرّت المشاكل من حولها على الرّغم من إدارتها غير العمليّة، وغير المثاليّة. وإذا هدّدها خطر فسوف يستعدّ المترو كلّه للاحتشاد من أجل حمايتها. لقد مات صدى آخر معركة حدثت هناك في الذّاكرة الحيّة، بين الخّط الأحمر والهانسا، وظلّت هالة من المناعة وعدم السّقوط والرّفاه، تحيط ببوليس من جديد.

وحين فكّر أرتيوم بهذه المدينة الرّائعة، لم يستغرب أبدًا من أنّ الرّحلة إلى مكان كهذا لن تكون سهلة. إذ يمكن أن يضيع، ويواجهه الأخطار واختبارات القوّة قبل ذلك، وإلّا فالغرض من الرّحلة سيفقد سحره.

إذا بدا له أنّ الطّريق عبر كيروفسكايا بموازاة الخطّ الأحمر إلى مكتبة لينين لا يُخترق، وخطر جدًّا، فعليه أن يحاول التّغلّب على دوريّة هانسا، والذّهاب عن طريق الرّينغ. دقّق أرتيوم النّظر في الخريطة المتفحّمة أكثر عن قرب.

الآن، إذا نجح في المرور عبر أراضي هانسا بأن يختلق عذرًا ما، ويتحدّث إلى حرّاس الأشرطة المحميّة، أو يخترقها بقتال، أو بوسيلة أخرى، عندها ستكون الرّحلة إلى بوليس قصيرة تمامًا. أمّا إذا ذهب من بروسبيكت مير، من جهة الرّينغ عبر المحطّتين الأخريين العائدتين لهانسا، فسوف يخرج ويصل إلى كورسكايا. وعندها يستطيع أن يتحوّل إلى خطّ أرباتسكو-بوكروفسك، ومن هناك يستطيع الوصول إلى أرباتسكايا، يعني إلى بوليس. صحيح أنّ ساحة الثّورة الّتي كانت على الطّريق تمّ التّنازل عنها بعد الحرب مع الخطّ الاحمر مقابل مكتبة لينين، لكنّ الحمر ضمنوا الانتقال والمرور الحرّ لكلّ المسافرين. وهذا كان من الشّروط الأساسيّة لاتّفاق السّلام، وسيسمحون لأرتيوم بالمرور بحرّيّة لأنّه لم يخطّط للبقاء في المحطّة، وإنّما لعبورها فقط. بعد التّفكير بذلك قرّر أن يتمسّك بتلك الخطّة، ويحاول تصنيف التّفاصيل على طول الطّريق إلى المحطّات الّتي سيمرّ عبرها، وقال لنفسه:

إذا لم أنجح فيما خططت، أستطيع دائمًا إيجاد مسار بديل. وبعد النّظر إلى الخطوط المتداخلة والممرّات الكثيرة، اعتقد أرتيوم أنّ القائد غالى كثيرًا في رسم لوحة للمصاعب لأقصر رحلة عبر المترو. مثلًا يمكنك أن تسير من بروسبيكت مير من اليسار بدلًا من اليمين، سحب أرتيوم إصبعه لأسفل الخريطة، إلى الرّينغ حتّى تصل إلى كييفسكايا، ومن هناك تستطيع الذّهاب عبر ممرّ المشاة إلى خطّ فيليفسكايا، أو خطّ أرباتسكو-بوكروفسكوي مع وقفتين فقط باتّجاه بوليس. لا تبدو المهمّة مستحيلة جدًّا لأرتيوم بعد الآن. هذا التّمرين البسيط على الخارطة أعطاه ثقة بنفسه. والآن عرف كيف سيتصرّف، ولم يعد يشكّ في أنّه عندما يصل إلى ريجيسكايا لن يعود مع المجموعة إلى فدنكه، وإنّما سيذهب في رحلته إلى بوليس.

هل تدرس؟ سأله جينيا بعد أن توجّه إلى أرتيوم مباشرة دون أن يلاحظه.

وثب أرتيوم متفاجئًا، وحاول أن يخبّئ الخارطة في ارتباك.

نعم، كلا... كنت... أردت أن أجد المحطّة الّتي يقع فيها الرّايخ على الخريطة، تلك الّتي أخبرنا عنها القائد قبل قليل.

حسنًا إذن، هل وجدتها؟ لا؟ أوه، تعال، دعني أريك، قال جينيا بلهجة فيها تعالٍ. فقد كان يوجّه نفسه في المترو أفضل من أرتيوم، وأفضل من أقرانه الآخرين أيضًا، وهو فخور بذلك. وضع إصبعه على مثلث تشيخوفسكايا وبوشكينسكايا وتفيرسكاي مباشرة، ولم يخطئ.

تنفّس أرتيوم الصّعداء، وظنّ جينيا أنّ أرتيوم يغار منه لمهارته، فقرّر أن يواسيه، فقال: لا تقلق، في يوم ما ستصبح ماهرًا في فهم الخريطة واسكتشافها مثلي.

ارتسم تعبير من العرفان على وجه أرتيوم، وعجّل في تغيير الموضوع.

كم سنتوقّف هنا؟ سأل.

أيّها الشّباب، دعونا نغادر. رنّ صوت القائد الجهوريّ الهادر عاليًا، وفهم أرتيوم أنّه لن تكون ثمّة استراحة أخرى، وأنّ عليه الحصول على أيّ شيء يأكله.

كان دور أرتيوم وجينيا ليكونا على العربة مرّة أخرى. بدأت الرّوافع تطحن، وبدأت الأحذية تُقعقع على الإسمنت، وانطلقوا في النّفق مرّة أخرى. تقدّمت المجموعة في صمت هذه المرّة، ولم يتكلّم سوى القائد. طلب من كيريل الوصول إلى المقدّمة، وناقش معه شيئًا ما بهدوء. لم تكن لدى أرتيوم الرّغبة أو القوّة من أجل سماع حديثهما، فالعربة اللّعينة تستهلك كلّ طاقته.

شعر الرّجل الّذي تُرك في المؤخّرة لوحده بضيق واضح، ونظر وراءه بخوف مرّات كثيرة. وكان أرتيوم يقف مقابله في العربة، ولم ير أيّ شيء مخيف خلفه، وكان يشعر بالاطمئنان حين ينظر إلى المقدّمة. الخوف وعدم الثّقة يلاحقانه دائمًا، ولم يكن وحده من يشعر بهذا، فكلّ مسافر وحيد يعرف هذا الشّعور، حتّى أنّهم أطلقوا عليه اسم (خوف النّفق). إذ ينتابك هذا الخوف عندما تذهب عبر نفق ويكون ضوء مصباحك رديئًا، فتشعر كأنّ خطرًا ما يكمن خلف ظهرك مباشرة. أحيانًا

يكون هذا الشعور متضخّما لدرجة تشعر فيها وكأنّ أحدًا يحدّق بمؤخّرة رقبتك، أو ربّما ليس تحديقًا لكن... من يعرف من كان؟ أو ما يكون هناك؟ وكيف يراقب العالم؟ ومن ثمّ يصبح الشّعور مستبدًّا على نحو لا يطاق، ولا تستطيع تحمّله، فتستدير حول الضّوء بسرعة، وتدسّ مصباحك الكشّاف في قلب الظّلام، فلا تجد أحدًا، سوى الصّمت والفراغ... كلّ شيء هادئ. لكنّك تنظر خلفك، وتُجهد عينيك بالنّظر في الظّلام حتّى تتأذيا، ويتكاثف الظّلام خلفك ثانية، وتحاول أن تلقي نفسك في الجهة الأخرى لتنير النّفق أمامك. هل كان هناك أحد؟ هل تسلّل إليك أحد بينما كنت تنظر إلى الجهة الأخرى؟ ومرّة أخرى... كان المطلوب أن لا تفقد السّيطرة، أو تستسلم للخوف، وأن تقنع نفسك بأنّها مجرّد حماقة، وليس هناك ما يُخشى منه، وأنّك لم تسمع شيئًا بأيّ حال. لكنّ السّيطرة على النّفس صعبة جدًّا، خصوصًا حين تمشي وحيدًا.

لقد جُنّ بعض النّاس الّذين لم يستطيعوا تهدئة أنفسهم حتّى بعد أن وصلوا إلى محطّات مأهولة، ثمّ عادوا إلى رشدهم ببطء، وبالتّدريج بعد ذلك. لكن لم يعد بمقدورهم الذّهاب داخل النّفق مرّة أخرى لئلّا يسيطر عليهم فورًا الشّعور نفسه بالذّعر المألوف لدى كلّ ساكني المترو، ويمكن عندها أن يتحوّل إلى وهم مدمّر.

لا تخف. أنا أراقب الوضع، صاح أرتيوم في الرّجل في المؤخّرة. أومأ الرّجل برأسه، ولكن بعد دقيقتين لم يستطع تفادي النّظر وراءه من جديد. إنّه أمر صعب.

أنا أعرف فتى في سيرجي فقد عقله بتلك الطّريقة، قال جينيا بهدوء مدركًا ما كان يُشير إليه أرتيوم «للإنصاف عنده مبرّر قوي جدًّا ليفقد عقله. إذ قرّر أن يذهب عبر ذلك النّفق في زوخاريفسكايا، هل تذكر أنّني أخبرتك عنه؟ يجب أن لا تذهب لوحدك أبدًا إلى أيّ مكان. عليك أن تذهب في قافلة. حسنًا لقد عاش الفتى، لكن هل تعرف لماذا نجا؟» ابتسم جينيا بتكلّف، وقال «لأنّه لم يمتلك الشّجاعة الكافية ليتجاوز المتر أربعمائة. حين توجّه في النّفق كان شجاعًا جدًّا ومصمّمًا. لكنّه عاد بعد عشرين دقيقة، وعيناه محملقتين، وشعره منتصب، وعاجزًا عن التّفوّه بكلمة واحدة مفهومة. لهذا لم يفهموا منه شيئًا. ومنذ ذلك الحين أصبح يتكلّم كلامًا مفكّكًا، وفي أغلب الأحيان يخور كالبقرة. ولم تطأ قدمه النّفق بعدها، وبقي يتسوّل في زوخاريفسكايا. إنّه الأبله في القرية الآن. هل اتضّح لك مغزى القصّة الآن؟»

«نعم»، قال أرتيوم متردّدا.

تقدّمت المجموعة لبعض الوقت في صمت تامّ. وغرق أرتيوم في أفكاره من جديد، ومشى زمنًا محاولًا أن يفكّر بشيء معقول يقوله عند المخفر عند المخرج لكي يخرج من ريجيسكايا.

وهكذا واصلوا السّير. وبعد برهة لاحظ صوتًا غريبًا، يرتفع أكثر فأكثر، قادمًا من النّفق أمامهم. الضّجيج نفسه الّذي لم يكن مسموعًا تقريبًا في البداية، وكان على الحدّ بين الصّوت المسموع والصّوت الّذي لا يمكن سماعه. بدأ الصّوت يرتفع ببطء وعلى نحو غير محسوس، لذلك لا تستطيع الحكم متى بدأ يسمعه. صوت ذكّره بالهمس الصّفيريّ أكثر من أيّ شيء، صوت غير مفهوم، وغير بشريّ.

تفحّص أرتيوم الآخرين. كانوا يتحرّكون بإيقاع وصمت. توقف القائد للتحدّث مع كيريل، جينيا يفكّر بشيء ما، والرّجل في الخلف كان ينظر إلى الأمام بهدوء. لا شيء، أصاب أرتيوم الخوف. هدوء المجموعة وصمتها، أصبحا ملحوظين أكثر في هذه الخلفيّة من هذا الهمس الّذي كان يعلو أكثر، وكان مبهمًا ومرعبًا. أوقف أرتيوم عمل الرّافعة، ووقف منتصبًا. نظر جينيا إليه مندهشًا. كانت عينا جينيا صافيتين بلا أيّ أثر للمخدّرات الّتي خاف أرتيوم أن يجدها هناك.

ماذا تفعل؟ سأل جينيا بانزعاج: هل أتعبك شيء؟ كان عليك أن تخبرنا ولا تتوقّف على هذا النّحو.

ألا تسمع شيئاً؟ سأل أرتيوم مرتبكًا، وفي صوته شيء جعل التّعبير الّذي على وجه جينيا يتبدّل.

أصغى جينيا دون أن يوقف عمل الرّافعة. كانت العربة تسير على نحو أبطأ، فأبطأ، لأنّ أرتيوم ظلّ واقفًا هناك، وعلى وجهه نظرة مبهمة، يلتقط صدى الضّجيج الغامض.

لاحظه القائد، والتفت قائلًا: ما المشكلة معك؟ هل نفد شحن بطاريّتك؟

ألا تسمع شيئاً؟ سأله أرتيوم.

في تلك اللّحظة تسلّل إلى نفسه إحساس شنيع بأنّه ربّما لم يكن ثمّة ضجيج، ولهذا لم يسمعه أحد، وأنّه بدأ يجنّ، وأنه يتخيّل ذلك بسبب الخوف.

أعطى القائد إشارة للتوقّف، فتوقّف صرير العربة، وتلاشت دمدمة الأحذية. تسلّلت يداه إلى بندقيّته الآليّة، ووقف صامتًا ومتوتّرا ومصغيًا، وأدار إحدى أذنيه الى النّفق.

الصّوت الغريب هناك مباشرة الآن. سمعه أرتيوم بوضوح، وكلّما زاد وضوح الصّوت، حدّق أرتيوم بانتباه أكبر في وجه القائد، محاولًا أن يعرف إن كان قد سمع هو الآخر ذلك الصّوت، الأمر الّذي زاد من اضطراب أرتيوم. لكنّ الملامح على وجه القائد هدأت بالتّدريج، وغمر أرتيوم شعور بالخزي، فهو لم يوقف العربة بلا سبب وحسب وإنما تسبّب برعب الآخرين أيضًا.

من الواضح أنّ جينيا لم يسمع شيئًا رغم محاولته الإصغاء، ولأنّه ترك عمله، نظر إلى أرتيوم بسخرية حاقدة، ثمّ نظر في عينيه، وسأل:

هلوسات؟

اللّعنة. تبًّا، صرخ أرتيوم على نحو غير متوقّع بانزعاج: ماذا؟ هل كلّكم طرشان؟ أو ماذا؟

هلوسات. ختم جينيا.

اهدأ، فليس هناك شيء. لقد ظننت حقًّا أنّك ربّما تكون قد سمعته. لا تقلق، فهذا يحدث، لا تتوتّر يا أرتيوم. تقدّم وابدأ من جديد، فسوف نواصل طريقنا، قال القائد

بلطف مهدّئا، ومشى في المقدّمة بنفسه.

لم يكن أمام أرتيوم أيّ خيار آخر سوى أن يعود إلى عمله. وحاول جادًّا أن يقنع نفسه بأنّ الهمس كان في خياله فقط، وأنّه مجرّد توتّر. حاول أن يسترخي وأن لا يفكّر بشيء، وتمنّى أن يرمي الصّوت خارج رأسه مع أفكاره المشوّشة والمتدفّقة. وقد نجح في إيقاف الأفكار لمدّة من الوقت، لكنّ رنين الصّوت زاد أكثر، وعلى نحو أوضح في رأسه الفارغ. شجّعته حقيقة أنّهم كانوا يتقدّمون أبعد نحو الجنوب، وفجأة، عندما أصبح الضّجيج مرتفعًا جدًّا، وبدأ يملأ المترو كلّه، لاحظ أرتيوم أنّ جينيا يعمل بيد واحدة، وأنّه كان يحكّ أذنيه باليد الأخرى دون أن يلاحظ.

ماذا تفعل؟ همس له أرتيوم.

لا أعرف، إنّهما مسدودتان، يحكّانني، دمدم جينيا.

وأنت أيضًا ألا تسمع شيئًا؟ سأل أرتيوم.

لا، أنا لا أسمع شيئًا، لكنّي أشعر بضغط، همس جينيا رادًّا عليه، ولم يعد هناك في صوته أثر لسخريته السّابقة.

وصل الصّوت إلى ذروته، فعرف أرتيوم مصدره. كان ينبعث من أحد الأنابيب الموضوعة على طول جدران النّفق الّتي كانت تُستخدم كخطوط اتّصالات وكأشياء أخرى لا يعرف أحد عنها شيئًا. وكان الأنبوب منفجرًا، وممزّقا، وفيه فتحة سوداء تُصدر هذا الصّوت الغريب الّذي يأتي من أعماق الأنبوب. وبينما كان أرتيوم يحاول معرفة السّبب إذ أنّه لا أسلاك داخله، أو أيّ شيء سوى الفراغ والسّواد، توقّف القائد فجأة، وقال ببطء وإنهاك:

يا فتيان... دعونا نستريح هنا. أشعر أنّني لست على ما يرام، شيء ما في رأسي.

اقترب من العربة بخطى مرتبكة ليتمكّن من الجلوس على حافتها لكنّه خطا خطوة واحدة قبل أن يسقط مثل كيس على الأرض.

نظر إليه جينيا بارتباك وهو يفرك أذنيه بكلتا يديه، ولم يتحرّك من مكانه. تابع كيريل السّير لوحده لسبب ما، كأنّ شيئاً لم يحدث، دون أن يستجيب لصيحاتهم. بينما جلس الرّجل الّذي في المؤخّرة على قضبان السّكّة الحديديّة، وبدأ يبكي عاجزًا مثل طفل رضيع. أنير ضوء المصباح الموجّه إلى سقف النّفق من الأسفل فبدا المشهد أكثر شؤمًا.

أصاب أرتيوم الذّعر. ومن الواضح أنّه الوحيد الّذي لم يتبلّد عقله بالصّوت، لكنّ الضّجيج أصبح لا يُطاق، ويمنع المرء من تطوير أيّ أفكار متماسكة.

غطّى أرتيوم عينيه في حالة من اليأس، وساعده هذا قليلًا. بعدئذ صفع بكلّ قوّته جينيا الّذي مازال يفرك أذنيه، وعلى وجهه تعبير أبله، وصاح به محاولًا أن يقهر الضّجيج، ونسي أنّه الشّخص الوحيد الّذي كان يسمعه: التقط القائد من الأرض، ضع القائد في العربة، لا نستطيع البقاء هنا. لا مجال أبدًا. يجب أن نخرج من هنا.

التقط المصباح الذي سقط على الأرض، وذهب وراء كيريل الذي كان يسير قدمًا مثل المسرنَم في الظّلام الحالك.

ولحسن الحظّ كان كيريل يسير ببطء. وببضع قفزات نجح أرتيوم في اللّحاق به، ونقر بإصبعه على كتفه، لكنّ كيريل واصل السّير وابتعد أكثر فأكثر عن الآخرين. ركض أرتيوم أمامه، ولا يعرف ماذا سيفعل، ووجّه ضوء المصباح إلى عيني كيريل. كانتا مغلقتين، لكنّ كيريل تجهّم ووقف. عندئذ أمسكه أرتيوم بإحدى يديه، واستعمل الأخرى لرفع جفن عينه. ولمع الضّوء في داخل بؤبؤ عينه. صرخ كيريل وبدأ يرمش، ثمّ هزّ رأسه، واستعاد وعيه في جزء من الثّانية وفتح عينيه، ثمّ نظر إلى أرتيوم في ذهول. لم يكن يرى شيئًا بسبب ضوء المصباح، وكان على أرتيوم أن يقوده من يده، ويعود به إلى العربة.

كان جسد القائد المغمى عليه ممدًّدا على العربة، وجينيا يجلس إلى جانبه مع التّعبير الأبله نفسه على وجهه. ترك أرتيوم كيريل عند العربة، وذهب إلى الرّجل في المؤخّرة الّذي كان يجلس على قضبان السّكّة الحديديّة ويبكي. ولـمّا نظر أرتيوم في عينيه واجهه الرّجل بنظرة فيها العذاب الشّامل، وكان شعورًا قاسيًا جدًّا، لذلك تراجع أرتيوم للخلف خشية أن يبدأ بالبكاء في وجه هذا الألم.

قُتلوا كلّهم... وكان هذا مؤلمًا جدًّا. فهم أرتيوم تلك الكلمات وسط النّشيج.

وحاول أن يوقف الرّجل على قدميه، لكنّه كان يبعد نفسه ويصيح بصوت عال وبغضب غير متوقّع: خنازير، أشرار، أنا لن أذهب إلى أيّ مكان معكم. أريد أن أبقى هنا، هم وحيدون تمامًا، ويعانون من الألم العظيم هنا، وأنت تريد أن تبعدني من هنا؟ إنّ هذا كلّه خطؤكم، لن أذهب إلى أيّ مكان، دعني وشأني، أتسمعني؟

في البداية أراد أرتيوم أن يصفعه، ظنًّا منه أنّ الصّفع سيُعيد للرّجل رُشده، لكنّه خشي من أن يكون الرّجل هائجًا جدًّا، وينتقم منه. لذا، انحنى وجثا على ركبتيه أمام الرّجل، وتكلّم معه بلطف رغم صعوبة ذلك في صخب الضّجيج العالي:

الآن أنت تريد مساعدتهم، صحيح؟ وتريد أن تنهي عذابهم؟ نظر الرّجل ودموعه تنهار إلى أرتيوم، وهمس بابتسامة خائفة: طبعا... طبعا أريد مساعدتهم.

إذًا عليك فعل ذلك. هم يريدون منك أن تساعدهم. اذهب إلى العربة، وقِف عند الرّافعة. يجب أن تساعدهم للوصول إلى المحطّة.

هل هم من أخبروك بهذا؟ نظر الرّجل إلى أرتيوم غير مصدّق.

نعم، ردّ أرتيوم مطمئنًا.

وبعدئذ، هل ستدعني أعود إليهم؟

أعدك إن أردت الرّجوع إليهم، فإنّني سأعيدك، أكّد له أرتيوم، ثمّ جرّه إلى العربة دون أن يفسح وقتًا للرّجل كي يفكّر.

ترك الرّجل على العربة مع جينيا، وشغّل هو وكيريل، الرّوافع بينما كان القائد المغمى عليه ممدًّدا هناك في الوسط. في هذا الوقت اتّخذ أرتيوم الموقع الأماميّ، ووجّه بندقيّته الآليّة إلى الظّلام، ومشى قُدمًا بخطى سريعة. تفاجأ أرتيوم من أنّه استطاع سماع صوت العربة وهي تتبعه، وشعر بأنّه قام بفعل غير مقبول لأنّه ترك مؤخّرة العربة بلا حماية، لكنّه أدرك أنّ الشّيء الأهمّ كان الخروج من هذا المكان البغيض بأسرع ما يمكن.

أضحى الآن ثلاثة منهم يشغّلون الرّوافع، وأصبحت المجموعة تتحرّك على نحو أسرع من قبل. شعر أرتيوم ببعض الارتياح لأنّ الصّوت الشّرير كان يهدأ أكثر فأكثر، وإحساسه بالخطر يتناقص. صاح بالآخرين كي يحافظوا على سرعة المسير، وسمع فجأة صوت جينيا المندهش ونشيجه خلفه: ماذا؟ هل أنت القائد الآن؟

أشار أرتيوم إليهم بالتوقّف بعد أن أدرك أنّهم اجتازوا المنطقة الخطرة، وعاد إلى المجموعة، وسقط على الأرض منهكًا، وأسند ظهره على العربة. استعاد الآخرون وعيهم، وتوقّف الرّجل في المؤخّرة عن النّشيج، ومسح وجهه بيديه وهو ينظر حوله في حيرة. بدأ القائد يتحرّك، ونهض وهو يئن أنينًا باهتًا، واشتكى من صداع في رأسه.

بعد نصف ساعة كان الاستمرار مستحيلًا. لم يتذكّر أحد منهم أيّ شيء ممّا جرى سوى أرتيوم.

أتعرفون؟ لقد سحبني الثّقل إلى الأسفل بسرعة، وكان رأسي مشوَّشا، ثمّ خرجت من الحالة فجأة. لقد حدث ذلك معي من قبل بسبب هجوم بالغازات في نفق آخر بعيد عن هنا، لكنّه لو كان غازًا لكان له تأثير مختلف على الجميع في قت واحد وبلا تمييز. وأنت سمعت ذلك الصّوت حقيقة؟ هذا شيء غريب. كان القائد يفكّر بصوت عال، وكان نيكيتا يزأر... إذًا نيكيتا هو من كان يصرخ ويبكي؟ سأل خفير المؤخّرة.

الشّيطان يعرف، أمّا أنا لا فلا أتذكّر. تذكرت منذ دقيقة لكنّ الذّكرى طارت من رأسي، لقد كان شيئًا مثل الحلم. فحين تستيقظ تتذكّر كلّ شيء، وتكون الصّورة واضحة جدًّا في عقلك، لكن بعد بضع دقائق تستعيد الوعي قليلًا، فيزول كلّ شيء، فارغ، ولا تبقى سوى شظايا فقط. حسنًا، الأمر يشبه ما حصل معي الآن، فأنا أذكر أنّني كنت حزينًا من أجل شخص ما، لكن من هو؟ ولماذا؟ لا علامة أو إشارة.

وكنت تريد البقاء في النّفق إلى الأبد معه، ووعدتك بأن أتركك تعود لو أردت ذلك، قال أرتيوم إلى نيكيتا وهو يرمقه بنظرة جانبيّة: لهذا سأدعك تعود، تفضل، أضاف وهو يضحك ضحكة خافتة.

لا، شكرًا لك، ردّ نيكيتا بعبوس: لقد أعدت النّظر.

حسنًا أيّها الشّبّان، يكفينا تسكّعا. لا يوجد شيء هنا في هذا النّفق لنبقى من أجله. دعونا نصل إلى هناك أوّلًا، وبعدئذ نتحدّث عن كلّ شيء. مايزال واجبًا علينا أن نعود إلى الوطن بعد نقطة معيّنة أيضًا. لكن لماذا نضع الخطط مسبقًا في يوم كهذا؟ بمشيئة الربّ سننجح في الوصول إلى وجهتنا الأولى، وختم القائد قائلًا: هيّا، دعونا

نذهب، ثمّ أضاف على نحو غير متوقع: اسمع يا أرتيوم، تعال وسِر معي، فأنت بطلنا اليوم. أخذ كيريل مكانه خلف العربة، وبقي جينيا رغم اعتراضه مع نيكيتا، وتحرّكوا جميعًا نحو الأمام.

قلت إنّ هناك أنبوب مكسور، أليس كذلك؟ ربّما نحن البلهاء يا أرتيوم، فقد كنّا طرشان تمامًا ولم نسمع شيئًا. ربّما لديك حاسّة خاصة لتلك القذارة، أنت محظوظ بهذه الحاسّة أيّها الصّبيّ. تابع القائد حديثه: غريب جدًّا أن يأتي من الأنبوب، قلت إنّه أنبوب فارغ، أليس كذلك؟ من يعرف بحق الجحيم ما الّذي يمرّ في داخله أيضًا؟ تابع وهو ينظر بحذر إلى الأنابيب المتشابكة الّتي تشبه الأفاعي على طول جدران النّفق.

لم يعد هناك مسافة طويلة للوصول إلى ريجيسكايا. وبعد ربع ساعة رؤوا ضوء نار الدّوريّة، فأبطأ القائد سرعة سيرهم، وأعطى الإشارة الصّحيحة بمصباحه، فتركهم رجال الدّوريّة يمرّون عبر النّطاق المحميّ بسرعة وبلا تأخير، وتدحرجت العربة إلى داخل المحطّة.

كانت ريجيسكايا في حال أفضل من أليكسييفشكايا. وفي وقت ما في الماضي، كان هناك سوق كبير فوق الأرض في هذه المحطّة، والكثير من تجّار ذلك السّوق من بين النّاس الّذين نجحوا في الهرب إلى المترو والنّجاة بأنفسهم. كان سكّان المحطّة دائمًا، ومنذ البداية، أناسًا مغامرين، وقد وفرّ لهم قربهم من بروسبيكت مير وهانسا، والطّرق التّجاريّة الرّئيسيّة، قدرًا محدًّدا من الازدهار والرّخاء الاقتصاديّ. فلديهم الضّوء الكهربائيّ، وأضواء الطّوارئ كالّتي في فدنكه. وخفراء دوريّاتهم يلبسون الثّياب المموّهة القديمة الّتي بدت مثيرة للإعجاب أكثر من السّترات المزركشة المبطّنة في أليكسييفسكايا.

أخذ سكّان المحطّة الضّيوف إلى خيمتهم. لقد باتت العودة السّريعة إلى الوطن غير محتملة بما أنّ الخطر الّذي في النّفق لم يكن واضحًا، وغير واضح أيضًا كيف سيتعاملون معه. جاءت إدارة المحطّة ومجموعة صغيرة من فدنكه معًا من أجل اللّقاء، ومنح البقيّة وقتًا للرّاحة. خرّ أرتيوم المُنهك والمجهد على وجهه في سريره مباشرة. لم يرغب في النّوم ولكنّه كان خائر القوى. بعد ساعتين تعهّدت المحّطة بتحضير وليمة من أجل ضيوفها، ومن غمز المضيفين وهمسهم، بدا أنّه من المحتمل وجود بعض اللّحم فيها. لكن الآن هناك وقت للاستلقاء وعدم التّفكير بأيّ شيء.

علا صوت الضّجيج وراء جدران الخيمة. وأُعدّت الوليمة في وسط المحطّة حيث موقد النّار الأساسيّ. ولم يتمكّن أرتيوم من المقاومة فنظر إلى الخارج. فرأى عددًا من الأشخاص ينظّفون الأرض، ويمدّون قماشًا مشمّعا، وفي مكان أبعد قليلًا كانوا يقسّمون خنزيرًا، قطّعوه ووضعوه على سلك حديديّ، ثمّ علّقوه فوق النّار. جدران المحطّة الغير عاديّة، فلم تكن من الرّخام مثل الّذي في فدنكه وأليكسييفسكايا، وإنّما مرصوفة بالقرميد الأصفر والأحمر. هذه التّركيبة بدت مبهجة كما يفترض في وقت ما. أمّا الآن فقد غُطّي القرميد المصقول، وطبقة الجصّ، بطبقة من السّخام والدّهن،

ومع ذلك احتفظت بشيء من ملمسها القديم. لكنّ الشيء الأهمّ هو وجود قطار حقيقيّ في الطّرف الآخر من المحطّة طُمِر نصفه في النّفق، نوافذه كانت قد نُسفت، وأبوابه كانت مفتوحة.

لا يمكن أن تجد قطارات في أيّ ممرّ أو محطّة بأيّ شكل. وفي العقدين الأخيرين، كانت أغلب القطارات، وخصوصًا الّتي علقت في الأنفاق، ولم يكن العيش في داخلها مناسبًا، يخرّبها النّاس الّذين استخدموا عجلاتها وزجاجها وموادّها الخارجيّة، لصنع أشياء في محطّاتهم.

كان أرتيوم قد عرف من زوج أمّه أنّ أهل هانسا قاموا بتنظيف أحد الممرّات من القطارات تمامًا، فأصبحت عربات المسافرين تنتقل بين النّقاط بسهولة. ووفقًا للإشاعات أيضًا، فقد دفعوها إلى داخل الخطّ الأحمر، ولم تُترك عربة قطار واحدة في النّفق الّذي يذهب من فدنكه إلى بروسبيكت مير، لكن ربّما لم يكن ذلك مقصودًا.

بدأ السّكّان المحليّون يتجمّعون رويدًا رويدًا. وزحف جينيا بوجهه النّاعس إلى خارج الخيمة. وبعد نصف ساعة خرجت القيادة المحلّيّة مع قائد أرتيوم فوضعت أولى قطع اللّحم على النّار. كان القائد وحكومة المحطّة يبتسمون ويمزحون، وعلى ما يبدو كانوا راضين بمناقشاتهم. وقد أحضروا نوعًا من الشّراب الكحوليّ المصنوع بيتيًّا، وهناك أيضًا الخبز المحمّص. كان الجميع سعداء ومبتهجين جدًّا. وأرتيوم يأكل اللّحم، ويلعق الدّهن الحارّ الّذي صار يسيل من يديه، وينظر إلى قطع الفحم المتوهّجة، والحرارة الّتي جلبت شعورًا لا يُفسَّر من الدّفء والسّلام.

أأنت الّذي سحبهم، وأخرجهم من المصيدة؟ قال الرّجل الغريب الّذي كان يجلس قريبًا من أرتيوم وينظر إليه في الدّقائق العشر الأخيرة.

من أخبرك بذلك؟ ردّ أرتيوم على سؤاله بسؤال، وهو ينظر إلى الرّجل الّذي كانت قصّة شعره قصيرة، ووجهه غير حليق، وتحت معطفه الجلديّ والقاسي صدارة ناعمة. لم ير أرتيوم شيئًا مريبًا فيه. بدا محاوره مثل تاجر عاديّ من هؤلاء التّجّار الرّخيصين الّذين تُقابلهم في ريجيسكايا.

من؟ نعم، جنرالكم قال شيئًا، وأومأ إلى شخص كان يجلس في مكان أبعد قليلًا، ويتحدّث بنشاط رفقة القائد الجديد.

حسنًا، نعم، هو أنا، اعترف أرتيوم متردّدًا، فعلى الرّغم من أنّه خطّط ليتعرّف على شخصين مفيدين في ريجيسكايا، والآن وقد سنحت له فرصة ممتازة، إلّا أنّه شعر فجأة بأنّه لم يحبّ هذه الفرصة كثيرًا.

أنا بوربون. ما اسمك؟ قال الرّجل.

بوروبون؟ سأل أرتيوم باندهاش: وكيف ذلك؟ ألم يكن ثمّة ملك يحمل هذا الاسم؟

لا يا ولدي. هناك نوع من الشّراب الكحوليّ يسمّى بوربون. شراب قويّ أحمر اللّون. يضعك في مزاج جيّد، هكذا يقولون. لهذا ما اسمك بأيّ حال؟ فالرّجل مايزال مهتمًّا بمعرفة الاسم.

أرتيوم.

اسمع يا أرتيوم، متى ستعود؟ بدا بوربون مصمِّمًا في أسئلته، ممّا أثار شكوك أرتيوم.

لا أعرف. لا أحد الآن يقول متى سنعود بالضّبط. ولو سمعت بما حدث لنا يا سيّدي لفهمت عندئذ السّبب، ردّ أرتيوم ببرود.

اسمع: أنا لا أزيدك في العمر كثيرًا، لذا يمكنك أن تتكلّم معي بدون رسميّات وشكليّات. ولديّ شيء أقترحه عليك يا ولد. ليس لأجل مجموعتك، بل لأجلك شخصيًّا. أنا... حسنًا أحتاج إلى مساعدتك. هل فهمت؟ ولن يستغرق الأمر طويلًا..

لم يفهم أرتيوم شيئًا، فقد كان الشّابّ يتحدّث على نحو متقطّع، وشيء ما في طريقة لفظه للكلمات جعل أرتيوم يجفل وينكمش، ولم يرد شيئًا في العالم أكثر من إنهاء هذه المحادثة غير المفهومة.

اسمع يا ولد، لا... لا تتوتّر، حيث شعر بوربون بسوء الظّن والرّيبة اللّذين ساورا أرتيوم، فبادر إلى تبديدها: لا شيء من الاحتيال والمراوغة، كلّ شيء فوق الطّاولة، حسنًا، كلّ شيء تقريبًا. في الجوهر هذا هو الأمر: أمس الأوّل ذهب بعض فتياننا إلى زوخاريفسكايا. وكما تعرف هم ذهبوا على طول الخطّ مباشرة، ولم يصلوا إلى هناك أبدًا وقد عاد واحد فقط منهم. لم يكن يذكر شيئًا. جاء راكضًا يغطّيه المخاط، ويولول على نحو يشابه حكايتكم الّتي حدّثنا عنها جنرالكم.

البقيّة لم يعودوا. ربّما وصلوا إلى الخارج عند زوخاريفسكايا، وربّما لم يخرجوا أبدًا، إذ لم يأت أحد من بروسبيكت منذ ثلاثة أيّام، ولا يريد أحد أن يذهب إلى بروسبيكت أيضًا بعد الآن. حسنًا، في الجوهر أعتقد بوجود القذارة نفسها الّتي حدثت معكم. وحين كنت أستمع إلى جنرالكم فهمت عندها الفكرة، وما حدث معكم يشبه حدث اختفاء جماعتنا تمامًا، فالخطّ هو نفسه تمامًا، والأنابيب ذاتها أيضًا. بعدئذ نظر بقلق ليتأكّد من أنّ لا أحد يستمع إليه «و تلك القذارة لم تؤثّر فيك»، تابع بهدوء: هل فهمت الموضوع؟

لقد بدأت أفهم، ردّ أرتيوم على نحو ملتبس.

أساسًا أنا بحاجة للوصول إلى هناك الآن. أنا أحتاج إلى ذلك فعلًا، هل فهمت؟ حقًّا أنا لا أعرف ما هي الفرص الّتي سأضيّعها، كما فعل أولادنا، وربّما كما فعل فتيانكم، باستثنائك أنت.

أنت...، تمتم أرتيوم: تريدني أن آخذك عبر النّفق، لأقودك إلى زوخاريفسكايا؟

نعم، شيء مثل ذلك، أومأ بوربون برأسه بارتياح: أنا لا أعرف إن كنت قد سمعت عنه أم لا، لكن هناك نفق بعد زوخاريفسكايا، مثل هذا النّفق أو أسوأ حتّى، مملوء بالقذارة. وأنا أحتاج إلى العبور منه أيضًا. جرت أمور سيّئة هناك مع الأولاد. كلّ شيء سيكون على أحسن وجه، لا تقلق. إذا أخذتني سأكون مسرورًا. كما أنّني محتاج للوصول إلى أبعد من ذلك طبعًا، نحو الجنوب. حيث ولداي هناك في

زوخاريفسكايا، وبعض النّاس الذين سينفضون عنك الغبار، ويضعونك على طريق العودة للوطن، وكلّ ما يلزم.

أرتيوم الّذي أراد أن يرسل بوروبون واقتراحاته إلى الجحيم، أدرك فجأة أنّ هذه فرصته لاجتياز البوّابات الجنوبيّة لريجيسكايا دون قتال أو مشاكل، والذّهاب أبعد من ذلك.

لم يقل بوروبون الكثير عن التّنقّلات التّالية، لكنّه قال إنّه سيذهب عبر النّفق اللّعين بين زوخاريفسكايا وتورغينيفسكايا. وهذا ما يحتاج أرتيوم الوصول إليه بالضّبط. تورغينيفسكايا-تروبنايا-تسفيتوني بولفاب-تشيكوفسكايا... وبعدها، لا يبقى سوى رمية حجر إلى أرباتسكايا... بوليس... بوليس.

كم ستدفع؟ قرّر أرتيوم أن يضيف من أجل سلامة التّمثيليّة.

كل ما تريده. نقود بالأساس...، نظر بوربون إلى أرتيوم بريبة، وحاول أن يعرف إن كان الفتى فهم قصده، أقصد مخازن طلقات الكلاشينكوف، وإن أردت الحصول على بعض الطّعام، وبعض مشروبات الأعشاب المسكرة، غمز: أستطيع أن أجلب لك تلك أيضًا.

كلّا، الطّلقات جيّدة، أريد مخزنان اثنان، وما يكفي من الطّعام للوصول إلى هناك والعودة. وأنا لن أفاوض. حدّد أرتيوم سعره بأقصى ما استطاع من ثقة، وحاول أن يواجه نظرة بوربون المتحدّية.

أنت مساوم قويّ وصعب، ردّ بوربون: حسنًا، مخزنان من أجل الكلاشينكوف، وشيء للأكل. حسنًا... جيّد، تمتم لنفسه على ما يبدو حسنًا يا ولدي، كيف حالك هنا بأيّ حال؟ يجب عليك أن تذهب للنّوم. سآتي قريبًا لكي أقلّك حين يهدأ هذا الشّجار. احزم أمتعتك. ويمكنك ترك ملاحظة إن كنت تستطيع الكتابة كي لا يبحثوا عنك، لهذا كن مستعدًّا حين آتيك. هل فهمت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس: مُقابل خراطيش

لم يكن ثمّة سبب خاصّ يجعل أرتيوم يحزم أمتعته الّتي لم يفكّها أصلًا. والشّيء الوحيد الّذي لم يجد له حلًّا هو كيف سيُخرج بندقيّته الآليّة من المحطّة دون أن يُلاحظ أحد ذلك، أو يلفت الانتباه. لقد أُعطيت لهم بنادق آليّة عسكريّة ضخمة عيار الماسورة 7.62 ملم بأخمص خشبيّ، فدائمًا ما ترسل فدنكه قوافلها إلى المحطّات الأقرب إليها مع هذه البنادق الضّخمة.

استلقى أرتيوم هناك طامرًا رأسه بالوسادة، لا يردُّ على أسئلة جينيا المحيرِّة: لماذا كان يأخذ غفوة حين كان كلُّ شيء عظيمًا جدًّا في الوليمة؟ هل كان مريضًا؟ كان الجوّ حارًّا ورطبًا في الخيمة، والوضع أسوأ تحت الأغطية. وقد جاءه النّوم بعد طول انتظار، ولـمّا غفا أخيرًا كانت أحلامه مزعزعة، ومشوّشة، كما لو أنّه يراها عبر زجاج عاتم. كان يهرب إلى مكان ما، ويتحدّث إلى شخص بلا وجه، ثّم يهرب من جديد.

أيقظه جينيا من النّوم بعد أن هزّه من كتفه، ثمّ أخبره هامسًا: اسمع يا أرتيوم، ثمّة شابّ يريد رؤيتك، هل عندك مشاكل؟ سأل باهتمام: ولماذا لا أيقظ كلّ الفتيان و...؟

لا داع، إنّه أمر عاديّ، هو يريد التّحدّث إليّ فحسب. نم أنت يا جينيا. أنا سأعود بعد لحظة، قال أرتيوم بهدوء وهو يلبس حذاءه، وينتظر أن يعود جينيا إلى النّوم. جرّ حقيبة ظهره بحذر إلى خارج الخيمة، والتقط بندقيّته الآليّة. ولـمّا سمع جينيا فجأة قعقعة شيء معدنيّ، سأله مرّة أخرى: والآن ماذا يحدث؟ هل أنت متأكّد أنّ كلّ شيء على ما يرام؟

كان على أرتيوم أن يتخلّص من أسئلته ليدعه وشأنه، فألّف قصّة ادّعى فيها أنّه يريد أن يُري الفتى شيئًا، لأنّهما تجادلا حول جودة هذا الشّيء.

كاذب، قال جينيا بحدّة: حسنًا، متى يجب أن أقلق؟

بعد سنة، دمدم أرتيوم آملًا أن لا يكون هذا مسموعًا تمامًا، وحرّك طرف الخيمة جانبًا، وخرج إلى المنصّة.

أيّها الصبيّ أنت تُعِيقنا، قال بوربون وهو يكزّ على أسنانه. مردتيًا ثيابه الّتي سبق وكان يرتديها من قبل، ولم يضف إليها سوى حقيبة طويلة على ظهره..

تبًّا لك، هل تخطّط لجرّ تلك الكتلة الكبيرة عبر كلّ نطاق محميّ معك؟ سأل باشمئزاز وهو يشير إلى البندقيّة الآليّة. ولم يكن بوربون يملك سلاحًا حسب معرفة أرتيوم.

كان الضّوء في المحطّة باهتًا. ولم يكن هناك أحد على المنصّة، فالكلّ ذهبوا للنّومِ منهَكين بعد الوليمة. حاول أرتيوم أن يسرع في مشيه فهو قلق من أن يلتقي صدفةً بأحد أفراد جماعته، لكنّ بوربون أمسكه عند مدخل النّفق، وأخبره أن يُبطّئ في

سيره. لاحظ الخفراء الذين في الممرّ وجودهما، فسألهما أحدهم من بعيد أين يخطّطان الذّهاب في منتصف اللّيل، فخاطبه بوربون باسمه، وشرح له أنّ لديهما عمل ما يجب أن يقوما به.

أصغِ، قال لأرتيوم، وأشعل ضوء مصباحه: الآن، سيكون هناك خفراء في خطّي المترِ مائة والمتر مائتين، لهذا ابقَ هادئًا في المقام الأوّل. وأنا سأحلّ الأمر معهم. إذ من المعيب أن تحمل كلاشنكوف قديمة بعمر جدّتي، أنت لن تخبّئ ذلك الشّيء، أين نقّبت ووجدت قطعة القذارة هذه؟

كلّ شيء كان يسيرًا في المتر مائة. وثمّة نار صغيرة تحتضر، وشخصين بجانبها يلبسان الثّياب المموّهة. أحدهما كان نائمًا، والثّاني صافح بوربون كصديق.

عمل؟ أفهم... قال بابتسامة عابثة.

لم يقل بوربون كلمة واحدة قبل المتر مائتين وخمسين، وكان يتقدّم إلى الأمام متجهّما، وبدا غاضبًا وبغيضًا. أمّا أرتيوم فبدأ يشعر بالنّدم لأنّه جاء معه. ابتعد عن بوربون، وتأكّد من جاهزيّة بندقيّته الآليّة، ووضع إصبعه على الزّناد.

كان هناك بعض التّأخير في آخر موقع حراسة، وإمّا أنّ بوربون لم يكن يعرفهم جيّدًا، أو أنّهم يعرفونه تمام المعرفة، فقد أخذ الرّئيس أرتيوم جانبًا، وأمره بوضع حقيبة ظهره قرب النّار، ثمّ سأله أسئلة كثيرة. وبقي أرتيوم الّذي شعر بنوع من الحماقة بجانب النّار، يردّ على أسئلة الضّابط المناوب باقتضاب. ومن الواضح أنّهم كانوا يعانون من الضّجر، وليس لديهم عمل أفضل من ذلك. أرتيوم يعرف أنّه عندما يكون الضّابط المناوب ثرثارًا، فهذا يعني أنّ كلّ شيء في المخفر جيّد، ولو أنّ هناك شيء غريب حدث مؤخّرا، أو أنّ شيئًا زحف وخرج من الأعماق، أو أنّ أحدًا حاول أن يخترق من الجنوب، أو أنّهم سمعوا صوتًا مريبًا، لكانوا احتشدوا حول النّار بصمت لا يتفوّهون بكلمة. لكن كان ثمّة توتّر، ولم يرفعوا عيونهم عن النّفق. بدا أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّهما يستطيعان الوصول إلى بروسبيكت مير دون قلق.

أنت لست من هنا، كما أخمّن؟ هل أنت من أليكسييفسكايا، أو من أين؟ كان الضّابط المناوب يحاول أن ينتزع معلومة من أرتيوم، وينظر إلى وجهه مباشرة.

تمتم أرتيوم وتذكّر أنّ بوربون أمره أن يبقى هادئًا، وأن لا يتحدّث إلى أحد بشيء يمكن تفسيره بعدّة طرق، تاركًا الرّجل يفسّر على هواه. التفت ضابط المهامّ بعد أن يئس من الحصول على جواب من أرتيوم إلى زميله، وبدأ يناقش قصّة رواها له ميخائيل الّذي كان في تجارة في بروسبيكت مير قبل بضعة أيّام، وتعرّض لمشاكل مع إدارة المحطّة. جلس أرتيوم وقد سرّه أنهم يئسوا منه وتركوه بجانب النّار، ونظر إلى النّفق الجنوبيّ عبر اللّهب. بدا له نفس النّفق العريض اللّانهائي الّذي لديهم في الجهة الشّماليّة في فدنكه حيث جلس بجانب النّار عند المتر أربعمائة وخمسين منذ وقت غير بعيد.

من خلال منظره الخارجي ليس هناك اختلاف بين النّفقين. لكن هناك شيء فيه، رائحة خاصّة جلبتها فتحات التّهوية، أو ربّما كان جوًّا خاصًّا، أو عبيرًا يختصّ به هذا النّفق فحسب، يُعطيه خصوصيّة ما، ويجعله مختلفًا عن الأنفاق الباقية كلّها. تذكّر أرتيوم زوج أمّه وهو يقول: ليس هناك نفقان متشابهان في المترو. وهذه الحساسيّة المفرطة تطوّرت بعد سنين من الرّحلات، ولا يملكها الكثيرون، وقد سمّاها زوج أمّه «الإصغاء إلى النّفق».

وزوج أمّه يتمتّع بــحاسّة سمع كان فخورًا بها، واعترف عدّة مرّات لأرتيوم بأنّه نجا من مخاطر كثيرة بفضل هذه الحاسّة. وهناك كثيرون غيره لا يتمتّعون بمثل هذا الحاسّة رغم أسفارهم الكثيرة. فبعض النّاس طوّروا خوفًا لا يُفسّر، والبعض الآخر سمعوا أصواتًا وضجيجًا، وفقدوا عقولهم ببطء، لكنّ الكل اتّفقوا على شيء واحد وهو: أنّ النّفق لا يصبح فارغًا أبدًا وإن لم تكن فيه روح واحدة. فهناك شيء غير مرئيّ وغير ملموس ينقّط

عليهم على نحو بطيء ودبق، شيء يشبه دمًا باردًا ثقيلًا في عروق وحش حجريّ أسطوريّ هائل ومخيف.

والآن كانت محادثة ضبّاط المهامّ تخبو، وتتلاشى في الخلفيّة. وحاول أرتيوم عبثًا أن يرى شيئًا في الظّلام الّذي يتكثّف بسرعة على بعد عشر خطوات من النّار. بدأ يدرك ماذا عنى زوج أمّه حين أخبره عن «الشّعور بالنّفق». عرف أرتيوم أنّ وراء ذلك الحدّ الباهت الّذي رسمته النّار، والّذي امتزج فيه الضّوء القرمزيّ مع الظّلال المرتجفة، أناس كثر، أناس آخرون، ولكنّه لم يستطع تصديق ذلك في تلك اللّحظة. وبدا له أنّ الحياة توقّفت على بعد عشر خطوات من ضوء النّار، وليس هناك شيء أمامهم سوى فراغ أسود ميت يردّ على الصّيحة بخداع من صدى بليد.

لكن لو جلست لبرهة، وأصغيت مليًّا، ولم تنظر في أعماق النّفق كمن يبحث عن شيء، وحاولت بدلًا من ذلك أن تُذيب حملقتك في الظّلام، وتندمج مع النّفق لتصبح جزءًا من هذا الوحش الضّخم الرّهيب، وخليّة في جسد هذا الكائن الحيّ، سيتدفّق مباشرة لحن رقيق إلى داخل دماغك، ثمّ من بين أصابعك الّتي تصدّ أصوات العالم الخارجي، صوت سماويّ من الأعماق، غامض ومبهم لا يشبه ذلك الصّوت المزعج المنهمر من الأنبوب المكسور في النّفق بين ألكسييفسكايا وريجيسكايا. لا، إنّه شيء مختلف، شيء نظيف وعميق.

بدا له أنّه قادر على أن يغطس في النّهر الهادئ لهذا اللّحن لفترات قصيرة، ويفهم جوهر هذه الظّاهرة فجأة بالبديهة الّتي ربّما تضرّرت من الضّجيج القادم من الأنبوب المكسور، بالحدس أيضًا، وليس باستخدام العقل. بدا الصّوت المنهمر من ذلك الأنبوب كالأثير تمامًا، يتقدّم ببطء في النّفق بعد أن فسد داخل الأنبوب، وتلوّث بشيء، فيضطرب ويهيج بعصبيّة وينفجر، حيث يصبح التّوتّر كبير جدًّا في الأنبوب. فتشقّ المادّة الفاسدة دربها إلى العالم الخارجيّ بعد أن تأخذ معها بلواها وضررها، وتنقل الغثيان والجنون إلى كلّ الكائنات الحيّة.

تراءى لأرتيوم فجأة أنّه كان يقف على عتبة فهم شيء ذي أهميّة، وكأنّ السّاعة الأخيرة الّتي أمضاها متجوّلًا في ظلام الأنفاق الدّامس، وفي شفق وعيه الخاصّ، شدّت ستارة هذا اللّغز العظيم، وأزاحتها جانبًا، السّتارة الّتي كانت تفصل كلّ الكائنات العاقلة وتعزلها عن معرفة الطّبيعة الحقيقيّة لهذا العالم الجديد الّذي حفرته أجيال سابقة داخل أحشاء الأرض.

أصبح أرتيوم خائفًا أيضًا رغم هذا الإدراك، كأنّما لم يبق له سوى نظرة خاطفة عبر ثقب مفتاح باب يأمل أن يكتشف منه ما خلفه، لكنّه لا يرى سوى ضوء لا يُطاق يندفع منه ويحرق العيون. ويرى أنّه إن فُتح الباب سيتدفّق الضّوء إلى الخارج على نحو يتعذّر ضبطه، ويحوّل الشّخص الجريء والمغامر الّذي قرّر أن يفتح الباب المحرّم إلى رماد في مكانه وعلى الفور، غير أنّ هذا الضّوء هو المعرفة.

جاءت دوّامة هذه الأفكار كلّها، والمشاعر والمخاوف لتجلد أرتيوم على نحو مفاجئ تمامًا، الأمر الّذي لم يكن مستعدًا له فتراجع في رعب. كلّا، هذا كلّه وهم وخيال. هو لم يسمع أيّ شيء، ولم يفهم أيّ شيء. إنّ الأمر مجرّد خدعة صنعها خياله. وبمشاعر مختلطة من الارتياح والخيبة، لاحظ كيف تكشّفت له مثلًا رؤية مذهلة تفوق الوصف لكنّها أظلمت على الفور، وذابت، وبات العقل يواجه سديما عكرًا معتادًا مرّة أخرى. خاف من هذه المعرفة، وتراجع عنها. والآن أُسدلت السّتارة ثانية، وربّما إلى الأبد. هدأ الإعصار في رأسه وتلاشى بالسّرعة نفسها الّتي هبّ فيها، ليترك أرتيوم وعقله مخرّب ومُنهك.

اهتزّ أرتيوم وجلس هناك يحاول أن يفهم كلّ شيء، أين انتهى خياله؟ ومن أين بدأ الواقع؟ وتساءل إن كان أيّ من هذه الأحاسيس سيكون حقيقيًّا في النّهاية. وببطء وبالتّدريج، ملأت روحه المرارة لأنّه وقف على بعد خطوة واحدة من التّنوير، التّنوير الحقيقيّ، ولم يكن مصمّمًا أو جريئًا في أن يسلّم نفسه إلى تدفّق أثير النّفق. والآن سيُترك للتّجوال في الظلام طوال حياته لأنّه خاف مرّة من نور المعرفة الحقيقيّة الأصيلة.

ولكن، ماهي المعرفة؟ سأل نفسه مرّة تلو أخرى، وحاول أن يقيّم الشّيء الّذي رفضه للتوّ بطريقة مستعجلة وجبانة. كان غارقا في أفكاره، ولم يلاحظ أنّه قال هذه الكلمات بصوت عال بضع مرّات.

المعرفة يا صديقي نور، واللّامعرفة ظلام، فسّر أحد ضبّاط المهامّ له بتلهّف

أليس صحيحاً؟ وغمز لأصدقائه بمرح.

كان أرتيوم مصعوقًا، حدّق بالشّابّ وجلس هكذا لبرهة حتّى عاد بوربون، وأنهضه، وودّع الضبّاط قائلًا إنّه قد تأخر، وإنّه في عجلة من أمره.

احترس، قال قائد المخفر له مهدّدا: سأدعك ترحل من هنا ومعك سلاح، ولوّح بيده إلى بندقيّة أرتيوم الآليّة، ولكن لا يمكن أن تعود، وتمرّ وهي معك. ولديّ تعليمات واضحة بهذا الشّأن.

أخبرتك أيّها الأحمق، قال بوربون لأرتيوم بغضب وبصوت عال، بعد أن سارا بعيدًا عن النّار: لهذا تستطيع فعل ما تريد في طريق العودة، لكنّك ستتورّط في قتال. أنا لا أكترث. أنا أعرف أنّ هذا سيحدث، تبًّا لك.

لم يقل أرتيوم شيئًا، ولم يستمع لتوبيخ بوربون له تقريبًا. وبدلًا من ذلك تذكّر فجأة ما قاله زوج أمّه في تلك المرّة حين كان يشرح له عن تفرّد كلّ نفق «لكلّ نفق لحنه الخاص به، وستتعلّم الاستماع إليه». ربّما أراد زوج أمّه أن يعبّر ببساطة عن فكرته على نحو جميل. وتذكّر أرتيوم أنّه سمع مثل هذا اللّحن تمامًا لـمّا كان جالسًا بجانب النّار منذ دقائق. إنّ الّذي أصغى إليه ويصغي إليه فعلًا، ويسمعه كان لحن النّفق. ولكن ذكرى ما حدث معه خبت بسرعة، وبعد نصف ساعة لم يعد أرتيوم متأكّدا من أنّ ذلك حدث فعلًا، وأنّه لم يتخيّله، وأنّه لم يكن هواء نفخته ألسنة اللّهب اللّعوب.

حسنًا، أنت لم تفعلها قاصدًا على الأرجح، ورأيت أنّها فكرة ذكيّة، قال بوربون كي يسترضيه: إذا لم أبدُ لك مهذّبا جدًّا فأنا آسف. هذا العمل مجهد وضاغط. ولكن يبدو أنّنا نجونا، وهذا شيء جيّد. يجب علينا الآن أن نمشي إلى بروسبيكت مير دون توقّف. هناك نستطيع أن نسترخي. وإذا كان كلّ شيء هادئًا فلن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. ولكن أبعد من ذلك فهناك مشكلة.

حسنا إذًا، سنمشي قدمًا على حال مشينا هذا، أليس كذلك؟ أقصد أنّنا حين نذهب في قافلة من فندكه، فإنّنا لا نغادر عندما يكون عددنا أقلّ من ثلاثة أشخاص، فأنت بحاجة إلى حراسة للمؤخّرة، وفي الجوهر أنت، قال أرتيوم وهو ينظر خلفه.

حسناً، هناك فرص إيجابيّة للذّهاب في قافلة، مع حرس للمؤخّرة، وكل ذلك، بدأ بوربون يشرح. لكن اسمع، هناك فرصة سلبيّة حقيقيّة أيضًا. أنا كنت أخاف. ونسيت أنّنا ثلاثة أشخاص. ونحن لم نعتد على الذّهاب إلى أيّ مكان دون أن نكون خمسة أشخاص على الأقلّ، فهل تعتقد أنّ ذلك يجدي؟ إنّه لا يجدي بتاتًا. كنّا ننقل حمولة ذات مرّة وكان لدينا حماية، اثنان في المقدّمة، وثلاثة في الوسط، وحارس في المؤخّرة، وكان كلّ شيء كما يجب أن يكون. كنّا نذهب من تريتياكوفسكايا إلى ما يسمى... كانت تسمّى ماركسيستسكايا. وكان النّفق جديدًا لكنّي لم أحبّه منذ البداية. شيء ما عفن، وهناك ضباب.

لم تستطع أن ترى أمامك لخمس خطوات حتّى، ولم تساعدنا المصابيح الكشّافة كثيرًا. ولكنّنا قرّرنا أن نربط حبلًا بحزام المؤخّرة، نسحبه من حزام أحد الفتيان في الوسط وصولًا إلى القائد في مقدّمة المجموعة كي لا يضيع أحدنا في الضّباب. وتحرّكنا في مسير هادئ، وكان كلّ شيء عاديًّا وهادئًا، ولم تكن هناك حاجة للاندفاع والاستعجال، ولم نصادف أيّ أحد بعد. وبقي علينا مسير مدّته حوالي أربعين دقيقة، رغم أنّنا قطعناه أسرع من ذلك في نهاية الأمر، تلا كلماته هذه، وسكت برهة.

في مكان ما في الوسط سأل توليان، الفتى خفير المؤخّرة عن شيء ما، لكنّه لم يرد. انتظر توليان وسأل مرّة أخرى، ولم يأته جواب. عندئذ شدّ توليان الحبل، وظهر طرفه وقد عُضّ وقُطّع تمامًا، قُطع حقًّا. وكان هناك مادّة دهنيّة لزجة ورطبة، على

طرفه. لم يُرَ الفتى المختفي في أيّ مكان، ولم يُسمع منه شيئًا، لا شيء على الإطلاق. كنت أمشي مع توليان، وأراني طرف الخيط المقطوع، عندها ارتعشت ركبتاي من الخوف. ناديناه طبعًا، لكن لم نسمع جوابًا، فلم يكن هناك أحد ليردّ. لهذا تبادلنا النّظرات، وتابعنا تقدّمنا، ووصلنا إلى ماركسيستسكايا بلمح البصر.

ربّما كان الفتى يمزح معكم، أليس كذلك؟ سأل أرتيوم بتفاؤل.

يمزح؟! ربّما. لكن لم يره أحد قطّ بعد ذلك. ولهذا فهمت شيئًا واحدًا وهو إن حانت ساعتك فهي ساعتك، ولن يفيدك أيّ خفير. أبطئ في سيرك فحسب. أنا لا أذهب إلى أيّ مكان إلّا في مجموعة من اثنين، مع شريك إن أحببت، ماعدا نفق واحد، من زوخاريفسكايا إلى تورغينيفسكايا، وهذا وضع خاص، فإن حدث شيء سيجرّونك إلى الخارج بسرعة، هل فهمت؟

فهمت. وهل سيسمحون لنا بالدّخول إلى بروسبيكت مير وهذا الشّيء معي؟ أشار أرتيوم إلى بندقيّته الآليّة.

هم سيسمحون لنا بالدّخول إلى نصف القطر، لكن إلى الحلقة، بالتّأكيد لا. لن يسمحوا لك بأيّ شكل بالدّخول وأنت تحمل ذلك المدفع، ليس لديك أيّ أمل. لكنّنا لسنا بحاجة للوصول إلى هناك. ولا نحتاج إلى التّلكّؤ هناك لمدّة طويلة بكلّ الأحوال. سنتوقّف فحسب، ثمّ نتابع. هل زرت بروسبيكت من قبل؟

زرتها عندما كنت صغيرًا فقط. لكنّي لم أزرها وأنا كبير، اعترف أرتيوم.

حسنًا، لماذا لا أحثّك على أن تسرع إذًا؟ ليس فيها مخافر حراسة، فهم لا يحتاجون إليها. هناك سوق، ولا يعيش أحد هناك، لذا كلّ شيء رائع. ولكن فيها ممرّ إلى الحلقة، يعني إلى هانسا... محطة راديالية لا تعود ملكيّتها لأحد، ولكنّ جنود هانسا يحرسونها، ويحفظون النّظام فيها، لذلك عليك أن تتصرّف بتهذيب، هل فهمت؟ وإلّا فسوف يرسلونك إلى الجحيم، ويمنعونك عن أيّ منفذ إلى كلّ محطّاتهم. لهذا حين نصل، ازحف إلى المنصّة، واجلس بهدوء. وذاك السّماور خاصّتك، وأشار إلى بندقيّة أرتيوم الآليّة، لا تستمر في التّلويح به. عليّ أن أرتّب شيئًا مع شخص ما، وأنت عليك أن تجلس، وتنتظر. سنذهب الى بروسبيكت مير، وسنتكلّم في أمر عبور ذلك الممرّ اللّعين إلى زوخاريفسكايا.

سكت بوربون ثانية وترك أرتيوم مع نفسه. لم يكن النّفق هنا سيّئا جدًّا. كانت الأرض رطبة قليلًا، وثمّة جدول داكن رفيع يتبع قضبان السّكّة الحديديّة، ويتّجه مع اتّجاهها نفسه. ولكن بعد فترة قصيرة كان هناك حفيف هادئ، وصوت صرير بدا لأرتيوم مثل صوت مسمار يخدش زجاجًا، ممّا جعله يجفل في مقت. لم يشاهد البهائم الصّغيرة بعد، لكنّ الشّعور بحضورها كان ممكنًا.

جرذان، بصق أرتيوم الكلمة الكريهة، وشعر بقشعريرة باردة في كلّ جلده. لاتزال تزوره الكوابيس رغم أنّ ذكرياته عن تلك اللّحظة المرعبة الّتي غرقت فيها أمّه والمحطّة في سيل من الجرذان، كانت قد مُحيت تقريبًا من ذاكرته. هل مُحيت فعلًا؟ لا، ماتزال محفورة أعمق مثل إبرة لم تسحب إلى الخارج، وقد علقت في الجسد.

كانت تنتقل بين هنا وهناك بعد أن دفعها طبيب لم يتدرّب على نحو كاف. أوّل الأمر تختبئ وتظلّ ساكنة، لكن بعد فترة تحرّكها قوّة مجهولة، وتشقّ طريقها الخبيث عبر شرايينه وعقده العصبيّة، وتمزّق الأعضاء الحيويّة، وتحكم على حاملها بعذاب لا يحتمل.

ذكرى ذلك الزّمن، والغضب الأعمى الشّديد، ووحشيّة هؤلاء الوحوش، وتجربة الرّعب الّتي مرّ بها، غرزت الإبرة عميقًا في لا شعور أرتيوم. لتأتيه وتزعجه ليلًا. وكان مجرّد منظر هذه الصّور، وحتّى رائحتها الغامضة، يخلقان نوعًا من التّفريغ الكهربائيّ داخله، وتُجبران جسده على الرّجفان في انعكاس لا إراديّ. في ذلك اليوم كانت الجرذان بالنّسبة لأرتيوم وزوج أمّه، وربّما للأربعة الّذين نجوا معهم على عربة الترام، شيئا مرعبًا ومقرفًا، أكثر ممّا كانت لسكّان المترو الآخرين.

لا يوجد جرذان في فدنكه تقريبًا. كانت هناك مصائد نُشر السّمّ حولها، لذا أصبح أرتيوم غير معتاد عليها، ولكنّها كانت تندفع في أسراب عبر بقيّة أجزاء المترو، وقد نسي أمرها تقريبًا، أو تحاشى التّفكير فيها حين أخذ قرار الذّهاب في هذه الرّحلة.

ما مشكلتك أيّها الولد؟ هل تخاف الجرذان؟ سأل بوربون بخبث: أنت لا تحبّها، أليس كذلك؟ أنت مدلّل على نحو محزن، لكن يجب أن تعتاد عليها. إنّها في كّل مكان، وذلك شيء حسن. إنّها جّيدة حتّى لا تجوع، أضاف وغمز في حين كان أرتيوم يشعر بالغثيان. ولكن بالفعل تابع بوربون على نحو جدّي: من الأفضل أن تخاف حين لا يكون هناك جرذان، فإن لم يكن هناك جرذان، فهذا يعني وجود مشكلة كبيرة. ويجب أن تخاف أيضًا إن لم يكن هناك أناس. لكن إذا كانت الجرذان تركض فإنّ كلّ شيء عاديّ. التّجارة المعتادة. أفهمت؟

وأرتيوم، لم يرغب بالتّأكيد أن يشارك عذابه مع هذا الفتى، لذا أومأ برأسه، ولم يقل شيئًا. لم يكن هناك جرذان كثيرة، فقد كانت تهرب من ضوء المصباح، ولا تلاحظها إلّا نادرًا. وبالرّغم من ذلك نجح أحدها في الوصول إلى ما بين قدمي أرتيوم، ولأنّه أحسّ بملمس شيء طريّ وزلق داس عليه، وبعدها سمع صرخة حادّة. فقد أرتيوم توازنه وكاد أن يسقط على وجهه بكلّ معدّاته.

لا تخف يا ولد، لا تخف. شجّعه بوروبون: سيزداد الأمر سوءًا. هناك ممرّان في هذه الفتحة يعجّان بالجرذان، وعليك أن تمشي على قضبان السّكّة الحديديّة. سوف تمشي، وتسحقها تحت قدميك، وصهل بحقارة للتّأثير في أرتيوم.

تجهّم أرتيوم. وكان ساكتًا، لكنّه كان يشدّ قبضتيه، وتمنّى أن يلكم بوربون في وجهه المكفهرّ بسرور.

سمعا صوت ضجيج مبهم من مكان بعيد فجأة، فنسي أرتيوم الإساءة فورًا، وأمسك بقبضة سلاحه الآليّ، ونظر إلى بوربون متسائلًا.

لا تقلق، كلّ شيء رائع، لقد وصلنا إلى بروسبيكت، طمأنه بوربون وربت على كتفه بطريقة فوقيّة.

رغم أن بوربون حذره من أنّه ليس ثمّة مخافر في بروسبيكت ميرا، إلا أنّ هذا كان غير عاديّ بالنّسبة لأرتيوم، أن تذهب مباشرة إلى محطّة أخرى دون أن ترى الضّوء الضّعيف لنار تُحدّد الحدود، ودون وجود عائق على الطّريق. حين وصلا إلى مخرج النّفق، أصبحت الضّجّة أقوى، وبات وهج الضّوء ملحوظًا.

وأخيرا، كان هناك بعض المقاعد الحديديّة القويّة إلى اليسار، وجسر صغير يأخذك إلى مستوى المنصّة. قرقع حذاء بوربون على الدّرج الحديديّ، وبعد بضع خطوات، انعطف النّفق إلى اليسار، وفُتح على المحطّة.

كان ثمّة ضوء أبيض ساطع يلمع على وجهيهما. وهناك طاولة صغيرة على الجانب لا تُرى من النّفق، جلس إليها رجل في بزّة نظاميّة رماديّة تقليديّة غريبة وغير مألوفة، ويضع على رأسه قبّعة عالية.

أهلا بكما، رحّب بهما، وحوّل ضوء المصباح عن وجهيهما: تجارة أم عبور؟

بينما كان بوربون يصرّح عن الغرض من زيارتهما، حدّق أرتيوم بمحطّة مترو بروسبيكت مير أمامه. وهيمن الشّفق على المنصّة، وعلى طول الطّرق. لكن هناك أقواس أنيرت من الدّاخل بضوء أصفر لطيف أشعر أرتيوم على نحو غير متوقّع بضغط في صدره. أراد أن ينتهي من كلّ الشّكليّات لينظر إلى ما يجري في المحطّة، هناك، عند الأقواس الّتي كان يأتي منها الضّوء المألوف جدًّا، والمريح لدرجة يكاد يُوجع فيها تقريبًا. بالرّغم من أنّ أرتيوم لم ير شيئًا مثله من قبل، إلّا أنّ منظر هذا الضّوء أعاده إلى الماضي البعيد. وفجأة ظهرت له صورة غريبة، بيت صغير يغمره ضوء أصفر دافئ، وامرأة نصف مضطجعة على متّكأ عريض، تقرأ كتابًا، لكنّ وجهها كان غير مرئيّ وسط ورق الجدران الشّمعيّ الباهت وزجاج النّافذة المربّع الأزرق الغامق. ومضت الرؤيا أمام عقله، لكنّها ذابت بعد ثانية واحدة، وتركته حائرًا ومتلهّفا. ما الذي رآه للتوّ؟ هل الضّوء الضّعيف القادم من المحطّة..

قام بعرض شريحة قديمة من طفولته الّتي ضاعت في لاشعوره على شاشة خفيّة؟ هل يمكن للمرأة الشّابّة الّتي كانت تقرأ كتابًا بسلام وهدوء على المتّكأ الفسيح والمريح، أن تكون أمّه؟

رمى أرتيوم جواز سفره إلى موظّف الجمارك بانزعاج بعد الاتّفاق على أن يضع بندقيّته الآليّة في غرفة مخزنهم خلال مدّة الزّيارة رغم اعتراضات بوربون. وبعد ذلك تقدّم أرتيوم إلى الأمام مسرعًا، فقد جذبه الضّوء خلف الأعمدة مثل فراشة يجذبها الضّوء وضجّة السّوق.

كانت بروسبيكت مير تختلف عن فدنكه، وعن أليكسييفسكايا، وعن ريجيسكايا. تجلّى ازدهار هانسا بامتلاكهم إنارة أفضل من مصابيح الطّوارئ الّتي تُعطي الضّوء للمحطّات الّتي عرفها أرتيوم خلال حياته. كلّا، هذه ليست مثل المصابيح الّتي تُنير المترو في الأيّام القديمة، فقد كانت ضعيفة. مصابيح متوهّجة معلّقة بالأعلى، البعد بين الواحد والآخر عشرون قدمًا، سُحبت على طول سلك يعبر

المحطة كلها. لكن بالنّسبة لأرتيوم الذي اعتاد على وهج ضوء الطوارئ الأحمر الغائم، وضوء النّيران الّتي لا يُعتمد عليها، والإشعاع الضّعيف لمصابيح الجيب الصّغيرة جدًّا الّتي تُنير الخيام من الدّاخل، فإنّ ضوء هذه المحطّة كان غريبًا تمامًا. كان الضّوء نفسه الّذي أضاء طفولته المبكّرة في الماضي البعيد حين كانوا يعيشون على سطح الأرض، وفتنه لأنّه ذكّره بشيء انتهى منذ زمن بعيد بالنّسبة له. لذا، وبعد أن وصل إلى القسم المنار في المحطّة لم يندفع إلى أرتال التّجّار كالآخرين، بل أسند ظهره على أحد الأعمدة، وغطّى عينيه جزئيًّا بيده، ثمّ وقف ينظر إلى المصابيح مرّة تلو الأخرى حتّى شعر بألم حادّ في عينيه.

أنت ماذا بك؟ هل جننت أم ماذا؟ لماذا تحدّق إليها بكلّ هذه الشّدّة؟ هل تريد أن تفقد عينيك؟ ستصاب بالعمى كالأحمق. وماذا سأفعل بك عندها؟ رنّ صوت بوربون في أذن أرتيوم: أنت جئت للتوّ، وسلّمت بندقيّتك. لهذا يمكنك أن تذهب، وتُلقي نظرة متفحّصة فيها، وماذا ستريك تلك المصابيح؟

ألقى أرتيوم على بوربون نظرة عدائيّة، لكنّه أطاعه على كلّ حال.

لم يكن هناك عدد كبير من النّاس في المحطّة، لكنّهم كانوا يتكلّمون بصوت عال جدًّا، ويتاجرون ويحسبون ويطالبون، ويحاولون التّغلّب على بعضهم البعض بشدّة الصّياح، لدرجة أصبح واضحًا من خلالها السّبب في أنّ كلّ هذه الضّجّة مسموعة ومن مسافة بعيدة عن المكان الّذي اقتربوا منه من النّفق.

كان هناك خردة لهياكل قطارات، وبعض عربات حوّلت إلى سكن على مساري سكّة القطار. وكان ثمّة صفّان من الصّواني المرتّبة على طول المنصّة عُرضت عليها أوان متنوّعة، رُتّب بعضها في كومات مرتّبة، وبعضها الآخر في كومات مهملة. وفي أحد طرفي المحطّة ستارة حديديّة وُضعت في مكان كان في السّابق مخرجًا يؤدّي إلى السّطح. وفي الطّرف المعاكس ثمّة صفّ من الأكياس رماديّة اللّون تُحدّد بوضوح خطّ مواقع إطلاق النّار.

تدلّت من هذا السّقف راية بيضاء غريبة رُسمت عليها دائرة بنّيّة ترمز لمحطة الرّينغ. وكان هناك أربعة سلالم دوّارة وراء خطّ إشعال النّار تؤدّي إلى دارة الرّينغ، حيث تبدأ هناك أرض هانسا الجبّارة الّتي أُغلقت أمام الأجانب. وحرّاس الحدود خلف السّواتر يلبسون معاطف واقية من المطر مع التّمويه المعتاد، وكان لونها رماديًّا لسبب ما.

لماذا لون تمويههم رماديّ؟ سأل أرتيوم بوربون.

إنّهم حيوانات بدينة، هذا هو السّبب، ردّ باحتقار، أنت الآن تابع سيرك إلى الأمام، وتفرّج بينما أقوم بتجارة صغيرة هنا.

ما من شيء يهمّ أرتيوم على نحو خاصّ. هناك شاي ونقانق وبطّاريّات تخزين للمصابيح، وسترات ومعاطف مطريّة مصنوعة من جلد الخنازير، وبعض الكتب الممزّقة أغلبها عن الأدب الإباحيّ، وقوارير حجم النّصف لتر تحوي مادة مظهرها يُثير الرّيبة، كُتب عليها «خمر بيتيّ» على لصاقات ملتوية. لم يكن هناك أيّ تاجر

يبيع الأعشاب الضارّة التي تراها وتمسكها عادة في أيّ مكان. حتى أنّ الرّجل صغير الحجم، الهزيل ذا الأنف الأزرق والعيون العسليّة، الّذي كان يبيع الخمر البيتيّ المُريب طلب من أرتيوم أن يغرب عن وجهه حين سأله إن كان لديه القليل من المخدّرات. وهناك تاجر يبيع الحطب، وزنود الخشب الّتي فيها عقد، والأغصان الّتي جلبها أحد المطاردين الطوّافين من السّطح، وقيل عنها إنّها تحترق لوقت طويل، وتُصدر القليل من الدّخان. هنا تُبادل طلقات الكلاشنكوف بالأشياء، فمئة غرام من الشّاي بخمسة أغلفة، وعود من النقانق بخمسة عشر غلافًا، وقارورة من الخمر البيتّي بعشرين غلافًا، لذلك سمّوها بحماقة (طلقات صغيرة). اسمع أيّها الرّجل، انظر إلى هذه، يا لها من سترة أنيقة، إنّها رخيصة، بثلاثين طلقة صغيرة فقط وتكون لك، حسنًا بخمسة وعشرين وخذها الآن، ما رأيك؟

عند النّظر إلى صفوف الطّلقات الصّغيرة المرتّبة على نحو أنيق على طاولات العرض تذكّر أرتيوم كلمات زوج أمّه: (قرأت مرّة أنّ كلاشنكوف كان فخورًا باختراعه لأنّ سلاحه الآليّ كان البندقيّة الأكثر شهرة في العالم. وقالوا إنّه كان سعيدًا بشكل خاص لأنّ الفضل في حماية حدود وطنه يعود إلى أداته. أنا لا أعرف. لو كنت من اخترع ذلك الشّيء لجننت عند التّفكير في أنّ أغلب الجرائم ارتكبت بمساعدة أداتك، إنّ ذلك مروّع أكثر من كونك مخترع المقصلة)

خرطوشة واحدة هي موت واحد، قتل حياة أحد ما. مئة غرام من الشّاي بكلفة حياة خمسة أشخاص، قطعة من النّقانق؟ رخيصة جدًّا، إن رغبت بخمسة عشر حياة. سترة جلد من النّوعيّة الممتازة في عرض مخفّض اليوم بخمس وعشرين فقط، لهذا أنت تنقذ حياة خمسة أشخاص. هذا التّبادل اليوميّ في هذا السّوق يُعادل حياة كلّ سكّان المترو.

حسنًا إذًا، هل وجدت شيئًا لنفسك؟ جاء بوربون وسأل.

لا شيء مشوّق بالنسبة لي هنا، تخلّص أرتيوم من عبء السّؤال.

آها، أنت محقّ، إنّه سوق مليء بالنّفاية. لكن يا ولد، لقد كانت هذه المحطّة الصّغيرة هي المكان الوحيد في محطّات المترو النّتنة، الذي يمكن أن تجد فيه كلّ شيء تريده. تذهب هناك وهم يتنافسون مع بعضهم، أسلحة ومخدّرات وفتيات ومستندات مزوّرة، تنهّد بوربون: لكن هؤلاء القميئين، وأومأ باتّجاه علم هانسا، حوّلوا هذه إلى مدرسة حضانة لا يمكنك أن تفعل هذا، ولا تستطيع أن تفعل ذاك. حسنًا، لنذهب ونجلب معزقتك، فيجب أن نواصل طريقنا.

بعد استرجاع بندقيّة أرتيوم الآليّة جلسا على المنضدة الحجريّة أمام مدخل النّفق الجنوبيّ. كان الجوّ مظلمًا هناك، وقد اختار بوربون هذه البقعة خصوصًا لكي تعتاد عيونهما على الضّوء الضّعيف.

في الأساس هذا هو الاتّفاق، أنا لا أستطيع أن أضمن نفسي. أنا لم أقم بذلك أبدا، ولهذا لا أعرف ماذا سأفعل في حال تورّطنا بمشكلة. دقّ على الخشب طبعًا. لكن رغم هذا، إن تورّطنا في شيء... حسنًا إن بدأت بالبكاء وسال أنفي، أو أصبت

بالصّمم يجب أن يكون ذلك جيّدا، عندئذ كل واحد يجنّ بطريقته الخاصّة حسب ما سمعت. فتياننا لم ينجحوا في العودة إلى بروسبيكت، وأظنّ أنّهم لم يبتعدوا كثيرًا، وقد نلتقي بهم صدفة اليوم، لذا أنت استعدّ لهذا الأمر لأنّك أوّلًا وأخيرًا غرّ قليلًا، وإن بدأت بالغضب سوف أسكتك. تلك هي المشكلة. هل فهمت؟ أنا لا أعرف ماذا سأفعل. شعر بوربون أخيرًا أنّه مصمّم بعد تردّده: أيّها الولد، أنت على ما يرام كما أخمّن، ولن تطلق النّار على شخص في ظهره، سأعطيك بندقيّتي حين نسير عبر هذا الممرّ، فاحرسها. قال ذلك محذّرا، ونظر إلى عينَي أرتيوم بعناد: ولا تكن مُضحكًا، فإحساسي بالفكاهة محدود.

أخرج بعض الخرق من حقيبة ظهره، ثمّ سحب بحذر بندقيّة آليّة كانت ملفوفة بغلاف بلاستيكيّ. كانت كلاشنكوف أيضًا، لكنّها بندقيّة مختصرة مثل الّتي يحملها حرس الحدود في هانسا مع أخمص يُركّب بمفاصل ومقبض قصير بدلًا من المقبض الطّويل كما في بندقيّة أرتيوم. أخرج بوربون المخزن منها وأعاده الى حقيبة ظهره، ووضع الخرق بعدها في الحقيبة.

أمسك هذه، أعطى السّلاح لأرتيوم، ولا تضعها جانبًا، فقد تثبت أنّها نافعة، رغم أنّ النّفق يبدو هادئًا. لم ينهِ بوربون جملته بل قفز على الممرَّ،حسنا، دعنا نذهب. كلّما أسرعنا في الذّهاب، وصلنا أبكر إلى هناك.

الوضع كان مُرعبًا. حين ذهبا من فدنكه إلى ريجيسكايا، عرف أرتيوم أنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث، لكن على الأقل النّاس يذهبون ويعودون في تلك الأنفاق يوميًّا. وعرف أنّ هناك محطّة مأهولة بالنّاس أمامهم، وأولاء النّاس يتوقّعون حضورهم.

مغادرة مكان مضاء وهادئ أمر مزعج دائمًا لأيّ شخص، وحتى لـمّا توجهوا إلى بروسبيكت مير، من ريجيسكايا، استطاع رغم شكوكه، أن يسلّي نفسه بفكرة أنّ هانسا موجودة أمامه، وأنّ هناك مكان ما يذهب إليه، ويجد فيه الرّاحة والأمان.

لكنّ الوضع مرعب هنا، فقد كان النّفق أمامهم أسود تمامًا، يُهيمن عليه ظلام مطلق كامل وغير عاديّ. كان سميكًا جدًّا لدرجة تستطيع لمسه بيدك تقريبًا. راشح كالإسفنجة، يبتلع بنهم أشعة أضواء مصابيحهم الّتي كانت تكفي بصعوبة لإنارة مسافة قدم واحدة أمامهم. أجهد أرتيوم سمعه إلى أقصى حدّ حين حاول أن يُميّز أصغر جزء في ذلك الضّجيج المؤلم الغريب، ولكن عبثًا فعل. فربّما واجهت الأصوات زمنًا صعبًا في اختراق هذا الظّلام كما واجه ذلك الضوء، وحتّى صوت ارتطام حذاء بوربون الصّاخب بدا ليّنا وأبكم في هذا النّفق.

على الجدار اليمينيّ ظهرت فجوة فجأة، وغرق ضوء المصباح في البقعة السّوداء، ولم يدرك أرتيوم فورًا أنّها كانت ممرًّا جانبيًّا يخرج من النّفق الرّئيسيّ. نظر إلى بوربون متسائلًا.

لا تخف، يوجد ممرّ محوّل هنا، ثمّ شرح: لذلك تستطيع القطارات الوصول إلى الرّينغ مباشرة، دون أن تمرّ بمحطّات أخرى، ولكنّ أهالي هانسا سدّوه. فهم ليسوا أغبياء ليتركوا نفقًا مفتوحًا وموجَّها مباشرة إليهم.

بعد ذلك مشيا في صمت لفترة طويلة من الزّمن، لكنّ الصّمت أصبح يضغط أكثر فأكثر. ولم يعد أرتيوم يُطيقه.

اسمع يا بوربون، قال محاولًا أن يبدّد أيّ هلوسة: هل صحيح أنّ بعض المتخلّفين عقليًّا هاجموا قافلة هنا منذ زمن غير بعيد؟

لم يجب بوربون على السّؤال في الحال، فظنّ أرتيوم أنّه لم يسمع السّؤال، وكاد يكرّره، لكنّ بوربون ردّ عليه: سمعت شيئًا مثل ذلك. وأنا لم أكن هنا، لذلك لا أستطيع الإجابة على نحو أكيد.

جاء صوته بليدًا، وبالكاد فهم أرتيوم الكلمات. ومرّ وقت مجهد وهو يفصّل الكلمات الّتي سمعها عن أفكاره الطّاحنة. فكلّ شيء يصعب سماعه في هذا النّفق.

ماذا؟ ألم ير أحد ذلك؟ ثمّة محطّات في الطّرف الآخر. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ أين يمكن لهم أن يذهبوا؟ استمرّ في الحديث، ليس لأنّه كان مهتمًّا بالجواب، وإنّما ليسمع صوته.

مرّت عدّة دقائق قبل أن يردّ بوربون أخيرًا، ولكن هذه المرّة لم يرغب أرتيوم في مجادلته لأنّ صدى الكلمات الّتي قالها للتوّ كان يرنّ في رأسه، وكان مشغولًا بالإصغاء إليها.

يقولون إنّ هناك بوبيًا في مكان ما هنا، وإنّه مطمور وليس مرئيًّا في الحقيقة. حسنًا، ما هو احتمال أن ترى شيئًا في هذا الظّلام بأيّ حال؟ أضاف بوربون بشيء من غضب غير طبيعيّ في صوته.

استغرق أرتيوم بعض الوقت ليتذكّر ما كانا يتحدّثان عنه، وحاول بعناء أن يُدرك جوهر الحديث، وأن يطرح سؤالًا آخر لمجرّد أنّه أراد الاستمرار في المحادثة حتّى لو كانت خرقاء وصعبة، فهي ستنقذهم من الصّمت على الأقل.

وهل الظّلام الشّديد دائم هنا؟ سأل أرتيوم وقد شعر بالخوف قليلًا، لذلك أصدرت كلماته صوتًا ضعيفًا كما لو كان ثمّة شيء يغطّي أذنيه.

الظّلام؟ نعم، هو دائم. كلّ مكان مظلم. يدخل الظّلام الحالك ويحجب العالم وسوف يسودّ للأبد، أجاب بوربون، وهو يقوم بوقفات في كلامه غريبة. ما هذا؟ كُتب؟ أم شيء آخر؟ قال أرتيوم وقد لاحظ أنّه قد بات عليه أن يبذل جهدًا أكبر ليسمع صوت كلماته، وقد انتبه إلى حقيقة أنّ لغة بوربون تبدّلت بطريقة مرعبة. لكن أرتيوم لم يكن يملك القوّة الكافية ليُفاجأ بهذا.

كتاب، يجب أن تخشى من الحقائق المخبّأة في المجلّدات العتيقة، حيث زُخرفت الكلمات بالذّهب على ورق اردوازي أسود وهي لا تبلى، قال بوربون ذلك بلسان ثقيل. وفوجئ أرتيوم بأنّ الرّجل لم يكن يلتفت إليه حين يتكلّم كما كان يفعل من قبل.

جميل، صاح أرتيوم: من أين تأتي؟

والجمال سيُطاح به ويُسحق، والرّسل سيغصّون وهم يسعون للنّطق بهذه التحذيرات المُسبقة... من يوم... المستقبل سيكون... أحلك من... مخاوفهم المشؤومة وممّا يرون... سيسمّم عقولهم... واصل بوربون بهدوء.

توقّف بوربون فجأة، وأدار رأسه نحو اليسار بحدّة لدرجة استطاع أرتيوم عندها أن يسمع طقطقة فقرات عموده، ونظر مباشرة في عيني أرتيوم.

جفل أرتيوم، وتراجع للخلف، وتلمّس بندقيّته الآليّة للطوارئ فقط. نظر بوربون إليه بعينين مفتوحتين إلى أقصى حدّ، لكنّ بؤبؤيه تقلّصا إلى نقطتين صغيرتين جدًّا، مع أنّه من الضّروري توسّعهما في الظّلام الحالك لانتزاع أكبر قدر ممكن من الضّوء. بدا وجهه هادئًا على نحو غير طبيعيّ، ولم تكن فيه عضلة واحدة مشدودة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ازدراء سرعان ما اختفت.

لقد متّ أنا، قال بوربون: لم يعد لي وجود بعد الآن.

وسقط على الأرض.

ثمَّ اندفع الصّوت الرّهيب نفسه إلى داخل أذني أرتيوم، لكنّه لم يتمدّد ويتضخّم بالتّدريج هذه المرّة كما فعل في المرّة الأخيرة. لا، بل انفجر فجأة بأقصى درجة، وصمّ أذنيه، وطرحه أرضًا. كان الصّوت أكثر قوّة هنا ممّا كان حين واجهه سابقًا. ولم يستطع أرتيوم الملقى على الأرض، أن يستجمع إرادته وقواه كي يقف على قدميه لبعض الوقت، لكنّه غطّى أذنيه كما من قبل، وصرخ بأقصى طاقته، فنهض عن الأرض فورًا، ثمّ التقط المصباح الّذي سقط من يد بوربون، وبدأ يتفحّص الجدران على نحو محموم محاولًا إيجاد مصدر الضّجيج. الأنبوب المكسور... لكنّ الأنابيب كانت سليمة بالتّأكيد، والصّوت يأتي من مكان ما، في الأعلى.

كان بوربون مستلقيًا هناك بلاحراك ووجهه نحو الأسفل، وحين قلّبه أرتيوم رأى أن عيونه مازالت مفتوحة. حاول أرتيوم أن يتذكّر ماذا يفعل في أوضاع كهذه، ووضع يده على رسغ الرّجل بحثًا عن نبض وأراد أن يشعر به حتّى لو كان ضعيفًا كخيط، أو كان غير متناسق، ولكن عبثًا. ثمّ أمسك بوربون من يديه والعرق يتصبّب منه وجرّ جسده الّذي كان يزداد ثقله دائما إلى الأمام، إلى خارج هذا المكان مباشرة. الأمر كان صعبًا بشكل شيطاني، وممّا زاد الأمر صعوبة أنّه نسي أن يزيل حقيبة ظهر رفيقه.

بعد بضع عشرات من الخطوات تعثّر أرتيوم بشيء طريّ فجأة، وضربت أنفه رائحة مقزّزة حلوة قليلًا. فتذكّر على الفور الكلمات "قد نلتقي بهم صدفة" وضاعف جهوده وحاول أن لا ينظر تحت قدميه. وتجاوز الأجساد الممدّدة على قضبان السّكّة الحديديّة.

شدّ بوربون وجرّه معه. وكان رأس بوربون متدليًّا لاحياة فيه ويداه تزدادان برودة وتنزلقان من يدي أرتيوم المتعرّقتين، لكنّه لم يُسلّم بذلك ولم يرد أن يعترف به، لأنّ عليه أن يُخرج بوربون من هناك فقد وعده بذلك وكان بينهما اتّفاق.

بدأ الصّوت يضمحل بالتدريج واختفى فجأة. وعاد صمت قاتل مرّة أخرى وأرتيوم الّذي شعر بارتياح هائل، سمح لنفسه أن يجلس أخيرًا على القضبان ويلتقط أنفاسه. أمّا بوربون فكان مُستلقيًا بلاحراك بجانبه وأرتيوم ينظر بيأس إلى وجهه الشّاحب حين كان يتنفّس بشكل بطيء. وبعد خمس دقائق تقريبًا نهض على قدميه وأخذ بوربون من معصميه وتحرّك إلى الأمام متعثّرا. كان رأسه فارغًا بالتّأكيد إلّا من التّصميم الشّديد بأن يجرّ هذا الشّخص إلى المحطّة التّالية.

بعدئذ انثنت ساقاه وتعثّر فوق الوصلات العرضيّة، ولكن بعد أن استلقى هناك لبضع دقائق حبا إلى الأمام، وأمسك بوروبون من ياقته وظلّ يردّد: سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك، سأصل إلى هناك... أكّد لنفسه ذلك رغم أنّه بالكاد صدّق ذلك. وبعد أن فقد قوّته تمامًا جرّ بندقيّته الآليّة وأنزلها عن كتفه، وبدّل قفل الأمان إلى وضعيّة الرّمي طلقة طلقة، ووجّه سبطانتها إلى الجنوب وأطلق طلقة وصاح بصوت عال:يا ناس، لكنّ آخر صوت سمعه لم يكن صوتًا بشريًّا وإنّما حفيف مخالب الجرذان.

لم يعرف كم طول المدّة الّتي استلقي فيها هناك وهو في ذلك الوضع يمسك ببوربون من ياقته ويعصر قبضة بندقيّته الآليّة، حين رأت عيناه شعاع ضوء ووقف أمامه عجوز غريب مع مصباح في إحدى يديه وبندقيّة غريبة في اليد الأخرى.

يا صديقي الصّغير، كان يقول في صوت جهوريّ سار: يمكنك أن تنسى أمر صديقك. إنّه ميت كرمسيس الثّاني. هل تريد البقاء هنا وتجتمع معه في النّعيم بأسرع ما يمكن أم هل يستطيع هو أن ينتظرك فترة قليلة؟

ساعدني لنأخذه الى المحطّة، سأل أرتيوم الرّجل بصوت ضعيف وهو يغطّي عينيه من الضّوء.

أخشى أنّه من الضّروري لنا أن نرفض تلك الفكرة، قال الرّجل بمرارة: أنا ضد تحويل محطّة زوخاريفسكايا إلى قبر، وهي ليست مريحة مثله حتّى. ومن ثمّ إن أخذنا هذا الجسد الميّت إلى هناك من غير المحتمل لأيّ واحد في المحطّة أن يتعهّد بوضعه في طريقه النّهائي بطريقة محترمة. وما الفرق إذا تعفّن الجسد هنا أو في المحطّة؟ فروحه الخالدة عادت إلى خالقها مسبقًا. أو أن تتجسّد وتتقمّص ثانية اعتمادًا على آرائك الدّينيّة. لكن كلّ الأديان تُخطىء بدرجات مختلفة.

أنا وعدته، تنهّد أرتيوم: كان بيننا اتّفاق.

يا صديقي، قال العجوز الّذي تجهّم: بدأت أفقد صبري، قوانيني لاتسمح لي بمساعدة الموتى حين يكون هناك ما يكفي من أحياء بحاجة للمساعدة. أنا سأعود إلى زوخاريفتسكايا. فأنا أعاني من الروماتيزم لأنّني قضيت وقتًا طويلًا في هذا النّفق. إن كنت تريد أن ترى رفيقك بأسرع ما يمكن، أنصحك بالبقاء هنا وستساعدك في ذلك الجرذان والمخلوقات الجميلة الأخرى. وإن كنت قلقًا حول المظهر القانونيّ للمسألة فإنّ العقد يُعتبر مقضيّا إذا لم يكن هناك أيّ اعتراض من طرف آخر.

لكنّي لا أستطيع تركه هنا، حاول أرتيوم بهدوء أن يُقنع منقذه: فهذا كان كائنًا حيًّا. هل نتركه للجرذان؟

هذا من خلال منظره كان شخصا حيّا في الواقع، ردّ الرّجل وهو يتفحّص الجسد مشكّكا. لكنّه الآن شخص ميّت بالتّأكيد وذلك ليس الشّيء عينه. إن كنت تريد، نستطيع أن نعود إلى هنا ونشعل نارًا لحرق الجثّة أو أيّ شيء يمكنك فعله في مثل هذه الظّروف، أمّا الآن فانهض. أمره ونهض أرتيوم على قدميه متردّدا.

وبالرّغم من اعتراضات أريتوم، إلّا أنّ الغريب نزع وبشكل حاسم حقيبة ظهر بوربون وألقاها فوق كتفه ومشى إلى الأمام بسرعة وهو يسند أرتيوم. في البداية واجه أرتيوم صعوبة في المشي لكنّ الأمر كان كما لو أنّ العجوز أعطى أرتيوم حقنًا من طاقته الفائرة في كلّ خطوة. خفّ الألم في قدميه وعاد عقله المنطقيّ تدريجيًّا. نظر قصدًا في وجه منقذه، ومن خلال منظره كان الرّجل فوق الخمسين من العمر لكنّه بدا نظرًا ونشيطًا بشكل مُدهش. أسند أرتيوم بذراعاه الثّابتتين ولم ترتجفا من التّعب خلال طريق العودة كلّه، وكان شعره القصير قد تحوّل إلى رماديّ ولحيته المنحوتة الصّغيرة أدهشت أرتيوم. لقد بدا الرّجل معدًّا ومصقولًا بشكل جيّد من أجل المترو خصوصًا بسبب المكان البائس الّذي عاش فيه كما يبدو.

ماذا حدث معك يا صديقي؟ سأل الرّجل الغريب أرتيوم. لا يبدو الأمر كهجوم وإنّما تسمّم على الأكثر... وأنا أريد الحقيقة وأتمنّى أن لا يكون كما ظننت، أضاف: دون أن يخوض فيما كان يخشاه بالضّبط.

كلّا، مات دون سبب، قال أرتيوم الّذي لم تكن لديه القوّة لشرح ظروف موت بوربون الّتي بدأ رأسه يستوعبها للتو.

اتّسع النّفق فجأة وبدا أنّهما وصلا الى المحطّة. وبدا لأرتيوم وجود شيء غريب هنا وغير عاديّ، ولكنّه فهمه بعد بضع ثوان.

ما هذا؟ هل المحطّة هنا مظلمة؟ سأل رفيقه في فزع.

لا توجد سلطات هنا، ردّ الرّجل. لهذا لا أحد يوفّر الضّوء للنّاس. وكلّ من يحتاج إلى الضّوء عليه أن يحصل عليه بنفسه. فبعضهم يتمكّن من الحصول عليه وبعضهم الآخر لايستطيع. لكن لاتخف.

لحسن الحظّ أنا أعرف الرّتب العليا، تسلّق على المنصة بسرعة ومدّ يده لأرتيوم.

انعطفوا في أوّل مدخل مقنطر ودخلوا إلى صالة. وكان هناك ممرّ وحيد طويل وصفّ أعمدة مع قناطر على كلا الجانبين والجدران الحديديّة المعتادة والسّلالم المتوقّفة. كانت مُضاءة بالكاد بنيران صغيرة ضعيفة ولكنّ أغلبها غرق في الظّلام. كانت سوخاريفسكايا رؤيا مستبدّة وحزينة جدًّا. تحلّقت حول النّيران حشود من النّاس كان بعضهم نائمًا على الأرض، وهناك أشكال غريبة منحنية في أسمال بالية تتجوّل من نار لأخرى، وكانوا يتجمّعون في وسط القاعة بعيدًا عن الأنفاق بأقصى ما استطاعوا.

كانت النّار التي قاد الغريب أرتيوم إليها تسطع بشكل ملحوظ أكثر من البقيّة وهي في وسط المنصّة.

ستحترق المحطّة وتُسوّى بالأرض في يوم من الأيّام، فكّر أرتيوم بصوت عال وهو ينظر بجزع إلى القاعة.

في غضون أربعمائة وعشرين يوم، قال رفيقه بهدوء. لهذا من الأفضل لك أن تُغادر قبل ذلك. على أيّ حال هذا ما أخطّط لفعله.

كيف تعرف؟ سأل أرتيوم الّذي تجمّد حين تذكّر فجأة كلّ ما سمعه عن السّحرة والوسطاء الرّوحيّين فدقّق في وجه رفيقه باحثًا عن علامات لمعرفة روحيّة سماويّة.

الأصلة الأم غير مستقرّة، أجاب مبتسمًا. حسنًا، هذا كل ما في الأمر، ويجب أن تنال قسطا من النّوم ومن ثمّ نعرّف بأنفسنا ونتحدّث.

مع الكلمات الأخيرة غُلب أرتيوم فجأة بعد الإنهاك الهائل الّذي تراكم في النّفق قبل ريجيسكايا وفي كوابيسه وفي الاختبارات الحديثة لإرادته.

لم يبق لدى أرتيوم القوّة ليقاوم، وجلس على قطعة من القماش المشمّع، نُشرت قرب النّار، واضعًا حقيبة ظهره تحت رأسه. وخرّ بعدها في نوم طويل وعميق خال من الأحلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السّادس: حقوق الأقوياء

كان السّقف ملوّثا جدًّا بالسّخام لدرجة أنّه لم يبق أثر للطّلاء الأبيض الّذي طُبّق عليه سابقًا. نظر إليه أرتيوم بكسل وهو لا يعرف أين هو.

هل أنت مستيقظ؟ سمع صوتًا مألوفًا أجبر شتات أفكاره أن تبني صورة لأحداث الأمس (هل كان الأمس؟) بدت له كليها غير حقيقيّة الآن، مبهمة كالضّباب فقد فصل جدار النّوم الواقع الفعليّ عن التّذكّر والذّكريات.

مساء الخير، قال أرتيوم للرّجل الّذي وجده. كان يجلس على الطّرف الآخر من النّار واستطاع أرتيوم أن يراه من خلال اللّهب. هناك غموض يلفّ هذا الرّجل وعلى وجهه صفة صوفيّة حتّى.

الآن يمكننا أن نتعرّف على بعضنا البعض. فأنا لديّ اسم نظامي مثل كلّ النّاس الآخرين الّذين أحاطوا بك في حياتك. إنّه اسم طويل جدًّا ولايقول شيئًا عنّي، لكن أنا التقمّص الأخير لجنكيز خان ولهذا يمكنك مناداتي بخان، فهو أقصر.

جنكيز خان؟ نظر أرتيوم غير مصدّق فهو لم يكن يؤمن بالتّقمّص.

ياصديقي، اعترض خان كأنّه تعرّض لإهانة: يجب أن لا تنظر في عيوني وإلى سلوكي بهذا الشّكّ الواضح، لقد تجسدّت في أشكال أخرى متنوّعة ومقبولة أكثر، لكن يبقى جنكيز خان المرحلة الأهم في دربي وإن كنت لا أتذكّر شيئًا من تلك الحياة لسوء الحظ.

إذًا لماذا خان وليس جنكيز؟ استحثّه أرتيوم أكثر. خان ليس كنية بعد كلّ شيء، إنّه مجرّد تخصّص مهنيّ إن كنت أتذكّر بشكل صحيح.

إنّه يُوحي بصلة غير ضروريّة ولا حاجة لذكر جنكيز ايتماتوف. قال رفيقه بشكل متردّد ومبهم.. وبالمناسبة أنا لا أرى أن من واجبي شرح أصول اسمي لكلّ من يسأل. ما اسمك أنت؟

أنا أرتيوم ولا أعرف من كنت في حياة سابقة، ربّما كان اسمي مدويًا وباهرًا أكثر في الماضي، قال أرتيوم.

يسرّني التّعرّف إليك، قال خان وهو مقتنع تمامًا بالإجابة كما هو واضح. وأرجو أن تشاركني طعامي المتواضع، أضاف وهو يرفع غلّاية معدنيّة قديمة ويعلّقها فوق النّار، كانت مثل الغلّايات الّتي لديهم في الدّوريّة الشّماليّة في فدنكه.

وقف أرتيوم ووضع يده على حقيبة ظهره وأخرج قضيبا من النّقانق حصل عليه في طريقه من فدنكه. قطّعه عدّة قطع بسكّين الجيب خاصّته ووضعها في خرقة نظيفة كانت أيضًا في حقيبة ظهره.

تفضّل. مدّها نحو الرّجل الّذي تعرّف عليه حديثًا، تُؤكل مع الشّاي.

الشاي الذي أعدّه خان مثل شاي فدنكه الذي كان أرتيوم يعرفه، وبينما كان يرتشف الشّاي من كوب معدنيّ ملمّع، تذكّر بصمت أحداث اليوم الفائت ولم يُضايقه أو يقاطعه مُضيفه إذ أنّه يفكّر بأفكاره الخاصّة أيضًا.

بدا أنّ الجنون الّذي اندفع فجأة إلى العالم من الأنابيب المكسورة له تأثير مختلف على كلّ واحد. بالنّسبة لأرتيوم هو مجرّد ضجيج يصمّ الآذان ويمنعه من التّركيز، ضجيج يقتل أفكارك لكنّه يُبقي على عقلك نفسه، بينما بوربون لم يستطع أن يتحمّل الهجوم القويّ فمات. ولم يتوقّع أرتيوم أنّ الضّجيج يمكنه أن يقتل أحدًا فعلًا، وإلّا لما وافق أن يخطو خطوة واحدة في ذلك النّفق الأسود بين بروسبيكت مير وزوخاريفسكايا.

في هذه المرّة فرقع الضّجيج بشكل مكتوم وخفيّ، وبلّد الأحاسيس في البداية. أرتيوم متأكّد الآن أنّ كلّ الأصوات المعتادة كُتمت، والضّجيج نفسه كان غير مسموع في البداية، ثمّ تجمّد تدفّق الأفكار بعد ذلك وتغطّت فجأة بصقيع الضّعف، فسدّد لكمته السّاحقة أخيرًا.

لماذا لم يلاحظ أرتيوم فورًا أن بوربون بدأ يتحدّث فجأة بعبارات لم يكن يعرفها على الأرجح مع أنّه قرأ الكثير من التّنبّؤات الكارثيّة عن نهاية العالم؟

لقد اخترق الضّجيج بوربون في العمق كما لو أنّه سحره وسيطر عليه ثَمَل غريب. كان أرتيوم يفكّر بكلّ أنواع التّرّهات كي لا يصمت. وكان عليهما أن يستمرّا في التّحدّث، لكن لم يخطر بباله أن يحاول ويعرف ويكتشف ما كان يجري. شيء ما كان يتدخّل...

حاول أن يلقي بكلّ ماحدث إلى خارج وعيه وأن ينساه تمامًا، لكن من المستحيل أن يتجنّب التّفكير به. ففي كلّ سنينه في فدنكه لم يسمع قط بمثل هذه الأشياء، والأسهل له هو الاعتقاد بأنّ الأشياء الّتي سمع بها كانت غير ممكنة في هذا العالم. هزّ أرتيوم رأسه ونقّل نظره من جانب لآخر مرّة أخرى. ملأ نفس الشّفق الخانق الفراغ مرّة أخرى. واعتقد أرتيوم أنّه من الأرجح عدم وجود ضوء هنا أبدًا، وأنّ الظّلام سيزداد بعد أن تنفد احتياطات وقود النّار. توقّفت السّاعة فوق المدخل المؤدّي إلى النّفق عن التّك منذ زمن طويل، إذ لا يهتمّ أحد بهكذا أشياء. تساءل أرتيوم لماذا قال له خان "مساء الخير" لأنّه حسب هلوساته يجب أن يكون الوقت صباحًا أو ظهرًا.

هل الوقت مساء حقيقة؟ سأل أرتيوم خان في حيرة.

إنّه مساء بالنّسبة لي، ردّ خان وهو غارق في أفكاره.

ماذا تعني؟ لم يفهم أرتيوم.

انظر يا أرتيوم من الواضح أنّك أتيت من محطّة تعمل فيها ساعات الجدران، وكلّكم تنظرون إليها في رهبة، وتُقارن الوقت على ساعة يدك مع الأرقام الحمراء فوق مدخل النّفق. وبالنّسبة لك، الوقت هو نفسه لكلّ واحد كالضّوء تمامًا. أمّا هنا فالأمر على العكس، العدم هي مهنة كلّ شخص آخر. لا أحد ملزم ليتأكّد بأنّ هناك ضوء

لكل النّاس الذين شقوا طريقهم إلى هنا. اذهب إلى أيّ واحد هنا واقترح ذلك وسيبدو له الأمر سخيفًا تمامًا.

كلّ من يحتاج إلى الضّوء عليه أن يجلبه إلى هنا معه. والأمر كذلك بالنّسبة للوقت، كلّ من يحتاج أن يعرف الوقت، وكلّ من يخاف من التّشّوش الكامل يجب عليه أن يجلب وقته الخاص به معه. فكلّ واحد هنا يحتفظ ببعض من الوقت، وقته الخاص به وهو مختلف بالنّسبة لكلّ واحد ويعتمد على حساباته، لكنّها كلّها صحيحة بالتّساوي. وكلّ شخص هنا يؤمن بوقته الخاص ويُخضِع حياته إلى إيقاعاته. الوقت الآن بالنّسبة لي هو المساء وبالنّسبة لك هو الصّباح.

يحرص النّاس من أمثالك على ادّخار السّاعات الّتي يمضونها في التّرحال، مثل النّاس القدماء الّذين كانوا يحتفظون بقطع من الفحم المتّقد في بوتقات تُدخّن، راجين أن يبعثوا نارًا منها، بينما أضاع أناس آخرون قطع فحمهم المتّقد وربّما رموها حتّى. أنت تعرف أنّ الوقت في المترو أساسًا، ليل دائما وليس هناك أيّ مغزى من عناء مواصلة تعقّب الزّمن. فجّر ساعاتك وسترى كيف يتحوّل شكل الزّمن إلى شيء ممتع، فهو يتبدّل ولن تعرفه حتّى. لن يبقى متشظيًّا ومفتّتا إلى ساعات ودقائق وثوان. فالزّمن كالزّئبق انثره يتجمّع ويتماسك من جديد ويجد اكتماله وسلامته وعدم ثباته ثانية. لقد روّضه النّاس وقيّدوه في ساعات الجيب وساعات التّوقيف (عدّادات السّباق...) وبالنّسبة لهؤلاء الّذين يعتبرون الزّمن سلسلة، فإنّ الزّمن يجري بانتظام وهدوء. لكن حاول أن تحرّره وسترى أنّه يجري ويتدفّق بشكل مختلف لأناس مختلفين، فهو للبعض بطيء ودبق ويُحسب في شهقات وزفرات السّجائر المُدخَّنة. ولبعض آخر يسرع قدما ولا يستطيعون قياسه إلّا في حيوات ماضية.

تعتقد أنت أنّ الوقت صباحًا الآن أليس كذلك؟ هناك احتمال كبير أن تكون على صواب، لكنّه خمس وعشرون بالمائة بالكاد ومع ذلك صباحك هذا لامعنى له بما أنّه لم يعد وجود لأيّ حياة في الأعلى على السّطح بعد الآن. حسنًا، ولم يعد هناك ناس بأيّ حال. هل ما يحدث فوق له أيّ قيمة لهؤلاء الّذين لم يذهبوا إلى هناك أبدًا؟ كلّا. لهذا حين أقول "مساء الخير" لك يمكن أن تردّ ب"صباح الخير." إن أحببت. لا يوجد زمن في هذه المحطّة سوى زمن واحد ربّما، وهو غريب جدّا، الآن هو اليوم التّاسع بعد الأربعمائة وأنا أعدّ باتّجاه العكس.

تابع أرتيوم سكوته وهو يرتشف شايه السّاخن، واعتقد أنّ هذا مثيرًا للضّحك حين تذكّر أنّ ساعات المحطّة في فدنكه تُعامَل كشيء مقدّس، وأيّ فشل فيها يضع كلّ شخص قريب منها فورًا تحت مسؤوليّة اللّوم. واعتقد أيضًا أنّ السّلطات ستندهش إن علمت أنّ الزّمن ليس له وجود وأنّ التّفكير فيه قد ضاع.

ما وصفه خان للتّو ذكّر أرتيوم بشيء مضحك أدهشه بشكل متكرّر حين كبر. يقولون في الماضي حين كانت القطارات تسير كانوا يعلنون في العربات: احذروا من الأبواب المغلقة، إنّ محطّة التّوقّف التّالية هي سين أو عين أو لام وأنّ المنصّة التّالية ستظهر على يساركم أو يمينكم، قال: هل ذلك صحيح؟

هل يبدو لك ذلك غريبًا؟ رفع خان حاجبيه.

كيف لهم أن يعرفوا المنصّة في أيّ جانب؟ فإن أتيت من الجنوب إلى الشمال تكون المنصّة عندها على اليمين، وإن أتيت من الشّمال إلى اليمين تكون المنصّة على اليسار، كما أنّ مقاعد القطار تكون مقابل جدران القطار إن كنت أتذكّر بشكل صحيح. لهذا بالنّسبة للمسافرين كانت المنصّات إمّا أمامهم أو خلفهم، نصفها على الجانب الأوّل ونصفها على الجانب الآخر في مناظير مختلفة.

أنت على صواب، أجاب خان باحترام. سائقو القطار أساسًا كانوا يتكلّمون عن أنفسهم لأنّهم يسافرون في حجرة في المقدّمة، وبالنّسبة لهم اليمين يمين مطلق واليسار يسار مطلق. لهذا يُفترض أنّهم يقولون ذلك من أجل فائدتهم الخاصّة بهم. ومن حيث المبدأ يمكن أيضًا ألّا يقولوا شيئًا. لكنّي سمعت تلك الكلمات منذ أن كنت طفلا، وكنت معتادًا عليها لذلك لم أتوقّف لأفكّر فيها.

مرّ بعض الوقت ثمّ قال: لقد وعدتني أن تروي لي ماذا حدث لصديقك.

توقّف أرتيوم للحظة يتساءل إن كان سيخبر هذا الرّجل عن الظّروف الغامضة المحيطة بموت بوربون، وعن الضّجيج الّذي سمعه مرّتين في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. وعن تأثيره المدمّر على العقل البشري، وعن عذاباته وأفكاره حين سمع لحن النّفق... وقرّر إن كان هناك من يستحقّ أن يخبره فسيكون الشّخص الّذي اعتبر نفسه بصدق أنّه التّجسيد الأخير لجنكيز خان، والّذي يعتبر الزّمن غير موجود البتّة. لهذا بدأ يقدّم بلواه بطريقة مشوّشة وقلقة دون مراعاة لتتابع الأحداث، فقد حاول أن ينقل أحاسيسه المختلفة بدلًا من الوقائع.

إنّه صوت الأموات، قال خان بهدوء بعد أن أكمل أرتيوم سرد قصّته.

ماذا؟ سأل أرتيوم في دهشة.

أنت سمعت أصوات الأموات. قلت في البداية كان الصّوت يشبه الهمس أو الحفيف أليس كذلك؟ نعم تلك هي أصواتهم.

أيّ أموات؟ أرتيوم لم يفهم تمامًا.

كلّ النّاس الّذين قتلوا في المترو منذ البداية، وهذا ما يفسّر أساسًا لماذا أنا التّجسيد الأخير لجنكيز خان، ولن يكون هناك تقمّص بعد اليوم. كلّ واحد وصل إلى نهايته ياصديقي. أنا لا أعرف تمامًا كيف حدث هذا لكنّ الإنسانيّة أفرطت وبالغت فيه هذه المرّة. ولم يعد بعد الآن فردوس وجحيم ولن يكون هناك المطهّر (الحاجز بين الجنّة والنّار) أيضًا. بعد أن تطير الرّوح وتخرج من الجسد، أرجو أنّك تؤمن بالرّوح الأبديّة على الأقل؟ حسنًا لن يبقى لها أيّ ملاذ آخر.

كم عدد الميغاتونات والبيفاتونات الّتي لزمت لتبديد النّوسفير (طبقة الوعي الإنساني)؟ والّتي كانت حقيقيّة كهذه الغلاية. ومهما قلت، نحن لم نقتصد بأنفسنا فقد دمّرنا الفردوس والجحيم معًا ونعيش الآن في هذا العالم الغريب، في عالم تبقى الرّوح فيه بعد الموت حيث تكون تمامًا. هل فهمت؟ أنت ستموت لكنّ روحك المعذّبة لن تتقمّص في جسد جديد، ونظرًا لانتهاء وجود الفردوس فلن تحظى الرّوح بأيّ سلام وسكينة. لقد حُكِم عليها أن تبقى في المترو حيث عاشت حياتها كلّها. ربّما

لا أستطيع أن أعطيك التفسير الصّوفي الدّقيق عن سبب هذا، لكنّي أعرف شيئًا واحدًا مؤكّدا وهو: أنّه في عالمنا تبقى الرّوح في المترو بعد الموت، ستندفع هنا وهناك تحت قناطر هذه الأنفاق الّتي تحت الأرض حتّى نهاية الزّمن لعدم وجود أي مكان آخر تذهب إليه. يجمع المترو الحياة الماديّة مع أقانيم العالم الآخر. إنّ الجنّة والجحيم الآن هنا معًا. نحن نعيش وسط أرواح الأموات، فهم يطوّقوننا تمامًا،كلّ هؤلاء الّذين سحقتهم القطارات والرّصاص والمخنوقين والمحروقين، والّذين أكلتهم الوحوش وهؤلاء الّذين ماتوا ميتات غريبة لا يعرف عنها الأحياء شيئًا ولا يستطيعون تخيّلها أبدًا. منذ زمن بعيد كافحت لأعرف أين يذهبون، ولماذا لا نشعر بوجودهم كلّ يوم ولماذا لا نشعر بالنّظرة الباردة والخفيفة الآتية من الظّلام.

أنت معتاد على رعب النّفق أليس كذلك؟ اعتقدت من قبل أنّ الأموات يلحقون بنا بشكل أعمى عبر الأنفاق خطوة بخطوة، ويختبئون في الظّلام فورًا حين نستدير لننظر إليهم. إنّ العيون لا فائدة لها هنا ولن ترى بها الموتى. لكنّ النّمل يركض على عمودك الفقري، وشعرك ينتصب والقشعريرة تهزّ جسدك، وكلّها شهود على المطاردة الخفيّة. هذا ما كنت أعتقد به سابقًا. أمّا الآن وقد فسّرت لي قصّتك وشرحت لي الكثير جدًّا. بطريقة ما هم يدخلون في الأنابيب وفي خطوط الاتصالات... في وقت ما منذ زمن بعيد، قبل أن يولد أبي وجدّي حتّى، كان هناك نهر صغير في مدينة الأموات الّتي تقع فوقنا، وتمكّن النّاس الّذين عاشوا هناك من إغلاق هذا النّهر وتوجيهه إلى داخل الأنابيب تحت الأرض، حيث مازال يجري حتّى الآن على الأرجح. ويبدو هذه المرّة وكأن أحدًا ما طمر نهر ستايكس نفسه في هذه الأنابيب (النّهر الرّئيسي في حادس). إنّ صديقك لم يكن ينطق بكلماته هو، كلّا لم يكن هو، إنّما أصوات الموتى الّتي كان يسمعها في رأسه ويكرّرها ومن ثمّ امتصّته.

حدّق أرتيوم بخان ولم يستطع أن يحوّل بصره عن وجه الرّجل خلال كلّ حواره مع نفسه. انزلقت ظلال مُبهمة على وجه خان وكانت عيناه تشتعلان بنار داخليّة. قُبيل انتهاء القصّة كان أرتيوم شبه متأكّد أنّ خان مجنون تقريبًا، وأنّ الأصوات في الأنابيب همست بشيء ما له أيضًا، وكانت فكرة البقاء مع خان لأيّ فترة من الوقت غير مريحة ومزعجة، رغم أنّ الرّجل أنقذه من الموت وأظهر له حسن الضّيافة. يجب عليه أن يفكّر كيف سينتقل ويتحرّك عبر أسوأ الأنفاق وأشدّها شرًّا في المترو الّذي سمع عنه الكثير، من زوخاريفسكايا إلى تورغينيفسكايا وأبعد.

لهذا، يجب عليك أن تسامحني بسبب كذبتي الصّغيرة، أضاف خان بعد توقّف قصير: روح صديقك لم ترتفع إلى خالقها، ولن تتجسّد وتتقمّص ثانية وتعود في شكل جديد. لقد انضمّت إلى الأرواح البائسة الأخرى في الأنابيب.

ذكّرت هذه الكلمات أرتيوم بمخطّطه للعودة من أجل جثّة بوربون وجلبها إلى المحطّة، كما أنّ بوربون قد أخبره أنّ له أصدقاء هنا سيساعدون أرتيوم في رحلة العودة إن نجحا في الوصول، وذكّره هذا أيضًا بحقيبة الظّهر الّتي لم يفتحها أرتيوم بعد، والّتي قد يكون فيها شيئًا مفيدًا عدا بندقيّة أرتيوم الآليّة، لكنّ الاستيلاء عليها كان شيئًا مرعبًا.

وتسلقت الخرافات من كل الأنواع إلى رأس أرتيوم، وقرّر أن يفتحها قليلا وأن يختلس النّظر في داخلها دون أن يلمس أو يحرّك شيئًا. يجب ألّا تخاف منها، قال خان لأرتيوم بشكل غير متوقّع كما لو أنّه يشعر بذعره. هذا الشّيء لك الآن.

أعتقد أنّ ما فعلته يسمّى نهبًا، قال أرتيوم بهدوء.

لا داعي للخوف من الجزاء والانتقام وهو لن يتقمّص ثانية، قال خان دون أن يردّ على ما قاله أرتيوم، وإنّما على ما كان يدور في رأس ارتيوم. أعتقد أنّ الموتى حين يُؤخذون إلى داخل أنابيب الموتى يفقدون أنفسهم ويُصبحون جزءًا من كلّ، وتنحلّ إرادتهم في إرادة البقيّة ويجفّ عقلهم ولا يبقوا أفردًا، أمّا إن كنت تخشى من الأحياء وليس من الأموات... حسنًا، جُرّ هذه الحقيبة إلى وسط المحطّة وأفرغ محتوياتها على الأرض، ولن يتّهمك أحد بالسّرقة ويستطيع ضميرك أن يكون نظيفًا. وأنت حاولت أن تُنقذ الفتى، وسيكون ممتنًّا لك من أجل ذلك. اعتبر هذه الحقيبة سداد دين لما فعلته له.

كان يتكلّم بثقة وقناعة كبيرة، لذلك اكتسب أرتيوم الشّجاعة فدسّ رأسه في الصّرّة، وبدأ يُخرج الأشياء منها ويضعها على القماش المشمّع ليراها في ضوء النّار. كان هناك أربعة مخازن إضافيّة لبندقيّة بوربون، بالإضافة إلى الاثنين اللّذين أخرجهما هو حين أعطى البندقيّة لأرتيوم، واندهش من أن يكون لدى التّاجر مثل هذه التّرسانة. لفّ أرتيوم بعناية مخازن الخرطوش الخمسة الّتي وجدها في غطاءها، ووضعها في حقيبة ظهره ووضع واحدًا في الكلاشنكوف. كان السّلاح في حالة ممتازة ومزيّت بشكل جيّد ومعتنى به. تحرّك القفل بنعومة وصدر عنه فرقعة بليدة، وكان مقبض الأمان أقسى قليلًا. هذا دلّ على أنّ السّلاح كان جديدًا عمليّا، والقبضة مناسبة ليده بشكل مريح والسّاق ملمّع ومصقول جيّدًا. رشح من السّلاح شعور في إمكانيّة الاعتماد عليه وشجّع الهدوء والثّقة. قرّر أرتيوم فورًا أن يأخذ هذه البندقيّة إن كان سيأخذ شيئًا من بوربون.

لم تكن المخازن ال7.62 الّتي وعده بوربون بها من أجل "مجرفته " هناك، ولم يكن واضحًا كيف خطّط بوربون أن يدفع لأرتيوم. فكّر أرتيوم بذلك واستنتج أنّ بوربون لم يكن ينوي أن يعطيه أيّ شيء، وبعد أن يجتاز القسم الآخر سيرمي طلقة في رأس أرتيوم من الخلف ويلقي به تحت عمود، وينسى الأمر. وإن سأله أحد عن مكان أرتيوم سيردّ بأيّ واحدة من الإجابات الكثيرة الّتي لديه، أيّ شيء يمكن أن يحدث في المترو والصّبي وافق بنفسه أن يأتي معه.

وجد أرتيوم في الحقيبة بضع قطع من اللّحم المدخّن في أكياس بلاستيكيّة، ودفتر ملحوظات في قاع الحقيبة، بالإضافة إلى خرق متنوّعة وخريطة للمترو معلّمة برموز لا يفهمها سوى صاحبها الميّت، ومائة غرام من النّبات الضّار (المخدرات). لم يقرأ أرتيوم دفتر الملاحظات وخاب رجاؤه من بقيّة المتاع. فقد تمنّى في أعماق روحه أن يجد شيئًا ثمينًا، المبرّر الّذي جعل بوربون مصمّمًا على عبور النّفق إلى زوخاريفسكايا، فقرّر أنّ بوربون إمّا أنّه كان رسولًا أو ربّما مهرّبًا أو شيئًا من هذا القبيل، فهذا على الأقل يفسّر إصراره على عُبور النّفق اللّعين بأيّ ثمن، واستعداده

لأن يكون كريمًا. لكن وبعد أن أخرج آخر قطعتين من الكتا ولم يبق الكثير في الحقيبة قرّر أرتيوم أنّ الغرض وراء إصرار صاحبه يجب أن يكون شيئًا آخر. أرهق أرتيوم ذهنه لوقت طويل في معرفة ما الّذي كان بوربون يحتاجه من زوخاريفسكايا، لكنّه لم يستطع أن يفكّر بشيء معقول.

ثمّ تذكّر أنّه ترك الرّجل المسكين في وسط النّفق، تركه للجرذان رغم أنّه خطّط أن يعود ويفعل شيئًا من أجل الجسد. صحيح أنّه لا يعرف سوى القليل وكيف سيعطي التّاجر احترامه الأخير (فاينا اونرز) وماذا سيفعل بالجثّة؟ هل يحرقها؟ لكنّ ذلك يحتاج إلى أعصاب قويّة، إضافة إلى أنّ الدّخان الخانق ورائحة اللّحم المحترق والشّعر المحترق سترشح عبر المحطّة بالتّأكيد. عندها لن يستطيع تحاشي البغض والكره. كما أنّ جرّ الجثّة إلى المحطّة سيكون ثقيلًا ومخيفًا، فجرّ رجل من رسغيه وسحبه وأنت تعتقد أنّه حيّ ودون وجود أدنى فكرة لديك بأنّ الرّجل لا يتنفّس وليس لديه نبض شيء، وجرّ جثّة هامدة وسحبها شيء آخر. إذًا ماذا سيفعل؟ يستطيع أن يكذب على أصدقاء بوربون هنا في المحطّة مثلما كذب بوربون عليه بخصوص أجرته؟ ثمّ إذا جرّ أرتيوم الجسد وعاد به إلى هنا فقد يضعه هذا في وضع أسوأ.

إذًا ماذا تفعلون بالّذين يموتون هنا؟ سأل أرتيوم خان بعد نوبة طويلة من التّفكير.

ماذا تقصد يا صديقي؟ أجاب خان بسؤال: هل تتحدث عن أرواح الموتى أم عن أجسادهم الفانية؟

عن الجثامين، زمجر أرتيوم. لقد ضجر من حديثه عن العالم السّفلي.

هناك نفقان يذهبان من بروسبيكت مير إلى زوخاريفسكايا، قال خان. وفكّر أرتيوم في نفسه أنّ القطارين يذهبان في اتّجاهين لذلك يحتاجان إلى نفقين دائمًا. إذًا لماذا أراد بوربون الّذي يعرف بأمر النّفق الثّاني أن يذهب إلى قدره؟ هل كان هناك خطر أعظم مخبئا في النّفق الثّاني؟ لكن لا يسطيع المرء المرور عبره إلّا وحيدًا. تابع الرّجل، لأنّ الأرض في النّفق الثّاني قرب المحطّة رخوة ومنهارة، وهناك الآن نوع من واد عميق حسب الأسطورة المحليّة سقط بكامله في القاع. وإن وقفت على أيّ طرف من هذا الوادي فلن ترى الطّرف الآخر. حتّى أنّ أقوى المصابيح ضوءها لا ينير الأعماق، ولذلك كلّ الحمقى يقولون أنّه هاوية لا قرار لها. وهذا الوادي هو مقبرتنا، ونحن نضع كلّ جثامين موتانا فيه.

بدأ أرتيوم يشعر بالغثيان حين أدرك أنّ عليه أن يعود إلى المكان الّذي وجده فيه خان، وأنّه سيجرّ جسد بوروبن الّذي نهشته الجرذان إلى المحطّة ثمّ إلى الوادي في النّفق الثّاني. وبدأ يقنع نفسه أنّ إلقاء الجثمان في الوادي جوهريّا مثل رميه بالنّفق تمامًا، لأنّك لا تستطيع أن تسمّي أيّا منهما دفنًا. وحين بدأ يقتنع بأنّ ترك كلّ شيء على حاله هو الحلّ الأمثل للوضع، ظهر له وجه بوربون أمام عينيه بوضوح مذهل وهو يقول: لقد متّ.

فتبلّل أرتيوم بالعرق فورًا ونهض بصعوبة ووضع بندقيّته الآليّة على كتفه وقال:

حسنًا، أنا سأغادر، أنا وعدته، لقد عقدنا اتّفاقا. يجب عليّ.. وبدأ يسير في القاعة بساقين متخشّبتين وعلى الدّرج الحديديّ الّذي قاده إلى النّفق من المنصّة.

كان من الضّروري أن يشعل ضوء مصباحه قبل أن ينزل الدّرج حتّى. إلّا أنّه نزل الدّرج هادرًا، ولكنّه توقّف تمامًا للحظة غير راغب في الابتعاد خطوة واحدة أكثر. نفخ هواء ثقيل رائحة نتننة في وجهه، وللحظة رفضت عضلاته أن تطيعه. وحاول أن يجبر نفسه بالقوّة ليخطو خطوة أخرى. وحين تغلّب على خوفه ونفوره وبدأ السّير ثانية، وُضِعت يد ثقيلة على كتفه، فصاح في دهشة واستدار بشكل حادّ وصدره مشدود، وأدرك أنّه لا يملك الوقت الكافي لخطف بندقيّته الآليّة من كتفه.. لا ولفعل أيّ شيء...

كان خان.

لا تفزع، قال لأرتيوم ليهدّئه. أنا كنت أختبرك فقط، وليس عليك أن تذهب، فجثّة صديقك لم تعد هناك بعد الآن.

حدّق به أرتيوم بانشداه.

بينما كنّا نائمين أكملت أنا طقوس الجنازة، ليس هناك مبرّر لذهابك فالنّفق فارغ. وأدار ظهره لأرتيوم ثمّ عاد باتّجاه القناطر. عجّل الشّاب أرتيوم الّذي شعر بارتياح هائل وتبعه ولحق به بعد عشر خطوات، وسأله في صوت عاطفيّ:

لكن لماذا فعلت ذلك؟ ولماذا لم تخبرني؟ أنت أخبرتني بنفسك أنّ الأمر لن يفرق في شيء سواء ظلّ في النّفق أم جُلِب إلى المحطّة.

بالنّسبة لي هو لا يفرق في شيء أبدًا، هزّ خان كتفيه لا مباليًا. لكنّه مهمّ لك. فأنا أعرف أنّ لرحلتك هدف وأنّ دربك طويل وصعب، وأنا لا أفهم ما هي مهمّتك لكنّ عبئها سيكون ثقيلًا جدّا عليك وحدك، لهذا قرّرت أن أساعدك قليلًا. تفحّص أرتيوم بابتسامة.

حين عاد أرتيوم إلى النّار وجلس على قطعة المشمّع المجعّدة، لم يستطع إلّا أن يسأل:

ماذا تقصد حين ذكرت مهمّتي؟ هل قلت أنا شيئًا في نومي؟

كلّا يا صديقي، كنت صامتًا حين نمت، لكنّي رأيت رؤيا وطلب منّي شخص يشاركني في قسم من اسمي أن أساعدك، وقد تنبّهت بوصولك ولهذا السّبب خرجت لأقابلك وألتقطك حين كنت تحبو مع جثّة صديقك.

ذلك هو السّبب؟ نظر أرتيوم إليه مرتابًا: ظننت أنّ السّبب كان سماعك إطلاق الرّصاص...

نعم سمعت إطلاق الرّصاص، كان الصّدى عاليًا هنا. ولكن هل تظنّ أنّني أذهب إلى داخل النّفق في كلّ مرّة أسمع فيها صوت طلقة؟ لو فعلت ذلك لكنت وصلت إلى نهاية درب حياتي في وقت مبكر وبشكل مشين تمامًا، لكن هذه المرّة كانت استثناء.

وماذا عن الشخص الذي يشاركك في قسم من اسمك؟

لا أستطيع أن أقول من هو، فأنا لم أره قط من قبل ولم أتكلّم معه أبدًا، لكنّك تعرفه. ويجب أن تفهم هذا بنفسك. لقد رأيته مرّة واحدة وحتّى تلك المرّة لم تكن في الحياة الحقيقيّة، ولكنّي شعرت فورًا بقوّته الجبّارة. أمرني أن أساعد شابًا يخرج من النّفق الشّمالي، ووقفت صورتك أمامي. كان هذا كلّه حلمًا لكنّ الشّعور بأنّه حقيقي كان كبيرًا جدًّا، لذلك حين استيقظت لم أستطع أن أرى فرقًا بين الحلم والواقع. هذا الرّجل الجبّار برأس حليق ساطع ويرتدي ثيابا بيضاء، أنت تعرفه أليس كذلك؟

عند هذه النّقطة اهتزّ أرتيوم وكأنّ كلّ شيءٍ يسبح أمامه وكانت الصّورة الّتي وصفها خان له واضحة في عقله. الرّجل الّذي اشترك بنصف اسم منقذه كان هنتر، خان، هو... رأى أرتيوم نفس الرّؤيا، حين لم يستطع أن يقرّر إن كان سيشارك في هذه الرّحلة أم لا، رأى هنتر لكن ليس بالمعطف المطري الأسود الطّويل الّذي كان يلبسه في فدنكه في ذلك اليوم المشهود، وإنّما في ثياب ببياض الثّلج لا شكل لها.

نعم، أعرف هذا الرّجل، قال أرتيوم وهو ينظر إلى خان بطريقة جديدة تمامًا.

لقد غزا أحلامي وأنا لا أغفر ذلك عادة أبدًا، ولكن كلّ شيء كان مختلفًا معه. قال خان متحيّرًا. هو احتاج إلى مساعدتي كما احتجتها أنت، ولم يأمرني أن أفعل ولم يطلب منّي أن أخضع إلى إرادته، لكنّه سألني بإلحاح أن أفعل. لم يكن يقدر على الزّحف إلى الدّاخل والتّجوّل عبر أفكار الآخر، لكنّه كان يمرّ في ظرف صعب، صعب جدًّا. كان يفكّر بك في يأس ويحتاج إلى يد تساعده وكتف يستند إليه. مددت يدي له وأعطيته كتفي وذهبت لملاقاتك.

غرق أرتيوم في أفكاره الّتي كانت تفور وتطفو إلى شعوره واحدة تلو الأخرى، وتذوب دون أن تعبّر عن نفسها بكلمات أبدًا، ثمّ تغوص إلى أعماق ذهنه. فقد كان لسانه متيبّسًا واستغرق الشّاب وقتًا طويلًا حتّى استحضر كلمة واحدة. هل عرف هذا الرّجل فعلًا بوصوله مسبقًا؟ هل أنذره هنتر بذلك بطريقة ما؟ هل هنتر حيّ أم أنّه تحوّل إلى ظلّ بلا جسد؟ هل كان سيصدق هذه القصّة الغريبة الهذيانيّة عن عالم الجحيم الّذي صوّره خان فيها؟ لكن من الأسهل والألطف له أن يعتبر الرّجل مجنونًا، أمّا المهمّ هو أنّ هذا الرّجل يعرف شيئًا ما عن المهمّة الّتي تواجهه، لقد سمّاها (مهمّة) وربّما تعذّب كثيرًا حتّى عرف ماذا تكون، وفهم أهميّتها وخطورتها.

إلى أين ستذهب؟ سأل خان أرتيوم بهدوء، وهو ينظر إليه جيّدا كما لو أنّه يقرأ أفكاره. قل لي أين دربك وسأساعدك للقيام بخطوتك الأولى نحو هدفك إن كان ذلك ضمن قدرتي.. لقد طُلِب منّي أن أفعل ذلك.

(بوليس) قال أرتيوم بزفرة: يجب عليّ أن أصل إلى بوليس.

وكيف تنوي الوصول إلى هناك من هذه المحطّة البائسة؟ سأل خان. يا صديقي يجب عليك أن تصعد إلى الرّينغ من بروسبيكت مير إلى كورسكايا، ومن ثمّ إلى كييفسكايا.

رجال الهانسا هناك ولا أعرف أحدًا منهم، لهذا لن أستطيع المرور عبرها. وفي كل الأحوال أنا الآن لا أستطيع العودة إلى بروسبيكت مير، كما أخشى أن لا يكون بمقدوري تحمّل رحلة أخرى عبر ذلك النّفق، لذلك فكّرت في الوصول إلى تورغينيفسكايا. نظرت إلى خريطة قديمة ولم أجد فيها ممرًّا إلى سريتنسكايا بولفار، هناك شبه نفق يمكن الوصول إلى تروبنايا عبره. أخذ أرتيوم خريطة متفحّمة من جيبه: من تروبنايا هناك ممرّ إلى تسفيتنوي بولفار رأيته على الخريطة، ومن هناك إن سار كلّ شيء بشكل جيّد يمكن الوصول إلى بوليس مباشرة.

كلّا، قال خان بحزن وهو يهزّ رأسه: لن تصل إلى بوليس عبر ذلك المسار. الخريطة تكذب، فقد طبعوا الطّريق قبل أن يحدث كلّ شيء، وصفوا خطوط المترو الّتي لم تُبنى بشكل تامّ أبدًا، ووصفوا المحطّات الّتي انهارت ودفنت المئات من الأبرياء، ولم يقولوا شيئًا عن الأخطار المخيفة المخبّأة على طول الطّريق والّتي تجعل أغلب خطوط الرّحلات مستحيلة. خريطتك غبيّة وساذجة مثل طفل عمره ثلاث سنوات. أعطني إيّاها. مدّ إليه يده.

أعطاه أرتيوم قطعة الورق مُذعنًا، فلواها خان فورًا ورماها في النّار. اعتبر أرتيوم هذا نوع من التّطرّف لكنّه قرّر أن لا يتنازع مع خان حولها، في حين قال خان: والآن أرني الخريطة الّتي وجدتّها في حقيبة ظهر صديقك.

بحث أرتيوم في أشيائه ووجد الخريطة، لكنّه لم يكن مُندفعًا ليعطيها لخان، فقد كان يفكّر بالمصير البائس الّذي ربّما ينتظرها ولم يرد أن يظلّ بلا أيّ خريطة. لاحظ خان خوفه وأسرع يُطمئنه:

لن أفعل شيئًا لها، لاتقلق وثق بي، فأنا لا أفعل شيئًا أبدًا بدون مبرّر. ربّما رسمت انطباعًا أنّ بعض أفعالي لا معنى لها ومجنونة حتّى، لكن هناك مغزى وأنت لم تفهمه لأنّ بصيرتك وفهمك للعالم محدود. فأنت في بداية دربك فقط وصغير جدًّا فعلًا لتعرف بعض الأشياء.

أعطى أرتيوم خريطة بوربون إلى خان، فهو لا يملك القوّة ليعترض. كانت قطعة مصفرّة من الورق المقوّى بحجم البطاقة البريديّة، وعليها كرات متلألئة وكلمات (سنة جديدة سعيدة 2007) إنّها ثقيلة جدًّا، قال خان بصوت أجش، وانتبه أرتيوم إلى راحة يد خان الّتي تحمل قطعة الورق المقوّى، والّتي سقطت فجأة على الأرض كما لو كان وزنها أكثر من كيلو. فمنذ دقيقة واحدة لم يلاحظ أرتيوم أيّ ثقل فيها حين حملها بيده، فالورق ورق.

هذه الخريطة أذكى وأعقل من خريطتك، قال خان: إنها تحتوي على معرفة واطّلاع كبير، ولا أعتقد أنّها تخصّ الشّخص الّذي كان يسافر معك. هي ليست معلّمة بكلّ هذه التّدوينات والإشارات، ومع ذلك فهي لا تقول الكثير فقط وإنّما تقول أيضًا أنّ لك شيئًا فيها...

تفجّرت كلماته بقوّة.

نظر أرتيوم للأعلى وحدّق بخان، كانت جبهة خان محفورة بتجاعيد عميقة وبدت النّار المحتضرة تومض في عينيه. تبدّل وجهه كثيرًا جدًّا لذلك خاف أرتيوم وأراد الخروج من المحطّة بأسرع ما يمكن وأن يذهب إلى أيّ مكان، حتّى لو عاد إلى النّفق المرعب الّذي نجح في عبوره بصعوبة كبيرة.

أعدها إليّ. لم يكن خان يطلب بل يعطي أمرًا: سأعطيك واحدة أخرى ولن تعرف الفرق بينهما وسأعطيك أيّ شيء آخر تريده، تابع قائلًا.

خذها، إنّها لك. سلّمها لأرتيوم بسهولة وبصق قليلًا حين تفوّه بكلمات الاتّفاق.

ابتعد خان عن النّار فجأة، لذلك كان وجهه في الظّلال. ظنّ أرتيوم أنّه كان يحاول أن يسيطر على نفسه، ولم يرده أن يشاهد صراعه الدّاخلي.

كما ترى يا صديقي، تردّد صدى صوته في الظّلام ضعيفًا جدًّا ومتردّدا، خاليًا من القوّة والإرادة الّتي تمتّع بها قبل دقيقة واحدة. تلك ليست خريطة، أقصد أنّها ليست مجرّد خريطة، إنّها دليل ومرشد إلى المترو. نعم، نعم، ليس هناك شكّ في هذا. والشّخص الّذي يحملها يستطيع عبور المترو كلّه في يومين، لأنّ هذه الخريطة حيّة أو شيء ما... فهي تخبرك بنفسها أين تذهب وكيف تذهب وتحذّرك من الأخطار. إنّها تقودك وتُرشدك إلى طريقك، ولهذا السّبب تُسمّى دليلًا. تحرّك خان نحو النّار مرّة أخرى بحرف كبير: سمعت بها وهناك عدد قليل جدًّا منها في المترو كلّه، وربّما كانت هذه الأخيرة، إنّها إرث واحد من أقوى السّحرة في العصر الأخير.

السّاحر الّذي يجلس في أعمق نقطة في المترو؟ قرّر أرتيوم أن يُفاجىء خان ببعض المعرفة لكنّه توقّف مختصرًا، عندما أصبح وجه خان قاتمًا.

لا تتكلّم باستهزاء أبدًا عن أشياء لا تعرف شيئا عنها، فأنت لا تعرف ماذا حدث في أعمق نقطة في المترو، وحتّى أنا لا أعرف سوى القليل ولن نعرف أبدًا. لكن أستطيع أن أقسم لك أنّ ماحدث هناك كان مهمًّا ويختلف بشكل دراماتيكيّ عما سمعته من أصدقائك. لهذا لا تُردّد تخيّلات النّاس الكسولة لأنّك ستدفع ثمن ذلك في يوم ما. وهذا ليس له علاقة بالدّليل.

حسنًا على كلّ حال، عجّل أرتيوم ليطمئنه فلم يكن راغبًا بتضييع فرصة تحويل المحادثة إلى وجهة أقلّ خطورة. تستطيع الاحتفاظ بالدّليل لنفسك. أخيرًا فأنا لا أعرف كيف أستخدمه وأنا ممتنّ جدًّا لك لأنّك أنقذتني، وإعطاء هذه الخارطة لك لا يسدّد فضلك عليّ.

ذلك صحيح، ارتاح وجه خان المتغضّن وأصبح صوته ناعمًا من جديد: أنت لن تعرف كيف ستستعملها لمدّة طويلة من الآن. لهذا إن أعطيتها لي سنتعادل. ولديّ خارطة عاديّة لخطوط المترو، وإن أردت أستطيع أن أنسخ عليها العلامات الّتي على الدّليل من أجلك. وأخرج مصباحًا غريبَ الشّكل لا يحتاج إلى بطاريّات، فهو مصنوع كي تشحنه هكذا يدويًّا، هل ترى العقدتين الصّغيرتين؟ عليك أن تضغطهما بأصابعك وهما تصنعان التّيّار بنفسيهما ويسطع المصباح. إنّه ليس قويًّا طبعًا ولكن هناك أوضاع سيبدو فيها هذا الشّعاع أكثر سطوعًا من المصابيح الزّئبقيّة الّتي في

بوليس.. لقد أنقذني مرّات كثيرة وأرجو أن يُثبت أنّه نافع، خذه إنّه لك. خذه، خذه، فالتّجارة ليست عادلة بأيّ حال، وأنا من هو مدان لك وليس العكس.

في رأي أرتيوم كان التّبادل مواتيا وغير عادل فعلًا. فما هي حاجته بخريطة ذات مواصفات خفيّة باطنيّة إن كان أصمًّا بالنّسبة لصوتها؟ سوف يرميها ويتخلّص منها بأيّ حال، بعد تقليب الأمر في رأسه مرّة تلو أخرى ومحاولته الفاشلة في قراءة الأشكال اللّولبيّة المرسومة عليها.

إنّ المسار الّذي رسمت مسودّته لن يأخذك إلى أيّ مكان سوى الهاوية، تابع خان المحادثة الّتي انقطعت وهو يحمل الخريطة بعناية كبيرة في يده. تفضّل خذ خريطتي القديمة واتبعها. ومدّ له خريطة صغيرة جدًّا، طُبعت على الجانب الآخر من رزنامة جيب قديمة. كنت تتحدّث عن ممرّ من تورغينيفسكايا إلى سريتينسكي بولفار أليس كذلك؟ ولا تقل لي أنّك لا تعرف السّمعة الرّديئة لهذه المحطّة، والنّفق الطّويل الّذي يذهب من هنا إلى كيتاي غورود؟

حسنًا، قيل لي أن لا أذهب فيه لوحدي، والأكثر أمنًا الذّهاب عبره في قافلة وكنت أفكّر في الذّهاب في قافلة حتّى تورغينيفسكايا، ثمّ أهرب منها إلى ممرّ التّحويلة هناك، وهم لن يطاردونني بالتّأكيد، أجاب أرتيوم وشعر بأفكار غامضة تسبح في رأسه.

ليس هناك أيّ ممرّ تحويلة، إنّ القناطر مسدودة بجدران، ألا تعرف ذلك؟

كيف أمكنه أن ينسى ذلك؟ طبعًا، قيل له عن هذا من قبل لكنّ المعلومة طارت من رأسه، كان الحمر يخافون من الشّياطين في ذلك النّفق وسدّوا الطّريق الوحيد إلى تورغينيفسكايا.

لكن ألا يوجد أيّ ممرّ آخر هناك؟ سأل باهتمام.

كلّا، والخريطة صامتة حيال ذلك، الممرّ إلى الخطوط الّتي بُنيت فعلًا لا يبدأ في تورغينيفسكايا. ولكن حتّى لو وُجِد هذا الممرّ، فأنا لست واثقًا أنّ لديك الشّجاعة الكافية للانفصال عن المجموعة والذّهاب فيه. خصوصًا إن استمعت إلى الإشاعات الأخيرة عن ذلك المكان الجميل وأنت تنتظر لتنضمّ إلى القافلة.

إذًا، ماذا يجب أن أفعل؟ سأل أرتيوم في جزع وهو يتفحّص الرّزنامة الصّغيرة.

من الممكن الوصول إلى كيتاي غورود. أوه، الآن هي محطّة فضوليّة والأخلاق هناك مضحكة جدًّا، ولكن هناك على الأقلّ لن تختفي بلا أثر لدرجة أنّ أصدقاءك المقرّبين سوف يتساءلون إن كنت قد وُجدت في هذا العالم. في ترغينيفسكايا يمكن أن يحدث ذلك. من كيتاي غورود، تابعني الآن، كان يتتبّع إصبعًا على الخريطة، هناك محطّتان فقط إلى بوشكينسكايا وهناك ممرّ إلى تشيخوفسكايا، ثمّ هناك واحد آخر ومن بعده بوليس.

سيكون هذا مسارًا أقصر من الّذي رسمته لنفسك.

كان أرتيوم يحرّك شفتيه وهو يعدّ المحطات والتحويلات في كل مسار، ولكن رغم ذلك فالمسار الّذي اقترحه خان أقصر بكثير وأقلّ خطرًا، ولم يفهم أرتيوم لماذا لم يفكّر هو به، ولهذا لم يبق خيار آخر.

أنت على حقّ، قال أخيرًا. وكم مرّة تذهب القوافل إلى هناك؟

ليس كثيرًا كما تخشى، ولكن هناك تفصيل صغير واحد مزعج وهو: أنّه عليك أن تأتي إلى شبه محطّتنا الصّغيرة من الشّمال، لكي تذهب في النّفق الجنوبي إلى كيتاي غورو، وأشار إلى ذلك النّفق اللّعين الّذي نجح أرتيوم بالكاد في المرور منه. لقد غادرت آخر قافلة إلى الجنوب منذ برهة، ونحن نرجو أن تكون هناك جماعة أخرى تُخطّط للعبور من خلاله قريبًا. ويجب أن تتحدّث إلى بعض النّاس وتسأل من حولك، ولكن لا تكثر الحديث، يوجد بعض السّفّاحين هنا ولا يمكنك الوثوق بهم. حسنًا، سأذهب معك لهذا لن تتورّط في عمل غبيّ، أضاف بعد التّفكير في الأمر.

كان أرتيوم سيرتدي حقيبة ظهره حين أوقفه خان بإيماءة: لاتقلق حول أشياءك. النّاس هنا يخافونني كثيرًا لدرجة لايجرؤ أحد من الدّهماء حتّى أن ينظر إلى مخبأي. وطالما أنت هنا فإنّك في حمايتي.

ترك أرتيوم حقيبته قرب النّار لكنّه أخذ بندقيّته الآليّة معه، فهو لا يرغب أن ينفصل عن كنزه الجديد. وعجّل ليلحق بخان الّذي كان يمشي في طريقة متروية نحو النّيران الّتي تشتعل في الطّرف الآخر من القاعة. لاحظ باندهاش كيف لفّ المتشرّدون الجياع أنفسهم بخرق نتنة، وابتعدوا راكضين عنهما حين مرّا. فظنّ أرتيوم أنّ النّاس هنا خائفون من خان، وتساءل عن السّبب.

أوّل نار اجتازها خان لم تبطّىء من سيره. كانت نارا صغيرة جدًّا تشتعل بالكاد وكان هناك شخصان(رجل وامرأة) يجلسان بجانبها، انضغطا بقوّة إلى بعضهما البعض. كانا يهمسان بهدوء في لغة غير معروفة، وكانت همساتهما تتبعثر ولا تصل إلى مسمع أرتيوم. كان أرتيوم مفتونا لذلك أدار رأسه تقريبًا ولم يستطع أن يقاوم النّظر إلى هذين الزّوجين (الاثنين).

أمامهما نار أخرى كبيرة في أحد أطرافها معسكر كامل من النّاس الّذين انتشروا حولها، وجلس عدد من الفلّاحين الّذين تبدو القسوة على وجوههم، يدفّئون أيديهم. علا صوت قهقة قويّة ومزّق الجوّ صوت جدال صاخب لدرجة شعر فيها أرتيوم بقليل من الخوف، فتباطأ في سيره أمّا خان فمشى بهدوء وثقة نحو الرّجال الجالسين وألقى عليهم التّحيّة وجلس بجانب النّار، لذلك لم يكن أمام أرتيوم إلّا أن يحذو حذوه ويجلس بجانبه.

كان ينظر إلى نفسه ورأى أنّ الطّفح الجلديّ نفسه على يديه وفي إبطيه، شيء منتفخ وقاس ومؤلم فعلًا. تخيّل الرّعب... أناس مختلفون يتصرّفون بطرق مختلفة. فبعض النّاس يقتلون أنفسهم بالرّصاص مباشرة، وبعضهم يُصابون بالجنون ويبدأون برمي أنفسهم على أناس آخرين ويحاولون معانقتهم لكي لا يموتوا وحيدين، وبعض منهم يركضون في داخل النّفق وراء الرّينغ إلى الأماكن الخلفيّة المنعزلة لكي لا ينشروا

العدوى بين الآخرين.. هناك كل أنواع النّاس. لهذا حالما رأى الفتى كل هذا، سأل طبيبه: هل هناك أيّ فرصة لي في التّحسّن؟ أخبره الطّبيب بشكل مباشر: لا أبدًا، فبعد ظهور الطّفح الجلديّ ليس لديك سوى أسبوعين لتعيشهما. أخذ قائد الكتيبة مسدّسه المكاروف من قرابه من قبيل الاحتياط خوفًا من أن يتصرّف الشّاب تصرًّفا عنيفًا.

كان الرّجل المتكلّم رجلًا عجوزًا نحيلًا له دقن كثّة، ويرتدي سترة مبطّنة، وصوته يتلعثم بسبب قلق حقيقيّ وهو ينظر إلى العيون الرّماديّة الدّامعة من حوله.

رغم أنّ أرتيوم لم يفهم محور حديثه، إلّا أنّ الحيويّة الّتي سردت فيها القصّة والصّمت الثّقيل الّذي أطبق على الجماعة المشاغبة، جعلاه يرتعد ويسأل خان بهدوء كيلا يلفت الانتباه:

عمّا يتحدّث هذا الرّجل؟

عن الطّاعون، أجاب خان ببطء. (لقد بدأ)

تلك الكلمات نفثت رائحة النّتن من الأجساد المتفسّخة، والدّخان الملوّث النّاتج عن حرق الجثث، وتردّدت أصداء أجراس الإنذار وعويل الصّفّارات اليدويّة.

لم يكن هناك أيّ وباء في فدنكه ومحيطها، فقد أُبيدت الجرذان الّتي تحمل العدوى، وكان هناك أطبّاء مهرة أيضًا في المحطّة. قرأ أرتيوم في الكتب فقط عن تلك الأمراض المعدية، وصادف بعضها حين كان صغيرًا وتركت أثرًا عميقًا في ذاكرته وسكنت طويلًا عالم أحلام طفولته ومخاوفها. لم يسأل خان عن أيّ شيء آخر وأصغى بانتباه مزعج إلى قصّة الرّجل النّحيل في المعطف المبطّن.

لكنّ رايجي لم يكن من ذلك النّموذج ولم يكن معتوهًا. وقف هناك بصمت لدقيقة واحدة وقال: أعطوني بعض الخرطوشات وسأذهب، لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن. فسمعت قائد الكتيبة وهو يتنهّد بارتياح مباشرة. فقد كان واضحًا أنّه ليس هناك أيّ متعة في إطلاق الرّصاص علي أحد أفرادك إن كان مريضًا.. أعطوا رايجي مخزنين. ثمّ ذهب إلى الشّمال الشّرقي وراء افياموتورنايا، ولم نره ثانية. لكنّ قائد الكتيبة سأل طبيبنا فيما بعد عن المدّة الّتي يستغرقها المرض حتّى يفعل فعله. فقال الطّبيب إنّ فترة الحضانة أسبوع، فإن لم يظهر شيء بعد أسبوع من التّماس معه فأنت لست مصابًا بالعدوى. لهذا قرّر قائد الكتيبة عندئذ: نحن سنغادر المحطّة ونبقى هنا لمدّة أسبوع وبعده سنرى. لا نستطيع أن نبقى داخل الرّينغ، فإن اخترق الوباء المعدي الرّينغ عندها سيموت المترو كلّه. لهذا مكثنا بعيدين عن المترو لمدّة أسبوع كامل. لم يذهبوا إلى بعضهم البعض حتّى، لنتمكّن من معرفة أيّ مصاب بيننا. وكان هناك فتى آخر ندعوه كوب لأنّه يحب أن يشرب كثيرًا. ابتعد الكلّ عنه لأنّه كان يمضي الكثير من وقته مع ريجي، فإذا اقترب من أحدنا هرب منه إلى الطّرف الآخر من المحطّة، وقد صوّب بعض الشّبّان السّبطانة إليه طالبين منه الرّحيل. وعندما نفد الماء من كوب شاركوه في مائهم طبعًا، لكنّهم كانوا يضعونه على الأرض ثمّ يبتعدون ولا يقترب منه أحد. بعد أسبوع فُقِد كوب، وقال النّاس أشياء

مختلفة بعد فقدانه، حتى أنّ بعضهم لفقوا الأكاذيب وقالوا إنّ وحشًا سحبه. لكنّ النّفق كان هادئًا ونظيفًا ولا وجود للوحوش. لم تصب العدوى أيّ واحد من قوّاتنا، وانتظرنا وقتًا أطول ثمّ فحص قائد الكتيبة بنفسه كلّ واحد منّا وتبيّن له أنّنا سليمون.

لاحظ أرتيوم أنّ الحلقة حول القصاص كانت فارغة رغم هذا التّأكيد والاطمئنان، كما لو أنّه لم يكن هناك متّسع عند النّار نهائيًّا وأنّ كلّ واحد كان يجلس ملتصقًا بالآخر كتفا بكتف.

هل استغرق منك الوصول إلى هنا وقتًا طويلًا يا أخي؟ سأله رجل ذو لحية غزيرة ويرتدي معطفا مطريًّا جلديًّا، بهدوء ولكن بوضوح.

حوالي ثلاثون يومًا منذ أن خرجنا من افياموتورنايا، ردّ الرّجل النّحيل وهو ينظر إليه بارتباك.

إذًا لديّ أخبار لك: يوجد طاعون في افياموتورنايا. هناك طاعون، هل تسمع؟ الهانسا أغلقتها وكذلك تاغانسكايا وكورسكايا. لقد فرضوا الحجر الصّحّيّ. لديّ معارف هناك، مواطنون من هانسا. وهناك يقف قاذفو اللّهب في المعابر إلى تاغانسكايا وكورسكايا، ويبيدون كلّ من يأتي ضمن مرماهم، يسمّونه تطهير. تستمرّ فترة الحضانة لمدّة أسبوع لدى البعض لكنّها تستغرق فترة أطول عند قسم آخر، لهذا أنت جلبت لنا العدوى بالتّأكيد، ختم قائلًا وهو يخفض صوته بشكل شرّير.

ماذا؟ تعالوا يا رجال: أنا سليم، تفحّصوا أنفسكم. قفز الفتى الصّغير الحجم من مكانه وبدأ يتجرّد من معطفه المبطّن بحركة متشنّجة، بعجالة خشية أن لا يقنعهم ليريهم جسده القذر تحته.

تصاعد التّوتر، ولم يبق أحد قرب الرّجل النّحيل وتجمّعوا كلّهم على الجانب الآخر من النّار. كان النّاس يتحدّثون بعصبيّة، وقد سمع أرتيوم الصّليل الهادىء لأقفال البنادق. فنظر إلى خان مستفسرًا، سحب بندقيّته من كتفه إلى وضعيّة الإطلاق وسدّد أمامه. التزم خان الصّمت لكنّه أوقفه بإيماءة، ثمّ نهض بسرعة ومشى بعيدًا عن النّار بهدوء، وأخذ أرتيوم معه. وعلى بعد عشر خطوات تجمّد لينظر إلى ما كان يحدث.

ظهرت حركات سريعة ونشطة على ضوء النّار، وبدت مثل نوع من الرّقص البدائيّ المتهوّر. صمت الحديث واستمرّ الفعل في صمت مشؤوم. وأخيرًا نجح الرّجل في نزع قميصه الدّاخلي وهتف بابتهاج:

انظروا، أنا نظيف، أنا سليم، لا يوجد شيء هنا، أنا سليم.

سحب الرّجل الملتحي الّذي يرتدي صدرة، لوح خشب من النّار كان طرفه يحترق، واقترب بحذر من الرّجل النّحيل ونظر إليه في اشمئزاز. لون جلد الرّجل الثّرثار داكنًا بسبب القذارة، ويلمع بالدّهن. ولكن لم يكن فيه أي طفح جلديّ بقدر ما استطاع الرّجل الملتحي رؤيته، والّذي أمره بعد تفحّص شامل: ارفع ذراعيك.

رفع الرّفيق البائس يديه بسرعة وأعطى النّاس المحتشدين في الطرف الآخر من النّار منظرًا لإبطيه اللّتين ملأهما شعر رفيع. قدّم الرّجل الملتحي عرضًا وهو يمسك أنفه حين اقترب أكثر، وتفحّص بشكل دقيق جدًّا وبحث عن أورام لكنّه لم يجد أيّ عرض للطّاعون.

أنا سليم.. سليم، هل اقتنعتم الآن؟ صاح الرّجل النّحيل الّذي أصابه الهرع الآن تقريبا.

كان هناك همس عدائيّ في الحشد. وبعد تقييم المزاج الكليّ الّذي لم يرغب في الخضوع له، أعلن الرّجل الأضخم:

حسنًا، لنفترض أنّك سليم، فهذا لا يعني شيئًا.

لماذا لا يعني شيئًا؟ بُوغت الرّجل النّحيل ويئس فورًا.

ذلك صحيح. ربّما لم تُصَب بالمرض. ربّما كنت محصّن. لكنّك لاتزال تحمل العدوى. هل كان لك أيّ تماس مع الفتى ريجي؟ هل كنت في نفس القوّة العسكريّة؟ هل تحدّثت معه وشاركته في الماء؟ هل صافحته باليد؟ أنت صافحته باليد، لا تكذب يا أخي.

وماذا في ذلك، ماذا لو صافحته باليد؟ أنا لم أُصَب بالمرض، ردّ الرّجل بارتباك، وكان عاجزًا ومتجمّدًا ومتضايقًا من تحديق الحشد. لهذا إصابتك بالعدوى، يا أخي، ليست مستحيلة. ولهذا أنا آسف لكنّنا لا نستطيع أن نخاطر. إنّه أمر وقائيّ يا أخي، أتفهم؟

فكّ الرّجل الملتحي إزارة صدرته الّتي انحسرت عن قُراب مسدّس جلديّ بنيّ. وكان هناك فورات مشجّعة، وأصوات أخرى من نزع أقفال البنادق عند النّار.

يا فتيان، لكن أنا سليم، أنا لا أحمل المرض، انظروا. ورفع الرّجل النّحيل ذراعيه، ولكنّ الكلّ جفلوا باشمئزاز وبنفور واضح.

أخذ الرّجل الضّخم مسدّسه من قرابه وسدّده إلى الفتى الّذي لم يستطع أن يفهم ما يحدث على مايبدو، وكان يتمتم أنّه سليم ويعصر معطفه المبطّن إلى صدره، فالجوّ قارس وهو بدأ يشعر بالبرد.

لم يستطع أرتيوم تحمّل ذلك، فسحب قفل بندقيّته وتقدّم خطوة نحو الحشد دون أن يعرف بالضّبط ماذا يوشك أن يفعل. كانت هناك كتلة في حفرة بطنه وواحدة التصقت برقبته أيضًا، لهذا لم يقدر أن يتفوّه بكلمة. لكنّ شيئًا ما في هذا الشّخص وعيونه الفارغة واليائسة والتذمّر الآليّ الّذي لامعنى له، علق في داخل أرتيوم ودفعه لأن يتقدّم خطوة للأمام. لم يكن واضحًا ماذا سيفعل بعدها، لكنّ يدًا وضعت على كتفه ويالها من يد ثقيلة.

توقّف، أمره خان بهدوء وتجمّد أرتيوم مثل جثّة، وشعر أنّ تصميمه الهشّ قد تشظّى على غرانيت إرادة شخص آخر. لاتستطيع أن تساعده، إمّا أن تُقتَل أو تجلب على

نفسك الغضب والانتقام، لن تكتمل مهمّتك في كلا الحالتين ويجب عليك أن تتذكر ذلك.

في تلك اللّحظة انتفض الرّجل النّحيل فجأة وصرخ متمسَّكا بسترته المبطّنة، وبتلويحة قفز على الدّرب واندفع في داخل المجرى الأسود للنّفق الجنوبي بسرعة خارقة، وهو يصرخ مثل حيوان بريّ. ارتعش الرّجل الملتحي ولحق به وحاول أن يسدّد على ظهره لكنه توقّف ولوّح بيده. ولم يكن واضحًا إن كان الرّجل المُطارَد يعرف المكان الّذي كان يركض إليه، أو ربّما كان يأمل بمعجزة، أو أنّ الخوف مسح كلّ شيء من رأسه.

بعد عدّة دقائق دوّت صرخة مزّقت صمت النّفق الرّهيب الممل بشكل مؤلم، وسكت صدى خطواته فجأة كما لو أنّ الصّوت انطفأ. حتّى الصّدى تلاشى فجأة وساد الصّمت مرّة أخرى. كان هذا غريبًا جدًّا وغير عاديّ للسّمع والعقل البشري، لذلك حاول الخيال أن يملأ الفجوات وتراءى لهم أنّهم سمعوا صرخة نائية، ولكن أدرك كلّ واحد منهم أنّها كانت وهمًا.

أبناء آوى تعرف دائمًا حين يمرض واحد من قطيعها يا صديقي، قال خان لأرتيوم الّذي كاد أن يسقط للوراء حين لاحظ النّار النّهمة في عيني خان. الحيوان المريض عبء على القطيع وتهديد لصحّته، يمزّقونه إربًا إربًا، كرّر كما لو أنّه يُضيف نكهة لما قاله.

لكن هؤلاء ليسوا أبناء آوى، وجد أرتيوم الشّجاعة أخيرًا ليعارض خان الّذي بات يعتقد فجأة أنّه تجسيد لجنكيز خان، هؤلاء بشر.

وماذا ستفعل لهم؟ تفادى خان الإجابة. انحطاط. دواؤنا بمستوى أبناء آوى. وهناك الكثير من الإنسانيّة فينا أيضًا. لهذا...

عرف أرتيوم كيف يعترض على هذا أيضًا، لكنّ الجدال مع الحامي الوحيد له في هذه المحطّة الوحشيّة لم يكن ملائمًا. أمّا خان الّذي توقّع اعتراضًا، قررّ بوضوح أن أرتيوم استسلم وعاد إلى المحادثة حول موضوع مختلف.

لهذا يجب علينا الآن وبينما يُهيمن موضوع الأمراض المعدية وأساليب مكافحتها على نقاشات أصدقائنا، أن نطرق بعض الحديد وإلّا فإنّهم لن يقرّروا التّحرّك إلى الأمام لأسابيع، على الرّغم من أنّ الأسابيع هنا تمرّ وتطير دون أن تُلاحظ.

كان النّاس الّذين عند النّار يناقشون ما حدث بهياج. وكانوا متوتّرين وقلقين وغطّاهم الظّلّ الشّبحيّ للخطر الرّهيب. والآن يحاولون أن يقرّروا ماذا سيفعلون بعد ذلك، لكنّ أفكارهم كانت مثل فئران المختبر في متاهة تدخل في دوائر وهي تبحث يائسة بفضول في الأزقّة المظلمة وتندفع مسرعة ذهابًا وإيابًا بلا معنى، وغير قادرة أن تجد المخرج.

أصدقاؤنا قريبون جدًّا من الذّعر، علّق خان الّذي كان معتدًّا بنفسه ومبتسمًا. ونظر بمرح إلى أرتيوم. علاوة على ذلك هم يشكّون أنّهم أعدموا للتّوّ رجلًا بريئًا بلا محاكمة، وهذا الفعل لا يحفز التّفكير المنطقي. الآن نحن لا نتعامل مع جماعة

بشريّة وإنّما مع قطيع. وهي حالة مثاليّة لاستغلال نفسيّاتهم وروحهم، فلا يمكن للشّروط أن تكون أفضل.

شعر أرتيوم بعدم الارتياح مرّة أخرى وهو يرى نظرة الانتصار على وجه خان. وحاول أن يبتسم ردًّا عليه، فأوّلًا وأخيرًا أراد خان أن يساعده، ومع هذا خرجت الابتسامة هزيلة وغير مقنعة.

الشّيء الرّئيسي الآن هو السّلطة، القوّة، فالقطيع يحترم القوّة وليس النّقاش المنطقي، أضاف خان مُومئًا برأسه: قف وراقب. ستتمكّن من المضيّ في طريقك في أقلّ من يوم واحد. وبهذه الكلمات أخذ عدّة خطوات وحشر نفسه داخل الحشد.

لا نستطيع أن نظلّ هنا. هدر صوته وسكتت محادثة الحشد. وأصغى النّاس إليه باهتمام، فخان يستخدم موهبته الجبّارة في التّنويم المغناطيسي والإقناع. ومن خلال كلماته الأولى شعر الجميع وكأنّ الخطر معلّق فوق كلّ شخص منهم. وعندها تأكد أرتيوم من أنّ الجميع سيغادرون المحطّة، ولن يبق أحد منهم بعد ما قاله خان.

لقد تلوّث الهواء هنا، وإن تنفّسنا فترة أطول سنهلك، فالعصيّات في كلّ مكان هنا وسنُصَاب بها بالتّأكيد إن بقينا وقتًا أطول. سنموت كالجرذان ونتعفّن في وسط هذه القاعة علي الأرض، ولن يأتي أحد لمساعدتنا، ليس هناك أيّ أمل، ولا يمكننا الاعتماد إلّا على أنفسنا. يجب أن نخرج من هذه المحطّة الشّيطانيّة الّتي تموج بالمكروبات بأسرع ما نستطيع. وإن غادرنا الآن كلّنا فلن يكون عبور النّفق صعبًا، لكن علينا أن نفعل ذلك بسرعة.

صدر ضجيج موافقة من النّاس، فأغلبهم لم يستطيعوا الاحتجاج ضدّ قوّة الإقناع الهائلة عند خان مثلهم مثل أرتيوم. أمّا أرتيوم فكان يشعر بالقلق وهو يتتبّع كلمات خان حول الظّروف والمشاعر الّتي اقترحها خان عليهم. وهي مشاعر التّهديد والخوف والذّعر والأمل الضّعيف الّذي كان يكبر حين استمر خان في الحديث عن اقتراحاته بخصوص النّجاة والفرار.

كم يبلغ عدد الموجودين هنا؟

بدأ عدّة أشخاص يعدون الجماعة المتجمّعة فورًا. فكانوا ثمانية من دون أرتيوم وخان.

هذا يعني أنّه ليس هناك ما ننتظره، فنحن عشرة أشخاص لهذا نستطيع المرور في النّفق.

بيّن خان دون أن يسمح للنّاس بالعودة إلى رشدهم واستمرّ قائلًا: اجمعوا أشياءكم، يجب أن نغادر خلال ساعة. أسرع لنعد إلى النّار يجب أن تأخذ ممتلكاتك أيضًا، همس خان لأرتيوم وهو يجرّه نحو الخيمة الصّغيرة. الشّيء الأهم هو أن لا تدرك ماذا يجري. وإن تأخّرنا سيبدؤون بالتّساؤل إذا كان الأمر يستحقّ أن يغادروا من أجله ويذهبوا إلى كريستاي برودي، فبعضهم كان متوجًّها إلى الجهة المعاكسة وبعضهم كان يعيش هنا وليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه. يبدو أنّني سآخذك إلى

كيتاي غورود وإلا، حسب ما أخشى، فسوف يتيهون أو ينسون إلى أين كانوا ذاهبين ولماذا.

وضع أرتيوم أشياء بوربون الممتازة وذات القيمة في حقيبة ظهره بسرعة. وبينما كان خان يلفّ قطعة قماشه المشمّع ويُطفىء النّار، رأى أرتيوم ما يجري في الطّرف الآخر من القاعة. فالنّاس الّذين كانوا مفعمين بالحيويّة في البداية والّذين تجمّعوا بسرعة كعائلة، بدؤوا يتحرّكون ببطء وحيويّة أقل. وأحدهم كان يقرفص بجانب النّار وآخر يتجوّل نحو مركز المنصّة من أجل شيء ما، وهناك شخصان يُناقشان شيئًا ما لوحدهما. حين أدرك أرتيوم ما يجري شدّ كمّ خان وحذّره قائلًا: إنّهم يناقشون الأمر.

واحسرتاه، مناقشة الأشياء ميزة بشريّة موروثة، ردّ خان: حتّى لو قمعت إرادتهم وحتّى لو كانوا منوّمين مغناطيسيًّا يظلّون منجذبين نحو بعضهم البعض ويبدؤون الحديث. فالإنسان كائن اجتماعي ولا يمكنك فعل شيء إزاء ذلك. وأنا أقبل بأيّ نشاط إنساني كفكرة دينيّة أو نتيجة محتومة للتطّور، اعتمادًا على الشّخص الّذي أتكّلم معه. ولكن في هذا الوضع لا أقبل فواقعة أنّهم يفكّرون ليست جيّدة. ويجب أن نتدخّل هنا ياصديقي الصّغير وأن نوجّه أفكارهم نحو الدّرب الأكثر نفعًا، ختم قائلًا وهو يضع صرّة سفره الهائلة على ظهره.

أُطفئت النّار وخيّم الظّلام الملموس والكثيف عليهم من كلّ الجهات.

وصل أرتيوم إلى جيبه وأخرج مصباحه الكهربائيّ وضغط زرّه. طنّ شيء داخل الأداة وعادت الحياة للمصباح، وتناثر ضوء مترجرج وغير منتظم منه.

تابع، تابع، اضغطه ثانية ولا تخف، شجّعه خان، يمكنه أن يعمل بطريقة أفضل من تلك.

حين صعدا إلى الآخرين وجدوهم وقد توفّر لهم الوقت الكافي لتهبّ عبر عقولهم تيّارات النّفق المذقة، أقلّ اقتناعا باقتراح خان. وتقدّم الرّجل القويّ صاحب اللّحية إلى الأمام.

اسمع يا أخي، استدار إلى رفيق أرتيوم بلا اكتراث.

شعر أرتيوم أنّ الهواء تكهرب حول خان دون النّظر إليه حتّى. ويبدو أن هذه الألفة والحميميّة قد أغضبت خان. من بين كلّ النّاس الّذين عرفهم أرتيوم كان خان آخر شخص توقّع أن يراه غاضبًا جدًّا. هناك هنتر أيضًا، لكنّه بدا لأرتيوم أنّ دمه أبرد بكثير وأنّه من المستحيل رؤيته غاضبًا جدًّا. وربّما يقتل أناسا وعلى وجهه نفس التّعبير الّذي يكون على وجوه الآخرين حين يغسلون الفطر أو يُعدّون الشّاي.

نحن ناقشناه وفكّرنا به، استمرّ الرّجل الضّخم: إنّك تطارد عواصف ثلجيّة هنا. فبالنّسبة لي مثلًا الذّهاب إلى كيتاي غورود غير ملائم لي بتاتًا وهؤلاء الفتيان ضدّه أيضًا. هل هذا صحيح يا سيمينيتش؟ التفت إلى الحشد طالبًا الدّعم.

أومأ واحد من الحشد برأسه موافقًا، ولكن بجبن. أكثرنا كانوا ذاهبين إلى بروسبيكت مير وإلى هانسا، إلى أن بدأت هذه المسألة. لهذا نحن سننتظر هنا ومن ثمّ سنتحرّك. لم يبق شيء هنا بأيّ حال فقد حرقنا أشياءه. ولا تجعلنا نفكّر بشأن الهواء، فهذا ليس وباء رئويّ وإن أُصِبنا بالعدوى فقد أُصِبنا وليس هناك ما يمكن فعله. والاحتمال الأكبر هو عدم وجود أيّ تلوّث هنا، لهذا يمكنك أن تغرب عن وجهي أنت واقتراحاتك يا أخي.

وأصبحت طريقة الرّجل الملتحي متجرّدة من الكلفة بشكل أكبر.

بوغت أرتيوم بهذا الهجوم وارتبك قليلًا وشعر أنّ الرّجل قد وقع في مشكلة حين استرق النّظر إلى رفيقه. فهناك لهب داخليّ برتقاليّ يحترق في عيون خان وحقد وحشيّ وقوّة تأتي منه، لذلك شعر أرتيوم بقشعريرة وبدأ شعر رأسه بالوقوف وأراد أن يكشف عن أسنانه ويزأر.

لماذا قتلته إن لم يكن هناك تلوّث؟ سأل خان بمكر وبصوت ناعم متعمّد.

كان ذلك عملًا وقائيًّا، أجاب الرّجل الضّخم بنظرة وقحة

كلّا يا صديقي، هذا ليس علاجًا، هذه جريمة. من الّذي أعطاك الحقّ لفعلها؟

لا تناديني بالصّديق، أنا لست كلبك، أتفهم؟ زمجر الرّجل الملتحي: أيّ حقّ لديّ؟ حقّ القويّ، ألم تسمع به؟ وأنت لست بالضّبط... ونحن قادرون على أن ننال منك ومن طفلك اللّقيط أيضًا، كإجراء وقائيّ، أتفهم؟ بإيماءة مألوفة مسبقًا لأرتيوم، فتح الرّجل صدرته ووضع يده على قراب مسدّسه.

لم ينجح خان في إيقاف أرتيوم هذه المرّة، وكان الرّجل الملتحي ضمن شعيرات تسديد بندقيّة أرتيوم الآليّة قبل أن يستطيع فكّ أزرار قراب مسدّسه. كان أرتيوم يتنفّس بشكل ثقيل، وقلبه يدقّ بقوّة والدم يخفق في صدغيه، ولم يكن هناك فكرة عاقلة في رأسه. لم يعرف سوى شيء واحد وهو أنّه سيشدّ الزّناد فورًا، إذا ما قال الرّجل الملتحي شيئًا واحدًا آخر أو إذا تابعت يده طريقها إلى المسدّس. لم يُرد أرتيوم أن يموت كما مات ذلك الفتى المسكين، فهو لن يدع القطيع يمزّقه إربا.

تجمّد الرّجل الملتحي في مكانه ولم يتحرّك مع وميض شرّير في عينيه الدّاكنتين. ثمّ حصل شيء غير مفهوم فقد أخذ خان خطوة كبيرة إلى الأمام فجأة ونظر إلى عيني الرّجل وقال بهدوء:

توقّف. ستطيعني أو تموت.

وخبت نظرة الرّجل الملتحي المُهدِّدة، وتدلّت يداه الواهنتان بجانب جسده. وبدا الأمر غير طبيعيّ أبدًا، لذلك لم يشكّ أرتيوم في أنّ التّأثير على الرّجل لم يكن سببه بندقيّته الآليّة وإنّما كلمات خان.

لا تناقش حقوق القويّ أبدًا، فأنت أضعف من أن تفعل ذلك، قال خان وعاد إلى أرتيوم دون أن يجرّد الرّجل من سلاحه.

وقف الرّجل الضّخم ساكنًا ينظر من طرف لآخر. وكان النّاس ينتظرون سماع ما سيقوله خان بعد ذلك. فقد استعاد سيطرته على الوضع.

سنعتبر المسألة مقفلة وأنّ الإجماع قد تمّ التّوصل إليه، نحن سنغادر بعد خمس عشرة دقيقة. والتفت إلى أرتيوم وقال: هل قلت ناس؟ كلّا يا صديقي إنّهم وحوش، هم قطيع من أبناء آوى، كانوا يحضّرون إلى تمزيقنا إربًا، وكانوا سيفعلون لكنّهم نسوا شيئًا واحدًا، هم أبناء آوى ولكن أنا ذئب، وهناك بعض المحطّات لست معروفًا فيها إلّا بهذا الاسم.

كان أرتيوم ساكتًا مصعوقًا بما رأى، وفهم أخيرًا بمن كان خان يذكّره.

لكنّك أنت جرو ذئب، أضاف بعد دقيقة دون أن يلتفت حوله، لكن أرتيوم سمع النّغمات الدّافئة غير المتوقّعة في صوته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السّابع: خانية الظّلام

كان النّفق فارغًا ونظيفًا تمامًا، والأرض جافّة. هبّ نسيم لطيف في وجوههم، ولم يكن هناك جرذ واحد حتّى أو ممرّات جانبيّة تُثير الرّيبة أو بقع من الظّلام فاغرة فمها على الجانبين. هناك أبواب مقفلة، وبدا أنّ العيش ممكن في هذا النّفق كأيّ واحدة من المحطّات الأخرى. ولكن الأكثر من ذلك أنّ هذا الهدوء الغير طبيعيّ تمامًا والنّظافة، لا يعنيان أنّهما لم يكونا متنبّهين وعلى حذر فقط، بل بدّدا على الفور أيّ خوف من الموت أو الاختفاء. هنا بدت الأساطير حول أناس اختفوا مثل تلفيقات سخيفة، وبدأ أرتيوم يتساءل إن كان المشهد الوحشيّ مع الرّجل التّعيس الّذي ظنّوا أنّه مصاب بالطّاعون قد حدث فعلًا، وربّما كان مجرّد كابوس انتابه بينما كان غافيًا على قطعة المشمّع بجانب نار الفيلسوف الجوّال.

كان أرتيوم وخان يرفعان المؤخّرة بما أنّ خان كان قلقًا من أن يهرب الرّجال من المجموعة واحدًا تلو الآخر. ومن ثمّ حسب رأيه لن يصل أحد إلى كيتاي غورود. كان يمشي بجانب أرتيوم بهدوء وكأنّ شيئًا لم يحدث، وباتت التّجاعيد العميقة الّتي حُفِرت في وجهه أثناء المناوشة في زوخاريفسكايا ملساء الآن. لقد مرّت العاصفة والّذي يمشي بجانب أرتيوم الآن الحكيم والمتعقّل خان وليس خان الغاضب جدًّا. لكنّ أرتيوم كان متأكّدا من أنّ التّحوّل لن يستغرق أكثر من دقيقة واحدة.

أرتيوم الّذي أدرك أنّ الفرصة التّالية لشدّ السّتارة عن أسرار المترو جانبًا قد بدأت فلم يستطع أن يكبح نفسه وسأل:

هل تفهم ماذا يجري في هذا النّفق؟

لا أحد يعرف ذلك ومنهم أنا، أجاب خان متردّدا: نعم، هناك أشياء لم أعرف عنها شيئًا. إنّ الشّيء الوحيد الّذي أستطيع أن أخبرك به هو أنّه هاوية. أنا أُسمّي هذا المكان بالثّقب الأسود. ربما لم ترَ نجما أبدًا؟ أم، هل قلت أنّك رأيت واحدًا سابقًا؟ وهل تعرف أيّ شيء عن الكون؟

حسنًا، نجم محتضر يمكن أن يبدو مثل ثقب حين يزول ويتأثّر بطاقة جبّارة لا تُصدَّق، ويبدأ في استهلاك نفسه ويأخذ المادّة من الخارج إلى الدّاخل إلى المركز، ويصغر حجمه بشكل مستمرّ ويزداد ثقله وكثافته. وكلّما ازدادت كثافته ازدادت جاذبيّته، وهذه العمليّة غير معكوسة. مثل الانهيار مع الجاذبيّة المتزايدة باستمرار، تسحب الكميّة المتزايدة من المادّة بشكل أسرع فأسرع إلى قلب المسخ، وفي مرحلة معيّنة تبلغ قوّته مرتبة يمتصّ فيها جيرانه وكلّ المادّة الموجودة ضمن حدود تأثيره وحتّى أمواج الضّوء أخيرًا. تسمح له القوّة العملاقة بالتهام أشعّة الشّموس الأخرى ويكون الفراغ الّذي حوله ميّتا وأسودًا، ولا يملك كلّ من في حيازته القوّة للابتعاد عنه. هذا يكون نجم الظّلام، شمس سوداء حولها البرد والظّلام فقط. هدأ وهو يستمع إلى محادثة الأشخاص الّذين يسيرون أمامهما.

لكن ماعلاقة ذلك بالنّفق؟ لم يستطع أرتيوم أن يقاوم السّؤال بعد خمس دقائق من الصّمت.

أنت تعرف أنّني أمتلك موهبة البصيرة، وأنجح أحيانًا في رؤية المستقبل والماضي، وأحيانًا أستطيع نقل عقلي إلى أماكن أخرى. لكن أحيانًا يكون غير واضح ومخفيّ بالنّسبة لي، فمثلًا أنا لا أعرف كيف ستنتهي الرّحلة، ومستقبلك عمومًا غامض بالنّسبة لي. إنّه مثل النّظر عبر ماء متّسخ لا تستطيع تمييز أيّ شيء فيه. لكن حين أحاول النّظر في الّذي حدث هنا أو أن أفهم طبيعة هذا المكان، فليس هناك سوى الظّلام أمام عينيّ وأشعة أفكاري لا تعود من الظّلام المطلق لهذا النّفق، لهذا أنا أسمّيه ثقبًا أسود. هذا كلّ ما أستطيع أن أقوله لك عنه، وسكت.. لكن بعد بضع دقائق أضاف: ولهذا السّبب أنا هنا.

لهذا أنت لا تعرف لماذا يكون النّفق آمنًا تمامًا أحيانًا ويبتلع النّاس أحيانًا أخرى؟ ولماذا لا يأخذ إلّا الأشخاص الّذين يسافرون لوحدهم؟

أنا لا أعرف أكثر ممّا تعرفه أنت عن ذلك رغم أنّني أحاول منذ ثلاث سنين حلّ هذا اللّغز، لكن عبثًا حتّى الآن.

كان لخطواتهم صدى بعيد، وكان الجوّ هنا شفّافا والتّنفّس سهلًا بشكل مدهش. ولم يكن الظّلام مُخيفًا. لم تُثِر كلمات خان فيه الحذر أو القلق واعتقد أرتيوم أنّ رفيقه خان لم يكن كئيبًا بسبب أسرار النّفق ومجازفاته، وإنّما من عدم جدوى استقصاءاته. وكان انشغاله وقلقه خجولًا وسخيفًا في رأي أرتيوم. هذا هو الممرّ ولا توجد فيه أيّ تهديدات فهو مستقيم وفارغ، حتّى أنّ لحنًا صاخبًا بدأ يُعزَف في رأسه ويبدو أنّه أصبح خارجيًّا دون أن يلاحظه، لأنّ خان نظر إليه ساخرًا وسأل:

هكذا إذًا، أليس هذا ممتعًا؟ أليس المكان هنا جميلًا؟ هادىء جدًّا ونظيف جدًّا، أليس كذلك؟

نعم، وافق أرتيوم مبتهجًا.

شعر بالإشراق والحريّة في روحه لأنّ خان فهم مزاجه وتأثّر به أيضًا. كان يمشي مبتسمًا غير محمّل بأفكار ثقيلة، ويعتقد أيضًا أنّ هذا النّفق...

والآن، أغمض عينيك، وسآخذك من يدك لكي لاتتعثّر... هل ترى أيّ شيء؟ سأل خان بقلق وهو يعصر رسغ أرتيوم بلطف.

كلّا، أنا لا أرى أيّ شيء سوى ضوء قليل من المصباح الكهربائيّ عبر جفوني، قال أرتيوم متأسّفا وهو يضغط عينيه ويغلقهما صاغرًا. وفجأة صاح بهدوء: بالضّبط، جيّد، لقد فعلتها. لاحظ خان ذلك وهو راض. شيء جميل، أليس كذلك؟

مذهل... الأمر يشبه عندما... لا يكون هناك سقف، ويكون كلّ شيء أزرق للغاية... يا إلهي يا له من جمال، ويا لسهولة التّنفّس.

تلك ياصديقي هي السّماء. إنّها غريبة، أليس كذلك؟ إن استرخيت وأغلقت عينيك في المزاج الصّحيح هنا، عندئذ يراها كثير من النّاس. إنّها غريبة طبعًا، حتّى هؤلاء

الذين لم يذهبوا إلى السّطح أبدًا يرونها. والشعور كما لو أنّك نزلت على السّطح... قبل أن يحدث كلّ ذلك.

وأنت هل تراه؟ سأل أريتوم الّذي كان سعيدًا لدرجة أنّه لم يكن يرغب أن يفتح عينيه.

كلّا، قال خان بشكل غامض.كلّ واحد يراه تقريبًا لكن أنا لا أراه. أنا أرى الظّلام السّميك والسّاطع في النّفق وحوله فقط. ربّما عرفت ما أقصد، الظّلام في الأعلى والأسفل وعلى الجوانب، وخيط صغير من الضّوء فقط يمتدّ إلى داخل النّفق، ونحن نتبعه حين نكون في المتاهة. ربّما كنت أنا أعمى أو لربّما كل واحد آخر أعمى.

حسنًا افتح عينيك، فأنا لست كلب دليل ولا أنوي أن أقودك من يدك إلى كيتاي غورود، وترك رسغ أرتيوم.

حاول أرتيوم أن يتابع سيره بعيونه المغلقة لكنّه تعثّر على تقاطع وكاد أن يسقط على الأرض مع حمله كلّه. وأخيرًا رفع جفنيه متردّدًا وظلّ ساكتًا لمدّة طويلة ثمّ ابتسم بغباء بعد ذلك.

ماذا كان ذلك؟ سأل أخيرًا

خيالات، أحلام، مزاج، كلّ شيء معًا، ردّ خان: لكنّه متبدّل جدًّا. فهو ليس مزاجك أو أحلامك. هناك الكثير منّا هنا ولم يحدث أيّ شيء حتّى الآن، لكنّ المزاج يمكن أن يتغيّر كليًّا وستشعر به. انظر هناك، نحن نخرج إلى تورغينيفسكايا، لقد وصلنا إلى هنا سريعًا، لكنّنا لا نستطيع الوقوف بأيّ ثمن ولو لاستراحة حتّى. سيسأل النّاس على الأرجح ليأخذوا استراحة، لكن ليس كل واحد يشعر بالنّفق، فأغلبهم لا يشعرون بما هو متاح لك حتّى.

يجب أن نستمرّ ونواصل سيرنا الّذي سيكون أصعب الآن.

مشوا داخل المحطّة. وكان الرّخام الكاشف الّذي غلّف الجدران يشبه إلى حدٍّ كبير الرّخام الّذي غطّى الجدران في بروسبيكت مير وزوخاريفسكايا، لكنّ الجدران والسّقف هناك كانت ملوّثة ببقع الدّخان والشّحم لدرجة أنّ الحجارة غير مرئيّة. أمّا هنا فلم تكن ملطّخة ومن الصّعب أن لا تُعجَب بها. لقد ترك النّاس هذا المكان منذ زمن بعيد لذلك ليس هناك أيُّ أثر لحضورهم. كانت المحطّة في حالة جيّدة تُثير الدّهشة كما لو أنّها لم تغمرها الفيضانات ولم تشهد الحرائق. ولولا الظّلام الحالك وطبقة الغبار على الأرض والمنصّات والجدران، لظننت أنّه خلال دقيقة واحدة سيبدأ سيل من المسافرين بالتّدفّق إلى داخلها، أو أنّ قطارًا سيصل بعد إطلاق إشارته الرّخيمة. لم تتبدّل بعد كلّ هذه السّنين.

لقد وصفه له زوج أمّه كلّ هذا في حيرة ورهبة.

ليس هناك عمود واحد في تورغينيفسكايا، فقد حُفرت قناطر منخفضة في الرّخام السّميك على فواصل بعيدة. ولم يكن لمصابيح القافلة القوّة لتبدّد عتمة القاعة

وتَضيء الجدار المقابل، لهذا لم يظهر أيّ شيء وراء تلك القناطر وكأنّ نهاية الكون كانت هناك.

مرّوا عبر المحطة بسرعة وخلافًا لمخاوف خان لم يعبّر أحد عن رغبته في التّوقف من أجل استراحة. وبدا النّاس مشوّشين وبدؤوا يتحدّثون أكثر فأكثر بأنّهم يجب أن يذهبوا بأقصى سرعة ممكنة ليصلوا إلى مكان مأهول.

هل تشعر به، المزاج يتغيّر، قال خان بهدوء ورفع إصبعه كأنّه يحاول أن يتحسّس جهة الرّيح. يجب علينا حقيقة أن نذهب بشكل أسرع، سيشعرون بهذا على جلدهم بشكل لا يقلّ عن شعوري بتصوّفي. ولكن هناك شيء يمنعني من الاعتماد على مسارنا. انتظر برهة قليلة.

أخرج المصباح الّذي سمّاه الدّليل من جيبه بعناية، وبعد أن طلب من الجميع البقاء ساكنين، أطفأ مصباحه وأخذ بضع خطوات طويلة وخفيفة واختفى في الظّلام.

حين ابتعد خرج أحد الرّجال من وسط المجموعة وشقّ طريقه ببطء وعناء نحو أرتيوم، وتكلّم بجبن شديد. لذلك لم يعرف أرتيوم أنّه الرّجل الضّخم الّذي هدّده في زوخاريفسكايا.

اسمع، ليس جيًّدا أن نقف هنا، أخبره بأنّنا جميعنا خائفون، وهناك الكثير منّا، ولكن أيّ شيء يمكن أن يحدث. اللّعنة على هذا النّفق واللّعنة على هذه المحطّة. أخبره أنّنا يجب أن نذهب، هل تسمع؟ أخبره، أرجوك. نظر بعيدًا ثمّ عاد مسرعًا إلى المجموعة.

هذه ال"أرجوك" الأخيرة جعلت أرتيوم يرتعد فقد تفاجأ بها بشكل بغيض. حين تقدّم بضع خطوات للأمام واقترب أكثر من المجموعة، سمع الحديث العام فأدرك فورًا أنّه لم يبق شيئًا من مزاجه الجيّد السّابق.

لقد أصبح رأسه الّذي كانت تعزف فيه أوركسترا صغيرة لحنًا رائعًا فارغًا وهادئًا الآن، ولم يعد يسمع سوى صدى الرّيح الّذي يرنّ بكآبة في الأنفاق المنبسطة أمامهم. هدأ أرتيوم وتجمّد كلّ كيانه وكان يتنظر شيئًا في توتّر، وشعر بتغيير محتوم في خططه، وكان على صواب. فبعد أقلّ من لحظة كما لو أنّ ظلًّا خفيًّا انقضّ عليهم من فوق وأصبح باردًا وغير مريح، ومحا كلّ الشّعور بالسّلام والثّقة الّذي حلّ عليهم حين كانوا يمشون عبر النّفق. تذكّر أرتيوم الآن كلمات خان عن حقيقة أنّ هذا لم يكن مزاجه ولم يكن ابتهاجه وأنّ أيّ تبدّل في الظّروف لا يعتمد عليه هو. دوّر مصباحه حوله بعصبيّة بشكل دائرة، إحساس مستبدّ بهاجس تكوّم على رأسه. توهّج الرّخام الأبيض المغبرّ أمامه بشكل باهت ولم تُزحزح السّتارة الدّخانيّة الكثيفة الّتي تحت القناطر إلى الوراء. وعلى الرّغم من ومضات مصباحه المذعورة وهذا قوّى الوهم بأنّ العالم كان ينتهي وراء القناطر. لم يقدر أرتيوم على ضبط نفسه فعاد راكضًا إلى الآخرين.

تعالَ إلينا يا أخي، قال له أحد ما، لم ير وجهه سابقًا قط. يبدو أنهم كانوا يحاولون توفير بطاريّات مصابيحهم. لا تخف، فأنت شخص ونحن بشر أيضًا. حين تحدث

أشياء كهذه يتوحّد النّاس معًا، ألا تعتقد ذلك؟

عرف أرتيوم تلقائيًّا أنّ هناك شيء ما في الجو، لأنّه كان خائفًا وثرثارًا بشكل غير عاديّ، وبدأ يناقش مع أناس القافلة مخاوفه، لكنّ أفكاره ظلّت ترجع إلى مكان وجود خان. اختفى الرّجل لمدّة عشر دقائق قبل أن توجد أيّ إشارة منه. غريب فهو يعرف أنّ المرء يجب أن لا يدخل هذا النّفق لوحده وألّا يذهب إلّا مع آخرين. فكيف له أن يرحل بتلك الطّريقة، كيف استطاع أن يتحدّى قانون هذا المكان غير المكتوب؟ لا يمكن أن يكون قد نسيه بهذه البساطة أو أنه قرّر أن يثق بحاسّة شمّه كذئب. لم يستطع أرتيوم أن يصدّق ذلك. لقد أمضى خان ثلاث سنوات من حياته يدرس فيها هذا النّفق ولا يحتاج إلى وقت طويل لتعلّم القاعدة الأساسيّة (لا تدخل النّفق لوحدك أبدًا) لكنّ الوقت لم يتوفّر لأرتيوم كي يفكّر بما يمكن أن يحدث لحاميه (خان)، فقد ظهر الرّجل نفسه بلا ضجيج إلى جانبه وعادت الحيويّة للنّاس.

هم لا يريدون التّوقّف هنا أطول من ذلك، إنّهم خائفون، دعنا نواصل السّير وبسرعة، اقترح أرتيوم، وأنا أشعر بشيء غير صحيح هنا أيضًا.

إنّهم ليسوا خائفين بعد، أكّد له خان ذلك وهو ينظر خلفه. ولاحظ أرتيوم أنّ هذا الصّوت الصّلب والأجشّ كان يرتجف. استمرّ خان: وأنت أيضا لم تعرف الخوف بعد، لهذا علينا أن لا نضيّع همسة. أنا خائف.. وتذكّر أنّني لا أستخدم الكلمات باستخفاف. أنا خائف لأنّني غرقت في كآبة المحطّة، لم يستطع الدّليل، ولم يدعني أخطو خطوة أخرى، وإلّا لكنت اختفيت بلاشكّ. لا نستطيع الذّهاب أبعد من ذلك. هناك شيء ما ينتظرنا في الأمام، ولكن هناك ظلام، وبصيرتي لا تخترق ولا أعرف ماذا ينتظرنا بالضّبط. انتبه، رفع الخريطة إلى عيونهما مع حركة سريعة، هل ترى؟ سلّط مصباحك عليها، انظر إلى الممرّ من هنا إلى كيتاي غورود، ولا تقل لي أنّك لم تلاحظ شيئًا؟

دقّق أرتيوم النّظر بالمقطع الصّغير جدًّا من الرّسم بإلحاح شديد لدرجة أنّ عيناه تألّمتا. ولم يستطع أن يكتشف أيّ شيء غير عاديّ، لكنّه لم يمتلك الشّجاعة ليعترف لخان بذلك.

هل أنت أعمى؟ هل فعلًا لم تر شيئًا؟ إنّها سوداء،كلّها، إنّه الموت، همس خان وهزّ الخريطة.

حدّق أرتيوم به باحتراس فبدا له خان مثل رجل مجنون مرّة أخرى. وتذكّر الهراء الّذي حدّثه به جينيا عن الذّهاب في النّفق وحيدًا، وأنّ كلّ من ينجو من النّفق سيظلّ مجنونًا بسبب الخوف، فهل من الممكن أن يكون هذا ما حدث لخان؟

ونحن لا نستطيع الرّجوع أيضًا، همس خان: نجحنا في المرور حينما كان هناك مزاج طيّب، لكنّ الظّلام الآن ينتشر للعيان والعاصفة تختمر. والشّيء الوحيد الّذي نستطيع فعله أن نتقدّم إلى الأمام، ولكن ليس عبر هذا النّفق وإنّما عبر نفق موازي.

لكنّنا لانستطيع أن نذهب بهذا المسار، فهناك الخراب والموت.

إذًا كيف سننتقل؟ سأل أحدهم في حيرة.

سوف نعبر المحطة ونذهب عبر النّفق الموازي، ذلك ما سنفعله، وبأسرع ما يمكن.

أوه كلّا، صاح أحد أفراد المجموعة: كلّ واحد يعرف أنّك لن تأخذ نفق الجهة المعكوسة إن كان النّفق الّذي تواجهه واضحًا، إنّها علامة سيّئة، موت أكيد. لن نذهب في النّفق الّذي على اليسار.

وافقه عدد من الأصوات، وجرّت المجموعة أقدامها.

عمّا يتحدّث؟ سأل أرتيوم.

على ما يبدو أنّه فلكلور محليّ، قال وقطّب جبينه. الشّيطان، وليس هناك وقت إطلاقًا لإقناعهم وليس لديّ القوّة لذلك أيضًا. اسمعوا: (خاطبهم) أنا ذاهب إلى النّفق الموازي، من يثق بي يأتي معي والوداع لمن يبقى.

إلى الأبد... دعنا نذهب، أومأ برأسه لأرتيوم وحمل حقيبة ظهره الثّقيلة في يديه وتسلّق حافّة المنصّة.

تجمّد أرتيوم من حيرته، فمن جهة خان يعرف أشياء عن هذه الأنفاق والمترو عمومًا تفوق بكثير الفهم البشري، ويمكن الاعتماد على ذلك. ومن جهة أخرى هناك قانون ثابت لهذه الآفاق الملعونة لا يمكنك المرور عبرها إلّا مع عدد محدّد من النّاس، لأنّ هذا هو أملك الوحيد في النّجاح.

ماذا يحدث هناك؟ إنّها ثقيلة جدًّا؟ أعطني يدك، مدّ خان راحته له إلى الأسفل وقرفص على ركبتيه.

لم يُرد أرتيوم حقيقة أن يقابل نظرته في تلك اللّحظة، وخشي أن يرى شرارة الجنون، وكان خائفًا جدًّا من أن يرى الوميض في عينيّ الرّجل والّذي رآه سابقًا بضع مرّات. هل فهم خان أنّه لم يرفض نداءات النّاس التّحذيريّة هنا فقط وإنّما تحذيرات النّفق نفسه؟ هل كان كافيًا أن تحسّ بطبيعة النّفق؟ المكان على الخريطة، الدّليل، الشّيء الّذي سدّد عليه لم يكن أسودًا. وأرتيوم مستعدّ كي يقسم أنّه كان لونًا برتقاليًّا باهتًا ككلّ الخطوط الأخرى. لذا هذا هو السّؤال: أيّ منهما هو الأعمى فعلًا؟ ماذا تنتظر؟ ما بك أنت؟ ألم تفهم أنّ التّأخير يقتلنا؟ يدك، حبًّا بالشّيطان أعطني يدك، هكذا صاح خان، لكنّ أرتيوم ابتعد عن خان ببطء وبخطى بطيئة، وظلّ يحدّق بالأرض وتحرّك مقتربًا من الجماعة المتذمّرة.

تعال يا أخي تعال معنا، ولا حاجة للتّحدّث مع ذلك الأحمق، ستكون في أمان أكثر هنا، سمع من الجماعة أيّها المغفّل، ستفنى معهم كلّهم، إن كنت لا تهتم البتّة بحياتك فعلى الأقل فكّر بمهمّتك.

استجمع أرتيوم شجاعته ورفع رأسه أخيرًا وسلّط نظره على بؤبؤي عيني خان المتّسعين فلم يجد فيهما نار الجنون وإنّما اليأس والإنهاك.

بدأ يشكّ في نفسه وتوقّف، وفي تلك اللّحظة مُدّت يد شخص ما بخفّة إلى كتفه وجرّته بلطف.

دعنا نذهب، دعه يمت وحده، هو يريد فقط أن يجرّك معه إلى القبر، هذا ما قاله ذلك الشّخص. شق معنى الكلمات طريقه إليه بشكل ثقيل واستوعبه ببطء، وفي لحظة مقاومة ترك الرّجل يقوده ويُبعده ويلحق بالآخرين.

انطلقت المجموعة وتحرّكت قُدُمًا في ظلام النّفق الجنوبي. كانوا يتحركون ببطء مدهش وكأنّهم احتكّوا بوسط كثيف، كأنّهم كانوا يمشون في الماء.

بعدئذ وثب خان بخفّة غير متوقّعة من المنصّة على الدّرب، وفي قفزتين سريعتين صار إلى جانبهم. انقضّ دفعة واحدة على الرّجل الّذي كان يقود أرتيوم وطرحه أرضًا، ثمّ أمسك بأرتيوم وهزّ جسده باتّجاه الوراء. رأى أرتيوم ذلك في حركة بطيئة فراقب خان وهو يثب من فوق كتفه، ويباغت الرّجل بصمت، وقد استغرق طيران خان عدّة ثوان فقط، وبنفس التّفكير البليد رأى كيف سقط الرّجل ذو الشّوارب والسّترة المشمعيّة والّذي كان يمسك بكتفه، بقوّة على الأرض.

ومنذ اللّحظة الّتي اعترضه فيها خان، بدأ الزّمن يسرع، وبدت له ردود أفعال الآخرين عند سماع صوت الارتطام بسرعة الضّوء. شقّوا أولى خطواتهم نحو خان وبنادقهم مصوّبة عليه، فتراجع خان بهدوء إلى الجانب وضغط أرتيوم إليه بذراع واحدة ورفعه ليقي به جسده. بينما امتدت إلى الأمام يده الأخرى الّتي أمسك فيها ببندقيّة أرتيوم الجديدة الّتي تلمع بشكل باهت.

هيّا استمر، قال خان بصوت أجش: لا أرى أيّ معنى في قتلكم، ستموتون في أيّ حال في غضون ساعة. اتركونا وشأننا واستمرّوا في طريقكم.كان يقول ويتحرّك نحو مركز المحطّة خطوة إثر أخرى، بينما بدأت الأشكال المتجمّدة للأشخاص المتردّدين تتحوّل إلى صور ضليلة غامضة وتندمج مع الظّلام.

سُمِع صوت هياج. ربّما كانوا يساعدون الرّجل صاحب الشّوارب الّذي طرحه خان أرضًا. ثمّ بدأت المجموعة بالتّحرّك نحو النّفق الجنوبيّ، فقد قرّروا أن لا ينضمّوا إلى خان. عندئذ أخفض خان البندقيّة وأمر أرتيوم بحدّة أن يصعد إلى المنصّة.

سأشعر بالقرف من إنقاذك يا صديقي الصّغير إن أتيت بأيّ عمل آخر كهذا، قال بغضب جليّ.

تسلّق أرتيوم صاغرًا ولحق به خان، مشى خان في الفتحة السّوداء بعد أن التقط متاعه، وتبعه أرتيوم بتثاقل.

كانت القاعة في تورغينيفسكايا قصيرة جدًّا. وعلى اليسار زقاق مسدود وجدار رخاميّ وفتحة سوداء. وعلى الجانب الآخر هناك قطعة حديد مموّج فوق ثغرة في الجدار، هذا كلّ ما أمكن رؤيته بواسطة ضوء المصباح. غطّى رخام مصفرّ بفعل الزّمن كلّ المحطّة وقناطرها الثّلاثة الّتي تؤدي إلى الدّرج الّذي يصل هذه المحطّة مع كيستاي برودي، والّتي بدّل الحمر اسمها إلى كيروفسكايا. والّتي سُوِّرت الآن بكتل أسمنتيّة رماديّة قاسية.

كانت المحطّة فارغة تمامًا ولم يكن هناك أيّ شيء على الأرض، أو أيّ أثر للنّشاط البشري ولا لجرذ أو صرصور. وبينما كان أرتيوم ينظر حوله تذكّر حديثه مع

بوربون الذي أكد أنّ الجرذان لا تخاف من أيّ شيء، وإذا لم تجد جرذانًا في مكان ما فهناك خطأ في هذا المكان.

عبر خان القاعة بخطوة سريعة وهو ممسك بكتفِ أرتيوم، بينما شعر أرتيوم من خلال سترته أنّ خان كان يرتجف كما لو أنّه أُصيب بقشعريرة. حين وضعا أمتعتهما على حافّة المنصّة واستعدّا للقفز على الدّرب، ضربهم ضوء ضعيف فجأة من الخلف، واندهش أرتيوم ثانية من السّرعة الّتي ردّ بها رفيقه على الخطر. وفي غضون لحظة قصيرة كان خان منبطحًا على الأرض وينظر إلى مصدر الضّوء.

لم يكن الضّوء قويًا جدًّا لكنّه كان يسطع مباشرة في عيونهما، وكان من الصّعب معرفة من يطاردهم. لحظة تأخير واحدة سقط بعدها أرتيوم على الأرض أيضًا. زحف إلى حقيبة ظهره وأخرج سلاحه القديم الّذي كان يحمله. كان ضخمًا وغير لائق لكنّه يعمل ثقوبًا مثاليّة من عيار 7.62، وأيًّا كان فالطّرف المستقبل منه سيعاني وقتًا عصيبًا في التّعامل مع هكذا ثقوب فيه.

ماهو عملك؟ زمجر صوت خان وأدرك أرتيوم أنّه إن كان هذا الشّخص يريد قتلهما فقد انتهيا مسبقًا.

استطاع أن يرى كيف يبدو الوضع من الخارج، مقرفص بشكل عاجز على الأرض على ضوء مصباح كهربائيّ وضمن شعيرة تسديده أيضًا. نعم لو أراد قتلهما لكانا في بركة من الدّماء الآن.

لا تطلق النّار، صاح صوت: لا حاجة لـ...

أطفىء مصباحك، قال خان وانتقل إلى العمود ليجلب ضوء مصباحه. أمسك أرتيوم أخيرًا بسلاحه وقبض عليه بثبات وتدحرج إلى الجانب إلى خارج خطّ النّار، واختبأ في إحدى القناطر. والآن بات جاهزا للظّهور على الجانب الآخر وجاهزًا لأن ينهيه مهما كان إذا اختار أن يطلق النّار.

لكنّ الغريب نفّذ أوامر خان فور إعطائها.

جيّد، الآن ضع سلاحك على الأرض، قال خان في صوت أقلّ توتّرا.

رنّ المعدن على الأرض الغرانيتيّة، فزحف أرتيوم بشكل جانبيّ وهو يصوّب سلاحه إلى الأمام وظهر في القاعة. لقد حسبها بشكل صحيح فالمسافة من خمس عشرة خطوة أمامه. أضاء ضوء المصباح المنعكس على القناطر، وكان الشّخص بيديه المرفوعتين للأعلى هو نفس الرّجل الملتحي الّذي بدأ المشادّة في زوخاريفسكايا.

لا تطلق النّار، صاح ثانية بصوت مرتعش: لم أكن أخطّط لمهاجمتكا، قررت أن آتي معكما. أنت قلت ليأتي كلّ من يريد... أنا وثقت بك، قال لخان.

أنا أشعر أنّ هناك شيء يحدث أيضًا في النّفق الّذي على اليمين، لقد غادروا توًّا لقد ذهبوا، لكنّي بقيت في الخلف وأريد أن أذهب معكما.

قرار حكيم، قال خان وهو يتفحّص الرّجل باهتمام، لكن يا صديقي أنت لم تنل ثقتي، ومن يعرف لماذا ذلك، أضاف ساخرًا: بدايةً سندرس اقتراحك بشرط أن تسلّم لي كلّ ترسانة سلاحك، وستمشي أمامنا في النّفق، وإن أردت أن تقوم بأيّ عمل أحمق عندها لن تكون النّهاية جيّدة لك.

دفع الرّجل الملتحي مسدّسه على الأرض إلى خان بقدمه، ووضع بحذر عدّة خراطيش إضافيّة بجانبه. فالتقطها أرتيوم من الأرض واقترب منه بعد أن أنزل بندقيّته.

لقد نلتُ منه، صاح

لتظلّ يداك مرفوعتين، هدر خان: واقفز على الدّرب بسرعة، وقف هناك وظهرك بمواجهتنا.

بعد دقيقتين في داخل النّفق كانوا يمشون في مثلّث ضيّق. ومشى الرّجل الملتحي الّذي يُدعى ايس خمس خطوات أمام خان وأرتيوم فسمعوا عواءًا مكتومًا لكنّه توقّف تقريبا بمجرّد أن بدأ.

نظر ايس إلى الوراء، إليهما خائفًا ونسي أن يسلّط مصباحه إلى طرفهما. كان الضّوء يهتزّ في يديه، ووجهه مُضاء من الأسفل وتعلوه تكشيرة رعب قسريّة كان لمنظرها أثر أعظم من العواء على أرتيوم.

نعم، أومأ خان بصمت ردًّا على السّؤال: لقد ارتكبوا خطأ، لكن أظنّ أنّ الزّمن سيقول فيما بعد إن كنّا قد أخطأنا نحن أيضًا.

أسرعوا في سيرهم، وألقى أرتيوم نظرات على حاميه من حين لآخر ولاحظ ازدياد علامات التّعب والإنهاك عليه. يداه كانتا ترتعشان ولم تكن خطوته مستقيمة، تجمّع العرق في قطرات كبيرة على وجهه كما لو أنّه لم يمش من قبل مسافات طويلة أبدًا. هذا الدّرب متعب له بشكل واضح أكثر ممّا أتعب أرتيوم. لم يستطع أرتيوم الّذي ظلّ يفكّر ويتساءل عن الشّيء الّذي استنزف القوّة من رفيقه، الكفّ عن التّفكير فيما إذا كان خان على صواب في هذا وأنّه سينقذه مرّة أخرى أم لا. لو أنّ أرتيوم لحق بالقافلة إلى النّفق الّذي على اليمين لكان ميّتا الآن بلاشكّ ومختفيًا بلا أثر.

ولكن هناك الكثير منهم، ستّة على الأقل. فهل كان القانون الحديديّ غير صحيح؟ خان كان يعرف، يعرف إن كان هاجسًا وتحذيرًا فعليًّا أم كان بفضل سحر الدّليل (الخارطة)... من المضحك أن تفعل قطعة صغيرة من الورق وبعض الحبر عليها كلّ ذلك. هل ساعدتهم قطعة النّفاية تلك فعلًا؟ حسنًا، لقد كان لون الممرّ بين تورغينيفسكايا وكيتاي غورود برتقاليّ بالتّأكيد. أم هل كان أسود اللّون فعلًا؟

ما هذا؟ سأل ايس بعد أن توقّف فجأة ونظر بخوف إلى خان.

هل تشعر بذلك؟ من الخلف...

حدّق أرتيوم به في حيرة وأراد أن يطلق تعليقًا تهكميًّا عن الأعصاب المشحونة، لأنّه لم يشعر بأيّ شيء مهما كان تافهًا. بدأت براثن الإحساس الثّقيل بالكآبة والخطر

تَرخي قبضته منذ أن غادروا تورغينيفسكايا، لكن لدهشته تجمّد خان في مكانه وأومأ له أن يظلّ هادئًا ثمَّ أدار وجهه إلى الجهة الّتي أتوا منها للتوّ.

يا له من إحساس رائع! قال بعد نصف دقيقة: نحن في محل إعجاب وتقدير كبيرين. أضاف لسبب ما: يجب بالتّأكيد أن نناقش هذا بتفصيل أكبر إن خرجنا من هنا. ألم تسمع شيئًا؟ سأل ارتيوم.

كلّا، كلّ شيء يبدو هادئًا، أصغى أرتيوم مستجيبًا. وفي تلك اللّحظة امتلأ بإحساس ما... أهو غيرة أم إهانة أم غيظ؟ لأنّ حاميه قال مثل هذه الأشياء عن الحقير صاحب اللّحية الكثّة الّذي هدّد حياتهما منذ ساعتين فقط؟ من فضلك...

ذلك غريب، أعتقد أنّ لديك بدايات مهارة سماع الأنفاق. ربّما لم تطوّر نفسها تمامًا فيك بعد، ولكنّ ذلك سيأتي لاحقًا، هزّ خان رأسه.

أنت على صواب، أضاف ايس مؤكّدا شكوك الرّجل. شيء ما قادم بهذا الطّريق، يجب أن نتحرّك ونسرع. أصغى ثانية وشمّ الهواء بطريقة ذئبيّة تمامًا.

إنّه يأتي من الخلف مثل موجة، يجب أن نركض، فإن غطّتنا سننتهي، ختم قائلًا وهو يندفع.

كان على أرتيوم أن يعجّل وراءه ويبدأ بالرّكض كي لا يُترَك في الخلف. وكان الرّجل الملتحي يجاريهم في الرّكض بسرعة ويحرّك ساقيه القصيرتين ويتنفّس بصعوبة.

استمرّوا في الرّكض لمدّة عشر دقائق، ولم يفهم أرتيوم طيلة هذا الوقت لماذا كانوا يركضون بهذه السّرعة الكبيرة ويلهثون ويتعثّرون على الوصلات العرضية في النّفق، إذا كان النّفق خلفهم نظيفًا وهادئًا وليس هناك أيّ دليل على أنّهم مطاردين. مرّت عشر دقائق قبل أن يشعروا به. كان يندفع وراءهم بقوّة بالتّأكيد وفي أعقابهم ويطاردهم خطوة بخطوة، إنّه شيء أسود. لم يكن موجة لكنّه كان أشبه بالزّوبعة، زوبعة سوداء، تشقّ في الفراغ، وإن أدركتهم فسيواجهون نفس المصير الّذي واجهه السّتّة الآخرون وكلّ المتهوّرين الآخرين والحمقى الّذين دخلوا النّفق لوحدهم، في وقت مميت حين تثور الأعاصير الشّيطانيّة وتكتسح أيّ شيء حيّ. كانت هذه الافتراضات والاحتمالات الغامضة لما يجري، تندفع عبر عقل أرتيوم فنظر إلى خان بقلق. فردّ خان نظرته وكان كلّ شيء واضحًا.

ماذا، هل سمعته الآن؟ زفر: إنّه عمل سيّء، فهذا يعني أنّه قريب جدًّا.

علينا أن نسرع أكثر، أضاف أرتيوم وهو يركض: قبل أن يفوت الآوان.

زاد خان من سرعته وكان يهرول بخطوات واسعة، ولم يقل شيئًا ولم يردّ حتّى على أسئلة أرتيوم. وتلاشت آثار الإنهاك الّتي رآها أرتيوم على الرّجل وانبثق شيء وحشيّ فيه ثانية.

كان على أرتيوم أن يركض ليجاريه، ولكن حين بدا له أنّهم ابتعدوا عن الشّيء الّذي طاردهم بعناد، تعثّر ايس على الوصلات العرضية وسقط رأسًا على عقب على

الأرض فغطت الدّماء يديه ووجهه.

ركضوا عشر خطوات أخرى بدفع القصور الذّاتي قبل أن يدركوا أنّ ايس سقط، وفكّر أرتيوم بسرعة بأنّه لا يجب أن يتوقّف ويرجع إلى الرّجل، أراد أن يتركه وشأنه، الأبله المتملّق ذو الحدس المذهل. أراد أن يتابع الذّهاب قبل أن يصل الشّيء المخيف إليهم.

كانت فكرة مقزّزة، لكنّ فكرة الهروب الّتي لا تُقَاوَم سيطرت على أرتيوم فترك الرّجل ملقى على الأرض، لذلك ظلّ ضميره صامتًا وشعر بخيبة أكيدة حين اندفع خان إلى الوراء، وبهزّة جبّارة رفع الرّجل الملتحي على قدميه. أرتيوم كان يتمنّى سرًّا أن لا يتردّد خان، وهو صاحب الموقف المزدري واللّا مبالي جًّدا لحياة الآخرين وموتهم، في أن ينسى هذا الرّجل ويتركه في النّفق مثل حمل ويتابع الرّكض.

بعد أن طلب من أرتيوم أن يأخذ بإحدى ذراعي ايس المصابتين، أخذ هو الآخر بيده الأخرى وسحباه معهما. ممّا جعل الرّكض أكثر صعوبة. كان ايس يئنّ ويصرّ على أسنانه من الألم في كلّ خطوة. لكنّ أرتيوم لم يشعر بأيّ شيء من أجله عدا الغضب المتزايد. فالبندقيّة الطّويلة والثّقيلة تضرب بساقيه بشكل مؤلم ولم تكن يده حرّة ليمسك بها.

لكنّ الموت كان قريبًا، فإن توقّفوا لمدّة نصف دقيقة فإنّ الدّوّامة المشؤومة ستدركهم وتضربهم وتمزّقهم إلى جزيئات صغيرة، وخلال ثانية واحدة لن يعودوا من هذا الكون، وستنطلق منهم صيحات الموت بسرعة غير طبيعيّة... هذه الأفكار لم تشلّ عقل أرتيوم وإنّما امتزجت بالحقد والغضب وأعطته قوّة ازدادت في كلّ خطوة.

وفجأة اختفى الشّيء وتلاشى تمامًا، وذهب الشّعور بالخطر فجأة وترك وعي المرء فارغًا بشكل فريد مثل الثّغرة الّتي يخلّفها السّنّ بعد قلعه. وبدا أرتيوم كما لو أنّه يتحسّس بطرف لسانه تلك الثّغرة الآن. لم يكن هناك شيء خلفهم، فقط النّفق النّظيف والجاف والواضح والآمن تمامًا. كلّ ذلك الجري بسبب الخوف والخيالات المريضة والاعتقاد غير الضّروري في نوع من المشاعر الخاصّة والحدس، بدت مضحكة جدًّا لأرتيوم الآن وسخيفة وتافهة جدًّا، لذلك انفجر ضاحكًا. نظر إليه ايس الّذي وقف بجانبه باندهاش أوّلًا ثمّ بدأ بالضّحك هو أيضًا. فنظر خان إليهما بانزعاج وبصق عليهما:

حسنًا، ما المضحك في الأمر؟ أليس رائعًا أن نكون هنا؟ مكان هادىء جدًّا ونظيف جدًّا؟ وتابع المشي لوحده.

عندئذ تأكّد أرتيوم أنّهم كانوا على بعد خمسين خطوة من المحطّة، وأنّ الضّوء كان مرئيًّا بوضوح في نهاية النّفق.

انتظر خان عند المدخل واقفًا على السّلّم الحديديّ. وكان لديه الوقت ليدخّن نوعًا من السّجائر المنزليّة الصّنع، بينما كان أرتيوم وايس يضحكان بعد أن استرخيا تمامًا على بعد خمسين خطوة عنه.

اخترق أرتيوم شعور من التعاطف والشفقة نحو ايس المترنّح الذي كان يئنّ خلال ضحكه، وشعر بالخجل من الأفكار الّتي ومضت في ذهنه هناك حين سقط ايس. وكان مزاجه قد تحسّن بشكل دراماتيكي، لذلك كان منظر خان المتعب والنّحيل وهو يدقّق النّظر بهما بنظرة غريبة من الشّك، مزعجًا قليلًا لأرتيوم.

شكرًا، قعقع حذاء على السّلّم وتسلّق ايس وصعد على المنصّة وهو يقول لخان: لولاك أنت... حسنًا، لانتهى كلّ شيء الآن، لكن أنت لم تتركني هناك. شكرًا لك، وأنا لا أنسى معروفًا كهذا.

لا تقلق، ردّ خان دون حماس.

لماذا رجعت من أجلي؟

أنت ممتع لي كشخص أتحدّث معه، رمى خان عقب سيجارته على الأرض وهزّ كتفيه: هذا كل شيء.

بعد تسلّق بضع درجات فهم أرتيوم لماذا صعد الدّرج وذهب إلى المنصّة ولم يواصل سيره إلى الدّرب. فأمام مدخل كيتاي غورود الفعلي، تكدّست أكوام من أكياس الرّمل بارتفاع قامة الإنسان، وخلف أكياس الرّمل مجموعة من الأشخاص يجلسون على مقاعد خشبيّة، يثير منظرهم الشّعور بالخطر (قصّات شعر قصيرة، وأكتاف عريضة تحت ستر جلديّة بالية، وسراويل رياضيّة رثّة) كلّ هذا بدا مسلّيًا قليلًا لكن لم ينتج عنه أيّ مرح لسبب ما. جلس ثلاثة منهم هناك وعلى المقعد الرّابع وُضعت شدّة ورق لعب بعثرها السّفّاحون حولهم، وكانوا يستخدمون لغة بذيئة جدًّا لدرجة أنّ أرتيوم لم يسمع كلمة عاديّة واحدة في المحادثة.

لا يمكن الدّخول إلى المحطّة إلّا بعد اجتياز درب ضيّق وصعود سلّم صغير ينتهي ببوّابة. ولكن قطريًّا ومن الزّاوية الأخرى من الدّرب، كان هناك زمرة أكثر مهابة تتألّف من أربعة حرّاس. ألقى أرتيوم نظرة عليهم فوجدهم برؤوس محلوقة، وعيون رماديّة دامعة، وأنوف معقوفة قليلًا وآذان قرنبيطيّة، يرتدون سراويل تدريب مع "ت ت" طُبعت على الشّرائط الّتي على الأكمام، وهناك رائحة لا تُطاق من الدّخان الّذي يجعل التّفكير صعبًا.

ماذا لدينا هنا؟ قال الخفير الرّابع بصوت أجشّ وهو يتفحّص خان وأرتيوم خلفه، من الرّأس وحتّى القدم. هل أنتما سيّاح أم ماذا؟ أم تجّار؟

كلّا، نحن لسنا تجّارا، نحن مسافرون وليس لدينا بضائع، قال خان مسافرون، متذلّلون، قال السّفّاح في سجع وقهقه بصوت عال: أتسمع ذلك يا كوليا؟ مسافرون، متذلّلون.. كرّر وهو يوزّع الورق على اللّاعبين.

استجابوا له بحماس، وابتسم خان بصبر.

أسند رجل كالثّور إحدى يديه على الجدار وسدّ طريقهم.

لدينا هنا، نوع من الأعمال الجمركيّة، فهل عرفتم ماذا أقصد؟ حسنًا أنا أقصد أنّ التّداول هنا نقدًا، إذا أردتم المرور عليكم أن تدفعوا، وإن كنتم لا تريدون فاغربوا

عن وجهي.

بأيّ حقٍّ ولمن الامتياز؟ اعترض أرتيوم باستياء.

كان ذلك خطأ، وربّما لم يفهم الرّجل الثّور تمامًا ماذا قصد أرتيوم، لكنّه أدرك النّغمة ولم يحبّها. فدفع خان جانبًا وتقدّم بخطوة ثقيلة وأصبح فوق وجه أرتيوم. خفض ذقنه ورمى الشّاب بنظرة قاسية. عيناه كانتا فارغتين تمامًا وشفّافتين تمامًا، وتفتقران إلى أيّة علامة تدلّ على العقل الصّائب، بل كانتا تنفثان الغباء والحقد. وكان من الصّعب على أرتيوم تحمّل حملقته الّتي جعلته يرمش من التّوتر، ومع ذلك شعر كم كان الخوف والكره يكبران في تلك العينين حين جلسوا هناك عند مدخل النّفق يُراقبون النّاس وهم يمرّون.

ماذا؟ قال الخفير مهدِّدا.

كان أطول من أرتيوم بأكثر من رأس وأعرض منه بثلاث مرّات. عندها تذكّر أرتيوم الأسطورة الّتي حكاها له أحدهم عن داود وجالوت، ورغم أنّه تشوّش ولم يميّز بينهما لكنّه تذكّر أنّها انتهت لمصلحة الأصغر والأضعف منهما، ممّا جعله يتفاءل.

أيًّا كان، هكذا قال أرتيوم وبشكل غير متوقّع بعد أن استجمع شجاعته.

أزعج هذا الجواب الرّجل لسبب ما، ومدّ أصابعه القصيرة والسّمينة وبحركة واثقة وضع أصابعه الخمسة على جبهة أرتيوم. كان الجلد على راحتي يديه أصفرًا وصُلبًا وتفوح منه رائحة التّبغ وشحم العربات، ولم يتسنّ الوقت لأرتيوم ليعرف أكثر عن كلّ النّكهات الكثيرة، لأنّ السّفاح دفعه إلى الخلف.

ومع أنّه لم يستخدم قوّة كبيرة لكنّ أرتيوم طار مترًا إلى الخلف واصطدم بايس الّذي كان يقف خلفه وأسقطه أيضًا. بعد أن سقط الاثنان على الجسر الصّغير عاد السّفّاح إلى مكانه. لكنّ مفاجئة كانت تنتظره هناك، فخان الّذي رمى حقيبته على الأرض وقف هناك ممسكًا ببندقيّة أرتيوم الآليّة في يديه، وقد حرّر مقبض الأمان وبصوت هادىء بيّن وبوضوح أنّه لن يرضى أو يسكت عن هذا التّصرف بحقّ أرتيوم، لذلك وقف شعر رأس أرتيوم بسماعه حين قال:

والآن لماذا أنت فظّ جدًّا؟

لم يقل الكثير لكن هذه الكلمات بدت لأرتيوم الّذي مازال يتخبّط على الأرض ويحاول الوقوف على قدميه والخزي يحرقه، مثل زمجرة وقائيّة فاترة يُحتمل أن تُتْبع بهجوم سريع وصعب. أخيرًا وقف ونزع بندقيّته الآليّة عن ظهره ووجّهها على المجرم بعد أن حرّر قبضة الأمان. والآن هو جاهز ليشدّ الزّناد بأيّ لحظة. كان قلبه يدقّ بقوّة وكره رجح على خوفه بالتّأكيد في ميزان مشاعره، وقال لخان:

دعني أعتني به. وقد اندهش من نفسه كيف كان مستعدًّا لقتل الرّجل دون تردّد عقابًا له. كان رأسه الحليق المبلّل بالعرق مرئيًّا بوضوح في جهاز التّسديد، والإغراء لشدّ

الزّناد قويًّا. بعد ذلك، ماذا سيحدث؟ الأهم الآن، التخلص من قطعة القذارة هذه وإغراقه بدمه.

احذر، زعق الثّور موبًّخا.

سحب خان مسدّسه من حزامه بسرعة البرق وتسلّل إلى الطّرف وسدّد على موظّفي الجمارك الّذين وثبوا من أماكنهم.

لا تطلق النّار، صرخ في أرتيوم بنجاح وجمّد المشهد النّشط مرّة أخرى، كان الثّور واقفًا هناك رافعًا يديه للأعلى على الجسر الصّغير، وخان السّاكن يسدّد على السّفّاحين الثّلاثة الّذين لم ينجحوا في الإمساك ببنادقهم الآليّة من الكومة الّتي صنعوها قربهم.

ليس هناك حاجة للدّم، قال خان بهدوء وحزم.

يوجد قانون هُنا يا أرتيوم، تابع قائلًا، دون أن يحوّل عينيه عن لاعبي الورق الثّلاثة الّذين تجمّدوا في وضعيّات مضحكة.

لقد عرف أصحاب الرّؤوس الحليقة على الأرجح ثمن الكلاشنكوف وقوّته المميتة من هكذا مسافة، لذلك لم يريدوا أن يُثيروا أيّ شكٍّ غير ضروريّ في الرّجل الّذي حجزهم بنظراته.

قوانينهم تُجبرنا أن ندفع ضريبة دخول، كم تأخذون؟ سأل خان ثلاث خراطيش عن كلّ واحد، ردّ الرّجل الّذي على الجسر.

هل سنساوم؟ اقترح أرتيوم ساخًرا ومسدًّدا سبطانة بندقيّته الآليّة على منطقة حزام الرّجل.

اثنتان، قدّم الرّجل بعض المرونة وهو ينظر لأرتيوم بعين شرّيرة، لكنّه لم يبدو واثقًا ممّا سيفعله أرتيوم.

أعطها له، أمر خان ايس: ادفع عنّي اثنتين واعتبره سداد دين.

دفع ايس يده بسرعة في أعماق حقيبة سفره واقترب من الخفير، عدّ له ستّ خراطيش حادّة لمّاعة في يده. ضغط الرّجل قبضته بسرعة عليهما ووضعهما في جيوب سترته النّاتئة، ثمّ رفع يديه مرّة أخرى ونظر إلى خان دون أي يقول شيئًا.

هكذا دُفعت الضّريبة، أليس كذلك؟ سأل خان وقد رفع حاجبيه.

أومأ الثّور برأسه بوقاحة دون أن يرفع عينيه عن سلاح خان.

وسُوِّيت الحادثة؟ سأل خان.

التزم السّفّاح بالصّمت. وصل خان إلى حقيبته الإضافيّة وأخرج خمس خراطيش أخرى ووضعها في جيب الخفير. تلألأت في داخل الجيب واختفت مع تكشيرة التّوتّر الّتي على وجه الثّور الّذي استأنف كسله المعتاد ونظرته المشبوهة.

إنّها تعويض عن الضّرر المعنوي، شرح له خان ذلك ولكن لم يكن للكلمات أيّ أثر.

من المحتمل أنّ الثور لم يفهمها كما لم يفهم السّؤال السّابق. كان يخمّن معنى أقوال خان الحكيمة بواسطة استعداد خان لاستعمال المال والقوّة. فهذه هي اللّغة الّتي يفهمها تمامًا، والوحيدة الّتي يتكلّمها على الأرجح.

يمكنك أن تنزل يديك، قال خان ورفع بندقيّته للأعلى بحذر مُبعِدًا تسديدته عن المقامرين الثّلاثة.

فعل أرتيوم مثل ما فعل خان ولكنّ يداه ظلّتا ترتجفان، وكان مستعدًّا لأن يقتلع جمجمة السّفاح الحليقة بأيّ لحظة. فهو لم يثق بهؤلاء النّاس ولكنّ هياجه مع ذلك بلا أساس. زمجر السّفّاح بعد أن استرخى وأنزل يديه إلى رفاقه بأنّ كلّ شيء سار على ما يرام، واستند على الجدار في وضعيّة غير مبالية تاركًا المسافرين يدخلون الى المحطّة من جانبه. حين مرّ نظر إليه أرتيوم ببغض، ولكنّ الثّور لم يأخذ الطّعم لأنّه ينظر جانبًا.

سمع أرتيوم كلمة مقزّزة (جرو...) وسمع بصقة ترتطم بالأرض. وأراد أن يلفّ ويعود، لكنّ خان الّذي كان يسبقه بخطوة أمسكه من يده وجرّه معه، لهذا كان أرتيوم ممزّقا بين إرضاء دافعه وهو رجوعه لكي يُري الرّجل التّافه شيئًا أو اثنين، وبين نفسه الجبانة التي تريد الخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

حين مشوا كلّهم على أرض المحطّة الغرانيتيّة الدّاكنة سمعوا فجأة خوارًا من أصوات مطوّلة خلفهم (هيه، أعطوني قطعتي)

توقّف خان وأخذ مشط الطّلقات المميّزة "ب ت ت" بطلقاته المدوّرة وقذفه للثّور. أمسك الرّجل المسدّس برشاقة ووضعه في حزامه بعد أن راقب خان وهو يُسقط بعض الطّلقات الزّائدة على الأرض.

آسف، فتح خان راحتيه، عمل وقائي، أليس هذا ما يسمّونه؟ غمز ايس.

كانت كيتاي غورود مختلفة عن المحطّات الأخرى الّتي رآها أرتيوم، فليس فيها ثلاث قناطر مثل فدنكه، وإنّما قاعة واسعة واحدة مع منصّة واسعة مع مسارين على جانبيها. وهي تعطي انطباعًا مرعبًا عن فراغ غير عاديّ. كانت التّجهيزات مضاءة بطريقة مشوّشة جدًّا بمصابيح ضعيفة تشبه الإجاصة تتدلّى هنا وهناك. ولا توجد نار هنا أبدًا ويبدو أنّه غير مسموح بها. في وسط الصّالة هناك ضوء يصبّ ضوءه حول نفسه بوفرة، وهناك مصباح بخاريّ زئبقيّ كان معجزة حقيقيّة بالنّسبة لأرتيوم. لكن هناك ضوضاء تُحيط بها، لهذا يظلّ انتباه الشّخص مشتّتا ولا يستطيع تثبيت نظره على المنظر لأكثر من ثانية واحدة.

يا لها من محطّة كبيرة، تنهّد باندهاش.

أنت لا ترى سوى نصفها في الحقيقة، أخبره خان: كيتاي غورود أكبر ممّا تراه بمرّتين. وهي من أغرب الأماكن في العالم، وأظنّ أن أنّك سمعت بأنّ كلّ الخطوط تلتقي هنا. انظر إلى قضبان السّكّة الحديديّة تلك الّتي على يميننا، تلك فرع تاغانسكو-كرانسوبريزنينسكايا. ومن الصّعب وصف الجنون والفوضى الّتي تجري هناك، وهنا في كيتاي غورود تلتقي بكالوجاسكو-ريجيسكايا البرتقاليّة خاصّتكم ولا

يصدّق أحد من سكان الخطوط الأخرى بما يجري هناك. وهذه المحطة لا تخصّ أيّ فيدراليّة وسكّانها يمثّلون أنفسهم تمامًا. إنّها مكان غريب جدًّا، تسمّى بابل، مع الحبّ، أضاف خان وهو ينظر في المنصّة إلى النّاس الّذين كانوا ينطلقون بسرعة ذهابًا وإيابًا.

كانت الحياة فقاعة في المحطّة، غامضة مثل بروسبيكت مير، لكنّ الأخيرة أكثر تواضعًا وتنظيمًا. تذكّر أرتيوم كلمات بوربون عن أنّ هناك أماكن في المترو أفضل من ذلك السّوق البائس الّذي مرّوا به في بروسبيكت.

هناك صفوف صيانة على طول القضبان الّتي لانهاية لها، والمنصّة مملوءة بالخيام الّتي تحوّل عدد منها إلى أكشاك تجاريّة واستُخدم عدد آخر منها كملاجىء للنّاس. طبعت الحروف سدايو على بعضها وهي الخيم الّتي يستطيع المسافرون قضاء اللّيل فيها. شقّوا دربهم عبر الحشود وهم ينظرون إلى كلا الجانبين، فلاحظ أرتيوم على المسار الّذي على يساره شكل قطار رماديّ أزرق هائل. ولم يكن كاملا فهناك ثلاث عربات فقط.

وهناك هدير لا يوصف في المحطّة، قد بدا أنّ السّكّان لا يصمتون أبدًا ولو للحظة واحدة فهم يتحدّثون باستمرار ويصرخون ويغنّون ويتجادلون بإفراط ويضحكون ويبكون، وتتداخل مع هذا الضّجيج دفقة من الموسيقى في عدّة أماكن، ممّا خلق مزاج إجازة غير عاديّة في حياة تحت الأرض هناك.

في فدنكه أيضًا يوجد أناس يغنّون بحماس، لكنّ الأمر هنا مختلف. فهناك غيتاران فقط وبعض أشخاص يتجمّعون في خيمة أحدهم ليسترخوا بعد العمل، وهناك موسيقى أحيانًا عند حدّ المتر ثلاثمائة يمكن سماعها وهي آتية من النّفق الشّمالي، ويغنّون مع الغيتار عند نار الدّوريّة الصّغيرة، ولكن على الأغلب يغنّون عن أشياء لم يفهمها أرتيوم حقيقة، فهي عن حروب لم يشارك فيها، أديرت وفقًا لقوانين مختلفة وغريبة، وعن الحياة هناك في الأعلى سابقًا.

يتذكّر على نحو خاصّ أغنيات عن مكان ما في أفغانستان، كان أندريه يحبّ أن يغنّيها على الرّغم من أنّه لم يكن يفهم الكثير من هذه الأغاني، فقد كانت كلّها عن الحزن على الأصدقاء القتلى وكره العدو، ومع هذا كان أندريه يغنّي بشكل جيّد. فكلّ من يُصغي إليه يتأثّر كثيرًا وترتجف أصواتهم وتصيبهم قشعريرة.

كان أندريه يشرح للأصغر منه أنّ أفغانستان كانت بلادًا هادئةً، ووصف جبالها وممرّاتها وجداولها الفوّارة والقرى والحوّامات والتّوابيت. عرف أرتيوم أيّ البلاد كانت جيّدة جدًّا، لأنّ سوخوي أمضى زمنًا طويلًا يشرح الأشياء له. لقد عرف أرتيوم شيئًا عن الحكومات وتواريخها، وعن الجبال والأنهار والوديان، إلّا أنّ أفكاره ظلّت مجرّدة بالنّسبة له، وكانت مجرّد كلمات تعبّر عنها صور غير ملوّنة أراها له زوج أمّه في كتاب مدرسيّ عن الجغرافيا. حتّى أندريه لم يزر أفغانستان، كان صغيرًا جدًّا على ذلك، لكنّه سمع الأغاني من أصدقاء له في الجيش أكبر سنًّا منه.

ولكن هل كانوا يعزفون موسيقى كهذه فعلًا في فدنكه؟ كلا، كانت الأغاني كئيبة وحزينة، هذا ما كانوا يغنّونه هناك. وتذكّر أندريه وأغانيه الشّعبيّة البسيطة السّوداويّة وقارنها بالألحان البهيجة اللّعوبة الّتي تصدر من زوايا مختلفة من الصّالة. اندهش أرتيوم مرّة أخرى وأخرى من تنوّع الموسيقى واختلافها وقدرتها الكبيرة في التّأثير على مزاج المرء.

واقترب أرتيوم من الموسيقيّين وتوقّف دون أن يقصد وانضمّ إلى جماعة صغيرة، لا ليصغي إلى كلمات تعبّر عن مغامرات عبر الأنفاق وتحت تأثير الأعشاب المخدّرة، وإنّما ليسمع الموسيقى نفسها. ونظر إلى العازفين باستغراب، فهناك اثنان منهم، واحد بشعر مدهن طويل وقد ربط شريط جلديّ حول جبهته، يلبس أسمال غريبة متعدّدة الألوان، يدندن على الغيتار. والآخر رجل كهل مع بقعة صلع كبيرة ظاهرة، ونظّارات أصلحت مرّات كثيرة، في سترة قديمة باهتة، وكان يسحرهم بنوع من آلة نفخ سمّاها خان (ساكسوفون)

لم ير أرتيوم شيئًا مثل تلك، فالآلة الوحيدة الّتي يعرفها كانت المزمار. وكان هناك أشخاص يعرفون العزف عليه جيّدًا، يقطعون أنابيب عازلة ذات أقطار مختلفة لكنّهم كانوا يصنعونها للبيع فقط، فالنّاس لا يحبّون المزامير في فدنكه. بالإضافة إلى ذلك هناك شبه نوعًا ما بين السّاكسوفون والبوق الّذي كان يُستعمل كصوت إنذار أحيانًا، إن كان هناك ما يُعيق صفّارات الإنذار الّتي كانت تُستخدم عادة.

على الأرض هناك حقيبة غيتار مفتوحة بجانب الموسيقيّين وضعت فيها بضع خراطيش. حين أنهى صاحب الشّعر الطّويل غناءه، قال شيئًا مضحكًا بشكل خاص أرفقه بتكشيرة مسلّية، فقهقه الحشد بفرح شديد وبدأ التّصفيق فطارت خرطوشة أخرى في داخل الحقيبة.

انتهت الأغنية عن المتشرّدين الّتي غنّاها العفريت المسكين، واتّكأ الرّجل ذو الشّعر على الجدار ليرتاح. بعدئذ بدأ عازف الساكسوفون ذو السّترة يعزف نوعًا غير مألوف لأرتيوم لكنّه مشهور هنا بالتّأكيد لأنّ النّاس بدؤوا بالتّصفيق، ومضت بضع خراطيش في الهواء وسقطت في مخمل الحقيبة الأحمر.

كان خان وايس يقفان قرب صينيّة يتناقشان في شيء ما، ولم يطلبا من أرتيوم أن يستعجل. فكان بإمكانه البقاء هناك ساعة أخرى على الأرجح يستمع فيها إلى أغان بسيطة إن لم تتوقّف الأغاني. وفجأة، اقترب شخصان ضخمان من الموسيقيّين في مشية مضطربة، يشبهان كثيرًا السّفاحين الّذين قابلوهم في مدخل المحطّة، ويلبسان مثل ثيابهم. قرفص أحدهما وبدأ يُزيح الخراطيش من داخل الحقيبة بفظاظة، ويضعها في جيب سترته الجلديّة. فاندفع إليه العازف ذو الشّعر الطّويل وحاول أن يوقفه، لكنّه صرعه بسرعة بلكمة قويّة على كتفه وانتزع منه غيتاره ورفعه للأعلى لكي يضربه ويحطّم الآلة على العمود. أمّا السّفاح الثّاني فدفع عازف الساكسوفون الكهل إلى الجدار بقليل من الجهد حين حاول أن يركض ليخلّص صديقه.

لم يتدخّل أحد من المستمعين المحيطين بالموسيقيّين، وتضاءل حجم الحشد بشكل ملحوظ، أمّا الأشخاص الّذين ظلّوا إمّا أنّهم غطّوا عيونهم أو تظاهروا بالنّظر إلى

البضائع التي كانت تَعرض للبيع في صينيّة قريبة. اشتعل أرتيوم وشعر بالخزي من أجل نفسه ومن أجلهم، لكنّه قرّر أن لايتورّط.

أنت وصلت إلى هنا اليوم، قال الموسيقي ذو الشّعر الطّويل الّذي كاد أن يبكي وهو يحمل يده إلى كتفه.

اسمع أنت، إن كنت تستمتع بيوم جيّد فهذا يعني أنّنا نستمتع بيوم جيّد، هل فهمت؟ ولا تبدأ معي، أليس كذلك؟ ماذا؟ أتريد أن تذهب إلى العربة، هل تُريد أنت أيّها اللّوطي المشعر؟ صرخ به السّفاح وهو يقذف غيتاره على الأرض. وكان واضحًا أنّه يلوّح به كإنذار وليس غير ذلك.

عند كلمة (عربة) توقّف الفتى ذو الشّعر الطّويل وهزّ رأسه بسرعة، ولم يقل أيّ كلمة أخرى.

هل فهت أيّها الشّاذ؟ أكمل السّفّاح مشدًّدا على المقطع الأول، وبصق باحتقار على أقدام الموسيقيّ. ولم يقل الموسيقي شيئًا مرّة أخرى. غادر السّفّاحان ببطء بعد أن اقتنعا أنّ التّمرّد قد سُحِق، وذهبا يبحثان عن ضحيّتهم التّالية.

نظر أرتيوم حوله في هلع ورأى ايس الّذي كان يراقب المشهد باهتمام.

من كان هؤلاء؟ سأل أرتيوم بارتباك

حسنًا، من يبدون لك؟ سأل ايس.. إنّهم قطّاع الطّرق المعتادين، فليس هناك سلطة حاكمة في كيتاي غورود لهذا تتحكّم بها جماعتان. وهذا النّصف تحت سيطرة الأخ سلافس. لقد تجمّع كلّ الرّعاع من خطّ غلاجسكو-ريجيسكايا هنا وكلّ السّفّاحين. تُسمّى الغالبيّة كلوجيسكيون، ويُسمّى بعضهم ريجيسكيون. لكنّك لن ترى مثلهم في كالوغا أو في ريغا. هناك عند الجسر الصّغير، وأشار إلى السّلّم الّذي يذهب إلى اليمين وباتّجاه الأعلى في وسط المنصّة، هناك صالة أخرى تشبه تمامًا هذه الصّالة. ولا توجد مثل هذه العربدة فيها، لكنّ المسلمون القوقاز هم الآمرون هناك، وبشكل أساسيّ الأذربيجان والشّيشان. سابقًا كانت مسلخًا حين حاول كلّ طرف منهم السّيطرة على أكبر قدر ممكن من الأرض، وفي النّهاية قسّموا المحطّة إلى نصفين.

لم يكترث أرتيوم بأن يسأل عن (القوقازيين) بعد أن قرّر أنّ هذا الاسم غير المفهوم والصّعب نطقه مثله مثل (الشّيشانيّين) و(الأذربيجانيّين) وتعود إلى محطّات لا يعرفها، ويأتي قطّاع الطّرق منها.

الآن كلا الجماعتين تتصرّف بسلام، استمرّ ايس، يمسكون بهؤلاء الّذين قرّروا أن يتوقّفوا في كيتاي غورود ليكسبوا بعض المال ويفرضوا عليهم ضريبة. الضّريبة نفسها في كلا الصّالتين (ثلاث خراطيش) ولا يهمّ كيف دخلت إلى المحطّة. لا يوجد بالطّبع أيّ نظام هنا إطلاقًا، وهم لا يحتاجونه أساسًا، والشّيء الّذي لا تستطيع فعله هو إشعال النّار. وإن أردت أن تشتري بعض الأعشاب المخدّرة؟ لك ذلك. أتريد بعض المشروبات الكحوليّة؟

اشترِ قدر ما شئت. وتستطيع أن تشحن نفسك بسلاح يمكنه أن يدمّر نصف المترو، ولا مشكلة في ذلك. والدّعارة رائجة ومنتعشة، ولكنّي لا أنصح بها، أضاف وتمتم بشيء عن رأيه الشّخصيّ في ارتباك.

وماذا عن العربة؟

العربة؟ إنّها مثل مراكز قياداتهم. إن أساء أحد التّصرّف أمامهم أو رفض أن يدفع أو كان مدانًا بنقود أو شيء كهذا يجرّونه إلى هناك، حيث يوجد سجن وغرفة تعذيب، وهي مثل حفرة الحساب، والأفضل أن لا يكون المرء هناك. هل أنت جائع؟ بدّل ايس المحادثة إلى موضوع مختلف.

أومأ أرتيوم برأسه. الشّيطان وحده يعرف كمّ مرّ من الوقت على اللّحظة الّتي شربا فيها الشّاي هو وخان في زوخاريفسكايا. لقد فقد المقدرة على التّكيّف مع الوقت بدون ساعات الجدران. ربّما تكون رحلته عبر الأنفاق الغنيّة بالتّجارب الغريبة قد دامت ساعات كثيرة، وربّما مرّت سريعة في غضون دقائق. وبمعزل عن ذلك، كان مرور الوقت داخل الأنفاق مختلفًا تمامًا عن أيّ مكان آخر.

على كلّ حال أراد أن يأكل، فنظر حوله...

كباب، كباب حارّة، وكان تاجر أسمر البشرة، ذو حاجبين أسودين كثيفين تحتهما أنف مقوس، يقف قريبًا منه.

لقد لفظ تلك الكلمات بطريقة غريبة قليلًا، فهو لم يعتد على "ك" قاسية وبدلًا من "ا" أتى الصّوت "و". التقى أرتيوم سابقًا بأناس يتكلّمون بلهجات غير معتادة، لكنّه لم يولِ لها اهتمامًا كبيرًا.

وكلمة كباب كانت مألوفة لأرتيوم، فهم يعدّون الكباب في فدنكه ويحبّونه أيضًا. إنّه لحم خنزير كما هو واضح، ولكن أيًّا كان الشّيء الّذي لوّح به التّاجر فهو بعيد جدًّا عن ذلك. نظر أرتيوم إليه بتوتّر لمدّة طويلة، وأخيرًا تعرّف على جثث الجرذان المتفحّمة بمخالبها الملتوية، فسبّبت له الدّوار.

أنت لا تأكل الجرذان، أليس كذلك؟ سأله ايس بشكل متعاطف.. هذه بعضها. وأومأ برأسه إلى التّاجر الدّاكن البشرة. هم لا يقدّمون لك لحم الخنزير، إنّه محرّم بالقرآن، أمّا الجرذان فجائزة ومباحة، أضاف وهو يتفحّص جائعًا المشواة الّتي يتصاعد منها الدّخان. وأنا أيضًا كنت أشمئزّ، أمّا الآن فقد اعتدت عليه. فهي قاسية قليلًا طبعًا، ونحيلة قليلًا وبمعزل عن ذلك فإنّ للحمها رائحة كريهة قليلًا، ولكن هؤلاء الأبريك، ألقى نظرة أخرى عليه، يعرفون كيف يطبخون جرذًا ولا يمكنك سرقت ذلك منهم. هم يخلّلونه في شيء ما وبعد ذلك يصبح طريًّا مثل لحم الخنزير الرّضيع. ومع التّوابل... وأرخص بكثير.

وضع أرتيوم راحة يده على فمه واستنشق بعمق، وحاول أن يفكّر بشيء آخر ليلهي نفسه. لكنّ جثث الجرذان المغطّاة بالفلفل والبهارات، والّتي حملت على عيدان، ظلّت تسبح أمام عينه، لقد غُرزت العيدان في الأجساد من الخلف وخرجت من أفواهها المفتوحة.

كما تحب لكنّي أدعوك، لهذا انضمّ إلينا، ثلاث خراطيش للسّفود الواحد، أنهى ايس جداله وتوجّه نحو المشواة.

وبعد أن نبّه خان، احتاج أرتيوم للتّجوّل في المحطّة علّه يجد شيئًا عاديًّا أكثر يأكله. نظر أرتيوم في المحطّة كلّها وعُرض عليه الشّراب المخمّر البيتي في كلّ أنواع القوارير، وتفحّص بنهم ولكن بحذر الفتيات شبه العاريات المغريات اللّواتي وقفن عند خيمة رُفعت أطرافها، وهُنّ يقذفن بنظرات مغرية وجذّابة على المارّة، وبالرّغم من سوقيتهنّ كنّ على سجيتهنّ ويتصرفن بحريّة، غير متوتّرات ومقهورات بالحياة القاسية مثل النّساء في فدنكه. تسكّع أرتيوم حول بائعي الكتب قليلًا لكنّه لم يجد شيئًا مهمًّا هناك. كلّ شيء كان أرخص بكثير، هناك كتب جيب عن الحبّ الطّاهر والعظيم من أجل النّساء، وكتب عن الجريمة والمال من أجل الرّجال.

كانت المنصّة بطول مائتي خطوة تقريبا، أطول من المعتاد بقليل. وكانت الجدران والأعمدة المضحكة الّتي تُذكّر بالأكورديونات، مغلّفة بمرمر ملوّن أغلبها أصفر رماديّ ووورديّ في أماكن أخرى. كان طول المحطّة مزيّنًا بصفائح ثقيلة بنوع من معدن أصفر، اسودّ بفعل الزّمن، وعليها رموز لا تُمَيّز إلّا بالكاد أنّها من حقبة سابقة. وكانت السّقوف مسودّة من النّيران والجدران مرقّشة بكثير من النّقوش المعمولة بالدّهان والسّخام، وتُصوِّر صورًا بدائيَّة أغلبها فاحشة. وفي بعض الأماكن كان هناك رقائق كبيرة من المرمر والألواح المعدنيّة بُعِجت وخُدِشت بشكل رديء.

وفي وسط الصّالة وعلى الجانب الأيمن وعبر إحدى مجموعات درجات السّلّم القصيرة وراء الجسر، يمكنك أن ترى محطّة الصّالة الثّانية للمحطّة. أراد أرتيوم أن يتجوّل حولها أيضًا، لكنّه توقّف عند السّياج الحديدي المكوّن من قطّاعات بطول مترين مثل بروسبيكت مير.

وقف عدّة أشخاص بجانب الممرّ الضّيق يستندون على السّياج. على الطّرف الّذي فيه أرتيوم، وكانوا من البلدوزرات المألوفة في سراويل التّدريب، وفي الطّرف الآخر كانوا من ذوي البشرة الدّاكنة وأصحاب الشّوارب من الحجم العادي لكنّه لا يبدو عليهم أنّهم يحبّون المزاح. أحدهم كان يضغط بندقيّة آليّة بين ساقيه وآخر لديه مسدّس برز إلى خارج جيبه. تحدّث قطّاع الطّرق بهدوء مع بعضهم لدرجة لا يمكن أن تُصدّق أنّهم كانوا أعداءً أبدًا. أخبروا أرتيوم بأدب أنّ المرور إلى المحطّة المجاورة يكلّفه خرطوشتين، وأنّه سيدفع مثلهما لكي يعود مرّة أخرى. وبعد أن قام بدورة استكشافيّة درس فيها بحذر الأكشاك والأسواق، عاد إلى طرف المنصّة الّتي وصلوا إليها. كان هناك سلّم آخر يؤدّي إلى الصّالة الّتي لم تنتهي هناك. صعد السّلّم ووجد صالة صغيرة مقسومة إلى نصفين بشريط محميّ بنفس الطّريقة تمامًا، وكما هو واضح كان حدًّا آخر بين المنطقتين. وعلى يمينه رأى لدهشته نُصبا حقيقيًّا، واحدة من تلك الّتي تراها في صور المدينة لكنّه لم يكن شخصًا كاملًا، وإنّما رأس رجل فقط.

ياله من رأس كبير! كان ارتفاعه لا يقل عن مترين، وعلى الرّغم من قمّته الملوّثة بشيء ما، وأنفه اللّامع والمصقول من فرك الأيدي البشريّة المتكرّر، إلّا أنّه ظلّ يفرض الاحترام والخوف حتّى. خطرت بباله قصص العمالقة الخياليّة. خسر أحد العمالقة المعركة في رأسه، والآن غطّس رأسه بالبرونز ليزيّن القاعة المرمريّة لهذه السّدوم الصّغيرة (مدينة الرّذيلة) الّتي دُفِنت عميقًا في قشرة الأرض مختبأة عن عيون الرّبّ الّتي ترى كلّ شيء.

كان وجه الرّأس المقطوع حزينًا، وظنّ أرتيوم في البداية أنّه يخصّ يوحنّا المعمدان في العهد الجديد الّذي تصفحه مرّة (ليف ثرو) لكنّه قرّر بعدئذ وبالحكم من قياسه أنّه ربّما كان على علاقة ببطل كبير وقويّ، كان عملاقًا حقيقيًّا لكنّه فقد رأسه في النّهاية. لم يستطع أحد من السّكّان الّذين كانوا يعدون بسرعة ذهابًا وإيابًا في المكان أن يخبره لمن كان هذا الرّأس المتجهّم، فخاب أمله قليلًا.

ولكن قريبًا من التّمثال صادف مكانًا رائعًا، مطعم حقيقيّ نُصب في خيمة واسعة ونظيفة، ذات لون أخضر غامق لطيف مثل تلك الّتي في محطّته. في الدّاخل مزهريّات من الورود البلاستيكيّة مع قطع قماشيّة في الزّوايا، وزوج من الطّاولات عليهما مصابيح زيتيّة، يغمران الخيمة بضوء ناعم مريح. والطّعام، كان طعام الآلهة، أطرى لحوم الخنزير مع الفطر السّاخن الّذي يذوب في فمك. صحيح أنّ المطاعم تقدّم خدماتها في فدنكه في أيّام العطل، لكنّها لم تكن لذيذة كهذا المطعم.

كان النّاس الجالسون هناك من النّوع القويّ والمحترم، وفي ملابس جيّدة تدلّ على حسن الذّوق. ومن الظّاهر أنّهم تجّار مهمّون. يقطعون قطعًا من قشرة لحم الخنزير المحمّر والّذي كان ينزّ بالدّهن السّاخن بعناية ويضعون بتمهّل قطعًا صغيرةً منه في أفواههم، وفي الوقت الفاصل كانوا يجلسون برزانة يتحدّثون مع بعضهم البعض ويناقشون تجارتهم، وأحيانًا يلقون نظرات سريعة فضوليّة باحترام على أرتيوم.

كان غاليًا طبعًا، وكان عليه أن يتخلّى عن خمسة عشر خرطوشة من مخزونه ويضعها في راحة صاحب الحانة الواسعة، ثمّ ندم لأنّه استسلم للإغراء ولكنّ معدته كانت سعيدة وهادئة ودافئة رغم ذلك، لهذا سكت صوت العقل.

كان كوب الخليط المخمّر حلوًا وجعل رأسه يلفّ بشكل ممتع لكنّه لم يكن قويًّا ولم يكن من ذلك الشّراب البيتيّ المخمّر العكر السّام في العبوات القذرة والمطربانات الّتي تُضعف ركبتيك بنشقة واحدة. نعم وكان ثمنه ثلاث خراطيش أخرى فقط وما هي الثّلاث خراطيش إن استبدلتها بقارورة من اكسير فوّار يساعدك على التّوصّل إلى تفاهم مع نقائص هذا العالم، وتستعيد بواسطته بعض الانسجام؟

احتسى أرتيوم الخليط المختمر بجرعات صغيرة، وجلس لوحده في صمت وسلام لأوّل مرّة منذ بضعة أيّام، وحاول أن يحيي الأحداث الأخيرة في ذاكرته ويفهم إلى أين وصل وأين عليه أن يذهب بعد. فمازال هناك قسم آخر من رحلته المحدّدة ويجب عليه أن يفوز به، وهو على مفترق طرق مرّة أخرى.

شعر أنّه مثل بطل حكايات الجنّ الخرافيّة المنسيّة من طفولته. كانت ذكراها بعيدة جدًّا الآن لدرجة أنّه لم يتذكّر من الّذي رواها له، هل كان سوخوي أم والدا جينيا أم كانت أمّه هو؟ أحبّ أرتيوم أكثر من أيّ شيء آخر، الاعتقاد بأنّه سمعها من أمّه وكان وجهها يسبح ويخرج من الضّباب لدقيقة واحدة، واستطاع أن يسمع صوتها تقرأ له بترانيم سلسلة: كان يا ما كان...

ومثل بطل الخرافات كان يقف هناك وأمامه ثلاث طرق، الأوّل إلى كوزنيتسكي موست، وواحد إلى تريتياكوفسكايا، وواحد إلى تاغانسكايا. تذوّق الشّراب المسكر واستمتع به وانتاب جسده ارتخاء سعيد جدًّا. ولم يُرد أن يفكّر أبدًا وكان كلّ الّذي يدور في رأسه: اذهب بشكل مستقيم، ستفقد حياتك. اذهب نحو اليسار، ستفقد حصانك...

ربّما يستمرّ هذا إلى الأبد لقد احتاج فعلًا إلى هذه الاستراحة بعد تجاربه الأخيرة. إنّ الانتظار في كيتاي غورود أمر يستحقّ أن يتفحّص ويسأل السّكّان المحليّين عن الأنفاق، ويجب عليه أن يجتمع مع خان مرّة أخرى ليكتشف إن كان سيذهب معه إلى أبعد من ذلك، أم أنّ طرقهما ستتباعد في هذه المحطّة الغريبة.

لم تجر الأمور وفقًا للخطّة الكسولة الّتي رسمها أرتيوم إطلاقًا. تأمّل بإنهاك لسان اللّهب الصّغير الّذي كان يتراقص في المصباح على الطّاولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثّامن: الرّايخ الرّابع

بدأت طلقات المسدّس تفرقع فتقطع ضجيج الحشد المرح، ثمّ تعالت صرخات أنثويّة حادّة وقعقعة بندقيّة آليّة. خطف صاحب الحانة الرّيّان بندقيّة صغيرة من تحت منضدة المحل وركض إلى مدخل الخيمة. ترك أرتيوم شرابه ووثب وراءه بعد أن قذف حقيبة ظهره على كتفه ولمس بإصبعه مقبض الأمان في بندقيّته. وندم حين ذهب لأنّهم جعلوه يدفع الحساب مقدّما وإلّا لغادر دون أن يسدّد فاتورته. إنّ الخراطيش الثّمان عشر الّتي صرفها يمكن أن تُثبت نفعها في يوم ما قريبًا. من الأعلى ومن السّلّم استطاع أن يرى شيئًا رهيبًا يحدث. ولكي ينزل إلى هناك عليه أن يشقّ طريقه عبر حشد النّاس الّذين فقدوا عقولهم بسبب الخوف، والّذين كانوا يرمون بأنفسهم من أعلى السّلّم. أصبح التّحطيم سيّئا جدًّا حالًا، لذلك سأل أرتيوم نفسه إن كان يحتاج فعلًا إلى النّزول إلى هناك، لكنّ فضوله دفعه إلى الأمام.

على الطّرق تمدّدت أجساد منبطحة تكسوها سترات جلديّة، وعلى المنصّة تحت قدميه مباشرة استلقت امرأة ميّتة في بركة من الدّم الأحمر الصّافي ووجهها نحو الأسفل. مشى من فوقها بسرعة وحاول أن لا ينظر للأسفل لكنّه انزلق وكاد أن يسقط. ساد الذّعر في المكان وقفز من الخيم أشخاص شبه عراة إلى الخارج وهم ينظرون حولهم بشكل هستيري. تُرك أحدهم في الخلف كانت قدمه عالقة في ساق سرواله ثمّ انحنى فجأة وقبض على معدته وانقلب على جانبه.

لم يستطع أرتيوم أن يحدّد جهة إطلاق النّار. واستمرّ الإطلاق وكانت هناك مجموعة من الأشخاص في لباس جلديّ، يركضون من طرف الصّالة الآخر ويقذفون النّساء اللّواتي يصرخن والتّجّار الخائفين ويبعدونهم عن طريقهم. ولكنّهم لم يكونوا ممّن تعرّض للهجوم، لقد كانوا قطّاع الطّرق أنفسهم، الأشخاص الّذين يسيطرون على هذا الجانب من كيتاي غورود. وعلى طول المنصّة لم يكن واضحًا منِ الّذي أحدث هذه المجزرة.

عندئذ فهم أرتيوم لماذا لم ير أحدًا. فالمهاجمون كانوا في النّفق، وكانوا يفتحون النّار من هناك، ومن الواضح أنّهم كانوا خائفين من إظهار أنفسهم في فضاء مفتوح.

هذا بدّل الأشياء. ولم يكن هناك وقت فائض للتّفكير مليًّا، سيخرجون ويظهرون على المنصّة بعد أن يشعروا أن المقاومة انتهت. ويجب عليه أن يهرب من المدخل بأسرع ما يمكن. ركض أرتيوم إلى الأمام وهو يمسك بقوّة ببندقيّته الآليّة، وينظر من فوق كتفه لوك اوفر هز شولدر. كان من الصّعب تحديد النّفق الّذي تأتي الطّلقات منه، اليسار أم اليمين، بسبب صدى الطّلقات المدوّية الّذي كان يتردّد عبر القناطر.

لاحظ أخيرًا أشكالًا مموّهة في فتحة النّفق على اليسار. كان هناك ظلام بدلًا من الوجوه، فشعر أرتيوم بقشعريرة داخليّة. لكنّه تذكّر بعد بضع لحظات أنّ الدّارك ونز أو الّذين اعتدوا على فدنكه لم يحملوا أسلحة أبدًا، ولم يلبسوا ثيابًا قط. كان المهاجمون يضعون أقنعة وبالاكلافا (قبّعة تغطّي الرّأس والوجه والكتفين) من

النّوع الذي يمكن شراءه من أيّ سوق للأسلحة (يمكن أن يعطوك واحدًا منها عندما تشتري أي كيه-47).

وصلت تعزيزات كالوغا أيضًا وكانت على الأرض، اختبأ المدافعون بين الجثث وردّوا على النّيران. يمكن أن ترى كيف حطّموا الألواح الخشبيّة وصعدوا على نوافذ العربة، واقتحموا مواقع البنادق الآليّة المخبّأة. ودوّى إطلاق نيران ثقيلة.

بعد البحث نجح أرتيوم في أن يلمح اللّوح البلاستيكي المعلّق في منتصف الصّالة والّذي يظهر المحطّات. كانوا يهاجمون من جهة تريتياكوفسكايا، لهذا كان المسار مقطوعًا. ولكي يصل إلى تاغانسكاي عليه أن يذهب إلى قسم لايعمل ومهجور من المحطّة، فكان المسار الوحيد المتبقّي له هو كوزنيتسكي موست.

قفز أرتيوم على الدّرب وتوجّه نحو المدخل المسودّ إلى النّفق الوحيد الّذي يستطيع الدّخول إليه. لم ير خان أو ايس في أيّ مكان. واعتقد أنّه رأى شكل شخص ذكّره بالفيلسوف الجوّال، لكن حين توقّف للحظة تأكّد أنّه كان مخطئًا. فلم يكن هو الشّخص الوحيد الّذي يركض في النّفق، نصف هؤلاء الّذين نجوا كانوا متوجّهين إلى ذلك الطّريق أيضًا. الممرّ يرنّ بالصّيحات الخائفة، وأحد الأشخاص ينشج بشكل هستيريّ. شعّت أضواء المشاعل هنا وهناك، وكان هناك رجرجة متقطّعة لبضعة مشاعل ناريّة. فكلّ شخص ينير الممرّ لنفسه.

أخرج أرتيوم هديّة خان من جيبه وضغط على المقبض. بعد توجيه الضّوء الضّعيف للمصباح على الممرّ تحت قدميه، حاول أن لا تزلّ قدمه واندفع قُدُمًا، ولحق بمجموعة صغيرة من الهاربين الّذين كانوا عبارة عن عائلات كاملة أحيانًا، وأحيانًا نساء وحيدات وشيوخ وشبّان أصحّاء يجرّون وراءهم رُزمًا وصُررًا ربّما ليست لهم.

توقّف أرتيوم مرّتين ليساعد بعضًا من النّاس الّذين سقطوا. وتباطىء مع أحدهم للحظة. وجلس عجوز شعره رماديّ بالكامل مستندًا على الجدار المضلّع وعلى وجهه تكشيرة مؤلمة، وهو يمسك بقلبه ووقف بجانبه صبيّ في سنّ المراهقة ينظر بهدوء وبلادة. ومن نظراته الشّرسة الغريبة وعيونه العكرة يمكنك أن تعرف أنّه طفل غير عاديّ. شيء ما عصر قلب أرتيوم حين رأى هذين الشّخصين الغريبين، فتوقّف رغم أنّه كان مندفعًا إلى الأمام ويلعن نفسه حين تواجه العوائق.

حاول الرّجل العجوز أن يبتسم لأرتيوم ويقول شيئًا حين شعر أنّ انتباه أرتيوم تركّز عليه وعلى الصّبي، ولكن لم تكن لديه القدرة لذلك. تجهّم أرتيوم وأغلق عينيه واستجمع قوّته وانحنى فوق العجوز، وحاول أن يسمع ماذا حاول العجوز أن يقول له.

لكنّ الصّبيّ بدأ فجأة بالخوار مهدّدا، فلاحظ أرتيوم أنّ هناك خيط من لعاب يخرج من فمه ويكشف عن أسنانه الصّغيرة الصّفراء. لم يُرد أرتيوم أن يتعامل مع أيّ هجوم فدفعه جانبًا وتراجع الصّبيّ واستقرّ بشكل أخرق على قضبان السّكّة الحديديّة مطلقًا عواء حزينًا.

الش......اب..... صارع العجوز. لا..... هو.... أنّه فانيشكا.... هو لا يفهم.

هزّ أرتيوم كتفيه غير مبال.

أرجوك.... نترو.... غليسرين.... في الحقيبة.... في الأسفل..... حبّة واحدة..... أعطني.... أنا لا أستطيع لوحدي.... أزّ العجوز بشكل مرعب، ونقّب أرتيوم في الحقيبة ووجد بسرعة عبوة تبدو جديدة، وقصّ طبقة القصدير بظفره، فقفزت الحبّة إلى الخارج وأعطاها للعجوز الّذي مدّ شفتيه في ابتسامة آثمة وقال:

أنا لا أستطيع......... يداي......لا تساعداني...... تحت لساني.... بعد ذلك أطبق جفنيه.

نظر أرتيوم إلى يديه السّوداوتين في ريبة، لكنّه أطاع ووضع الحبّة الصّغيرة المتملّصة في فم العجوز. أومأ الغريب برأسه بوهن ولم يقل شيئًا. مرّ هاربون كثر كانوا مسرعين لكنّ أرتيوم لم ير إلّا صفًّا لا نهاية له من الأحذية القذرة. أحيانًا كانوا يتعثّرون على خشب الوصلات العرضيّة الأسود، وتسمع عندئذ سيلًا من الشّتائم. لم يكترث أحد بهم ثلاثتهم، وكان المراهق جالسًا في نفس المكان يُدمدم بارتباك وهدوء. ولاحظ أرتيوم أنّ أحد المارّة وبنوع من اللّامبالاة وحتّى الغطرسة، ركل الصّبي بقوّة فبدأ الأخير يعوي بصوت أعلى ومسح دموعه بقبضتيه وترنّح من جانب لآخر.

في هذا الوقت، فتح العجوز عينيه وتنهّد بصعوبة وتمتم: شكرًا جزيلًا لك، لقد تحسنّت، هل تُساعدني على النّهوض؟

سند أرتيوم العجوز بذراعه فنهض بجهد، ثمّ حمل حقيبة العجوز وذلك يعني أنّه سيضع بندقيّته الآليّة فوق كتفه الآخر. بدأ العجوز يعرج إلى الأمام وذهب إلى الصّبيّ وشجّعه على النّهوض. جأر الصّبيّ مُستاء لكنّه بدأ يهسّ بخبث ونقّط اللّعاب مرّة أخرى من شفته السّفلى النّاتئة حين وصل إليهما أرتيوم.

أنت ترى، أنا اشتريت الدّواء فقط، قال العجوز: جئت إلى هنا إلى هذا المكان البعيد فقط من أجل الدّواء، فلا يمكن الحصول عليه في المكان الّذي نعيش فيه. ولا أحد يجلبه وليس هناك أحد تستطيع أن تطلب منه فعل ذلك لك، وقد انتهت مؤونتي منه فقد أخذت آخر حبّة في طريقي إلى هنا، وعندما لم يسمحوا لنا بالمرور عبر بوشكينسكايا.. فهناك فاشيّون الآن كما تعرف، عار أن يكون في بوشكينسكايا فاشيين، سمعت أنّهم يريدون أن يعيدوا تسميتها من جديد إما هتلرسكايا أو شيلروفسكايا... رغم أنّهم لم يسمعوا أبدًا بشيلر طبعًا. وتخيّلْ أنّهم لم يريدوا السّماح لنا بالمرور، وبدأ هؤلاء التّافهون المتبجّحون بصلبانهم المعقوفة يُضايقون فانيشكا بالأسئلة ويسخرون منه. وبماذا يستطيع صبيّ مسكين في حالته أن يردّ؟ كنت قلقًا جدًّا ولأنّ قلبي مريض ومتعب فقط تركونا نمر. ماذا كنت أقول؟ أوه، نعم، وكما ترى وضعت الدّواء في أسفل حقيبتي في حال تعرّضنا للتّفتيش، لأنّهم سيسألون أسئلة كثيرة، وكما تعرف سيسيئون فهمك وليس كل واحد يعرف أيّ نوع من الدّواء هذا. وفجأة بدأ إطلاق كلّ هذا الرّصاص، فهربت بأسرع ما استطعت واضطررت

أن أجرّ فانيشكا لأنّه رأى بعض الفراخ على عصي فرفض أن يذهب. في البداية لم يعصرني الألم بقوّة وظننت أنّه سيزول وأنّني غير مضطرّ لأن أخرج الدّواء فهو يساوي وزنه ذهبا، لكن فهمت بعدئذ أنّني لن أنجح، وبينما كنت أبحث عن حبّة كان الألم قد نال منّي وفنيشكا لا يفهم شيئًا. حاولت أن أعلّمه منذ وقت طويل أن يعطيني حبوبي إن مرضت لكنّه لا يستطيع أن يفهم، فإمّا أن يأكل الحبّة أو يخرج الشّيء الخطأ من الحقيبة ويعطيه لي. أشكره بدوري وأبتسم، فيبتسم لي هو أيضا ويجأر بمرح. إن حدث لي شيء لاقدّر الله، لا يوجد من يعتني به أبدًا ولا أستطيع أن أتخيّل الحال الّذي سيؤول إليه من بعدي.

تحدّث الرّجل طويلًا بسرور وهو ينظر إلي عيون أرتيوم، فشعر أرتيوم بالارتباك لسبب ما. حتّى حين كان العجوز يعرج بكلّ قوّته اعتقد أرتيوم أنّهم كانوا يتحرّكون ببطء شديد فالكلّ يتجاوزهم. وبدا أنّهم سيكونون الأخيرين قريبًا جدًّا. مشى فانيشكا بشكل أخرق على يمين الرّجل العجوز ممسكًا بيده. وقد عاد التّعبير الصّافي السّابق إلى وجهه، ومن حين لآخر كان يدفع يده اليمنى إلى الأمام ويقرقر بتشوّق ويشير إلى شيء قُذِف بعيدًا أو سقط. بينما كان الهاربون يركضون من المحطّة وأحيانًا يُشير إلى الظّلام الّذي يزداد كثافة أمامهم.

سامحني أيُّها الشّاب، لكن ما اسمك؟ فنحن نتحدّث إلى الآن ولم نتعارف... هل هو أرتيوم؟ سعيد بمعرفتك وأنا ميخائيل بروفيرفيتش. ينادوني الأب بروفيري، وهو اسم غير مألوف كما تعرف وفي الأزمنة السوفيتية كان حامله يتعرّض لاستجوابات وتحقيقيات من منظّمات متنوّعة، لأنّ ذلك الزّمن له أسماء رائجة أخرى: فلالدلين أو ستالين.

ومن أيّ مكان أنت؟ فدنكه؟ أنا وفانيشكا من باريكادنايا، لكنّي عشت هناك سابقًا. ابتسم العجوز بارتباك: كان هناك بناء، كان بناء عاليًا جدًّا قرب المترو تمامًا، لكنّك قد لا تتذكّر أيّ بناء أقصد، كم عمرك إن لم يكن لديك مانع؟ حسنًا، هذا غير مهمّ طبعًا. كان عندي شقّة صغيرة هناك، غرفتان في طابق علويّ وكان هناك منظر رائع لوسط المدينة. لم تكن الشّقّة كبيرة لكنّها كانت مريحة جدًّا، الأرضيّة من السّنديان وككلّ الشّقق آنذاك فيها موقد يعمل بالغاز. يا إلهي! أنا أتذكّر الآن كم كانت مريحة. موقد غاز؟! في الماضي لم يكن يهتمّ بهنّ أحد، فكلّهم أرادوا الكهرباء لكنّهم لم يستطيعوا الحصول عليها. حين تمشي في المكان ترى نسخًا لرسومات تنتورينتو في إطارات جميلة مطليّة بالفضّة. يا للجمال! كان السّرير سريرًا حقيقيًّا بوسائد وملاءات نظيفة دائما وطاولة كتابة مع مصباح يحترق بشكل ساطع. لكن الأهم رفوف الكتب الّتي تصل إلى السّقف. والدي ترك مكتبة كبيرة وأنا جمعت بعض الكتب أيضًا. آخ لماذا أخبرك بكلّ هذا؟ فعلى الأرجح أنّك لا تهتمّ بكلّ هراء هذا الرّجل العجوز، ولكن كما ترى ما زلت أتذكّره حتّى الآن، وأنا أفتقد الأشياء فعلًا وأحنّ إليها وخصوصًا طاولة الكتابة والكتب. ومؤخّرا بتّ أفتقد السّرير فعلًا. أنت لا تعرف مثل هذه الرّفاهيّة والنّعم هنا، لكن نحن كنّا نملك هذه الأسرّة الخشبيّة المصنوعة يدويًّا، وأحيانًا ننام على البطّانيّات على الأرض. ولكنّ ذلك لايهم، الشّيء المهم هو الموجود هنا، وأشار إلى صدره. المهمّ هو ما يستمرّ في الدّاخل

وليس في الخارج، الشيء المهمّ أنّ الذي في الرّأس يبقى نفسه ولا يتغيّر ولا يُلقي بالًا للظّروف، اعذر فرنسيّتي، ولكن أنت تعرف أنّ السّرير هو خصوصًا... ولم يصمت لدقيقة واحدة بينما استمع له أرتيوم كلّ الوقت باهتمام عظيم، مع أنّه لم يستطع إطلاقًا أن يتخيّل كيف هو العيش في بناية شاهقة، وكيف هو المنظر وكيف هو الصّعود بمصعد.

حين توقّف ميخائيل بورفيريفيتش لفترة قليلة لكي يستجمع أنفاسه، قرّر أرتيوم أن يستغلّ الرّاحة ليقلب المحادثة إلى جهة مفيدة. بطريقة ما كان عليه أن يجتاز بوشكينسكايا وينتقل إلى تشيخوفسكايا ومن هناك إلى بوليس فسأل:

هل هناك فاشيّون حقيقيّون في بوشكينسكاي فعلًا؟

ما الّذي تقوله؟ فاشيّون؟ آه، نعم.... تنهّد الرّجل العجوز باضطراب: نعم، نعم حليقو الرّؤوس مع شرائط الأذرع، إنّهم مروّعون تمامًا وهذه الرّموز معلّقة في المدخل وفي كلّ أرجاء المحطّة. وتعني عدم السّماح بالذّهاب إلى هناك، وهي عبارة عن شكل رجل أسود في دائرة حمراء مع خطّ قطريّ أحمر عبرها. اعتقدت أنّهم أخطؤوا دون قصد، وسألت لماذا كانت هناك؟ فهي تعني أنّ الأشخاص من ذوي البشرة الغامقة لا يمكنهم الدّخول. هذا نوع من الحماقة الشّديدة أساسًا.

التفت إليه أرتيوم حين سمع (أصحاب اللّون الدّاكن) ورمى ميخائيل بورفيروفيتش بنظرة خائفة وسأله بحذر:

هل هناك من ذوي اللّون الدّاكن أيضًا؟ لا تقل لي أنّهم وصلوا إلى هناك؟ لفّت هجمة صاخبة من الذّعر وبشكل محموم في رأس أرتيوم. كيف أمكن ذلك؟ لم يمض عليه في النّفق أسبوعًا واحدًا وكان الدّارك ونز يهاجمون بوشكينسكايا. هل فشلت مهمّته مسبقًا؟ ألم ينجح ولم يوفّق؟ هل كان هذا كلّه عبثًا؟ كلّا، لا يمكن أن يحدث ذلك وإلّا لكان هناك إشاعات وحتّى لو حُرِّفت وشوّهت ستظلّ هناك، صحيح؟ لكن قد يكون هذا نهاية كلّ شيء.

نظر ميخائيل بورفيريفتش إليه بحذر، واقترب قليلًا وسأل:

وأنت، نفسك ما هي الأيديولوجا الّتي تواليها وتُناصرها؟

أنا؟ بشكل أساسيّ، ولا واحدة. تردّد أرتيوم، و...

وكيف تشعر اتّجاه القوميّات الأخرى كالقوقازيّين مثلًا؟

ما علاقة القوقازيّين بأيّ شيء؟ كان أرتيوم محتارًا. عمومًا أنا لا أعرف الكثير عن القوميّات. كان هناك الفرنسيّين أو الألمان والأمريكيّين وبتقديري لم يبق منهم أحد، وبالنّسبة للقوقازيّين إن كنتُ صادقًا معك فأنا لا أعرف أيّ شيء عنهم في الحقيقة، اعترف بارتباك.

إنّ القوقازيّين هم من يسمّون بداكني البشرة، شرح ميخائيل بورفيريفتش الّذي كان يحاول أن يعرف إن كان أرتيوم يكذب ويتظاهر بالسّذاجة.

لكنّ القوقازيّين إن كنت أتذكر بشكل صحيح أناس وبشر عاديّون، أليس كذلك؟ قال أرتيوم: لقد رأيت بضعة منهم اليوم هنا.

هم ناس عاديّون تمامًا، أكّد ميخائيل بورفيريفتش. ناس عاديّون تمامًا لكن هؤلاء السّفّاحون قرّروا أنّ فيهم شيئًا مختلفًا، وهم يضطهدونهم. وهذا غير إنسانيّ بوضوح. هل تستطيع أن تتخيّل أنّ لديهم سقف فوق الطّرق تمامًا مزوّد بكلابات، ورجل معلّق من أحدها، رجل حقيقيّ. عندها تهيّج فانيشكا كثيرًا وبدأ يلكزه بإصبعه ويجأر بصوت عال، فانتبه إليه المسوخ بعد ذلك.

عند ذكر اسمه التفت المراهق ورمى العجوز بنظرة ممسمّرة طويلة. فتولّد عند أرتيوم انطباع يقول بأنّ الصّبيّ كان يسمع، وربّما يفهم جزئيًّا الموضوع الّذي تدور حوله المحادثة. ولكن حين لا يتكرّر اسمه يفقد الاهتمام بسرعة في ميخائيل بورفيريفيتش، ويركّز اهتمامه على الوصلات الخشبيّة العرضيّة (كروستايز).

ولأنّنا بدأنا الحديث عن الأمم والأقوام، فإنّهم يعبدون الألمان من خلال المنظر والهيئة، فقد كان الألمان أخيرًا هم من اخترع لهم أيديولوجيّتهم. وأنت تعرف بالطّبع ما سأخبرك به، أضاف ميخائيل بورفيروفيتش وأومأ أرتيوم برأسه بشكل غير واضح رغم أنّه لم يعرف في الواقع، لكنّه لم يُرِد أن يبدو جاهلًا. أنت تعرف بوجود نسور ألمانيّة معلّقة في كلّ مكان وصلبان معقوفة تعبّر عن نفسها، وهناك عبارات ألمانيّة متنوّعة، اقتباسات من هتلر عن البسالة والفخر وأشياء من ذلك النّوع وهم يقومون بعروض عسكريّة ومسيرات. بينما كنّا هناك كنت أحاول إقناعهم بالتّوقّف عن اعتداءهم على فانيشكا، كانوا يمشون مشية عسكريّة على رصيف المنصّة ويغنّون الأغاني.

شيء عن عظمة الرّوح واحتقار الموت. لكن عمومًا، أنت تعرف أنّ اللّغة الألمانيّة اختيرت بشكل مثالي. فالألمانيّة خلقت لهكذا أشياء. أستطيع التّكلّم قليلًا بها... انظر، لقد كتبت شيئًا هنا... وقف خطوة وأخرج دفتر ملاحظات متّسخ من جيب داخلي، انتظر ثانية واحدة، ضع ضوءك هنا إن لم يكن لديك مانع، أين كانت؟ آه، ها هي..

في دائرة الضّوء الأصفر، رأى أرتيوم بعض الأحرف اللّاتينيّة رُسمت بعناية على صفحة من الدّفتر وطُوّقت باهتمام بإطار مرسوم من أوراق الكرمة.

.Du stirbst. Besitz stirbt

.Die Sippen sterben

Der einzig lebt - wir wissen es

.Der Toten Tatenruhm

كان أرتيوم يقرأ الأحرف اللّاتينيّة أيضًا، فقد تعلّمها في كتاب مدرسيّ لأولاد المدارس وكانت منقوشة في مكتبة المحطّة. نظر خلفه وأشار بمصباحه إلى الدّفتر ثانية.. طبعًا لم يستطع أن يفهم منها شيئًا.

ماذا تكون؟ سأل وهو يساعد ميخائيل بروفيروفيتش مرّة أخرى، ويدفع الدّفتر في جيب العجوز بسرعة ويحاول الوصول إلى فانيشكا الّذي وقف في البقعة يزمجر غاضبًا ويرفض أن يتقدّم.

إنّها قصيدة، قال العجوز وبدا مستاء قليلًا، إنّها ذكرى لهؤلاء الّذين قضوا في الحرب. طبعًا أنا لا أخطّط لترجمتها لكنّها عمومًا، تعني التّالي:

أنت ستموت وسيموت كلّ القريبين منك.. ستختفي ممتلكاتك لكنّ شيئًا واحدًا سيجتاز القرون (الموت المجيد في القتال)..

لكنّها بدت محزنة جدًّا باللّغة الرّوسيّة أليس كذلك؟ لكنّها تُرعد وتدوّي بالألمانيّة.. دير توتن تاتينروم، وتُرسل القشعريرة في الجسد. نعم، فتوقّف فجأة، يبدو أنّه خجل من انفعاله.

مشوا بهدوء لفترة من الوقت، ورأى أرتيوم أنّه من المضحك أن يكونوا آخر من يمشي في النّفق، وثار غضبه أيضًا لأنّ ما يجري خلف ظهرهم لم يكن واضحًا، والآن يقف هذا العجوز ليقرأ الشّعر. ولكن رغمًا عن مشيئته فهو ما زال يدحرج السّطرين الأخيرين من القصيدة حول لسانه. ولسبب ما تذكّر أرتيوم فجأة فيتاليك الّذي ذهب معه إلى الحدائق النباتيّة. فيتاليك الممزّق الّذي قتله اللّصوص بالرّصاص حين حاولوا اقتحام المحطّة عبر النّفق الجنوبيّ. اعتُبِر هذا النّفق خطيرًا دائمًا ولذلك وضعوا فيتاليك هناك. كان في الثّامنة عشر من عمره، وأرتيوم بدأ عامه السّادس عشر لتوّه. وفي ذلك المساء اتّفقا أن يذهبا إلى بيت جينيا، فقد كان عندهم تاجر أعشاب مخدّرة، جلب معه بعض منها وكانت من النّوع المميّز، والرّصاصة أصابته برأسه مباشرة وأحدثت فتحة صغيرة في منتصف جبهته ونسفت مؤخّرة رأسه تمامًا.

أنت ستموت... ولسبب ما رجع الحديث الّذي دار بين زوج أمّه وهنتر إلى ذهنه بحيويّة وقوّة، خصوصًا حين قال سوخوي (و ماذا لو لم يكن هناك أيّ شيء فجأة؟) أنت تموت ولا يوجد شيء بعد ذلك. لاشيء.. لن يبقى شيء.. سيتذكّرك أحدهم لفترة قليلة وليس طويلًا.. وسيموت النّاس المقرّبين إليك أيضًا. شعر أرتيوم بقشعريرة الآن، وحين كسر ميخائيل بورفيرفيتش الصّمت كان أرتيوم سعيدًا فعلًا بذلك.

هل من المحتمل أن تذهب بنفس الطّريق الّذي نذهب فيه؟ أم ستذهب إلى بوشكينسكايا فقط؟ هل أنت عازم على الوصول إلى ذلك المكان؟ أقصد أن تصعد الدّرب؟ أنا لا أنصحك حقيقة أن تفعل ذلك يا أرتيوم. فلا يمكنك أن تتخيّل ما يجري هناك. ربّما تودّ أن تذهب معنا إلى باركادنايا؟ سأكون سعيدًا وأنا أتحدّث إليك طول الطّريق إلى هناك.

أومأ ارتيوم برأسه مرة أخرى بشكل غريزيّ ودمدم بشيء غير محدّد. فهو لا يستطيع أن يناقش أهداف رحلته مع أوّل شخص يلتقيه حتى لو كان ذلك الشّخص رجل عجوز مسالم. صمت ميخائيل بورفيرفيتش حين لم يسمع شيئًا ردًّا على سؤاله.

ساروا بصمت لفترة طويلة من الوقت، وبدا كل شيء هادئًا خلفهم أيضًا، وقد استرخى أرتيوم أخيرًا.كانت الأضواء تسطع من بعيد ضعيفةً في البداية ثمّ تزداد أكثر فأكثر. كانوا يقتربون من كوزنيتسكي موست...

لم يكن أرتيوم يعرف شيئًا عن القانون المحليّ فقرّر أن يخبّىء سلاحه، بعد أن لفّه في صدرته ودفعه عميقًا في حقيبة ظهره.

كانت كوزننبتسكي موست محطّة مأهولة، وعلى بعد خمسين مترًا قبل المدخل هناك نقطة تفتيش قويّة في وسط الدّرب. وهي نقطة تفتيش واحدة فقط لكن فيها مشعل كهربائيّ، يطفئونه حين لاتبقى حاجة إليه. وكانت المحطّة مزوّدة بموقع مدفع آليّ. وكان المدفع الرّشّاش مغطىً وإلى جانبه جلس رجل بدين في بزّة نظامية خضراء بالية، وهو يأكل نوعًا من الفطر في قصعة بالية. وهناك شخصان في نفس المعدّات مع بنادق آليّة عسكريّة سيّئة الصّنع على أكتافهم، يتفحّصان بانتقاد شديد وثائق الّذين يخرجون من النّفق. أمامهم صفّ قليل من النّاس، كلّ الهاربين الّذين أتوا من كيتاي غورود، والّذين سبقوا أرتيوم بينما كان يمشي ببطء مع ميخائيل بورفيريفتش وفانيشكا.

كانوا يسمحون بدخول النّاس ببطء وتردّد، بينما جلس رجل رفضوا دخوله في حالة من الذّعر ولم يكن يعرف ماذا يفعل، وحاول من وقت لآخر الاقتراب من حرس نقطة التّفتيش فيبعدونه في كلّ مرّة، وينادون على الشّخص التّالي من الصّفّ. كلّ واحد من القادمين يفتّشونه بشكل كامل ورؤوا بأنفسهم كيف رموا برجل إلى خارج الصّفّ حين وجدوا معه مسدّس مكاروف لم يصرّح به، وحين حاول مناقشتهم ربطوه وقادوه بعيدًا.

شعر أرتيوم بداوّمة في داخله وأدرك أنّ المشاكل كانت في انتظاره. وبينما كان ميخائيل بورفيرفيتش ينظر إليه بدهشة همسَ له أرتيوم بهدوء بأنّه مسلّح، فأومأ بورفيرفيتش برأسه مطمئنًا ووعده أنّ كلّ شيء سيكون على مايرام. لم يثق أرتيوم به لكنّه كان متشوّقًا ليرى كيف سيسوّي العجوز المسألة.

ابتسم الرّجل العجوز لأرتيوم بشكل غامض.

اقترب دورهم ببطء، وكان الحرس يفتّشون في معطف امرأة خمسينيّة اتّهمتهم بأنّهم طغاة، وعبّرت عن دهشتها من أنّ أناس كهؤلاء ما زالوا موجودين وأحياء. وافقها أرتيوم في ذلك لكنّه قرّر أن لا يعبّر عن تضامنه بصوت مسموع. أخرج الحارس الّذي كان يفتّشها وهو يصفّر باستمتاع عددًا من الرّمّانات اليدويّة من حمّالة صدرها القذرة وبحث عن تفسير. كان أرتيوم واثقًا أن المرأة ستحكي قصّة مؤثّرة عن حفيدها الّذي كان بحاجة هذه الأشياء من أجل العمل (أنت ترى أنّه يعمل على ماكينة لحام وهذا جزء من معدّات اللّحام. أو ستقول (أنّها وجدت هذه الرّمّانات في الطّريق وكانت ستعطيها للسّلطات المختصّة) لكنّها تراجعت خطوتين للوراء وأطلقت شتيمة واندفعت للخلف إلى داخل النّفق، وأسرعت لتختفي في الظّلام. وضع رامي المدفع الرّشّاش قصعة الطّعام جانبًا وأمسك سلاحه، لكنّ واحدًا من حرس الحدود أو اثنين،

ويبدو أنّه الأقدم، أوقفه بإشارة. تحسّر السّمين في خيبة أمل وعاد إلى عصيدته ثمّ تقدّم بعد ذلك ميخائيل بورفيرفيتش خطوة للأمام حاملًا جواز سفره وفي استعداد.

كان الأمر مذهلًا لكن ّكبير الحرّاس قلب الحقيبة الّتي تعود ملكيّتها للمرأة الّتي بدت مسالمة تمامًا بدون أدنى وخز من ضميره. ثمّ بدأ يقلّب بدفتر الرّجل العجوز ولم يكترث بفانيشا كما لو أنّه غير موجود. جاء دور أرتيوم فأعطى وثائقه بسرور للحارس النّحيل ذي الشّارب، وبدأ يتفحّص كلّ صفحة فيه بشكل دقيق جدًّا، وسلّط مصباحه على أختامه لمدّة طويلة من الوقت. قارن حرس الحدود ملامح وجه أرتيوم مع الصّورة أكثر من خمس مرّات معبّرًا عن شكوكه الظّاهرة، وكان أرتيوم يبتسم بودّ محاولًا تصوير نفسه بأنّه البراءة نفسها.

لماذا جواز سفرك من النّموذج السّوفييتيّ؟ سأل الحارس أخيرًا بصوت صارم، دون أن يجد أيّ شيء لينتقده غير ذلك.

كنت صغيرًا كما ترى حين كان هناك جوازات سفر حقيقيّة، ثمّ صحّحت إدارتنا الوضع بأوّل استمارة وجدتها لملئها.

ذلك غير نظاميّ. تجهّم الرّجل: افتح حقيبة ظهرك.

إن اكتشف البندقيّة الآليّة فسيركض عائدًا للوراء، هكذا فكّر أرتيوم وإلّا فإنّهم سيصادرونها. مسح العرق عن جبينه.

صعد ميخائيل بورفيرفيتش إلى الحارس ووقف قريبًا منه وهمس بسرعة:

قسطنطين اليكسييفيتش، أتفهم؟ هذا الشّاب صديقي، إنّه شابّ مهذّب ولطيف جدًّا، أنا أضمنه شخصيًّا.

فتح الحارس حقيبة أرتيوم ودسّ يده في داخلها، فخاف أريتوم.

قال الحارس بعدئذ بطريقة جافّة:

خمسة، وبينما كان أرتيوم يفكّر فيما قصده الحارس، سحب الرّجل العجوز من جيبه حفنة من الخراطيش وبسرعة عدّ خمسة ووضعها في حقيبة ميدانيّة نصف مفتوحة كان الحارس يعلّقها في حزامه.

لكنّ يد قسطنطين اليكسييفيتش تابعت تنقيبها في حقيبة أرتيوم واتّضح أنّ الأسوأ قد حدث، لأنّ وجهه أخذ تعبيرًا مهتمًا فجأة.

شعر أرتيوم أنّ قلبه يسقط في هاوية فأغلق عينيه.

(خمسة عشر) قال الحارس بهدوء.

بعد الإيماء برأسه عدّ أرتيوم عشر طلقات إضافيّة ووضعها في نفس الحقيبة. لم تهتزّ عضلة واحدة في وجه حارس الحدود. خطا خطوة إلى الجانب وكان الممرّ إلى كوزنيتسكي موست حرًّا ونظيفًا. تقدّم أرتيوم إلى الأمام وهو معجب بسيطرة الرّجل الحديديّة على نفسه.

أمضى أرتيوم الدّقائق الخمسة عشر التّالية يتجادل مع ميخائيل بورفيرفيتش الذي رفض بعناد أن يقبل الخمس طلقات من أرتيوم، وأكّد له أنّ دينه أكبر بكثير.

لا تختلف كوزنتيسكاي موست عن أغلب المحطّات الأخرى، والّتي نجح أرتيوم في رؤيتها خلال رحلته حتّى الآن. فلها المرمر نفسه على الجدران والغرانيت في الأرضيّات، أمّا القناطر فعالية وواسعة بشكل غير عادي ممّا يسبّب إحساسًا غير معتاد عليه من الرّحابة والسّعة.

لكنّ المدهش أكثر هو وجود قطار هائل كامل وطويل بشكل لا يصدّق، يقف في كلّ واحد من المسارات وكانت تشغل تقريبًا كلّ مساحة المحطّة. نوافذها مضاءة بضوء دافىء يسطع عبر ستائر متعدّدة الألوان وأبوابها مفتّحة ورحبة...

لم ير أرتيوم أيّ شيء مثلها. نعم، لديه ذكريات نصف ممحيّة لقطارات تتحرّك بسرعة وتُطلق صفيرًا قويًّا مع نوافذ مربّعة ساطعة. وهذه الذّكريات من ذكريات طفولته المبكّرة لكنّها كانت متناثرة وسريعة الزّوال، مثل الأفكار الأخرى الّتي تلاشت قبلها. فحين يحاول تذكّر التّفاصيل والتّركيز على شيء صغير تتحلّ الصّورة الذّهنية المراوغة، وتنساب مثل ماء من بين أصابعه ولا يبقى شيء منها. لكن ومنذ أن أصبح ناضجًا وبالغًا لم ير سوى القطار الّذي علق في مدخل النّفق في ريجيسكايا وبعض عربات في كيتاي غورود وبروسبيكت مير.

تجمّد أرتيوم في مكانه ونظر إلى القطار مفتونًا وعدّ العربات الّتي تلاشت في سديم النّهاية الأخرى من المنصّة قرب المدخل إلى الخطّ الأحمر. هناك راية قماشيّة حمراء منقّطة تدلّت من السّقف، انْتُزعت من الظّلام بدائرة واضحة من ضوء كهربائيّ، وتحتها وقف اثنان من الرّماة برشاشيهما وبزّات نظاميّة خضراء وقبّعات عالية، ظهرا صغيرين من بعيد مثل تذكار مضحك للجنود الدّمى.

كان عند أرتيوم ثلاث دمى من الجنود مثلهما حين كان يعيش مع أمّه، أحدهم هو القائد مع مسدّس صغير جدًّا يُسحب من قرابه، يصيح بشيء وينظر للخلف، ربّما كان يأمر مجموعته كي تلحق به وتتبعه إلى المعركة. والجنديّان الآخران يقفان باستقامة يحملان رشّاشيهما. كان الجنود الصّغار من مجموعات مختلفة ولم يكن هناك مجال للّعب معهم، والقائد يرمي بنفسه في قلب المعركة، لكنّ الآخران يظّلان واقفين في مكانهما رغم صيحاته الباسلة. الشّيء الغريب أنّه تذكّر هؤلاء الجنود بشكل جيّد جدًّا، ومع ذلك لم يستطع أن يتذكّر وجه أمّه...

كانت كوزنتيسكاي موست منظّمة نسبيًّا، والنّور فيها مثله في فدنكه، إذ يأتي من أضواء الطّوارىء المعلّقة على طول السّقف على هيكل معدنيّ غريب، ربّما كان ينير المحطّة نفسها سابقًا. ليس هناك شيء مميّز في المحطّة إطلاقًا سوى القطارات.

سمعت كثيرًا عن وجود أماكن كثيرة جميلة بشكل مذهل في المترو، ولكن ما أراه الآن أنّها متشابهة ومتطابقة تقريبًا، شارك أرتيوم خيبة أمله مع ميخائيل بروفيريفتش.

تعال أيّها الشاب، فهناك مثل هذه الأماكن الجميلة، ولن تصدّق عينيك. هناك كوموسمولسكايا على الرّينغ، إنّها قصر حقيقيّ، بدأ الرّجل العجوز بإقناعه. ويوجد هناك لوح هائل على السّقف رُسِم عليه لينين ونفاية أخرى. إنّه حقيقيّ... اوه، ماذا كنت أقول؟ توقّف فجأة وقال لأرتيوم بهمسة: هذه المحطّة مليئة بالعملاء السّرّيين من خطّ سكولينتشسكايا، أي الخطّ الأحمر، آسف فأنا أسمّي الأشياء بأسمائها القديمة، لهذا يجب أن تكون هادئًا هنا. تبدو القيادة المحليّة كأنّها مستقلّة لكنّها لا تُريد أن تتنازع مع الحمر، لهذا إن طلبوا منهم تسليم شخص ما لا يستطيعون إلّا أن يسلّموه. ولا داع لذكر القتلة. أضاف بهدوء كبير وهو ينظر بخوف من جانب لآخر: تعال، لنجد مكانًا نرتاح فيه، فأنا متعب جدًّا وفي الحقيقة أنت أيضًا تقف على قدميك بصعوبة في رأيي. دعنا نمضي اللّيلة هنا، ثمّ نواصل سيرنا بعد ذلك.

أومأ أرتيوم برأسه.. بدا اليوم في الحقيقة بلا نهاية ومجهدًا، وكانت الاستراحة ضروريّة بالتّأكيد.

لحق أرتيوم بميخائيل بورفيرفيتش وهو يتحسّر بحسد دون أن يرفع عينيه عن القطار. هناك ضحك ومرح وحديث يأتي من العربات، ثمّ مرّوا برجل يقف في الممرّ، بدا متعبا بعد يوم عمل وكان يدخّن سيجارة مع جاره ويناقشان بهدوء أحداث اليوم. سيّداتٍ كبيرات في السّنّ تجمّعن حول طاولة يشربن الشّاي تحت مصباح صغير متدلٍّ من سلك، والأولاد يركضون بشكل جامح. بدا هذا غير عاديّ لأرتيوم، ففي فدنكه الظّروف متوتّرة دائمًا والنّاس مستعدّون لأيّ شيء يحدث. نعم يتجمّع النّاس في أوقات المساء ويجلسون بهدوء مع أصدقائهم في خيمة أحدهم، لكن ليس هناك شيء كهذا حيث أنّ الأبواب مفتوحة بشكل واضح والنّاس يزورون بعضهم بعضًا بسهولة كبيرة والأولاد في كلّ مكان، هذا الوضع يبعث السّعادة جدًّا.

وعلى ماذا يعيشون هنا؟ لم يمنع أرتيوم نفسه من السّؤال حين لحق بالرّجل العجوز.

ماذا؟ ألا تعرف؟ قال ميخائيل بورفيرفيتش بأدب لكنّه كان متفاجئًا: هذه كوزنيتسكي موست، تجد فيها أفضل التّقنييّن في المترو كلّه والخبراء المهمّين. هم يجلبون كلّ أنواع الأدوات لتصلّح هنا من خط سوكولنيتشسكايا وحتّى من الرّينغ نفسها. إنّهم يزدهرون، يزدهرون. إنّ العيش هنا لامثيل له، تنهّد حالِمًا: لكنّهم صارمين جدًّا بخصوص ذلك.

تمنّى أرتيوم عبثًا لو كان في مقدورهم أن يناموا في واحدة من عربات السّكّك الحديديّة على سرير.

نُصِب صفّ من الخيام الكبيرة في وسط الصّالة من النّوع الّذي يعيش فيه النّاس في فدنكه، وعلى أوّل خيمة وصلوا إليها صفيحة رقيقة نُقِشت عليها كلمة (فندق) وكان بجوارها صفّ كامل من المشرّدين والهاربين. لكن ميخائيل بورفيرفيتش نادى أحد المنظّمين جانبًا ورنّت بعض القطع النحاسيّة، ثمّ همس بشيء سحريّ يبدأ ب (قسطنطين اليكسيفيتش) فسويّت المسألة.

سنذهب إلى هنا، قال بإيماءة مرحّبة، وقرقر فانيشكا فرحًا.

أعطوهم بعض الشاي هناك حتى دون أن يدفعوا شيئًا إضافيًّا من أجله، وكانت الفرشات على الأرض طريّة جدًّا ومريحة بحيث أنّك لا ترغب حقيقة بالنّهوض عنها بعد أن ترتمي فوقها. نفخ أرتيوم وهو شبه مضطجع على كوب الشّاي، وأصغى باهتمام إلى الرّجل العجوز الّذي كان يحكي له شيئًا مع نظرة حارقة وقد نسي فنجان شايه:

لديهم نفوذ عبر الفرع كلّه، ولن يخبرك أحد عن ذلك ولا يُسمح بدخول الحمر إليها أبدًا لكنّ الجامعة ليست تحت سيطرتهم، وكلّ شيء أبعد منها أيضًا. نعم، نعم، إنّ الخطّ الأحمر يستمرّ إلى سبورتيفنايا. وهناك ممرّ يبدأ منها سُمّي سابقًا بمحطّة لينينسكي غوري، ثمّ بدّلوا الاسم لكنّي لا أتذكّر سوى الاسم القديم. لكنّ لينينيسكي غوري كانت تحت جسر في الواقع، وكما ترى كان هناك انفجار على الجسر فانهار في النّهر وغرقت المحطّة بالفيضان وهكذا لم يبق أيّ اتّصال مع الجامعة منذ البداية.

ارتشف أرتيوم جرعة صغيرة من الشّاي، وشعر أنّ كلّ شيء في داخله يتجمّد بشكل حلو وملائم، ويمهّد لشيء متوقّع غامض وفريد، شيء عاد به إلى قضبان سكّة الحديد المكسورة الّتي كانت تتأرجح فوق جرف عميق على الخطّ الأحمر في الجنوب الغربيّ. كان فانيشكا يقضم أظافره ولا يتوقّف إلّا أحيانا لينظر برضا إلى ثمار جهده، ثمّ يستأنف عمله مرّة أخرى. نظر إليه أرتيوم نظرة عطف وشعر بالأسف على الصّبيّ الّذي كان هادئًا.

أنت تعرف، لدينا دائرة صغيرة في باريكادنايا، ابتسم ميخائيل بورفيريفتش بارتباك، وكنّا نجتمع في المساءات وأحيانًا يأتي إلينا أناس من يوليتسا في عام 1905. والآن هم يطاردون كلّ النّاس المفكّرين المختلفين عنهم. كما أنّ أنطون بتروفيتش انتقل إلى محطّتنا أيضًا... وهذا بالطّبع هراء، هي مجرّد تجمّعات أدبيّة، لكن أحيانًا كنّا نتكلّم بالسّياسة، وهم لا يحبّون النّاس المثقّفين وخصوصًا باريكادنيا. لهذا كنّا نفعل ذلك بهدوء، أمّا ياكوف يوسفوفتش كان يقول مدَّعيا أنّ محطّة الجامعة لم تمت، وأنّهم نجحوا بسدّ النّفق ومازال هناك بشر حتّى الآن. ليس بشر فقط بل... أنت تفهم، في المكان الّذي كانت فيه جامعة موسكو. ولهذا السّبب سُمّيت المحطّة بالجامعة وهكذا زعموا أنّ بعضًا من هيئة الأساتذة وبعضًا من الطّلّاب تمّ إنقاذهم في الجامعة. وكان هناك ملجأ ضدّ القنابل تحت الجامعة، شيء بناه ستالين وأعتقد أنّهم كانوا مربوطين بأنفاق خاصّة مع المترو.

والآن هناك نوع آخر من المراكز الثّقافيّة، ويحكم المحطّات الثّلاث والملجأ عميد الجامعة، وكلّ محطّة يرأسها شماس، وكلّهم يُنتخَبون لفترة محدّدة. والدّراسات هناك لا تتوقّف، فما زال هناك طلبة وخرّيجو جامعة ومعلّمون. والحضارة لم تمت كما حدث لها هنا، وهم يكتبون الأشياء ولم ينسوا كيف يُجرون البحوث. وقال أنتون بتروفتش أنَّ أحد أصدقاءه وهو مهندس، أخبره سرًّا أنّهم وجدوا طريقًا يذهب إلى السّطح. كما اخترعوا بذلات واقية، ويقومون بإرسال كشّافتهم إلى داخل المترو أحيانًا. ستُقِرُّ أنّ هذا يبدو غير محتمل، وأضاف ميخائيل بورفيرفتش وهو شبه

متفائل وينظر إلى عيني أرتيوم، فلاحظ أرتيوم شيئًا حزينًا في عينيه وأملا متعبًا جبانًا جعل أرتيوم يسعل قليلًا ويجيب بشكل واثق ما أمكن:

لماذا؟ هذا يبدو محتملًا تمامًا، خذ بوليس مثلًا، فقد سمعت نفس الشّيء عنها.

نعم إنّها مكان رائع، ولكن كيف استطعت أن تصل إلى هناك في هذه الأيّام؟ فقد أخبروني في المجلس أنّ السّلطة استولت عليها القوات المسلّحة.

أيّ مجلس؟ رفع أرتيوم حاجبيه.

ماذا؟ بوليس يحكمها مجلس من أكثر الأشخاص تسلّطا، وهناك كما تعرف النّاس المتسلّطون يكونون إمّا من أمناء المكتبات، أو من العسكريّين. لكن أنا لا أعرف في الحقيقة عن بيبليوتيكا لينينا بالضّبط، لهذا فالحديث عنها لا معنى له، لكنّ المدخل الآخر إلى بوليس يقع خلف وزارة الدّفاع تمامًا كما أتذكّر، أو في مكان قريب منها. واستطاع بعض من الجنرالات النّزوح إليها في ذلك الوقت. في بداية الأمر استلم رجال القوّات المسلّحة السّلطة وحكمت هذه الطّبقة العسكريّة مدّة طويلة كافية، لكنّ النّاس لم يحبّوا حكمهم في الحقيقة، فهناك اضطراب سُفكت فيه الدّماء، وذلك منذ زمن بعيد قبل الحرب مع الحمر. بعدئذ وصلوا إلى تسوية وأُنشِأ هذا المجلس وحدث أن كان في داخله زمرتان: أمناء الكتب والعسكريّين. كان تركيبًا غريبًا طبعًا. فأنت تعرف أنّ العكسريّين لم يلتقوا بالكثيرين من المكتبيين في حياتهم، وكانوا هنا معًا فحدث هناك قتال أبديّ بين هاتين الزّمرتين طبعًا، تسيطر فئة أوّلًا ثمّ تسيطر الأخرى بعدئذٍ. وحين نشبت الحرب مع الحمر كان الدّفاع أهمّ من الثّقافة فرجحت كفّة الجنرلات. وبدأت الأوقات السّلميّة ثانية ونال المكتبيّون نفوذهم، وكان الأمر مثل بندول السّاعة هناك. وقد سمعت الآن أنّ العسكريّين يحظون بمركز أقوى ويفرضون نظامًا صارمًا هناك، فقد منعوا التّجوّل وكلّ متع الحياة الأخرى.

ابتسم ميخائيل بورفيرفتش: المرور من هناك ليس أسهل من الوصول إلى مدينة الزّمرّد... هذا ما نطلقه على الجامعة بيننا وعلى المحطّات المحيطة بها للسّخرية. عليك أن تمرّ من خلال الخطّ الأحمر أو من خلال هانسا، لكنّك لا تستطيع الذّهاب إلى هناك فأنت تدرك. سابقًا قبل الفاشيّين كان الذّهاب عبر بوشكينسكايا إلى تشيخوفسكايا ممكنًا، وبعدها لايظلّ سوى تحويلة واحدة إلى برورفيتسكايا، وهي تحويلة غير جيّدة طبعًا لكنّي شققت دربي عبرها حين كنت بعمر أصغر.

سألَ أرتيوم عن الأمر السّيّء جدًّا بخصوص الانتقال، فردّ الرّجل العجوز متردِّدا:

أنت تدرك أنّ هناك قطار محروق في وسط النّفق تمامًا. وأنا لم أذهب إلى هناك منذ وقت طويل جدًّا لهذا لا أعرف كيف هو الآن، لكن سابقًا كنت ترى بقايا بشريّة متفحّمة فيه تجلس على مقاعده، وهذا شيء رهيب جدًّا. لا أعرف كيف حدث هذا، وسألت بعض الأصدقاء لكن لم يستطع أحد منهم أن يجيب بدقّة. ومن الصّعب جدًّا أن تمرّ من هذا القطار لأنّ النّفق بدأ ينهار، والقذارة ملأت كلّ الفراغات المحيطة بالقطار، وفي القطار نفسه تجري أشياء سيّئة متنوّعة يصعب تفسيرها. وأنا ملحد

بشكل عام كما تعرف ولا أؤمن بكل الهراء الرّوحي، والآن بتّ لا أؤمن بأيّ شيء بعد الآن.

هذه الكلمات قادت أرتيوم إلى الذّكريات الكئيبة حول الضّجيج الّذي في نفق خطّه، ولم يستطع أن يكبح نفسه، فأخبر الرّجل العجوز بما حدث لمجموعته ثمّ بما حدث لبوربون. وبعد تردّد قليل حاول أن يكرّر التّفسير الّذي قدّمه خان له.

ماذا؟ عمّا تتحدّث؟ هذا هراء مطلق، صدّه ميخائيل بورفرفتش وعقد حاجبيه بقسوة: سمعت مسبقًا عن أشياء كهذه، وأنت تذكر أنّني أخبرتك عن ياكوف يوسفوفتش، أليس كذلك؟ حسنًا، هو عالم فيزياء وفسّر لي أنّ حالات تمزّق النّفس والعقل هذه تحدث حين يتعرّض النّاس إلى أدنى الذّبذبات الصوتيّة، وهي غير مسموعة أساسًا، وإن لم أكن مخطئًا إنّها بقوّة سبعة هيرتزات تقريبًا. وعندئذ يكون عقلي مثل المنخل، وهذا الصّوت يمكن له أن يحدث من تلقاء نفسه نتيجة لعمليّات طبيعيّة، مثلًا: من تغييرات تيكتونيّة (متعلّقة بتشوّه القشرة الأرضيّة) وأشياء مشابهة. لم أكن أصغي بانتباه شديد حين أخبرني عن ذلك.. لكن هل لذلك علاقة ما بروح الميّت في الأنابيب؟ أرجوك...

كان هذا الرجل العجوز ممتعًا، لقد سمع منه أرتيوم أشياء لم يسمعها قط من أيّ أحد آخر. فالرّجل يرى المترو من زاوية مختلفة، قديمة الطّراز ومسليّة، وكان كلّ شيء يشدّ روحه إلى سطح الأرض كما هو واضح. فهو غير مرتاح أبدًا هنا بشكل واضح، كما لو كانت هذه أيّامه الأولى تحت الأرض. سأله أرتيوم الّذي كان يفكّر في الجدال بين سوخوي وهنتر:

وما هو رأيك؟ نحن أناس... أقصد، لن نعود أبدًا إلى السّطح، هل سننجو ونعود؟

لكنّه ندم فورًا على سؤاله كما لو أنّ السّؤال قطّع شرايين الرّجل العجوز، لكنّه أصبح رقيقًا مباشرة، وقال بهدوء وفي صوت لا حياة فيه: لا أعتقد ذلك، لا أعتقد ذلك، ولكن توجد هناك شبكات مترو أخرى في بطرسبورغ ومنسك ونوفغورود. ذكر أرتيوم الأسماء الّتي حفظها غيبًا والّتي كانت عبارة عن أصداف فارغة من الكلمات دائمًا.

آه، ياللمدينة الجميلة،بطرسبورغ! لم يجبه ميخائيل بورفرفتش لكنّه تنهّد بحزن.. أنت تعرف، إيزاك... أو ادمرالتيستفو، قمّة البرج هناك، يا له من سموّ وأناقة، يا للسموّ والأناقة، والمساءات في نيفسكي بروسبكت، النّاس والضّجيج والحشود والضّحك والأولاد مع البوظة والفتيات الجميلات... والموسيقا تُعزَف.... في الصّيف خصوصًا. إنّ الطّقس الجيّد في الصّيف نادر هناك، ولكن حين يحدث تكون الشّمس والسّماء لازورديّة صافية، ثمّ كما تعرف من السّهل جدًّا أن تتنفّس ثانية...

ثبتت عيناه على أرتيوم، لكنّ نظرته المحدّقة اخترقت الشّاب وذابت في البعيد الأثيري حيث أشرقت الصّورة الظّليلة الشّبه شفّافة والمهيبة من الدّخّان الدّاكن، وولّدت انطباعًا في نفس أرتيوم بأنّه يستطيع أن يستدير ويراها بنفسه. هدأ الرّجل العجوز وأطلق تنهيدة عميقة، فقرّر أرتيوم أن لا يُقاطع استغراقه في الذّكريات.

في الواقع كانت هناك شبكات مترو أخرى عدا عن شبكة موسكو. ربّما التجأ النّاس إليها وأنقذوا أنفسهم.. ولكن فكّر بها أيّها الشّاب، رفع ميخائيل بورفرفتش إصبعًا معقدًا في الهواء، كم سنة مرّت؟ ولاشيء.. بالتّأكيد لكانوا وجدونا بعد كلّ هذه السّنين لو بحثوا عنا. كلّا، نكس رأسه: لا أعتقد هذا.

ثمّ بعد خمس دقائق من الصّمت تنهّد الرّجل العجوز بصوت غير مسموع تقريبًا، وقال لنفسه أكثر ممّا لأرتيوم:

يا الله يا للعالم الجميل الّذي أفسدناه!

علق صمت ثقيل في الخيمة. كان فانيشكا الّذي سكن بالحديث الهادىء نائمًا وفمه مفتوح قليلًا، ويتنفّس بهدوء وأحيانًا يعوي قليلًا مثل كلب.

لم يقل ميخائيل بروفرفتش كلمة واحدة أخرى، ورغم أنّ أرتيوم كان متأكّدا أنّه لم ينم بعد، إلّا أنّه لم يُرد أن يضايقه. لهذا أغمض جفنيه وحاول أن ينام.

كان يظنّ أنّ النّوم سيأتي مباشرة بعد كلّ ما حدث له في مجرى ذلك اليوم اللّانهائي، لكنّ الوقت تلكّأ ببطء شديد. والفرشة الّتي بدت طريّة منذ قليل باتت الآن وعرة، واضطرّ أن يتقلّب مرّات كثيرة قبل أن يجد وضعيّة مريحة. كانت كلمات الرّجل العجوز ترنّ في أذنه وترنّ. كلّا، لا أعتقد هذا، لن تكون هناك عودة للطّرق المشجّرة المتلألئة والأبنية المعماريّة الفخمة والضّوء والنّسيم المنعش لمساءات الصّيف الّذي يخترق شعرك ويداعب وجهك. لا سماء بعد اليوم ولن تكون مثل السّماء الّتي وصفها الرّجل العجوز أبدًا. الآن كانت السّماء تتراجع نحو الأعلى وقد علقت في أسلاك سقف المترو الفاسدة وستبقى هكذا إلى الأبد. لكنّها كانت من قبل... ماذا قال؟ لازورديّة؟ صافية؟... كانت السّماء غريبة مثل الّتي رآها أرتيوم في الحدائق النباتيّة (بوتانيكال غاردنز) تغطّيها النّجوم، ولكن بدلًا من أن تكون زرقاء بنفسجيّة،كانت زرقاء كاشفة وامضة وبهيجة. وكانت الأبنية هائلة فعلًا لكنّها لا تضغط بكتلتها نحو الأسفل. كلّا، كانت خفيفة وسهلة كما لو أنّها نُسجت من هواء عذب. حلّقت عاليًا كأنّها غادرت الأرض وانمحت خطوطها المحيطيّة في ارتفاع السّماء اللّانهائي. وكم كان عدد النّاس هناك كبيرًا! لم ير أرتيوم عددًا كبيرًا من النّاس دفعة واحدة أبدًا إلّا في كيتاي غورود. ولكن ربّما كان عددهم هنا أكثر، والفراغ بين هذه الأبنية الهائلة مملوء بالنّاس. يسرعون هنا وهناك، عدد كبير من الأطفال بينهم، كانوا يأكلون شيئًا ربّما بوظة حقيقيّة. حتّى أنّ أرتيوم أراد أن يسأل أحدهم إن كان بمقدوره أن يجرّب بعضها، فهو لم يأكل البوظة الحقيقيّة أبدًا. حين كان صغيرًا أراد فعلًا أنّ يجرّب بعضها، ولكن لم يكن هناك مكان تُباع فيه، ومعمل الحلويّات لم يكن ينتج إلّا العفن والجرذان منذ زمن بعيد. أمّا هؤلاء الأولاد الصّغار الّذين يلعقون الطّعام الشّهيّ، فكانوا يهربون منه ويضحكون ويتملّصون منه برشاقة، ولم يحظ بفرصة النّظر في وجه أيّ واحد منهم. لم يعد أرتيوم يعرف ما الّذي كان يحاول أن يفعله، أيأخذ عضّة من البوظة أم ينظر إلى وجه أحد الأولاد فقط ليفهم إن كان للأولاد وجوه فعلًا؟... وأصابه الذّعر. بدأت خطوط أشكال الأبنية تُظلم ببطء، وبعد قليل صارت معلّقة فوقه بشكل مهدّد، ثمّ بدأت تقترب أكثر فأكثر.

كان أرتيوم يطارد الأولاد وبدا له أنّ الأولاد لم يكونوا يضحكون بفرح، بل بشكل شرّير. استجمع كلّ شجاعته وأمسك بأحد الصّبية الصّغار من كمّه، فجرّ الصّبيّ نفسه بعيدًا وخدشه كالشّيطان. لكنّه عصر حلق الصّبيّ بقبضته الحديديّة ونجح في النّظر إلى وجهه.. كان فانيشا... يزأر ويكشف عن أسنانه ويهزّ رأسه محاولًا أن يقبض على يد أريتوم. وفي حالة من الذّعر قذف به أرتيوم بعيدًا، فقفز الصّبيّ ورفع رأسه فجأة، ثمّ أطلق نفس العواء الرّهيب الّذي جعل أرتيوم يفرّ عائدًا إلى فدنكه.

والأولاد الّذين كانوا يندفعون في المكان بشكل عشوائيّ بدؤوا يتباطؤون وينظرون إليه من الطّرف ببطء، واقتربوا منه أكثر، وارتفعت الأبنية السّوداء الضّخمة فوقهم تمامًا، واقتربت أكثر وكان الأولاد يملؤون الفراغات المتناقصة بين الأبنية. وهاجموا فانيشكا فقد ملأهم الحقد والحزن البارد، وأخيرا تحوّلوا إلى أرتيوم. لم يكن لهم وجوه وإنّما مجرّد أقنعة جلديّة سوداء رُسمت عليها أفواه وعيون بلا بياض أو بؤبؤ.

وفجأة، سمع أرتيوم صوتًا لم يستطع أن يحدّد ما هو، ومع أنّه كان هادئًا وكانت المعركة الآثمة تغرقه، لكنّ الصّوت تكرّر بإصرار. أصغى إليه عن قرب وحاول أن يلفت انتباه الأولاد الّذين يقتربون أكثر فأكثر، وعرف أرتيوم أخيرًا ما يقوله الصّوت (يجب أن تذهب) وقالها مرّة أخرى وأخرى، وتعرّف على الصّوت.. إنّه صوت هنتر.

فتح عينيه ورمى أغطيته عنه، كانت الخيمة مظلمة ورطبة وحارّة، رأسه امتلأ بحمل ثقيل وأفكاره تتقلّب بكسل وثقل. لم يستطع أرتيوم أن يعود إلى شعوره ليعرف كم المدّة الّتي قضاها وهو نائم، وهل حان موعد الاستيقاظ ليواصل طريقه، أم عليه أن يعود للنّوم ويحاول الحصول على حلم أفضل.

شُدَّت أطراف الخيمة جانبًا، ومن خلال الفرجة أقحم حارس الحدود رأسه، وسمح لهم بالدّخول إلى كوزنيتسكي موست. كونستاتين... ماذا كان اسمه الثّاني؟

ميخائيل بورفرفتش، انهض الآن، ميخائيل بورفرفتش.. هل مات الرّجل أم ماذا؟ تسلّق إلى داخل الخيمة غير مكترث بأرتيوم الّذي كان يحملق فيه خائفًا وبدأ يهزّ الرّجل العجوز النّائم.

استيقظ فانيشكا أوّلا وبدأ يجأر بشكل سيّء. لم يكترث الحارس به وحين حاول فانيشكا أن يشدّ ذراعه، فلكمه على أذنه. عندئذ استيقظ الرّجل العجوز.

ميخائيل بروفرفتش، انهض بسرعة، همس حارس الحدود بإلحاح: يجب عليك أن تذهب. إنّ الحمر يسألون عنك ويطالبون بتسليمك إليهم ككاذب ومروّج دعائي معادي. أخبرتك دائما حينما تكون هنا، وحينما تكون في محطّتنا القذرة، لا تبدأ بحديثك الجامعي، ألم تسمعني؟

أرجوك ياقسطنطين إليكسييفتش، ما كلّ هذا؟ بدأ رأس الرّجل العجوز يتشوّش ونهض من سريره: أنا لم أقل أيّ شيء ولم أروّج لأيّ دعاية. كنت أخبر الشّاب عن إسقاط الفكر، ولكن بهدوء تامّ ولم يكن هناك شهود...

حسنًا، خذ الشاب معك، وأنت تعرف ما نوع هذه المحطة. في لوبليانكا يخرجون أحشاءك ويعدمونك على عصا، ويدفنون صديقك هنا مقابل الجدار فورًا وبذلك لن يتحدّث ثانية. تعال، أسرع، لماذا تتلكّأ؟ إنّهم قادمون من أجلك الآن، هم يتشاورون للحظة ليقرّروا ماذا سيطلبون مقابل تسليمك، لهذا عجّل.

وقف أرتيوم ووضع حقيبته على ظهره، ولم يعرف إن كان سيخرج سلاحه أم لا. احتجّ الرّجل العجوز ولكن وبعد دقيقة واحدة كنّا جاهزين على الطّريق، ومشينا مسرعين. عندئذ وضع قسطنطين أليكسييفتش يده بقوّة على فم فانيشكا الّذي ارتسم عليه تعبير شهيد، ونظر الرّجل العجوز إليه بقلق فقد خاف أن يلوي حارس الحدود عنق الصّبي.

كان الوضع الدّفاعي للنّفق المؤدّي إلى بوشكينسكايا أفضل ممّا كان عليه النّفق الآخر. فهنا تجاوزوا نطاقين محميّين، في المتر مائة والمتر مائتين عن المدخل. في النّفق الأوّل كان هناك تعزيزات إسمنتيّة ومتراس قطع الطّريق وأجبر النّاس على المرور في درب ضيّق بجانب الجدار وإلى اليسار منه. وكان هناك هاتف يؤدّي سلكه إلى مركز المحطّة مباشرة وإلى مركز القيادة على الأرجح. في نطاق الحماية الثّاني كانت هناك أكياس الرّمل المعتادة والمدفع الرّشاش والمصابيح الكشّافة مثل الطّرف الآخر. كان هناك موظّفو جمارك في كلا الموقعين لكنّ قسطنطين أليكسييفيتش قادهم عبر النّطاقين المحميّين إلى الحدود.

دعونا نذهب. سأذهب معكم لخمس دقائق، وأخشى أنّك لن تستطيع أن تأتي إلى هنا ثانية يا ميخائيل بورفرفتش، قال وهم يمشون ببطء باتّجاه بوشكينسكايا، لم يغفروا لك خطايك السّابقة بعد ثمّ عدت وكرّرت فعلها. سمعت أنّ الرّفيق موسكفين مهتمّ شخصيًّا، هل تسمعني؟ حسنًا، سنحاول التّفكير في شيء آخر. احذر حين تمرّ عبر بوشكينسكايا، قال وهم يواصلون السّير في الظّلام: اعبرها بسرعة، فنحن خائفون منهم، الوداع، ونتمنّى لك الخير والسّلامة.

الآن، لايوجد مكان يذهب إليه الفارّون لذلك قصّروا خطاهم.

ما الّذي جعلهم حاقدين عليك بهذه القوّة؟ سأل أرتيوم وهو ينظر إلى الرّجل العجوز في فضول.

حسنًا، كما ترى، أنا لا أحبّهم فقط، وحين استعرت الحرب، ألّفت دائرتي الصّغيرة وهي عبارة عن بعض النّصوص. وأنطون بتروفتش الّذي كان يعيش في بوشكينسكايا آنذاك، توصّل إلى مطبعة في بوشكينسكايا حيث كان بعض المجانين يطبعون الأخبار، وطبع النّصوص هناك.

لكن حدّ الحمر يبدو غير ضارّ فهناك شخصان وراية معلّقة، ولا توجد تعزيزات، فتذكّر أرتيوم فجأة حدود هانسا، فهي ليست كذلك.

طبعًا، من هذا الجانب كلّ شيء غير مضرّ، لأنّ قوّتهم الرّئيسيّة على الدّاخل وليس الخارج، أمّا على الحدود هي مجرّد زخرفة.

ساروا في صمت، كل منهم يفكر بأفكاره الخاصّة به. كان أرتيوم يستمع إلى أحاسيسه اتّجاه النّفق، وهو عمل غريب ولكن هذا النّفق والنّفق الآخر الّذي يبدأ من كيتاي غورود ويصل إلى كزونيتسكي موست، كانا فارغين، ولا يمكنك أن تشعر بوجود أيّ شيء فيهما. لم يمتلئا بأيّ شيء وكانا مجرّد بنائين لاروح فيهما.

عندئذ تذكّر الكابوس الّذي رآه، وقد مُحيت تفاصيله من ذاكرته ولم يبق سوى ذكريات غامضة مخيفة لأولاد بلا وجوه، وكتل كبيرة سوداء بمواجهة السّماء. لكن فجأة سمع صوتًا... فلم يستطع أن يتابع الفكرة إلى آخرها. سمع الصّرير المألوف البغيض وحفيف المخالب، ثمّ فاحت رائحة اللّحم المتعفّن الخانقة المغثّة. وحين وصل ضوء مصابيحهم إلى المكان الّذي أتت منه، رؤوا أمام أعينهم منظرا جعل أرتيوم يعتقد أنّ العودة إلى الحمر أفضل.

عند الجدار استلقت أجساد منتفخة في صفّ واحد، وجوههم للأسفل وأياديهم مربوطة وراء ظهورهم بسلك، وقد قضمتهم الجرذان. وضع أرتيوم كمّ سترته على أنفه بقوّة كي لا يشمّ الهواء السّام الثّقيل المغثّ، وانحنى فوق الأجساد وسلّط ضوءه عليها. جُرِّدت الأجساد من ثيابها ماعدا الدّاخلية منها، ولم يظهر عليها أيّ إصابة أو ضرر، لكن شعر رؤوسهم التصق ببعضه بسبب الدّم وكان سميكًا حول النّقطة السّوداء لفتحة الرّصاصة بشكل خاص.

في مؤخّرة الرّأس، أشار أرتيوم وحاول أن يتكلّم بصوت هادئ، لكنّه شعر أنّه قد يتقيّأ فجأة.

ماذا فعلوا؟ يا إلهي ماذا فعلوا؟ قال وهو يتنهّد: لا تنظر يافانيشكا ولا تأتي إلى هنا.

لكنّ فانيشكا ودون أدنى خوف، قرفص على عقبيه بجانب أقرب جثّة، وبدأ يشير إليها بإصبعه وهو يجأر بقوّة. انزلق ضوء المشعل على الجدار وأضاء قطعة متّسخة من الورق كانت مثبّتة فوق الجثث بمستوى العين طُبعت فوقها الأحرف (فيرتر رايخ-الرايخ الرّابع) وأرفقت معها صورة نسر، كما كُتب عليها باللّغة الروسية (لا يُسمح لأيّ حيوان داكن البشرة ضمن الثّلاث مائة متر من الرّايخ العظيم) وكُتب أيضًا (و لا عبر الطّريق) وظهرت إشارة أيضًا بشكلها الأسود الدّائريّ ورجل صغير الحجم يعبرها.

خنازير، قال أرتيوم وأسنانه مُطبقة: كلّ هذا لأنّ لون شعرهم مختلف؟

هزّ الرّجل العجوز رأسه بحزن وجرّ فانيشكا من ياقته. كان منشغلا بدراسة ومعاينة الأجساد ولم يُرد أن يرفعه أحد من وضعه القرفصائيّ.

أرى أن آلة طباعتنا مازالت تعمل، قال ميخائيل بورفرفتش بحزن، وتحرّك.

تابع المسافرون سيرهم ببطء أكبر، وبعد دقيقتين شاهدوا العبارة (300 متر) مرسومة على الجدار بصباغ أحمر.

بقي أمامنا ثلاثمائة متر لنصل، قال أرتيوم وهو يصغي إلى صدى نباح كلب بعيد.

وعلى بعد ثلاثمائة متر من المحطّة ضربهم ضوء ساطع فتوقّفوا...

أيديكم فوق رؤوسكم، فقوا ولا تتحرّكوا، زأر صوت عبر مكبّر صوت. وضع أرتيوم يديه خلف رأسه صاغرًا، وأقحم ميخائيل بورفرفتش يديه في الهواء. قلت: على كل واحد منكم أن يرفع يديه، تقدّموا ببطء، ولا تأتوا بأيّ حركة مفاجئة، تابع الصّوت المتوتّر. ولم يستطع أرتيوم أن يرى الشّخص الّذي كان يتكلّم لأنّ الضّوء يضرب عينيه، ولا يستطيع إلّا النّظر للأسفل.

بعد أن مشوا بخطى صغيرة لمسافة ما، وقفوا ساكنين حين أُمروا بذلك، وأخيرًا حوّلوا ضوء الكشّاف عنهم جانبًا.

لقد نُصب متراس كامل هناك، تمترس فيه اثنان من رماة الرّشّاش ورجل آخر في حزامه قراب مسدّس، وكانوا يرتدون الثّياب المموّهة مع بيريهات سوداء أمالوها فوق رؤوسهم الحليقة. كما أنّ لديهم ربطات أذرع بيضاء اللّون مع شيء يبدو مثل الصّليب الألماني المعقوف عليها، لكنّه بثلاثة رؤوس وليس أربعة. وهناك أشكال داكنة بعيدة عنهم لا ترى إلّا بصعوبة، وكلب يتلوّى بعصبيّة عند أقدامهم. أمّا الجدران المحيطة فقد طُليت بصور الصّلبان والنّسور والشّعارات والشّتائم الموجّهة ضدّ أيّ شخص من غير الرّوس. حيّرت هذه الشّتائم أرتيوم إلى حدّ ما لأنّها كُتبت باللّغة الألمانيّة جزئيًا. وفي مكان يمكن رؤيته تحت أحد الألواح، هناك صورة ظليلة لنسر وصليب ثلاثيّ الرّؤوس معقوف. بالإضافة إلى تلك الشّارة مرّة أخرى، والّتي أضاءت من الأسفل. فاعتبر كلّ من أرتيوم والرّجل ذو المظهر الأسود المشؤوم، أنّها تُعْرَض كأيقونة دينيّة لهم.

تقدّم إليهم أحد الحرّاس وأشعل مصباحًا طويلًا حمله على مستوى الرّأس. ومشى ببطء حولهم وهو ينظر في وجوههم باستمرار، وعلى مايبدو كان يحاول أن يجد دليلًا عن ملامح غير سلافيّة. لكنّهم بدوا روسيّين كلّهم، فأبعد المصباح جانبًا وهزّ كتفيه خائبًا بلا مبالاة.

الوثائق، أمرهم قائلًا.

مدّ أرتيوم جواز سفره بسرعة ونبش ميخائيل بورفرفتش جيبه ووجده أخيرًا.

وأين وثائقك من أجل هذا الواحد؟ سأل الحارس الأكبر سنًّا وهو يُشير إلى فانيشكا باشمئزاز.

كما ترى، هذا الشّيء هو ذلك الصّبي... بدأ الرّجل العجوز بالشّرح.

اصمت، يجب أن تخاطبني بلقب (ضابط) وأن تجيب عن السّؤال بالضّبط، نبح به من يتفحّص الوثائق ومصباحه في يده.

أيّها الضّابط أنت ترى، هذا الصّبيّ مريض، وليس لديه جواز سفر وهو مجرّد ولد صغير، لكن انظر إنّه منسوب لي، سأريك هنا... بدأ ميخائيل بورفرفتش يهذر وهو ينظر إلى الضّابط ويرجو خدمة ويحاول أن يجد شرارة تعاطف في عينيه.

لكنّ الرّجل ظلّ واقفًا منتصبًا وصلبًا مثل صخرة، وكان وجهه مثل حجر. وشعر أرتيوم ثانية أنّه يريد أن يقتل أحدًا ما.

أين صورته؟ بصق الضّابط وهو يقلب الصّفحات.

فانيشكا الّذي كان واقفًا بهدوء حتّى تلك النّقطة، ويراقب بتوتّر صورة الكلب الظّليلة والّذي كان يقرقر من حين لآخر، تحوّل الآن إلى من يتفحّص الوثائق، فجرّد أسناه ونعب باحتقار. كان أرتيوم خائفًا جدًّا من أجله لدرجة أنّه نسي عداءه نحو الرّجل ورغبته في ركله بقوّة.

تراجع فاحص الوثائق خطوة إراديّة وحدّق بفانيشكا بقسوة، وقال: تخلّص من هذا فورًا أو سأقوم أنا بذلك.

أرجوك سامحه أيّها الضّابط فهو لا يفهم ما يقوم به، اندهش أرتيوم وهو يسمع كلامه.

نظر إليه ميخائيل بورفرفتش ممتنًّا، وخشخش فاحص الوثائق بسرعة في جواز أرتيوم وأعاده له وقال ببرود: لا أسئلة من أجلك، يمكنك المرور.

تقدّم أرتيوم بضع خطوات ثمّ تجمّد وشعر أنّ ساقاه لا تطيعانه. التفت الضّابط عنه وكرّر سؤاله للاثنين الآخرين عن الصّورة.

أنت ترى، هذا الشّيء يكون... بدأ ميخائيل بورفرفتش متلعثمًا ثمّ أضاف: أيّها الضّابط ليس هناك مصوّر حيث نعيش، والوصول إلى المحطّات الأخرى مكلف كثيرًا، وأنا لا أملك المال للحصول على صورة.

انزع ثيابك، قاطعه الرّجل قائلًا.

اعذرني؟ ارتعش صوت ميخائيل بورفرفتش وارتجفت ساقاه.

رمى أرتيوم حقيبته على الأرض دون أن يفكّر بما كان يفعله.. هناك بعض أشياء لا تريد أن تفعلها وتعاهد نفسك أنك لن تفعلها، ثمّ تحدث من تلقاء نفسها فجأة. حتّى أنّ الوقت لا يتوفّر لك لتفكّر بها، ولاعلاقة لها بمركز الوعي في الدّماغ.. فهي تحدث هكذا وتتركك تراقب نفسك باندهاش وتقنع نفسك أنّ ذلك لم يكن خطأك، وأنّ الأمر حدث من تلقاء نفسه.

إن جرّدوهما من ثيابهما واقتادوهما مثل الآخرين إلى المتر ثلاثمائة، فسيخرج أرتيوم بندقيّته الآليّة من حقيبة ظهره ويحوّلها إلى الإطلاق الأتوماتيكي، وسيردي أقصى ما يمكنه من هؤلاء غير الإنسانيّين المموّهين، ولن يتوقّف حتّى يردونه قتيلًا. أيّ شيء آخر لا معنى له، فليس مهمًّا أنّه عرف ميخائيل وفانيشكا من يوم واحد فقط، وليس مهمًّا أيضًا أن يقتلوه. ماذا يمكن أن يحدث لفدنكه؟ ليس هناك أيّ فائدة في التّفكير بما يمكن أن يحدث بعد ذلك، فهناك أشياء أبسط من أن نفكّر بها.

تجرّدوا من ثيابكما، قال الرّجل بحرص وهو يكرّر أمره: تفتيش.

لكن لو سمحت... نطق ميخائيل بورفرفتش بوضوح.

اصمت، نبح الرّجل: بسرعة، وقد عزّز كلماته بإيماءة أخرج فيها مسدّسه من جرابه.

بدأ الرّجل العجوز يفك أزرار سترته بسرعة، وأبعد فاحص الوثائق مسدّسه عنهما وراقب بصمت كيف نزع الرّجل العجوز ثيابه الدّاخليّة وهو يثب على قدم واحدة لينزع حذاءه، ويترنّح محاولًا أن يفكّ حزامه.

أسرع من ذلك، نبح الضّابط بصوت مسعور.

أنا أخرق كما ترى... بدأ ميخائيل بورفرفتش، لكنّ فاحص الوثائق ضجر منه أخيرًا ولطم العجوز على أسنانه.

اندفع أرتيوم إلى الأمام، ولكنّ ذراعان قويّان أمسكتا به من الخلف، وكان عبثًا مهما حاول أن يخلّص نفسه منهما.

بعد ذلك حصل شيء لم يتوقّعه أحد. فانيشكا الّذي كان بنصف حجم السّفاح الّذي يضع بيريه سوداء، جرّد أسنانه فجأة وبزئير حيوان اندفع إليه. لم يتوقّع الرّجل هكذا سرعة من الصّبيّ البائس، نجح فانيشكا بالإمساك بيده اليسرى وضربه على صدره حتّى. لكن وبعد ثانية واحدة استعاد الضّابط نفسه وقذف بفانيشكا بعيدًا، وتراجع خطوة للوراء ومدّ يده الّتي تحمل المسدّس وشدّ الزّناد.

دوّت الطّلقة الّتي تضخّمت بصداها في النّفق، في آذانهم. لكنّ أرتيوم استطاع أن يسمع كيف نشج فانيشكا بصمت وجلس بعدها على الأرض. كان مطويًّا على نفسه يمسك بمعدته في يديه، حين ركله الضّابط وشدّ الزّناد مرّة أخرى، وصوّب على الرّأس وعلى وجهه تعبير من الاشمئزاز.

أنا حذّرتك، قالها وقد رمى ميخائيل يورفرفتش الّذي تجمّد في مكانه بنظرة باردة، ونظر إلى فانيشكا وقد تدلّى فكّه وخرجت من صدره أصوات حشرجة.

في تلك اللّحظة، اسودّ كلّ شيء في عيني أرتيوم وشعر بقوّة كبيرة في داخله، لذلك كاد الجنود الّذين أمسكوا به من الخلف يسقطون حين اندفع إلى الأمام. وكان لأرتيوم متّسع من الوقت ليمسك بقبضة بندقيّته الرّشّاشة، فحرّك قفل الأمان من مكانه وأطلق طلقة عبر حقيبة الظّهر، استقرّت في صدر الضّابط.

شعر أرتيوم بالرضا حين لاحظ خطًّا أسود من النّقاط على الثّياب المموّهة الخضراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع: أنت ستموت DU STIRBST

يجب أن يُشنق، قرّر آمر الموقع. وعلت موجة تصفيق واستحسان عذّبت سمعه بلا رحمة.

رفع أرتيوم رأسه بصعوبة ونظر من جانب لآخر. لم يستطع أن يفتح سوى عين واحدة، أمّا الأخرى فقد تورّمت تمامًا، لقد عذّبه المستجوبون بكلّ قوتّهم ولم يكن يسمع جيًّدا أيضًا، كما لو أنّ الأصوات تشقّ طريقها إليه عبر طبقة سميكة من القطن الطّبيّ، وشعر أنّ أسنانه ما زالت في مكانها، ولكن ما هي حاجته إليها بعد الآن؟

مرّة أخرى، نفس المرمر الأبيض والمتاع العادي، هنا. وكان هذا المرمر الأبيض ينرفزه ويوتّره سلفًا. وهناك ثريّتان حديديّتان ضخمتان في السّقف، ربّما كانتا في الماضي أشياء كهربائيّة، أمّا الآن فهما شموع دهنيّة تحترق في كلّ المحطّة، والسّقف فوقهما أسود تمامًا. واحدة منهما في نهاية الطّرف حيث يقع درج واسع، والأخرى في المكان الّذي وقف فيه أرتيوم في وسط القاعة على درجات سلّم جسر صغير يتّصل بممرّ جانبيّ يؤدّي إلى خطّ آخر في المترو.

قناطر نصف دائرية مألوفة وأعمدة غير مثيرة للاهتمام، وفسحة كبيرة من الفراغ. أيّ نوع من المحطّات هذه؟

سيُنفّذ الإعدام غدًا في السّاعة الخامسة صباحًا في محطّة تفيرسكايا، هذا ما حدّده ذلك الرّجل البدين الواقف بجانب آمر النّقطة.

يلبس الرّجل ثيابًا مموّهة خضراء كرئيسه، لكن في بزّة مع أزرار صفراء لمّاعة، وعلى رأس كلّ منهما بيريه سوداء لم تكونا كبيرتين ولم تصنعا بشكل فجّ كتلك الّتي على رؤوس الجنود في النّفق.

كانت هناك نقوش كثيرة للنّسور والصّلبان المعقوفة الثّلاثيّة الرّؤوس، والشّعارات الّتي رُسمت بعناية كبيرة في أحرف قوطيّة. حاول أرتيوم جاهدًا أن يركّز على الأحرف الضّبابيّة، وقرأ: المترو للرّوس، داكنو البشرة إلى السّطح، الموت لآكلي الجرذان.

بعد ذلك قرأ إحدى مقولات هتلر وهي: الجسد السّليم يعني روحًا سليمة. وكانت هناك صورة واحدة أثّرت به بشكل خاص. وقد رُسمت هذه الصّورة بمهارة، لجنديّ شجاع مع فكّ جبّار وذقن قويّة ولامرأة تبدو مصمّمة، وقد صُوّرا في وضع جانبيّ، لهذا كان الرّجل يحمي المرأة. وكُتب شعار تحتها (كلّ رجل جندي وكلّ امرأة هي أمّ لجندي) كلّ هذه النّقوش والصّور أخذت من انتباه أرتيوم أكثر ممّا فعلته كلمات آمر الموقع.

أمامه مباشرة وخلف نطاق محميّ كان الحشد هائجًا. لم يكن العدد كبيرًا، وكانوا يرتدون سترات ملحفة وأفرولات ملوّثة بالشّحم تخلو من الذّوق أساسًا. لم تكن هناك أيّ امرأة، وإذا كان هذا المنظر يعكس الحقيقة، فلن يكون هناك المزيد من الجنود

في المستقبل.هوى رأس أرتيوم فلم تكن لديه القوّة لرفعه للأعلى، ولو لم يكن هناك اثنان من الكشّافة من ذوي الأكتاف العريضة والبيريهات يسندونه تحت ذراعيه لسقط قبل الآن.

شعر بالإغماء مرّة أخرى وبدأ رأسه يلف ولم ينجح في قول أيّ شيء ساخر. لقد تصوّر أرتيوم أنّهم سيقلبونه رأسًا على عقب أمام هؤلاء النّاس.

سيطر على أرتيوم شعور بعدم اكتراث غبيّ حول ما سيحدث له، ولم يكن لديه الآن سوى اهتمام مجرّد وحيد بكلّ ما يحيط به، وكأنّ هذه الأشياء لن تحدث له وإنّما قرأ عنها في كتاب يهمّه فيه قدر الشّخصيّة الرّئيسيّة طبعًا، ولكن إن قُتلت فسيرمي الكتاب ويختار عندئذ كتابًا آخر من الرّفّ، كتاب تكون نهايته سعيدة.

في البداية، ضُرب بحرص من قبل أناس أقوياء صبورين، بينما سأله آخرون أسئلة ذكيّة ومميّزة. وغُطّيت الغرفة بآجر أصفر مزعج جعل مسح الدّم سهلًا منها لكنّ التّخلّص من رائحته كان مستحيلًا.

في البداية علّموه أن يخاطب الرّجل الهزيل ذو الشّعر الخفيف النّاعم والملامح الدّقيقة، والّذي كان يقود الاستجواب بالآمر، ثمّ علّموه بعد ذلك ألّا يجيب عن الأسئلة بسؤال، وأن يجيب عن الأسئلة بدقّة ووضوح وألّا يخرج عن الموضوع.

لم يستطع أرتيوم أن يفهم لماذا ما زالت أسنانه في فمه، مع أنّ بعضها كان يتقلقل بقوّة، وفي فمه طعم دائم من الدّم. في البداية حاول أن يدافع عن نفسه ويبرّر تصرّفه لكنّهم شرحوا له أن ذلك لن يجدي. بعدئذ حاول أن يظلّ ساكتًا لكنّه اقتنع سريعًا أنّ هذا التّصرف غير صحيح. أن يضربك رجل قوي على رأسك شعور غريب تمامًا، ليس الألم فقط وإنّما نوع من إعصار يمسح كلّ الأفكار من رأسك ويحطّم مشاعرك إربًا إربًا. إنّ العذاب الحقيقيّ يحدث بعد ذلك.

بعد برهة أدرك أرتيوم ما عليه فعله، عليه أن يقوم بما يتوقّعه الآمر (القائد) منه بأفضل طريقة ممكنة. فلو سأله القائد مثلًا إن كانت كوزنيتسكي موست أرسلته، فعليه أن يؤكّد ذلك بإيماءة من رأسه، فذلك يتطلّب قوّة أقل ولن يعقف القائد أنفه القوقازي على الإجابة، أو يضربه مساعده. زعم القائد أنّ أرتيوم أُرسل بهدف جمع معلومات عسكريّة والقيام بنوع من الأعمال التّخريبيّة. وافق ثانية بتنكيس رأسه، عندئذ فرك المعذّب يديه معًا برضا، وأنقذ أرتيوم عينه الثّانية. وكان من المهم أن لا يميل برأسه فقط وإنّما أن يستمع إلى أسئلة القائد بدقّة، لأنّه إن وافق أرتيوم دون أن ينتبه سيستاء مزاج الآمر ويحاول أحد مساعديه كسر أحد أضلاع أرتيوم. بعد ساعة ونصف من هذه المحادثة البطيئة والهادئة لم يعد أرتيوم يشعر بجسده، ولم يكن يرى جيّدًا واستطاع بالكاد أن يسمع، ولم يفهم شيئًا تقريبًا. لقد فقد الوعي بضع مرّات لكنّهم كانوا يعيدونه إلى وعيه بالماء المجمّد والنّشادر. وكأنّ الحديث مع شخص مثله ممتع جدًّا.

في النّهاية، كانت فكرتهم مزيّفة وخاطئة تمامًا عن أرتيوم. فهم رؤوه جاسوسًا للعدو ومخرّبًا ظهر لكي يطعن الرّايخ الرّابع في الظّهر ويقطع رأس القيادة ويزرع بذور

الفوضى تحضيرًا للغزو. كان الهدف النّهائي تشييد نظام حكم قوقازي صهيوني معاد للقوميّة في كلّ أرجاء شبكة المترو. رغم أنّ أرتيوم لا يفهم سوى القليل عن السّياسية، إلّا أنّ هكذا هدف عالمي بدا له جديرًا، لهذا أخبرهم أنّ ذلك كان صحيحًا أيضا. ومن الجيّد أنه وافق فلهذا السّبب ما زالت كلّ أسنانه موجودة. وبعد أن تكشّفت التّفاصيل النّهائيّة للمؤامرة، سمحوا لأرتيوم أن يفقد الوعي.

حين استطاع فتح عينه الوحيدة لآخر مرّة كان القائد يقرأ العقوبة، أمّا الشّكليّات النّهائيّة فتمّت حين أعلن موعد رحيله من هذا العالم أمام العلن. شدّوا غطاء أسود فوق رأسه ووجهه فاستاعت رؤيته بشكل دراماتيكيّ، ولم يستطع أن يرى شيئًا وبات مشوَّشا أكثر. نجح بالكاد في البقاء واقفًا لدقيقة واحدة، ثمّ توقّف عن الصّراع حين تشنّج جسده وتقيّأ على حذائه. تراجع الحارس بحذر خطوة إلى الوراء وجلجل الجمهور ساخطًا.

وشعر أرتيوم بالخزي للحظة ثمّ شعر برأسه يسبح وبركبتيه تنثنيان.

هناك رجل قويّ رفع ذقنه، ثمّ سمع صوتًا مألوفًا بدا له وكأنّه قادم من عالم الأحلام:

دعنا نذهب، تعال معي يا أرتيوم، انتهى كلّ شيء، انهض. لكنّ أرتيوم لم يجد القوّة بعد لينهض ويرفع رأسه.

كان الظّلام شديدًا ربّما بسبب الغطاء. هل سينزعه لو لم تكن يداه مقيّدتان خلف ظهره؟ إنّ نزعه كان ضروريًّا، لينظر ويرى إن كان هذا الشّخص الّذي يدعوه للنّهوض والذّهاب موجودًا حقًّا أم أنّه يتخيّل.

الغطاء.. نجح أرتيوم في قولها راجيًا أن يفهم عليه الشّخص ما يعنيه.

اختفى الحجاب الأسود الّذي كان على عينيه، وعندئذ رأى أرتيوم هنتر أمامه. لم يتغيّر إطلاقًا منذ الوقت الّذي تحدّث إليه أرتيوم في فدنكه. سواء كان برهة في الماضي أم أبديّة كاملة. كيف وصل إلى هنا؟ حرّك أرتيوم رأسه بإنهاك ونظر حوله. كان على منصّة نفس المحطّة الّتي قرأوا عليه حكمه فيها. هناك أجساد ميّتة في كلّ مكان، وبضع شموع في ثريّا واحدة فقط والدّخّان يتصاعد منها، أمّا الثّريّا الأخرى فكانت منسوفة. كان هنتر يحمل في يده اليمنى نفس المسدّس الّذي أذهل أرتيوم كثيرًا آخر مرّة، وبدا ضخمًا جدًّا مع كاتم الصّوت الطّويل المثبّت على سبطانته، وجهاز الرّؤية اللّيزري المثير. إيه (ستيشكين). نظر هنتر إلى أرتيوم بقلق واهتمام.

هل أنت على ما يرام؟ هل تستطيع المشي؟

نعم، ربّما. استجمع أرتيوم شجاعته، لكنّه اهتمّ بشيء آخر في تلك اللّحظة. هل أنت حيّ؟ هل سارت الأمور معك بشكل جيّد؟

كما ترى، ابتسم هنتر بضجر: شكرًا لمساعدتك لي.

لكنّي لم أكمل المهمّة، هزّ أرتيوم رأسه وتألّم بشكل حارق وملأه الشّعور بالخزي.

أنت فعلت كل ما استطعته، ربت هنتر بلطف على كتفه.

وماذا يحدث الآن في الوطن؟ في فدنكه؟

كلّ شيء رائع يا أرتيوم، لقد مرّ كلّ شيء. استطعتُ أن أهدم المدخل، والآن لم يعد باستطاعة الدّارك ونز الدّخول إلى المترو بعد الآن، نحن نجونا، دعنا نذهب.

وماذا حدث هناك؟ نظر أرتيوم حوله وهو يلاحظ برعب أنّ الجدار كلّه كان ممتلئًا بالجثث، وأنّه لا يسمع سوى صوته وصوت هنتر فقط.

لا شيء مهم، نظر هنتر في عينيه بقوّة: يجب أن لا تقلق حول ذلك. ثمّ انحنى للأسفل ورفع حقيبة ظهره من الأرض. في الحقيبة بندقيّة آليّة عسكريّة تدخّن، وحزام رصاصه نفذ تقريبًا.

تحرّك هنتر للأمام وحاول أرتيوم أن يجاريه في المشي. رأى وهو ينظر من جانب لآخر شيئًا لم يلاحظه من قبل. عدد من أشكال داكنة تتدلّى من الجسر الصّغير، في نفس المكان الّذي قُرِأ فيه على أرتيوم حكمه وعقوبته.

لم يقل هنتر أيّ شيء، وكان يمشي بخطًا واسعة وكأنّه نسي أنّ أرتيوم كان يتحرّك بالكاد. حاول أرتيوم اللّحاق به لكنّ المسافة بينهما تزداد طول الوقت، وخشي أن يرحل هنتر ويتركه في هذه المحطّة المرعبة، الّتي تغطّت بالدّم الزّلق الّذي ما زال دافئًا، والّتي كان سكّانها الوحيدون مجرّد جثث.

هل أستحقّ هذا فعلًا؟ فكّر أرتيوم: هل حياتي أكثر أهميّة من حياة هؤلاء النّاس؟ كلّا، إنّه سعيد بنجاته. لكن كلّ هؤلاء النّاس، الّذين بعثروا بشكل عشوائيّ مثل أكياس وخرق، على المنصّة الغرانيتيّة جنبًا إلى جنب على قضبان السّكّة الحديديّة، وتُركوا للأبد في الوضعيّة الّتي وجدتهم فيها رصاصات هنتر، ماتوا لكي يعيش؟ أبرم هنتر هذه الصّفقة بتلك السّهولة كما لو أنّه ضحّى ببعض قطع الشّطرنج الثّانويّة ليفتدي واحدة من أهمّ القطع. إنّه مجرّد لاعب، والمترو لوح شطرنج، وكلّ القطع كانت له لأنّه يلعب اللّعبة مع نفسه. ولكنّ السّؤال هنا: هل كان أرتيوم تلك القطعة المهمّة للّعبة الّتي وجب أن يموت كلّ هؤلاء النّاس من أجل المحافظة عليها ووقايتها؟

من الآن فصاعدًا ربّما يتدفّق الدّم الّذي جرى على الغرانيت البارد عبر أوردته أيضًا، كما لو أنّه شربه واستخرجه من الآخرين من أجل بقاءه هو. والآن لن يشعر بالدّفء مرّة أخرى.

ركض أرتيوم للأمام قليلًا في محاولة منه للّحاق بهنتر، ولكي يسأله إن كان سيشعر بالدّفئ، أم أنّه سيبقى باردًا وسوداويًا حتّى في أشدّ المواقد حرارة مثل ليلة شتويّة جليديّة في شبه محطّة نائية.

لكنّ هنتر كان على مسافة بعيدة. ربّما كان ذلك لأنّ أرتيوم لم ينجح في اللّحاق به، لذلك نزل هنتر على المسارات واندفع داخل النّفق برشاقة حيوان. بدت حركاته

لأرتيوم مثل حركات كلب.. كلا جرذ.. أوه يا إلهي، هل أنت جرذ؟ خرجت الفكرة من فم أرتيوم وأرعبه ما قاله.

كلّا، أتى الجواب: أنت الجرذ، جرذ جبان، جرذ جبان. كرّر أحد ما هذه العبارة فوق أذنه مباشرة وبصق.

هزّ أرتيوم رأسه لكنّه ندم فورًا على ذلك. الآن وبفضل الحركات الحادّة، تفجّر الألم البليد في جسده، وفقد السّيطرة على أطرافه وبدأ يتعثّر ويهوي إلى الأمام. ثمّ أراح جبتهه المحترقة على شيء معدنيّ بارد. كان السّطح مضلّعا فضغط على جلده بشكل بغيض، لكنّه برّد جسده المشتعل، فتجمّد أرتيوم في تلك الوضعيّة لبعض الوقت، لا يقوى على اتّخاذ أيّ قرار آخر. حبس أنفاسه وحاول بحذر أن يفتح عينه اليسرى قليلًا.

جلس على الأرض وجبهته على شبكة من نوع ما، تصعد إلى السّقف وتملأ الفراغ الّذي على جانبي القنطرة الضّيّقة المنخفضة. هو يواجه الصّالة وخلفه دروب. وكلّ القناطر القريبة قبالته تحوّلت إلى زنازين أيضًا، وهناك بضعة أشخاص يجلسون فيها. هذه المحطّة عكس المحطّة الّتي حُكِم عليه بالموت فيها. كانت المحطّة الأولى أنيقة تمامًا ومُضاءة وفسيحة، مع أعمدة شفّافة وقناطر عالية وعريضة، على الرّغم من الإضاءة الكئيبة والنّقوش والرّسوم الّتي غطّت الجدران، كانت مثل باقة ورد مقارنة بهذه المحطّة. أمّا هنا فكلّ شيء كان مستبدًّا ومروًّعا. يوجد سقف منخفض مدوّر مثل الّذي في الأنفاق لا يتعدّى ارتفاعه ضعفي طول قامة الإنسان، وهناك أعمدة خشنة وضخمة كلّ واحد منها أعرض من القناطر الّتي تفصل بينها. وكان سقف القناطر قريبًا جدًّا من الأرض، لدرجة أنّه بمقدوره أن يصله ويلمسه لو لم تُربَط يداه بسلك خلف ظهره. بالإضافة إلى أرتيوم كان هناك شخصان في الزّنزانة. استلقى واحد منهما على الأرض وطمر وجهه بأسمال رخيصة، وكان يئنّ ببلادة. والآخر له عينان سوداوان وشعر بنيّ، وواضح أنّه لم يحلق ذقنه منذ مدّة، وكان مقرفصًا ومستندًا على الجدار المرمري يراقب أرتيوم بفضول قويّ. وهناك رجلان قويّان في ثياب مموّهة وبيريهات، في دوريّة يحرسان الزّنازين. لدى أحدهم كلب كبير بلجام وكان يوبّخه من حين لآخر. وهما يعرفان أرتيوم كما يبدو.

لقد كان حُلما، لقد كان حلما، لقد حلم بكلّ هذا.

سوف يشنقونه.

كم هو الوقت؟ تمتم بوهن وحرّك لسانه المشتعل، ونظر بشكل جانبيّ إلى الرّجل صاحب العينين السّوداوين.

التّاسعة والنّصف، ردّ الرّجل طوعًا ولفظ كلماته بنفس اللّهجة الّتي سمعها أرتيوم في كيتاي غورود، فهم يقولون (و) بدلًا من (أ) و(ي) بدلًا من (أي) ثمّ أضاف: في المساء.

التّاسعة والنّصف. ساعتان ونصف حتّى الثّانية عشر، وخمس ساعات قبل... قبل الإجراء.. سبع ساعات ونصف.. وبينما كان يفكّر ويحسب كان الوقت يطير.

حاول أرتيوم مرّة أن يتخيّل: بماذا يفكر ويشعر أيّ شخص وهو في مواجهة الموت، في ليلة إعدامه؟ الخوف؟ أم الكره لجلّاديه؟ أم النّدم؟

لكنّه كان فارغًا من الدّاخل. قلبه يضرب بقوّة في صدره ويرتجف صدغاه والدّم تراكم في فمه ببطء حتّى بلعه. للدّم طعم الحديد الصّدىء، أم أنّ ذلك الحديد المبلّل له طعم الدّم الطّازج؟

سوف يشنقونه، سوف يقتلونه.

سوف يتنتهي من الوجود.

لم يستطع تخيّل هذا، لم يستطع فهمه وقبوله.

كلّ واحد يعرف أن الموت لامفرّ منه. فالموت جزء من الحياة اليوميّة في المترو، ولكن، كان يبدو دائمًا أنّه لن يحدث لك أيّ شيء سيّء أو مشؤوم، وأنّ الرّصاصات ستطير خلفك، وحتّى المرض سيتركك ولن يقترب منك. وموت كبار السّن عملية بطيئة، لهذا لاحاجة للتّفكير بها. لا يمكن أن تعيش في إدراك دائم وحذر لموتك وفنائك. يجب أن تنساه، وإن جاءتك هذه الأفكار بأيّ طريقة، يجب أن تطردها بعيدًا وتخنقها، وإلّا فسوف تتجذّر في وعيك وتُحوِّل حياتك إلى بؤس. لا تستطيع أن تفكّر بحقيقة أنّك ستموت وإلّا فسوف تصاب بالجنون. وهناك شيء وحيد فقط ينقذ الإنسان من الجنون، وذلك الشّيء هو الشّك وعدم اليقين. وحياة الّذي حُكِم عليه بالموت تختلف عن حياة أيّ شخص عاديّ في طريقة واحدة، فالأوّل يعرف بالضّبط متى سيموت، أمّا الشّخص العاديّ فيجهل ذلك، وبالتّالي يبدو له أنّه سيعيش إلى الأبد حتّى لو كان من المحتمل أن يقتل في حادث مأساوي في اليوم التّالي. إنّ الموت ليس مخيفًا بحدّ ذاته ولكنّ المخيف توقّعه.

في سبع ساعات...

كيف سينفّذونه؟ لم يستطع أرتيوم أن يتخيّل كيف يُشْنَق النّاس. لقد أرادوا مرّة أن يعدموا خائنًا في محطّتهم، لكنّ أرتيوم كان صغيرًا آنذاك ولم يكن يفهم الكثير. وعلى كلّ حال هم لم ينفّذوا أيّ إعدامات علنيّة في فدنكه. ربّما سيلفّون حبلًا حول عنقه... ويعلّقونه بالسّقف، أو يستخدمون كرسيًّا... كلّا، التّفكير بهذا لا يُحتمل.

كان عطشانًا.

نقر المفتاح بإصبعه بجهد، واندفع قطار أفكاره على قضايا أخرى، إلى الضّابط الّذي أرداه قتيلًا، أوّل شخص يقتله في حياته. ظهر المشهد أمام عينه مرّة أخرى، طلقات غير مرئيّة اخترقت صدره العريض، وتركت علامات حروق سوداء تخثّر فيها دم طازج. لم يشعر بذرّة من النّدم على فعلته، وهذا ما أدهشه. ظنّ سابقًا أنّ الشّخص المقتول يجب أن يكون عبئًا ثقيلًا على ضمير من قام بقتله، وأنّه سيظهر له في أحلامه، ويقلق شيخوخته، لكن لا. لم يكن الأمر هكذا أبدًا كما يبدو. فلم تكن هناك شفقة ولا توبة، وإنّما رضا وارتياح كئيب فقط. أدرك أرتيوم لو أنّ الشّخص القتيل جاءه في كابوس، فسيصدّ عن الشّبح ولن يكترث به فيختفي بلا أثر. لكنّ الشّيخوخة... لن يكون هناك شيخوخة بعد اليوم.

كان الوقت ينفذ.. ربّما يكون هناك كرسيّ. وحين لا يوجد لديك سوى القليل من الوقت يجب أن تفكّر بشيء هامّ، بأهمّ شيء لم تجد الوقت لتفكّر به سابقًا فتركته إلى حين آخر، بحياتك الّتي لم تعشها بالشّكل الصّحيح وأنّك ستفعل ذلك بشكل مختلف لو مُنحت فرصة ثانية. كلّا، لا يمكن أن تكون له أيّ حياة أخرى في هذا العالم، وليس هناك أيّ شيء يقوم به أو يعيد فعله.

هل كان عليه ألّا يهرع إلى بندقيّته الآليّة حين أطلق حارس الحدود النّار على رأس فانيشكا؟ هل كان عليه أن يظلّ واقفًا وألّا يتدخّل؟ لم يكن لينجح الأمر،لم ينجح أبدًا في طرد فانيشكا وميخائيل بورفرفتش من أحلامه.

ماذا حلّ بالرّجل العجوز؟ اللّعنة، كم يكلّف الحصول على جرعة من الماء؟

أوّلًا سيقودنه إلى خارج الزّنزانة، وإن كان محظوظًا سيقودنه عبر الممر، لكن لم يبق سوى القليل من الوقت الآن. لو لم يضعوا ذلك الغطاء اللّعين فوق عينيه، لرأى شيئًا ما عدا قضبان الشّبكة أمامه وصفوف الزّنازين الّتي لانهاية لها.

من أيّ محطّة أنت؟ قال أرتيوم عبر شفتيه وهو يسحب نفسه من الشبكة وينظر للأعلى في عيني جاره.

تفرسكايا، أجاب الرّجل. ثمّ سأل: لماذا أنت هنا يا أخي؟

قتلتُ ضابطا، ردّ أرتيوم ببطء. فالتّكلّم صعب عليه.

أو، وه... قال الرّجل غير الحليق معبّرًا عن تعاطفه: إذًا سوف يشنقونك، أليس كذلك؟

هزّ أرتيوم كتفيه بلامبالاة، ثمّ استدار ليستند على الشّبكة.

سيفعلون بالتّأكيد، أكّد له جاره قائلًا.

سيفعلون وقريبا هنا في هذه المحطّة ولن يكون هناك ترحيل له.. ليته يحصل على شربة ماء فقط، ليغسل هذا الطّعم المعدنيّ من فمه، ويبلّل حلقه الجافّ. عندئذ سيكون بمقدوره التّكلّم مع هذا الرّجل لأكثر من دقيقة واحدة بقليل.

لم يكن في الزّنزانة ماء، لكن في الطّرف الآخر من الفراغ هناك ماء نتن في سطل من القصدير. فهل بمقدوره أن يسأل سجّانيه؟ ربّما يقدّمون بعض التّسهيلات لمن حُكم عليه بالإعدام. ليته يستطيع أن يدفع يده إلى الخارج عبر الشّبكة ويلوّح بها قليلًا... لكنّ يداه رُبطتا خلف ظهره، وكان السّلك يحفر في معصميه وقد فقد كلّ إحساس بهما. حاول أن يصيح ولكن لم تخرج سوى خشخشة تحوّلت إلى سعلة من أعماق رئتيه.

اقترب الحارسان الاثنان من القفص (الزنزانة) حين لاحظا محاولاته لجذب انتباههما، لقد استيقظ الجرذ، كشّر الحارس الّذي معه الكلب.

شربة ماء؟ تظاهر الحارس صاحب الكلب بالاندهاش. وما حاجتك بها؟ أنت على وشك أن تُشنق وكلّ ما تريده هو أن تشرب. كلّا، لن نجلب لك ماء، ربّما تموت في

تلك الحالة بشكل أسرع سُوِّيت المسألة وأغلق أرتيوم عينيه بتعب شديد، لكنّ الحارسان أرادا أن يثرثرا معه أكثر على ما يبدو.

إذًا، أيّها التّافه، هل أدركت أخيرًا من يكون الشّخص الّذي رفعت قبضتك عليه؟ سأل أحد الحارسين. وأنت روسيّ حتّى، أيّها الجرذ، بسبب هؤلاء الأغبياء الّذين يطعنوك في الظّهر بسكّينك، هؤلاء... وأشار إلى جار أرتيوم في الزّنزانة التّالية، سميتلأ المترو كلّه بهم قريبًا، والرّوس الجهلة ممّن يخصّونك لن يقدروا على التّنفس بعد ذلك.

نظر السّجين غير الحليق إلى الأسفل. واستطاع أرتيوم أنّ يهزّ كتفيه بلامبلاة فقط.

وصفعوا ذلك الهجين خاصّتك بشكل متقن أيضًا، أضاف الحارس الأوّل. قال سيدروف: إنّ النّفق حمّام دم، وذلك صحيح تمامًا. إنّهم أدنى من البشر، ويجب أن يبادوا. إنّهم... اور جينوفوند، وقد تذكّر الكلمة بصعوبة. هم يهدمون ويخرّبون الأشياء. ثمّ ختم كلامه قائلًا: العجوز الّذي برفقتك مات أيضًا.

ماذا؟ نشج أرتيوم. فهو يخشى ذلك، وقد تمنّى لو أنّ الرّجل العجوز لم يمت، وأن يكون في مكان ما هنا في الغرفة الثّانية.

أنت ستموت وسيموت كلّ أقرباءك...

استطاع أرتيوم أن يرى ميخائيل بورفرفتش وهو غير مكترث بالعالم، يقف في وسط النّفق، يقلّب في دفتر مذكّراته، ويكرّر آخر سطر بانفعال. ماذا كان؟ دير توتين تاتتروم؟ كلّا، كان الشّاعر مخطئًا، فلم تعد هناك أيّ أفعال مجيدة بعد الآن، لم يعد هناك أيّ شيء بعد الآن.

بعدئذ تذكر أرتيوم أيضًا،كيف افتقد ميخائيل بورفرفتش شقّته السّكنيّة القديمة، وخصوصًا سريره القديم. ثمّ بدأت أفكاره تغلظ وتتدفّق ببطء متزايد، وأخيرًا توقّفت تمامًا. أراح جبهته على الشّبكة مرّة أخرى وبدأ ينظر الى كمّ السّجّان بذهن بليد، صليب معقوف ثلاثيّ الرّؤوس. إنّه رمز غريب، يبدو مثل نجمة أو مثل عنكبوت أعرج.

لماذا ثلاثة فقط؟ سأل: لماذا ثلاثة؟

كان عليه أن يقلب رأسه نحو ربطة ذراع الرّجل لكي يفهم حرّاس الأمن ما يعنيه.

حسنا، كم واحدًا تحتاج؟ ردّ الحارس صاحب الكلب ساخرًا: توجد ثلاث محطّات أيّها الأحمق، إنّه رمز الوحدة وانتظر فقط حتّى نصل إلى بوليس سنضيف محطّة رابعة.

حول ماذا تتكلّمان؟ قاطعه الحارس الآخر: إنّه رمز قديم جدًّا، رمز سلافيّ بدائيّ، يسمّى انقلاب الشّمس (الشّتويّ والصّيفيّ) إنّه يعود إلى الفريتز ثمّ أخذناه نحن.. محطّات، أيّها الحشّاش؟!

لكن لم تعد هناك شموس بعد الآن، عصر أرتيوم الكلمات وهو يشعر كما لو أنّ حجابًا قذرًا فوق عينيه،بينما كانت حاسّة سمعه تختفي في السّديم.

لقد جُنّ، هذا هو الأمر، أعلن الحارس صاحب الكلب برضا وسرور. لنذهب يا سينيا ونجد واحدًا آخر ندردش معه.

لم يعرف أرتيوم كم مرّ من الوقت وهو يجلس هنا محرومًا من أفكاره ورؤيته. كان يستعيد وعيه من حين لآخر ويدرك صورًا مبهمة.كلّ شيء كان مشبعًا بطعم الدّم ورائحته. كان مسرورًا لأنّ جسده أشفق على عقله وقتل كلّ تفكير، وهذا ما أعتق إدراكه العقلي من السّوداويّة والكآبة.

هيه، يا أخي، هزّ جاره كتفه. لا تنم، أنت نائم منذ وقت طويل. إنّ السّاعة اقتربت من الرّابعة.

الرّابعة إلّا عشرة دقائق، ربّما يأتون من أجله في غضون أربعين دقيقة. وفي ساعة وعشرة دقائق.. ساعة وتسع دقائق.. ساعة وثمان دقائق.. سبع دقائق؟

ما اسمك؟ سأله جاره..

أرتيوم.

أنا رسلان، أخي اسمه أحمد. لقد أعدموه مباشرة، ولكنّي لا أعرف ماذا سيفعلون بي، فاسمي روسي ولعلّهم لا يريدون أن يرتكبوا خطأ. كان الرّجل ذو العينين السّوداوين سعيدًا لأنّه نجح أخيرا في فتح محادثة.

من أين أنت؟

لم تكن هذه الأشياء مهمّة بالنّسبة لأرتيوم، لكنّ حديث جاره غير الحليق ساعده على ملء رأسه، ولا يهمّ بماذا كان يُملأ. لم يرغب في التّفكير بفدنكه، لم يرغب في التّفكير بالمهمّة الّتي كُلِّف بها، لم يرغب في التّفكير بما يحدث في المترو، لم يرغب في فعل ذلك، لم يرغب في فعل ذلك.

أنا من كييفسكايا، هل تعرفها؟ نحن نسمّيها كييف المشمسة، ابتسم رسلان كاشفًا عن صفّ من أسنان بيضاء: هناك عدد كبير من النّاس، لديّ زوجة وأولاد (ثلاثة أطفال) أكبرهم في يده ستّة أصابع، أضاف مفتخرًا.

... شيء يُشرب، جرعة فقط، حتّى لو كانت فاترة. فلن يعترض أرتيوم على الماء الفاتر وغير المصفّى حتّى. أيّ ماء، جرعة واحدة. ولكي ينسى مرّة أخرى ويمرّ الوقت إلى أن يأتي الحرس ويأخذوه. أراد ذهنًا فارغًا وألّا يزعجه أيّ شيء. أراد أن يتوقّف رأسه عن الدّوران السّريع، وتتوقّف أفكاره عن تذكيره بأنّه ارتكب خطأ. لم يكن يملك الحق فيما فعله، كان عليه أن يذهب، يدير ظهره ويغطّي أذنيه ويواصل سيره، وينطلق من بوشكينسكايا إلى تشيخوفسكايا. ومن هناك يبقى عليه انتقال واحد وهو سهل جدًّا، انتقال واحد ويكون كلّ شيء قد أنجز، والمهمّة اكتملت، إضافة إلى أنّه سيكون على قيد الحياة.

شيء يُشرب، أصبحت يداه مخدّرتين جدًّا لذلك لم يعد يشعر بهما. سهل جدًّا على النّاس أن يموتوا عندما يؤمنون بشيء ما، لهؤلاء الّذين يؤمنون أنّ الموت ليس نهاية كلّ شيء، لهؤلاء الّذين يكون العالم في نظرهم مقسومًا إلى أسود أو أبيض، هم يعرفون بالضّبط ماذا يجب أن يفعلوا، ولماذا. ولهؤلاء الّذين يحملون مشاعل الفكر والمعتقدات في أيديهم، ويرون أنّها تنير كلّ شيء. هؤلاء الّذين ليس لديهم ما يشكّون به أو يندمون عليه، يُفترض أنّهم يملكون وقتًا سهلًا للموت. يُفترض أن يموتوا والابتسامة على وجوههم.

لدينا فاكهة كبيرة مثل هذه من قبل، وأزهار جميلة، أعطيتها للفتاة دون مقابل وأعطتني هي ابتسامة... وصلت الكلمات إلى مسامع أرتيوم، لكنّها لم تستطع أن تشتّت ذهنه بعد الآن.

سُمعت خطوات قادمة من أعماق الصّالة. عدد من الأشخاص كانوا يقتربون، فضاق قلب أرتيوم وتحوّل إلى كتلة عصبيّة صغيرة. هل هم قادمون من أجله؟ بهذه السّرعة؟! ظنّ أنّ الأربعين دقيقة ستدوم أطول من ذلك، أو أنّ جاره الشّيطانيّ أخبره بأنّ هناك وقتًا أكثر لأنّه أراد أن يعطيه بعض الأمل؟ كلّا، لا يمكن أن يكون الأمر هكذا...

توقّفت ثلاثة أزواج من الأحذية عند زنزانته، زوجان منها في سراويل عسكريّة مبقّعة، وزوج في سروال أسود. أصدر القفل صوت طحن، وبالكاد نجح أرتيوم في تفادي السّقوط حين فُتِح باب القفص الّذي يستند إليه.

ارفعوه، قال أحد ما.

أمسكوه من تحت ذراعيه ورفعوه نحو السّقف.

حظًّا طيّبًا، تمنّى له رسلان كإيماءة فراق.

هناك راميان، لكنّهما لم يكونا من تحدّث إليهما. وعلى كلّ حال كان منظرهما مجهولًا. رجل ثالث مع شارب خشن وعيون زرق راشحة، يرتدي بزّة سوداء وبيريه صغيرة أمرهم قائلًا: اتبعوني. فجرّوا أرتيوم إلى الطّرف الآخر من المنصّة. حاول أرتيوم أن يمشي وحده، ولم يرد منهم أن يجرّوه كما لو كان دمية عاجزة. وإن كان عليه أن يرحل عن هذه الحياة فيريد أن يفعل ذلك بفخر. لكنّ ساقاه لم تساعداه، التوت ساقاه واستطاع أن يضعهما على الأرض بشكل أخرق، ممّا عرقل حركة التّقدّم، لذلك نظر إليه الرّجل ذو البزّة السّوداء بقسوة.

لم تكن الأقفاص مستمرّة إلى نهاية الصّالة، فقد قُطِع الصّفّ في منتصفه حيث وُضعت السّلالم المؤديّة إلى المستوى الثّاني في الأسفل. هناك في الأعماق كانت المصابيح تحترق، فانعكس ضوء قرمزيّ مشؤوم على السّقوف. وجاءت صرخات ألم من الأسفل، فخطرت لأرتيوم فكرة العالم السّفليّ فجأة وشعر بارتياح أكيد حين اقتادوه وتجاوزوا به السّلالم. في آخر زنزانة صرخ أحدهم (الوداع ياصديقي) لكنّ أرتيوم لم يكترث به إطلاقًا، ولم يكن يرى شيئًا أمام عينيه سوى قدح من الماء يلوح.

على الجدار المقابل هناك مركز مراقبة للحرس، وطاولة شبه محطمة مع كرسيّين. وهناك إشارة مع ذلك الرّمز الّذي يقول يُمنع دخول السّود. لم ير أرتيوم أيّ مشنقة بأيّ مكان، وللحظة انتابه الأمل المجنون بأنّهم أرادوا أن يخيفوه فقط، وأنّهم لا يقودونه إلى الشّنق، وإنّما يأخذونه إلى طرف المحطّة ليطلقوا سراحه ويذهب دون أن يراه الآخرون.

لفّ الرّجل ذو الشّوارب الّذي كان يمشي في المقدّمة عند القنطرة الأخيرة باتّجاه الدّروب، وبدأ أرتيوم يؤمن بوهم نجاته بقوّة أكبر.

كانت هناك منصّة صغيرة على أربع عجلات، تقف على قضبان سكّة الحديد. وقد رُتّبت بحيث تكون أرضيّتها بمستوى أرضيّة المحطّة، وكان هناك رجل ضخم جدًّا في بذلة نظاميّة مرقّطة يتفحّص حبلًا تدلّى من كلّاب ثُبّت بالسّقف. الفرق الوحيد بينه وبين الآخرين أنّ أكمامه المرفوعة أظهرت ساعدين جبّارين وأنّ قبّعة مخاطة مع ثقبين لعينيه غطّت رأسه.

هل كلّ شيء جاهز؟ سأل الرّجل ذو البزّة النظاميّة السّوداء، وأومأ الجلّاد إليه.

أنا لا أحبّ هذاالاختراع، قال: لماذا لم نستخدم الكرسي الجيّد القديم؟ ومِنْ ثَمّ باو (مقلّدا صوت انفجار) ولَكَم بقبضته راحة كفّه الآخر. اكسر عنقه، بهذا الشّيء، فبينما هو يختنق، سيتلوّى مثل دودة على شرك، وحين يختنق سيكون هناك الكثير جدًّا لتنظّفه بعد ذلك، ويكون هناك شيء مثل الأحشاء في كلّ مكان...

يكفي، قال الرّجل ذو البزّة السّوداء. ثمّ أخذ الجلّاد جانبًا وهمس بشيء له وبغضب شديد.

حالما ابتعد رئيسهم، عاد الجنود إلى محادثتهم المقطوعة بسرعة.

هكذا؟ سأل الجنديّ الّذي على اليسار، الجنديّ الآخر الّذي على اليمين بإلحاح.

حسنا، هكذا، همس الجنديّ بصوت عال: دفعتها باتّجاه العمود وأقحمت يدي تحت تنّورتها وتلوّت بلطف وقالت لي... لم يستطع أن يكمل لأنّ رئيسه عاد.

لا بأس، الحقيقة أنّه كان روسيّا، لكنّه انتهك... الخائن، المرتدّ، المنحلّ، الخونة يجب أن يُعاقبوا بشكل مؤلم، قال ذلك مشجعًا الجلّاد.

فكّا الرّباط عن يديه ونزعا سترته وكنزته، فوقف أرتيوم وليس عليه من ثياب سوى قميصه الدّاخلي القذر. بعد ذلك نزعوا غلاف الطّلقة الّتي أعطاها له هنتر، من الشّريط الّذي حول عنقه. هل هذه تعويذة؟ تساءل الجلّاد: سأضعها في جيبك، ربّما حقّقت لك فائدة ما.

كان صوته أبعد ما يكون عن الشّرّ، وكان مُريحا بشكل غريب.

بعدئذ سحبا يديه معًا خلف ظهره ودفعا به إلى المشنقة.

بقي الجنود على المنصّة، إذ لا حاجة لهم. لا يستطيع أرتيوم الهرب بأيّ شكل لأنّ الوقوف هناك، بينما يضع الجلّاد الأنشوطة فوق رأسه وذلك يتطلّب كل القوّة الّتي

لدى أرتيوم. فعليه أن يقف وألا يسقط وألا يصدر أيّ ضجيج.

شّي يُشرب، ذلك كلّ ما استطاع التّفكير فيه. ماء، ماء..

ماء... نعق.

ماء؟ رفع الجلّاد يديه في خيبة أمل: من أين سأجلب لك الماء الآن؟ إنه ليس ممكنًا ياعزيزي، نحن الآن متأخّرون عن الموعد المقرّر مسبقًا، لن يطول الأمر الآن...

وثب على الدّرب بعد أن ضرب وبصق على يديه قبل أن يرفع الحبل المتّصل بالمشنقة. كان الجنود مصطّفين، وتظاهر قائدهم بهيئة هامّة ورزينة وبدأ كلامه: كجاسوس معاد خان شعبه بشكل شرّير.

في رأس أرتيوم رقص لشظايا أفكار وصور تقول انتظر، ما زال الوقت مبكّرا جدًّا، لم أنجح بعد في عمل ما يجب عليّ فعله، ومن ثمّ ظهر وجه هنتر الصّارم أمام عينيه واختفى فورًا في شفق المحطّة القرمزيّ، ثمّ رأى نظرة سوخوي المحدّقة المحبّة الّتي تلاشت أيضًا. ميخائيل بورفرفتش... أنت ستموت، الدّارك ونز... هم لا يستطعون... انتظر، وفوق كلّ هذا كان العطش الهائل الشّديد يقطع ذكرياته وكلماته ورغباته، ويغطّيها بسديم كثيف خانق. شيء يشرب...

... أيّها المنحلّ والفاسد، يا من جلب الخزي والعار لأمّته... استمرّ الصّوت مثرثرًا.

وفجأة تعالت صرخات في النّفق، ودوّى انفجار بندقيّة آليّة، ثمّ صوت ارتطام شديد وعال، بعدها هدأ كلّ شيء. أمسك الجنود ببنادقهم الأليّة. التفت قائدهم وقال بسرعة وبعصبيّة: العقوبة الموت، تقدّم، وأعطى الإشارة.

جأر الجلّاد وشدّ الحبل ووضع قدميه على الوصلات العرضيّة. انزلقت الألواح بعيدًا عن قدمي أرتيوم، فحاول أن يظلّ على تماس معها لكي يبقى على المشنقة. لكنّها تحرّكت بعيدًا عنه وأصبح الوقوف أصعب فأصعب، فالحبل يجرّه للوراء نحو الموت، لكنّ أرتيوم لا يريد الموت، لا يريد أن يموت...

بعدئذ انزلقت الأرض تحته وضاقت الأنشوطة بسبب وزن جسده. فعصرت الأنشوطة عنقه، وانغرست في رغامته، فصدرت قرقرة من حلقه. فقد حدّة بصره، وكلّ شيء في داخله يلتوي. جسده كان يستجدي الهواء لكنّه لم يستطع أن يستنشق مهما حاول، وبدأ جسده يلتفّ بشكل متشنّج، مع شعور مدغدغ بغيض في معدته. أظلمت المحطّة بهواء أصفر سام، ودوّت طلقات قريبة ومن ثمّ غاب عن الوعي.

هيه، أيّها الجلّاد، تعال، تعال الآن. لا تتظاهر، فنحن تحسّسنا نبضك، لهذا لا تستطيع أن تتظاهر بالموت، وضربه على وجنتيه فعاد له وعيه.

أنا أرفض أن أنعشه بالفم مرّة أخرى، قال الشّخص الآخر.

هذه المرّة كان أرتيوم متأكّدًا تمامًا أنّه حلم، الثّواني الأخيرة من اللّاشعور قبل النّهاية. كان الموت قريبًا جدًّا منه، واللّحظة الّتي يغلق فيها قبضته الحديديّة حول

عنقه لم تكن لتقبل الجدل كاللحظة التي سقطت فيها الأرضيّة بعيدًا من تحته، وتدلى فوق قضبان السّكّة الحديديّة.

كفاك فتح عينيك وإغماضهما، ستكون بخير وبأحسن حال، أصرّ الصّوت. نحن أخرجناك من الأنشوطة، لهذا يمكنك الاستمتاع بالحياة مرّة أخرى، وقد كنت تتدحرج على وجهك فوق الأرضيّة، هزّه شخص ما بقسوة.

فتح أرتيوم عينًا واحدة بخجل، وأغلقها بعد أن قرّر أنّه في حالة موت مبكّر وأنّ حياة الآخرة قد بدأت. كائن ما، كان يميل فوق أرتيوم وبدا له مثل شخص غير مألوف نهائيًّا، ذكّره بحسابات وأفكار خان عن المكان الّذي تذهب إليه الأرواح بعد أن تنفصل عن أجسادها المؤقّتة والزّائلة. جلد هذا الكائن أصفر معدنيّ يمكنك أن تراه في ضوء مصباح قريب حتّى، وبدلًا من العينين له شقّان ضيّقان كما لو أنّ نحّاتا كان ينحت شخصًا من شجرة، ولم يكمل الوجه تمامًا، فنحت شكلًا أوليًّا للعينين، ونسي أن يحفر الفتحة ويفتحهما لكي يتمكّن من النّظر إلى العالم. كان الوجه مدوًّرا والوجنتان عاليتان، لم ير أرتيوم مثله أبدا.

كلّا، هذا لن ينجح، أعلن أحد ما في الأعلى ذلك بتصميم، ورشّوا ماء على وجهه.

بلع أرتيوم الماء بشكل تشنّجيّ ومدّ يديه ليتناول الزّجاجة. أمسك في البداية العنق ولم ينهض وينظر حوله إلا بعد ذلك.

اندفع عبر النّفق المظلم بسرعة هائلة مستلقيًا على عربة معدّلة (قُصّ منها أجزاء واسْتُبدل بأخرى) طولها لا يقلّ عن مترين. وكانت هناك رائحة احتراق في الهواء فظنّ أرتيوم باندهاش أنّها مزوّدة بالبنزين. جلس في العربة أربعة أشخاص غيره وكلب بنيّ كبير له فروة تحتيّة سوداء. أحدهم هو الرّجل الّذي ضرب أرتيوم على وجنتيه، ورجل آخر ملتحي يضع قبّعة لها غطاء للأذنين، عليها نجمة حمراء وعلى سترته المبطّنة أيضًا، ولديه بندقيّة آليّة تتدلّى من رقبته مثل (المعزقة) الّتي كانت لدى أرتيوم من قبل، ولكنّ هذه لها حربة ثبّتت بماسورتها. والشّخص الثّالث رجل ضخم لم ير أرتيوم وجهه على الفور، وحين رآه كاد يقفز من العربة، كانت بشرته داكنة جدًّا. نظر إليه أرتيوم أكثر ثمّ هدأ. لم يكن وجهه داكنًا وإنّما لون بشرته لا يشبه لون بشرتهم، وجهه بشريّ عاديّ مع شفة مقلوبة للخارج قليلًا، وأنف أفطس كأنف الملاكم. أمّا الرّجل الأخير فكان ذو مظهر نظاميّ ولديه وجه ممتلىء جميل، وذقن قويّ ذكّره بشيء على ملصق في بوشكينسكايا، ويرتدي معطفًا جلديًّا جميلًا رُبط بحزام عريض مع صفّين من الثّقوب فيه، وحزام سيف ضابط تدلّى منه قراب مسدّس من الحجم الكبير. كان هناك رشّاش ديغتاريوف في مؤخّرة العربة وراية حمراء ترفرف، وحين وقع شعاع من المصباح بدون قصد عليها، رأى أنّها لم تكن راية في الحقيقة، وإنّما قطعة قماشيّة ممزّقة ألونها الأحمر والأسود وعليها صورة رجل ملتحي. بدا كلّ هذا مثل نوع من هذيان محموم رهيب أكثر من أنّه إنقاذ إعجازيّ قام به هنتر حين شقّ طريقه بقسوة عبر بوشكينسكايا.

لقد استردّ وعيه، قال ذو العينين الضّيّقتين مبتهجًا: أيّها الجلّاد لماذا كانوا سيعدمونك؟

تكلم بلا لهجة تمامًا وكان لفظه لا يختلف عن لفظ أرتيوم أو سوخوي. وهذا غريب جدًّا أن يسمع كلامًا روسيًّا نقيًّا من كائن غريب كهذا. لم يستطع أرتيوم أن يكذّب شعوره بأنّ هذا مسرحيّة هزليّة، وأنّ الرّجل ذو العينين الضّيّقتين كان يحرك شفتيه فقط، وأن هناك من يتكلّم من خلفه، وهو إمّا الرّجل الملتحي أو الرّجل ذو المعطف الجلديّ.

لقد قتلتُ أحد ضبّاطهم، اعترف متردّدا.

حسنًا، أحسنت، أنت النّوع الّذي نحبه تمامًا، هذا ما يستحقّونه، قال الرّجل ذو الوجنتين العاليتين بحماس. والتفت الرّجل الضّخم ذو البشرة الداكنة والّذي كان يجلس في المقدّمة إلى أرتيوم ورفع حاجبيه باحترام. ظنّ أرتيوم أنّ هذا الرّجل سيخطىء في لفظ الكلمات.

هذا يعني أنّنا لم نبتكر هذا المشهد من أجل لاشيء، وابتسم ابتسامة عريضة. كانت لهجته تامّة، لذلك تشوّش أرتيوم ولم يعرف بماذا يفكّر.

ما اسمك أيّها البطل؟ سأله الرّجل الوسيم ذو المعطف الجلديّ. فقدّم أرتيوم نفسه.

أنا الرّفيق روساكوف وهذا الرّفيق بونساي، مشيرًا إلى الرّجل ذو العينين الضّيّقتين.

وهذا الرّفيق مكسيم، ابتسم الرّجل ذو البشرة الدّاكنة مرّة أخرى، وهذا الرّفيق فيودور.

ثمّ جاء الكلب أخيرًا. لن يندهش أرتيوم لو أنّه لُقّب بالرّفيق أيضًا، لكنّ الكلب كان يدعى كاراتسيوبا ببساطة. صافحهم أرتيوم واحدًا تلو الآخر، اليد القويّة والجافّة للرّفيق روساكوف، والرّاحة الثّابتة الضّيّقة للرّفيق بونساي، ويد الرّفيق مكسيم السّوداء الّتي تشبه المجرفة، واليد السّمينة للرّفيق فيودور. حاول جديًّا أن يتذكّر أسماءهم، وخصوصًا الاسم الّذي كان لفظه صعبًا (كاراتسيوبا) لكن يبدو أنّهم يخاطبون بعضهم البعض بأسماء مختلفة بأيّ حال. فقد خاطبوا الرّجل البارز بالرّفيق المفوّض، والرّجل ذا البشرة الدّاكنة بمكسيمكا أو لومومبا، والرّجل ذو العينين الضّيّقتين بوناسي فقط، والرّجل الملتحي ذو القبّعة الّتي لها غطاء للأذنين بالعمّ فيودور.

أهلًا وسهلًا بك في اللّواء القتالي الأحمر الأمميّ، الأوّل لحاضرة موسكو باسم ارنستو تشي غيفارا، أعلن الرّفيق روساكوف منتصرًا.

شكره أرتيوم وسكت وهو ينظر حوله. كان الاسم طويلًا جدًّا، ونهايته امتزجت بشيء غير واضح تمامًا. لبرهة، كان للّون الأحمر تأثير على أرتيوم أكثر من تأثيره على الثور، وترافقت كلمة (لواء، فرقة، فوج) عنده مع قصص جينيا عن عضو عصابة خارج عن القانون في مكان ما قرب شابولوفسكايا. والأهم أنّه تعرّض لمكيدة من صاحب الوجه الموجود على قطعة القماش، والّذي كان يرتعش في الرّيح، وسأل بجبن:

ولمن الصّورة التي وضعتموها على رايتكم؟ قرّر في آخر ثانية على كلمة (راية) ولكنّه قال (خرقة)

ذلك تشي غيفارا يا أخي، شرح له بونساي.

أيّ غيفارا؟ لم يفهم أرتيوم لكنّه رأى الغضب الشّديد يملأ عيون روسكاي، والابتسامة السّاخرة على وجه مكسيما، فعرف أنّه ارتكب حماقة ما.

الرّفيق ارنستو تشي غيفارا، نطق المفوّض المقاطع المنفصلة بقوّة، الثّائر الكوبي العظيم.

هكذا صارت الأصوات أوضح، لكنّها ظلّت غير جليّة لأرتيوم، فقرّر أن يوسّع عينيه بحماس وألّا يقول شيئًا. ففي النّهاية، هؤلاء الأشخاص أنقذوا حياته وإغضابهم أو إزعاجهم الآن بجهله، سيكون عملًا فظًّا وغير مهذّب.

كانت أضلاع النّفق تومض وهم يجتازونها بسرعة، وأثناء مدّة المحادثة نجحوا في تجاوز إحدى المحطّات النّصف فارغة بسرعة هائلة، وتوقّفوا في شفق النّفق الّذي وراءها، حيث يوجد طريق فرعيّ مسدود استطاعوا التّوقّف فيه.

لنرى إن تجرّأ الفاشيّون الزّواحف على ملاحقتنا، قال الرّفيق روساكوف. وقد اضطرّوا إلى الهمس بهدوء شديد، لأنّ الرّفاق روساكوف وكاراتسيوبا كانا ينصتان بانتباه لأصوات تأتي من الظّلام.

لماذا فعلتموها؟ أقصد لماذا أنقذتموني؟ سأل أرتيوم محاولًا اختيار الكلمة الصّحيحة.

كانت غارة مدروسة ومخطّط لها، فقد وصلتنا بعض المعلومات، شرح بونساي وهو يبتسم بشكل غامض.

عنّي؟ سأل أرتيوم وهو يأمل أن يتمكّن من تصديق كلمات خان عن مهمّته الاستثنائيّة.

كلّا، بشكل عام، قام بونساي بإيماءة غير واضحة: سمعنا أنّهم يخطّطون لعمل وحشي ما. لهذا قرّر الرّفيق روساكوف أن يوقفه، بالإضافة إلى أنّ مهمّتنا هي إزعاجهم ومضايقتهم باستمرار.

هم لم ينصبوا أي حاجز على هذا الجانب ولا حتّى مشعل ساطع، وإنّما مجرّد بضع نقاط حدوديّة متقدّمة مع نيران بسيطة، أضاف مكسيما. سحقناهم على الفور، وللأسف اضطررنا إلى استخدام البندقيّة الآليّة، وبعد ذلك القنبلة الدّخانيّة ونحن معنا أقنعة غازيّة، ثمّ أخذناك أنت يا بطلنا المحليّ من الوحدات الخاصّة، وعدنا.

قال العمّ فيودور الّذي ظلّ صامتًا لفترة من الزّمن، ويدخّن نوعًا من الأعشاب في غليون، والّذي دمعت عيونه بسبب الدّخّان، فجأة: نعم يا صديقي الصّغير، من الجيّد أنّك مناسب لغرضنا. هل تريد القليل من الشّراب المخمّر؟ والتقط قارورة امتلأ نصفها بنوع من سائل عكر، ثمّ هزّها وقدّمها لأرتيوم.

كل رشفة منه تحتاج إلى الكثير من الشجاعة. نزلت في حلقه مثل ورق الزّجاج، وشعر كما لو أنّ كمّاشة ثُبّتت بقوّة في داخله في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، والآن ارتخت.

إذًا هل أنتم من الحمر؟ سأل بحذر.

نحن يا أخي شيوعيّون، ثوّار، قال بونساي مفتخرًا.

منَ الخطّ الأحمر؟ أضاف أرتيوم

كلّا، مجرّد شيوعيّين بسطاء، أجاب الرّجل بقليل من التردّد، ثمّ عجّل وأضاف: الرّفيق المفوّض سيشرح لك كلّ ذلك، فهو المكلّف بالأيدولوجيا هنا.

أخبرهم الرّفيق روساكوف الّذي عاد بعد بضع دقائق: كلّ شيء هادىء، وكان وجهه الذّكوريّ الوسيم يشعّ بإحساس من السّكينة، يمكننا أن نأخذ استراحة.

ما من شيء يمكن إشعال النّار منه، لذلك علّقوا قلّاية صغيرة فوق موقد المعسكر، وقطعوا بعضًا من لحم الخنزير البارد، وأكل الثّوّار جيًّدا وبشكل مريب.

كلّا رفيق أرتيوم، نحن لسنا من الخطّ الأحمر، صرّح الرّفيق روساكوف بقوّة حين حوّل بونساي السّؤال له. الرّفيق موسكفين تولّى منصب ستالين وأدار ظهره لثورة المترو الهائلة، وشجب رسميًّا تداخل المحطّات (الدّول) وقطع الدّعم عن النّشاطات الثّوريّة. إنّه خائن مرتدّ، ومن جماعة الحلول الوسطى والتّسويات المذلّة. نحن الرّفاق، نحن ملتزمون بخطّ تروتسكي الفكريّ. ويمكن أن تجد تشابهًا بين كاسترو وتشي غيفارا، لهذا السّبب هو مع رايتنا القتاليّة، وأشار إلى الخرقة الحزينة المتدليّة بإيماءة عريضة. نحن بقينا صادقين ومخلصين للفكرة الثّوريّة على خلاف الرّفيق موسكفين المتآمر مع العدو. نحن رفاق نشجبهم ونشجب خطّهم.

أها، ومن يعطيكم الوقود؟ أضاف العمّ فيودور وهو ينفث دخّان سيجارته الملفوفة.

تورّد الرّفيق روساكوف ورمى العم فيودور بنظرة شريرة. فصفر العمّ فيودور صفرة سخرية، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته.

لم يفهم أرتيوم من شرح المفوّض سوى الشّيء الرّئيسيّ، وهو أنّ هؤلاء النّاس يشتركون بالقليل مع الحمر الّذين نووا أن يعلّقوا أحشاء ميخائيل بورفرفتش على عصا، ويقتلونه هو بنفس الوقت. وهذا ما هدّأه، وفي محاولة منه لأن يعطي انطباعا جيًّدا صدح بقوله: ستالين، أليس هو ذلك الشّخص الّذي في الضّريح؟ صحيح؟

لكنّه هذه المرّة ذهب بعيدًا جدًّا. وقد شوّهت نوبة غضب وجه الرّفيق روساكوف الجميل والشّجاع، وأدار بونساي وجهه جانبًا، وتجهّم العمّ فيودور حتّى.

كلّا، كلّا، إنّ الّذي في الضّريح هو لينين، قالها أرتيوم بسرعة ليصحّح ما أفسده.

فارتخت التّجعيدات القاسية على جبهة الرّفيق روساكوف العالية، وقال بصرامة: ما زلت بحاجة إلى الكثير من العمل يا رفيق أرتيوم.

لم يرد أرتيوم في الحقيقة أن يؤثر عليه الرّفيق روساكوف، لكنّه كبح نفسه ولم يقل أيّ كلمة ردًّا على ذلك. هو فعلا لم يكن يفهم سوى القليل عن السّياسة، لكنّها بدأت تهمه، ولذلك انتظر حتّى تمر العاصفة وغامر:

إذًا لماذا أنتم ضدّ الفاشيّين؟ أقصد، أنا أيضًا ضدّهم، لكنّكم ثوريّون أوّلًا وأخيرًا.

هؤلاء الزّواحف، بسبب إسبانيا، بسبب أرنست تيلمان والحرب العالمية الثّانية.

بصق الرّفيق روساكوف من خلال أسنانه المطبقة. ولم يفهم أرتيوم كلمة واحدة منه، لكنّه لم يرغب في إظهار جهله مرّة أخرى.

بعد أن صبّوا الماء المغلي في الأكواب أصبحوا أكثر نشاطًا وحيويّة.و من الواضح أنّ بونساي أحبّ أن يرهق العمّ فيودور بالأسئلة الغبيّة كي يضايقه، وجلس مكسيما بمكان أقرب من الرّفيق روساكوف وسأله بهدوء: إذًا أخبرني أيّها الرّفيق المفوّض، ماذا تقول الماركسيّة اللّينينيّة عن المتحوّلين الّذين لا رؤوس لهم؟ لقد شغل بالي هذا السّؤال لوقت طويل، أريد أن أكون قويًّا أيديولوجيًا، وأنا صفحة بيضاء من هذه النّاحية. تألّقت أسنانه البيضاء بشكل مبهر في ابتسامة آثمة.

حسنًا، أنت ترى يا رفيق مكسيم، ردّ المفوّض بعد تأخّر: لا يعدّ مسألة بسيطة يا أخي.. وبدأ يفكّر بقوّة.

كان أرتيوم مهتمًّا أيضًا ليعرف كيف يُنْظَر للمتحوّلين من وجهة نظر سياسيّة. وفي الواقع كان يريد أن يعرف إن كان لهم وجود أيضًا. لكنّ الرّفيق روساكوف ظلّ ساكتا. وانزلقت أفكار أرتيوم وعادت إلى المسار الّذي لم ينجح من الخروج منه في الأيّام القليلة الأخيرة. كان عليه أن يصل إلى بوليس. وقد أنقذ بمعجزة وأعطي فرصة أخرى وربّما الأخيرة. لقد تأذّى جسده كلّه وكان يتنفّس بصعوبة، وإن تنفّس نفسًا عميقًا سيجعله ذلك يسعل بقوّة، ولم يستطع أن يفتح سوى عين واحدة. لذلك أحبّ كثيرًا أن يبقى مع هؤلاء النّاس، فقد شعر بهدوء وثقة أكبر معهم، ولم يكن ظلام النّفق غير المألوف كثيفًا من حوله ويضغط عليه بوجودهم. لم ترعبه أصوات الخشخشة والخربشة الّتي تتطاير من الأحشاء السّوداء، ولم تستفزّه. وتمنّى أن تدوم فترة الرّاحة هذه إلى الأبد. شيء جميل أن يعيش لحظة إنقاذه مرّة تلو الأخرى، وقد تبخّر الموت الّذي كان يطحن أسنانه الحديديّة فوق رأسه تمامًا، وينفث عليه خوفًا لزجًا شلّ جسده، هذا ما شعر به قبل إعدامه، واحترقت البقايا الأخيرة المخبّأة تحت قلبه وفي معدته بشراب مخدّر بيتيّ سامّ من الرّفيق الملتحي فيودور.

فيدور نفسه والودود بونساي والمفوّض الجاد الّذي يرتدي الجلد، والضّخم مكسيم، لوموبا، كان الأمر معهم جميعهم سهلًا جدًّا بطريقة لم يجرّبها أبدًا منذ أن غادر فدنكه قبل مائة عام. لم يعد لديه أيّ شيء من ممتلكاته فالبندقيّة الآليّة الجديدة الرّائعة ومخازن الطّلقات الخمسة، وجواز السّفر والطّعام والشّاي والمصباحان الكهربائيّان، ضاعت كلّها. تُركت مع الفاشيّين. وكلّ ما لديه الآن سترة وبعض السّراويل، وغلاف طلقة مفتولة في جيبه، قال له الجلّادعنها، قد تكون مفيدة لك يومًا ما. لهذا.. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ أن يبقى هنا مع مقاتلي الأنترستشنال،

لواء... ال...؟ حسنًا، غير مهمّ. أن يحيا حياتهم وينسى حياته؟ كلا، أبدًا. يجب ألا يتوقّف دقيقة واحدة، وألّا يرتاح. ليس له الحقّ في ذلك، فحياته لم تعد ملكه، وقدره يعود للآخرين منذ اللّحظة الّتي وافق فيها على اقتراح هنتر. لقد تأخّر كثيرًا جدًّا وعليه أن يذهب، فليس هناك خيار آخر.

جلس هناك بهدوء لبعض الوقت، لا يفكّر بشيء على وجه الخصوص. لكنّ الإصرار الكئيب كان ينضج داخله في كلّ ثانية، في عضلاته المنحلّة وفي عروقه المشدودة المتألّمة. كان مثل دمية رقيقة سُحِب منها كلّ نشارة الخشب، وأصبحت خرقة لا شكل لها، علّقها شخص على هيكل معدنيّ بقسوة. لم يعد هو نفسه بعد الآن، لقد تبعثر مع نشارة الخشب الّتي حملها تيّار النّفق، وتفكّك إلى جزيئات. والآن شخص جديد يسكن في داخل جلده، شخص لم يرد أن يسمع التّوسلّات اليائسة لنزفه وجسده المنهك، شخص سحق تحت أقدامه الرّغبة في الاستسلام والبقاء ساكنًا، والرّغبة في قضاء استراحة، شخص لن يستسلم قبل أن تتحقّق محاولته وبشكل كامل. هذا الشّخص الآخر أخذ القرار على مستوى الغريزة، وتجاهل الوعي الّذي ساد فيه الصّمت والفراغ. انقطع التّدفّق العاديّ للحوار الدّاخلي.

وكأنّ نابضًا يتلوّى داخل أرتيوم تمّت تسويته. نهض على قدميه بحركات خرقاء متخشّبة، ونظر إليه المفوّض في اندهاش حتّى أنّ مكسيم أنزل يده إلى بندقيّته الآليّة.

هل يمكنني التّحدّث معك أيّها الرّفيق المفوّض؟ سأل أرتيوم في صوت لا نغمة فيه.

عندئذ التفت بونساي بقلق، متحرّرا من التّعيس العم فيودور.

قل ماعندك بصراحة يا رفيق أرتيوم، فأنا ليس لديّ أيّ سر أخفيه عن رفاقي المقاتلين، ردّ المفوّض بحذر.

كما ترى... أنا ممنون لكم لأنّكم أنقذتموني ولا أملك شيئًا لردّ جميلكم. كنت أودّ البقاء معكم لكنّني لا أستطيع، يجب أن أتابع سيري، أنا مضطرّ أن أفعل ذلك.

لم يردّ المفوّض بأيّ شيء.

حسنًا، إلى أين ستذهب؟ هتف العمّ فيدور بشكل غير متوقّع.

ضغط أرتيوم شفتيه معًا ونظر إلى الأرض. عَلِق صمت مربك في الجوّ. وبدا له أنّهم ينظرون إليه الآن بتوتّر وشكّ، ويحاولون تخمين نواياه. هل هو جاسوس؟ هل هو خائننا؟ لماذا يتكتّم بشدّة؟

حسنًا، إن كنت لا تريد البقاء فلا تبقى، قال العمّ فيودور في نغمة استرضائيّة.

إلى بوليس، لم يستطع أرتيوم إلّا أن يخبرهم. لم يستطع أن يخاطر بفقدان الثّقة من أجل نظريّة مؤامرة سخيفة ما.

هل لديك عمل ما هناك؟ سأل العم فيودور بنظرة بريئة.

أومأ أرتيوم بصمت.

هل هو عاجل وملحّ؟ استمرّ الرّجل في سبره

حسنا، انظر، نحن لن نمنعك. إن كنت لا تريد التّحدّث عن عملك فهذا جيّد، لكنّنا لا نستطيع أن نتركك هنا في وسط النّفق، هل هذا صحيح يا رجال؟ التفت إلى الآخرين.

أومأ بونساي بقوّة وأخذ مكسيما يديه من ماسورة البندقيّة وأكّد الفكرة. عندها تقدّم الرفيق روساكوف:

هل أنت مستعدّ يا رفيق أرتيوم، أن تقسم أمام مقاتلي هذا اللّواء الّذين أنقذوا حياتك، أنّك لا تخطّط إلى القيام بأيّ ضرر للقضيّة الثوريّة؟ سأل بقسوة.

أنا أقسم على ذلك، أجاب أرتيوم بسرعة وسهولة. فلم يكن لديه أيّة نوايا في إيذاء الثّورة. فهناك أشياء أكثر أهميّة يفكّر بها.

نظر الرّفيق روساكوف في عينه طويلًا وبقوّة، وأخيرا نطق بحكمه:

أيّها الرّفاق المقاتلون، أنا شخصيًّا أصدّق الرّفيق أرتيوم. أسألكم أن تصوّتوا لمساعدته للوصول إلى بوليس.

كان العمّ فيدور أوّل من رفع يده، وتوقّع أرتيوم أنّ فيدور هو من رفعه من أنشوطة الحبل. ثمّ صوّت مكسيم واكتفى بونساي بالإيماء برأسه.

أنت ترى يارفيق أرتيوم، في مكان غير بعيد من هنا هناك ممرّ غير معروف لأغلب النّاس. إنّه يربط فرع زاموسكفوريتسكايا مع الخطّ الأحمر، قال القائد: ونحن نستطيع أن نضعك على طريقك...

لم ينجح في إكمال جملته لأنّ كاراتسيوبا الّذي كان مستلقيًا بجانب قدمه قفز فجأة، وبدأ ينبح بشكل يصمّ الآذان. سحب الرّفيق روساكوف مسدّسه من قرابه بحركة سريعة كالبرق. ولم يتسنّ الوقت لأرتيوم ليرى ماذا فعل غيره.. شدّ بونساي الحبل وشغّل المحرّك، بينما أخذ مكسيم موقعه في المؤخّرة، وأخذ العمّ فيودور قارورة مع عود كبريت من قمّة العلبة الّتي يحمل فيها شرابه المنزليّ.

كان النّفق يغوص باتّجاه الأسفل في تلك النّقطة، لهذا كانت الرّؤية سيّئة جدًّا، واستمرّ الكلب بالنّباح فشعر أرتيوم بالقلق.

أعطوني بندقيّة أليّة أنا أيضًا، طلب بهمس.

ومض ضوء مصباح قويّ من مكان غير بعيد وانطفأ. ثمّ سمعوا أحدهم يصدر الأوامر بصوت عال. مشت أحذية ثقيلة على العوارض الخشبيّة، وتعثّر شخص بهدوء ثمّ خيّم الصّمت بعد ذلك. أمّا بالنسبة لكاراتسيوبا، فقد أغلق المفوّض أنفه وفمه بقوّة لكي لا يبدأ بالنّباح ثانية.

إنّها لا تعمل، تمتم بونساي الّذي أُحبِط قليلًا، يجب أن ندفعها.

كان أرتيوم أوّل من نزل من عربة القطع، ووثب خلفه العمّ فيودور ثمّ مكسيم. حشروا أقدامهم على العوارض الخشبيّة بجهد، وحرّكوا الشّيء الكبير (العربة) إلى الأمام. كانت تتحرّك ببطء، وحين تمكّنوا أخيرًا من إيقاظ المحرّك الّذي اشتغل وكأنّه يصدر أصوات تشبه السّعال، كانت الأحذية ترعد قريبًا جدًّا منهم.

نار، جاء الأمر من الظّلام وامتلأ الفراغ الضّيّق من النّفق بالصّوت. دوّت أربع طلقات على الأقلّ وراءهم، وضُربت حولهم بشكل عشوائيّ وارتدّ عنها رذاذ شرارات ضربت الأنابيب وجعلتها تَرِنّ. ظنّ أرتيوم أنّهم في ورطة لا مخرج منها، لكنّ مكسيم وقف بطول قامته وأمسك ببندقيّته الآليّة، وظلّ يطلق النّار وقتًا طويلًا. صمتت الأسلحة الأوتوماتيكيّة. بعدئذ تحرّكت العربة بسهولة أكثر، فبدؤوا بالرّكض خلفها وصعدوا على منصّتها.

إنّهم يتراجعون، ادفعوا إلى الأمام، جاءت الصّيحة من الخلف وقعقعت البنادق الآليّة من خلفهم بعيدًا، مع قوّة مضاعفة لكنّ أغلب الطّلقات ضُربت بجدار النّفق وسقفه.

أشعل العمّ فيودور بسرعة عقب القنينة ولفّها ببعض الخرق ورماها في الدّرب. وبعد دقيقة واحدة كان هناك وميض ساطع، ورنّ نفس صوت الضّجيج الّذي سمعه أرتيوم حين كان يقف والأنشوطة حول عنقه.

ومرّة أخرى، دخان أكثر، أمر الرّفيق روساكوف.

فكّر أرتيوم حين تُرِك الّذين يضايقونهم بعيدًا في الخلف يحاولون إيجاد طريقهم عبر ستار من الدّخّان. كانت المركبة تتحرّك إلى الأمام بسهولة، وتفزع المتفرّجين المحدّقين وتبعدهم وكأنّها معجزة، وانقضّت على محطّة نوفوكوزنيتسكاي وتجاوزتها، حيث رفض الرّفيق روساكوف التّوقّف. لقد عبروا بسرعة كبيرة، لذلك لم يجد أرتيوم الوقت الكافي ليرى المحطّة نهائيًّا. لم يكن فيها أيّ شيء مميّز عدا الإضاءة الشّحيحة. وهناك عدد جيّد من النّاس، لكنّ بونساي همس له أن المحطّة ليست جيّدة أبدًا، وكلّ ساكنيها أغراب، وآخر مرّة حاولوا التّوقّف هناك ندموا كثيرًا، ونحجوا بالكاد في الخروج منها.

آسف يا رفيق، لكنّنا لن نقدر على مساعدتك كما خطّطنا، قال روساكوف لأرتيوم في نغمة مألوفة أكثر من المعتاد: الآن لن نستطيع العودة إلى هنا لفترة من الزّمن. سوف نحتفظ بقاعدة في افتوزافودسكايا، فإن أحببت يمكنك الانضمام إلى اللّواء.

على أرتيوم أن يكون قويًّا من جديد ويرفض العرض، لكنّه كان أسهل هذه المرّة. غمره نوع مبهج من اليأس المتهوّر. كلّ العالم كان ضدّه، وكلّ شيء كان يضيع، لكنّ العقبات الّتي وضعها النّفق في طريق مهمّته، أيقظت في نفسه غيظًا ورغبة عارمة. وهذا الغيظ أوقد من جديد بصيرته المتضائلة بنار متمرّدة تلتهم أيّ خوف أو إحساس بالخطر في داخله، كما أوقد العقل والقوّة لديه.

كلّا، قال بثبات وهدوء: يجب أن أذهب.

في تلك الحالة سنذهب معًا حتّى بافليتسكايا، ثمّ تفترق طرقنا، قال المفوّض الّذي بقي صامتًا حتّى هذه النّقطة. يا للعار يا رفيق أرتيوم، نحن نحتاج إلى مقاتلين.

بالقرب من نوفوكوزنتسكايا تشعّب النّفق، فأخذت العربة الممرّ اليساري. وحين سأل أرتيوم عمّا يوجد في آخر النّفق اليمينيّ، شرحوا له أنّ الطّريق مسدود بوجههم. على بعد بضع مئات من الأمتار هناك موقع متقدّم لهانسا، قلعة حقيقيّة. وهذا النّفق العاديّ يؤدّي مباشرة إلى محطّات الرّينغ الثّلاثة، اوكتيابرسكايا ودوبرينسكايا وبافلتسكايا. لم تعتزم هانسا على تدمير ممرّ هذا النّفق الدّاخليّ الصّغير كما أنّه وصلة نقل مهمّة جدًّا، ولا يستعمله سوى عملاء هانسا السّرّيّين. وإن حاول أحد الاقتراب من الموقع المتقدّم يدمروه فورًا دون أن يعطوه الفرصة للشّرح أو التّبرير.

وصلوا إلى بافلتسكايا بعد السّفر لمدّة قصيرة في النّفق. وتذكّر أرتيوم كم كان صديقه في فدنكه محقًّا، حين أخبره أنّ اجتياز شبكة المترو كلّها لم يكن يستغرق أكثر من ساعة في الماضي، ولم يصدّق ذلك آنذاك. آه، لو كان لديه العربة المعدّلة الخاصّة بهم...

لكن، وفي كلّ الأحوال لن تقدّم العربة المعدّلة أيّ فائدة، وذلك لوجود أمكنة كثيرة لا يمكن تجاوزها كالنّسيم. كلّا ليس هناك فائدة من الحلم بها ولم يبق شيء مثلها في هذا العالم الجديد، فكلّ خطوة في هذا العالم تتطلّب جهدًا مستحيلًا وألمًا حارقًا. لقد رحلت الأيّام الماضية منذ زمن طويل، ومات ذلك العالم الرّائع السّحريّ منذ زمن بعيد، ولم يعد موجودًا أبدًا، وليس هناك أيّ معنى في العويل عليه فيما بقي من حياتك. عليك أن تبصق على قبره وألّا تلتفت إلى الوراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر: نو باساران (لن يمرّوا)

لم تُشَاهد أيّ دوريّة حراسة أمام محطّة بافلتسكايا، وإنّما مجموعة أشخاص لهم شعور مجعّدة، يجلسون على بعد ثلاثين مترًا من مخرج المحطّة، وحين رأوا سيّارة الثّوار تحرّكوا جانبًا للسّماح بدخولها وراقبوها باحترام.

ماذا؟ ألا يعيش أحد هنا؟ سأل أرتيوم محاولًا أن يبدو صوته هادئًا. هو بالتّأكيد لا يريد أن يُترك لوحده في هذه المحطّة المهجورة بدون سلاح وطعام ووثائق (أوراق رسميّة)

في بافلتسكايا؟ نظر إليه الرّفيق روساكوف باندهاش: طبعًا هناك أناس يعيشون فيها.

إذًا لماذا لايوجد حرس حدود؟ أصرّ أرتيوم.

لأنّ هذه با-ف-لتس-ك-ايا، قاطعه بونساي وقد لفظ المقاطع الصوتيّة للتّأكيد، من يهتمّ بها؟

فكّر أرتيوم ورأى أنّه يتّفق كثيرًا مع رأي الحكيم القديم الّذي قال وهو يحتضر، أنّ الشّيء الوحيد الّذي يعرفه هو أنّه لا يعرف أيّ شيء. تحدّثوا كلّهم عن عدم انتهاك حرمة محطّة بافلتسكايا، وكأنّه أمر لا يحتاج إلى تفسير وشيء يفهمه الجميع.

ماذا؟ هل تقصد أنّك لا تعرف؟ كان بونساي غير مصدّق. انتظر فقط وسترى بنفسك.

فتنت بافلتسكايا خيال أرتيوم من النّظرة الأولى. الأسقف عالية جدًّا، أمّا الوهج المترجرج لضوء المشاعل الّتي نتأت عبر حلقات ثُبِّتت بالجدار دون أن تصل إلى السّقف، فقد خلقت إحساسًا مخيفًا وساحرًا باللّانهائيّ فوق الرّأس. ونجحت أقواس هائلة مدوّرة مدعومة بأعمدة رفيعة في حمل القناطر الضّخمة. وقد مُلأ الفراغ بين الأقواس بقوالب برونزيّة فقدت لمعانها، لكنّها ظلّت تذكّر بماضيها العظيم، ورغم كونها مجرّد مطارق ومناجل تقليديّة تؤطّرها الأقواس، لكنّ هذه الرّموز شبه المنسيّة لإمبراطوريّة مدمّرة فخورة ومهيبة، بدت كما كانت حين صنعوها. ويوجد صفّ من أعمدة لانهاية لها موشاة بضوء أحمر دمويّ مموّج يتلاشى في السّديم البعيد، والّذي لا يُصدّق أنّ هذا الصف من الأعمدة بدا أنّه لا يتوقّف أبدًا. أمّا شعلات اللّهب الّتي تلامس الأعمدة المرمريّة الرّشيقة على بعد مائة أو ألف خطوة، كانت عاجزة عن اختراق الظّلمة الملموسة الكثيفة. ومن المؤكّد أنّ هذه المحطّة كانت مقرّ إقامة السايكلوب، لهذا فكلّ شيء فيها كان عملاقًا...

هل لأنّها كانت جميلة جدًّا،لم يجرؤ أحد على الاعتداء عليها؟

غيّر بونساي وضع ناقل الحركة ليريح المحرّك، فتدحرجت العربة ببطء متزايد وتدريجيّ إلى أن توقّفت. بينما كان أرتيوم ينظر بتركيز إلى هذه المحطّة الغريبة. حول ماذا كان ذلك؟ لماذا لا يقلق أحد بشأن بافلتسكايا؟ ما هو الشّيء المقدّس جدًّا

فيها؟ من المؤكد أنّه ليس لمجرّد كونها تبدو مثل قصر خيالي تحت الأرض، ولا لأنّها مبنى بني من أجل صناعة المواصلات والنّقل؟

جمهرة من الأولاد الصّغار الفقراء المتّسخين والمهلهلين من كلّ الأعمار تجمّعوا حول العربة الواقفة. نظروا إلى المحرّك بحسد، وتجرّؤوا أن يقفزوا على المسار ويلمسوا المحرّك بحذر وصمت حتّى طردهم فيودور.

هذه هي يا رفيق أرتيوم. هنا تتباعد دروبنا، قاطع القائد أفكار أرتيوم. ناقشت الأمر مع الرّفاق الآخرين، وقرّرنا أن نعطيك هديّة صغيرة. تفضّل، وسلّم أرتيوم بندقيّة نصف آليّة، ربّما كانت هذه البندقيّة واحدة من التي أخذوها من حرّاس الأمن. ويوجد شيء آخر، لقد وضع في يد أرتيوم المصباح الّذي أضاء طريق الفاشي ذو البزّة النظاميّة السّوداء صاحب الشّارب. هذه كلّها تذكارات بالانتصارات، لهذا تشجّع بهنّ. هي لك بشكل قانوني، كنّا نودّ لو بقينا فترة أطول، ولكن يجب ألّا نتأخّر. ومن يعرف إلى أيّ مسافة قرّر أولاد الزّنا الفاشيّون أن يطاردونا؟ لكنّهم بالتّأكيد لن يتجرّؤوا أن يغرزوا أنوفهم في بافلتسكايا رغم تصميمه وثباته الذي اكتسبه حديثًا، دقّ قلب أرتيوم باستياء حين صافحه بونساي متمنًّيا له النّجاح. ضربه مكسيم بكفّه على كتفه بطريقة وديّة، ودسّ له العمّ فيودور الملتحي نصف قنّينة شراب من حصّته ولم يعرف أيّ شيء آخر سيعطيه..

اذهب يا رفيق سنتقابل مرّة أخرى، وسنكون أحياء، لن نموت.

صافحه الرّفيق روساكوف مرّة أخرى، وعلت وجهه الوسيم الرّجوليّ الجديّة وقال:

رفيق أرتيوم، في الفراق أحبّ أن أخبرك بشيئين، الأوّل: ثق بنجمك وطالعك، كما قال الرّفيق أرنستو تشي غيفارا، هاستا لا فيكتوريا سيمبري (حتّى النّصر الدّائم، المترجم) الثّاني والأهم: نو باساران (لن يمرّوا، شعار يعبّر عن التّصميم لحماية موقع من العدو، المترجم)..

رفع كلّ واحد من الجنود الآخرين يده اليمنى في شكل قبضة، وردّدوا الشّعار: (نو باساران) لم يبق أمام أرتيوم إلّا أن يرفع قبضته ويصرخ باللّازمة بحماس ثوريّ وتصميم كبير: (نو باساران) وبالنّسبة له كلّ الطّقس كان مجرّد هراء، لكنّه لم يرد أن يفسد اللّحظة المقدّسة لرحيله بأسئلة غبيّة. ومن الواضح أنّه قام بكلّ شيء بالطّريقة الصّحيحة، لأنّ الرّفيق روساكوف نظر إليه بفخر ورضا، ثمّ حيّاه بشكل مهيب.

دار محرّك العربة بشكل أسرع وبصوت أقوى وغطّتها غيمة رماديّة زرقاء من الدّخان، ورافقتها حامية من الأولاد الفرحين، لتتلاشى أخيرا في الظّلام. بات أرتيوم وحيدًا تمامًا مرّة أخرى وأبعد عن الوطن أكثر ممّا كان عليه من قبل.

كان أوّل شيء لاحظه حين تجوّل على المنصّة هو ساعات الجدار.فقد عدّ أرتيوم أربعة منها على الفور. في فدنكه الوقت شيء رمزيّ، مثل الكتب ومثل محاولات بناء مدارس الأولاد، مجرّد التّظاهر بأنّ مواطنو المحطّة ما زالوا مهتمّين، ولا يريدوا أن ينحطّوا، وأنّهم ما زالوا كائنات بشريّة. أمّا السّاعات هنا فتلعب دورًا آخر

أكثر أهميّة. ثمّ لاحظ بعد أن تجوّل أكثر، أشياء أخرى غريبة، أوّلًا لم تكن هناك أحياء مأهولة من أيّ نوع في المحطّة، ماعدا عربات قطار نُقِلت إلى المسار الثّاني وإلى داخل النّفق، وهناك جزء صغير من القطار في الصّالة، لهذا لم يره أرتيوم فورًا. تجّار من كلّ نوع تتخيّله، وورشات في كلّ مكان، ولكن ليس هناك خيمة واحدة للعيش فيها، أو حتّى ستارة بسيطة يمكن للمرء أن يمضي ليلته خلفها. هناك بعض المتسوّلين والمشرّدين يستلقون حول بطّانيّات صنعت من الكرتون. كان النّاس الّذين يمشون بسرعة في المحطّة، يقتربون من السّاعات

بين الفينة والأخرى، بعضهم لديه ساعات يد، كانوا يتفحّصونها مع الأرقام الحمر على لوحة العرض، ثمّ يتابعون أعمالهم مرّة أخرى. فكّر أرتيوم لو أنّ خان هنا لكان من الممتع الاستماع لما سيقوله.

على أيّ حال المكان هنا بعكس كيتاي غورود، حيث كان النّاس يبدون اهتمامهم بالمسافرين ويحاولون إطعامهم وبيعهم شيء ما، وأخذهم لزيارة مكان ما. أمّا هنا فكلّ واحد يبدو مشغولًا بشأنه الخاصّ به. فليس لديهم أيّ عمل مع أرتيوم لذلك ازداد إحساسه بالعزلة، لكن فضوله كان أقوى فحلّ مكان هذا الإحساس.

استمرّ في مراقبة محيطه في محاولة منه لإبعاد شعوره بالاكتئاب المتزايد. وتوقّع أرتيوم أن يرى أناسا هنا مختلفين نوعًا ما في تعابير وجوههم المميّزة، بما أنّ الحياة في محطّة كهذه ستترك علامتها عليهم بالتّأكيد. من خلال نّظرته الأولى كان النّاس يتحرّكون بنشاط وسرعة، يصيحون ويعملون ويتجادلون كما في أيّ مكان آخر. لكنّه كلّما نظر عن قرب أكثر كلّما ازدادت القشعريرة في نخاعه الشّوكي. فهناك عدد مروّع من المقعدين والمشوّهين الصّغار، أحدهم بلا أصابع، وآخر مغطّى بجرب مقزّز، وآخر يده مبتورة... أغلب البالغين صلعان وغير أصحّاء، ليس هناك أشخاص أصحّاء تقريبًا. كلّ ما هم عليه خلق تناقضًا مؤلمًا مع الفسحة الواسعة المظلمة للمحطّة الّتي عاشوا فيها.

في وسط المنصّة الواسعة هناك فتحتان مستطيلتان تؤدّيان إلى الأعماق، إلى الممرّ الّذي يمرّ من فوق الرّينغ باتّجاه الهانسا. ولم يكن هناك حرّاس حدود من الهانسا أو حواجز تفتيش كما كان في بروسبكت مير. وقد أخبر أحدهم أرتيوم في الماضي، أنّ هانسا تمسك بكلّ المحطّات المجاورة لها بقبضة حديديّة. ومن الواضح أنّ هناك شي غريب يحدث هنا.

لهذا لم يغامر أرتيوم في الذّهاب إلى الطّرف المعاكس من الصّالة. واستخدم خمسة خراطيش ليشتري زبديّة من الفطر المشويّ المفروم وقدح من الماء المرّ المتعفّن. تناول الطّعام بما فيه من قذارة بتقزّز، وهو يجلس على صندوق بلاستيكيّ مقلوب وضعت فيه الزّجاجات الفارغة سابقًا. بعد ذلك ذهب إلى القطار لعلّه يجد قسطًا من الرّاحة هناك، فقوّته كانت تتناقص واشمئزازه يزداد كلّما أطال النّظر إلى ما حوله. كان قطار النّفق محتلفًا تمامًا عن الآخر في كيتاي غورود، عرباته ممزّقة وفارغة تمامًا والمقاعد محروقة ومنصهرة معًا، والآرائك الجلديّة النّاعمة انتُزعت ونُقلت إلى مكان ما، كما كانت بقع الدّم في كلّ مكان، وأغلفة الطّلقات الفارغة تتلألى على

الأرضيّة. من الواضح أن هذا المكان ليس ملجأ ملائمًا، وإنّما هو أشبه بقلعة صمدت بوجه أكثر من حصار.

لم يمرّ الكثير من الوقت حين كان أرتيوم يتفحّص القطار، ومع ذلك حين عاد إلى المنصّة كاد ألّا يعرفها. فالضّجيج اختفى، والمناضد فارغة باستثناء بضعة مشرّدين جلسوا على المنصّة في مكان غير بعيد عن الممرّ، لم تكن هناك روح حيّة واحدة تُرَى على المنصّة.

اشتدّ الظّلام بشكل واضح، وأُطفأت المشاعل الّتي كانت على الجانب حين دخل إلى المحطّة، ولم يبق سوى بضعة مشاعل في وسط الصّالة، ولكن بعيدًا في الطّرف المعاكس ما زالت النّار تشتعل. أشارت السّاعة الجداريّة بأنّ الوقت قد تجاوز الثّامنة مساء بقليل. ماذا حدث؟

أسرع أرتيو بقدر ما سمح له الألم في جسمه. كان المعبر مغلقًا من الجانبين، ليس بالأبواب المعدنيّة المعتادة، وإنّما ببوّابات حديديّة قويّة. هذه البوّابات مثل نظيراتها على السّلّم الثّاني، ولكن ما زالت واحدة من البوّابات نصف مفتوحة، وخلفها شبك صلب لُحمت عليه تعزيزات ثقيلة مثل النّوافذ البابيّة في محطّة تفرسكايا. وخلف الشّبك وُضعت طاولة مع مصباح صغير نوره باهت، جلس وراءها حارس شكله أزرق رماديّ شاحب.

ممنوع الدّخول بعد الثّامنة، قالها بشكل مفاجيء حين طُلِب منه الإذن. البوّابة تُفْتَح في السّادسة صباحًا.. واستدار جانبًا ليفهم الآخر أنّ المحادثة انتهت. صُدِم أرتيوم. لماذا تنتهي الحياة في هذه المحطّة بعد الثّامنة مساء؟ وماذا عليه أن يفعل الآن؟ المشرّدون الّذين زحفوا إلى داخل صناديقهم الكرتونيّة، بدوا منفّرين جدًّا، ولم يرد أن يقترب منهم. لهذا قرّر أن يجرّب حظّه عند النّار الّتي تومض في الطّرف المقابل من الصّالة.

كان واضحا من بعيد، أنّ الواقفين عند النّار ليسوا من المشرّدين، وإنّما حرّاس حدود أو شيء من هذا النّوع. الظّلال قبالة النّار تبدو لذكور أقوياء، وهناك أيضًا ظلال أسلحة آليّة واضحة. ولكن ما الّذي يحرسونه هناك وهم يجلسون على المنصّة نفسها؟ مواقع الحراسة يجب أن تُنصب في الآفاق ومداخل المحطّة، وكلّما كانت أبعد تكون أفضل، ولكن هنا إن زحف عليهم أيّ مخلوق أو هاجمهم قطّاع الطّرق، فلن يقدر الحرّاس فعل شيء.

لكن عند اقتراب أرتيوم أكثر لاحظ شيئًا آخر، من خلف النّار ومض ضوء أبيض واضح، صعد للأعلى كما هو واضح، لكنّه قصير جدًّا وكأنّه قُطع في بدايته ولم يضرب السّقف، بل كان يختفي على بعد مترين اثنين مخالفًا كلّ قوانين الفيزياء. كان ضوء المصباح يضيء بشكل نادر وعلى فواصل بارزة، وربّما لهذا لم يلاحظه أرتيوم من قبلفي وقت. ماذا يمكن أن يكون؟

مشى باتّجاه النّار وألقى التّحيّة بأدب، وشرح أنّه مسافر عابر ولا يعرف بموعد إغلاق البوابة ولهذا فاتته، وطلب إن كان بمقدوره أن يمضي بعض الرّاحة هنا مع

رجال الدوريّة.

تمضي بعض الرّاحة؟ سخر الرّجل الأقرب إليه. وكان رجل له شعر أشعث أسود وأنف كبير سمين، ولم يكن طويلًا لكنّه يبدو قويًّا جدًّا. هذا ليس مكانا للرّاحة أيّها الطّفل، وإن بقيت حيًّا حتّى الصّباح تكون قد أحسنت صنعًا.

وعند السّؤال عن الخطر في الجلوس بقرب النّار في وسط المنصّة، لم يقل الرّجل شيئًا، بل أومأ برأسه إلى المكان الّذي يومض منه المصباح. كان الآخرون منشغلين بحديثهم ولم يكترثوا البتّة بأرتيوم. بعد ذلك قرّر أن يكتشف ما يحدث حوله، وذهب إلى المصباح الكهربائيّ. وما رآه هناك أدهشه، لكنّه فسّر له الكثير.

في الطّرف البعيد من الصّالة هناك كشك صغير كالّذي تراه أحيانا قرب السّلالم الدّوّارة عند الانتقال إلى خطوط أخرى. وقد تكدّست حوله حقائب هنا وهناك معزّزة بصفائح حديديّة هائلة، وكان أحد رجال الدّوريّة ينزع الغطاء عن سلاح رهيب جدًّا، والحارس الآخر جالس في الكشك. ركّب بأعلى السّلاح مصباح مثل الّذي كان يومض للأعلى. إلى الأعلى، بلا صمّام معدنيّ، أو حاجز هنا أو حتّى أثر لواحد. وكانت درجات السّلّم تبدأ خلف الكشك تمامًا وتؤدّي إلى السّطح.

ذلك هو المكان الّذي يضربه ضوء المصباح، ويتفحّص بقلق جدارًا بعد آخر وكأنّه يحاول أن يجد أحدًا في حفرة الظّلام. لكنّه لم يكن يجد سوى إطار مصباح بنيّ، وسقف رطب تقشّرت منه قطع هائلة من الجصّ... أمّا وراء ذلك فلا يرى أيّ شيء.

وفجأة.. اتّضح كلّ شيء.

لسبب ما فُقِد الصمّام المعدنيّ (دامبر) الّذي يفصل عادة المحطّة عن السّطح، فُقِد من المنصّة ومن الأعلى أيضًا، وأصبحت بافلتسكايا على تماس مباشر مع العالم الخارجي، ووجد سكّانها أنفسهم تحت تهديد هجوم مستمرّ. كانوا يتنفّسون هواء ملوّثا ويشربون مياهً ملوثة، وهذا ما يفسّر مذاقها المرّ الغريب... وهو سبب لوجود الكثير جدًّا من التّحوّلات الوراثيّة هنا وسط النّاس الصّغار أكثر ممّا يوجد في فدنكه مثلًا. وأيضًا هو السّبب الّذي يجعل البالغين يبدون مرضى جدًّا، فجماجمهم مكشوفة ومصقولة للضّوء وأجسادهم منهكة وعرضة للخراب. كانوا يتآكلون تدريجيًّا بسبب مرض إشعاعي.

لكن يبدو أنّ هذا لم يكن كلّ شيء. كيف يمكن تفسير موت المحطّة كلّها بعد السّاعة الثّامنة مساء، وكلام حارس الخدمة ذي الشّعر الدّاكن الّذي قال إنّ البقاء حيًّا حتّى الصّباح صفقة رابحة؟

اقترب أرتيوم وهو يرتجف من الرّجل الّذي في الكشك.

مساء الخير، ردّ الرّجل تحيّته.

كان في الخمسين من عمره تقريبًا، ولكنّه أصلع تمامًا تشربك الشّعر الرّماديّ المتبّقي عند صدغيه ومؤخّرة عنقه. نظر بعينيه الدّاكنتين إلى أرتيوم باستغراب،

ولم تخف سترته المرفوعة الواقية كرشه المدوّر، وكان يعلق منظارًا ثنائيّ العينين على صدره، ومعه صفّارة.

تفضّل بالجلوس، أشار لأرتيوم إلى أقرب كيس رمل، هؤلاء الرّجال هناك يستمتعون بوقت قديم رائع، تركوني لوحدي هنا حتّى كدتّ أموت من الضّجر. لهذا دعنا نتحدّث.. هيه هل ضربت قبضة أحد ما بعينك؟

وهكذا بدأ الحديث...

كما ترى، نحن لم نستطع أن نفعل شيئًا مرضيًا أو مقبولًا هنا، قال الضّابط المناوب معلّلًا بحزن وهو يشير إلى الفتحة المؤدّية إلى السّلّم الدّوار (المصعد). نحن بحاجة إلى الإسمنت هنا وليس الحديد، جرّبنا الحديد لكنّه لم يكن مفيدًا. لأنّ الماء في فصل الخريف يكنس كلّ شيء لعين. في البداية يبني ثمّ بعدها يخترق... حدث ذلك مرّات كثيرة ومات الكثير من النّاس. ومنذ ذلك الحين ونحن نحيا في هذا الحال. لكنّ الحياة ليست هادئة هنا كما في المحطّات الأخرى، فنحن ننتظر الزّبد دائمًا ويمكن أن يأتي زاحفًا في أيّ ليلة معيّنة. أثناء النّهار هم لا يضايقوننا لأنّهم إمّا نائمين أو يتجوّلون على السّطح. أمّا في الظّلام تصبح الأمور مأساويّة حقًّا. لهذا تكيّفنا هنا طبعًا، وبعد السّاعة الثّامنة يدخل كلّ واحد إلى الممرّ، حيث نعيش، أمّا هؤلاء الباقون هنا فهم الأشخاص الّذين يحافظون على استمرار الأشياء. لكن انتظر... حرّر نفسه ونقر مفتاحًا على وحدة التّحكّم فتوهّج المصباح.

لم تُستأنف المحادثة إلّا بعد أن فتّش الشّعاع الأبيض، السّلالم الثّلاث وانتقل إلى السّقف والجدران ثمّ انطفأ أخيرًا.

هناك في الأعلى (أخفض الضّابط المناوب صوته وهو يشير إلى السّقف)، تقع محطّة سكّة حديد بافلتسكايا. لقد كانت موجودة هناك والآن هي مكان مهجور. لا أعرف أين تذهب مساراتها، إلّا أنّ شيئًا رهيبًا يحدث فيها الآن. فأحيانًا تسمع ضوضاء تجمّد الدّم في جسدك، ومن ثمّ تتقدّم زاحفة... توقّف ثمّ تابع بعد دقيقة: نحن نسمّي تلك المخلوقات الّتي تنزل علينا من الأعلى من خارج محطّة القطار بالقادمين الجدد. ولم يكن الأمر رهيبًا جدًّا، مع أنّ بعضًا من أقوى القادمين الجدد أبادوا هذا النّطاق المحميّ، عدّة مرّات. هل رأيت قطارنا هناك، القطار الّذي أُجبر على الخروج من المسارات؟ لقد وصلوا إلى هذا المدى. ولم نتركهم يذهبون للأسفل حيث الأطفال والنّساء، فلو تقدّم القادمون الجدد إلى هناك لانتهت القصّة. وقد أدرك رجالنا ذلك، لهذا تراجعوا إلى القطار وتخندقوا هناك وقتلوا القليل من المخلوقات، أمّا بالنّسبة لهم، لم ينجو سوى اثنين من كلّ عشرة. أحد القادمين الجدد بقي وتقدّم إلى محطّة نوفوكوزنتسكايا. فأراد بعض النّاس ملاحقته في الصّباح متتبّعين ومهتدين بأثر المادّة اللّزجة الغرويّة الكثيفة الّتي تركها، لكنّه انعطف إلى نفق جانبيّ ونزل فلم نتجرّأ أن نلحق به، فقد أصابنا ما يكفي من نكبة مسبقًا.

لم يهاجم بافلتسكايا أحد كما سمعت، تذكّر أرتيوم، هل هذا صحيح؟

طبعًا، أومأ الضّابط المناوب بتجهّم: من يهتمّ بنا؟ كلا، لن يرفع أحد إصبعًا ضدّنا. هانسا أعطتنا ممرّ العبور هذا كلّه تقريبًا حتّى نهاية حصنهم الصّغير، وأعطونا أيضًا أسلحة لكي يحموا أنفسهم فقط.

بالمناسبة ما اسمك؟ أنا مارك. وأخبره أرتيوم باسمه. أمسكه يا أرتيوم، يوجد شيء يتحرّك هناك، تابع قائلًا وأشعل المصباح بسرعة: كلّا ربّما، أشياء، قال غير متأكّد بعد دقيقة.

ملأ أرتيوم شعور مستبدّ بالخطر بالتّدريج. فنظر إلى الأعلى بحذر مثل مارك، لكن حيث لم ير مارك سوى ظلّ مصباح مكسور، ظنّ أرتيوم أنّه اكتشف ظلالا غريبة شرّيرة ساكنة في شعاع الضّوء المبهر.

في البداية ظنّ أن خياله يتلاعب به، ولكنّ أحد الأشكال الغريبة تحرّك قليلًا حين مرّ قليل من الضّوء فوقه.

انتظر، همس: حاول مرّة أخرى في تلك الزّاوية حيث الشّقّ الكبير، أسرع...

وكأنّه تسمّر في مكانه بسبب شعاع الضّوء في مكان بعيد، تجمّد شيء عريض وعظميّ بعد منتصف السّلّم الدّوّار للحظة، ثمّ انقضّ للأسفل. فالتقط مارك صفّارته الّتي كادت تسقط من يده، ونفخ بها بكلّ قوّته وفي ثانية واحدة اندفع كلّ هؤلاء الجالسين حول النّار من أماكنهم وانتشروا في مواقعهم. تبيّن أنّ هناك مصباح آخر أضعف، لكنّه اتّحد بذكاء في رشاش ثقيل غير عاديّ. لم ير أرتيوم مثله قطّ، للسّلاح سبطانة طويلة مع فوّهة جرس في طرفه، والشّريط مثل شبكة والطّلقات تتقدّم داخل حزام الذّخيرة اللّامع الملوّث بالشّحم.

هناك، حول المتر العاشر، بحث الزّميل النّحيل الأجشّ الّذي كان يجلس قرب مارك عن القادم الجديد بالشّعاع. أعطني المنظار يا ليخا، على العاشر من الجانب اليميني.

ها هو، نحن كلّنا هنا يا طفلي لهذا، اجلس بلا حركة، تمتم الرّامي وهو يسدّد السّلاح على الظّلّ الأسود الخفيّ: لقد نلت منه.

دوّى هزيم صمّ الآذان من الرّشاش، نسف المصباح إلى فتات في المتر العاشر، وفي الأعلى زعق شيء ما زعيقًا ثاقبًا.

يبدو وكأنّنا أمسكنا به، قال الزّميل الأجشّ. حسنًا، أعطه ضوءًا أكثر فها هو يستلقي هناك... قُضي على الحشرة المؤذية.

ولكن من الأعلى سُمِع أنين ثقيل شبه بشريّ لمدّة طويلة جعل أرتيوم قلقًا وعصبيًّا، وحين اقترح الإجهاز على القادم الجديد لوضع نهاية لألمه، ردّوا: إن أردت، تابع، اقتله. نحن لسنا صالة رماية هنا أيّها الطّفل، نحن نحتفظ بسجلّ لكلّ مخزن خراطيش.

انتهى مارك من مهمّته وذهب إلى النّار مع أرتيوم ليرتاح. أشعل مارك سيجارة من النّار، وبدأ أرتيوم يستمع إلى المحادثة العامّة.

انظر، ليخا كان يحدّثنا بالأمس عن هاري كريشناس، وه رجل ضخم له جبهة منخفضة ورقبة جبّارة، كان يتكلّم بصوت عميق منخفض.

جلسوا في اوكتيابروسكوي بول وأرادوا أن يدخلوا إلى معهد كورشاتوف لينسفوا المفاعل النوويّ ويجلبوا النّور لكلّ واحد، لكنّهم لم يحصلوا على مهمّتهم بعد ليفعلوها. وذلك يذكّرني بما حصل لي قبل أربع سنوات حين كنت أعيش في سافلوفسكايا. ففي أحد الأيّام كنت أستعدّ للذّهاب إلى بيلوروسكايا. أحد أقربائي كان في نوفوسلوبودسكايا لهذا ذهبت مباشرة إلى هانسا فوصلت إلى بيلوروسكايا بسرعة، وذهبت بعدها إلى الرّجل الّذي كنت بحاجة إلى مقابلته. عالجنا أمورنا فقرّرت أن نحتفل بشراب، لهذا قال لي عليك أن تكون أكثر حذرًا، فكثير من السّكارى يختفون هنا. فقلت له أعطني فرصة ولن أعتبر كلّا جوابًا. وهكذا قضينا على زجاجة كاملة معًا. وآخر شيء أتذكّره أنّه كان يحبو على الأربعة ويصيح: أنا لونوخود رقم واحد، القرصان القمريّ.. بعدئذ استيقظت، يا أمّ الرّب (مذر اف غد) مقيد وفمي مسدود ورأسي محلوق، مرميّ في حجرة صغيرة ربما كانت مخفرًا في الماضي. يا للكارثة، قلت لنفسي. وبعد نصف ساعة دخل بعض العفاريت وجرّوني إلي الصّالة من قذال رقبتي. وليس لديّ فكرة عن المكان الّذي كنت فيه، فقد أزيلت كلّ العلامات الّتي تحمل أسماء المكان. وكانت الجدران ملطّخة بشيء ما، الأرضيّة ملطّخة بالدّم، والنّيران تشتعل والمحطّة برمّتها محفّرة، وفي الأسفل حفرة بعمق عشرين مترًا على الأقل إن لم تكن ثلاثين. وهناك نجوم رُسِمت على الأرضيّة والسّقف في خط واحد بنفس الطّريقة الّتي يرسم بها الأطفال كما تعرفون.

كنت أتساءل، هل نال منّي الحمر؟ ثمّ أدرت رأسي حولي، ليس تمامًا. وضعوني فوق الحفرة، وأنزلوا حبلًا، وطلبوا منّي أن أتسلّقه نزولًا، ونخسوني ببندقيّة هجوميّة. نظرت داخل الحفرة،كان هناك أناس تكوّموا في القاع، يعمّقون الحفرة بقطع من خردة معدنيّة ورفوش. والتّراب يُرفع للأعلى برافعة، وتحمله عربات وتنقله بعيدًا إلى مكان ما.

لم يكن هناك ما أستطيع فعله طالما هؤلاء الزّملاء هناك مع بنادقهم الهجوميّة. رجال مجانين، كلّهم موشومون من الرأس لإصبع القدم، مشروع إجرامي من نوع ما. ربّما هبطت في المنطقة (زون). وكأن هؤلاء المسؤولين الّذين ينقّبون كانوا يريدون الفرار، والسّفّاحين الهمجيّين هم أياديهم المستأجرة. لكنّي أدركت عندئذ أنّ ذلك كلّه هراء. لأنّ الشرطة متواجدة في كلّ مناطق المترو. أخبرتهم أنّني أخاف من المرتفعات، وأنّني سأسقط على رأسي وأتحطّم مباشرة، وأنّهم لن يحصلوا على أيّ فائدة منّي. تشاوروا فيما بينهم وقرّروا أن أعمل في تحميل العربات بالقذارة المجلوبة من الأسفل. قيّدوا يديّ وكبّلوني بسلسلة، والآن يتوقّعون منّي أن أحمّل عرباتهم؟ تبًّا. لكنّي لم أعرف بعد ماذا كانوا يفعلون. لم تكن الوظيفة سهلة لكنّي كنت محظوظا، هزّ كتفيه الضّخمتين. فهناك رجال أضعف لهذا كلّما انهار أحدهم في القذارة التقطه حليقو الرّؤوس وجرّوه بعيدًا عن السّلّم.

في إحدى الممرّات ذهبت وألقيت نظرة، فوجدت رجلًا أحمق من النّوع الّذي يقف في السّاحة الحمراء، حيث تتدحرج الرّؤوس. وقد انغرس في جسده فأس من الحجم

الجيّد، كانت الدّماء في كل مكان، والرّؤوس معلقة على أعمدة.. كدتّ أتقيّأ، وقلت لنفسي من الأفضل أن أخرج من هنا قبل أن يقتلوني ويحوّلوني إلى حيوان منتفخ.

حسنًا، من كانوا؟ قاطعه الزّميل الأجشّ الّذي جلس بجانب المصباح وقد نفد صبره.

لقد سألت الرّجال الّذين كنت أعمل معهم، وأخبروني... هل تعرفون من كانوا؟ شيطانيّون.. أفهتموها؟ قرّروا أنّ نهاية العالم جاءت، وأنّ المترو هو البوّابة إلى الجحيم. وقال شيئًا عن دائرة أو شيء ما لا أتذكّره.

مدخل بوّابة، صحّحه الرّامي.

نعم إنّ المترو هو المدخل إلى الجحيم، أمّا الجحيم نفسه فأعمق قليلًا، والشّيطان ينتظرهم هناك، وعليهم فقط أن يصلوا إليه. لهذا هم يحفرون. وقد مرّ على هذا أربع سنوات، فربّما ضربوا القاع.

وأين هو؟ سأل الرّامي.

لا أعرف، والرّبّ أنا لا أعرف. لكنّي متأكّد أنّني أخرجت نفسي من هناك، حيث رميت بنفسي في العربة حين لم يكن الحارس يراقب، ورششت بعض التّراب فوقي. تدحرجت بها فوق شيء لوقت طويل، ثمّ أفرغوا محتويات العربة من مكان عال، فأغمي عليّ ثمّ صحوت، وزحفت إلى الإمام وحبوت وخرجت من مسارات مستقيمة، وتابعت تقدّمي. لكنّ هذه المسارات كانت تتقاطع بمسارات أخرى، ففقدت إحساسي في التّوجّه. بعد ذلك التقطني شخص وحين استيقظت كنت في دوروفكا. وقد اختفى الرّجل الّذي أقلّني مسبقًا، يا له من رجل لطيف. لهذا فكرّت،...

بعدئذ تحدّثوا عن إشاعات في ساحة إيلتش وريمسكايا، عن وجود وباء من نوع ما، مات بسببه كثيرًا من النّاس، لكنّ أرتيوم لم يكترث لهذا الخبر.

فتنت أرتيوم فكرة أنّ المترو هو عتبة الجحيم، أو ربّما الدّائرة الأولى. وظهرت أمام عينيه صورة غريبة، مئات من الأشخاص يزحفون مثل النّمل، يحفرون بشكل متواصل حفرة بأيديهم، يحفرون بئرًا لايؤدّي إلى أيّ مكان، وفي يوم من الأيّام تنتأ قطعة من الخردة المعدنيّة من داخل التّربة لم تغور إلى الأسفل. وبعدها يندمج المترو مع الجحيم في كيان واحد أخيرًا. ثمّ خطر له أنّ النّاس في هذه المحطّة يعيشون مثل أقرانهم في فدنكه تقريباً، يُهاجَمون من قبل مخلوقات رهيبة من السَطح بشكل دائم، ويتصدّون للهجوم لوحدهم. وإذا انهارت بافلتسكايا ستنتشر المسوخ في كلّ أرجاء الخطّ. وهذا يعني أنّ دور فدنكه لم يكن فريدًا كما اعتقد سابقا. ومن يعرف كم محطّة مثل هذه في المترو، كلّ واحدة تغطّي قطاعها وتحارب ليس من أجل الهدوء العام، وإنّما من أجل جلدها. يمكنك العودة للوراء والتّراجع إلى المركز ونسف أنفاقك بعدك، لكنّك ستُتْرَك مع فراغ للسّكن أقلّ فأقلّ حتّى ينحشر هؤلاء الّذين ظلّوا أحياء، وينضغطوا في بقع صغيرة من الأرض ويقضمون طريقهم بأسنانهم عبر حلوق بعضهم البعض.

ولكن، إذا لم تكن فدنكه شيئًا خاصًّا بالفعل، وإن كان هناك آخر يتواجد على السّطح فهذا يستحيل إخفاءه... ويعني... قرّر أرتيوم أن يقطع خطّ أفكاره.

إنّه مجرّد صوت الضّعف والحجج الخائنة المعسولة والمغرية، كي لا يواصل الرّحلة، ويتوقّف عن الكفاح نحو الهدف. لكن يجب ألّا يستسلم فذلك نهاية مميتة.

ولكي يلهي نفسه استأنف الاستماع إلى حديث الآخرين. في البداية تحدّثوا عن فرص شخص اسمه بوشكا بالفوز في نصر ما. ثمّ بدأ الشّخص القشريّ الأجشّ يتحدّث عن بعض البلهاء كيف هاجموا كيتاي غورود، وقتلوا أعداد كبيرة من النّاس، لكن وصول أخوة كالوغا في الوقت المناسب هزمهم ثمّ عاد السّفّاحون إلى تاغانسكايا. أراد أرتيوم أن يشير أنّها لم تكن تاغانسكايا أبدًا، وإنّما تريتياكوفسكايا، لكنّه مُنِع من فعل هذا من قبل رجل مهزول وجهه مخفيّ، حين قال أنّ الكالوغيين طُرِدوا من كيتاي غورود، والآن هناك مجموعة جديدة تسيطر عليها لم يسمع بها أحدَ من قبل. جادله المتأنّق القشريّ بحدّة بينما بدأ أرتيوم يغفو. هذه المرّة لم يحلم بأيّ شيء إطلاقًا، ونام نومًا عميقًا ولم يستطع أن يستيقظ حتّى عندما انطلقت صفّارة الإنذار وقفز الجميع.

ربّما كان إنذارً كاذبًا إذ لم تُطلق أيّ طلقة.

حين أيقظه مارك أخيرًا كانت السّاعة قد تجاوزت السّادسة إلّا الرّبع.

انهض، حان موعد الحراسة، هزّ أرتيوم بابتهاج من كتفه، دعنا نذهب، سأريك الممرّ الّذي لم يسمحوا لك بدخوله في الأمس، هل لديك جواز سفر؟

هزّ أرتيوم رأسه.

حسنًا، لابأس، سنحلّها بطريقة ما. وبعد بضع دقائق، كانا في الممرّ وصفّر ضابط الأمن مؤذنًا لهما بمواصلة السّير بلطف وهو يداعب خرطوشتين.

كان الممرّ طويلًا جدًّا، وأطول من المحطّة نفسها. وهناك خيم قماشيّة على طول الجدار الأوّل ومصابيح صغيرة ساطعة تشتعل (هانسا تعتني بنا، تصنّع مارك الابتسام) وعلى طول الممرّ الآخر هناك قاطع طويل، لكنّه ليس عاليًا ولا يزيد على المتر.

بالمناسبة، هذا واحد من أطول الممرّات في المترو كله، قال مارك مفتخرًا ثمّ تابع: ماذا يوجد وراء هذا القاطع؟ أتسأل؟ ألا تعرف؟ لماذا هو شيء عجيب. نصف من كلّ شيء نكسبه يذهب هناك، انتظر فقط، ما زال الوقت مبكّرًا. ستبدأ الأشياء لاحقًا. الوضع تقريبًا نفسه، في المساء حين يُغلق مدخل المحطّة ولايبقى للنّاس ما يفعلونه. ولا يمكن أن تكون هناك جولات نوعيّة خلال النّهار. ألم تسمع بها؟ لماذا لدينا ماكينة رهان لسباق الجرذان؟ ونسمّيه المضمار. ظننت أنّ كلّ شخص يعرف عنه، قال باندهاش حين تأكّد أخيرًا أنّ أرتيوم لم يكن يمزح. هل تحبّ المقامرة كثيرًا؟ أنا عن نفسي، مقامر.

كان أرتيوم مهتمًّا بمشاهدة السّباقات طبعًا، لكنّه لم يكن متعصًّبا لها أبدًا. إضافة إلى أنّه الآن وبعد أن نام طويلًا جدًّا، بدأت عاصفة غيوم بالذّنب تكبر وتكفهّر فوق رأسه. ولم يستطع أن ينتظر حتّى المساء، لم يستطع أبدًا. يجب عليه أن يتحرّك، لقد

ضاع الكثير جدًّا من الوقت، لكنّ الطريق إلى بوليس يمرّ من هانسا، والآن ليس هناك طريق للوصول إليها.

على الأرجح، لن أستطيع البقاء حتّى المساء، قال أرتيوم: يجب أن أذهب... بوليانكا.

لكنّك ستذهب عبر هانسا، قال مارك متجهِّما. وكيف ستمرّ من هانسا إن لم تكن عندك تأشيرة أو جواز سفر حتّى؟ أنا لا أستطيع مساعدتك هناك يا صديقي. ولكن انتظر، دعني أطرح فكرة.. إنّ زعيم بافلتسكايا، ليست بافلتسكايا خاصّتنا وإنّما محطّة أخرى على الرّينغ، مشجّع كبير لهذه السّباقات. وجرذه قرصان محبوب، يأتي إلى هنا كلّ ليلة مع مفرزة أمن وإضاءة كاملة، ما رأيك أن تراهن نفسك شخصيًّا ضدّه؟

لكنّي لا أملك شيئًا أراهن به، اعترض أرتيوم.

راهن على نفسك كخادم، أو إن أردت أنا سأراهن عليك. لمعت عينا مارك بالإثارة. فإن ربحنا تحصل أنت على الفيزا (تأشيرة الدّخول) وإن خسرنا، ستصل إلى هناك بالمثل، ولكنّك ستتولّى أمر خروجك من هناك بنفسك.

هل هناك بديل آخر؟

لم يحبّ أرتيوم هذه الخطّة، فقد بدت له مخزية، يبيع نفسه للعبوديّة، والأفظع من ذلك أن يخسر نفسه في ماكينة رهان جرذان. وقرّر أن يصل إلى هانسا بطريقة أخرى. تسكّع لمدّة ساعتين حول حرّاس حدود صارمين في بزّات رماديّة مرقّطة، كان لباسهم مثل اللّباس في برسبكت مير، وحاول أن يبدأ حديثًا معهم لكنّهم ظلّوا صامتين. بعد ذلك ناداه أحدهم بالأعور (و كان ذلك جائرًا لأن عينه اليسرى بدأت تتفتّح رغم أنّها ما زالت تؤلمه كالجحيم) وأمره أن ينصرف فورًا وبسرعة، فتخلّى أرتيوم عن هذه المحاولة العقيمة وبدأ في البحث عن الأشخاص الأكثر شرًّا وريبة في المحطّة.

تجّار الأسلحة والمخدّرات أو أيّ مهرّب سلع محظورة، ولكن لم يقبل أحد منهم أن ينقل أرتيوم إلى هانسا مقابل سلاحه الآليّ ومصباحه.

حلّ المساء واستقبله أرتيوم بيأس تامّ، وجلس على أرض الممرّ يتقلّب في جَلد الذّات. في هذا الوقت أصبح الممرّ أكثر نشاطًا، البالغون يعودون من العمل لتناول العشاء مع عائلاتهم، والأولاد يثيرون الصّخب والضّجيج حتّى يذهبوا للنّوم، وأخيرًا بعد أن أُغلقت البوّابة انهمر كلّ واحد من كشكه وخيمته، واتّجهوا نحو مضمار السّباق. هناك الكثير من النّاس أكثر من ثلاثمائة، ولم يكن العثور على مارك في حشد كهذا مهمّة سهلة. كلّ النّاس يراهنون على الجرذ قرصان وإن كان بوشكا سيهزمه ولو لمرّة واحدة، وذكروا أسماء وألقاب عدّائين آخرين، لكنّ هؤلاء ليس لديهم مباراة كما هو واضح.

اقترب مالكوا الجرذان المهمّة من موقع بدء السّباق يحملون حيواناتهم المدلّلة المهندمة في أقفاص صغيرة. لم ير زعيم بافلتسكايا-رينغ في أيّ مكان، وبدا أنّ

مارك قد اختفى عن وجه الأرض أيضًا، وخاف أرتيوم أن يكون في دوريّة اليوم أيضًا ولن يأتي. ماذا سيفعل عندئذ؟

أخيرًا، ظهر موكب صغير في الطّرف الآخر من الممرّ، رجل عجوز برأس حليق وشارب أنيق ونظّارة وطقم أسود كالح، يمشي مع مرافقة من حارسين شخصيّين جدّيين، حاملًا جسده السّمين متمهّلا بلا وقار. أحد حرّاس الأمن حمل علبة مخمليّة حمراء مزوّدة بوسائد مع حاجز متشابك، فيها شيء رماديّ ينطّ ويتقلّب. ذلك على الأرجح قرصان الشّهير.

حمل الحارس الشّخصيّ العلبة مع الجرذ إلى نقطة الانطلاق، ومشى الرّجل العجوز ذو الشارب إلى الحكم الجالس خلف طاولة صغيرة، ثمّ صرف معاونه عن الكرسي وجلس ببطء في المكان الفارغ، وبدأ في حديث متمهّل. وقف رجل الأمن الثّاني قريبًا منه، وظهره للجدار مباعدًا بين ساقيه، ويداه على سلاحه الآليّ الأسود القصير المعلّق حول صدره. هكذا زميل مهيب لم يكن من النّوع الّذي تُناقش معه رهانًا، بل مجرّد الاقتراب منه كان مخيفًا.

بعدئذ رأى أرتيوم مارك بملابسه القذرة، يحكّ رأسه الّذي لم يغسله منذ مدّة طويلة، ويقترب من الأشخاص المبجّلين. ثمّ بدأ يشرح شيئًا للحكم ولم يستطع مارك أن يسمع سوى النّغمة، لكنّه رأى بالتّأكيد أنّ العجوز ذا الشّارب اشتعل من السّخط في البداية، ثمّ كشّر بغطرسة، وأومأ برأسه أخيرًا باستياء وخلع نظّارته وبدأ بتنظيفها.

شقّ أرتيوم طريقه إلى الحشد حيث يقف مارك.

كلّ شيء سريّ، أعلن مارك وهو يفرك يديه مرحًا.

حين سُئل مارك عمّا يفكّر به بالضّبط، أجاب بأنّه افترض رهانًا شخصيًّا على الزّعيم العجوز بأنّ جرذه الجديد سوف يسبق جرذ العجوز المحبّب في الجولة الأولى، وأنّه اضطرّ أن يطرح أرتيوم للبيع مقابله، وقال مارك أنّه طالب مقابل ذلك بتأشيرة إلى هانسا من أجل أرتيوم، لكنّ الزّعيم رفض العرض لأنّه لا يعمل بتجارة العبيد.. عندئذ تنفّس أرتيوم الصّعداء، لكنّه أضاف أنّ هكذا وقاحة يجب أن تُعاقب. إن خسر جرذهم سوف ينظّف مارك وأرتيوم مراحيض بافلتسكايا –رينغ لمدّة سنة واحدة. وإن فاز سيحصلان على التّأشيرة. طبعًا هو متأكّد من أنّ الخيار الثّاني مستحيل، لهذا وافق عليه.

قرّر أن يعاقب المبتدئين المغرورين اللّذين تجرّآا على تحدّي حيوانه المدلّل.

وهل تملك جرذك الخاصّ بك؟

طبعًا، طمأنه مارك: وحش حقيقيّ، وسوف يمزّق الجرذ قرصان إربًا. هل تعرف كيف هرب منّي اليوم؟ استطعت بالكاد الإمساك به، طاردتّه إلى نوفوكوزنتيسكايا تقريبًا.

وما هو اسمه؟

اسمه؟

أكيد، ما اسمه؟

حسنًا، دعنا نسمّيه صاروخ، اقترح مارك.

صاروخ؟ هل يبدو اسما مهدًّدا؟

لم يكن أرتيوم مقتنعًا أنّ المقصود من المنافسة هو رؤية الجرذ الّذي سيمزق منافسه. فظلّ ساكتًا لكنّه لم يعد يحتمل حين شرح مارك أنّه لم يمسك جرذه إلّا اليوم.

إذًا كيف عرفت بأنّه سيفوز؟

أنا أؤمن به يا أرتيوم، أعلن مارك برزانة، وعلى كلّ حال أنا أردت دائمًا أن يكون لي جرذي الخاصّ بي منذ زمن بعيد. كنت أراهن على جرذان الآخرين، وكانت تخسر وكنت أقول لنفسي لابأس سيأتي اليوم الّذي يكون لي فيه جرذي الخاصّ بي وسيجلب لي الحظّ الطّيب. لكنّي لم أقرّر فعل ذلك، فالقضيّة ليست بتلك البساطة. يجب أن تحصل على إذن من الحكم وفي ذلك تأخير طويل.... قد تمرّ حياتي ويلتهمني قادم جديد ما، أو أموت وحيدًا قبل أن يكون لديّ جرذي الخاص بي... ثمّ ظهرت أنت، وفصمّمت عندها أن أبدأ الآن، الآن أو أنسى الموضوع. قلت لنفسي: إن لم تجازف الآن ستظلّ دائمًا تراهن على جرذ شخص آخر. وقرّرت إن كنت سألعب، فلا بدّ أن ألعب من أجل رهانات عالية. بالطّبع أريد أن أساعدك، ولكن اعذرني إن قلت أنّ مساعدتك لم تكن الشّيء الرّئيسي. وهكذا أردت أن أصعد إلى ذلك البراز القديم غو رايت اب تو ذا ولد فارت، أخفض مارك صوته، وأخبره بأنّي سأراهن بنفسي ضدّ قرصانك. فاستشاط غضبًا لذلك أجبر الحكم أن يعفي جرذي من انتظار الدّور. وأنت تعرف، أضاف بصوت لايسمع إلّا بالكاد، هذه اللّحظة ستتلوها سنة كاملة من تنظيف المراحيض.

لأنّ جرذنا سيخسر بالتّأكيد، حاول أرتيوم يائسًا أن يقنعه بالمنطق لآخر مرّة.

لكن ماذا لو...؟

بعد أن تفحّص الحضور، مسّد الحكم شعره الرّمادي، وتنحنح معتدًّا بنفسه. وبدأ يقرأ ألقاب الجرذان المشاركة في السّباق. كان الجرذ صاروخ الأخير، لكنّ مارك لم ينتبه إلى ذلك. حظي قرصان بتصفيق أكبر من غيرها ولم يصفّق لصاروخ إلّا أرتيوم، فيدا مارك كانتا مشغولتين ممسكتين بالقفص. ظلّ أرتيوم يأمل بمعجزة تُنقذه من نهاية شائنة في هاوية نتنة.

أطلق الحكم طلقة خلّبيّة من مسدّسه المكاروف، ففتح الملّاكون الأقفاص. وكان الجرذ صاروخ أول من خرج من القفص، فوثب قلب أرتيوم من الفرح. لكن بعد أن انقضّت الجرذان الأخرى على الممرّ، وزاد بعضها من سرعته وتباطىء بعضها الآخر، توقّف صاروخ الّذي لم يرتق لاسمه الفخم وغرز في ركن لايبعد أكثر من خمسة أمتار عن خطّ البداية وظلّ هناك. كان نخس الجرذان وحثّها على الركّض مخالف للقوانين. نظر أرتيوم إلى مارك بقلق وتوقّع منه أن ينفعل أو يغضب أو أن تفتر همّته ويغرق في حزنه، لكنّ التّعبير الصّارم والفخور على وجه مارك، ذكّره كثيرًا بكابتن الطّراد الّذي أعطى الأمر بإغراق سفينة حربيّة ليمنع العدوّ من أسرها،

هي قصّة عن حرب ما بين الرّوس وطرف آخر قرأها أرتيوم في كتاب ممزّق ملقى في مكتبة في فدنكه.

بعد دقيقتين، وصل الجرذ الأوّل إلى خطّ النّهاية. لقد ربح الجرذ قرصان، وكان الثّاني مخلوق باسم غامض، وجاء بوشكا ثالثًا. ألقى أرتيوم نظرة على طاولة الحكم. فكان الرّجل العجوز ذو الشّارب يمسح عرق الإثارة عن فروة رأسه الأصلع بنفس قطعة القماش الّتي استخدمها سابقًا لتنظيف نظّارته وكان يناقش النّتائج مع الحكم. توقّع أرتيوم مسبقًا أنّهم سينسون أمرهما، ولكن فجأة لطم الرّجل العجوز جبهته وأومأ لمارك وهو يبتسم بسرور.

في تلك اللّحظة انتاب أرتيوم نفس الشّعور حين أخذوه لإعدامه، لكنّ الإحساس لم يكن قويًّا. شقّ طريقه خلف مارك إلى طاولة الحكم، وعزّى نفسه بحقيقة أن كلفة العبور إلى أرض هانسا باتت واضحة له الآن بطريقة أو بأخرى، وأنّ الحيلة الوحيدة هي أن يجد طريقة للهروب.

لكنّ العار بانتظاره.

التفت الزّعيم (ذو الشّارب) إلى الحضور بعد أن ناداهما بقسوة للمثول عند المنصّة، وشرح لهم الرّهان باختصار. ثمّ أعلن بصوت عال أنّ كلا الوغدين سيُرسلان كما نصّ الاتّفاق لتنظيف المرافق الصّحيّة (المراحيض) لسنة واحدة بدءًا من اليوم. ظهر اثنان من حرس حدود هانسا من اللّامكان وأخذوا سلاح أرتيوم الآليّ، وطمأنوه أنّ خصمه الرّئيسيّ في السّنة القادمة لن يكون خطيرًا، ووعدوه أن يعيدوا له السّلاح في نهاية الحكم. بعدئذ اقتادوهما بعيدًا إلى الرّينغ وسط صفير الحشد وصيحات الاستهجان الموجعة.

يبدأ الممرّ من تحت الأرض من وسط الصّالة مثل المحطّة الّتي تحمل نفس الاسم تمامًا، لكنّ التّشابه بين المحطّتين (بافلتسكايا الأولى وبافلتسكايا الثّانية) ينتهي هناك. فالمحطّة الأولى الّتي على الرّينغ تنقل إليك انطباعًا غريبًا جدًّا، السّقف منخفض في أحد طرفيها، ولم يكن هناك أعمدة حقيقيّة أبدًا والقناطر تمتدّ على فواصل متساوية على طول الجدار، وعرض القنطرة يساوي عرض الفجوة بين القنطرة والأخرى. يبدو أنّ بافلتسكايا الأولى كانت أسهل على البنّائين والتّراب فيها أنعم، وكلّ ما على المرء أن يشقّ طريقه عبره. بينما في بافلتسكايا الأخرى هناك صخر قاس عنيد، شكّل نحته ألمًا حقيقيًّا لهم.

ولسبب ما، هذا المكان لا يحدث في النّفس الكآبة الضّاغطة الّتي تشعر بها في تفرسكايا. ربّما لوجود ضوء كثير وجدران مزيّنة بتصاميم بسيطة، وأعمدتها تقليد للنّماذج القديمة كما في الصّور من كتاب (أساطير قدماء الإغريق) باختصار هذه المحطّة ليست المكان الأسوأ للعمل القسريّ.

وطبعًا كان واضحًا على الفور أنّ هذه أرض هانسا. أوّلا وقبل كلّ شيء، كانت نظيفة بشكل غير عاديّ، ومريحة وواسعة وبها مصابيح حقيقيّة مغلّفة بالزّجاج تتألّق من السّقف. وفي الصّالة نفسها، الّتي لم تكن واسعة كما في المحطّتين

التوأمين، ولم يكن فيها أيّ كشك، كان هناك الكثير من طاولات العمل التي تكوّم فوقها جبال من الأدوات الغريبة المعقّدة، جلس خلفها أشخاص في أفرولات زرقاء. وهناك رائحة طيّبة، كما علقت أيضًا نكهة خفيفة لزيت الآلة بالهواء. ربّما كان العمل اليوميّ ينتهي بوقت متأخر عن مثيله في خطّ بافلتسكايا النّصف قطري. المعدّات معلّقة على الجدران، وإشارة السّلطة في دائرة بنيّة على أرضيّة بيضاء، وملصقات ومناشدات لرفع إنتاجيّة العمل، وأقوال مقتبسة من شخص اسمه ا. سمث. تحت الرّاية الكبرى بين الجنديّين المتيبّسين اللّذين يرتديان لباس حرس الشّرف هناك طاولة زجاجيّة، تلكّأ أرتيوم حين مرّ بها ليشبع فضوله ويعرف أيّ شيء مقدّس كان موضوعًا تحت الزّجاج.

وهناك طاولة أخرى حمراء مخمليّة، أضيئت بمصابيح صغيرة جدًّا بشكل جميل، عليها كتابان: الأوّل مجلّد مهيب حُفظ بشكل رائع بغلاف أسود، وعليه نقش مزيّن بالذّهب يقول (آدم سميث، ثروة الأمم) أمّا الكتاب الثّاني فهو نسخة عن كتاب جيب مهلهلة تمامًا، نفاية مع غلاف مغبرّ مهترىء ممزّق، أعيد لصقه وإصلاحه ثانية، تقرأ عليه أحرف سميكة (دالي كارنيجي، كيف تصدّ القلق وتبدأ العيش) لم يسمع أرتيوم بكلا المؤلّفين أبدًا، لهذا شغله أكثر السّؤال عن زعيم المحطّة إن كان قد استخدم بقايا المخمل الأحمر لكي ينجّد قفص جرذه المحبوب؟

هناك خطّ واحد غير مسدود تسافر عليه العربات المحمّلة بالصّناديق من حين لآخر، وأغلبها تتحرّك بالطّاقة اليدويّة. لكن في إحدى المرّات مرّت عربة مزوّدة بمحرّك وقد غلّفها الدّخان، توقّفت لدقيقة في المحطّة قبل أن تواصل إلى أماكن أبعد. واستطاع أرتيوم أن يلقي نظرة على الجنود الأقوياء ببزّاتهم النّظاميّة السّوداء والصّدريّات المخطّطة بالأبيض والأسود، وهم يجلسون فوق العربة. وكان لدى كلّ واحد منهم معدّات رؤية ليليّة على رأسه، وأسلحة آليّة قصيرة غريبة على صدورهم، ودرع ثقيل للجسد. وكان القائد يربت على خوذة خضراء داكنة ضخمة موجودة على ركبتيه، لها جزء أماميّ متحرّك يغطّي به وجهه، ثمّ تبادل بضع كلمات مع ضبّاط أمن المحطّة الّذين كانوا يرتدون الثّياب المعتادة الرّماديّة المموّهة. وبعدها اختفت العربة في النّفق في الخطّ الثّاني. وهناك أيضًا قطار كامل في حالة أفضل من القطار الّذي رآه أرتيوم في جسر كوزنتسكاي، وربّما هناك ملاجئ مأهولة خلف النّوافذ المغطّية بالسّتائر. ومن خلال النّوافذ المكشوفة رأى طاولات فوقها طابعات، جلس خلفها أنماط المهن المعتادة، وحُفرت إشارة فوق الباب كُتب عليها: (المكتب الرّئيسيّ) تركت المحطّة انطباعًا لايوصف في نفس أرتيوم. ليس لأنها أبهرته مثل بافلتسكايا الأولى، إذ لايوجد هنا أيّ أثر للفخامة المعتمة والغريبة الّتي تذكّر المرء بالسّلالات المتفسّخة لبشر عظماء وبناة أقوياء تمكّنوا من بناء هكذا مترو. ولكن ما زال النّاس يعيشون هنا كما لو أنّهم ليسوا جزءًا من حشود الكائنات المنحطّة والحمقاء الموجودة تحت الأرض خارج خطّ الرّينغ. استمرّت الحياة في طريقة منظّمة جدًّا وثابتة، فبعد يوم العمل والمجهود الكبير هناك استراحة، والشّبّان لا يخرجون إلى عالم وهميّ من الثّرثارين ومروّجي الإشاعات، وإنّما إلى الأعمال.

فكلما بدأت مهنتك في وقت أسرع ارتقيت درجة أعلى في السّلم. ولا يخاف البالغون من أن يُطردوا إلى داخل النّفق حيث تأكلهم الجرذان بعد أن تبدأ قوّتهم بالانحسار.

لقد صار مفهومًا الآن عدم سماح هانسا إلّا لبضع غرباء بالدّخول إلى المحطّة وعلى مضض. فالأماكن في الفردوس محدودة، في الجحيم فقط المدخل مفتوح للجميع.

يا سلام، وأخيرًا أنا هاجرت، هتف مارك وهو ينظر حوله بسعادة.

في نهاية المنصّة جلس حارس حدود آخر في مهجع زجاجيّ مع علامة (في الخدمة) بجانب حاجز صغير مطليّ بخطوط بيضاء وحمراء. حين يصعد شخص ما إلى ضابط الخدمة، يقف باحترام ثمّ يخرج الحارس من المهجع معتدًّا بأهميّته، يفتّش الوثائق وأحيانا الحمولة، وأخيرًا يرفع الحاجز. لاحظ أرتيوم أنّ كلّ حرس الحدود وموظّفي الجمارك كانوا فخورين جدًّا بمناصبهم، ومن الواضح جدًّا أنّهم يعملون بشيء يستمتعون به. ومن جانب آخر فكّر، كيف للمرء ألّا يحبّ هكذا عمل؟

أُخِذا إلى سياج يخرج منه طريق إلى داخل النّفق، وينعطف جانبًا إلى رواق مساكن الموظّفين العاملين. قرميد أصفر باهت مع ثقوب محفورة مجوّفة تُوِّجت بمقاعد مراحيض حقيقيّة، وأوفرولات قذرة بشكل لايصدّق، ومجارف مربعة مع مادّة غريبة تنمو عليها، وعربة يد بدولاب واحد فقط ترسم أشكال الرّقم ثمانية المقفر، وعربات تُعبَّأ وتُنقَل إلى أقرب بئر يؤدّي إلى الأعماق لتُفرَغ. ورائحة نتنة بشعة تغلّف كلّ هذا، لا يمكن تخيّلها.

تلتصق بثياب المرء وتتسرّب إلى كلّ شعرة من جذرها حتّى رأسها، وتخترق الجلد لدرجة تظنّ بعدها أنّها أصبحت جزء من طبيعتك، وأنّها ستظلّ معك إلى الأبد، وستُرعب بني جنسك وتجعلهم يهربون من طريقك قبل أن يروك حتّى.

مرّ اليوم الأوّل من هذ العمل الرّتيب ببطء شديد، وأدرك أرتيوم أنّهما كُلِّفا بعمل لاينتهي، حفر ودحرجة وحفر ثانية، وتفريغ القذارة ودحرجة، ثمّ الرّجوع إلى الطّريق الآخر لتكرّر هذه الدّورة الثّلاثيّة اللّعينة. ليس هناك نهاية قريبة لهذا العمل طالما يستمرّ قدوم زوّار جدد. لم يكن هؤلاء الزوّار الجدد وحرّاس الأمن الواقفين في المدخل وعند نهاية الطّريق إلى البئر، يخفون اشمئزازهم من العمّال المساكين. وكانوا يقفون جانبًا في حالة غثيان، ويمسكون بأنوفهم، ما الألطف بينهم فكانوا يأخذون أنفاسًا عميقة مسبقًا كي لا يستنشقوا الهواء حين يمرّون بجانب أرتيوم ومارك، ويظهر على وجوههم قرف شديد جعل أرتيوم يسأل نفسه باندهاش: ألم يأتي كلّ هذا الغائط من أحشائكم أصلًا وأوّلًا؟

في نهاية اليوم وبعد أن أصبحت يداه مثل لبّ ثمرة رغم ارتداء قفّازات هائلة، بدا لأرتيوم أنّه اكتشف طبيعة الإنسان الحقيقيّة، ومعنى الحياة أيضًا.

أصبح الآن يرى الإنسان كآلة ذكيّة لتفكيك الغذاء، وإنتاج القذارة. هذه الآلة تعمل دون توقّف طوال الحياة، وبلا أيّ معنى، إن قصد المرء بكلمة (معنى) هدف نهائيّ محدّد. المعنى في تلك العمليّة هو تفكيك أكبر كميّة ممكنة من الطّعام، وتحويلها بأسرع من ذلك والتّخلّص من البقايا. كلّ ما يبقى من لحم الخنزير المفروم المدخّن،

والفطر المطهي ببطء وعصارته الشهيّة، والكعك المحشوّ بالكريما، هو الآن فاسد وملوّث. بدأت المزايا الشّخصيّة تخبو وتتلاشى، وأصبحت آلات مجرّدة لتدمير الجميل والمفيد، وخلق شيء عفن وتافه.

اشمئزّ أرتيوم من النّاس، وشعر ببغض شديد لهم لايقلّ عن بغضهم له. أمّا مارك فكان صابرًا وعديم العاطفة والحسّ، وحاول أن يخفّف عن أرتيوم من حين لآخر بقول أشياء مثل: لاتقلق حول ذلك، أخبروني مسبقًا أنّ الهجرة صعبة في البداية دائمًا.

الحدث الرّئيسيّ والأهمّ في اليومين الأوّل والثّاني هو عدم توفّر أيّ إمكانيّة للفرار، فحرّاس الأمن يقظين، والشّيء الوحيد الّذي يمكن لأرتيوم ومارك أن يفعلاه من أجل الفرار، هو الدّخول إلى النّفق بعد البئر، والتّوجّه نحو دوبرينينسكايا وذلك مستحيل. أمضيا اللّيل في حجرة صغيرة قريبة، يغلق بابها بحذر في اللّيل، وفي أيّ وقت من النّهار هناك حارس يجلس في كشك زجاجيّ بجانب مدخل المحطّة.

حلّ اليوم الثّالث من إقامتهما في المحطّة. الوقت هنا لا يمرّ حسب النّهار العاديّ وساعاته الأربع والعشرين، إنّه يحبو مثل بزاقة، في ثواني كابوسيّة لا نهاية له. اعتاد أرتيوم على فكرة كونه شخص لن يقترب منه أحد أبدًا، أو يتحدّث إليه ثانية، وأنّ مصير المنبوذ في انتظاره، وكأنّه لم يعد كائنًا بشريًّا، بل تحوّل إلى كائن رهيب وبشع لا يمكن تخيّله. لا يراه النّاس شيئًا قبيحًا ومنفّرًا فقط، وإنّما يرون أنّه سيصيبهم بالعدوى والبشاعة الشّديدة لأنّه على صلة بهم بطريقة ما، وهذا ما كان يرعبهم وينفّرهم أكثر وكأنّه مصاب بالجذام.

في البداية فكّر بخطّة للهروب ثمّ جاء بعدها قنوط واضح، وبعد ذلك سيطر عليه سبات انفصل فيه عقله وفطنته عن حياته. انكمش إلى داخله وشدّ خيوط الشّعور والإحساس، ودخل في شرنقة في زاوية نائية من الوعي. استمرّ أرتيوم بالعمل بشكل ميكانيكيّ، وعواطفه مثل عواطف إنسان آليّ تمامًا، كلّ ما يفعله هو الحفر والتّفريغ والدّحرجة والحفر مرّة أخرى والدّحرجة ثانية والتّفريغ والعودة بالطّريق الآخر بشكل أسرع ليبدأ الحفر مرّة أخرى. فقدت أحلامه كلّ معنى، فكان يركض فيها بشكل لانهائيّ، ويحفر ويدفع ويحفر كما في ساعات اليقظة.

في مساء اليوم الخامس كان أرتيوم يدفع العربة اليدويّة حين تعثّر فوق مجرفة أُلقيت على الأرض، فانقلبت العربة وتناثرت محتوياتها، ثمّ سقط هو نفسه فيها. وحين نهض ببطء من الأرض قفزت فجأة في رأسه فكرة، وبدلًا من الرّكض بحثًا عن دلو وقطعة قماش، اتّجه متعمّدا نحو مدخل النّفق ببطء. شعر أنّه الآن أصبح مثيرًا جدًّا للاشمئزاز ومنفّرا، وأنّ رائحته ستُبعد عنه أيّ شخص. في تلك اللّحظة تمامًا، وبسبب اجتماع ظروف غير محتملة، لم يكن حارس الأمن الّذي يتسكّع بشكل دائم، عند نهاية طريقه هناك. فانطلق أرتيوم عبر الوصلات دون أن يفكّر بأنّ أحدًا ما سيطارده، ومشى بشكل أسرع مثل أعمى لا يرى شيئًا، لكنّه لم يتعثّر ثمّ انتقل للرّكض، أمّا عقله فلم يرجع إلى وظيفة توجيه جسده، بل ظلّ مخبّئا ومنكمشًا في زاويته.

لم يسمع خلفه صيحات أو خطوات تطارده، ولم يكن هناك سوى قعقعة عربة مرّت محمّلة، تُضيء طريقها بمصباح خافت. ضغط أرتيوم نفسه على الجدار إلى أن تمرّ. والنّاس الّذين على متنها، إمّا أنّهم لم يلاحظوه، أو أنّهم لم يروا ضرورة في الانتباه إليه، فقد مرّت نظراتهم فوقه دون تلكّؤ، ودون أن يقولوا كلمة واحدة.

فجأة استولى عليه شعور بحصانته ومناعته، منحه له سقوطه والوحل النّتن الّذي غطّاه وكأنّه لم يكن مرئيًّا، وهذا ما أعطاه قوّة، وبدأ وعيه يعود إليه تدريجيًّا. لقد فعلها، من يعرف كيف؟ مخالفة لكلّ الصّواب والعقل، ورغم كلّ شيء نجح في الفرار من المحطّة اللّعينة ولم يتبعه أحد حتّى. كان أمرًا غريبًا ومذهلًا، ولو حاول الآن فهم ما حدث وشرح المعجزة ببعض من العقلانيّة، لتبدّد السّحر فورًا، ولضرب شعاع مصباح دوريّة الحرس في ظهره بسرعة.

لمع الضّوء في آخر النّفق، فخفّف من سرعته وبعد دقيقة واحدة كان في دوبرينينسكايا.

أرضى حارس الحدود الموجود هناك نفسه بالسّؤال البسيط: هل استدعوا فنيًّا مختصًّا بالنّظافة الصّحيّة؟ وتركه يمرّ وهو يُبعد الهواء من حوله بيد، وباليد الأخرى يمسك بفمه. تابع أرتيوم تحرّكه ليخرج من أرض هانسا بسرعة قبل أن يستجمع حرّاس الأمن فطنتهم، وقبل أن يسمع وقع الأحذية العسكريّة بحوافّها الحديديّة خلفه، وقبل أن تدوّي الطّلقات التّحذيريّة في الهواء، ومن ثمّ... بشكل أسرع.

أبقى أرتيوم نظره على الأرض، ولم ينظر إلى أحد. وجلده الممتلئ بالقرف أبعد عنه كلّ مَنْ حوله، وتشكّل فراغ حوله، لهذا لم يضطرّ إلى شقّ طريقه بالقوّة عبر الحشد الكثيف. مشى أرتيوم حتّى وصل إلى المخفر الحدوديّ، والآن ماذا يجب أن يقول؟ أسئلة كثيرة وطلبات أكثر لكي يبرز جواز سفره. بماذا سيردّ؟ وكيف؟

خفض رأسه للأسفل لدرجة لمس فيها ذقنه صدره، ولم يرَ شيئًا حوله مطلقًا. لهذا كان الشّيء الوحيد الّذي تذكّره من كلّ المحطّة هو الظّلام والألواح الغرانيتيّة الدّاكنة المرتّبة بشكل أنيق، والّتي رُصفت بها الأرض. تابع المشي مجمّدا بتوقّع اللّحظة الّتي يسمع فيها أمرًا نهائيًّا بالوقوف. صارت حدود هانسا أقرب فأقرب. الآن... الآن بالضّبط...

أيّ نوع من النّفاية هذه؟ تردّد صدى صوت لاهث في أذنه.

أنا... أنا تائه، لست من هنا... تمتم أرتيوم بلسانه الّذي عقده الخوف أو ربّما بدأ للتوّ بوظيفته.

حسنًا اخرج من هنا، هل تسمع؟ أنت أيّها المغفّل القبيح. بدا الصّوت مؤثّرا ومنوّما تقريبًا، وجعله يرغب في إطاعته مباشرة.

بالتّأكيد... سوف... تمتم أرتيوم خائفًا دون أن يعرف كيف سينجو من هذا الواحد.

التسوّل ممنوع تمامًا على أرض هانسا، قال الصّوت بقسوة، وكان هذه المرّة من مسافة أبعد.

طبعًا، على الفور... لديّ أولاد صغار... أدرك أرتيوم أخيرا أيّ زرّ سيضغط، وأصبح أكثر حيويّة.

أيّ أولاد؟ هل أنت مغفّل؟ استشاط الحارس غير المرئيّ غضبًا: بوبوف، لوماكو تعالا، وأخرجا كيس القمامة هذا من هنا.

لم يرد بوبوف ولوماكو أن يلوّثا أيدهما بلمس أرتيوم، لهذا دفعاه بأخمص بنادقهما الآليّة. فتطايرت شتائم رئيسهم الغاضبة وراءهم. وبدا هذا لأرتيوم مثل موسيقى سماويّة مقدّسة.

محطّة سيربوخوفسكايا، لقد ترك الهانسا خلفه.

أخيرًا نظر للأعلى لكنّ ما رآه في عيون النّاس المحيطين به، جعله يعود وينظر إلى الأرض. هذه لم تكن أراضي هانسا الأنيقة، كان في وسط الضّوضاء والاضطراب والفقر المعدم الّذي ساد في بقيّة المترو. ومع هذا بدا أرتيوم مقزَّزا جدًّا في هكذا مكان أيضًا. إنّ الدّرع الإعجازيّ الّذي أنقذه على طول الطّريق جعله غير مرئيّ، وأجبر النّاس على الابتعاد عن الهارب أرتيوم، ولم يلاحظوه وتركوه يمرّ عبر كلّ النّقاط الحدوديّة وحواجز التّفتيش. عاد الآن وتحوّل إلى جرب قذر نتن.

من الواضح ان الوقت تجاوز منتصف النهار.

تلاشى الآن االابتهاج الأوليّ، واختفت فجأة تلك القوّة الّتي كأنّه استعارها من شخص آخر وأجبرته على المشي من بافلتسكايا إلى دوبرينينسكايا، وتُرك وحيدًا مع نفسه. كان جائعًا ومتعبًا حتّى الموت، ولا يملك قرشًا واحدًا. وتفوح منه رائحة نتنة لا تُحتمل، وتظهر عليه آثار لطمات الأسبوع الماضي.

لم يستطع الفقراء المعدمون الّذين جلس معهم بموازاة الجدار، تحمّل رفقته فابتعدوا عنه إلى كلّ الاتّجاهات، يشتمون ويلعنون، وتركوه لوحده تمامًا. صرّ كتفيه لكي لا يشعر بالبرد، وأغلق عينيه، وجلس هناك فترة طويلة لا يفكّر بشيء إطلاقًا حتّى غلبه النّوم.

مشى أرتيوم في نفق غير مكتمل، أطول من كلّ الأنفاق الّتي قطعها خلال حياته مجتمعة. كان النّفق يتعرّج وينعطف، يصعد أحيانًا ويهبط أحيانًا أخرى، ولم يكن مستقيمًا لأكثر من عشر خطوات أبدًا. أصبح المشي أصعب فأصعب، شعر بالألم في قدماه اللّتين تقرّحتا ونزفتان وآلمه ظهره كذلك، وكلّ خطوة جديدة تُحدث موجة ألم في كلّ جسده. ولكن طالما هناك أمل بأنّ المخرج غير بعيد، وربّما كان عند الزّاوية التّالية، فإنّ أرتيوم يجد القوّة لمتابعة سيره. فجأة خطرت له فكرة بسيطة لكنّها مرعبة، ماذا لو لم يكن للنّفق مخرج؟ ماذا لو كان المدخل والمخرج مغلقان؟ ماذا لو أنّ أحدًا خفيًّا وقويًّا جدًّا منعه وتركه يتقلّب هنا وهناك مثل جرذ يحاول الوصول، دون أن ينجح بالوصول إلى إصبع من يُجري عليه التّجارب، في متاهة ليس لها مخرج. لكي يظلّ يجرجر نفسه حتّى يستسلم وينهار، يفعل هذا بلا مبرّر

وللتسلية فقط؟ جرذ في متاهة.. سنجاب في دولاب.. ثمّ فكر بعدئذ إن كان استمراره بهذه الطّريقة لايؤدّي إلى المخرج، هل التّوقف عن الحركة والتّقدم إلى الأمام سيمنحه الحريّة؟ جلس على وصلة القضبان الحديديّة ليس لأنّه كان متعبًا، وإنّما لأنّه وصل إلى نهاية حبل أفكاره. اختفت الجدران من حوله وفكّر: لكي ينجز الهدف ويكمل الرّحلة، يجب عليه ألّا يتوقّف عن المشي. بعد ذلك خبت فكرته وتلاشت.

حين استيقظ سيطر عليه قلق غامر، لم يستطع تخيّل أسبابه في البداية. ولم يتذكّر أجزاء من الحلم إلّا لاحقًا. فجمع معًا فسيفساء من هذه الشّظايا، ولكنّ تلك الشّظايا لم تتماسك معًا، فتفتّت. ليس هناك صمغ يكفي لتتماسك معًا، وذلك الصّمغ فكرة خطرت له أثناء حلمه ورؤيا من القلب، مهمّة جدًّا له، وبدونها لا يبقى لديه إلّا كومة من الثّياب الدّاخلية الممزّقة، ومعها صورة رائعة مملوءة بفحوى إعجازيّة تفتح آفاقًا لاحدود لها. لكنّه لم يستطع تذكّر الفكرة. قضم أرتيوم قبضتيه وأمسك رأسه المتّسخ بيديه المتّسختين، وهمست شفتاه بشيء مبهم، فنظر إليه أحد المارّة بخوف ونفور. لكنّ الفكرة لم ترجع إليه، ثمّ بدأ بعد ذلك ببطء وحذر كمن يُحاول استخدام جديلة شعر لسحب شيء علق في مستنقع، ببناء الفكرة من جديد من شظايا ذاكرته. ويا للمعجزة، لقد أمسك برشاقة بواحدة من الصّور وتعرّف عليها فجأة، إنّها نفس الشّكل البدائيّ الّذي أفصح عن نفسه أوّلًا في حلمه.

يجب عليه أن يتوقّف عن المشي لكي يكمل الرّحلة.

لكن الآن وفي ضوء الوعي اليقظ السّاطع، بدت الفكرة له مبتذلة وهزيلة ولا تستحقّ الانتباه. ليكمل الرّحلة عليه أن يتوقّف عن المشي؟ حسنًا، طبعًا. إن توقّف عن المشي تكون الرّحلة قد انتهت. وهل هناك أبسط من ذلك؟ لكن هل ذلك هو المخرج فعلًا؟ وهل يمكن له أن يكون خاتمة الرّحلة؟

يحدث غالبًا أن تظهر الفكرة في حلم، وتكون ضربة للعبقريّة ثمّ تتحوّل وتكون لخبطة كلمات لا معنى لها حين تستيقظ...

آه يا أخي الحبيب، القذارة في جسدك وفي روحك، كان الصّوت بجانبه مباشرة.

كان ذلك غير متوقّع كما كانت عودة الفكرة، فتلاشى طعم تلك الخيبة المرّ فورًا. ولم يظنّ أنّ الصّوت يخاطبه له، بما أنّه اعتاد على فكرة أنّ النّاس يهربون في كلّ الاتّجاهات حتّى قبل أن يتفوّه بكلمة واحدة.

نحن نرحّب بكلّ الأيتام والبؤساء، واصل الصّوت الّذي بدا ناعمًا ومطمئنًا ولطيفًا جدًّا. لذلك لم يستطع أرتيوم كبح نفسه، فألقى نظرة جانبيّة إلى اليسار، ثمّ نظرة كئيبة إلى اليمين خشية أن يكتشف أن الشّخص المتكلّم يخاطب شخصًا آخر غيره.

ولكن ما من أحد بقربه، والشّخص يتحدّث إليه هو. عندئذ رفع رأسه ببطء، فرأى رجلًا مربوعًا مبتسمًا، يلبس ثوبًا واسعًا، مع شعر أشقر غامق ووجنتين ورديّتين، كان يمدّ يد الصّداقة، وكان من الضّروريّ لأرتيوم أن يردّ المجاملة بمثلها، لهذا مدّ يده دون أن يجرؤ على الابتسام.

لماذا لم ينفر منّي كغيره من النّاس؟ فكر أرتيوم. لقد كان مستعدًّا لأن يصافحني أيضًا. لماذا جاء إليّ من تلقاء نفسه، حين حاول كلّ من حولي الابتعاد عنّي بأقصى ما يمكن؟

سوف أساعدك يا أخي، واصل الرّفيق ذو الوجنتين الورديّتين: أنا والأخوة سنوّفر لك الملجأ، ونعيد لك قوّتك الرّوحيّة.

أومأ أرتيوم برأسه، لكنّ رفيقه الجديد وجد ذلك كافيًا.

لهذا اسمح لي أن آخذك إلى برج المراقبة يا أخي الحبيب. ترنّم وهو يأخذ أرتيوم بقوّة من يده ويجرّه للأمام.

لم يتذكّر أرتيوم الكثير، وبالتّأكيد لم يتذكّر الطّريق، لكنّه أدرك أنّه اقتيد من المحطّة إلى داخل النّفق دون أن يعرف إلى أيّ واحد من الأنفاق الأربعة. قدّم صديقه الجديد نفسه باسم الأخ تيموثي، ولم يتوقّف عن الكلام في الطّريق. وعند محطّة سيربوخوفسكايا الرّماديّة العاديّة وفي النّفق المظلم، قال:

ابتهج ياصديقي الحبيب، أنت قابلتني في طريقك لأنّ حياتك تكاد أن تجتاز تغييرًا خطيرًا جدًّا. إنّ الكآبة الحزينة لتجوالك الّذي لا هدف له، في نهايتها لأنّك ستنال الشّيء الّذي تبحث عنه.

لم يفهم أرتيوم جيًّدا ما الّذي في ذهن الرّجل، فبالنّسبة له شخصيًّا ما زال تجواله بعيدًا جدًّا عن النّهاية، لكنّ تيموثي اللّطيف ذا الوجنتين الورديّتين، كلّمه بنعومة ولطف، لدرجة أنّه لم يرد شيئًا سوى أن يتابع الإصغاء والتّواصل معه بنفس اللّغة، وكان ممتنًّا لأنّه لم ينبذه حين نبذه العالم كلّه.

هل تؤمن بالربّ الواحد الحقيقيّ يا أخ أرتيوم؟ سأل تيموثي وهو ينظر بلطف في عينيه كما لو أنّ الأمر مصادفة. هزّ أرتيوم رأسه فقط بطريقة غير محددة، ودمدم بشيء غير مفهوم يمكن تفسيره حسب الرّغبة بالموافقة أو بالرفض.

ذلك جيّد، ذلك رائع يا أخ أرتيوم، قال تيموثي فرحًا: الإيمان في الحقيقة وحده سينقذك من عذاب جهنّم الأبديّة، ويهبك كفّارة من ذنوبك. لأن... ثمّ تظاهر بالجديّة وبتعبير الانتصار: مملكة الرّب ربّنا يهوه آتية وستتمّ نبوءات الكتاب المقدّس. هل درست الإنجيل يا أخي؟

تمتم أرتيوم مرّة أخرى، فنظر إليه الرّفيق ذو الوجنتين الورديّتين ببعض الرّيبة.

حين تصل إلى برج المراقبة سوف تقتنع عيناك بضرورة دراسة الكتاب المقدّس الّذي أعطته السّماء لنا، وستنزل البركات والنّعم العظيمة على الّذين التجأوا إلى درب الحقيقة. إنّ الإنجيل هديّة ثمينة من ربّنا يهوه، ولا تُقارن إلّا برسالة من أب محبّ إلى ابنه الصّغير، أضاف الأخ تيموثي، ثمّ سأل أرتيوم بتجهّم أقلّ: هل تعرف من كتب الإنجيل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر: أنا لا أؤمن به

قرّر أرتيوم أنّ الاستمرار في الزّعم والتّظاهر لامعنى له، فهزّ رأسه بصدق.

في برج المراقبة سوف يدفعونك إلى هذا وإلى ما هو أكثر منه بكثير، وستنفتح عيونك على أشياء كثيرة، أعلن الأخ تيموثي: هل تعرف ماذا قال يسوع المسيح ابن الرّب لأتباعه في لاوديكا؟ وهزّ رأسه في تأنيب لطيف حين رأى أرتيوم يتفادى عينيه. قال يسوع: أشير عليكم أن تشتروا منّي مرهمًا تدهنوا عيونكم به لتروا. لكنّ يسوع لم يكن يتحدّث عن المرض البدنيّ، أكّد الأخ تيموثي وهو يرفع سبابته، ويبدّل صوته إلى نغمة ممجّدة فاتنة تعد العقل السّائل بنتيجة مذهلة.

كان أرتيوم سريعا في التّعبير عن اهتمامه القويّ.

كان يسوع يتحدّث عن العمى الرّوحيّ الّذي يجب أن يُعالج ويُشفى، قال تيموثي مفسًّرا اللّغز: مثلك ومثل آلاف الأرواح الأخرى الضّائعة الّتي تتجوّل في الظّلام. لكنّ الإيمان بربّنا الحقيقيّ يهوه هو مرهم العيون الّذي يفتح جفنيك إلى أقصاهما لترى العالم كما هو في الحقيقة، فأنت ترى ماديًّا لكنّك أعمى روحيًّا.

فكّر أرتيوم أنّ مرهم العين كان سينفعه منذ أربعة أيّام، ولأنّه لم يردّ، قرّر الأخ تيموثي أنّ هذه الفكرة المعقّدة تحتاج إلى تفسير أكثر. فهدىء لبرهة كي يسمح لرأس أرتيوم بالتّعمّق فيها، ولكن بعد خمس دقائق ومض ضوء في الأمام، فقطع الأخ تيموثي تفكيره لينقل الأخبار المفرحة، هل ترى الضّوء البعيد؟ ذلك هو برج المراقبة. نحن هنا، لم يكن هناك أيّ برج إطلاقًا، لذلك شعر أرتيوم بالخيبة نوعًا ما. كان قطارًا عاديًّا واقفًا في النّفق تشعّ أضواؤه الأماميّة بنعومة في الظّلام، لتنير خمسة عشر مترًا أمامه. حين وصل الأخ تيموثي وأرتيوم إلى القطار نزل رجل بدين، ويلبس نفس رداء الأخ تيموثي، من مركبة المهندس لاستقبالهما. عانق الوجنتين الورديّتين وخاطبه أيضًا بأخي الحبيب، فاستنتج من هذا أنّ العبارة صورة بلاغيّة أكثر منها تعبيرًا عن الحبّ.

من يكون هذا الزّميل الصّغير؟ سأل الرّجل البدين في صوت منخفض وهو يبتسم بلطف لأرتيوم.

إنّه أرتيوم، أخونا الجديد الّذي يريد أن يسير معنا على درب الحقيقية، ويدرس الإنجيل المقدّس ويتبرّأ من الشّيطان، شرح تيموثي ذو الوجنتين الورديّتين.

إذًا اسمح لبرج المراقبة أن يرحّب بك يا أخي الحبيب أرتيوم، قال فاتسو (سمينو) بصوت رتيب. واندهش أرتيوم مرّة أخرى لأنّه لم يلاحظ الرّائحة النّتنة الّتي لا تُحتمل، والّتي اخترقت الآن كلّ كيانه.

والآن، هدل الأخ تيموثي وهم يشقّون طريقهم برويّة عبر العربة الأولى، عليك يا أرتيوم أن تنظّف جسدك قبل أن تقابل الأخوة في صالة المملكة، لأنّ الرّبّ يهوه نظيف ومقد س ويتوقّع من عباده أن يحافظوا على نظافتهم الرّوحيّة والأخلاقيّة

والبدنيّة، بالإضافة إلى أفكارهم. نحن نعيش في عالم غير نظيف، قالها وهو ينظر بحزن إلى ثياب أرتيوم الّتي في حالة يرثى لها، ولكي نبقى نظيفين في عيون الرّبّ يتطلّب منّا ذلك مجهودًا

جديًّا يا أخي أرتيوم، ختم قائلًا ودفع أرتيوم إلى ركن زُيِّن بملاءات بلاستكيّة نُصِب بمكان غير بعيد عن مدخل العربة. طلب منه تيموثي أن ينزع ثيابه، ثمّ ناوله صابون رماديّ ذا رائحة تثير الغثيان، وبعد خمس دقائق أمدّه بالماء من خرطوم مطّاطيّ.

حاول أرتيوم أن يخمّن المادّة الّتي صنع منها الصّابون. وعلى كلّ حال هي لم تلتهم القذارة الّتي على جلده فقط وإنّما قضت على الرّائحة المقزّزة المنبعثة من جسده أيضا. بعد اكتمال الإجراءات أعطاه الأخ رداءً جديدًا نسبيًّا مثل ردائه. لكنّه بدا مستتكرًا لغلاف الطّلقة المعلّقة حول عنقه مدركًا أنّها تميمة وثنيّة، لكنّه اكتفى بحسرة موبّخة. والغريب أيضًا هذا القطار الّذي علق في وسط نفق منذ زمن غير معروف، والّذي يعمل الآن كملجأ للأخوة، وفيه ماء يخرج تحت ضغط قويّ.

وحين سأل أرتيوم عن الماء الغريب الّذي يأتي من الخرطوم، وكيف أمكنهم تشييد هكذا بناء، ابتسم الأخ تيموثي بشكل غامض وصرّح أنّ الإلهام لإرضاء الرّبّ يهوه، يدفع النّاس إلى أفعال بطوليّة وممجّدة. كان التّفسير أكثر من ضبابيّ لكنّه يجب أن يكون كافيًا.

بعد ذلك دخلوا إلى العربة الثّانية حيث بُنيت طاولات طويلة فارغة بين منصّات جانبيّة صلبة. مشى الأخ تيموثي نحو رجل يحضّر شيئًا فوق قدر كبير فاحت منه رائحة مغرية، وعاد بطبق كبير من نوع من الثّريد الرّقيق، وتبيّن أنّه صالح للأكل تمامًا، ومع ذلك لم يعرف أرتيوم ممّا كان مصنوعًا.

وبينما كان يغرف الحساء الحار بملعقة من الألمنيوم، راقبه الأخ تيموثي بحنان دون أن يضيّع فرصة هدايته إلى الدّين:

لا تظنّ أنّني لا أثق بك يا أخي، لكن ردّك على سؤالي عن الإيمان بربّنا لم يبدو صلبًا وثابتًا جدًّا. هل تستطيع فعلًا أن تتخيّل عالمًا لا وجود لربّنا فيه؟ من المؤكّد أنّ عالمنا لم يخلق نفسه وليس وفقًا لمشيئته الحكيمة؟ هل يمكن أن تكون كلّ أشكال الحياة المتنوّعة وجمال الأرض، أومأ حول غرفة الطّعام بلحيته، مجرّد مصادفة وحدث عرضيّ؟

نظر أرتيوم حوله في العربة بانتباه، لكنّه لم ير أيّ شكل للحياة فيها عدا هم والطّبّاخ. مرّة أخرى، انكبّ على طاسته ولم يصدر عنه سوى دمدمة من الشّكّ.

وعلة عكس توقّعاته لم تُغضِب معارضته الأخ تيموثي أبدًا، بل كانت على العكس تمامًا في الواقع. امتلأ حيويّة بشكل منظور وأنيرت وجنتاه الورديّتان بفورة قتاليّة متّقدة.

تابع الأخ تيموثي بنشاط: إن لم يقنعك هذا بوجوده (الرّب)، فكّر به إذًا بطريقة مختلفة. إن لم يكن هذا العالم إظهارًا للإرادة الإلهيّة، فهو يعني إذًا... تجمّد صوته،

كما لو أنّه ارتعب، ولم ينه فكرته إلا بعد عدّة لحظات طويلة، فقد خلالها أرتيوم شهيّته تمامًا: إذًا ذلك يعني أنّ النّاس تُركوا إلى إراداتهم ورغباتهم ووسائلهم، وليس هناك مغزى من وجودنا، وليس هناكَ مغزى من إطالته... إنّه يعني أنّنا لوحدنا تمامًا، ولا أحد يهتمّ بنا. إنّه يعني أنّنا غطسنا في داخل التّشوّش التّامّ، وليس هناك أوهى أمل بضوء في نهاية النّفق، وأنّ العيش في عالم كهذا مرعب. يستحيل العيش في هكذا عالم.

لم يقل أرتيوم أيّ كلمة ردًّا عليه، لكنّ هذه الكلمات جعلته يفكّر. فهو حتّى هذه اللّحظة كان يرى حياته كتشوّش تامّ، وسلسلة أحداث لا رابط لها أو معنى. لقد أحزنه هذا وكان الإغراء بأن يثق بأيّ حقيقة بسيطة تملأ حياته بالمعنى، قويًّا جدًّا إلّا أنّه اعتبر ذلك جبنًا. ومن خلال الألم والشّكّ اكتسب قناعة قويّة وهي أنّ حياته ليست بلافائدة، وأنّ كلّ شيء حيّ يجب أن يقاوم هراء وتشوّش الحياة. لكنّه لم يحبّ أن يتجادل مع تيموثي اللّطيف الآن بالضّبط.

أحسّ بالشّبع وبشعور خيّر، وشعر بامتنان صادق للشّخص الّذي وجده والتقطه حين كان منهكا وجائعًا ومنتنًا، الشّخص الّذي تكلّم معه بحنان، والّذي يطعمه الآن ويعطيه ثيابًا نظيفة. لذلك أراد أن يشكره بطريقة ما، وحين أغراه الرّجل لينضمّ إلى لقاء الإخوة، وقف أرتيوم فورًا مبديًا بكلّ تكلّفه وأسلوبه المميّز أنّه سيذهب مسرورًا إلى هذا اللّقاء، وإلى أي مكان يقوده إليه.

سيحدث اللّقاء في العربة التّالية، أي الثّالثة. وكانت مزدحمة بكلّ أصناف النّاس الّذين ارتدى أغلبهم نفس النّوع من الثياب. في وسط العربة منصّة صغيرة، والشّخص الواقف عليها أطول من كلّ الّذين كان على مستوى الأرضيّة، وكاد رأسه أن يرتاح على السّقف.

من المهمّ أن تسمع كلّ شيء، أخبر الأخ تيموثي أرتيوم ذلك بطريقة تنويريّة وهو يفسح دربهم بوكزات لطيفة، وقاد أرتيوم إلى وسط الحشد.

كان الخطيب كبيرًا في السّنّ نوعًا ما، له لحية رماديّة جميلة نزلت إلى صدره، وعينان مجوّفتان بلون غير محدّد، تنظران للأسفل بحكمة وهدوء. لم يكن وجهه مدوًّرا أو رفيعًا، بل غضّنته تجاعيد عميقة لا تصوّر ضعف رجل عجوز أو عجزه، وإنما حكمته الّتي كانت تشعّ بقوّة لا يمكن تفسيرها.

ذاك هو الرّئيس جون، همس الأخ تيموثي لأرتيوم في صوت تبجيليّ. أنت محظوظ فعلًا يا أخ أرتيوم فحالما تبدأ الخطبة ستتلقى التّعاليم حالًا.

رفع الرّئيس يده فتوقّف الهمس والحفيف فورًا، ثمّ بدأ في صوت جهوريّ عميق:

درسي الأوّل لكم يا إخوتي الأحبّاء سيكون حول ما يطلبه الربّ منكم، وكيف يمكننا معرفة ذلك. ولفعل هذا عليكم أن تجيبوا على ثلاثة أسئلة وهي: ما هي المعلومات المهمّة المحتواة في الإنجيل؟ من هو المؤلّف؟ لماذا ندرسه؟

خطابه كان مختلفًا عن أسلوب الأخ تيموثي الملتوي. فقد تكلّم ببساطة مطلقة واتّبع بوضوح خططًا مختصرة. دُهش أرتيوم بهذا أوّلًا، لكنّه نظر من جانب لآخر ورأى

أنّ غالبيّة النّاس غير قادرين إلا على فهم كلمات كهذه. ولم يكن لتيموثي ذو الوجنتين الورديّتين أيّ تأثير عليهم أكثر من تأثيره على الجدران أو الطّاولة. في هذا الوقت أخبرهم الواعظ ذو اللّحية الرّماديّة أنّ حقيقة الرّب تكمن في الإنجيل، حيث يكون هو وقوانينه. بعد ذلك التفت إلى السّؤال الثّاني وأخبرهم أن الإنجيل كتبه أربعون شخص تقريبًا منذ أكثر من ألف وستّمائة سنة، وقد ألهمهم الرّبّ كلّهم.

ولهذا السّبب، فإنّ مؤلّف الإنجيل ليس شخصًا وإنّما الرّبّ الّذي يسكن الفردوس. والآن أجيبوني على هذا يا إخوتي: لماذا يجب أن ندرس الإنجيل؟

وبدون أن ينتظر جوابًا من الإخوة، شرحه لنفسه: لأنّ معرفة الرّبّ وتنفيذ مشيئته، ضمان لمستقبلنا الأبديّ. وحذّرهم من أن هناك كثير من النّاس لن يسرهم، ولن يرضوا عمّن يدرسون الإنجيل. ولكن لا تسمحوا لهم بمنعكم من ذلك، ورمى التّجمّع بنظرة قاسية.

وبعد لحظة صمت، تابع الرّجل العجوز بعد أن أخذ رشفة من الماء: درسي الثّاني لكم يا أخوتي حول من يكون الرّبّ. لهذا أعطوني جوابًا لهذه الأسئلة الثّلاثة: من هو الرّبّ الحقيقيّ وما هو اسمه؟ ما هي أهمّ صفاته؟ ما هي الطّريقة الصّحيحة لعبادته؟

أراد واحد من الحشد أن يجيب على أحد الأسئلة، لكنّه أجابه بنظرات غاضبة، فبدأ جون غير مبال بالإجابة على الأسئلة بنفسه: النّاس يعبدون أشياء كثيرة. لكنّ الإنجيل يقول لا يوجد سوى ربّ واحد. خلق كلّ شيء في السّماء وعلى الأرض. وبما أنّه وهبنا الحياة، يجب علينا أن نعبده وحده. ما هو اسم الرّبّ الحقيقيّ؟ صاح الرّجل المعمّر بعد توقّف قصير.

يهوه، انفجر الحشد بصوت واحد.

نظر أرتيوم من جانب لآخر بحذر.

الاسم الحقيقيّ للرّبّ هو يهوه، أكّد الواعظ. وله الكثير من الألقاب لكن له اسم واحد. تذكّروا اسم ربنا ولا تسمّوه بأيّ لقب من ألقابه كالجبناء، وإنّما بشكل مباشر بالاسم. والآن، من سيقول لي ماهي صفة ربّنا الرّئيسيّة؟

ظنّ أرتيوم أنّه سيرى وجود شخص متعلّم بشكل غامض في الحشد يمكنه أن يجيب على سؤال كهذا. رفع شاب يده وكان يقف قريباً ويبدو عليه الوقار، لكنّ العجوز ضربه عليها.

طبيعة يهوه مكشوفة في الإنجيل، وصفاته الأساسيّة هي الحبّ والعدل والحكمة والقوّة. قيل في الإنجيل أنّ الرّبّ رحيم وعطوف وغفور وكريم وصبور. ونحن مثل الأولاد المطيعين، يجب أن نكون مثله في كلّ طريقة.

لم يلق قوله أيّ اعتراض وسط التّجمّع، وتلمّس الرّجل المسنّ لحيته الرّائعة وسأل: إذًا أخبروني كيف يجب أن نعبد ربّنا يهوه؟ يهوه يقول أنّنا يجب أن نعبده هو فقط. يجب أن لا نبّجل التّماثيل والصّور والرّموز وألّا نصلّي لها. ربّنا لا يشارك تمجيده مع أحد آخر، والتّماثيل عاجزة عن مساعدتنا، دوّى الصّوت مهدًّدا ومتوًّعدا.

دمدم الحشد باستحسان، والتفت تيموثي بوجهه الفرح المشعّ إلى أرتيوم وقال: الرّئيس جون خطيب عظيم وبفضله أخوّتنا تكبر كلّ يوم، وجالية أتباع الإيمان الحقيقيّ تمتدّ وتنتشر.

ابتسم أرتيوم بمرارة. لم يكن لخطاب الرّئيس جون الحماسيّ نفس التّأثير النّاري عليه كما كان على الآخرين. لكن ربّما يجدر به الإصغاء إلى المزيد؟

بالنّسبة لدرسي الثّالث سوف أخبركم فيه عن يسوع المسيح، قال الرّجل العجوز. وهناك عدّة أسئلة: لماذا سمّي يسوع المسيح أوّل ابن ولد للرّب؟ كيف أتى إلى الأرض كشخص؟ ماذا سيفعل يسوع في المستقبل القريب؟

بعدئذ أصبح واضحًا أن يُسمّى يسوع بابن الرّبّ الأوّل، لأنّه كان أوّل خلق للرّبّ، وأوّل تجسيد على الأرض للرّوح القدس وعاش في الفردوس. اندهش أرتيوم بهذا فهو لم ير السّماء سوى مرّة من قبل، في ذلك اليوم المشؤوم في الحدائق النّباتيّة. وقد أخبرهم أحدهم أنّه ربّما تكون حياة في النّجوم. هل ذلك هو ما يتحدّث عنه الواعظ؟

عندئذ شرح الرّئيس جون: من منكم يستطيع أن يخبرني لماذا أتى ابن الرّبّ يسوع المسيح إلى الأرض؟ وتوقّف بشكل درراماتيكيّ.

بدأ الآن أرتيوم يدرك ما يدور حوله، وبات واضحًا أنّ الحضور ينتمون إلى مراتب المتحوّلين إلى الدّين حديثًا، وهم يتلقّون المحاضرات منذ بعض الوقت. فالقدماء منهم ممّن تلقّوا هذه الدّروس لم يحاولوا قطّ أن يجيبوا على أسئلة الرّئيس، بينما المبتدئون الجدد كانوا يحاولون إظهار معرفتهم وتشوّقهم، فيصيحون بإجابات ويرفعون أيديهم، لكن ليس قبل أن يشرحها الرّجل العجوز كلّها بنفسه.

ولأنّ آدم لم يتّبع أمر الرّبّ، أصبح أوّل شخص يرتكب ما سمّاه الإنجيل بالخطيئة، بدأ الرّئيس عن بعد، لذلك حكم الرّبّ بالموت على آدم. فكبر آدم بالتّدريج ثمّ مات، لكنّه حول خطيئته لأولاده، ولهذا نحن نهرم ونمرض ونموت. ثمّ أرسل الرّبّ ابنه الأوّل لكي يُعلّم الإنسان حقيقة الرّبّ. وفي قدوته الطّاهرة أظهر للنّاس نموذجًا وضحّى بحياته ليحرّر البشر من الخطيئة والموت.

بدت هذه الفكرة غريبة لأرتيوم. لماذا من الضّروري معاقبة كلّ البشر بالموت ثمّ التّضحية لاحقًا بابنك الوحيد لكي يعود كلّ شيء إلى حالته الأصليّة؟ كيف لذلك أن يكون إن كان الرّبّ قادرًا على كلّ شيء؟

عاد يسوع إلى الفردوس وبُعث حيًّا، ولاحقًا سمّاه الرّبّ ملكًا، وقريبًا سيمسح يسوع كلّ شرّ وعذاب من الأرض، هكذا وعدهم الرّجل العجوز. لكنّنا سنتكلّم عن هذا بعد الصّلاة يا إخوتي.

تجمّعت رؤوس مائلة صاغرة وشاركت في صلاة القربان المقدّس. استحمّ أرتيوم بطنين الأصوات الكثيرة، والّتي لا يمكن تمييز كلمات منفصلة فيها، لكنّ المعنى العام أفصح عن نفسه. وبعد خمس دقائق من بدء الصّلاة بدأ الإخوة في تبادل الكلمات برشاقة، وكانوا قلقين على مايبدو حول وصول الرّوح القدس.

شيء ما لم يكن صحيحًا داخل أرتيوم. كان لديه شعور مزعج، لكنّه قرّر أن يبقى هناك لمدّة فربّما يكون القسم القادم من المحاضرة أكثر إقناعًا.

والدّرس الرّابع الّذي سأعطيه لكم حول الشّيطان، ونظر حوله بنظرة كئيبة لاعنة فقال الرّئيس محذّرا: هل كلّكم جاهزون لهذا؟ هل أنتم يا إخوتي أقوياء معنويًّا بما يكفي لتعرفوا عن هذا؟

الآن، بات من الضّروريّ جدًّا الإجابة، لكنّ أرتيوم لم يستطع أن يُخرج الصّوت من نفسه. وكيف له أن يعرف إن كانت معنويّاته قويّة بما يكفي، إن لم يكن متأكّدا من فحوى كلّ هذا الكلام في أيّ حال؟

ولهذا إليكم هذه الأسئلة الثّلاثة: من أين أتى إبليس؟ كيف يخدع إبليس النّاس؟ لماذا يجب علينا أن نقاوم الشّيطان؟

ترك أرتيوم أغلب الإجابات على هذه الأسئلة تمرّ من وراء أذنيه، فقد شتّته فكرة واحدة وهي: أين كان وكيف سيخرج من هنا. ولم يسمع سوى أنّ الخطيئة الرّئيسيّة للشّيطان هي أنّه أراد من النّاس أن يعبدوه، وهذا امتياز للرّب وحده. وتساءل أيضًا إن كان صحيحًا أنّ الرّبّ كان مهتمًّا بكلّ أتباعه، وهل هناك شخص واحد كرّس نفسه تمامًا للرّبّ؟

بدت لغة الرّجل المسنّ لأرتيوم رسميّة بشكل مرعب، وخاصّة عندما وجّه أسئلة غير ملائمة للنّقاش. كان الأخ تيموثي ينظر من حين لآخر إلى أرتيوم باهتمام، ويفتّش في وجهه عن شرارة تنوير وشيكة، لكنّ أرتيوم أصبح أكثر كآبة وتجهّما.

الشّيطان يخدع النّاس لهذا هم يعبدونه، هذا ما كان يقوله الرّجل العجوز في ذلك الوقت.

وهناك ثلاث طرق يتّبعها الشّيطان في خداع النّاس، وهي: الدّين المزيّف والروحانيّة (تحضير الأرواح) والقوميّة. فإن كان دينًا يعلّم الأكاذيب عن الرّبّ فهو يخدم أغراض إبليس. وقد يظنّ موالو الدّين المزيّف بسهولة أنّهم يعبدون الرّبّ الحقيقيّ، لكنّهم في الحقيقة يعبدون إبليس. الرّوحانية: حين يتوسّل النّاس الأرواح كي تحميهم وتؤذي الآخرين، وتتكهّن بالمستقبل وتنجز المعجزات. وخلف كلّ هذه الأفعال تقف القوّة الشّرّيرة للشّيطان، كان صوت الرّجل العجوز يرتعش من الكره والتّقزّز. وبالإضافة إلى ذلك، يخدع إبليس النّاس بتحريض الفخر القوميّ فيهم، ويحثّهم على عبادة المنظّمات السّياسيّة، حذّرهم الرّئيس برفع إصبعه: يظنّ النّاس أنّ عرقهم أو أمّتهم أرفع مقامًا من الآخرين، لكنّ هذا غير صحيح.

فرك أرتيوم مؤخّرة عنقه الّذي ما زال مشوّهًا بضربة حمراء، وسعل. لم يستطع أن يتّفق مع ذلك التّعليق الأخير.

يقتنع بعض النّاس أنّ المنظّمات السّياسيّة ستخلّص البشريّة من مشاكلها. إنّ النّاس الّذين يؤمنون بذلك ينكرون مملكة الرّب. لكنّ مملكة يهوذا وحدها هي الّتي ستحلّ مشاكل البشريّة. والآن سأخبركم يا إخوتي لماذا يجب عليكم إن تقاوموا الشّيطان...

ولكي يجعلكم تجحدون بيهوه، قد يلجأ إبليس إلى مضايقات وأفعال ضدّكم. قد يغضب بعض من المقرّبين منكم والأعزّاء على قلوبكم منكم لأنّكم تدرسون الإنجيل وقد يبدأ آخرون بالسّخرية منكم. لكن لمن تدينون بحياتكم؟ سأل الرّئيس، ورنّت نغمات حديديّة في صوته: يريد إبليس أن يخيفكم لكي تكفّوا عن اكتشافاتكم حول يهوه، لا تدعوه يفعلها، ولتكن لكم الغلبة، اليد العليا، ضدّ إبليس. وارتطم صوت جون مثل رعد مدوّ:

بمقاومتكم للشّيطان ستثبتون ليهوه أنّكم تؤيّدون سلطانه وسيادته.

زأر الحشد منتشيًا.

وبتلويح من يده أخمد الرّئيس جون الهستريا العامّة، لكي يُنهي اللّقاء بالدّرس الخامس والأخير.

ماذا أراد الرّبّ للأرض أن تكون؟ التفت إلى الحضور ومدّ ذراعيه: خلق يهوه الأرض لكي يعيش النّاس فيها بسعادة إلى الأبد. أراد من الجنس البشريّ المستقيم والفرح أن يسكن في الأرض. فالأرض لن تتدمّر أبدًا، وستظلّ موجودة إلى الأبد.

عندها شخر أرتيوم الّذي لم يستطع أن يحتوي نفسه معبّرًا عن سخطه، فقُذِفت نظرات غاضبة في جهته، ورفع الأخ تيموثي إصبعه مهدًّدا.

أوّل الكائنات البشريّة آدم وحوّاء، ارتكبا إثمًا وانتهكا قانون الرّبّ عمدًا، تابع الخطيب.. لذلك طردهما يهوه من الفردوس وضاع الفردوس. لكنّ يهوه لم ينس الغرض الّذي خلق الأرض من أجله، ووعد بأن يبدّلها إلى فردوس يعيش فيها النّاس إلى الأبد. كيف أنجز الرّبّ خطته؟ طرح الرّئيس هذا السّؤال على نفسه.

أشار التّوقّف الطّويل بأنّ اللّحظة الأساسيّة للخطبة كادت أن تصل. وأرتيوم كلّه آذان صاغية.

قال جون منذرًا: يجب التّخلّص من الناس الأشرار قبل أن تصبح الأرض فردوسا. لقد وعد أسلافنا أنّ التّطهير سيحدث في معركة هرمجدون الفاصلة، وهي حرب إلهيّة مقدّسة لإبادة الشّرّ. وبعد ذلك سيُقيَّد إبليس بالأصفاد والسّلاسل لمدّة ألف عام، ولن يبقى أحد ممّن يؤذون الأرض، ولن يبقى أحياء سوى شعب الرّبّ، وسيحكم الملك يسوع المسيح الأرض لمدّة ألف سنة.

أدار الرّئيس نظرته الحارقة إلى الصّفوف الأولى من النّاس الّذين كانوا يُصغون إلى كلماته ويتشرّبونها.

هل تفهمون ماذا يعني هذا؟ إن الحرب الإلهيّة لإبادة الشرّ انتهت مسبقًا، وما حدث لهذه الأرض الآثمة كان هرماجدون، احترق الشّرّ وتحوّل إلى رماد. وحسب ماجاء عن الوحي فلن ينجو ولن يبقى حيًّا سوى عباد الرّبّ. ونحن الّذين في المترو عباد الرّبّ، نحن نجونا من هرماجدون، ومملكة الرّبّ بمتناولنا. قريبًا لن يبقى هناك شيخوخة أو مرض ولا حتّى موت، سيتخلّص المرضى من عللهم ويعود الشّيوخ

إلى شبابهم مرّة أخرى. في الألف سنة من حكم يسوع، سيحوّل النّاس المخلصين للرّبّ الأرض إلى فردوس، وسيبعث الرّبّ ملايين الموتى من القبور.

تذكّر أرتيوم حديث سوخوي مع هنتر، عن مستوى الإشعاع على سطح الأرض وأنّه لن يتلاشى قبل خمسين سنة على الأقلّ، وأنّ البشرية وأجناس بيولوجيّة أخرى في ازدياد محكومة بالهلاك الحتميّ... لم يشرح الرّئيس بالضّبط كيف سيتحوّل سطح الأرض إلى فردوس مزدهر.

أراد أرتيوم أن يسأله أيّ نوع غريب من النّبات سيزهر في ذلك الفردوس المحروق، وما نوع النّاس الذين سيتجرّؤون للصّعود إلى الأعلى والاستيطان هناك. وهل والديه من أولاد إبليس، وإن كان ذلك هو سبب موتهما في الحرب الّتي وقعت للتّخلّص من الشّرّ. لكنّه لم يقل شيئًا، فقد ملأته المرارة والرّيبة لدرجة أنّه احترقت عيناه وشعر بالخجل حين تدحرجت دمعة على خدّه. واستجمع قوّته وقال شيئًا واحدًا فقط:

أخبرني، ماذا فعل ربّنا الحقيقيّ يهوه بخصوص المتحوّلين الّذين بلاروؤس مثلا؟ علِق السّؤال في الهواء. ولم يتنازل الرّئيس جون لإلقاء نظرة سريعة على أرتيوم حتّى، لكنّ الواقفين بقربه نظروا حولهم في فزع ونفور، وابتعدوا عنه كما لو أنّه أطلق رائحة كريهة. حاول الأخ تيموثي أن يأخذه باليد، لكنّ أرتيوم سحبها وابتعد وأزاح جانبًا الإخوة الّذين تحلّقوا حوله، وشقّ طريقه إلى المخرج.

نجح في الخروج من صالة المملكة ودخل إلى عربة الطّعام، ووجد عددًا كبيرًا من النّاس حول الطّاولات، وأمامهم زبادي فارغة من الألمنيوم. شيء ممتع يحدث في وسط الغرفة، والحياة كلّها التفتت إلى تلك الجهة.

قبل أن نتشارك في هذه الوجبة يا إخوتي، قال رجل هزيل وقبيح له أنف ملتو:، دعونا نستمع إلى ديفيد الصّغير وقصّته. هذا سيكمل الخطبة الّتي سمعناها عن العنف اليوم.

تحرّك جانبًا، وحلّ مكانه صبيّ بدين أفطس الأنف مع شعر ضارب إلى البياض ممشّط بعناية، بدأ ديفيد وتكلّم بنغمة الأولاد حين يلقون شعرًا حفظوه عن ظهر قلب:

كان غاضبًا جدًّا منّي وأراد أن يجلدني، ولأنّني قصير ربّما، تراجعت بعيدًا عنه وصحت بصوت عال، توقّف، انتظر، لا تضربني، أنا لم أفعل بك شيئًا. ما الّذي فعلته وأغضبك؟ يجب أن تخبرني ماذا حدث.. وغطّى وجه ديفيد تعبير مفرط لا بدّ أنّه تدرّب عليه كثيرًا.

وماذا قال لك ذلك المتنمرّ البغيض؟ قفز الهزيل مهتاجًا.

تبيّن أن أحدًا ما سرق فطوره، فصبّ جام غضبه على أوّل شخص صادفه، لكنّ شيئًا في صوته جعله يبدو مشكّكا، إن كان هو نفسه قد فهم ما قاله.

وماذا فعلت؟ سأل الرّجل النّحيف مع مزيد من التّوتّر.

قلت له: إن ضربتني فلن أعيد لك إفطارك، واقترحت عليه بدلًا من ذلك أن يذهب إلى الأخ طبّاخ ويخبره بما حدث. وطلبنا فطورًا آخر له. بعد فصافحني بعد ذلك وأصبح ودودًا معي.

هل الرّجل الّذي ضايق ديفيد الصّغير حاضر في هذه الغرفة؟ سأل الرّجل الهزيل في صوت المدّعي العام.

ارتفعت يد للأعلى وبدأ رجل طويل وضخم يبدو على وجهه الغباء والحقد، يشقّ طريقه نحو المنصّة المرتجلة ليحكي عن الأثر الإعجازي لكلمات ديفيد الصّغير عليه. لم يكن الأمر سهلًا، فالصّبيّ أكثر من خبير في حفظ الكلمات الّتي لم يفهمها عن ظهر قلب. حين انتهى التّقديم وغادر المنصّة كلّ من ديفيد الصّغير والسّفّاح التّائب، علا ضجيج التّصفيق والاستحسان. وأخذ الرّجل الهزيل مكانهما وخاطب الحاضرين الجالسين في صوت مشبوب بالعاطفة:

نعم، تمتلك الكلمات اللّطيفة قوّة هائلة، كما المثل القائل (كلمات الحليم تكسر العظام) الرّقة والحلم ليسا ضعفًا يا إخوتي الأحبّاء، لأنّ الرّقة تخفي قوّة إرادة هائلة، ويعطينا الإنجيل المقدّس أمثلة برهانًا على ذلك... قال وهو يقلّب الكتاب المستخدم كثيرًا، بحثًا عن الصّفحة الّتي أرادها وبدأ يقرأ بصوت عال قصّة ما في نغمات منتشية.

تحرّك أرتيوم إلى الأمام وتبعته نظرات منبهرة، وأخيرًا وصل إلى عربة القيادة. لم يوقفه أحد هناك، وكان على وشك أن يخرج منها إلى المسارات، لكنّ باشني كبير الحرس، الرّجل الضّخم الودود الهادىء حتّى في الأوضاع الصّعبة، والّذي رحّب به بحرارة عند الباب، سدّ الطّريق بجذعه وعقد حاجبيه الكثيفين وسأل بقسوة إن كان لدى أرتيوم إذنًا بالخروج.

لم يكن هناك أيّ طريقة لتجنّبه.

انتظر الحارس نصف دقيقة إجابة أو تفسيرًا من أرتيوم، ثمّ ضغط قبضتيه الهائلتين بطقطقة جافّة وتقدّم نحوه. تطلّع أرتيوم حوله في كلّ الاتّجاهات ووجد نفسه في شرك، فتذكّر قصّة ديفيد الصّغير. ربّما، وبدلًا من أن يقذف نفسه ضدّ هذا الحارس الفيل، فكّر في أن الأمر يستحقّ اكتشاف إن كان أحد ما قد أخذ فطوره.

ولحسن الحظّ، في هذه اللّحظة تمامًا وجده الأخ تيموثي. نظر إلى رجل الأمن بلطف، وقال: هذا الرّجل هو جوازي، ونحن لانحتفظ بأحد هنا ضدّ إرادته نظر الحارس إليه باندهاش، وتنحّى جانبًا مطيعًا.

لكن اسمح لي أن أرافقك ولو في قسم قليل من الطّريق يا أخي الحبيب أرتيوم، قال تيموثي بلهجة عذبة، فأومأ أرتيوم العاجز عن مقاومة سحر صوته بالموافقة. ربّما كانت الطّريقة الّتي نعيش فيها هنا شيء غير مألوف لك، المرّة الأولى، قال تيموثي بنغمة مهدّئة، لكن الآن انغرست البذرة الإلهيّة فيك أيضًا، ومن الواضح لعيوني أنّها سقطت في تربة ممتازة. أنا أريد أن أخبرك فقط كيف يجب ألّا تفعل، بعد أن أصبحت مملكة الرّبّ قريبة أكثر ممّا كانت عليه، كيلا تنحرف. يجب أن تتعلّم أن تكره الشّرّ وتتجنّب الأشياء الّتي يمقتها الرّبّ، كالزّنا الّذي يعني الخيانة الزّوجيّة،

واللواط وسفاح القربى والمثليّة والقمار والكذب واللصوصيّة ونوبات الغضب الشّديد والعنف والشّعوذة واستحضار الأرواح والثّمل.. كرّر الأخ تيموثي الكلمات في عجالة وهو ينظر في عين أرتيوم بهلع. إن أحببت الرّبّ وتمنيّت إرضاءه، حرّر تفسك من هذه الآثام، أضاف وهو يلمّح إلى نفسه بشكل واضح، سيتمكن من مساعدتك أصدقاؤك الأكثر نضجًا. مجّد اسم الرّبّ وبشّر بمملكة الرّبّ، ولا تشارك في قضايا هذا العالم الشّرير، وتجنّب الأشخاص الّذين يقولون لك عكس ذلك، لأنّ إبليس يتكلّم من خلال أفواههم، تمتم لكنّ أرتيوم لم يسمع شيئًا. كان يمشي أسرع فأسرع فلم يستطع الأخ تيموثي مجاراته. أخبرني أين يمكنني أن أجدك في المرّة القادمة؟ صاح من مسافة بعيدة وهو يلهث وضاع في شبه الظّلام.

بقي أرتيوم ساكتًا وانطلق راكضًا. وصلته من الخلف ومن الظّلام صيحة يائسة:

أعد لي الرّداء الكنسي...

تعثّر أرتيوم مرّات كثيرة، ولم يكن يرى شيئًا أمامه لكنّه تابع الرّكض إلى الأمام. سقط عدّة مرّات وكشطت راحتيه على الأرض الإسمنتيّة وتقشّرت ركبتيه، لكنّه لم يتوقّف. كان في ذهنه صورة واضحة جدًّا للقاعدة السّوداء الّتي نُصِب عليها رشّاش. وبات الآن لا يصدّق أنّ الأخوّة تفضّل الكلمة اللّطيفة والحليمة على العنف إن استطاعت الوصول إليه.

اقترب من هدفه خطوة أكثر ولم يكن بعيدًا جدًّا عن بوليس. فهي على نفس الخطّ ولا تبعد عنه سوى محطّتين اثنتين فقط. والشّيء الرّئيسيّ الّذي عليه فعله هو أن يتقدّم إلى الأمام، وألّا ينحرف خطوة واحدة عن مساره ومن ثمّ...

دخل أرتيوم إلى سيرفوخوفسكايا. ولم يتوقّف ثانية واحدة إلّا للتّأكّد من اتّجاهه، ثمّ عاد وغاص في حفرة النّفق السّوداء المؤدّي إلى الأمام.

ولكن.. حدث له شيء غير متوقّع في هذه النّقطة...

فقد عاد إليه شعوره بالرّعب من النّفق الّذي كان قد نسيه وارتطم به وضغطه على الأرض وصعّب عليه المشي والتّفكير وحتّى التّنفّس. لقد تصوّر أنّه شكّل بعض القناعات والعادات، وأنّ الخوف قد رحل عنه بعد كلّ هذا التّجوال، ولن يجرؤ أن يضايقه ثانية، فلم يشعر بالخوف أو الذّعر حين انتقل من كيتاي غورود إلى بوشكينسكايا، ولا حين ركب من تفرسكايا إلى بافلتسكايا، وحتّى حين مشى مُجهدًا لوحده تمامًا من بافلتسكايا إلى دوبرينينسكايا. لكنّ الخوف عاد الآن.

الشّعور بالخوف يهاجمه أكثر فأكثر في كلّ خطوة يتقدّمها إلى الأمام. أراد أن يعود راكضًا وعلى الفور، ويندفع بأقصى سرعة إلى المحطّة فهناك القليل جدًّا من الضّوء وعلى الأقلّ بعض النّاس، ولا يدغدغ ظهره هناك وباستمرار الإحساس بالنّظرة الحقودة المتعمّدة.

كان يتفاعل مع النّاس كثيرًا جدًّا لدرجة توقّف فيها الشّعور الّذي هاجمه بعنف حين غادر اليكسييفسكايا. لكن الآن، مرّة أخرى، غمره الإدراك بأنّ المترو ليس مجرّد وسيلة نقل بُنيت في نقطة محددّة من الزّمن، ولم يكن مجرّد ملجأ من قنبلة ذريّة أو

وطن لبضع عشرات الآلاف من النّاس، وإنّما هناك شخص ما نفخ فيه حياته الغامضة والفريدة الّتي تمتلك نوعًا استثنائيًّا من عقل لم يستطع البشر فهمه، ووعي غريب بالنّسبة له.

كان الإحساس دقيقًا جدًّا وواضحًا، فبدا لأرتيوم أنّ الرّعب منّ النّفق الّذي اعتقده النّاس خطأ أنّه ملجأهم الجوهريّ والنّهائي، كان مجرّد عداوة هذا الكائن الضّخم تجاه المخلوقات الصّغيرة الّتي كانت تحفر وتختبئ في جسده. والآن هو لا يريد من أرتيوم أن يتقدّم أكثر، ودفن إرادته الجبّارة العتيقة ضدّ دافع أرتيوم من أجل الوصول إلى نهاية الدّرب وإلى هدفه، وكانت مقاومته تزداد في كلّ متر واحد يتقدّمه.

مشى أرتيوم عبر ظلام أصمّ لا يمكن اختراقه، ولم يستطع أن يري يديه حتّى لو رفعهما إلى وجهه. كان الأمر وكأنّه سقط خارج المكان وخارج تيّارات الزّمن، وبدا له أنّ جسده لم يعد موجودًا ول م يكن يمشي ويشقّ خطواته عبر النّفق، وإنّما يحلق مثل مادة من العقل الصّرف في أبعاد مجهولة. كما أنّه لم يستطع أن يرى الجدران الّتي كانت تتراجع خلفه، لهذا بدا له أنه وكأنّه واقف لا يتحرّك، وأنّه لم يتقدّم خطوة واحدة وأنّ هدف رحلته بعيد المنال. نعم كانت قدماه تنتقي طريقها عبر وصلات السّكّة الخشبيّة العرضيّة الّتي يفترض بها أن تخبره أنّه بدّل موضعه المكاني، ولكن من جانب آخر كانت الإشارة الّتي توجّه مخّه في كلّ وصلة عرضيّة جديدة تدوسها قدمه، منتظمة تمامًا، سجّلت للأبد وتتكرّر بلا نهاية الآن، ممّا جعله يشكّ في حقيقة حركته. هل كان التّحرّك يقرّبه من هدفه؟

وفجأة تذكّر الرّؤيا الّتي زوّدته بجواب على سؤاله الّذي عذّبه. ثمّ اندفع قُدمًا إلى الأمام بقوّة مضاعفة، سواء كان ذلك بسبب رعبه من المجهول والشّرّ والشّيء المعادي الّذي كان يضغط عليه من الخلف، أو ليثبت لنفسه أنّه ما زال يتحرّك فعليًّا. ولم ينجح في التّوقّف إلّا بالكاد حين خمّن بحاسّة سادسة أنّ أمامه عقبة وتجنُّب الاصطدام بها بمعجزة.

تلمّس بيديه بحذر المعدن الصّدىء البارد، وشظايا زجاج نتأت من حواشي مطّاطيّة وحلقات فولاذيّة كانت فيما مضى عجلات. فعرف أنّ العقبة الغامضة كانت قطارًا. ومن الواضح أنّ هذا القطار كان مهجورًا. بأيّ حال، لم يكن حوله سوى الصّمت. وتذكّر أرتيوم قصّة ميخائيل بورفرتش المخيفة. لم يحاول التّسلّق إلى داخله، وإنّما التفّ محاذيًا لسلسلة عربات القطار وظلّ ملتصقًا بجدار النّفق. وأخيرًا تنفس الصّعداء بعد أن تجاوز القطار وتابع تقدّمه بسرعة، ثم تحوّل سيره إلى ركض.

كان هذا صعبًا فعلًا في الظّلام، لكنّ ساقاه أدركتا الأمر وركضتا حتّى ظهر أمامه بأحد الجوانب وهج موقد أحمر.

شعر بارتياح لا يوصف حين عرف أنّه في العالم الحقيقيّ، وحوله أناس حقيقيّون. وليس مهمًّا كيف سيعاملونه. من الممكن أن يكونوا قتلة أو لصوصًا، طائفيّين أم ثوّار، لا يهمّ. الشّيء الأهمّ أنّهم مخلوقات من لحم ودم مثله. لم يشكّ ولو لثانية واحدة

في قدرته بأن يجد ملجأ مع هؤلاء النّاس، وأن يختبىء من ذلك الكائن الضّخم الخفيّ الّذي أراد أن يخنقه. ولكن.. هل كان يبحث عن ملجأ من عقله المشوّش؟

دخلت هذه الصّورة الغريبة في المشهد لذلك لم يستطع أن يقول وهو متأكّد إن كان قد عاد إلى العالم الحقيقيّ، أم ما زال يهيم في زوايا وصدوع لا شعوره المظلمة.

لم يكن إلّا موقد واحد يشتعل في محطّة بوليانكا، ولكن غياب أيّ مصدر آخر للضّوء، جعله يبدو أكثر سطوعًا من الأضواء الكهربائيّة في بافلتسكايا. جلس شخصان بجانب الموقد، واحد منهم أدار ظهره نحو أرتيوم، والآخر بمواجهته. لكنّهما لم يلاحظاه أو يسمعانه، كما لو أنّ جدارًا عزلهما عن العالم الخارجيّ، فصل بينه وبينهم.

بدت المحطّة بقدر ما سمح ضوء الموقد، مكدّسة بتشكيلة من الخردة لا يمكن تخيّلها، واستطاع تمييز هياكل درّاجات مكسورة وإطارات سيّارات وقطع أثاث ومعدّات فيها. وهناك جبل من النّفايات، يسحب منه الرّجلان الجالسان حزمة جرائد أو كتب ويرمونها في اللّهب. وهناك أيضًا تمثال نصفيّ من الجبس لشخص ما، ينتصب أمام النّار مباشرة على الأرضيّة التّحتيّة، وبقربه قطّة التفت بشكل مريح جدًّا، ولم تكن هناك أيّة روح أخرى.

أحد الجالسين بجانب النّار يخبر الثّاني بشيء ما بتمهّل. فاقترب أرتيوم ليسمع ما يُقال.

هناك إشاعات تدور عن يونيفرسيتي (الجامعة)... بالتّأكيد مزيّفة، بالمناسبة هي مجرّد تكرار للأسطورة القديمة الّتي تتحدّث عن مدينة تحت الأرض في منطقة رامينكي والّتي كانت جزء من مترو2. لكنّك لا تستطيع أن تنفي أيّ شيء بيقين مئة بالمئة. وهنا عمومًا لا تستطيع أن تقول شيئًا عن يقين تامّ. إنّها إمبراطوريّة الأساطير والخرافات. ولو عرف عدد أكبر من النّاس بمترو 2، لكان الخرافة الرّئيسة والخرافة الذّهبيّة. ومثال ذلك، الاعتقاد بوجود مراقبين خفيّين.

اقترب أرتيوم كثيرًا جدًّا حين قال الشّخص الّذي يدير له ظهره:

يوجد شخص ما هناك.

طبعًا، يوجد، أومأ الآخر برأسه.

يمكنك الانضمام إلينا، قال الأوّل مخاطبًا أرتيوم دون أن يلتفت نحوه.

في أيّ حال لا يمكنك الابتعاد أكثر من ذلك.

لماذا؟ اعترض أرتيوم بهياج. ماذا؟ هل هناك أحد ما في النّفق؟

لا أحد طبعًا، علّل الرّجل بصبر: من سيذهب ويتسكّع هناك؟ لا تستطيع أن تذهب إلى هناك الآن بأيّ شكل، أنا أقول لك. لهذا، اجلس.

شكرًا لك، تقدّم أرتيوم خطوة متردّدة، وانهار على الأرض على الجانب الآخر من التّمثال النصفيّ.

كانا فوق الأربعين من العمر. أحدهما بشعر رماديّ مع نظارة مربّعة، والآخر نحيلًا بشعر فاتح اللّون ولحية صغيرة. كانا يرتديان سترات قديمة مبطّنة، ويستنشقان الدّخان عبر أنبوب رفيع مثبّت بشيء مثل قرعة، يصدر منها عبير مدوّخ.

ما اسمك؟ سأله صاحب الشّعر الفاتح

أرتيوم، ردّ الشّابّ بشكل آليّ، إذ أنّه مشغول بدراسة هذان الشّخصين الغريبين.

اسمه أرتيوم، قال ذو الشّعر الفاتح للآخر.

حسنًا، هذا مفهوم.

أنا يفجيني ديمتريفتش، وهذا سيرجي أندرييفتش، قال ذو الشّعر الفاتح.

يجب ألّا نكون رسميّين جدًّا، أليس كذلك؟ سأل سيرجي أندرييفتش

سيرجي، بما أنّنا وصلنا إلى هذا العمر، يمكننا الاستفادة من ذلك. إنّها مسألة منزلة اجتماعيّة بالأساس.

حسنًا، وماذا أيضًا؟ سأل سيرجي أرتيوم.

بدا الصّوت غريبًا جدًّا، كما لو كان يصرّ على أن يكملا شيئًا لم يبدأ حتّى، فارتبك أرتيوم كثيرًا.

إذًا أنت أرتيوم، لكن، ماذا بعد؟ أين تعيش؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ بماذا تؤمن؟ وبماذا لاتؤمن؟ ومن تلوم؟ وما الشّيء الّذي يجب فعله؟ تساءل سيرجي أندرييفتوش.

مثلما هي الأمور، هل تتذكّر؟ قال سيرجي أندرييفتش فجأة، بلا سبب ظاهر.

أوه، نعم، ضحك يفجيني ديمترييفتش.

أعيش في فدنكه، أو على الأقل كنت أعيش هناك، بدأ أرتيوم متردّدا.

تمامًا مثل هؤلاء الّذين يضعون جزماتهم على لوحة التحكّم؟ كشّر الرّجل ذو الشّعر الفاتح. نعم، لم يبق شيء من أميركا، تبسّم سيرجي أندرييفتش وقد نزع نظّارته وتفحّصها في الضّوء.

نظر أرتيوم إليهما بحذر مرّة أخرى. ربّما عليه أن يخرج فورًا من هنا، طالما ما تزال الأمور تسير بشكل جيّد، ولكنّ الموضوع الّذي كانا يتحدّثان به قبل أن يلاحظا مجيئه، أبقاه هناك بجانب الموقد.

وماذا بشأن هذا الحديث عن المترو اثنان؟ إن سمحتم لي فقد وصل إلى سمعي القليل منه، اعترف قائلًا.

إذًا أنت تريد أن تكتشف الأسطورة الرّئيسة للمترو؟ ابتسم سيرجي أندرييفتش متباهيًا: ماذا تريد أن تعرف بالضّبط؟

كنتما تتحدّثان عن مدينة تحت الأرض وعن نوع من المراقبين...

حسنًا، عمومًا المترو اثنان كان مدفنًا لآهة المعبد السّوفييتيّ خلال عهد راغناروك، إن سادت قوى الشّرّ، بدأ يفجيني دمترييفتش وهو يحدّق بالسّقف وينفث حلقات الدّخان، وحسب ما جاء عن الأساطير، فقد بُنِي مترو آخر للنّخبة تحت المدينة الّتي تستلقي ميّتة هناك فوقنا. وما تراه حولك هو المترو الّذي بني للقطيع العاديّ. المترو الآخر حسب الأساطير للرّعاة وكلابهم، وفي البداية وحين كان لهم سلطة فوق القطيع، كانوا يحكمون من هناك. لكن بعد أن نفذت قوّتهم هرب القطيع.كانت البوّابات فقط هي ما يصل هذين العالمين ببعضهما، وإن كنت تؤمن بالأساطير فإنّ موقع هذه البوّابات حيث قُطعت الخريطة إلى نصفين الآن كأنّها ندبة حمراء كالدّم، على فرع سكولينسكايا، في مكان ما خلف سبرتيفنايا. وحدث شيء لاحقًا أغلق المدخل إلى المترو اثنان. هؤلاء الّذين عاشوا هناك فقدوا أيّ معرفة بما يحدث هنا، وأصبح وجود المترو اثنان نفسه أسطوريًّا وغير حقيقيّ. لكن، أشار باتّجاه الأعلى، ورغم حقيقة أنّ المدخل إلى المترو اثنان لم يعد موجودًا، إلّا أنّه لا يعني أبدًا أنّه انتهى من الوجود. بل على العكس، إنّه حولنا. أنفاقه تلفّ حول محطّاتنا، وربّما تكون محطّاته على بعد خطوات خلف جدران محطّاتنا. هذان البناءان لا ينفصلان، فهما مثل الدّورة الدّمويّة والأوعية اللّمفاويّة لكائن حيّ واحدٍ. هؤلاء الّذين يؤمنون بأنّ الرّعاة لن يستطيعوا التّخلّي عن قطيعهم وتركه لرحمة القدر، يقولون أنّهم حاضرون في حياتنا بشكل غير محسوس ومُدرَك، يوجّهوننا ويتابعون كلّ خطوة لنا، لكنّهم لا يكشفوا عن أنفسهم ولا يسمحوا بأن يُعرَف بوجودهم. هذا هو الاعتقاد في المراقبين الخفيّين.

رفعت القطّة الملتفّة بجانب التّمثال النّصفيّ الّذي يغطّيه السّخام رأسها، وفتحت عينيها الضّخمتين الخضراوتين اللّمّاعتين، ونظرت إلى أرتيوم بوضوح مدهش وتعبير ذكيّ. لم تكن نظرتها نظرة حيوان، ولم يستطع أرتيوم أن يتأكّد فورًا من أنّ هناك أحد آخر لم يكن يدرسه بحرص بعينيه. لكنّ القطّة تثاءبت ومدّت لسانها الدّقيق الورديّ ودفنت رأسها في دثارها، وعادت للنّوم مثل وهم تلاشى.

لكن لماذا لايريدون أن يعرف النّاس بهم؟ تذكّر أرتيوم سؤاله.

هناك سببان اثنان لذلك، الأوّل: أنّ الخراف مذنبة بنبذ رعاتها في لحظة ضعفهم. والثّاني: بما أنّ المترو اثنان انفصل عن عالمنا، فإنّ الرّعاة تطوّروا بشكل يختلف عنّا، ولم يعودوا بشرًا. وإنّما كائنات من رتبة أعلى، منطقهم غير مفهوم لنا وأفكارهم يتعذّر بلوغها. لا أحد يعرف ما رأيهم بمترونا، لكن بمقدورهم أن يبدّلوا أيّ شيء حتّى يعيدوننا إلى عالمنا المفقود الرّائع، لأنّهم استعادوا قوّتهم السّابقة. ولأنّنا تمرّدنا ضدّهم في الماضي وقمنا بخيانتهم، لم يعد يهمّهم مصيرنا. لكنّ الرّعاة موجودين في كلّ مكان ويعرفون كلّ شهقة وخطوة ولطمة لنا، كلّ ما يحدث في المترو. هم يراقبوننا في الوقت الحالي فقط. ولن يلتفتوا إلينا بنظرة كريمة ويمدّوا لنا اليد، حتّى نكفّر عن خطيئتنا الرّهيبة.. هذا ما يقوله الّذين يؤمنون بالمراقبين الخفيّين.

لكن كيف يستطيع النّاس التّكفير عن ذنبهم؟ سأل أرتيوم.

لا أحد يعرف باستثناء المراقبين الخفيّين أنفسهم. البشر لا يفهمونه لأنّهم لا يعرفون شريعة المراقبين المتخفّين ونظامهم الدّيني.

إذًا، ربّما لن يقدر النّاس أبدًا على التّكفير عن إثمهم، أليس كذلك؟ قال أرتيوم بارتباك هل يضايقك ذلك؟ هزّ ايفجيني ديمتريفتش كتفه غير مبال، ونفث حلقتين كبيرتين من الدّخّان، انزلفت الأولى في الثّانية.

ساد صمت لبعض الوقت، في البداية كان خفيفًا وشفًّافا، لكنّه بدأ يزداد سماكة ودوًّيا بالتّدريج، وأصبح محسوسًا أكثر. شعر أرتيوم بحاجة متزايدة لكسره بأيّ طريقة ممكنة، أو بأيّ عبارة لامعنى لها، أو حتى بصوت لا معنى له. ومن أين أنت؟ سأل سابقًا، عشت في سمولينسكايا غير بعيد عن المترو، حوالي خمس دقائق من المشي، ردّ يفجيني ديمتريفتش، وحدّق أرتيوم به في اندهاش، كيف استطاع العيش غير بعيد عن المترو؟ هو بالتّأكيد يقصد أنّه عاش غير بعيد عن محطّة المترو، في نفق، صحيح؟

كان عليك أن تجتاز أكشاك الغذاء، كنّا نشتري البيرة هناك وكان هناك عاهرات يقفن قرب الأكشاك دائمًا، والشّرطة لها مراكز قيادة هناك أيضًا، استمرّ يفجيني دمتريفتش وبدأ أرتيوم يُدرك أنّه كان يتحدّث عن الأزمنة القديمة، عمّا كان مستمرًّا سابقا.

نعم، أنا أيضًا، عشت في مكان غير بعيد عن هناك في كلينسكي في ناطحة سحاب، قال سيرجي أندريفتش: وقد أخبرني شخص ما منذ خمس سنين، أنّه سمع من أحد المشّائين أنّها تفتّت إلى تراب.. دار الكتب ما تزال هناك، وكلّ الكتب ذات الأغلفة الزّرقاء الرّخيصة كانت تجلس على الطّاولات سليمة، هل تصدّق ذلك؟ وكلّ ما بقي من ناطحة السّحاب كومة تراب وكتل من الإسمنت. غريب...

إذًا كيف كانت الحياة آنذاك؟ سأل أرتيوم بفضول. وهو يحبّ أن يسأل المسنّين هذا السّؤال، فهم يتوقّفون عن أيّ شيء يفعلونه، ليصفوا الأيّام الماضية بسرور وطيب خاطر.

كانت عيونهم حالمة من خلال نظرة بعيدة، واختلفت رنّة صوتيهما تمامًا، وصارت وجوهم أصغر بعشر سنين. صور من الماضي أُعيدت للحياة أمام عيونهم وفي عقولهم، ولم تكن تشبه أو تُقارن بالصّور الّتي كان أرتيوم يستحضرها حين يسردون قصصهم. لكنّها رغم ذلك ممتعة للجميع ونوع من الحلاوة والعذاب بنفس الوقت، وتؤلم القلب...

حسنًا، كما ترى، كان زمنًا رائعًا. في الماضي... آه... كنّا متحمّسين، ردّ يفجيني دمتريفتش وهو يسحب جوابه.

هنا بالذّات لم يستطع أرتيوم أن يتخيّل ما في ذهن الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ، وحين أدرك الرّجل الآخر ذلك، وضّح بسرعة.

كنّا نشيطين جدًّا، وقد استمتعنا بوقت جيّد.

نعم، هذا ما قصدته بالضّبط. كنّا متحمّسين، أكد يفجيني دمترييفتش.

كان عندي موسكفتش 2141 خضراء، وكنت أصرف كلّ مرتّبي عليها، بتزويدها بنظام صوتيّ (ستيريو) وتبديل الزّيت. استبدلت مرّة كالغبيّ، المكربن بنموذج سيّارة رياضيّة ثمّ اعتادت على أكسيد النّترات. عاد بنفسه الأيّام الماضية الطيّبة بشكل واضح، حين كان من السّهل الحصول على مكربن سيّارة رياضيّة ووضعه في سيّارتك. واكتسى وجهه بتعبير حالم أحبّه أرتيوم كثيرًا، لكنّ المخجل جدًّا أنّ أرتيوم لم يفهم سوى القليل ممّا كان يقوله.

ربّما لا يعرف أرتيوم ما هي الموسكفتش ولا يتذكّر ما هو المكربن، قاطع سيرجي أندرييفتش ذكريات صديقه الحلوة لأحداث الماضي.

ماذا تقصد بأنه لا يعرف؟ رمى الرّجل النّحيل أرتيوم بنظرة غاضبة. وأخذ أرتيوم يتفحّص السّقف ليستجمع أفكاره.

إذًا لماذا تحرقان الكتب؟ بدّل الموضوع كتكتيك هجوميّ معاكس.

لقد قرأناها مسبقًا، ردّ يفجيني دمترييفتش.

ولا توجد حقيقة في الكتب، أضاف سيرجي أندرييفتش مفسّرا.

على أيّ حال، ربّما عليك أن تخبرنا شيئًا عن كساءك، هل كنت عضوًا في طائفة دينيّة أو ما يشبهها؟ وجّه يفجيني دمترييفتش لكمة حاسمة.

كلّا، كلّا، طبعًا لم أكن، سارع أرتيوم بالشّرح. لكنّهم وجدوني وساعدوني حين كنت في مأزق. شرح بخطوط عريضة الحالة البائسة الّتي كان بها، لكنّه لم يتوسّع في الشّرح عن مدى سوءها.

نعم، نعم، ذاك ما يفعلونه بالضّبط. وأنا أعرف تكتيكهم.. أيتام بائسون، أو ما شابه... أومأ يفجيني دمترييفتش.

قال أرتيوم: كنت في أحد اجتماعاتهم وقالوا أشياء غريبة جدًّا. وقفت هناك لمدّة، وأصغيت، لكنّي لم أتحمّل البقاء لوقت أطول. وممّا قالوه أنّ شرّ إبليس الرّئيسي أنّه أراد التّمجيد والعبادة لنفسه... وأنا كنت أعتقد سابقًا أنّ الأمر كان أكثر جديّة وخطورة، لكن تبيّن أنّها الغيرة. هل العالم بسيط جدًّا فعلًا؟ وهل كلّ شيء يدور حول حقيقة شخص لم يحبّ أن يتقاسم التّمجيد والعبادة مع أيّ أحد؟

العالم ليس بتلك البساطة، أكّد له سيرجي أندرييفتش وهو يأخذ النّارجيله من المدخّن ذو الشّعر الفاتح، واستنشق...

وتابع أرتيوم: يقولون أنّ صفات الرّبّ الرّئيسيّة هي الرّحمة والعطف والرّغبة في العفو، وأنّه ربّ الحبّ، وهو كلّيّ القدرة، ورغم ذلك يقولون أنّ الرّبّ طرد الإنسان من الفردوس وجعله إنسانًا فانيًا في أوّل مرّة عصاه فيها. ثمّ يموت عدد كامل من النّاس، غير خائفين، وفي النّهاية يرسل الرّبّ ابنه لينقذ الجميع، ويموت بعدها ابنه ميتة رهيبة، وينادي الرّبّ قبل موته ويسأله لماذا تخلّى عنه. وهذا كلّه من أجل ماذا؟

من أجل تطهير خطيئة الإنسان الأوّل الذي حرّضه الرّبّ نفسه، وعاقبه بالدّم. ومن ثمّ يعود النّاس إلى الفردوس ويكتشفون الأبديّة مرّة أخرى. إنّه نوع من الهراء الّذي لامعنى له، فقد كان في مقدوره ألّا يعاقب كلّ النّاس بقسوة على شيء لم يفعلوه، أو كان بمقدوره إيقاف العقاب بسبب الخطيئة الّتي وقعت منذ زمن بعيد جدًّا. لكن لماذا يضحّي بابنه الحبيب ويخونه حتّى؟ أيّ نوع من الحبّ هذا؟ أيّ نوع من الرّغبة في العفو؟ أين المقدرة الكليّة؟

عبّرت عن الموضوع بقسوة ومباشرة، ولكن بشكل صحيح بشكل عام، قال سيرجي أندرييفتش موافقًا، ومرّر النّارجيله لرفيقه.

هذا ما أستطيع قوله عن الموضوع، قال يفجيني دمترييفتش وهو يملأ رئتيه بالدّخان ويبتسم بسعادة. توقّف لدقيقة ثمّ تابع قائلًا: إذا كان ربّهم يملك بعض صفات أو مظاهر مميّزة بالفعل، فهي بالتّأكيد لا تشمل الحبّ أو العدل أو المغفرة. وهذا الحكم أتيت به ممّا حدث على الأرض، وهناك نوع واحد فقط من الحبّ يختصّ به الرّبّ وحده، وهو حبّه للقصص المشوّقة. في البداية هيّأ وضعًا ممتعًا، ومن ثمّ تراجع للوراء ليرى ما يحدث.

فإن كانت النّتيجة باهتة قليلًا، أضاف قليلًا من الفلفل. لهذا كان العجوز شكسبير محقًّا عندما قال بأنّ كلّ العالم منصّة مسرح، ولكن ليست تلك الّتي أشار إليها، ختم قائلًا.

هذا الصّباح لوحده، ناقشت طريقك داخل قرون كثيرة في الجحيم، لاحظ سيرجي اندرييفتش.

وذلك يعنّي أنّه سيكون لديك شخص ما لتتحدّث معه هناك، أخبر يفجيني دمترييف رفيقه.

ومن جانب آخر يمكن صنع الكثير من المعارف الممتعين هناك، قال سيرجي أندرييفتش من بين الطّبقة العليا من الكنيسة الكاثوليكيّة، مثلًا.

نعم، هم بالتّأكيد هناك. وبصراحة كذلك هي طبقتنا العليا.

من الواضح أن رفيقا أرتيوم لا يؤمنان بأن يكون حساب في يوم ما، لكلّ شيء يقولانه الآن. لكنّ كلمات يفجيني دمترييفتش عن الّذي حدث للبشريّة وكيف كانت، قصّة ممتعة قادت أرتيوم إلى فكرة جديدة.

قال أرتيوم: لقد قرأت كثيرًا من الكتب الجيّدة والمختلفة، وكنت دائمًا منذهلًا، لأنّها لا تشبه الحياة الحقيقيّة. أقصد أنّ الأحداث في الكتب مرتّبة في خطّ مستقيم جميل، وكلّ شيء مرتبط بشيء آخر، أي أسباب ونتائج. لكن في واقعنا كلّ شيء مختلف تمامًا، أقصد أنّ الحياة تغصّ بأحداث لا معنى لها، تحدث لنا بشكل عشوائيّ، وليس هناك وجود لفكرة أنّ كلّ شيء يحدث بتسلسل منطقيّ. إضافة إلى ذلك تصل الكتب إلى النّهاية حيث تنقطع السّلسلة المنطقيّة، أي بداية وتطوّر ثمّ قمّة ونهاية.

ذروة وليس قمّة، صحّح له سيرجي أندرييفتش وهو يصغي إلى ملاحظات أرتيوم بنظرة ضجرة

لم يظهر يفجيني دمتربيف أيّ اهتمام خاصّ أيضًا. بل قرّب منه جهاز التّدخين، واستنشق بعض الدّخان المعطّر وحبس أنفاسه.

حسنًا، ذروة، استمرّ أرتيوم وقد ثُبّط قليلًا: لكن في الحياة كلّ شيء مختلف. أوّلًا قد لا يصل التّسلسل المنطقيّ إلى نهاية، وثانيًا حتّى أنّ فعل لا شيء يتمّ بشكل ناجح بسببه.

هل تقصد أنّ الحياة ليس لديها حبكة؟ سأل سيرجي أندرييفتش وهو يساعد أرتيوم ليصيغ كلماته.

فكّر أرتيوم لدقيقة ثمّ أومأ برأسه.

ولكن، هل تؤمن بالقدر؟ سأله سيرجي أندرييفتش وهو يميل برأسه جانبًا ويتفحّص أرتيوم بحرص، بينما ابتعد يفجيني دمترييفتش عن النّارجيله باهتمام.

كلّا، قال أرتيوم بشكل قاطع: لا يوجد قدر بل مجرّد أحداث عشوائيّة تحدث لنا، ثمّ نرتّب الأشياء ونكملها بأنفسنا لاحقًا.

يا للعار، يا للعار... تنهّد سيرجي أندرييفتش في خيبة أمل، ونظر إلى أرتيوم بقسوة من فوق نظّارته. الآن سأقدّم لك نظريّة صغيرة من نظريّاتي، وسترى بنفسك إن كانت تتوافق مع حياتك أم لا.. نظريّتي هي أنّ الحياة تبدو لي كمزحة فارغة طبعًا، وليس من وراءها أيّ هدف على الإطلاق، وليس هناك قدر، بمعنى أنّ هناك شيء واضح ومحدّد يلازمك منذ ولادتك، وأنّك تعرف مسبقًا أنّك ستكون رائد فضاء أو راقص باليه، أو أنّك ستموت في طفولتك... كلّا، ليس مثل ذلك. بينما أنت تعيش وقتك المخصّص، أو... كيف سأشرح لك هذا؟! يصدف أن يحدث لك شيء جبرك أن تنجز أفعالًا محدّدة وتتّخذ قرارات محدّدة، معتقدًا أنّك تملك إرادة حرّة، وأنّك تستطيع أن تفعل هذا أو ذاك. لكن لو اتّخذت القرار الصّائب فإنّ الأشياء الّتي تحدث لك نتيجة ذلك لن تبقى عشوائيّة. سأستعمل كلمتك (أحداث) لقد سبّبتها اختياراتك الّتي اتّخذتها. وأنا لا أقصد أن أقول لو أنّك قرّرت أن تعيش في الخطّ الأحمر قبل أن يصبح شيوعيًّا، فإنّك ستظلّ عالقًا هناك، وأنّ الأحداث المتطابقة النّاتجة ستحدث لك. أنا أتحدّث عن مسائل أكثر دقّة. لكن إن وجدت نفسك مرّة أخرى على مفترق طرق، واتّخذت القرار المطلوب مرّة أخرى، فستواجه لاحقًا باختيار لا يبدو لك عشوائيًّا إن أدركته طبعًا واستطعت فهمه. وستتوقّف حياتك عن كونها مجموعة من الأحداث العشوائيّة، سوف تتحوّل إلى حبكة، حيث يتّصل كلّ شيء بحلقات منطقيّة لكنّها ليست مستقيمة ومباشرة بالضّرورة. وذلك سيكون قدرك. وفي مرحلة معيّنة إذا سافرت بعيدًا عن طريقك بشكل كاف، ستتحوّل حياتك إلى حبكة، إلى المدى الّذي تحدث فيه أشياء غريبة لا يمكن تفسيرها من وجهة نظر العقلانيّة الصّرفة، أو نظريّتك عن الأحداث العشوائيّة. لكنّها تظلّ منسجمة جدًّا وملائمة لمنطق خطّ الحبكة الّذي كان لحياتك قبل أن تتبدّل. أعتقد أنّ القدر لا يحدث ببساطة، أنت محتاج

لأن تصل إليه، وإن اجتمعت الأحداث في حياتك وبدأت تنظم نفسها في حبكة من عندها، يمكن أن تطرحك بعيدًا تمامًا. فمن الأفضل للشّخص ألّا يشكّ حتّى بحدوث هذا له، أو يتخيّل أنَّ ما حدث مبنيّ على مقدّمة خاطئة، في محاولة لتنظيم الأحداث للتّوافق مع نظرته إلى العالم. لكنّ القدر له منطقه الخاصّ به.

هذه النّظريّة الغريبة الّتي بدت لأرتيوم هراء وسخافة خالصة في البداية، أجبرته فجأة أن ينظر إلى كلّ شيء حدث له منذ البداية، حين وافق على مقترح هنتر بأن يرحل إلى بوليس، من وجهة نظر جديدة.

الآن، كلّ مغامراته ورحلاته الّتي رآها سابقًا ناجحة، والمحاولات المستميتة لإنجاز الهدف من بحثه الّذي طارده إلى أيّ مكان يقوده، كلّها بدت أمامه في ضوء مختلف، وبدت له شبكة نُظِمت بإتقان لدرجة أنّها شكّلت بنية مزخرفة خُطِّطت بإتقان.

لأنّه لو اعتبر أحد أنّ قبول أرتيوم بطلب هنتر الخطوة الأولى في الطّريق، كما قال سيرجي أندرييفتش، إذًا فكلّ الأحداث اللّاحقة بما فيها حملته إلى ريجسكايا واقتراب بوربون منه في ريجيسكايا دون أن ينفر منه أرتيوم، هو الخطوة التّالية. ولقاؤه بخان على الرّغم من أنّه كان يستطيع البقاء في سوخاريفسكايا. لكن يمكن تفسير هذا بطريقة أخرى أيضًا، في كلّ حال سرد خان لنفسه أسبابًا مخالفة لأفعاله. ثمّ أُخِذ أرتيوم أسيرًا لدى الفاشيّين في تفيرسكايا، وكان يجب أن يُشنق، لكنّ ظروفًا رتّبت نفسها.. إذ قرّر اللّواء الأمميّ الهجوم على تفيرسكايا في ذلك اليوم بالضّبط. لو أتى الثوّار قبل أو بعد يوم، لكان موت أرتيوم حتميًّا، وانتهى بذلك بحثه.

هل يمكن أن تكون المثابرة الّتي واصل بها أرتيوم دربه قد أثّرت على الأحداث المستقبليّة؟

هل يمكن أن يكون التّصميم والغضب واليأس قد دفعه إلى اتّخاذ كلّ خطوة تالية، فخلقت بطريقة غير معروفة حقيقة نسجت مجموعة من أحداث غير منظّمة، ومن أفكار المرء وأفعاله في نظام مرتّب حول الحياة العاديّة إلى حبكة، كما قال سيرجي أندرييفتش؟

من خلال النّظرة الأولى، لا يمكن لشيء كهذا أن يحدث. لكن لو فكّرت به... كيف للمرء أن يفسّر بطريقة أخرى لقاءه مع مارك الّذي عرض لأرتيوم طريقًا واحدًا ممكنًا للدّخول إلى أرض هانسا؟ والشّيء الرّئيسي والمهمّ جدًّا، هو أنّه حين رضي بقدره في تنظيف المراحيض، جافاه القدر وانصرف عنه كما يبدو. ولكن حين شعر بالحماس لإتمام مهمّته وعضّ على السّكّين دون أدنى محاولة منه لأن يفهم أفعاله، حدث المستحيل، إذ اختفى الحارس الّذي يُفترض منه أن يبقى في موقعه في مكان ما، ولم تكن هناك أيّ مطاردة. لهذا حين عاد من الدّرب الملتوي المنحرف إلى طريقه، تصرّف بما ينسجم مع النّموذج السّرديّ لحياته. أمّا في المرحلة الّتي هو بها الآن، والّتي يمكن أن تؤدّي إلى انحراف خطير عن الواقع، هل إصلاحها بطريقة كهذه، يمكّن خطّ قدر أرتيوم الرّئيسي من أن يتطوّر دون عائق آخر؟

إذا هذا يجب أن يعني أنّه إن حاد عن هدفه أو ابتعد عن دربه، سيتخلى عنه القدر فورًا، وعن درعه غير المرئيّ الّذي حمى أرتيوم من أن يقتل ويتفتّت إلى قطع مباشرة، وسينقطع خيط اريادني الّذي كان يتبعه بحذر، ويُترَك وجهًا لوجه مع حقيقة مضطربة وعنيفة، هيّجتها تطفّلاته الوقحة في مادّة الواقع المشوّش.

هل يمكن لمن يخدع القدر ويكون وقحًا لدرجة يستمر فيها بالمثابرة بعد أن تتجمّع غيوم رهيبة فوق الرّؤوس، أن لا يتمكّن من الخروج من الدّرب ببساطة؟ وهل ستنقلب حياته منذ ذلك الحين فصاعدًا إلى شيء مبتذل ورماديّ تمامًا؟ ولن يحدث شيء آخر غير عاديّ أو سحريّ أو غير قابل للتفسير أبدًا، لأنّ الحبكة قوطعت، وعليه أن يدفع ثمن أخطائه...

هل هذا يعني أنّه ليس لأرتيوم الحقّ في أن يحيد عن دربه فقط؟ وإنّما لا يستطيع ذلك أيضًا؟ هل كان ذلك قدره؟ القدر الّذي لا يؤمن به؟ والّذي لم يؤمن به لأنّه لم يعرف أن يفسّر ما حدث له، ولم يعرف كيف يقرأ العلامات الّتي وُضِعت على طول طريقه، بل استمرّ في الاعتقاد بسذاجة أنّ الطّريق الّذي يؤدّي إلى الآفاق البعيدة والّذي بُنِي له كان عقدة مشربكة من طرق مهجورة تؤدّي إلى اتّجاهات مختلفة؟

بدا أنّه كان يواصل السّير في دربه، وأنّ أحداث حياته شكّلت حبكة منسجمة، ظلّت تتأرجح فوق إرادة وعقل بشريّين. لذلك أُصِيب أعداؤه بالعمى، ورأى أصدقاؤه الضّوء، واستطاعوا أن يساعدوه في الوقت المناسب. كانت حبكة تحكّمت بالواقع، وبدّلت قوانين الاحتمالات الثّابتة شكلها طوعيًّا مثل المعجون، استجابة لقوّة يد خفيّة متنامية، كانت تحرّكه فوق رقعة شطرنج حياته... وإن كان الأمر هكذا، فالسّؤال إذًا: ما المغزى من كلّ هذا؟ الّذي كان يردّ عليه سابقًا بصمت صفيق وأسنان مصرورة فقط، قد انتهى. والآن، إنّ الشّجاعة في زعمه (و قد حافظ على زعمه بعناد أمام الآخرين) عدم وجود أيّ عناية إلهيّة أو خطّة عليا أو قانون أو عدل في العالم، تبيّن أنّه غير ضروريّ، لأنّ الخطّة يمكن ان أتكهنّ بها... لم يرغب في مقاومة هذه الفكرة. ومن المغري جدًّا الابتعاد عنها بنفس العناد المقاوم الّذي رفض فيه التّفسيرات الّتي قدّمتها الأديان والأيديولوجيّات.

بالمجمل هذا يعني شيئًا واحدًا...

لا أستطيع أن أبقى هنا أكثر من ذلك، قال أرتيوم ونهض وهو يشعر أنّ عضلاته امتلأت بقوّة جديدة طنّانة. لا أستطيع أن أبقى هنا أكثر من ذلك، كرّر وهو يُنصِت باهتمام إلى صوته. (يجب إن إذهب. عليّ ذلك)

لم يعد يفتل رأسه باستمرا حوله، ونسي تمامًا كلّ المخاوف الّتي دفعته إلى هذه النّار الصّغيرة. قفز في المسارات وتحرّك للأمام في قلب الظّلام. تحرّر أرتيوم من شكوكه الّتي أفسحت المكان لسلام تامٍّ، وثقة بأنّه كان يفعل كلّ شيء بشكل صحيح. حتّى ولو أبعِد عن مساره، فإنّه يستطيع أن يستعيد قدميه على قضبان قدره المشعّة. كانت الوصلات الّتي يسير عليها الآن تمرّ تحت قدميه لوحدها، ولا تتطلّب أيّ جهد من جانبه، وفي لحظة واحدة اختفى في الظّلام تمامًا.

إنّها نظريّة جميلة، أليست كذلك؟ قال سيرجي أندرييفتش، مدخّنا

يوشك المرء الظّنّ بأنّك تؤمن بها، ردّ يفجيني دمترييفتش مشاكسًا وهو يحكّ القطّة من خلف أذنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثّاني عشر: بوليس

لم يبق سوى نفق واحد فقط.. بعد نفق واحد فقط سيصل أرتيوم إلى الهدف الّذي حدّده له هنتر، والّذي ذهب نحوه بعناد وتهوّر. ربّما بقي عليه أن يقطع كيلومترين أو ثلاثة في قطاع هادىء وجافّ ويكون هناك. ساد صمت له صدى، في رأس أرتيوم، صمت مثل ذلك الصّمت في النّفق، لكنّه لم يعد يسأل نفسه أسئلة. وفي أربعين دقيقة أخرى سيكون هناك.. أربعون دقيقة وتنتهي رحلته.

لم ينتبه إلى أنّه كان يمشي في ظلامٍ لا يُخترق. واستمرّت ساقاه تلطّخ الوصلات بآثارها، وكأنّه نسي كلّ الأخطار الّتي تهدّده، ونسي أيضًا أنّه أعزل ولا أوراق رسميّة تثبت هويّته، أو حتّى مصباح أو سلاح، وأنّه كان يرتدي رداء خارجيًّا غريبًا، ولايعرف أيّ شيء عن هذا النّفق أو الأخطار الّتي تنتظر المسافرين عبره.

اقتنع تمامًا بعدم وجود أيّ شيء يشكّل تهديدًا له طالما ظلّ يتبع طريقه. ترى أين ذهب الخوف الواضح من الأنفاق، والّذي لامفرّ منه؟ ماذا حدث لتعبه الشّديد وإيمانه النّاقص؟

لقد أفسد الصّدى كلّ شيء.

صوت خطواته يأتي من أمامه ومن خلفه، لأنّ النّفق كان فارغًا تمامًا.

كانت أصوات الخطى المنعكسة من الجدران تدوّي وتتراجع تدريجيًّا، وتتحوّل إلى حفيف ثمّ يرتدّ صداها. لذلك بدا لأرتيوم بعد وقت قصير أنّه لم يكن يمشي في النّفق لوحده. وبعد بضع من الوقت أصبح هذا الإدراك حادًّا جدًّا، لذلك أراد أرتيوم أن يتوقّف ويصغي ويكتشف إن كان صدى حياته له حياة خاصّة به.

ظلّ يصارع الإغراء لعدّة دقائق. وأصبحت خطواته أبطأ وأهدأ، وأصغى جيّدًا ليسمع إن كان هذا يؤثّر على الصّدى. وأخيرًا توقّف أرتيوم تمامًا. وقف في الظّلام الّذي لا يُخترق، وانتظر خائفًا من أن يأخذ نفسًا عميقًا، كيلا يتداخل صوت الهواء الدّاخل إلى رئتيه، مع إدراكه لأقلّ تمتمة آتية من بعيد.

صمت...

الآن وبعد أن توقّف عن الحركة، تلاشى إدراكه بواقعيّة الفراغ مرّة ثانية. وحين كان يمشي كان الأمر كما لو أنّه يدرك تلك الواقعيّة بنعلي جزمته، ولكنّه حين توقّف في وسط الظّلام الأسود الّذي بلون الحبر، لم يعد أرتيوم يفهم أين هو.

وحين بدأ يتحرّك، بدا له أنّ صدى خطواته الّتي تكاد لا تُلاحظ، وصل إلى سمعه من قبل أن يدوس على الأرض الإسمنتيّة.

بدأ قلبه يدقّ بشدّة. ولكن في لحظة واحدة استطاع أن يقنع نفسه أنّ الانتباه إلى كلّ خشخشة في النّفق سخافة، ولا يخدم غرضه. فحاول أرتيوم لبعض الوقت ألّا ينصت

إلى الصّدى إطلاقًا، ثمّ غطى أذنيه بعدئذ واستمرّ في التّحرّك إلى الأمام، ولكن، حتّى هذا لم ينجح لفترة طويلة.

حين أزال راحتي يديه عن أذنيه بعد دقيقتين، واستمرّ في المشي، سمع من شدّة رعبه، صدى خطواته يعلو أكثر أمامه كما لو كانت خطواته تقترب منه. ولم يكن هناك ما يفعله سوى أن يقف، فيقف الصّوت الّذي أمامه بدوره بعد تأخير يُقدّر بأجزاء من الثّانية.

وكأنّ هذا النّفق يختبر أرتيوم وقدرته على مقاومة الخوف، لكنّه لم يستسلم، فقد مرّ بالكثير جدًّا ولن يخاف من ظلام وصدى.

هل كان صدى؟

كان يقترب منه أكثر، فلم يكن في ذلك شكّ. توقّف أرتيوم مرّة أخيرة حين تمكّن من سماع خطوات شبحيّة على بعد عشرين متر أمامه. وهذا شيء غريب لايفسّر، ولم يتحمّله. مسح العرق البارد عن جبينه، وبصوته السّاحق صرخ في قلب الفراغ:

هل يوجد أحد هناك؟

فرجع الصّدى من قرب مخيف، ولم يعرف أرتيوم صوته. طارد الصّدى المتدحرج بعضه البعض في أعماق الأنفاق ناثرًا المقاطع اللّفظيّة، أيّ أحد هناك... أحد هناك... هناك... دون أن يجيب أحد. وفجأة، حدث شيء لا يصدّق. بدأت أصوات الصّدى تعود وتكرّر سؤاله، أعادت المقاطع اللّفظيّة السّاقطة ترتيب نفسها بشكل معكوس، لتصبح أعلى، وكأنّ أحد ما على بعد ثلاثين خطوة يكرّر سؤاله في صوت مرعب. لم يستطع أرتيوم تحمّل هذا.

فاستدار وعاد إلى الوراء، وحاول ألّا يسرع في المشي أوّلا، لكنّه ركض بعدئذ ونسي تمامًا أن يكبح مخاوفه فتعثّر. بعد دقيقة واحدة فهم أن الخطوات المرتدّة من الصّدى ظلّت مسموعة على بعد عشرين مترًا، وأن مُطارده الخفيّ لا يريد أن يتركه. ركض أرتيوم وهو يلهث دون أن يعرف وجهته، وأخيرًا اصطدم بنفق عبر الممرّ.

هدأ الصدى فورًا. ومرّ بعض الوقت قبل أن يتمكّن من استجماع قوّة إرادته، ثمّ نهض وتقدّم خطوة إلى الأمام. كانت الوجهة الصّحيحة.

في كلّ متر يتجاوزه كان صوت الخطى ينتقل ضدّ الإسمنت، ويصبح أقرب ويتحرّك نحوه. ولم يُخمِد الحفيف الشّرّير سوى صوت الدّم الّذي يُضخّ بقوّة في أذنيه. وكلّما توقّف أرتيوم كان مطارده يتوقّف أيضًا، فتأكّد أرتيوم أنّه لم يكن صدى.

استمر هذا إلى أن اقترب صوت الخطى كثيرًا، كما لو أنّ شخصًا مدّ ذراعه. عندئذ وثب أرتيوم إلى الأمام وهو يصيح ويقذف بقبضتيه بشكل أعمى، إلى مكان مصدر الخُطى حسب ظنّه.

أصدرت قبضتاه صوت هسهسة قطع الفراغ. ولم يحاول أحد الدّفاع عن نفسه ضدّ لكماته. ضرب الهواء بلا فائدة، ثمّ صرخ وقفز للخلف وحرّك ذراعه إلى جانبيه ليمسك بعدوٍّ لم يستطع أن يراه في الظّلام. فراغ.. لم يكن هناك أحد. ولكن فور أن التقط أنفاسه وتقدّم بخطوة أخرى نحو بوليس، سمع جرّة قدم ثقيلة أمامه مباشرة.

لوّح بذراعه مرّة أخرى، ولم يكن هناك شيء ثانية. فشعر أرتيوم وكأنّه يفقد عقله. أجهد عينيه حتّى تألّمتا، وهو يحاول أن يرى أيّ شيء. وحاولت أذناه أن تلتقط أيّ نفس قريب لمخلوق آخر، لكن لم يكن هناك أيّ أحد بوضوح.

توقّف أرتيوم بلا حراك لعدّة ثوان، وفكّر وقال لنفسه: مهما كان التّفسير لهذه الظّاهرة الغريبة فهي لا تشكّل خطرًا عليه. الاحتمال الأرجح أنّها أصوات. وقال لنفسه عندما أصل إلى البيت، سأسأل زوج أمّي. ولكن، حين رفع قدمه ليخطو خطوة أخرى نحو هدفه، همس شخص ما في أذنه مباشرة:

انتظر، لا يمكنك أن تذهب إلى هناك الآن.

من يكون ذلك؟ من هناك؟ صاح أرتيوم وهو يتنفّس بصعوبة. لكن أحدًا لم يردّ عليه. كان مطوَّقا بفراغ عميق مرّة أخرى. بعدئذ مسح العرق عن جبينه بظهر يده، وأسرع عائدًا باتّجاه بوروفتسكايا. وواكبت خطوات الشّبح الّذي يطارده سيره، حين تحرّك في الجهة المعاكسة وخبت بالتّدريج كلّما ابتعد حتّى صمتت.

ولم يتوقّف أرتيوم إلا وقتها. لم يعرف ولم يستطع أن يعرف ماذا كان هذا الشّبح. ولم يسمع قطّ بشيء مثله من أيّ صديق، ولم يحكي له زوج أمّه عن ذلك ليلًا بجانب الموقد. ولكن، أيًّا كان الّذي همس بأذنه وأمره بالتّوقّف والانتظار، حين لم يعد أرتيوم يخشاه وحين توفّر له الوقت ليفهم ماحدث، ويفكّر به، فإنّه بدا مقنعًا نظريًّا.

أمضى العشرين دقيقة التّالية جالسًا على قضبان السّكّة الحديديّة يتأرجح من جانب لآخر، كما لو كان ثملًا ويصارع الهزّات ويستذكر الصّوت الغريب الّذي لا يعود إلى كائن بشريّ والّذي أمره بأن ينتظر. لم يتحرّك إلى الأمام إلّا بعد أن مرّ الارتعاش، وبدأ الهمس المخيف في رأسه يندمج مع الاندفاع الهادىء لتيّار الهواء المتزايد في النّفق.

من تلك النّقطة سار إلى الأمام، وهو يحاول أن يفكّر بأيّ شيء. وتعثّر أحيانًا فوق أسلاك معدنيّة ملقاة على الأرض، لكن لم يحدث له شيء مرعب آخر. ولم يمرّ وقت طويل كما بدا له، لكنّه لم يعرف الوقت لأنّه ركض الدّقائق كلّها في الظّلام. بعدئذ رأى ضوء في نهاية النّفق.

بوروفتسكايا.

بوليس.

على الفور سُمعت صيحة جلفة من المحطّة، تلاها صوت طلقات ناريّة. فقفز أرتيوم إلى الخلف واختبأ في منخفض عند الجدار. سمع من بعيد صيحات بطيئة لشخص جريح، تبعها لغة قذرة. ثمّ كان هناك صوت انفجار آخر لسلاح ضخّمه النّفق.

انتظر...

انتظر أرتيوم خمسة عشر دقيقة بعد أن هدأ كلّ شيء، ثمّ خرج من مكان مخبئه ومشى نحو الضّوء رافعا يديه للأعلى. لم يكن هذا مدخلًا إلى المنصّة في الواقع. ولم تكن هناك حراسة تعمل في برورفتسكايا، ومن الواضح أنّهم يعتمدون على مناعة بوليس. نقطة اتّصال صُنعت من كتل إسمنتيّة، تبعد خمسة أمتار عن القناطر الدّائريّة حيث ينتهي النّفق. استلقى بجانب هذه النّقطة جسد منبطح في بركة من الدّماء.

حين ظهر أرتيوم في مجال رؤية حرس الحدود الّذين يرتدون بزّات خضر وقبّعات عسكريّة، أمروه أن يقترب أكثر، ويقف بمواجهة الجدار. أطاعهم فورًا بعد أن رأى الجسد على الأرض.

فُتِّش بسرعة وسُئل عن جواز سفره، ورُبطت يداه خلف ظهره واقتيد إلى المحطّة أخيرًا. ضوء. مثل ما جاء في الأساطير بالضّبط، لقد نقلت الحقيقة، كانت تنقل الحقيقة دائمًا. الأساطير لم تكذب. كان الضّوء ساطعًا جدًّا، ممّا اضطرّ أرتيوم أن يغمض عينيه كي لا يصاب بالعمى. لكنّ الضّوء دخل بؤبؤ عينيه عبر أجفانه وأعماه حتّى أذاه. ولم تتوقّف عيناه عن الوخز إلّا بعد أن ربط حرس الحدود عصبة فوق عينيه. إنّ العودة إلى الحياة الّتي عاشتها الأجيال السّابقة من البشر، تُبيِّن لأرتيوم أنّها كانت مؤلمة أكثر ممّا تخيّل.

لم يزيلوا العصبة عن عينيه إلّا في كوخ الحرس الّذي بدا مثل غيره من الأكواخ، مكتب صغير مع جدران من القرميد المصدّع. والكوخ مظلم ولم يكن فيه سوى شمعة واحدة تومض في زبديّة من الألمنيوم على طاولة خشبيّة لونها أصفر. قائد الحرس رجل ممتلىء غير حليق في قميص عسكريّ أخضر مشمّرة أكمامه. وكان يرتدي ربطة عنق بطوق مرن. ويجمع بعض الشّمع السّائل على إصبعه، وهو يراقب أرتيوم لوقت طويل قبل أن يسأله:

من أيّ مكان أنت؟ أين جواز سفرك؟ ماذا أصاب عينك؟

قرّر أرتيوم أنّ المراوغة لن تفيد، لهذا قال الحقيقة بأنّ جوازه تُرِك مع الفاشيّين، وأنّ عينه كادت أن تبقى هناك أيضًا. تلقّى القائد المعلومة بكرم غير متوقّع.

نعم، نحن نعرف. ذاك النّفق المواجه يظهر عند تشيخوفسكايا بالضّبط. لقد بنينا قلعة كاملة هناك. وليس هناك قتال الآن، لكن بعض القوم الطّيّبين يخبروننا أن نُبقِي آذاننا مفتوحة. مثل قولهم: إذا كنت تريد السّلام فاستعدّ للحرب (سي فيس باسيم بارا بيللوم) وغمز أرتيوم.

لم يفهم أرتيوم القسم الأخير ممّا قيل، لكنّه فضّل ألّا يسأل عنه. وممّا جذب انتباهه الوشم على مرفق القائد، فهو يصوّر طائرًا شوّهه الإشعاع، برأسين وجناحين مبسوطين ومخالب معقوفة. لقد ذكّره بشكل غامض بشيء ما، لكن بماذا؟ لم تكن

عنده أيّ فكرة. وحين التفت القائد إلى أحد الجنود رأى أرتيوم نفس الصّورة لكنّها أصغر، موشومة على صدغ القائد الأيسر.

ولماذا أتيت إلى هنا؟ سأله القائد.

أنا أبحث عن شخص اسمه ميلنك. وعلى الأرجح هذا هو لقبه. فلديّ رسالة هامّة له.

تبدّل التّعبير على وجه القائد مباشرة، وغادرت الابتسامة الكريمة المتراخية شفتيه، وومضت عيناه من الدّهشة في ضوء الشّمعة.

تستطيع أن تسلّمها لي.

هزّ أرتيوم رأسه معتذرًا، وبدأ يشرح بأنّه لايستطيع فعل ذلك بأيّ شكل، وأنّها رسالة سريّة، وأنّه تلقّى أوامر صارمة بألّا يقول لأيّ أحد شيئًا عنها، ما عدا لميلنك نفسه.

تفحّصه القائد مرّة أخرى، وأشار إلى أحد جنوده الّذي سلّمه جهاز هاتف أسود بلاستيكيّ، ومعه سلك هاتف مغلّف بالمطّاط من الطّول المطلوب. بعد أن طلب الرّقم، تكلّم حارس الحدود في سمّاعة الهاتف:

هذا موقع بور الجنوبي، ايفشوف. صلني بالكولنيل ميلنك.

وبينما كان ينتظر الرّدّ استطاع أرتيوم أن يلاحظ أنّ كلا الجنديّين الآخرين في الغرفة، لديهم نفس الوشم على صدغيهما.

ما اسم الشّخص السّائل الّذي يجب أن أقوله؟ سأل القائد أرتيوم وهو يضغط طرف الجهاز إلى صدره.

قل له إنّها من هنتر. رسالة عاجلة.

أومأ القائد برأسه، وتبادل عبارتين مع من كان على النّهاية الأخرى من الاتّصال مرّة أخرى، ثمّ ختم المكالمة.

كن في أرباتسكايا في السّاعة التّاسعة من صباح الغد عند مكتب مدير المحطّة. وأنت حرّ حتّى ذلك الوقت، أشار للجنديّ الواقف في الممرّ، والّذي تحرّك جانبًا على الفور. ثمّ التفت إلى أرتيوم وأضاف: انتظر ثانية واحدة، يبدو أنّك ضيف شرف تأتي إلينا لأوّل مرّة. لهذا تفضّل واحتفظ بهذه، ولكن لا تنسى أن تعيدها. أعطى أرتيوم نظّارة سوداء في إطار معدنيّ.

ليس قبل الغد؟ لقد هُزم أرتيوم بإحباط حارق واستياء. هل لهذا السّبب جاء إلى هنا وخاطر بحياته وحياة آخرين؟ هل لهذا السّبب عبر وتجاوز وأجبر نفسه على تحريك قدميه حين لم تكن لديه القوّة تمامًا؟ أليس هذا العمل طارئًا لينقل أخبار كلّ شيء للمدعو ميلنك، الّذي تبيّن أنّه لا يستطع أن يجد دقيقة فراغ من أجله؟

أم أنّ أرتيوم قد تأخّر بشكل واضح، وعرف ميلنك كلّ شيء مسبقًا؟ أو ربّما يعرف ميلنك مسبقًا شيئًا ليس لدى أرتيوم أيّ فكرة عنه؟ أو ربّما تأخّر أريتوم كثيرًا لدرجة

أنّ مهمّته لم تعد مهمّة؟

ليس حتّى الغد، انفجر قائلًا.

الكولنيل في مهمّة اليوم. سيعود في وقت مبكر من صباح الغد، قال إيفاشوف. تابع سيرك واحصل على بعض الرّاحة أيضًا، ورأى أرتيوم خارج كشك الحرس.

هدأ أرتيوم ولكن بقي في نفسه شعور بالضّيم. لبس النّظّارة وظنّ أنّ منظرها جيّد، وأخفت الورم تحت عينه. كانت العدسات مخدوشة وتُشوِّه الأشياء البعيدة أيضًا. ولكن حين خرج أرتيوم إلى المنصّة بعد أن شكر حرس الحدود، فهم لماذا لم يكن بمقدوره العمل بدونها. فالضّوء الصّادر عن مصابيح الزّئبق ساطع جدًّا بالنّسبة له، بالإضافة إلى أنّه لم يكن الوحيد الّذي لا يستطيع فتح عيونه هنا، فهناك كثيرون في المحطّة أخفوا عيونهم خلف نظّارات سوداء. فخطر لأرتيوم أنّهم ربّما كانوا غرباء أيضًا.

استغرب أرتيوم حين رأى محطّة مترو كاملة منارة، لذلك لن يكون أيّ ظلال هنا. في فدنكه وفي كلّ المحطّات الأخرى، والمحطّات الفرعيّة الّتي زارها حتّى الآن، القليل من مصادر الضّوء الّتي لم يكن بمقدورها إنارة كلّ الفراغ الّذي يمكن رؤيته. فكانت تسلّط الضّوء على أجزاء منه، وتظلّ هناك أماكن لا يخترقها أيّ شعاع دائمًا. كلّ شخص يطرح عدّة ظلال، واحد باهت وهزيل من شمعة، وآخر من ضوء الطّوارىء، وثالث أسود ومحدّد بوضوح من مصباح كهربائيّ، تمتزج كلّها وتغطّي بعضها البعض. وأحيانًا تمتدّ ظلال الآخرين بطول عدّة أمتار على الأرض، فتروّعك وتخدعك وتجبرك على التّخمين والافتراض. أمّا في بوليس فوهج مصابيح النّهار الّتي لا ترحم، يمحو كلّ ظلّ.

تجمّد أرتيوم في مساراته وهو ينظر إلى بوروفتسكايا بسرور. لقد بقيت في حالة جيّدة تُثير الدّهشة. لا يوجد أيّ أثر واضح للسّخام على الجدران المرمريّة أو السّقف الأبيض. وكانت المحطّة مرتّبة وأنيقة. هناك امرأة ترتدي ثوبًا خارجيًّا أزرق، تعمل بجدٍّ على لوح برونزيّ مسودّ في نهاية المحطّة، تكشط تمثالًا بكدّ بإسفنجة ومحلول تنظيف.

تجهيزات العيش هنا مرتّبة في القناطر. ولم تُتْرَك سوى قنطرتين مفتوحتين كمداخل للمسارات، أمّا البقيّة ففرشت بالقرميد من كلا الجانبين، وحُوِّلت إلى شقق سكنيّة حقيقيّة، لكلّ واحدة منها مدخل، ولبعضها أبواب خشبيّة ونوافذ لمّاعة ومصقولة أيضًا، وقد أتى صوت موسيقى من واحدة منها. حتّى مماسح الأرجل وُضعت أمام أبواب كثيرة، لكي يمسح الدّاخلون إليها أقدامهم. هذه أوّل مرّة يرى أرتيوم فيها شيئًا من هذا النّوع. بدت هذه المساكن دافئة ومريحة وهادئة جدًّا، لذلك شعر بضيق في صدره وظهرت أمام عينيه صورة من طفولته فجأة. لكنّ الشّيء المدهش أكثر كان سلسلة من رفوف الكتب، امتدّت على طول جدران المحطّة كلّها، وشغلت الفراغ بين الشّقق السّكنيّة، وهذا أعطى المحطّة نوعًا من المنظر الغريب الإعجازي، الّذي ذكّر أرتيوم بالأوصاف الّتي قرأها عن المكتبات في القرون الوسطى في كتاب لبورغيس.

كانت السّلالم في الطرق البعيدة من الصّالة حيث يقع الممرّ إلى محطة أرباتسكايا. وبقيت أبواب الضّغط مفتوحة، لكن وضع مخفر صغير عند الممرّ. وهنا أيضًا كان الحرّاس يسمحون لأيّ شخص بالمرور دون أن يعيقوه، في كلا الاتّجاهين ودون تفتيش على الوثائق والأوراق الرّسميّة أيضًا.

في الطّرف المقابل من المنصّة على الجانب الآخر بجانب التّمثال، هناك مخيّم عسكريّ حقيقيّ. حيث نُصِبت خيم خضر كثر هناك، رُسمت عيها وشوم مثل الّتي على صدوغ حرس الحدود. وفي نفس المكان هناك عربة مع أسلحة غير معروفة نُصبت عليها، تكشف عن ماسورة طويلة مع فوّهة لامعة برزت من تحت غطاء. وهناك جنديّان بالقرب منها في بزّتين لونهما أخضر داكن وخوذتين ودرعين في الخدمة. المخيّم يطوّق سلّما للعبور يصعد فوق المسالك. وأسهم وامضة تُشير بأنّ هذا مخرج إلى المدينة، بعدئذ أصبحت التّدابير الوقائيّة المعروفة واضحة لأرتيوم. فهناك سلّم ثان يؤدّي إلى نفس المكان لكنّه سُدَّ تمامًا بجدار من كتل إسمنتيّة ضخمة.

جلس أناس في ثياب رماديّة طويلة مصنوعة من قماش كثيف، إلى طاولات خشبيّة قويّة نُصبت في وسط المحطّة. وبعد أن اقترب أكثر، دُهش أرتيوم حين رأى أصداغهم الّتي وُشمت أيضًا، ولكن ليس بصورة طائر وإنّما بكتاب مفتوح على خلفيّة من خطوط عموديّة كثيرة تحمل شبهًا بصفّ من الأعمدة. ابستم أحد الرّجال الجالسين إلى الطّاولات بودّ حين لاحظ نظرة أرتيوم المصمّمة وسأله: هل أنت قادم جديد؟ هل هذه زيارتك الأولى إلى هنا؟

جفل أرتيوم من كلمة (قادم جديد) لكنّه تماسك وتصرّف بلباقة وأومأ برأسه. لم يكن الرّجل الّذي تكلّم أكبر من أرتيوم بكثير، وحين نهض ليصافحه وأخرج كفّه من كمّ الثّوب الواسع، تبيّن أنّهما كانا بنفس الطّول تقريبًا، لكنّ بنية الرّجل كانت أرقّ وأضعف.

دانيال هو اسم الشّخص الّذي عرفه أريتوم حديثًا.لم يكن مستعجلًا للتّحدّث عن نفسه، وكان واضحًا أنّه قرّر أن يتحدّث مع أرتيوم لأنّه كان مهتمّا بما يجري وراء حدود بوليس، وبكلّ جديد في الرّينغ وأيّ خبر حول الفاشيّين والحمر...

بعد نصف ساعة كانا يجلسان في بيت دانيال المغزليّ الشّكل، في إحدى الشّقق المحتضنة بين القناطر، يشربان الشّاي السّاخن الّذي جُلِب إلى هنا بطرق ملتوية من فدنكه. من بين قطع الأثاث كان هناك طاولة تكوّمت فوقها كتب، ورفوف حديديّة عالية تصل إلى السّقف مُلأت إلى قممها بمجلّدات سميكة. وهناك سرير أيضًا ومصباح كهربائيّ ضعيف تدلّى من السّقف على سلك ينير رسمًا أُنجِز بمهارة لمعبد قديم هائل، ولم يعرف أرتيوم

فورًا بأنّه المكتبة (لايبراري) الّتي انتصبت على السّطح في مكان ما فوق بوليس.

بعد أن نفدت أسئلة مضيفه، جاء دور أرتيوم:

لماذا يضع النّاس وشومًا على رؤوسهم؟

ماذا؟ ألا تعرف أيّ شيء عن الطبقات الاجتماعيّة (الطوائف)؟ قال دانيال مندهشا، ألم كذلك تسمع أبدًا بمجلس شورى بوليس؟

فتذكّر أرتيوم فجأة أنّ أحد ما (كلّا، كيف له أن ينسى؟ لقد كان العجوز ميخائيل بورفريفتش الّذي قتله الفاشيّون) أخبره أنّ السّلطة في بوليس قُسِمت بين الجنود والمكتبيين، لأنّ أبنية المكتبة وبعض المنظّمات الّتي تعود إلى الجيش، ظلّت قائمة على السّطح سابقًا.

سمعت به، أومأ: المحاربون والمكتبيّون. إذًا أنت مكتبيّ، أليس كذلك؟

رماه دانيال بنظرة مرتعبة شاحبة وبدأ يسعل. وبعد برهة هدأ وقال بهدوء:

ماذا تقصد بمكتبيّ؟ هل رأيت مكتبيًّا حيًّا لوقت طويل؟ أنا لا أنصح بذلك. المكتبيّون يجلسون فوق.. ألم تر تحصيناتنا بالأسفل هنا؟ لقد منعهم الله من النّزول، فلا تخلط أبدا هذه الأشياء. وأنا لست مكتبيًّا، أنا حارس ووصيّ. نحن نُدعى براهمة أيضًا.

ما نوع ذلك الاسم الغريب؟ سأله أرتيوم وهو يرفع حاجبيه.

كما ترى، لدينا شيء من نظام طائفيّ دينيّ هنا، كالّذي كان في الهند القديمة. الطّائفة الدّينية مثل الطّبقة الاجتماعيّة، ألم يشرح الحمر لك ذلك؟ لابأس... هناك فئة من القساوسة وحرّاس المعرفة، هؤلاء الّذين يجمعون الكتب ويعملون بها، شرح ذلك لأرتيوم الّذي تعجّب من تجنّبه المجهد لكلمة (مكتبيّ) وهناك طبقة من المحاربين، وهم الّذين يحمون ويدافعون كما في الهند تمامًا. حيث كان هناك طبقة تجّار وطبقة خدم، ولدينا كلّ ذلك أيضًا، ونستخدم أسماء هندوسيّة لهم بيننا. القسّيسون هم البراهمة، والجنود هم الكشاتريا، والتّجار فياشيا، والخدم شودرا. ويصبح النّاس أعضاء في طبقة ما مرّة وطوال حياتهم. وهناك طقوس خاصّة للمرور، وخصوصًا عند الكشاتريا (طبقة من الملوك والمحاربين) والبراهمة. في الهند، كانت مسألة قبليّة عائليّة، لكن عندنا هي شيء تختاره بنفسك حين تبلغ الثّامنة عشر من العمر. وهنا في بوروفتسكايا يوجد براهمة أكثر، وفي الواقع كلّ واحد هنا برهميّ تقريبًا. مدرستنا هنا ومكاتبنا وخلايانا. كما أنّ هناك شروط خاصّة في المكتبة، لأنّ الخطّ الأحمر يتقاطع هناك، ويجب أن تحمى، وكان الكثير منّا هناك قبل الحرب. الآن انتقلوا إلى الكساندروفسكي ساد، وفي الوقت الحالي كلّ النّاس كاشتريا في ارباتسكايا بسبب هيئة الأركان.

تنهّد أرتيوم بصوت مسموع بعد أن سمع كلمة هنديّة قديمة أخرى. فمن غير المحتمل أن يتذكّر كلّ هذه الأسماء الصّعبة فورًا. لكنّ دانيال لم يهتمّ بهذا واستمرّ في سرده:

من الواضح، أنّ المجلس لم تدخله إلّا فئتين، فئتنا وفئة الكشاتريا، لكنّنا نسمّيهم كأمر بديهيّ (كلاب الحرب) قالها لأرتيوم وغمزه.

إذا لماذا يضعون وشم طيور برأسين على أنفسهم؟ سأله أرتيوم: أنت تضع وشم الكتب على الأقلّ وهذا مفهوم. لكن طيور، ما معنى ذلك؟

ذلك هو طوطمهم، قال البراهم دانيال وهزّ كتفيه غير مبال. أعتقد أنّه كان روحهم الحارسة من قوّات الدّفاع الإشعاعيّة سابقًا، نسر كما أعتقد. بالنّهاية هم يؤمنون بشيء غريب خاصّ بهم، وعمومًا الفئات هنا لا تتعايش بشكل جيّد، بل إنّها كانت تُعادي بعضها البعض في وقت ما.

من خلال السّتائر شاهدا أنّ أضواء المحطّة خفتت. لقد حلّ اللّيل بالتّوقيت المحليّ. وبدأ أرتيوم يجمع أشياءه.

هل يوجد فندق هنا أمضي فيه اللّيلة؟ لديّ لقاء غدًا في السّاعة التّاسعة في أرباتسكايا، وليس لديّ مكان أقيم فيه.

يمكنك البقاء هنا إن أحببت، قال دانيال وهو يهزّ كتفيه: أنا سأنام على الأرض، أنا معتاد على ذلك. وكنت على وشك أن أعدّ العشاء. ابق وأخبرني ماذا رأيت أيضًا على طول الطّريق، فأنا كما تعرف لم أغادر هذا المكان أبدا. فالحرّاس (الأوصياء) يأخذون عهدًا على أنفسهم بعدم السّفر إلى أبعد من محطّة واحدة.

بعد أن فكّر في الأمر أومأ أرتيوم برأسه موافقًا. كان الجوّ مريحًا ودافئًا في الغرفة، فشعر أرتيوم بودٍّ نحو مُضيفه منذ البداية. شيء مشترك كان يجمعهما. وفي غضون خمسة عشر دقيقة، كان أرتيوم ينظّف الفطر، ودانيال يقطّع لحم خنزير مملّح إلى شرائح.

هل رأيت المكتبة (ذا لايبراري) بعينيك في حياتك؟ سأل أرتيوم واللّقمة في فمه. كانا يأكلان لحم خنزير مطبوخ مع الفطر في أطباق من الألمنيوم.

هل تقصد المكتبة الكبرى؟ سأله البرهم بصرامة.

أقصد المكتبة الّتي في الأعلى، لاتزال هناك، أليس كذلك؟ قال أرتيوم وهو يشير بشوكته إلى السّقف.

كبارنا فقط هم الّذين يصعدون ويدخلون إلى المكتبة الكبرى، والمطاردون أيضًا الّذين يعملون لدى البراهمة، ردّ دانيال.

إذًا هم الّذين يجلبون الكتب من فوق إلى هنا؟ أقصد من المكتبة الكبرى، قال أرتيوم بعد أن أسرع وصحّح لنفسه حين عبس مضيفه مرّة أخرى.

هم يفعلون ذلك، ولكن بأوامر من فئة الكبار (الرّتب العليا). وليس من ضمن سلطتنا أن نفعل هذا من تلقاء أنفسنا، لهذا نضطرّ إلى استخدام المرتزقة، شرح البرهمي متذمّرًا. وفقًا لما جاء في العهد الجديد، يجب علينا أن نفعل ذلك، ونحافظ على المعرفة ونمنحها لمن يسعى إليها. ولكن لكي تمنح المعرفة يجب أن تحصل عليها أوّلًا. ولكن، من منّا يتجرّأ ويذهب إلى هناك؟ قال وهو يرفع عينيه للأعلى بحسرة.

بسبب الإشعاع؟ سأله أرتيوم وهو شبه متأكد.

قد يكون سببًا، ولكنّ السّبب الرّئيسيّ هم المكتبيّون، قال دانيال بصوت منخفض.

ولكن، ألستم أنتم المكتبيّون؟ أو على الأقلّ أحفاد المكتبيّين؟ هذا ما سمعته.

أتعرف؟ دعنا لا نتحدّث بهذا على الطاولة. وبصراحة، دع شخصًا آخر يشرح ذلك لك، فأنا لا أحبّ الحديث عن هذا الموضوع في الحقيقة.

بدأ دانيال بإخلاء الطّاولة من الطّعام. ثمّ فكّر لحظة ونقل بعض الكتب من الرّف إلى الجانب، وكشف عن فجوة بين المجلّدات الموجودة في الصفّ الخلفيّ، فومضت فيها قارورة مدوّرة البطن من الشّراب المسكر، وكان هناك أقداح وسط الصّحون والأكواب الّتي على الطّاولة.

بعد بعض من الوقت، قرّر أرتيوم الّذي كان يتفحّص الرّفوف بسرور، أن يكسر الصّمت، فقال:

واو، لديك الكثير من الكتب فعلًا. هناك في محطّتنا في فدنكه لا أعتقد أنّه بإمكانك أن تجمع الكثير من الكتب في كلّ المكتبة. لقد أتممت قراءتها كلّها منذ زمن قديم، ومن النّادر أن يأتي شيء جيّد. لكنّ زوج أمّي يجلب أيّ شيء يستحقّ القراءة، أمّا التّجّار المتجوّلون فلا يجلبون إلّا هراء مشتّت في حقائبهم من كلّ أنواع القصص البوليسيّة، الّتي تمضي نصف الوقت في قراءتها وأنت لا تعرف ماذا يحدث فيها. وهذا سبب آخر يجعلني أحلم بدخول بوليس، بسبب المكتبة الكبرى. لا أستطيع أن أتخيّل كم هي كثيرة لكي يبنوا لها هذا البناء الضّخم ويحفظوها فيه، وأشار نحو الرّسم الّذي فوق الطّاولة.

كانت عيونهما تومضان مسبقًا. استند دانيال الّذي أطربته كلمات أرتيوم المداهنة، على الطّاولة وقال في جاذبيّة عظيمة: إنّها لا تعني شيئًا، كلّ هذه الكتب والمكتبة الكبرى، لم تُشيّد من أجلها ولسيت الكتب هي الّتي خُزّنت هناك.

نظر إليه أرتيوم بدهشة.

فتح البرهم فمه ليكمل، لكنّه نهض عن كرسيّه فجأة وذهب إلى الباب، فتحه وأنصت، ثمّ أغلق الباب بسرعة وجلس وهمس ببقيّة ما أراد أن يقوله:

لقد بُنيت المكتبة الكبرى من أجل كتاب واحد وحيد، وقد أُخفي هذا الكتاب هناك، واحتاجوا إلى البقيّة لإخفائه. في الحقيقة هو ذاك الكتاب الّذي يسعون وراءه، وهو الّذي تجري حراسته، أضاف وتضايق.

أيّ نوع من الكتب هو؟ سأله أرتيوم وهو يخفض صوته.

ملفّ قديم جدًّا. كتاب من صفحات سوداء كالفحم، سُجّل عليه التّاريخ كلّه بأحرف من ذهب.. إلى النّهاية.

إذًا لهذا يبحث عنّه النّاس، أليس كذلك؟ همس أرتيوم.

هل أنت حقًّا، لا تفهم؟ قال البرهم وهو يهزّ رأسه: إلى النّهاية، تعني إلى النّهاية المطلقة. وما يزال هناك طريق ما نقطعه قبل ذلك الأوان، لهذا أيّا يكن من يمتلك هذه المعرفة...

ومض ظل شفاف خلف السّتائر، لاحظه أرتيوم الذي كان ينظر في عين دانيال، فأعطاه إشارة. قفز دانيال من مقعده قاطعًا حكايته في نصفها، واندفع إلى الباب. ركض أرتيوم بعده. ولم يكن أحد على المنصّة، لكن سمع وقع خطى تتراجع من جهة الممرّ. كان الخفراء نائمين بسلام على المقاعد على كلا جانبيّ السّلّم.

وحين عادا إلى الغرفة انتظر أرتيوم من البرهم أن يكمل قصّته، لكنّ الأخير تجهّم وهزّ رأسه باكتئاب.

ممنوع ومحرّم علينا أن نروي هذا، قال بصوت حادّ: ذلك الجزء من العهد الجديد للمبتدئين فقط. لقد أطلق الكحول لساني. ثم قال أيضًا وهو يرتعش بشكل متقطّع: ويجب ألّا تخبر أحدا بما سمعته. فإن أفشيت ما تعرفه عن الكتاب لأيّ أحد، ستسبّب لنفسك مشاكل لا نهاية لها.

وفهم أرتيوم فجأة لماذا بدأت راحتا يديه تتعرّقان حين أخبره البرهميّ عن الكتاب... لقد تذكّر...

لكن، أليس هناك الكثير من هذه الكتب؟ سأل وكاد قلبه أن يتوقّف.

نظر دانيال في عينه بحذر وقال: ماذا تقصد؟

اخشوا الحقائق المخبّأة في الملفّات القديمة.. فيها كتبت الكلمات بأحرف من ذهب وعلى ورق أسود ثعبانيّ لا يفسد. تلا ذلك، بينما لاح وجه بوربون الّذي خلا من أيّ تعبير، في سديم ضبابيّ أمام عينيه، وهو يتلفّظ بشكل آليّ بكلمات غريبة مبهمة وغير مفهومة.

حدّق البرهميّ به طويلًا في ذهول.

كيف تعرف ذلك؟

إيحاء. ليس هناك كتاب واحد فقط. ماذا في الكتب الأخرى؟ سأل أرتيوم وهو ينظر إلى رسم المكتبة كما لو أنّه تحت تأثير سحر.

لم يبق سوى واحد. كان هناك ثلاثة ملفّات (فوليو)، قال دانيال مستسلمًا أخيرًا: الماضي والحاضر والمستقبل، اختفى الماضي والحاضر نهائيًّا منذ قرون، ولم يبق سوى الأخير والأهمّ.

وأين هو؟

لقد ضاع في مكان ما في المحفوظات المكدّسة الرّئيسيّة. هناك كثر من أربعين مليون مجلّد. وهو واحد منها،كتاب عاديّ تمامًا في كلّ المظاهر، وفي تجليد عاديّ وقياسيّ. ولكي تتعرّف عليه وتجده، عليك أن تفتح الكتاب وتتصفحه. إنّ صفحات الفوليو سوداء فعلًا وفقًا للأسطورة، ولكن يجب أن تُمضي سبعين سنة من حياتك دون نومٍ أو راحة، لكي تتصفّح كلّ الكتب في سجلّ المحفوظات المكدّسة الرّئيسيّة. وقبل كلّ شيء لا يستطيع أيّ أحد البقاء لأكثر من يوم واحد هناك، وثانيًا لن يدعك أحد تقف بهدوء وتتصفّح كلّ الكتب المخزّنة هناك.

وضع بعض البطانيّات ولوازم النّوم على الأرض، وأشعل شمعة على الطاولة، وأطفأ النّور.

استلقى أرتيوم مكرهًا، فهو لم يرغب في النّوم أبدًا لسبب ما، علمًا أنّه لا يتذكّر آخر مرّة حصل فيها على بعض الرّاحة.

أتساءل، هل تستطيع أن ترى الكرملين حين تصعد إلى المكتبة؟ سأل الفراغ لأنّ دانيال بدأ في النّوم.

طبعًا تستطيع رؤيته، لكنّك لا تستطيع أن تنظر إليه لأنّه سيجذبك إلى الدّاخل.. تمتم.

ماذا تقصد بأنّه سيجذبك إلى الدّاخل؟

رفع دانيال نفسه على كوعيه، وانعقد وجهه الّذي أُنير ببقعة ضوء صفراء، بالاستياء.

يقول المطاردون أنّك لا تستطيع النّظر إلى الكرملين حين تذهب إلى الخارج، خصوصًا إلى النّجوم الّتي على الأبراج. فحالما تنظر إليها لن تستطيع إبعاد عينيك عنها. وإن تباطأت نظرتك برهة، يبدأ الكرملين في جرّك إلى الدّاخل. وهناك سبب لتكون كلّ البوّابات مفتوحة على مصاريعها. لذلك السّبب لم يصعد المطاردون أبدًا، ولن يدخلوا المكتبة الكبرى لوحدهم. وإن حدث ولمح أحدهم الكرملين، ينتزعه الآخر منها على الفور.

ماذا يوجد في داخل الكرملين؟ همس أرتيوم وهو يبلع ريقه بصعوبة.

لا أحد يعرف، إذ لم يدخله أحد وخرج منه ثانية أبدًا. على الرّفّ يوجد كتاب فيه تاريخ ممتع عن النّجوم والصّلبان المعقوفة، يشمل تلك الّتي على أبراج الكرملين أيضًا، إن أحببت. نهض والتمس الكتاب من الرفّ وفتحه على الصّفحة الصّحيحة، وعاد إلى بطانيّته.

نام دانيل في غضون دقيقتين، لكنّ أرتيوم نقل الشّمعة إلى مكان أقرب وبدأ يقرأ.

.... لكونهم الأصغر والأقلّ تأثيرًا من المجموعات السّياسيّة الّتي قاتلت من أجل النّفوذ والسّلطة في روسيا بعد الثّورة الأولى، لم يعتبر البلاشفة منافسين خطرين من أيّ طرف من الأطراف المتناحرة، ولم يحظوا بأيّ دعم من طبقة الفلّاحين، واتّكلوا فقط على عدد صغير من الطّبقة العاملة وعناصر سلاح البحريّة. استطاع ف ا لينين الّذي درس السّيمياء واستحضار الأرواح في مدارس سويسرية سريّة، أن يجد حلفاء على الجانب الآخر من الحاجز بين العالمين. وفي هذه الفترة بالضّبط ظهرت النّجمة الخماسيّة لأوّل مرّة كرمز للشّيوعيين ضمن الجيش الأحمر.

فكما هو معروف، كانت النّجمة الخماسيّة هي المدخل المتاح الأوسع انتشارًا بين عالمين لللمبتدئين حديثًا، والّتي سمحت بدخول الشّياطين إلى واقعنا. بنفس الوقت، إذا استطاع مبتدع النّجمة الخماسيّة استخدامها بمهارة، يمكنه عندها أن يتحكّم بالشّياطين الّتي استدعاها إلى عالمنا. ويجب عليها أن تطيعه. ومن أجل تحكّم أفضل

بالمخلوق المستدعى، عادة يُرسم محيط حماية حول النّجمة الخماسيّة ليمنع الشيطان من الفرار من الحلقة (الرّينغ).

وليس معروفًا بالضّبط كيف استطاع قادة الحركة الشّيوعيّة إنجاز الشّيء الّذي سعى إليه أقوى سحرة السّحر الأسود في كلّ العصور.

لقد أسّسوا روابط وصلات مع أمراء الشّياطين الّذين يتمتّعون بطاعة الحشود من إخوتهم الأصغر والأقلّ شأنًا. إنّ الخبراء مقتنعين بأنّ الأمراء أنفسهم شعروا بالحرب الوشيكة وإراقة الدماء الأكثر رعبًا في تاريخ البشريّة، فاقتربوا أكثر إلى الحدود بين العالمين، واستدعوا هؤلاء الّذين يسمحون لهم بجمع غلّة من الأرواح البشريّة، ووعدوهم بالدّعم والحماية مقابل ذلك.

إن قصّة تمويل القيادة البلشفيّة من قبل المخابرات الألمانيّة صحيحة بالتّأكيد. ولكن من الغباء والسّطحيّة أن تصدّق أنّ الفضل الوحيد الّذي جعل كفّة لينين ورفاقه في السّلاح ترجح، يعود لشركائه الأجانب فقط.لقد كان لدى القائد الشّيوعيّ المستقبلي حماة، وكانوا أقوى وأكثر حكمة من ضبّاط المخابرات العسكريّة في ألمانيا القيصر.

وتفاصيل الاندماج مع قوى الظّلام طبعًا ليست متاحة للباحثين المعاصرين. لكنّ نتائجه واضحة، فبعد وقت قصير ظهرت النّجمة الخماسيّة على راياتهم، وعلى خوذات جنود الجيش الأحمر ودروع معدّاتهم العسكريّة الخفيفة. وكلّ جنديّ منهم فتح بوّابة إلى داخل عالمنا، لشيطان حامي يحرس من يرتدي النّجمة الخماسيّة من العنف الخارجي. تقبض الشّياطين الحامية مرتّباتها دمًا كالعادة، ففي القرن العشرين وحده تمّ التّضحية بثلاثين مليون ساكن من البلاد تقريبًا حسب أكثر التقديرات تحفّظًا.

والاندماج مع أرباب القوى المستدعاة برّر نفسه بسرعة، من خلال سيطرة البلاشفة وتوحّد سلطتهم. لكنّ لينين نفسه الّذي كان وسيطًا بين العالمين، لم يتحمّل، فمات بعد أربع وخمسين سنة من مولده، بعد أن أكلته نيران الجحيم. وتابع أتباعه عمله بلا تردّد، فتمّت شيطنة البلاد كلّها بعده بوقت قصير.

كان تلاميذ المدراس يثبّتون نجمتهم الخماسيّة الأولى على صدورهم بدبّوس. وكان القليل جدًّا من يعرف ذلك من البداية، أنّ طقس الانضمام إلى الأكتوبريّين الصّغار يشمل غرز دبّوس العصبة في جلد الطّفل، وبهذا يتذوّق شيطان نجمة الأوكتوبري الصّغير دم مضيفه المستقبليّ، ويدخل في اتّحاد مقدّس مع مضيفه إلى الأبد.

وبعد أن يكبر الطّفل ويصبح رائدًا، يتلقّى نجمة خماسيّة جديدة، ويتكشّف قسم من جوهر الاندماج للّذين يتعلّمون التبصّر، صورة مطبوعة بالذّهب للقائد يلفّه اللّهب ويختفي فيه. وهكذا كان الجيل النّاشيء يذكّر بالعمل البطوليّ المتمثّل في التّضحية بالذّات. بعد ذلك تأتي مرحلة الكمسمول، وأخيرًا يكون الطّريق مفتوحًا للمختارين منهم للدّخول في طبقة الكهنة أو الحزب الشّيوعيّ.

هناك أعداد لا تُحصى من الأرواح المستدعاة، تحمي كلّ واحد وكلّ شيء في الدّولة السّوفياتيّة، أطفال وبالغون، أبنية ومعدّات. بينما اتّخذ أرباب الشّياطين لأنفسهم من

النّجوم الياقوتيّة العملاقة على أبراج الكرملين مسكنًا لهم. ووافقوا على الحجز طوعيًّا من أجل قوّتهم المتزايدة، ومن هنا بالضّبط امتدّت خطوط القوّة غير المرئيّة في كلّ أرجاء البلاد، ومنعتها من التّشوّش التّام والانهيار، وأخضعت السّكان إلى إرادة من يحتلّون الكرملين. بمعنى آخر تحوّل كلّ الاتّحاد السّوفييتيّ إلى نجمة خماسيّة عملاقة، وأصبح محيطها المحميّ الّذي يطوّقها، حدوده القوميّة.

أبعد أرتيوم نفسه عن الصّفحة ونظر حوله. احترقت الشّمعة تمامًا، وبدأت تدخّن. كان دانيال نائمًا بعمق ووجهه بمواجهة الجدار. تمطّى أرتيوم ثمّ عاد إلى الكتاب.

أصبح الاختبار الأكبر للسّلطة السّوفيتيّة، هو الصّدام مع ألمانيا الاشتراكيّة القوميّة الّتي كانت محميّة بقوى لا تقلّ قِدمًا وقوّة عن الاتّحاد السّوفييتيّ. استطاع الألمان المغلّلون بالدّروع أن يتغلغلوا عميقًا في بلادنا للمرّة الثّانية في ألف سنة. وهذه المرّة كانت راياتهم منقوشة برمز مقلوب للشّمس والضّوء والازدهار. وإلى هذا اليوم وبعد خمسين سنة من الانتصار تستمرّ الدّبّابات الّتي على أبراجها النّجمة الخماسيّة في معركة دائمة، ضدّ الدّبّابات الّتي يحمل فولاذها الصّليب المعقوف، في المتاحف وشاشات التّلفزة وصفحات ورق الرّسم الممزّقة من الكتب المدرسيّة...

ومضت الشّمعة لآخر مرّة ثمّ انطفأت. حان وقت النّوم.

إن أدرت ظهرك للنّصب التّذكاري ترى قطاعًا صغيرًا من الجدار العالي، وصورة للأبراج ذات الرّؤوس المدبّبة في الفجوة بين البيوت نصف المدمّرة. ولكن كما شرح لأرتيوم من قبل.. لا يمكنك الاستدارة حولك والنّظر إليها. وكان ممنوعًا ترك الأبواب مع الدّرج بلا حراسة، وإن حدث شيء ما يجب قرع جرس الإنذار، وإن حدث واختلست النّظر طويلًا، فستهلك.

لهذا وقف أرتيوم ساكنًا على الرّغم من رغبته في الالتفات حوله، تلك الرّغبة كانت تأكله. وفي هذا الوقت تفحّص النّصب التّذكاري الّذي تغطّت قاعدته بالطّحلب الكثيف. يصوّر النّصب رجلًا عجوزًا كئيبًا، يجلس في كرسيّ فسيح ذي مسندين، ويستند على كوعه. وينقّط شيء ما ببطء وكثافة من بؤبؤي عينيه البرونزيّين المجدورين، على صدره، يعطي هذا الشيء انطباعًا بأنّ النّصب كان يبكي.

إنّ النّظر طويلًا إليه لا يطاق. لهذا دار حول التّمثال ونظر بحذر إلى الأبواب. كلّ شيء كان هادئًا وساكنًا، وهناك صمت مطبق وما من صوت سوى صوت الرّيح الخفيفة المتنقّلة بين جثث الأبنية المكوّمة فوق بعضها البعض. لقد رحلت الكتيبة منذ وقت طويل، ولكنّها لم تأخذ أرتيوم معها. فقد أمروه أن يبقى ويقف حارسًا، وإن حدث شيء ينزل إلى المحطّة وينذرهم بما حدث.

مرّ الوقت بطيئًا وهو يقيسه بالخطى الّتي كان يخطوها حول قاعدة التّمثال: واحد، اثنان، ثلاث...

وحين وصل إلى العدد خمسمائة، اندلعت قعقعة ودمدمة وراء ظهره حيث لم يكن بمقدوره النّظر. شيء ما كان قريبًا يمكنه أن يندفع نحو أرتيوم في أيّ لحظة. تجمّد

أرتيوم وأرهف السّمع، ثمّ سقط على الأرض وضغط نفسه على قاعدة التمثال وهو يمسك بسلاحه في استعداد.

الآن بات الشّيء قريبًا جدًّا منه على الطّرف الآخر من التّمثال كما يبدو. سمع أرتيوم تنفّسه الحيوانيّ الأجشّ بوضوح. فتحرّك حول طرف قاعدة التّمثال واقترب أكثر من الصّوت بالتّدريج. حاول أن يمنع يديه من الارتجاف، وأن يبقي عينيه على المكان الّذي سيظهر منه المخلوق.

بدأ التّنفّس وصوت الخطوات في التّراجع فجأة. ولكن، حين نظر أرتيوم من خلف التّمثال ليغتنم الفرصة ويطلق رصاصة في ظهر العدو المجهول، نسي فورًا عدوّه وأيّ شيء آخر.

لقد كانت نجمة الكرملين تُرى بوضوح من هنا. بقي البرج صورة ظليلة مبهمة في الضّوء القمريّ المقلقل الّذي غطّته الغيوم جزئيًّا، لكنّ النّجمة انتصبت متلألأة بوضوح في عنان السّماء، لافتة انتباه كلّ من ينظر إليها لسبب غير مفهوم تمامًا. أخرج أرتيوم منظاره الحربيّ غير مصدّق عينيه.

تحترق النّجمة بلون أحمر ساطع قويّ، وتنير عدّة أمتار من الفضاء حولها. وحين نظر أرتيوم عن قرب أكثر لاحظ أنّ نارها غير نظاميّة، كما لو أنّ عاصفة محبوسة داخل الياقوتة العملاقة تسطع في نوبات وتَثِب، كما لو أن شيئًا بداخلها يتدفّق ويضطرب ويتوهّج. كان المنظر جميلا إلى حدّ خياليّ وغير ممكن في هذا العالم، لكنّه لا يظهر بشكل جيّد من تلك المسافة. يجب أن يقترب أكثر.

تنكّب أرتيوم سلاحه ونزل الدّرج مسرعًا، قفز فوق الإسفلت المصدّع في الشّارع ولم يتوقّف إلّا في المكان الّذي استطاع أن يرى منه كلّ جدار الكرملين، والأبراج الّتي يشعّ من كلّ واحد منها، نجمة حمراء. التقط أنفاسه بالكاد ونظر عبر عدسة المنظار مرّة أخرى. رأى النّجوم وهي تتوهّج بنفس الوهج المضطرب غير النّظامي، وتمنّى أن ينظر إليها إلى الأبد.

ركّز أرتيوم نظره على أقربها إليه، وظلّ معجبًا بتدفّقها الخياليّ، حتّى بدا له أنّه يستطيع تمييز الشّكل مهما تحرّك في الدّاخل تحت السّطح البلّوري الشّفّاف.

عليه أن يقترب أكثر لكي يرى الشّكل الغريب بصورة أفضل. توقّف في وسط الفراغ المفتوح ناسيًا كلّ المخاطر، وأبقى منظاره ملتصقًا بعينيه، وحاول أن يفهم ما الّذي نجح في رؤيته.

أمراء الشّياطين.. تذكّر أخيرًا. ماريشالات جيش من الأرواح النّجسة الّتي اُستدعيت للدّفاع عن الدّولة السّوفيتيّة. البلاد وكل العالم أيضًا تدمّر وبات أشلاء، أمّا النّجمات الخماسيّة على أبراج الكرملين، بقيت ولم يمسّها شيء. والحكّام الّذين دخلوا في اتّفاق مع الشّياطين، ماتوا منذ زمن بعيد ولم يبق أحد كي يحرّرهم... لا أحد؟ ماذا عنه؟

انهض، يجب أن تذهب عاجلًا، هزّه دانيال.

تثاءب أرتيوم وفرك عينيه.. لقد حلم بشيء مشوّق وبشكل لايصدّق لكنّ الحلم خبا مباشرة، ولم يعد يتذكّر ما رآه.

لقد أُشعلت كلّ الأضواء في المحطّة مسبقًا، وسمع عاملات النّظافة اللّواتي كنّ يمسحن المنصّة ويمزحن بمرح.

لبس نظّارته السّوداء، ومشى بتثاقل ليغسل وجهه وقد رمى فوق كتفه منشفة ليست نظيفة جدًّا أعطاها له مضيفه. تقع الحمّامات بنفس الطّرف الّذي فيه اللّوحة البرونزيّة. وهناك اصطف أرتيوم خلف النّاس الّذين ينتظرون دورهم في صفّ طويل، بانتظار دوره هو أيضًا. واستمرّ في التّثاؤب وحاول أن يتذكّر بعضًا من الصّور الّتي رآها في حلمه على الأقلّ.

وفجأة توقّف الطّابور عن الحركة لسبب ما، وبدأ النّاس بالتّذمّر بصوت عال. نظر أرتيوم حوله محاولًا أن يفهم المشكلة. فشخصت كلّ العيون بباب حديديّ كان موصدًا والآن فُتِح ووقف رجل ضخم في إطاره، وعند رؤيته نسي أرتيوم سبب وقوفه هناك.

إنّه واحد من المطاردين.

لقد تخيّلهم بهذا الشّكل تمامًا، من خلال القصص الّتي رواها له زوج أمّه، والإشاعات الّتي جمعها من التّجار المتنقّلين. لبس المطارد بدلة حماية مبقّعة، حُرقت في بعض أماكنها، وصدرة مدرّعة ثقيلة طويلة. له كتفان عريضان، ويعلّق بندقيّة آليّة خفيفة على كتفه الأيمن دائمًا. ويومض حزام زيتيّ من الذّخيرة يتدلّى مثل حمّالة الكتف، من الكتف الأيسر. ويلبس جزمة قاسية برباط، مع ساقي سروال أُدخلا في الصّدرة. وعلى ظهره حقيبة ظهر قماشيّة واسعة.

نزع المطارد خوذة القوّات الخاصّة المدوّرة عن رأسه، وقطعة الوجه المطّاطيّة لقناعه الغازيّ، ووقف هناك محمرًّا ومبلّلًا، وتحدّث مع آمر الموقع عن شيء ما. لم يعد صغيرًا في العمر، فقد رأى أرتيوم شعرًا رماديًّا قصيرًا على وجنتيه وذقنه، وجدائل فضيّة في شعره الأسود القصير. ومع ذلك، كان الرّجل يشعُّ بالقوّة والثّقة، وكان في ثقة تامّة ورباطة جأش، ومستعدًّا لمواجهة الخطر في أيّ لحظة، ولا يسمح له أن يباغته حتّى في مكان

هادىء ومبهج كالمحطّة.

استمرّ أرتيوم بتفحّص الوافد بطريقة تخلو من الكياسة. وحاول النّاس خلفه في أوّل الطّابور أن يحثّوه على التّقدّم إلى الأمام، ثمّ بدأوا يتجاوزونه.

أرتيوم، ما هذا التّأخير؟ سوف تتأخّر إن لم تنتبه، أتى دانيال إليه.

وعند سماع اسمه التفت المطارد إلى أرتيوم، ونظر إليه بتمعّن.. وفجأة خطا خطوة كبيرة نحوه.

هل أنت من فدنكه؟ سأله بصوت طنّان عميق.

أومأ أرتيوم برأسه بصمت، وشعر برجفة في ركبتيه.

هل أنت الشّخص الّذي يبحث عن ميلنك؟ استمرّ المطارد.

أومأ أرتيوم برأسه مرّة أخرى.

أنا ميلنك، هل لديك شيء لي؟ نظر المطارد بعين أرتيوم.

تلمّس أرتيوم بسرعة، باحثًا عن الحبل الّذي حول عنقه مع الغمد الأسطوانيّ. هذا الحبل الّذي لم يفارقه أبدًا كما لو كان تميمة، وناوله للمطارد.

نزع المطارد قفّازيه الجلديّين وفتح الغطاء، وأخرج شيئًا من كبسولة بحذر في راحة يده. كان قصاصة صغيرة من الورق، مذكّرة.

تعال معي، لم أستطع أن أراك في الأمس. أنا آسف، لقد جاءت المكالمة عندما كنّا في طريقنا إلى السّطح.

بعد أن ودّع دانيال وشكره بسرعة، أسرع أرتيوم وراء ميلنك إلى السّلالم الّتي تؤدّي إلى الممرّ إلى أرباتسكايا.

هل هناك أيّة أخبار من هنتر؟ سأل بارتباك، وبالكاد كان يجاري خطوات المطارد الطّويلة.

لم أسمع شيئًا منه. وأخشى أنّ عليك أن تسأل الدّارك ونز عنه الآن، قالها ميلنك وهو ينظر بقلق إلى أرتيوم. ومن جانب آخر، يمكنك القول بأنّ هناك الكثير من الأخبار من فدنكه.

شعر أرتيوم أنّ قلبه بدأ يدقّ بقوّة أكبر.

أيّة أخبار؟ سأله محاولًا أن يكتم قلقه.

ليست جيّدة كثيرًا، قال المطارد بجفاف: لقد تابع الدّارك ونز الهجوم مرّة أخرى. وجرت معركة ضخمة منذ أسبوع، قُتل فيها خمسة أشخاص. ويبدو أنّ هناك عدد آخر من الدّارك ونز بالإضافة للموجودين الآن. بدأ النّاس يفرّون من محطّتكم، فهم لا يستطيعون مواجهة الرّعب كما يقولون. وهنتر كان محقًّا حين أخبرني أنّ شيئًا خبيثًا يختبىء هناك، لقد شعر به.

من مات؟ هل تعرف؟ سأله أرتيوم وهو يحاول أن يتذكّر من يُفترَض أن يكون في الخدمة في ذلك اليوم، قبل أسبوع؟ وأيّ يوم من أيّام الأسبوع؟ هل كان جينكا؟ أندريه؟ أرجوا ألّا يكون جينكا.

لا أعرف، هناك نوع من عمل شيطانيّ يخرج من الأنفاق قرب بروسبيكت مير، والكثير ممّن لم يموتوا شقّوا طريقهم إلى هناك. لقد فقد النّاس ذاكرتهم، ومات الكثير منهم في المسارات.

ما الّذي يمكن فعله؟

هناك اجتماع للمجلس اليوم، وسيدلي كبار البراهمة والجنرالات برأيهم. لكنّي أشك في أنّهم سيقدرون على مساعدة محطّتكم بأيّ شيء، فهم بالكاد يدافعون عن بوليس نفسها، ولهذا لن يجرؤ أحد على أن يقوم بأيّ محاولة جادّة.

خرجا إلى محطّة أرباتسكايا. مصابيح زئبقيّة تحترق هناك أيضًا، وكما الحال في بوروفتسكايا كان موقع الأحياء السكنيّة في القناطر المعمّرة بالقرميد. وقف الحرّاس بجانب الكثير منها، وعلى العموم يوجد عدد كبير وغير معتاد من الجنود هنا. عُلّقت رايات عسكريّة استعراضيّة رُسِم عليها نسور ذهبيّة مزخرفة، في أماكن من الجدران المطليّة بلون أبيض، و لم تتأثّر هذه الرّايات بمرور الوقت كما يبدو. هناك نشاط في المكان، حيث كان البراهمة في ثيابهم الطّويلة يتمشّون، والنّساء المخصّصات للتّنظيف يغسلن الأرض، ويوبّخن هؤلاء الّذين يحاولون المرور فوق الأرض المبلّلة. وهناك عدد مقبول من أهالي المحطّات الأخرى أيضًا، والّذين يمكن تمييزهم من النّظّارات السّوداء، أو لأنّهم يغطّون أعينهم بأيديهم. لا يوجد على المنصّة سوى الأحياء السّكنيّة والإداريّة فقط، أمّا صفوف حوانيت التّسوّق والطّعام فقد نُقِلت إلى الممرّات.

قاد ميلنك أرتيوم إلى نهاية المنصّة حيث يبدأ المكتب، وأجلسه على منضدة مرمريّة مخطّطة بالخشب الّذي انصقل بتماسه مع آلاف المسافرين. وطلب منه أن ينتظر، ثمّ غادر.

فكّر أرتيوم وهو ينظر إلى الزّخرفة الفنيّة المعقّدة على الجصّ تحت السّقف، كيف عاشت بوليس لترقى إلى مستوى توقعّاته. الحياة هنا في الحقيقة مرتّبة بطريقة مختلفة تمامًا، فلم يكن النّاس مثل السّفّاحين ساخطين أو مضطهدين كما في المحطّات الأخرى. المعرفة والكتب والثقافة تلعب دورًا أساسيًّا شاملًا كما يبدو. لقد مرّوا بخمسة أكشاك للكتب على الأقّل، في الممرّ بين بوروفتسكايا وأرباتسكايا. هناك إعلانات أُلصقت لتعلن عن عرض مسرحيّة لشكسبير ليلة الغد، وكما في بوروفتسكايا تمامًا، سمع عزفًا موسيقيًّا في مكان ما. الممرّ وكلا المحطّتين في حالة ممتازة، رغم اللّطخ وبقع النّزّ الّتي كانت واضحة على الجدران، إلّا أنّ كلّ الأضرار كانت تُرمّم مباشرة من قبل فرق التّرميم. نظر أرتيوم إلى أسفل النّفق بدافع من الفضول، فرأى كلّ شيء في أفضل ترتيب، النّفق جافّ ونظيف، ومصباح كهربائيّ مشتعل، على فواصل في كلّ مئة متر على مدى النّظر. ومن حين لآخر تمرّ عربات يدويّة محمّلة بصناديق، تقف لينزل منها مسافر عرضيّ، أو لتأخذ صندوقًا من الكتب، ترسله بوليس إلى كلّ المترو.

قال أرتيوم لنفسه وقد تذكّر ليلة من ليالي الحراسة، حين كان عليه أن يصدّ هجوم الدّارك ونز، وتذكّر كذلك كلّ الكوابيس الّتي عذّبته بعد القتال، فقال: كلّ هذه القوّة قد تنتهي قريبًا. وفكّر فجأة: فدنكه لم تعد تستطيع مواجهة الضّغط من هؤلاء المسوخ... ولا عجب في ذلك.

هل صحيح أنّ فدنكه كانت تسقط؟ هذا يعني أنّه أصبح بلا وطن. وتساءل إن كان أصدقاؤه وزوج أمّه قد نجحوا في الفرار. وإن تمكّنوا من ذلك فستكون هناك فرصة

للقاء بهم يومًا في المترو. ثمّ تساءل: إن أخبره ميلنك أنّ مهمّته انتهت، وليس بمقدوره أن يفعل شيئًا آخر، هل يعود إلى البيت كما وعد نفسه؟ إن قُدِّر لمحطّته أن تقوم بدور قوّة تغطية وحيدة في طريق الدّارك ونز، وإن كان أصدقاؤه وأقرباؤه قد سُجِّلوا في قوائم الموتى، وهم يدافعون عن المحطّة، فإنّه يفضّل أن يكون معهم على أن يلجأ في هذا الفردوس. وفجأة.. انتابه الدّافع للعودة إلى البيت، ورأى صفّ خيام الجيش ومصنع الشّاي، ورأى نفسه يقضم الزّبدة مع جينكا، ويحكي له عن مغامراته، ومن المؤكّد أنّ جينكا لن يصدّق نصف ذلك لو ظلّ حيًّا.

تعال يا أرتيوم، نادى ميلنك: يريدون التّحدّث معك.

تخلّص ميلنك من بدلة الحماية، وكان يرتدي كنزة بياقة ضيّقة وقبّعة طولانيّة كحليّة غامقة بلا إشارة، وسروال له جيوب مثل لباس هنتر. ذكّره المطارد بهنتر، ليس بمظهره طبعًا وإنّما بسلوكه. فهو مثله رابط الجأش ومرن ويتكلّم بنفس الطّريقة، ويستخدم جملًا قصيرة شديدة الإيجاز.

الجدران في المكاتب مكسوّة بخشب السّنديان المبقّع، وبلوحتين زّيتيّتين كبيرتين معلّقتين هناك مقابل بعضهما البعض. تعرّف أرتيوم بسهولة على المكتبة في إحدى اللّوحتين، بينما صوّرت الأخرى بناء شاهقًا مغطّى بحجارة بيضاء. وكُتِب على اللّصاقة الّتي تحتها: هيئة الأركان العامّة، وزارة الدّفاع لروسيا الاتّحاديّة.

وُضِعت طاولة خشبيّة كبيرة في وسط الغرفة الفسيحة. وجلس عشرة رجال حول الطّاولة يتفحّصون أرتيوم. ارتدى نصفهم ثيابًا رماديّة برهميّة، والنّصف الآخر في زيّ ضبّاط عسكريّين. ومن الواضح أنّ الضّبّاط جلسوا تحت اللّوحة الّتي تصوّر هيئة الأركان، بينما جلس البراهمة تحت اللّوحة الّتي تصوّر المكتبة.

وعلى رأس الطّاولة، جلس شخص قصير القامة لكنّه بهيئة قياديّة جلس، ارتدى نظّارة كالحة، ولديه بقعة صلع كبيرة. كان يلبس بزّة رسميّة مع ربطة عنق، لكنّه بلا وشم يُعيِّن أو يحدّد عضويّته في أيّ طائفة.

إلى العمل، بدأ دون أن يقدّم نفسه: أخبرنا بكلّ شيء تعرفه، بما في ذلك الوضع في الأنفاق من محطّتكم إلى بروسبيكت مير.

بدأ أرتيوم يصف بالتّفصيل تاريخ معركة فدنكه ضدّ الدّارك ونز، ثم تحدّث عن مهمّة هنتر، وأخيرًا عن رحلته المحفوفة بالمخاطر إلى بوليس. وحين روى الأحداث في الأنفاق بين اليكسييفسكايا وريجسكايا وبروسبكت مير، بدأ الجنود والبراهمة يتهامسون فيما بينهم، بعضهم في شكّ وبعضهم الآخر في نشاط. بينما جلس ضابط في الزّاوية، وسجّل بعناية السّرد القصصيّ وسأله أنّ يكرّر ما كان يقوله أحيانًا.

وحين توقّفت المناقشات أخيرا، سُمِح لأرتيوم بإكمال قصّته، لكنّ سرده أحدث اهتمامًا قليلًا لدى مستمعيه، حتّى وصل إلى بوليانكا وسكّانها.

لو سمحت، قاطعه أحد الضّبّاط بحذر. وكان في الخمسين من عمره تقريبًا وبنيته مكتنزة وشعره أسود أملس، يضع نظّارة ذات إطار معدنيّ حفرت في جسر أنفه

اللاحم: من المعروف بما لا يقبل الشك أنّ بوليانكا غير مسكونة. لقد هُجِرت المحطّة منذ زمن بعيد، صحيح أنّ عشرات النّاس يمرّون عبر المحطّة يوميًّا، لكن لا أحد يستطيع العيش هناك. حيث يثور الغاز هناك من حين لآخر، وتوجد علامات إنذار بالخطر في كلّ مكان. وحتى القطط والنّفاية هلكت منذ زمن بعيد أيضًا. المنصّة فارغة تمامًا.. تمامًا. فكفّ عن تلميحاتك.

نكّس الضّابط الآخر رأسه موافقًا، فصمت أرتيوم وارتبك. وحين توقّف عند بوليانكا، دخلت الفكرة رأسه للحظة، وهي أنّ الأحوال السّاكنة والهادئة الّتي سادت في المحطّة، كانت غير حقيقيّة بالنّسبة للمترو، لكنّ تفكيره تشتّت بالسّكّان الّذين كانوا أكثر من حقيقيّين.

أمّا البراهمة، فلم يؤيّدوا الهيجان الغاضب. كان أكبرهم رجل أصلع مع لحية رماديّة طويلة، نظر إلى أرتيوم باهتمام وتبادل بعض كلمات مع الجالسين بقربه في لغة غامضة.

هذا الغاز، كما تعرف، له خواص مهلوسة حين يمتزج بنسب محدّدة بالهواء، قال البرهمي الجالس على يمين الرّجل العجوز في طريقة استرضائيّة.

القصد هو: هل نستطيع تصديق أيّا ممّا تبقّى من قصّته؟ ردّ الضّابط وعبس بوجه أرتيوم.

شكرًا لك من أجل تقريرك، قال الرّجل ذو البذلة الرّسميّة مقاطعًا النّقاش. سيناقشه المجلس ويخبرك بالنّتيجة. يمكنك الذّهاب.

بدأ أرتيوم يشقّ طريقه نحو المخرج. هل كانت كلّ محادثته مع الرّجلين اللّذين كانا يدخّنان النّارجيلة من سكّان بوليانكا، مجرّد هلوسة؟ لكن هذا يعني عندئذ أنّ فكرة اختياره وأنّه قادر على أن يحني الواقع والحقيقة لينجز قدره،كانت مجرّد نتاج خياله ومحاولة لمواساة الذّات. والآن حتّى التّلاقي الغامض في النّفق بين بوروفتسكايا وبوليانكا، لم يعد معجزة بالنّسبة له. الغاز؟ الغاز.

جلس على المنضدة بجانب الباب، ولم ينتبه إلى الأصوات البعيدة لأعضاء المجلس المتجادلين حتّى. مرّ النّاس من أمامه وعربات اليد وعربات سكّة الحديد ذات المحرّك انطلقت عبر المحطّة، ومرّت الدّقائق بينما كان جالسًا ويفكّر. هل هو مكلّف بمهمّة فعلًا أم أنّه لفّق كلّ شيء؟ ماذا سيفعل الآن؟ أين سيذهب؟

نقره شخص ما على كتفه بإصبعه. وكان الضّابط الّذي دوّن الملاحظات أثناء سرده لقصّته.

صرّح أعضاء المجلس أنّ بوليس لا تستطيع مساعدة محطّتكم بأيّ شكل. هم ممتنّون لتقريرك المفصّل عن الوضع في شبكة قطار الأنفاق. وأنت الآن حرّ في الذّهاب.

هكذا إذًا، بوليس لا تستطيع المساعدة بأيّ شيء. كلّ هذا من أجل لا شيء. لقد عمل كلّ ما بوسعه لكنّه لم يغيّر شيئا. وكلّ مابقي له أن يعود إلى فدنكه، ويقف كتفًا إلى

كتف مع المدافعين المتبقين. رفع أرتيوم نفسه عن المنضدة، وانصرف ببطء دون أن تكون في ذهنه أيّ وجهة.

وحين وصل إلى الممرّ المؤدّي إلى بوروفتسكايا تقريبًا، سمع سعلة خفيفة خلفه. التفت أرتيوم فرأى البرهميّ الّذي كان في المجلس، نفس الرّجل الّذي جلس على يمين الرّجل العجوز.

انتظر دقيقة أيّها الشّابّ. أنا أصدّقك وأحتاج أن أناقشك بشيء، وبصورة شخصيّة. أضاف البرهميّ وهو يبتسم بأدب: إن لم يكن المجلس في وضع يمكنه فيه فعل أيّ شيء لكم، فربّما يكون بمقدور خادمكم المطيع تقديم الكثير من العون.

أخذ أرتيوم من كوعه، وقاده بعيدًا إلى المساكن القرميديّة في القناطر. لم يكن فيه نوافذ ولا أضواء كهربائيّة. فقط لهب شمعة صغيرة أضاءت وجوه عدد من الأشخاص تجمّعوا في الغرفة. لم يتمكن أرتيوم من النّظر إليهم جيًّدا، لأنّ البرهميّ جلبه بسرعة، وأطفأ اللّهب، فغرقت الغرفة في الظّلام.

هل القصّة بخصوص بوليانكا صحيحة؟ سأله صوت غامض.

نعم، أجاب أرتيوم بثبات.

هل تعرف ماذا نسمّي نحن البرهميّون بوليانكا؟ محطّة القدر. دع طائفة الكشاتريا (ملكيّ محاربة) تعتقد أنّ الغاز هو الّذي سبّب السّحر الكئيب، نحن لن نعترض. ونحن لن نحيّي منظر عدوّنا الأحدث. نحن نؤمن أنّ النّاس يلاقون رسل العناية الإلهيّة في هذه المحطّة. وليس لدى العناية الإلهيّة شيئًا لتقوله إلى غالبيّتهم. لهذا هم يمرّون عبر محطّة فارغة مهجورة، لكنّ هؤلاء الّذين قابلوا أحدا ما في بوليانكا، يجب أن يكون لهم الموقف الأكثر اهتماما بهكذا لقاء، وأن يتذكّروا ما قيل لهم هناك طوال ما تبقّى من حياتهم. هل تتذكّر؟

لقد نسيت، كذب أرتيوم، فهو غير واثق بهؤلاء النّاس، وخاصّة الّذين ذكّروه بأعضاء طائفة.

كبارنا مقتنعون أنّك لم تأت إلى هنا بالصّدفة. أنت لست شخصًا عاديًّا، وقدراتك الاستثنائيّة الّتي أنقذتك مرّات كثيرة على طول الطّريق أيضًا. مقابل ذلك نحن سنمدّ يد العون لك ولمحطّتكم. نحن حرّاس المعرفة وأوصياؤها، المعرفة الّتي تشمل معلومات يمكنها أن تنقذ فدنكه.

ماذا ستفعل فدنكه بأيّ شيء؟ انفجر ارتيوم: كلّكم تتحدّثون عن فدنكه فقط، وكأنّكم لا تدركون أنّني أتيت إلى هنا ليس من أجل محطّتي فقط، وليس بسبب سوء حظّي. كلّكم، كلّكم في خطر، ستسقط أوّلًا فدنكه، ومن بعدها سينتهي المترو برمّته...

لم يكن هناك أيّ رد. بل ازداد عمق الصّمت، ولم يسمع سوى وقع تنفّس الحاضرين. انتظر أرتيوم فترة أطول بقليل، ثمّ سأل لأنّه لم يستطع البقاء صامتًا:

ماذا يجب أن أفعل؟

اصعد إلى داخل كومة سجلات المحفوظات الكبرى. وحاول أن تجد ذلك الذي هو لنا بالحقّ، وأعده لنا هنا. وإن استطعت أن تجد ما نبحث عنه، سنعطيك المعرفة الّتي ستساعد على تدمير التّهديد. ولتحترق المكتبة الكبرى إن كنت أكذب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثّالث عشر: المكتبة الكبرى

ذهب أرتيوم إلى داخل المحطّة وهو ينظر يمينًا ويسارًا بنظرة مجنونة في عينيه. لقد دخل في واحدة من أقوى الاتّفاقيّات في حياته. ورفض من كلّفوه بالعمل أن يشرحوا له ما هو الشّيء الّذي يُفترض به أن يجده في سجلّ المحفوظات المكدّسة. ووعدوه بتزويده بالتّفاصيل لاحقًا بعد أن يصعد إلى السّطح. لقد خطر بباله للحظة أنّهم كانوا يتكلّمون عن الكتاب الّذي أخبره عنه دانيال، لكنّه لم يجرؤ أن يسأل البراهمة عنه. ثمّ إنّ كلاهما تناول الكثير من الشّراب المسكر في اللّيلة السّابقة، عندما أخبره مضيفه دانيال هذا السّرّ، لهذا لم يكن هناك مبرّر للشّكّ في حقيقته.

لن يذهب إلى السّطح لوحده. فالبراهمة خطّطوا أن يجهّزوا مفرزة كاملة. وسيذهب أرتيوم مع مطاردين اثنين على الأقلّ، وشخص من الطّائفة، وعلى أرتيوم أن يعطيه الشّيء الّذي سيجده فورًا، إن نجحت البعثة. وسوف يريه نفس الشّخص شيئًا يساعده على استئصال التّهديد المعلّق فوق فدنكه.

والآن، بعد أن خرجوا من عتمة الغرفة الشّديدة إلى الرّصيف، بدت شروط الاتّفاق سخيفة لأرتيوم. كما في حكايات الجنّ، كان مطلوبًا منه أن يذهب، لكنّه لا يعرف إلى أين، ليحضر شيئًا لا يعرف ما هو، ومقابل ذلك وُعِد بخلاص إعجازيّ لا يعرف عنه شيئًا. لكن ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟ هل يعود بأيدي خالية؟ هل ذلك هو ما توقّعه هنتر منه؟

حين سأل أرتيوم الغامضين الّذين كلّفوه بالعمل، كيف سيجد الشّيء الّذي كانوا يبحثون عنه في أكداس المكتبة العملاقة، أخبروه أنّه سيفهم كلّ شيء في الزّمان والمكان المناسبين. وعليه أن يسمع ولا يسأل أسئلة أخرى كيلا يفقد البراهمة ثقتهم بقدراته الاستثنائيّة الّتي هو نفسه لا يصدّقها. وأخيرًا حذّروه بصرامة ألّا يعرف أحد من الجنود شيئًا عن الموضوع وإلّا سيلغى الاتّفاق.

جلس أرتيوم على منضدة في وسط الصّالة وبدأ يفكر. هذه فرصة لا تصدّق للخروج إلى السّطح، لأن يفعل كما فعل في المرّة السّابقة الوحيدة، ولكن دون خوف من عقاب أو عقابيل. أن يذهب إلى السّطح ومع مطاردين حقيقيّين، أن يحمل المهمّة السريّة لطائفة الحرّاس (الأوصياء)... وهو لم يسألهم حتّى لماذا يبغضون كلمة "مكتبيّين".

جلس ميلنك بجانبه على المنضدة. وقد بدا الآن متعبًا ومرهقًا.

لماذا قلت نعم؟ سأل دون أيّ تعبير على وجهه وهو ينظر أمامه.

كيف اكتشفت ذلك؟ سأله أرتيوم باندهاش. لم يمرّ على محادثته مع البراهمة أقلّ من ربع ساعة.

يجب أن أذهب معك، استمرّ ميلنك بصوت باهت متجاهلًا السّؤال: أنا أعوّض وأنوب عن هنتر من أجلك الآن، مهما حدث له. وليس هناك أيّ تراجع عن الاتّفاق

مع البراهمة، فلم يفعل أحد ذلك حتى الان. والأهمّ ألا تفكر بالثرثرة إلى العسكر. نهض وهزّ رأسه وأضاف: لو كنت تعرف فقط بما ورطّت نفسك. أنا سأنام. وسوف نصعد اللّيلة.

لكن ألست من العسكر؟ سأله أرتيوم وهو يلحق به: سمعتهم ينادونك بالكولنيل.

نعم أنا كولنيل، لكنّي لست خاضعًا لأوامرهم، ردّ ميلنك بحقد وغادر.

أمضى أرتيوم بقيّة النّهار يتعرّف على بوليس، ويتمشّى هنا وهناك بلا هدف في فراغ غير محدود من السّلالم والممرّات، ويتفحّص صفوف الأعمدة الفخمة ويتعجّب كم من النّاس يمكن لهذه المدينة الّتي تحت الأرض أن تؤوي. درس كلّ صحيفة (أخبار المترو) الرّخيصة الّتي تُطبَع على ورق لفّ بنيّ، واستمع إلى موسيقيّين متشرّدين، وتصفّح كتبًا في الأكشاك، ولعب بالدّمى الّتي عُرِضت للبيع، واستمع إلى الإشاعات ولم يستطع أن يهزم

الشّعور بأنّه كان ملاحقًا طوال الوقت، وتحت مراقبة دائمة. في مرّات كثيرة، حتّى حين لفّ حول نفسه فجأة أملًا أن يلتقط نظرة متفحّصة، ولكن بلا فائدة فقد كان محاطًا بحشد متدافع، ولم يكترث به أحد.

وبعد أن وجد فندقًا في أحد المعابر، نام عدّة ساعات قبل ظهوره في السّاعة العاشرة مساء، وكما كان الاتّفاق عند بوّابة المخرج المؤدّي إلى مدينة بوروفتسكايا.

لقد تأخّر ميلنك، لكنّ الحرّاس أخبروه بقدومه، وقدّموا له كوبًا من الشّاي وهو ينتظر.

قاطع كبير الحرس نفسه دقيقة ليصبّ الماء المغليّ في فنجان مطليّ بالمينا، ثمّ تابع قصّته:

لهذا... عُيِّنت كي أستمع إلى الرّدايو. الجميع تمنّوا أن ألتقط إرسالا من غرف حكوميّة محصّنة تحت الأرض وراء جبال الأورال. لكن عبث، لأنّ أوّل شيء ضربوه كان الأهداف الاستراتيجيّة، وبهذه الطّريقة تلوّثت رامينكي وتلوّثت مساكنها الصّيفيّة الّتي خارج المدينة، مع أقبيتها الّتي على عمق ثلاثين مترًا. كان بإمكانهم أن يُبقوا على رامينكي لو أنّهم لم يحاولوا كثيرًا ضرب السّكّان المسالمين. ولم يعرف أحد أنّ هذه الحرب كانت إلى آخر رمق. ربّما كانوا وفّروا رامينكي، ولكن كانت هناك نقطة قيادة بجانبها مباشرة، فسحقوها. وبخصوص الخسائر في صفوف المدنيّين، فقد اعتبروها كما يقول الكلّ أضرار جانبيّة، وعلينا أن نعذر العبارة. ولكن لم يصدق ذلك أحد آنذاك، لهذا أمرني الضّابط أن أجلس وأنصت إلى موجات الهواء قريبًا من أرباتسكايا في مستودع. في البداية سمعت الكثير من هراء غريب، كانت سيبريا هادئة ولكنّ أقسامًا أخرى من البلاد كانت تبثّ.

واستمرّ بثّ غوّاصات نوويّة استراتيجيّ في الاثير، وكانت تسأل هل تضرب أم لا؟ ولم يصدّق النّاس أنّ موسكو زالت من الوجود. كان القباطنة الكبار يبكون كالأطفال عبر اللّاسلكيّ. أمر غريب كما تعرفون، حين يبكي ضبّاط بحريّة الّذين لم يتلفّظوا بكلمة قسم في حياتهم، ويسألون عن أحد يفتّش ويرى إن كانت زوجاتهم أو بناتهم

من بين النّاجين... اذهب وابحث عنهم هنا، هكذا كانوا يقولون. ولاحقًا ارتكسوا بشكل مختلف. فهناك من قالوا: هكذا هو الحال، ليذهب إلى الجحيم، العين بالعين والسّن بالسّن. واقتربوا من شواطئهم وقذفوا المدن بكلّ شيء. وآخرون على العكس، قرّروا بما أنّ كلّ شيء قد دُمِّر في سلّة يد، فلم يعد هناك أيّ معنى في للاستمرار في القتال. ولماذا يُقتَل المزيد من النّاس؟ ولكن، لم يكن لذلك أيّ تأثير. هناك الكثيرون ممّن رغبوا في الانتقام من أجل عائلاتهم، وقد استجابت القوارب لوقت طويل، وظلّت تعمل تحت الماء لمدّة نصف سنة في القواعد. وجدوا بعضها طبعًا لكنّهم لم يجدوا الكلّ. حسنًا، ذلك تاريخ من القيل والقال. وحين أفكّر بذلك تنتابني الرّعشة إلى اليوم. ولكن لم يكن ذلك هو القصد. مرّة عثرت على طاقم دبّابة نجا بإعجوبة من ضربة، كانوا ينقلون دبّابتهم من وحدتهم، أو شيئًا ما. كانت الدّبّابة جيلًا جديدًا من تكنولوجيا الدّروع الّتي حمتهم من الإشعاع، لهذا كان هؤلاء الرّجال الثّلاثة في هذه الدّبابة وانطلقوا بأقصى سرعة من موسكو واتّجهوا نحو الشّرق.

قادوا دبّابتهم عبر بعض القرى المحروقة، وحملوا بعض النّاس، وتابعوا سيرهم وتوقّفوا للتزوّد بوقود من قطارة القشّ، ثمّ عادوا لمتابعة طريقهم. وحين نفذ الوقود تمامًا، كانوا في مكان ناء ولم يبق شيء يقصفونه. كانت الأرضيّة مشعّة هناك أيضًا، وبقيت عالية طبعًا، لكنّها لم تكن شيئًا مقارنة بالقرب من المدن. نصبوا مخيّما وأقحموا دبّابتهم في بدن سفينة انتهى الحال بها كحصن. نصبوا الخيام قربها وبنوا أخيرًا أكواخًا من الطّين، وركّبوا مولّدا يدويًّا للكهرباء، وعاشوا وقتًا طويلًا حول تلك الدّبّابة. طوال سنتين اثنتين كنت أكلّمهم كلّ ليلة تقريبًا، وأعرف كلّ ما يحدث في حياتهم الشّخصيّة. كلّ شيء كان هادئًا. ففي البداية أنشأوا مزرعة وأنجب اثنان منهم أطفالًا أسوياء تقريبًا، وكان لديهم ذخيرة كافية. لكنّهم رأوا شيئًا غير عاديّ هناك، مخلوقات تخرج من الغابة لم يستطع الملازم الّذي تحدّثنا معه أن يصفها لنا بالشّكل المناسب. ثمّ اختفوا في الهواء بعدئذ.

وأمضيت سنة أخرى ونصف السّنة وأنا أحاول البثّ لهم، ولكن يبدو أنّ شيئًا ما حدث هناك. ربّما تعطّلت مولّدتهم أو جهاز الإرسال، أو ربّما نفدت ذخيرتهم.

أنت تتحدّث عن رامينكي، ذكّره شريكه، كيف قُصِفت. خلال كلّ المدّة الّتي خدمت فيها هنا، لم يستطع أحد أن يروي شيئًا عن الكرملين. كيف بقي كاملًا؟ لماذا لم يتعرّض للقصف؟ أقصد أنّ الكرملين هو المكان المناسب الّذي تتوقّع أن تجد فيه غرف محصّنة تحت الأرض، مناسبة حقيقيّة...

من قال لك أنّه لم يُقْصف؟ لقد قُصِف، أكّد الحارس له: لكنّهم لم يريدوا تدميره لأنّه نصب تذكاريّ معماريّ، ولأنهم أيضًا كانوا يختبرون أسلحة جديدة ضدّه. لذلك، ذاك ما حصلنا عليه... الأفضل لو أنّهم مسحوه عن الأرض منذ البداية؟ بصق وصمت.

جلس أرتيوم هادئًا، وحاول ألّا يشتّت المحارب القديم عن التّفكير في ذكرياته الماضية. ومن النّادر أن تسمع مثل هذه التّفاصيل الكثيرة عن الطّريقة الّتي حدث

فيها كل شيء. لكنّ الحارس العجوز ظل هادئًا، وتاه في فكرة شخصيّة. وأخيرًا اغتنم أرتيوم الفرصة وقرّر أن يسأل سؤالًا شغل باله في وقت سابق:

أنا سمعت أنه يوجد شبكات مترو في المدن الأخرى، فهل هذا صحيح؟ وهل صحيح أنّه لم يبق أناس في أيّ مكان؟ ألم تسمع أيّ إشارة حين كنت مشغّل لاسلكيّ؟

كلّا، لم أسمع شيئًا. لكنّك مصيب، فالنّاس في بطرسبورغ مثلًا، يُفترض أنّهم كانوا قادرين على إنقاذ أنفسهم. فمحطّات المترو عندهم مطمورة عميقًا، وبعضها أعمق من محطّاتنا هنا والبنية نفسها. أذكر أنّني سافرت إلى هناك حين كنت صغيرًا، لاحظت وقتها في أحد الخطوط لم يكن لديهم مخارج على المسارات، وبدلًا من ذلك كان لديهم هذه المداخل الحديديّة الجبّارة. وحين يصل القطار، تُفتح أبواب المداخل معًا مع أبواب القطار. ما زلت أذكر أنّ هذا أدهشني جدًّا آنذاك. وسألت كلّ واحد، ولكن لم يستطع أحد أن يشرح لي لماذا صُمِّمت الأشياء بتلك الطّريقة. وأخبرني أحدهم أنّها كانت لمنع الفيضان، وآخر قال أن ذلك وفّر مبالغ كبيرة من المال. أصبحت فيما بعد صديقًا لعامل هذا المترو، وأخبرني أنّ شيئًا ما التهم نصف شخص من فريق التّشييد، وأنّ الشّيء نفسه حدث مع الفرق الأخرى. وكانوا لا يجدون إلّا العظام المقضومة والأدوات. لم يُنقَل أيّ خبر عن ذلك للعوام طبعًا، ولكن تلك الابواب الحديديّة، نُصبت على طول الخطّ لكي يبقوا في أمان، وكان ذلك.

دعني أفكّر، في الماضي عندما...، على كلّ حال يصعب كثيرًا أن نتخيّل ما خلّفه الإشعاع هناك.

انقطعت المحادثة عندما ظهر ميلنك عند البوّابة، ومعه شخص آخر قصير وضخم البنية، عيناه غائرتان وفكّه ضخم تكسوه لحية قصيرة. كانا يرتديان بدلتيهما الواقيتين مسبقًا، وتدلّت من ظهريهما حقيبتان كبيرتان. تفحّص ميلنك أرتيوم بصمت، ووضع حقيبة سوداء كبيرة بجانب قدميه، وتحرّك باتّجاه الخيمة العسكريّة.

انسلّ أرتيوم إلى الدّاخل وفتح سحّاب الحقيبة، وأخرج طقمًا أسود من أوفرولات، كالّتي يلبسها ميلنك وشريكه، وجزمة عالية برباط. والأهمّ من ذلك، بندقيّة كلاشنكوف هجوميّة جديدة مع منظار ليزريّ وأخمص معدنيّ قابل للطّي. كان سلاحًا استثنائيًّا، لم ير مثله إلا الأسلحة الّتي كانت تحملها وحدات النّخبة في هانسا، النّخبة الّذين يقومون بدوريّات في الخطّ في عربات ذات محرّك. وأخرج من الحقيبة أيضًا مصباحًا كهربائيًّا وخوذة مدوّرة مع غطاء قماشي وُضِع في قعر الحقيبة.

لم يتوفّر له الوقت ليكمل ارتداء ثيابه حين رُفِع طرف الخيمة، ودخل البرهميّ دانيال حاملًا في يديه حقيبة مرنة بسحّاب، مماثلة لتلك الّتي بين يديه. نظرا إلى بعضهما في ذهول، وكان أرتيوم أوّل من عرف الأشياء المهمّة والضّروريّة.

هل ستصعد؟ هل أنت مرافقنا؟ هل ستساعدنا على البحث عن الشّيء الّذي لا نعرفه؟ سأل ساخرًا.

أنا أعرف ما هو، زمجر دانيال: لكن ليس لديّ أيّ فكرة كيف ستبحث أنت عنه.

ولا أنا كذلك، اعترف أرتيوم. قيل لي أنّهم سيشرحون الأمر لي لاحقًا، لهذا أنا أنتظر.

وقيل لي أنّهم قد أرسلوا مستبصرًا (روحانيًّا) للأعلى إلى السّطح، ويُفترض به أنّه سيشعر أين سنذهب.

هل أنا هو المستبصر؟ سأل أرتيوم في سخط.

الكبار يعتقدون أنّ لديك موهبة، وأنّ قدرك استثنائيّ. وتقول النّبوءة أنّه في مكان ما في العهد الجديد سيظهر شاب، ويقوده القدر إلينا ليجد الأسرار الخفيّة للمكتبة الكبرى. سيجد الشّيء الّذي فشلت محاولات طائفتنا في إيجاده خلال العقد الماضي. والكبار مقتنعون أنّ هذا الشّخص هو أنت.

هل هو ذلك الكتاب الّذي أخبرتني عنه؟ لم يجب دانيال لوقت طويل، ثمّ حنى رأسه بنعم.

يُفترض بك أن تشعر به. إنّه ليس مخبّئًا عن كلّ واحد. وإن كنت فعلًا نفس الشّاب الّذي يدلّه القدر، فلن تحتاج إلى الرّكض حول المحفوظات المكدّسة. فالكتاب سيجدك، قال وهو يمرّر عيونه على أرتيوم متفحّصا، ثمّ أضاف: ماذا طلبت منهم في المقابل؟ ولافائدة من إخفاء الحقيقة.

كان أرتيوم مندهشًا وساخطًا، لأنّ دانيال الّذي يُفترض به أن يعطيه معلومات تمكّنه من إنقاذ فدنكه من غزو الغيلان، لم يكن يعرف شيئًا عن هذا الخطر، أو عن شروط الاتّفاق مع أعضاء المجلس. ممّا دفعه لأن يلخّص الاتّفاق لدانيال، ويشرح له الفاجعة الّتي حاول أن يمنعها. استمع إليه دانيال بانتباه، وظلّ واقفًا بلاحراك يفكّر بشيء ما حين غادر أرتيوم الخيمة.

كان ميلنك والمطارد الملتحي ينتظران في ثياب القتال الكاملة، ويحملان أقنعة الغاز والخوذ بأيديهما. حمل شريكه الآن البندقيّة الآليّة الخفيفة، بينما أمسك أرتيوم بنسخة من البندقيّة الهجوميّة الّتي أعطيت له، وهناك جهاز رؤية ليليّة معلّق حول رقبته.

حين مشى دانيال إلى خارج الخيمة، تبادل مع أرتيوم نظرات في زهوّ، ثمّ غمزه دانيال وبدأ الاثنان في الضّحك. الآن هما مثل مطاردين حقيقيّين.

نحن محظوظان، فقبل أن يذهب المبتدئون في مهمّات هامّة، عليهم أن يمضوا سنتين تحت إمرة المطاردين، يُحضرون الحطب من السّطح. لكن أنا وأنت، نجلس بشكل جميل، قال دانيال هامسًا لأرتيوم.

نظر إليه ميلنك باستهجان لكنّه لم يقل شيئًا، ثمّ طلب منهم أن يتبعوه.

وصلوا إلى قنطرة الممرّ، وبعد أن صعدوا السّلّم توقّفوا عند جدار من كتلة إسمنتيّة، حيث يوجد باب مدرّع تحت حراسة معزّزة مخصّصة. حيّا المطارد الحرس وأعطاهم الإشارة ليفتحوا الباب. نهض أحد الجنود من مقعده، وذهب إلى الباب وشدّ المزلاج ببطء، فتحرّك الباب الفولاذيّ السّميك بنعومة إلى الجانب. سمح ميلنك للثّلاثة الآخرين بالمرور، ثمّ حيّا الحرّاس وخرج أخيرًا.

بدأت منطقة آمان بطول ثلاثة أمتار تقريبًا بعد الباب، بين الجدار وأبواب الضّغط. وقف جنديّان آخران بأسلحة ثقيلة يحرسان هناك. وقبل إعطاء الأمر لرفع العائق الحديديّ قرّر ميلنك أن يعطي التّعليمات للمبتدئين. استمعا جيًّدا، الحديث ممنوع في الطّريق. هل زار أحدكما السّطح سابقًا؟ لابأس... أعطني الخارطة، قال للضّابط. إلى أن نصل إلى الدّهليز، سيرا على خطواتي ولا تحيدا عن الطّريق. لا تنظرا حولكما ولا تتكلّما. وحين نغادر الدّهليز لا تفكّرا أبدًا بالمرور من الأبواب الدّوّارة، وإلا ستفقدان سيقانكما. اتبعاني دائمًا. لا أريد رؤية أيّ نشاط مستقلّ. بعدئذ سأذهب إلى الخارج. أنت هناك، أشار إلى المطارد الملتحي، ستبقى في الخلف وتغطّي دهليز المحطّة. إن كان كلّ شيء واضحًا، سنكون في الشّارع ثمّ ننعطف إلى اليسار. الظّلام ليس شديدًا الآن، لهذا لا تستخدموا مصابيحكم هناك، فنحن لا نريد لفت الانتباه. هل فهمتم الكلمة عن الكرملين؟ أنا سأكون على اليمين، لكن أحد الأبراج يمكن رؤيته فوق الأبنية حالما تخرجون من المترو. لا تنظروا إلى الكرملين بأيّ شكل من الأشكال، أنا شخصيًّا سأصفع أيّ واحد يفعل ذلك، على رأسه."

إذًا، الحديث عن الكرملين صحيح، ووظيفة المطارد ألّا ينظر إليه مهما حدث. فكّر أرتيوم في ذهول، وفجأة حرّكه شيء ما، بعض شتات أفكار وصور، تحرّكت ثمّ هدأت.

نحن سنصعد إلى المكتبة. وسنذهب بعيدًا حتّى الأبواب والسّلالم. وأنا سأذهب أوّلًا. إن كان الدّرج خاليًا سيظلّ تن يراقبه ونحن سنصعد، بعدئذ نحن سنغطّي تن ليصعد. الحديث ممنوع على السّلالم. إن حدّدتم خطرًا أشّروا بمصابيحكم. ولا تطلقوا النّار إلّا في الضّرورة القصوى، فالطّلقات النّاريّة يمكن أن تجذبهم.

من هم؟ لم يستطع أرتيوم أن يبقى هادئًا.

ماذا تقصد ب"من"؟ كرّر ميلنك، الّذين تتوقّع أن تقابلهم في المكتبة؟ المكتبيّون طبعًا.

بلع دانيال ريقه بصعوبة وشحب لونه. نظر أرتيوم إليه ثمّ إلى ميلنك، وقرّر أنّ هذا ليس الوقت المناسب للتّظاهر بأنّه يعرف كلّ شيء.

ومن هو ذلك؟

رفع ميلنك حاجبيه في اندهاش، ووضع شريكه الملتحي يده فوق عينيه.

نظر دانيال إلى الأرض، وقال: الشّيء الرّئيسيّ الّذي يجب أن تتذكّره هو، يمكنك أن تمنعهم من مهاجمتك إن نظرت في عيونهم مباشرة، في العيون مباشرة، أفهمتم؟ لا تدعوهم يكونون خلفكم... هذا كلّ شيء. تحرّكوا. وضع قناعه الغازيّ ثمّ خوذته، وأعطى الحرس الإشارة برفع إبهامه.

مشى الضّابط خطوة باتّجاه القفل الرّئيسي، وفتح الأبواب المقاومة للضّغط. زحف العائق الفولاذيّ للأعلى ببطء. لقد بدأ العرض..

لوّح ميلنك بيده مشيرًا بالموافقة على الخروج. ودفع أرتيوم الباب الشفاف، ثمّ رفع بندقيّته وقفز إلى الشّارع. وعلى الرّغم أنّ المطارد طلب منه أن يتبعه في سيره وألّا يحيد عن الطّريق، إلّا أنّ الطّاعة لم تكن ممكنة...

لقد تبدّلت السّماء تمامًا منذ الوقت الّذي رآها فيه أرتيوم، حين كان ولدًا. فبدلًا من الفضاء الأزرق السّماويّ الشّفاف غير المحدود، تدلّت غيوم رماديّة كثيفة منخفضة فوق الرّؤوس. وبدأت أوّل قطرات من المطر الخريفيّ تنزّ من هذه السّماء الشّبيهة بالقطن. وهبّت ريح باردة بشكل عواصف شعر بها عبر قماش سترته الواقية.

توجد كميّة فراغ تذهل العقل، لا يمكن تخيّلها هنا، على اليمين والشّمال وفي الأمام. هذه الفراغ اللّامحدود كان ساحرًا وكئيبًا بشكل غريب في نفس الوقت. ولجزء من الثّانية أراد أرتيوم أن يعود إلى دهليز بوروفتسكايا تحت الأرض، ويشعر بالحماية بالجدران القريبة، ويغمر نفسه في راحة الفراغ المحدود المغلق. لكنّه تمكّن من التّعامل مع هذا الشّعور الضّاغط، وذلك بتشتيت انتباهه قسريًّا في تفحّص أقرب الأبنية إليه.

غابت الشّمس للتّوّ، وانحدرت المدينة في شفق داكن بالتّدريج. كانت هياكل شقق البيوت المنخفضة الّتي خرّبتها ونقرتها عقود من العواصف المطريّة الحمضيّة، تحدّق بالمسافرين بمحاجر فارغة من النّوافذ المكسّرة. كانت المدينة موحشة وكئيبة، لكنّ منظرها رائع. وقف أرتيوم الّذي لم يعد يسمع أيّ نداء، ساكنًا ينظر حوله كما لو كان منوَّما مغناطيسيًّا. واستطاع أخيرًا أن يقارن بين الواقع وأحلامه وذكريات طفولته الغامضة المتساوية تقريبًا. أمّا دانيال الّذي وعلى الأرجح لم يصعد السّطح سابقًا، وقف متجمّدًا بجانبه أيضًا. وكان تن آخر من خرج من دهليز المحطّة. ضرب المطارد أرتيوم على كتفه ليثير انتباهه، ثمّ أشار إلى اليمين إلى المكان البعيد الّذي انتصبت فيه صورة قبّة الكاتدرائيّة الظّليلة عاليًا في السّماء.

انظر إلى الصّليب، أزّ صوت تن عبر مصفاة القناع الغازيّ.

لم يلاحظ أرتيوم في البداية شيئًا بعينه، ولم ير فعليًّا الصّليب. ولكن، حين طار ظلّ عملاق مجنّح من القضيب المستعرض متمهّلًا. وأطلق عويلًا يجمّد الدّم في العروق، ففهم أرتيوم ماذا قصد تن. وبعد بضع خفقات لجناحيه ارتفع المسخ، وبدأ ينزلق نحو الأسفل في دوائر واسعة باحثًا عن فريسة.

إنّها تعشّش هناك، قال تن بتلويحة من يده.

تحرّكا إلى مدخل المكتبة وهم يحاذون الجدار. قاد ميلنك المجموعة وحافظ على التّقدم عدّة خطوات في الأمام. بينما سار تن باتّجاه الخلف وهو نصف مستدير ليغطّي المؤخّرة.

كان المطاردان الاثنان مشتّتين، لذلك استطاع أرتيوم أن يلقي نظرة على الكرملين، من قبل أن يجذبهم تمثال الرّجل العجوز الجالس في مقعد ذي مسندين. لم يتعمّد أرتيوم أن يفعل ذلك، لكنّه حين رأى النّصب التّذكاريّ، أصبح وكأنّه تلقّى ضربة شديدة، وكأنّ شيئًا ظهر واضحًا في عقله. لقد ظهر جزء كامل من حلم الأمس على

السّطح فجأة. لكنّها لم تكن تبدو الآن مجرّد حلم، لأنّ المنظر الشامل وصف أعمدة المكتبة الّتي رآها في الحلم، وهي تشبه تمامًا المنظر الّذي أمامه الآن. هل يعني ذلك أنّ الكرملين يبدو كما تخيّله في رؤيا مناماته؟

لم ينظر أحد إلى أرتيوم، حتّى دانيال لم يكن قريبًا منه، فقد بقي في الخلف مع تن. الآن والآن فقط، قال أرتيوم لنفسه.

أصبح فمه جافًّا، وبدأ الدّم يضخّ في صدغيه.

بدأت النّجمة الّتي على البرج تومض.

هيه، أرتيوم، أرتيوم. هزّ أحدهم كتفه.

عاد لأرتيوم إدراك مخدّر بصعوبة، وهاجم عينيه شعاع مصباح ساطع، فرمشت عينيه وظلّلهما بيده. كان يجلس على الأرض وظهره يستند على قاعدة النّصب الغرانيتيّة، ودانيال وميلنك ينحنيان فوقه، وينظران في عينيه في قلق.

لقد تقلّص بؤبؤا عينيه، أعلن ميلنك ذلك. كيف فقدته؟ سأل تن بانزعاج. وقف الأخير عن بعد وأبقى عينيه على الشّارع.

لقد صدر صوت في المؤخّرة، ولم أستطع أن ألتفت إليه، شرح المطارد: من كان يخمّن أنّه سيكون بهذه السّرعة؟ انظر، لقد وصل إلى المانيج (صالة ركوب الخيل- المترجم) خلال دقيقة واحدة، وكان سيتابع الذّهاب. الشّيء الجيّد أنّ برهمنا له رأس بين كتفيه، قالها دانيال ولطمه على ظهره.

إنّه يلمع، قال أرتيوم لميلنك في صوت ضعيف. إنّه يتألّق، قال وهو ينظر إلى دانيال.

إنّه يلمع، حسنًا، هو يتألّق، كرّر دانيال ذلك مؤكّدا.

ألم أخبرك ألّا تنظر إلى هناك أيّها المغفّل؟ قال ميلنك لأرتيوم بغضب. والآن وبعد أن أقتنع بزوال الخطر، سوف تطيع أوامر مرؤسيك، أليس كذلك؟ سأله وصفعه على مؤخّرة رأسه.

قلّلت الخوذة من القيمة التربويّة للصّفعة، وظلّ أرتيوم جالسًا على الأرض وعيناه ترمشان. بعد أن انتهى المطارد من الشّتم، أمسكه من كتفه وهزّه بقوّة وأوقفه على قدميه.

عاد أرتيوم لرشده بالتّدريج، وخجل كثيرًا لأنّه لم يستطع أن يقاوم الإغراء. وقف وهو ينظر إلى مقدّمة حذائه، وتردّد في النّظر إلى ميلنك. ولحسن الحظّ أنّ ميلنك لم يكن لديه الوقت، ليلقي عليه خطبة. إذ أنّه انتبه إلى تن الّذي كان يقف في التّقاطع، ويؤشّر لشريكه أن ينضمّ إليه، وكان يضغط إصبعه على مصفاة في قناعه الغازيّ ويشير إلى ضرورة الصّمت. قرّر أرتيوم البقاء خارج الورطة باتّباع ميلنك أينما ذهب، وألّا يلتفت أبدًا إلى جهة الأبراج ذات الألغاز.

عند الاقتراب من تن، تجمّد ميلنك في مساره أيضًا. فقد كان الرّجل الملتحي يشير إلى مكان بعيد عن الكرملين، حيث بدت ناطحات السّحاب المنهارة الطّويلة على طول كانلينين بروسبيكت مثل أسنان فاسدة. نظر أرتيوم من وراء أكتاف المطارد العريضة، بعد أن اقترب منهما بحذر وفهم الوضع فورًا.

في منتصف بروسبكت وعلى بعد ستّين مترًا عنهم، رأى ثلاثة ظلال بشريّة تقف بلا حراك في الغسق المتجمّع.

بشر؟ على بعدٍ كهذا لن يراهن أرتيوم أنّهم بشر حقًّا، لكنّهم كانوا من الطّول المتوسّط، ويقفون على ساقين اثنتين. وهذا كان مشجّعا.

من هؤلاء؟ سأل أرتيوم بهمس، وحاول أن يحدّد الأشكال البعيدة عبر نافذة قناع الغاز المضبّبة. هل كانوا بشرًا أم ذريّة ما لم يسمع عنها؟

هزّ ميلنك رأسه بصمت مبيّنًا أنّه لا يعرف أكثر ممّا يعرفه أرتيوم. وجّه ضوء مصباحه إلى الكائنات السّاكنة، وقام بحركات دائريّة ثلاثة. بعدئذ أطفأ مصباحه. وفي ردّ على ذلك، جاءت بقع ضوء ساطع من بعيد، تحرّكت في شكل دائرة ثلاث مرّات وانطفأت. فهدأ التّوتّر على الفور، وعاد الجوّ المكهرب ليصبح عاديًّا. شعر أرتيوم بهذا قبل أن يوضّح ميلنك كلّ شيء.

مطاردون، شرح الدّليل. تذكّروا، في المرّة القادمة، ثلاث دوائر في المصباح هي إشارة تعارفنا. وإن وصلكم نفس الرّدّ، يمكنكم التّقدّم بلا خوف. وإن لم يصلكم أيّ ردّ، أو وصلكم ردّ آخر عندها اهربوا ولا تنتظروا ولكن بما أنّ لديهم مصباح، فهذا يعني أنّهم بشر، وليس مسوخا من السّطح، عارض أرتيوم.

أنا لا أعرف من منهما الأسوأ، قال ميلنك، مقاطعًا أرتيوم. وبدون تفسير آخر، صعد الدّرج إلى مدخل المكتبة.

استسلم الباب السّنديانيّ الثّقيل العالي بارتفاع شخصين، ببطء وعناد تقريبًا. وزعقت مفصلات الباب الصّدئة بشكل هستيريّ. فانسلّ ميلنك إلى الدّاخل ووضع جهاز الرّؤية اللّيليّة على عينيه، بينما حمل بندقيّته مستوية بذراع واحدة، وبعد ثانية واحدة أشار للآخرين كي يتبعوه.

رأوا رواقًا طويلًا أمامهم، مع هيكل مفتول لعلّاقات معاطف حديديّة على الجانبين، كانت هذه غرفة المعاطف سابقًا. وفي مكان بعيد ومن خلال ضوء النّهار الخافت الآتي من الشّارع، رأوا درجات من المرمر الأبيض لسلّم عريض صاعد. كان السّقف بارتفاع خمسة عشر متر تقريبًا، وظهر السّياج المزخرف لرواق الطّابق الثّاني الّذي يرتفع إلى نصف الجدار تقريبًا. وهناك صمت هشّ في الصّالة، يستجيب لكلّ خطوة لهم.

جدران الرّدهة كانت مغطّاة بالطّحلب الّذي تحرّك قليلًا وكأنّه يتنفّس، ونباتات غريبة تشبه الكرمة، وبثخن ذراع المرء تتدلّى من السّقف لتصل الأرض تقريبًا. وكانت سوق النّبات تومض ببريق دهنيّ في أشعّة المصباح، وتغطّيه زهور واسعة مشوّهة تفرز رائحة خانقة، تجعل الرّأس يلفّ. وهي تتمايل بشكل خفيف دائمًا.

لم يشعر أرتيوم بحبّ المغامرة ليكتشف إن كانت الرّياح التي تعصف عبر نوافذ الطّابق الثّاني المكسورة، هي الّتي تُسبّب الحركة أم أنّها كانت تتحرّك من تلقاء نفسها.

ما هذا؟ سأل أرتيوم مخاطبًا تن، ولمس الكرمة بيده.

خضرة، جاء الرّدّ المصفّى. نباتات بيتيّة بعد تعرّضها للإشعاع. زهرة نجمة الصّبح. لقد أحسن هؤلاء النّباتيّون صنعًا في زراعتها.

ساروا وراء ملنك، ووصوا إلى الدّرج، وبدأوا بالصّعود والتزموا بالجدار اليساريّ، بينما قام تن بتغطيتهم. لم يحوّل المطارد القائد نظره عن المربّع الأسود للمدخل المؤدّي للغرف الأخرى الّتي كانت تُرى أمامهم. أمّا الآخرون فمرّروا ضوء مصابيحهم على الجدران المرمريّة والسّقف المبقّع بالطّحلب.

تؤدّي الدّرجات المرمريّة العريضة الّتي وقفوا عليها، إلى ردهة الطّابق الثّاني. ولم يكن هناك سقف فوقها. لهذا اتّحدت الرّدهتان في فراغ واحد ضخم. وشكّلت ردهة المستوى الثّاني، ثلاثة أضلاع مثلّث. وفي الوسط فراغ يصعد عبره الدّرج، وهناك مناطق على طول الحوافّ فيها خزّانات خشبيّة كان أغلبها إما محروقًا أو متعفّنًا. ولكن هناك بعض منها، بدا كما لو أنّ النّاس استخدموها في اليوم السّابق. وهناك أيضًا المئات من الأدراج الصّغيرة في كلّ قسم. (بطاقات الفهرسة) قال دانيال بهدوء وهو ينظر حوله بتوقير: يمكن التّنبّؤ بالمستقبل باستخدام هذه الأدراج. والملقّن يعرف كيف. بعد طقس وشعيرة، تختار إحدى الخزن بشكل أعمى، ثمّ تسحب أحد الأدراج بشكل عشوائيّ، وتأخذ أيّ بطاقة. إن أُنجز الطّقس بالشّكل الصّحيح، يتنبّأ اسم الكتاب بالمستقبل فيقدّم لك إنذارًا أو يتنبّأ لك بالنّجاح.

للحظة، أراد أرتيوم أن يصعد إلى أقرب خزانة، ويكتشف إلى أيّ قسم من بطاقات الفهرسة جلبته الأقدار. لكنّ انتباهه تشتّت ببيت عنكبوت عملاق امتدّ إلى عدّة أمتار عبر نافذة مكسورة في الزّاوية البعيدة. وكان يمسك بطير من حجم كبير بشعيرات رقيقة ذات قوّة غير عاديّة بشكل واضح.ما زال الطّير حيًّا وينتفض بوهن. لم ير أو يعرف أرتيوم من نجح في غزل هذه الشّبكة غير الطّبيعيّة، بالإضافة إلى ذلك لم تكن هناك أيّ روح في الرّدهة الواسعة.

أشار لهم ميلنك بالتّوقف.

الآن اصغ، قال لأرتيوم: لا تصغ إلى ما في الخارج، حاول أن تسمع الأصوات الّتي في داخل رأسك. يفترض بالكتاب أن يناديك. يعتقد كبار البراهمة ّأنّه على الأرجح في أحد مستويات محفوظات الكدس الرّئيسي، لكنّ الملفّ يمكن أن يكون في أيّ مكان. في واحدة من غرف المطالعة أو في عربة مكتبة منسيّة أو في قاعة، أو في إحدى طاولات القيم. لهذا قبل أن نحاول إيجاد طريق إلى داخل المحفوظات، حاول أن تشعر بصوته هنا.

أغلق عينيك، استرخ.

عصر أرتيوم عينيه وأغلقهما، وبدأ يصغي بتصميم. في ظلام تامّ، خيّم الصّمت بمعزل عن عشرات الأصوات، صرير الرّفوف الخشبيّة وضجيج التّيّارات الهوائيّة الّتي تمرّ من أسفل الدّهاليز والدّمدمات الغامضة والعواء المحمول من الشّارع، والضجة التي تشبه سعال الشّيوخ المحمولة من غرف المطالعة. لكنّ أرتيوم لم يسمع أيّ شيء يشبه نداء أو صوتًا بشريًّا. وقف بلا حراك لمدّة خمس دقائق، ثمّ خمس أخرى عاجزًا عن التّحكّم بأنفاسه الّتي ربّما أعاقت جهوده في تمييز صوت الكتاب الحيّ من خليط أصوات الكتب الميّتة.

كلّا، قال وهو يهزّ رأسه بشعور من الإثم، وفتح عينيه أخيرًا. لا يوجد أيّ شيء.

لم يقل ميلنك أو دانيال شيئًا، لكنّ أرتيوم شاهد الخيبة في نظرته الّتي كانت تفسّر نفسها.

ربّما هو ليس هنا. لهذا سنذهب إلى المحفوظات المكدّسة. أو بتعبير أدقّ، سنحاول الوصول إلى هناك. وبعد دقيقة واحدة اتّخذ المطارد قراره، وأشار للآخرين أن يلحقوا به.

تقدّم إلى الأمام في المدخل العريض الّذي لم يبق سوى اثنين من ألواحه الأصليّة على مفصلاته. وكانت أطرافه متفحّمة ومغطّى بحروف غريبة. توجد غرفة صغيرة مدوّرة على الطّرف الآخر، وسقف بارتفاع ستّة أمتار، وأربعة مداخل. لحق تن بميلنك، أمّا دانيال الّذي اغتنم فرصة كونهما لا يريانه، ذهب إلى أقرب خزانة ناجية، وسحب أحد أدراجها وأخذ بطاقة منها. مرّر عينيه على البطاقة بسرعة، فارتسمت الحيرة على وجهه ودفع البطاقة في جيب في صدره. ثمّ مرّر إصبعه على شفتيه بطريقة تآمريّة، بعد أن أدرك أنّ أرتيوم رأى كلّ شيء. وأسرع وراء المطاردين.

جدران الغرفة المدوّرة مغطّاة برسوم وعلامات أيضًا، وفي أحد أركانها أريكة بنوابض مكسورة، منجّدة وهي عبارة عن تقليد ساخر للجلد. وفي أحد الممرّات الأربعة كتاب مقلوب بجانب بعض الكراريس المتناثرة.

لا تلمس أيّ شيء، حذّره ميلنك.

جلس تن على الأريكة فأصدرت صريرًا، وفعل دانيال مثله. حدّق أرتيوم بشدّة كما لو أنّه كان مسحورًا في الكتب المبعثرة على الأرض. إنها لم تُلمس، دمدم. يجب أن نضع سمّ جرذان في مكتبة محطّتنا، وإلّا فستأكل الجرذان كلّ شيء. لكن لماذا لا توجد جرذان هنا؟ سأل، وتذكّر مرّة أخرى ما قاله له بوروبون (إن زمن القلق ليس عندما يعجّ المكان بالجرذان، وإنّما حين لا يكون أيّ جرذ فيه أو حوله إطلاقًا) أيّ جرذان؟ هل تمزح؟ قال ميلنك مستاءً. من أين ستجد جرذانًا هنا؟ لقد أكلوها كلّها منذ زمن بعيد.

من أكلها؟ سأل أرتيوم المحتار.

ماذا تقصد بمن؟ المكتبيّون طبعًا، شرح له تن.

إذا، هل هم حيوانات أم بشر؟ سأل أرتيوم.

ليسوا حيوانات، وهذا مؤكّد، قال المطارد وهو يهزّ رأسه في تأمّل، ولم يقل شيئًا آخر.

صدر صوت صرير طويل من باب خشبيّ ضخم في نهاية أحد الممرّات. فاندفع المطاردان فورًا في جهتين مختلفتين، وتحصّنا خلف الأعمدة المطمورة في نهايتي القنطرة. وانزلق دانيال من الأريكة إلى الأرض وتدحرج إلى الطّرف، وفعل أرتيوم مثله.

إنّ غرفة المطالعة الرّئيسيّة تقع بعد هذا المكان، همس البرهميّ لأرتيوم. يظهرون هناك مرّة في كلّ فترة.

اقطعوا الثّرثرة، قاطعهم ميلنك بقسوة. ألا تعرفون أنّ المكتبيّين لا يطيقون الضّجيج؟ وأنّ الضّجيج بالنّسبة لهم مثل التّلويح بخرقة حمراء أمام ثور؟ شتم، وأشار لتن إلى باب غرفة المطالعة.

أمال تن رأسه موافقًا، وبدأ يتحرّك ببطء وهو ملتصق بالجدران نحو ألواح باب سنديان ضخم. لم يتبعه أرتيوم أو دانيال فورًا. وكان ميلنك الأوّل في الدّخول. حيث أسند ظهره على واحد من ألواح الباب، ورفع بندقيّته لكي تكون في وضع التّصويب، وأخذ نفسًا عميقًا وأطلقه، ثمّ دفع اللّوح بقوّة وفتحه بكتفه. وبنفس الوقت صوّب السّبطانة على فم القاعة الرّئيسيّة الأسود المفتوح.

وفي لحظة واحدة أصبحوا كلّهم هناك. القاعة كانت غرفة بحجم لا يصدّق، مع سقف بارتفاع عشرين مترًا عن الأرض. وكما في الرّدهة، هناك كرمة سميكة ثقيلة مع أزهار تدلّت من السّقف والجدران مغطّاة بنفس زهرة مجد الصّبح غير الطّبيعيّة. وستّ نوافذ عملاقة في كلّ طرف فيها، والزّجاج المصقول على قسم منها، بقي سليمًا. لكنّ الإنارة كانت ضعيفة جدًّا، فضوء القمر اخترق بالكاد سوق الكرمة المتشابكة والوامضة الثّخينة.

رُتِّبت صفوف من الطّاولات على اليمين واليسار في وقت سابق، لتّتسع للقرّاء. ورغم نقل الكثير من الأثاث وحمله واحتراق بعضه وتحطّمه، ظلّت حوالي عشر طاولات سليمة وُضعت بالقرب من لوح مزخرف مصدّع على الجدار المقابل، في وسطه بالضّبط ارتفع تمثال لم يكن واضحًا في شبه الظّلام، وثبّتت علامات بلاستيكيّة في كلّ مكان من السّطح كُتِب عليها (راعوا الصّمت) إنّ الصّمت هنا مختلف تمامًا عن ذاك الّذي في الرّدهة، فقد كان سميكًا تكاد أن تلمسه، وبدا وكأنّه يملأ هذه القاعة القديمة الفظّة، وتخشى أن تزعجه.

وقفوا هناك يفتّشون في الفراغ أمامهم بمصابيحهم، حتّى استنتج ميلنك: ربّما كانت الرّيح.

ولكن وفي تلك اللّحظة بالذّات، لاحظ أرتيوم ظلًّا رماديًّا يعبر من أمامه بين الطّاولات المكسورة، ثمّ اختفى في فجوة سوداء في رفوف المكتبة.

رآه ميلنك أيضًا. فوضع جهاز رؤيته الليليّة على عينيه، وهزّ بندقيّته وخطا بحذر فوق الأرض المغطّاة بالطّحلب، واقترب من المدخل الخفيّ.

تحرّك تن خلفه. ولم يتحمل أرتيوم ودانيال ذلك، فلحقا بالمطاردين رغم أنّهما بُلِّغا أن يظلّا حيث يكونان. لكنّ البقاء لوحدهم في المدخل يثير التّوتّر والخوف، وفي نفس الوقت لم يستطع أرتيوم أن يقاوم النّظر بابتهاج إلى القاعة الّتي احتفظت بآثار من عظمتها السّابقة. إنّها لن تنقذ حياته فقط بل حياة كلّ شخص آخر أيضًا.

كانت الغرفة مطوّقة بأروقة ارتفاعها عدّة أمتار، وكانت عبارة عن مماشي ضيّقة مسيّجة بحواجز خشبيّة. ويمكنك النّظر من النّوافذ الّتي في تلك الأروقة. وهناك أيضًا أبواب تؤدّي إلى مكاتب في الجدار الّذي كانوا يقفون بجانبه، وفي الجدران الّتي على جانبيّ اللّوح القديم. الوصول إلى صالة العرض عبر سلّمين اثنين متشابهين يتوضّعان على جانبيّ التّمثال، أو عبر مجموعة درجات مماثلة تصعد من المدخل. ومن أسفل تلك الدّرجات تهبط أشكال رماديّة محدودبة بشكل متعمّد وصامت. وهناك أكثر من عشرة منها، وهي عبارة عن مخلوقات لا تذوب في الظّلام تمامًا. كانت بطول أرتيوم تقريبًا لو لم تكن محدودبة بأكثر من الضّعف، لهذا كانت قوائمها الأماميّة طويلة وتشبه الأذرع بشكل مدهش، إلّا أنها كانت تلمس الأرض. تتحرّك المخلوقات على سيقانها الخلفيّة، وتأخذ خطوات متهادية، ولكن برشاقة مدهشة وبصمت من بعيد هي أكثر شبهًا بالغوريلا، وهي صور رآها أرتيوم في طفولته في كتاب علم الأحياء الّذي حاول زوج أمّه أن يعلّمه منه.

لم يكن لدى أرتيوم أكثر من ثانية واحدة لكلّ هذه المشاهدات، إذ أنّه حالما يسقط شعاع مصباحه على أحد الأشكال الحدباء، يطلق الكائن ظلًّا حادًّا أسود على الجدار خلفه، ويرن صوت صرير شيطانيّ حوله، فتتوقّف المخلوقات عن التّسلّل وتندفع نحو الأسفل.

مكتبيّون، صرخ دانيال بكلّ قوّته.

انخفض، أمره ميلنك.

رمى أرتيوم ودانيال بنفسيهما على الأرض. واختارا ألّا يطلقا النّار. فقد تذكّرا تحذير المطارد بأنّ الطّلقات النّاريّة أو أيّ صوت عال، يجذب ويُفاقم المكتبيين.

بدّد ميلنك تردّدهما حين ألقى بنفسه على الأرض بجانبهما، وكان أوّل من فتح النّار. سقط عدد من المخلوقات مع زئير، وبعضها الآخر رمى بنفسه بتهوّر في الظّلام لتقترب في تسلّلها أكثر. وبعد عدّة لحظات، ظهر أحد المسوخ فجأة على بعد مترين منهم، وقام بوثبة طويلة وحاول الإمساك برقبة تن. لكنّ تن الّذي سقط على الأرض، نجح في قصّ المخلوق برشقة قصيرة من الطّلقات. اركضوا، عودوا إلى الغرفة المستديرة وحاولوا أن تصلوا إلى المحفوظات. يجب أن يعرف البرهميّ كيف يصل إلى هناك، لقد علّموهم ذلك. نحن سنبقى هنا، نغطّيكم ونحاول صدّهم، قال ميلنك لأرتيوم ثمّ زحف وخرج لينضمّ إلى شريكه دون أيّ كلمة أخرى.

تحرّك أرتيوم نحو دانيال، وانخفضا نحو الأرض، ثمّ انطلقا إلى المخرج كالسّهام. وثب أحد المكتبيّين من الظّلام لملاقاتهما، لكنه جُوبِه بوابل من الرّصاص فتبدّد. وظلّ المطاردان يراقبان أرتيوم ودانيال.

بعد خروجهما من غرفة المطالعة الرّئيسيّة، اندفع دانيال عائدًا إلى الرّدهة الّتي جاءا منها. وللحظة، ظنّ أرتيوم أنّ شريكه خاف من المكتبيّين كثيرًا، لذلك كان يحاول الهرب. لكنّ دانيال لم يكن يركض بحثًا عن السّلم المؤدّي إلى المخرج، وإنّما كان يلفّ حوله. ثمّ ركض وتجاوز خزن بطاقات الفهرس النّاجية إلى الطّرف المقابل من الرّدهة، حيث تضيق الغرفة وتنتهي في ثلاثة أزواج من الأبواب، زوج من الأمام وزوجين على كلّ جانب.

كانت الأبواب الّتي على اليمين، تؤدّي حيث يسود ظلام مطلق، وهنا وقف البرهميّ أخيرًا ليلتقط أنفاسه. استغرق أرتيوم بضع ثوان ليلحق به، لأنّه لم يتوقّع أبدًا هذه الرّشاقة من رفيقه. ووقفا بلا حراك يصغيان فقط. فسمعا إطلاق رصاص وصراخ من القاعة الرّئيسيّة، وهذا يعني أنّ القتال مستمرّ. لم يكن واضحًا لمن كانت اليد العليا في المعركة، ولم يستطيعا تضييع الوقت في انتظار معرفة الفائز.

لماذا رجعنا؟ لماذا بدأنا بالذّهاب في الطّريق الآخر؟ سأل أرتيوم وهو يلتقط أنفاسه.

لا أعرف إلى أين يأخذوننا. هزّ دانيال كتفه بلامبالاة: ربّما ينويان أن يأخذاننا إلى طريق آخر ما. لم يعلّمنا الكبار سوى طريق واحد يؤدّي إلى المحفوظات، وهو من هذا الجانب من الرّدهة بالضّبط. والآن نحن نصعد السّلّم طابقًا واحدًا، ثمّ نسير في الرّواق إلى مجموعة أدراج أخرى، وبعد ذلك إلى بطاقات الفهرس المضاعفة، ومنها نكون في المحفوظات (الأرشيف).

صوّب بندقيّته في الظّلام، ومشى في بيت السّلّم. وتبعه أرتيوم وهو ينير الطّريق بمصباحه.

هناك بئر سلّم في وسط الدّرج، ينزل إلى ثلاثة طوابق، ويصعد نفس المسافة تقريبًا. وعلى ما يبدو كان لبئر سلّم مزجّج في الماضي، لأنّ هناك قطع حادّة من الزّجاج غطّاها غبار عقود من الزّمن، وظلّت ناتئة من الهيكل الصّلب. كان بئر السّلّم المربّع محاطًا بأدراج خشبيّة، انتثر فوقها زجاج مكسّر وخراطيش نحاسيّة مستهلكة، وأكوام جافّة من الغائط. وليس هناك أيّ أثر لسياج. اضطرّ أرتيوم أن يلتصق بالجدار، وينظر بانتباه أين سيضع خطوته، كي لا ينزلق ويسقط في الفتحة.

صعدا طابقًا واحدًا، ووجدا نفسيهما في غرفة مربّعة صغيرة. وتوجد ثلاثة مخارج هنا أيضًا، عندها أدرك أرتيوم أنّه على الأرجح، لن يجد طريقه للخروج من هذه المتاهة بدون دليله. يؤدّي الباب الّذي على اليسار إلى رواق مظلم عريض لا تُرى نهايته بواسطة ضوء المصباح. أمّا الباب اليمينيّ، فكان مغلقًا ووضعت عليه ألواح متصالبة لسبب ما، وكُتِب على الجدار المتاخم في السّخام: (لا تفتح، خطر مميت)..

قاد دانيال أرتيوم إلى الأمام مباشرة، في ممرّ يمتدّ على شكل زاوية، ويتّصل برواق آخر أضيق مملوء بأبواب جديدة. لم يتحرّك البرهميّ بسرعة كبيرة في هذا الرّواق،

وتوقف لينصت. وكانت الأرض هنا مفروشة بخشب مزخرف، وهناك علامات تحذيريّة تقول: (تقيّدوا بالصّمت) عُلِّقت على الجدران الّتي طُليت باللّون الأصفر مثل كلّ الجدران في المكتبة كلّها. هناك غرف ومكاتب مليئة بالنّفاية، تمكّنا من رؤيتها من خلف أبواب فتحت على مصراعيها، ويُسمع أحيانًا حفيف من خلف الأبواب المغلقة. اعتقد أرتيوم أنّه سمع خطوات، وعرف من خلال الحكم على وجه شريكه، أنّ الوضع ليس جيّدًا، لذا عجّلا في الخروج من بأسرع ما يمكن.

بعدئذ ظهر مدخل إلى بيت درج آخر على اليمين، كما توقّع دانيال. وكان مضاء بشكل أفضل مقارنة بظلام القاعات، فهناك نوافذ في كلّ مجموعة من الدّرج. من الطّابق الخامس يمكن رؤية السّاحة وبعض الأبنية وهياكل محترقة لمعدّات تقنيّة. لكنّ أرتيوم لم يستطع تفحّص السّاحة طويلًا، فقد ظهر شكلان رماديّان أحدبان من خلف زاوية العمارة الّتي كان هو ودانيال فيها. وشقّا طريقهما ببطء عبر السّاحة كما لو أنّهما يبحثان عن شيء. وفجأة، توقّف أحد المخلوقين ورفع رأسه، وشعر أرتيوم كأنّه ينظر إلى النّافذة الّتي يقف عندها مباشرة. قرفص أرتيوم بعد أن تراجع، ولم يكن بحاجة لأن يشرح لشريكه ما حدث، لأنّه فهم كلّ شيء.

المكتبيّون؟ همس بذعر وقرفص أيضًا لكي لا يكونوا مرئيّين من الشّارع.

أمال أرتيوم رأسه بصمت. وبعد ذلك مسح دانيال زجاج قناعه الغازيّ، كما لو أنّ هذا سيساعد على تجفيف جبينه الّذي كان يتعرّق بسبب القلق. ثمّ جمع أفكاره وأسرع بصعود الدّرج وهو يجرّ أرتيوم خلفه. صعدا مجموعة واحدة من الدّرجات، ثمّ مجموعة أخرى من الأروقة المتعرّجة... وأخيرًا، توقّف البرهميّ غير واثق أمام أبواب كثيرة.

أنا لا أتذكّر أيّ شيء عن هذا المكان، قال في ارتباك: يُفترض وجود مدخل فهرس البطاقات المضاعفة، لكن لم يخبرنا أحد بوجود مداخل أبواب كثيرة.

فكّر مليًّا ثمّ هزّ قبضة أحد الأبواب بتردّد، كان مقفلًا وكانت الأبواب الأخرى مقفلة أيضًا. هزّ أرتيوم القبضات مرّة أخرى وكأنّه لم يصدّق أنّها مغلقة، ثمّ حاول أرتيوم أيضا، ولكن بلا نتيجة.

إنّها مقفلة، قالها بيأس.

فجأة، ارتعد دانيال قليلًا ونظر أرتيوم إليه في ذعر، وابتعد عن شريكه خطوة من قبيل الاحتياط. لكنّ دانيال ضحك فقط.

لماذا لا تدقّ الباب؟ اقترح على أرتيوم، وأضاف في ضحكة متشنّجة: آسف ربّما أصابتني نوبة هستيريا.

شعر أرتيوم بالضّحك المتنافر يملأه أيضًا. بدأ التّوتر الّذي تولّد في السّاعات الماضية في الظّهور، وحاولا بكلّ قوّتيهما أن يضبطا نفسيهما، لكنّ قهقهتهما السّخيفة اندلعت إلى الخارج. ثمّ وقفا لدقيقة وظهريهما إلى الجدار، وضحكا.

أقرعُ؟ كرّر أرتيوم وهو يمسك بطنه وقد ندم لأنّه لم يكن قادرًا على انتزاع قناعه الغازيّ، ليمسح دموعه.

ثمّ مشى إلى أقرب باب، وطرقه ثلاث مرّات ببراجمه. وبعد ثانية واحدة ردّت ثلاث طرقات من الطّرف الآخر للباب.

جفّ حلق أرتيوم فورًا، وبدأ قلبه يخفق بشكل جنونيّ في صدره. أحد ما كان يقف خلف الباب ويستمع إلى ضحكهما، وينتظر الوقت المناسب. ما هذا؟! رماه دانيال بنظرة مجنونة بالخوف، وأبعده عن الباب.

ومن الجانب الآخر، دقّ أحد ما مرّة أخرى بقوّة أكبر، وبإلحاح.

ثمّ عمل أرتيوم بما علّمه سوخوي مرّة. ابتعد عن الجدار وركل قفل الباب الّذي يليه. لم يعتقد أنّ الأمر سينجح، لكنّ الباب انفتح بصوت ارتطام، وتمزقت آليّة القفل المعدنيّة كلّها مع بعض الخشب المهترئ.

كانت الغرفة الّتي خلف هذا الباب، لا تشبه غرف المكتبة الأخرى أو الأروقة الّتي مرّوا بها. ولسبب ما كان الجوّ هنا رطبًا جدًّا وقاسيًا، وشاهدا بواسطة ضوء المصباح قاعة صغيرة غطّتها نباتات غريبة. سوق نباتات سميكة وأوراق زيتيّة سميكة، ومزيج من روائح مركّزة اخترقت مصافي قناعيهما الغازيّين. وأرضيّة غطّتها جذور متشابكة وجذوع وأشواك وأزهار. وقد اختفت جذور بعضها في أنابيب أو أصص مكسّرة. أمّا الكرمة الّتي أصبحت معتادة الآن، فقد انضفرت ودعّمت صفوفًا من الخزن الخشبيّة الّتي تتشابه في المظهر مع تلك الّتي في الرّدهة الكبيرة، لكنّها تعفّنت تمامًا بسبب الرّطوبة العالية. وقد توضّح ذلك حين حاول دانيال فتح أحد الأدراج.

إنّه فهرس البطاقات المزدوج، أخبر دانيال أرتيوم بارتياح. نحن لسنا بعيدين الآن.

سمعا طرقًا على الباب خلفهما، ثمّ جرّب أحد ما قبضة الباب بحذر، وكأنّه يختبرها. فحرّكا جانبا الكرمة بالبنادق، وحاولا ألّا يدوسا فوق الجذور الّتي امتدت على الأرضيّة. وأسرعا كي يجتازا هذه الحديقة السّرّيّة المخبّأة في أعماق المكتبة. هناك باب آخر في الطّرف الآخر من القاعة، وهذا الباب لم يكن مقفلًا. اجتازا الرّواق الأخير وتوقّفا أخيرًا. كانا في الأرشيف المكدّس. وشعرا به فورًا من خلال غبرة الكتب المنتشرة في الهواء. المكتبة تتنفّس بهدوء، وسُمعت تمتمة ملايين الصّفحات بشكل خفيف جدًّا. نظر أرتيوم حوله وبدا له أنّه يشمّ رائحة الكتب القديمة، فهي عادة محبّبة منذ طفولته. ثمّ نظر إلى دانيال متسائلًا:

هذا هو؟ نحن هنا؟ أكّد دانيال، ثمّ أضاف في نغمة مفعمة بالأمل:حسنًا وماذا بعد؟

حسنًا، إنّ الأمر مخيف، اعترف أرتيوم بذلك من غير أن يعرف مباشرة ما الّذي يتوقّعه شريكه.

هل تسمع الكتاب؟ أوضح البرهميّ. يجب أن يكون صوته مميّزًا أكثر من هنا.

أغلق أرتيوم عيونه، وحاول التركيز. كان رأسه من الدّاخل فارغًا، ويردّد الصّدى كما لو أنّه نفق مهجور. وقف هكذا برهة، فبدأ يسمع ثانية ضوضاء خفيفة ملأت بناء المكتبة. لكنّه لم يسمع أيّ شيء يشبه صوتًا بشريًّا أو نداءً. والأسوأ أنّه لم يشعر بأيّ شيء. وحتّى لو افترض المرء أنّ الصّوت الّذي تكلّم عنه دانيال والبراهمة الآخرين كان نموذجا مختلفًا من الإحساس، فلن يبدّل شيئًا.

كلّا أنا لم أسمع شيئًا. مدّ يديه.

لابأس، تنهّد دانيال بعد صمت. لنذهب إلى مستوى آخر. يوجد تسعة عشر مستوى هنا. وسنظلّ نبحث حتّى نجده. فمن الأفضل ألّا نرجع بيد فارغة.

بعد أن خرجا إلى سلّم الخدمة، صعدا عدّة طبقات من الدّرجات الإسمنتيّة قبل أن يتوقّفا ليجرّبا حظّهما مرّة أخرى. في هذا المستوى بدا كلّ شيء مثل المكان الّذي أتيا منه في البداية: غرفة متوسّطة الحجم مع نوافذ مصقولة، وطاولات مكتب كثيرة، والخضرة المألوفة النّامية الآن على السطح وفي الزوايا، وهناك رواقان يذهبان في اتّجاهين مختلفين ملأتهما صفوف لا نهاية لها من رفوف الكتب على جانبيّ الممر الضّيّق. كان السّقف في كلا الغرفتين والممرّات منخفضًا، يزيد عن المترين قليلا. وبعد السعة الّتي لا تُصدّق للرّدهة وغرفة المطالعة الرّئيسيّة، بدا من الصّعب التّنفّس. فما بالك في شقّ طريق بين الأرضيّة والسّقف. أكداس من آلاف الكتب المختلفة، رزمت بكثافة وبدا أنّ الكثير منها غير متضرّر أبدًا، فقد حُفِظت بشكل إعجازيّ، وهذا دليل على أنّ المكتبة بنيت لكي تحافظ على مناخ محليّ في داخلها حتّى عندما يهجرها النّاس. رؤية هذه الثّروة الخرافيّة جعلت أرتيوم ينسى لدقيقة سبب وجوده هناك، فغاص في واحد من الصّفوف ينظر إلى ظهور الكتب، ويمرّر يده فوقها بتبجيل. ودانيال الّذي استنتج أنّ شريكه سمع الصّوت الّذي أرسل من أجله إلى هنا، لم يتدخّل في البداية، لكنّه أدرك بعدئذ ما كان يجري. أمسك أرتيوم بقسوة، وجرّه إلى مكان أبعد.

كان هناك ثلاثة، أربعة، ستّة أروقة، ومئة، مئتان من الأكداس. آلاف وآلاف من الكتب، كشفتها بقعة الضّوء الأصفر في ظلمة الأرشيف المكدّس الّتي لا تُختَرَق. المستوى التّالي، المستوى التّالي... كلّ ذلك بلا نتيجة. لم يشعر أرتيوم بشيء يمكن أن يُقال عنه صوت أو نداء. لاشيء غير عاديّ إطلاقًا. تذكّر أنّ البراهمة في اجتماع بوليس اعتبروه المختار الّذي يتمتّع بموهبة خاصّة، وهو الّذي يرشده القدر. ثمّ كان للعسكر تعليلهم الخاصّ بهم بخصوص رؤياه غلى أنّها (هلوسات)

بدأ يشعر بشيء على الطّوابق القليلة الأخيرة، لكن لم يكن ما توقّعه أو أراده. كان شعورًا غامضًا بوجود شخص ما، ذكّره بخوف الأنفاق السّيّء الصّيت. وعلى الرّغم من أنّ كلّ المستويات الّتي زاراها بدت مهجورة تمامًا، ولم يكن هنا أيّ علامة للمكتبيّين أو غيرهم من المخلوقات، لكنّه ظلّ راغبًا في الالتفات حوله. وكان لديه شعور مجنون بأنّ أحد ما كان يراقبهما بحذر من خلال رفوف الكتب.

ربت دانيال بيده على كتف أرتيوم، ووجّه ضوء المصباح إلى حذائه فرأى رباطًا طويلًا لم ينجح البرهميّ في ربطه، فكان يسحل خلفه على الأرض.

بينما أربط هذا، تقدّم أنت وألق نظرة. فربّما تسمع شيئًا أخيرًا، همس وقرفص.

أمال أرتيوم رأسه وتابع تقدّمه ببطء خطوة خطوة، وكان ينظر إلى دانيال في كلّ ثانية. كان دانيال يمرّ بوقت صعب، فلم يكن شدّ رباط حذاء مخلوع سهلًا وأنت تضع قفّازات سميكة. كان أرتيوم يتقدّم، وسلّط الضّوء أوّلا على الصّف اللّانهائيّ من الرّفوف الّتي على يمينه، ثمّ ألقى شعاع مصباحه بسرعة إلى اليسار، وحاول أن يرى ظلالًا رماديّة معقوفة من المكتبيّين في صفوف الكتب القديمة المطمورة بالغبار. وبعد أن تقدّم ثلاثين مترًا تقريبًا أمام شريكه، سمع أرتيوم بوضوح حفيفًا على بعد صفّين اثنين منه. كانت بندقيّته في يده مسبقًا، لهذا ضغط مصباحه على سبطانة البندقيّة، وبقفزة واحدة كان عند الرّواق الّذي ظنّ أنّ احدًا ما كان يختبىء فيه.

رأى صفّين من الرّفوف حُشِرا إلى قمّتيهما بالمجلّدات يتراجعان في البعيد. فراغ. انقضّ الضّوء إلى اليسار، ربّما كان العدوّ مختبئًا هناك في الجهة المعاكسة. فراغ.

حبس أريتوم أنفاسه وحاول أن يميّز أقلّ الضّجيج. ولم يكن هناك شيء سوى تمتمة الصّفحات الخادعة. عاد إلى الممرّ وقذف بشعاعه حيث كان دانيال يتصارع مع رباط جزمته. فوجد المكان فارغًا. فارغ؟ اندفع أرتيوم إلى الوراء دون أن ينظر إلى أين هو ذاهب. تقافزت بقعة ضوء مصباحه بشكل جنونيّ من جانب لآخر، وأنارت الصّفوف صفًّا إثر صفّ من الرّفوف المتماثلة في الظّلام. أين وقف؟ ثلاثون مترًا.. ثلاثون مترًا تقريبًا، يفترض أن يكون هنا، ولكن، ما من أحد هنا. إلى أين يكمنه أن يذهب دون أن يخبر أرتيوم أوّلًا؟ إن كان تعرّض لهجوم، لماذا لم يقاوم؟ ماذا حدث؟ ماذا يمكن أن يحدث له؟

كلّا، لقد عاد وابتعد كثيًرا جدًّا. يفترض أنّ دانيال في مكان أقرب... لكنّه لم يكن في أيّ مكان. شعر أرتيوم أنّه يفقد السّيطرة على أفعاله، وأنّه بدأ يشعر بالهلع. فوقف في نفس المكان الّذي ترك فيه دانيال ليربط رباط حذائه، وأسند ظهره بلين على طرف الرّفّ. وفجأة سمع صوتًا غير بشريّ تمامًا من أعماق صفّ رفّ الكتب، ثمّ تكسّر إلى صرخة مخيفة: أرتيوم...

كان الصّوت قريبًا تمامًا. وفجأة لمع ضوء رفيع عبر الرّفّ، ورشح بين بعض رفوف الكتب الرّخوة في المستوى الأوّل. الضّوء كان يتراجع ويتقدّم كما لو أنّ شخصًا كرّر التّلويح بالمصباح يمينًا وشمالًا. وسمع أرتيوم صليل معدن.

أرتيوم... الصّوت مدرك بالكاد، لكنّه هذه المرّة كان همسًا مألوفًا، وهو صوت دانيال بلا شكّ.

تقدّم أرتيوم خطوة، وشعر بفرح على أمل أن يرى شريكه حين شقّ نفس الصّوت الحادّ الغريب الّذي سمعه أوّلًا، الهواء عن قرب لا يزيد عن خطوتين.

أرتيوم... كرّر الصّوت الغريب مناديًا.

تقدّم أرتيوم خطوة أخرى، نظر إلى اليمين وقد وقف شعر رأسه حتّى أطرافه. هنا انتهى صفّ الرّفوف، وشكّل كوّة في الجدار. وكان دانيال جالسًا على الأرض في

بركة من الدّم، خوذته ممزّقة وكذلك قناعه الغازيّ، يرقد على الأرض على مسافة بعيدة هنا، وجهه كان شاحبًا مثل جثّة، لكنّ عيناه كانتا واعيتين وشفتاه تحاولان التّكلّم. وظهر خلفه شكل رماديّ أحدب يختبىء في الظّلام. يد عظمية طويلة مع فراء ذهبيّ كثّ وبلا كفّ، لكنّها يد حقيقيّة ومخالب جبّارة ملتوية تدحرج المصباح الّذي سقط على الأرض. والآن هو على بعد نصف متر عن دانيال، أمّا اليد الأخرى فكانت مدفونة في بطن البرهميّ الممزّقة.

أنت هنا؟ همس دانيال.

أنت هنا؟ قال الصّوت خلف ظهر دانيال بنبرة هائجة وبنفس النّغمة تمامًا.

مكتبيّ... خلفي. أنا ميّت بأيّ حال. أطلق النّار. اقتله، قال دانيال في صوت ضعيف.

أطلق النّار. اقتله، كرّر الظّلّ قائلًا.

تدحرج المصباح بتروٍّ مرّة أخرى على الأرض إلى اليسار، ليعود إلى نقطة انطلاقه ليكرّر الدّائرة مرّة أخرى. شعر أرتيوم أنّه يفقد عقله. وتحرّكت في رأسه بعنف كلمات ميلنك عن صوت الطّلقات الّذي يجذب الوحوش المرعبة.

انصرف، قال للمكتبيّ دون أن يتوقّع منه أن يفهم.

انصرف، جاء الرّدّ شبه الرّقيق، لكنّ اليد الزّاحفة استمرت في البحث عن شيءٍ ما في بطن دانيال، ممّا جعل دانيال يئنّ بهدوء، بينما رسمت نقطة دم خطًّا سميكًا من زاوية فمه إلى ذقنه.

أطلق النّار، قال دانيال بصوت أعلى بعد أن استجمع بعض قوّته.

أطلق النّار، طالب المكتبيّ من خلف ظهره.

هل يطلق النّار على صديقه الجديد؟ وبفعله هذا سيجذب مخلوقات أخرى، أم هل عليه أن يترك دانيال يموت هنا، ويهرب مادام هناك وقت لهذا؟ كان إنقاذ دانيال أمرًا مستحيلًا ببطنه المشقوق وأحشائه المنزوعة، لم يبق للبرهميّ سوى أقلّ من نصف ساعة.

ظهرت أذن رماديّة من خلف رأس دانيال المشذّب، تلتها عين خضراء ضخمة تلألأت في ضوء المصباح. نظر المكتبيّ ببطء من خلف شريكه المحتضر بخجل تقريبًا، والتقت عيونه بعيون أرتيوم. لا تشح بعينك جانبًا. انظر بشكل مستقيم هناك إليه مباشرة، في بؤبؤ العين مباشرة.... كان البؤبؤ شاقوليًّا، مثل بؤبؤ حيوان. والغريب جدًّا أنّك ترى آثارًا من الذّكاء في هاتين العينين الشّرّيرتين.

الآن، ومن مسافة أقرب، المكتبيّ يشبه الغوريلا أو حتّى السّعدان. وجهه مغطّى بالوبر، وفمه مملوء بأنياب طويلة، ويصل من الأذن إلى الأذن، وعيناه بحجم كبير جعلتا المسخ يختلف عن أيّ حيوان رآه أرتيوم سواء في الحياة الحقيقيّة أو في الصّور.

بدا له أنّ الأمر استمرّ وقتًا طويلًا، فبعد أن غرق في تحديق المخلوق لم يعد يستطيع انتزاع نفسه من هذين البؤبؤين. وبعد أن نفث دانيال أنينًا عميقًا متباطئًا حتّى انتزع أرتيوم نفسه منهما. وضع النّقطة الحمراء الصّغيرة لمنظاره مباشرة على الفرو الرّمادي لجبهة المكتبيّ المنخفضة، وحرّك بإبهامه العتلة على وضعيّة الإطلاق النّصف آلي. وعند سماع التّكّة المعدنيّة النّاعمة، بقبق المسخ بغضب واختبأ مرّة أخرى خلف ظهر دانيال.

انصرف، قال المسخ فجأة من خلف ظهر أرتيوم مقلّدا نغمة صوت أرتيوم بشكل تامّ.

توقّف أرتيوم مشوَّشا في مساراته. هذه المرّة لم يردّد المكتبيّ كلماته فقط، بل كان يتذكّرها ويفهم معناها. هل يمكن أن يكون هذا؟

أرتيوم، بينما مازلت أستطيع الكلام... بدأ دانيال الكلام بعد أن استجمع قوّته، وحاول إن يركّز نظرته الّتي كانت تكفهّر أكثر في كلّ دقيقة: في جيب الصّدر... مغلّف أمرت أن أعطيه لك إن وجدت الكتاب.

لكنّي لم أجد شيئًا، هزّ أرتيوم رأسه.

لم أجد أيّ شيء، ردّد الصّوت الغريب خلف ظهر دانيال.

لا يهمّ... أنا أعرف لماذا وافقت على القيام بهذا العمل. لم يكن من أجلك.. ربّما يساعدك. لا يهمّني إن أطعت الأمر أم لا. تذكّر هذا فقط: لن تستطيع العودة إلى بوليس إن اكتشفوا أنّك أتيت فارغ اليدين، وإن اكتشف العسكريّون... اذهب عبر محطّات أخرى. والآن أطلق النّار لأنّ هذا يؤلم فعلًا، أنا لا أريد...

لا أريد... يؤلم... كرّر المسخ هذه الكلمات بعد أن خلطها في هسيس، وقامت ذراعه بحركة مفاجئة في بطن دانيال الممزّقة، جعلت الأخير يرتعش بتشنّج ويصرخ بكلّ قوّته.

لم يعد أرتيوم يتحمّل أكثر من ذلك. رمى بالحذر أدراج الرّياح وأعاد وضع بندقيّته إلى الوضعيّة الآليّة، وضغط شفتيه وشدّ الزّناد، فغرز الطّلقات في جسد شريكه والوحش الّذي اختفى خلف جسده. مزّق الضّجيج غير المتوقّع صمت المكتبة إلى أشلاء. وتلاه صرير أصوات حادّة توقّفت فجأة كلّها بنفس الوقت. امتصّت الكتب المغبرّة صداها مثل إسفنجة. وحين فتح أرتيوم عينيه كان الصّدى قد انتهى.

اقترب من المكتبيّ الذّي أسقط رأسه المثقّب بالرّصاص على كتف ضحيّته، وظلّ يختفي خلف الضحيّة بخجل حتّى في الموت. أضاء أرتيوم الصّورة المخيفة وشعر بدمه يبرد في عروقه، بينما تعرّقت راحتا يديه من التّوتر. بعدئذ لكز المكتبيّ بحذر بمقدّمة حذائه وسقط جسده للخلف بقوّة. كان ميّتا بلا أدنى شكّ.

بدأ أرتيوم بفكّ سحّاب بدلة دانيال الميّت الواقية، وحاول ألّا ينظر إلى وجهه. أصبح القماش منقوعًا بدم سود سميك، وصعد بخار شفّاف منه في هواء أكداس الأرشيف البارد. بدأ أرتيوم يشعر بالغثيان. جيب الصّدر... حاولت الأصابع الّتي بداخل

قفازات الحماية بارتباك أن تفك الزرّ، وخطر له أنّ هذه القفازات ربّما هي التي أخّرت دانيال دقيقة واحدة كلّفته حياته.

سمع حفيفًا بعيدًا بوضوح، تلاه طقطقة خطوات أقدام حافية في الرّواق. دار أرتيوم حول نفسه بعصبيّة وسلّط ضوء مصباحه على الممرّات. وبعد أن اطمأنّ أنّه لوحده في هذه اللّحظة، استمرّ في كفاحه مع الزرّ. استسلم الزّرّ لأصابعه الصّلبة أخيرًا، ونجح في نزع مغلّف رماديّ رقيق من داخل الجيب. كان المغلّف داخل كيس من البوليثيلين ثقبته رصاصة.

بالإضافة إلى ذلك، وجد أرتيوم بطاقة كرتونيّة مستطيلة ملوّثة بالدّم في الجيب. ولا شكّ أنّها البطاقة الّتي أخرجها دانيال من درج فهرس البطاقات في الرّدهة. كُتِب على البطاقة: (شنوركوف، ن ي الري وافاق الزراعة في جمهورية الطاجيك الاشتراكية السوفيتية. دوشانبي، 1965.)

باتت طقطقة الأقدام والتّمتمة مسموعة الآن، وعلى مسافة قصيرة جدًّا. لم يبق أيّ وقت. جمع بندقيّة دانيال ومصباحه الّذي سقط من مخالب المكتبيّ، وانتزعهما وركض عائدًا في الطّريق الّذي أتى منه بأقصى سرعته، دون أن يرى إلى أين كان ذاهبًا. وتجاوز صفوفًا لا نهاية لها من رفوف الكتب. لم يكن متأكّدا إن كان هناك من يطارده، لأنّ ضجيج جزمته وضربات قلبه منعاه من سماع أيّ صوت خلفه.

حالما قفز إلى بيت السّلّم، بدأ يتشقلب على الدّرجات الإسمنتيّة، وأدرك أنّه لم يكن يعرف الطّابق الّذي يقع فيه المدخل الّذي استخدموه للدّخول إلى الأرشيف حتّى. استطاع النّزول إلى الطّابق الأوّل طبعًا، فقد كسر بيت السّلّم الزّجاجيّ، وقفز خارجه إلى السّاحة. وتوقّف لثانية واحدة، ونظر إلى الخارج.

في وسط السّاحة تمامًا وقفت مخلوقات رماديّة كثيرة، بلا حركة ووجوهها متّجهة للأعلى، تنظر إلى النّوافذ وإليه مباشرة كما يبدو. تحجّر أرتيوم من شدّة الخوف والتصق بجدار جانبيّ واستأنف نزوله. وبعد أن توقّف ضجيج حذائه على الدّرج، سمع طقطقة الأقدام الحافية الّتي علا صوتها أكثر فأكثر. ففقد السّيطرة على نفسه تمامًا، واستأنف اندفاعه الطّائش والسّريع وهو يهبط الدّرج.

قفز إلى الخارج عند المستوى الثّاني لكي ينظر حوله بحثًا عن باب مألوف، لكنّه لم يجده. فرمى نفسه إلى الأمام ثمّ توقّف وحشر نفسه في زوايا مظلمة حين سمع خطوات قريبة. نظر حوله بيأس في الممرّات المسدودة، ودخل إلى الدّرج مرّة أخرى ليهبط طابقًا آخر، أو يصعد طابقين آخرين، فربّما أغفل شيئًا ما؟ أدرك أنّ الضّجيج الجهنميّ الّذي حاول به يائسًا أن يجد مخرجًا من هذه المتاهة، سيجذب كلّ ساكن رهيب في المكتبة، لكنّه كان عاجزًا عن تهدئة نفسه. وظلّ يحاول بشكل أحمق وفاشل، أن يجد المخرج. استمرّ هذا الحال إلى أن رأى ظلّا مألوفًا محدودبًا على خلفيّة نافذة محطّمة، حين أوشك أن يدخل إلى بيت الدّرج ثانية. تراجع أرتيوم للوراء وغاص في الممرّ الأوّل الّذي ظهر له، ثمّ ضغط ظهره إلى الجدار، وصوّب بندقيّته إلى الفتحة الّتي اعتقد أنّ المكتبيّ ظهر منها، وقطع تنفّسه...

صمت.

إمّا أنّ الوحش قرّر ألّا يطارد أرتيوم لوحده، أو أنّه كان ينتظر أرتيوم ليرتكب خطأ فادحًا، فيخرج من مخبأه. لم يكن مجبرًا على العودة بنفس الطّريق، فقد كان الممرّ يؤدّي إلى الأمام. فكّر أرتيوم بقوّة لثانية واحدة، وبدأ يتراجع من الفتحة دون أن يصرف نظره عنها.

انعطف الرّواق إلى الجانب، ولكن في المكان الّذي بدأ فيه الانعطاف بالذّات، هناك ثقب أسود في الجدار. والمنطقة رُشّت بالكلس وتناثرت كسر القرميد فيها. خطا أرتيوم عبر الحفرة مطيعًا دافعًا ما، ودخل إلى غرفة مملوءة بالأثاث المحطّم. قِطع من فيلم فوتوغرافي وسينمائي تبعثرت فوق الأرضيّة. وتمكّن من رؤية باب موارب أمامه، وخلفه إسفين ضيّق من ضوء قمر باهت سقط على الأرض. تقدّم أرتيوم بحذر على الأرضيّة الخشبيّة المخادعة ذات الصّرير، ووصل إلى الباب ونظر إلى الخارج.

لقد عرف الغرفة رغم أنّه الآن في الطّرف المعاكس. التّمثال المهيب لشخص يقرأ، والارتفاع الّذي لا يصدّق للسّقف، والنّوافذ العملاقة، والممرّ الّذي يؤدّي إلى الباب الخشبيّ الغريب للمخرج، بالإضافة إلى صفوف غير مرتّبة من طاولات القراءة على الجانبين. لا شكّ أنّه كان في غرفة المطالعة الرّئيسيّة. وقف على الدّاربزون الخشبيّ المطوّق للرّدهة الضّيّقة الّتي تحيط بالقاعة بارتفاع أربعة أمتار. من هذه الصّالة هبط عليهم المكتبيّون.

وليس لديه أيّ فكرة عن كيفيّة نجاحه في الوصول إلى هنا من الأرشيف المكدس، عداك عن الالتفاف حول المسلك الّذي سافر هو ودانيال فيه للوصول إلى هناك. ولكن، ليس هناك وقت للتّفكير، فقد يكون المكتبيّون في أعقابه تمامًا.

نزل أرتيوم على واحد من سلّمين متماثلين أوصله إلى قاعدة النّصب التّذكاريّ، ووثب إلى الأبواب. غير بعيد عن قنطرة المخرج الخشبيّة، كان هناك عدد كبير من أجساد المكتبيّين ملقاة على الأرض، وقد بسطوا أذرعهم وأرجلهم. وعندما اجتاز المكان الّذي حدثت فيه المعركة، كاد أن يسقط في بركة من الدّماء الثّخينة حين فقد موطئ أقدامه.

بعد أن انفتح الباب الخشبيّ المنحوت بعناد، أعماه ضوء أبيض ساطع على الفور. وتذكّر تعليمات ميلنك، فأمسك بمصباحه في يده اليمنى، ورسم بسرعة ثلاث دوائر كإشارة منه بأنّه سوف يقترب بنوايا سلمية. انحرف الشّعاع المبهر جانبًا فورًا. وأرتيوم الّذي وضع بندقيّته الآليّة خلف ظهره، تحرّك ببطء إلى داخل غرفة مستديرة ذات أعمدة وأريكة، لكنّه ما زال لا يعرف من سيقابل.

انتصبت بندقيّة آليّة على حاملها الثّلاثي على الأرض، وكان ميلنك منكبًّا فوق شريكه. كان تن مضطجعًا على الأريكة وعيونه مغلقة، ويصدر صوت أنّات قصيرة بين الحين والآخر. ساقه اليمنى ملوية بشكل غير طبيعيّ، وعندما رآه أرتيوم أدرك أنّها مكسورة من عند الرّكبة، ولم تعد تنثني إلى الأمام أو الخلف. لم

يستطع أن يتخيّل كيف يحدث شيء كهذا، وأيّ قوّة يمتلكها الذي استطاع أن يعطل المطارد القويّ البنية والشّجاع.

أين رفيقك؟ قذف ميلنك أرتيوم بسؤال بعد أن استدار عن تن لثانية واحدة.

المكتبيّون... في المستودع. هاجموا، حاول أرتيوم أن يشرح. ولسبب ما لم يرد أن يقول أنّه قتل دانيال بنفسه رحمة به.

هل وجدت الكتاب؟ سأل المطارد فجأة.

كلّا، هزّ أرتيوم رأسه، لم أسمع أيّ شيء هناك، ولم أشعر بأي شيء.

ساعدني كي نرفعه، كلّا، من الأفضل أن تأخذ حقيبة ظهره وحقيبتي أيضًا. انظر كيف أصبحت ساقه.

هم مزّقوها تقريبًا. ولا يمكن حمله الآن إلّا على الظّهر.

أمال ميلنك رأسه لتن.

وجمع أرتيوم كلّ المعدّات، ثلاث حقائب ظهر، وبندقيّتان أليّتان وبندقيّة آليّة خفيفة، فقارب الوزن الكليّ على ثلاثين كيلو غرام، ولم يكن رفعها سهلًا. لكنّ الأمر أصعب مع ميلنك الذي حمل الجسد الأعرج لشريكه على كتفه مع بعض الصعوبة، واستغرقت الرّحلة القصيرة إلى السّلّم باتّجاه المخرج، دقائق كثيرة طويلة.

لم يشاهدا أيّ مكتبيّ في كلّ الطّريق إلى الأبواب، ولكن حين فتح أرتيوم الأبواب الخشبيّة الثّقيلة بقوّة لإدخال المطارد الّذي يأنّ، سمع نعيق بومة من أحشاء البناية يملؤه الكره والألم المبرح. شعر أرتيوم برعشة في جسده ثانية وأسرع في إغلاق الباب. والآن لم يبق عليهما إلّا الوصول إلى المترو بأسرع ما يمكن.

اخفض عينيك، أمره ميلنك حين كانا في الشّارع.

ستكون النّجمة أمامك مباشرة الآن. لا تفكّر في النّظر فوق الأسطح حتّى حرّك أرتيوم ساقيه المتيبّستين بالكاد، وحدّق بالأرض مطيعًا لا يفكّر إلّا بقهر المئتي متر الممتدّين بشكل لا يمكن تخيّله، من المكتبة إلى بوروفتسكايا. لكنّ المطارد لم يسمح لأرتيوم بالدّخول إلى المترو.

يستحيل الذّهاب إلى بوليس الآن. فأنت لا تملك الكتاب وخسرت دليلهم، قال ميلنك وهو ينزل رفيقه المجروح بلطف إلى الأرض ويتنفّس بصعوبة. لن يحبّ البراهمة ذلك. وأساسًا، هذا يعني أنّك لست الشّخص المختار، وقد إئتمنوك على أسرارهم. ستختفي بلا أثر إن عدت إلى بوليس. لديهم اختصاصيّون هناك بغضّ النّظر إن كانوا أذكياء أم لا. وأنا لن أقدر على حمياتك حتّى. الآن يجب عليك أن ترحل. من الأفضل لك أن تذهب إلى سمولينسكايا. اذهب بشكل مستقيم. توجد هناك بضع بيوت ولا حاجة لأن تتعمّق في أيّ زقاق. ربّما تصل إلى هناك قبل شروق الشّمس إن استعجلت.

أيّ شروق؟ سأله أرتيوم محتارًا. وكان وقع خبر أنّ عليه أن يصل إلى المحطة الأخرى لوحده، والّتي تبعد كيلو مترين، مثل ركلة في الرّأس.

الشّمس. إنّ النّاس حيوانات ليليّة، ومن الأفضل لهم ألّا يظهروا على السّطح في النّهار. ولكن هناك من يحبّون ذلك من خارج الدّمار، ليدفّئوا أنفسهم في الشّمس، الّذين إن قاطعتهم واعترضتهم ستتدم مئة مرّة. وأنا لم أتحدّث عن الضّوء بعد حديثي هذا: سوف تُصاب بالعمى التّامّ في ثانيتين اثنتين، كما أنّ النّظّارات السّوداء لن تنقذك.

لكن لماذا سأذهب لوحدي؟ سأله أرتيوم وهو مازال غير مصدّق أذنيه.

لا تخف أبدًا. ستظلّ ماشيًا إلى الأمام بشكل مستقيم طوال الطّريق. وسوف تخرج إلى كالينينسكي، وتتابع على طول الطّريق فليس هناك أيّ انعطاف. لا تُظهر نفسك على الطّريق، وابق قريبًا جدًّا من البيوت. إنّهم يعيشون في كلّ مكان هناك. استمرّ حتّى تصل التّقاطع مع جادة عريضة ثانية، ستكون هذه سادوفوي كولتسو. هناك انعطف يسارًا وسر إلى الأمام إلى بناية شقق من حجارة بيضاء، كانت بيت أزياء في الماضي. ستجدها مباشرة مقابلك تمامًا، وعبر سادوفوي تنتصب بناية عالية جدًّا نصف مدمّرة، هي المركز التّجاري. ستجد خلف بيت الأزياء قنطرة صفراء كتب عليها: (محطّة مترو سمولينسكايا). انعطف نحوها وادخل فيها لتصل إلى ساحة صغيرة، ساحة داخليّة، وسترى المحطّة هناك. فإن كان كلّ شيء هادئا، حاول أن تنزل إلى داخلها. هناك مدخل واحد مغلق ومحروس يحتفظون به من أجل المتعقّبين الخاصّين بهم. اطرق البوّابة هكذا: ثلاث طرقات سريعة، طرقتان بطيئتان ثمّ ثلاث طرقات سريعة. يجب أن تفتحها. وأخبرهم أنّ ميلنك أرسلك، وانتظرني هناك. أنا سأنقل تن إلى المشفى ثمّ أغادر فورًا. سأجدك بنفسي. سأكون هناك قبل الظّهر. خذ البنادق الآليّة وبندقيّتك، فنحن لا نعرف كيف ستكون الأمور.

لكن هناك محطّة أخرى، أقرب على الخريطة كما تعرف، أرباتسكايا، تذكّر أرتيوم الاسم.

توجد هناك هكذا محطة، لكن يجب ألّا تقترب منها، وأنت لا تريد ذلك أيضًا. ستمرّ عبرها فقط وابق على الجانب الآخر من الشّارع، وتحرّك بسرعة لكن لا تركض. لا تضيّع أيّ وقت.. ختم ميلنك ودفع أرتيوم برفق نحو المخرج من الرّدهة. لم يُرد أرتيوم أن يجادل أكثر من ذلك. ألقى بإحدى البندقيّتين على كتفه، وحمل الثّانية في حالة استعداد وجاهزيّة، ودخل إلى الشّارع، وأسرع عائدًا نحو النّصب التّذكاريّ بعد أن غطّى عينيه بيده اليمنى، كي لا يرى إشعاع نجوم الكرملين المغري بالصّدفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرّابع عشر: هناك في الأعلى

قبل الوصول إلى الرّجل الحجريّ القديم في الكرسيّ المريح، انعطف أرتيوم إلى اليمين لكي يقطع زواية الشّارع الّذي بموازاة درج المكتبة. ألقى نظرة على البناء الفخم، وهو يمرّ وسرت رعشة في عموده الفقري، فقد تذكّر أريتوم السّكّان المرعبين لهذا المكان. غرقت المكتبة الآن في صمت موحش مرّة أخرى. لقد تفرّق القيّمون على الصّمت المسيطر على الأرجح، بين الزّوايا المظلمة. يلعقون جراحهم بعد غاراتهم الصّفيقة، ويتحضّرون لمغامرات تالية للتّعويض.

ظهر وجه دانيال الشّاحب والنّازف أمام عينيه. وخطر لأرتيوم أنّ البرهميّ لم ترعبه هذه المخلوقات وبدون سبب، حتّى أنّه رفض الكلام عنها. ترى، هل رأى موته في كوابيسه؟ سيبقى جسده للأبد مستلقيًا في أكداس الكتب يعانق المكتبيّ الّذي قتله. طبعًا، إن كانت هذه المخلوقات تحتقر الجيف... فإنّ أرتيوم جفل (وينسيد). هل يقدر أن ينسى كيف مات شريكه الّذي أصبح صديقه تقريبًا في يومين اثنين فقط؟ تصوّر أرتيوم أنّ دانيال سيعكّر صفو أحلامه لمدّة طويلة من الوقت، وسيحاول مرّات كثيرة أن يتكلّم معه في اللّيل بكلمات مبهة بشفتيه الملطّختين بالدّم.

بعد أن خرج إلى الجادة العريضة، راجع أرتيوم التّعليمات الّتي أعطاها له ميلنك. اذهب بشكل مستقيم إلى تقاطع كالينينسكي مع سودوفوي كولتسو، لا تلتفت إلى أيّ مكان... حاول أن تخمّن أيّ واحد من الشّوارع كولتسو. لا تمش في وسط الطّريق، لكن لا تلتصق جدًّا بجدران البيوت أيضًا، والأهمّ من ذلك يجب أن تصل إلى سمولنسكايا قبل شروق الشّمس.

بدأت ناطحات سحاب كالينينسكي الّتي عرفها أرتيوم من الملصقات البريديّة المصفّرة، مع مناظر لموسكو، على بعد نصف كيلومتر من المكان الّذي كان يقف فيه. والآن هناك بيوت منخفضة منفصلة على جانبيّ الشّارع الّذي انحنى إلى اليسار في نيواربات. أصبحت أشكال الأبنية الواضحة والقريبة ضبابيّة عندما ابتعد، وامتزجت في الشّفق واختفى القمر خلف غيوم منخفضة، ورشح الضّوء اللّبنيّ الهزيل بالكاد عبرها، ولم تظهر ظلال البيوت الشّبحيّة لفترة قصيرة إلّا بعد أن تبدّدت السّتارة السّديميّة. ولكن حتّى في مثل هذه الإضاءة في الأزقّة الّتي تقطع الشّارع، يمكن في كلّ مئة متر رؤية الشّكل الجبّار لكاتدرائيّة قديمة على اليسار. وكان على القبّة الّتي بأعلاها صليب، ظلّ مخلوق مجنّح ضخم.

ربّما لهذا السّبب وقف أرتيوم لينظر إلى الوحش المحلّق، والّذي لاحظه في الجوّ. وكان من الصّعب أن نحدّد في الشّفق إن كان خياله قد رسم الشّكل الغريب الّذي وقف بلاحراك في أعماق الزّقاق والتحم مع جدران البيوت المدمّرة جزئيًّا. وبعد أن تفحّصه أكثر، ظهر له عندها أنّ هذا اللّطخة من الظّلام تحرّكت قليلًا وأنّها تمتلك إرادتها الخاصّة بها. لم يكن من السّهل تحديد شكل المخلوق الغريب وأبعاده، من

تلك المسافة بدقة. لكن من الواضح أنّه كان يقف على ساقين اثنين. وقرّر أرتيوم أن يفعل كما أخبره المطارد. فسلّط الشّعاع بعد أن شغّل مصباحه في الزّقاق، وحركّه بشكل دائريّ ثلاث مرّات.

لم تكن هناك استجابة. وانتظرها أرتيوم عبثًا لمدّة دقيقة حتّى أدرك أنّ البقاء في نفس المكان، يمكن أن يكون خَطِرًا جدًّا. ولكن قبل يواصل السّير سلّط الضّوء على الشّكل غير المتحرّك في الزّقاق مرّة أخرى، فرأى شيئًا أجبره أن يُطفىء مصباحه فورًا، وحاول اجتياز الزّقاق بأقصر زمن ممكن.

من الواضح أنّه لم يكن إنسانًا، فقد أصبح شكله الظّليل أكثر وضوحًا في بقعة الضّوء. وكان طوله لايقلّ عن المترين ونصف، وأكتافه ورقبته مفقودة، وبرز له رأس مدوّر كبير من جسد ضخم وقويّ. اختبأ المخلوق ينتظر فرصته، وعلى الرّغم من هذا التردّد الواضح شعر أرتيوم بتهديده في عظامه.

قطع المئة والخمسين مترًا إلى آخر الزّقاق في أقلّ من دقيقة. وبعد النّظر جيًّدا، أدرك أنّه لم يكن زقاقًا حتى، وإنّما فتحة في منطقة سكنيّة حرقها سلاح من نوع ما. إمّا أنّها قصفت، أو أنّ صفًّا كاملًا من الأبنية دمّر بمعدّات عسكريّة ثقيلة. نظر أرتيوم باستغراب إلى البيوت شبه المدمّرة الّتي خبت على مسافة بعيدة، لكنّ انتباهه تركّز عندئذ على الظّلّ الغامض الّذي لا يتحرّك. كان يكفيه أن يسلّط شعاع المصباح عليه لثانية واحدة ليبدّد

كلّ الشّكوك، إنّه نفس المخلوق السّابق تمامًا أو رفيقه، يقف في وسط الزّقاق في نفس صفّ البيوت، حتّى أنّه لم يحاول الاختباء.

فكّر أرتيوم إن كان نفس المخلوق الّذي رآه في صفّ البيوت الّتي خلّفه سابقًا، فهذا يعني أنّه تسلّل في الشّارع الموازي للشّارع الّذي كان يمشي فيه، وتبيّن أنّه قطع المسافة بسرعة تزيد مرّتين عن سرعته. لأنّه في اللّحظة الّتي وصل فيها إلى التّقاطع، كان المخلوق ينتظره هناك. ولكن هناك أمر آخر أسوأ، فهذه المرّة رأى شكلًا مماثلًا في الزّقاق على يمين الجادّة كالمخلوق الأوّل، كان يقف هناك جامدًا في مكانه مثل تمثال. وللحظة فكّر أرتيوم أنّها ليست كائنات حيّة، وأنّها مجرّد علامات وضعها أحد ما هنا للتّخويف أو التّحذير.

ركض فورًا إلى التقاطه الثّالث، ولم يتوقّف حتّى آخر بيت منفصل. لينظر بحذر إلى داخل الزّقاق ويتأكّد أنّ المطاردين الخفيّين قد سبقوه مرّة أخرى. هناك أشكال ضخمة كثيرة مسبقًا، والآن أضحت رؤيتهم أسهل، لقد تضاءلت طبقة الغيوم الّتي كانت تحجب القمر إلى بقعة صغيرة، وكالسّابق وقفت المخلوقات هناك لا تتحرّك كما لو كانت تنتظره، ليظهر في الفتحة بين البيوت. هل يستطيع أن يخدع نفسه بعد كلّ ذلك، ويعتبرها بقايا حجر أو إسمنت من الأبنية المهدّمة، وليسوا كائنات حيّة؟ لقد مكّنته أحاسيسه المرهفة أن يبقى في وضع جيّد في المترو. أمّا على السّطح فيوجد عالم مضلّل غير معروف له، وهنا كلّ شيء مختلف والحياة تتواصل في قوانين مختلفة، لهذا لم يعد اعتماده على انطباعاته وحدسه مبرًّرا.

وبعد أن حاول أرتيوم الاندفاع بسرعة إلى زقاق جديد بأسرع ما يمكن دون أن يرى، ضغط نفسه على جدار أحد البيوت وانتظر لثانية واحدة، ونظر في الزّقاق مرّة أخرى. فتح فمه من الدّهشة.. فالأشكال تتحرّك بطريقة مذهلة. كأن تمطّ نفسها وتطول أكثر، وترفع رأسها كما لو كانت تشمّ الهواء. سقط أحدها على قوائمه الأربعة بشكل غير متوقّع واختفى في الزّقاق في وثبة طويلة. ثمّ تبعته المخلوقات الأخرى بعد عدّة ثوان. تراجع أرتيوم واختبأ وجلس على الأرض ليلتقط أنفاسه.

لم يبق أيّ شكّ.. فالمخلوقات تطارده. كان الأمر وكأنّها تقوده وترشده بالتّحرك في شوارع موازية. وتنتظر فرصتها حتّى يجتاز فتحة جديدة، ثمّ تظهر في زقاق للتّأكّد من أنّه لم ينحرف عن مساره. وتستمرّ في تعقّبها الصّامت له. لماذا؟ هل من أجل أن تختار اللّحظة المناسبة للهجوم؟ أم أنّ الأمر مجرّد فضول؟ لماذا لم تتّخذ قرارًا بالظّهور وتأتي إلى الشّارع العريض؟ لماذا فضّلت الاختباء في الظّلال القاتمة؟ تذكّر كلمات ميلنك مرّة ثانية الّتي حظرت عليه الابتعاد عن الطّريق المستقيم. هل كان ذلك لأنّها كانت تنتظره هناك، وميلنك كان يعرف هذا الخطر؟

ولكي يهدّىء نفسه، بدّل أرتيوم مشط الذّخيرة في بندقيّته الآليّة وشدّ اللّسان إلى الخلف، وشغّل منظار البندقيّة اللّيزري وأطفأه. كان مسلّحا تسليحًا جيّدًا، وبالمقارنة مع المكتبة فهو قادر هنا أن يطلق النّار بدون أيّ خطر، سيكون الدّفاع عن نفسه أسهل. أخذ نفسا عميقًا، ونهض على قدميه. لقد حذّره المطارد من التّوقّف وإضاعة الوقت.

يجب أن يسرع. يبدو أنّ على المرء أن يسرع دائمًا حين يكون على السّطح.

أبطأ أرتيوم خطواته لينظر حوله بعد أن اجتاز صفًّا آخر من البيوت. اتّسع الشّارع هنا وشكّل ما يشبه السّاحة الّتي فصل قسم منها عن الطّريق بسياج، وتمّ تحويله إلى منتزه. في أيّ حال بدا وكأنّه كان منتزها في وقت ما، فما تزال الأشجار منتصبة في أمكنتها، لكنّها لم تكن أبدًا كالأشجار الّتي سبق ورآها أرتيوم في البطاقات البريديّة والصّور الفوتوغرافية. وإنّما عبارة عن جذوع ثخينة معقّدة تحمل أكاليل وزهور تمتدّ إلى ارتفاع بناية من خمسة طوابق. كانت منتصبة في مؤخّرة المنتزه، ومن المرجّح أن المطاردين يذهبون إلى مثل هذه المنتزهات لجلب حطب تدفئة وتسخين وإضاءة المترو كلّه. ومضت ظلال غريبة في الفراغات بين الجذوع، وفي مكان ما بعيد ومضت نار ضعيفة، لولا لونها المائل للاصفرار لاعتبرها أرتيوم شعلة موقد. بدا البناء نفسه مشؤومًا أيضًا، يولّد انطباع أنّه كان حلبة صدامات دمويّة وحشيّة أكثر من مرّة، فقد انهارت طوابقه العليا. وهناك ثقوب سوداء في أماكن كثيرة أحدثتها الطّلقات، وفي أماكن أخرى لم يبق سوى جدارين سليمين، وسماء اللّيل الدّاكنة تُرى من النّوافذ الفارغة.

تتبعثر الأبنية وراء السّاحة، وهناك جادة عريضة تقطّع الشارع. فوقه ومن وسط الظّلاذم ارتفعت الأبنية الشّاهقة الأولى من نيوارابات، وكانت من مثل أبراج مراقبة. وبالحكم حسب الخارطة يجب أن يكون المدخل إلى أراباتسكايا قريبًا وعلى يساره. نظر أرتيوم ثانية إلى المنتزه الكئيب، لقد كان ميلنك على صواب عندما قال أنّه لا

يجب على المرء أن ينقب عميقًا في هذه المتاهة وهو يحاول أن يجد ممرًّا هابطا إلى داخل المترو. فكلّما أطال النّظر إلى الأشجار السوداء المبعثرة المجاورة لقاعدة البناء المدمّر، بدا له أكثر أنّه يرى تلك الأشكال الغريبة الّتي كانت تتبعه في قت أبكر. وهي تتحرّك بين جذور الأشجار العملاقة.

هزت هبّة ريح منقضّة، الأغصان الثّقيلة. وأصدرت الأكاليل صريرًا تحت الجهد، فحملت الرّيح نواحًا طويلًا من بعيد. كانت الأجمّة نفسها هادئة، ولكن ليس لأنّها ميّتة. فصمتها كان أقرب إلى سكوت مطاردي أرتيوم الغريبين، وبدت أيضًا أنّها تنتظر شيئًا.

سيطر على أرتيوم الشّعور بأنّه إذا ما توقّف هنا لتفحّص أعماق المنتزه المتوغّلة، فلن يستطيع النّجاة من العقوبة. فأمسك برشّاشه ونظر حوله ليرى إن كانت المخلوقات قد اقتربت، وتحرّك إلى الأمام. لكنّه توقّف مرّة أخرى بعد عدّة ثوان، فقط حين كان يعبر الجادّة أمام بداية كالينينسكي بروسبكت. فقد انكشف له هذا المنظر.. لذلك لم يقدر أن يجبر نفسه على مواصلة السّير والذّهاب إلى أبعد من ذلك.

وقف عند تقاطع طرق عريضة على شكل إكس، كانت ترتادها المركبات في الماضي. بنيت الوصلة بطريقة غير عاديّة. قسم من الطّريق الإسفلتيّ يدخل في نفق، ثمّ يظهر على السّطح ثانية. وعلى اليمين هناك جادّة تدخل وتؤدّي إلى مسافات بعيدة. وهي تتميّز بصفّ أسود من الأشجار الضّخمة كتلك الّتي شقّ طريقه منها للتوّ. وعلى اليسار ترى ساحة واسعة مغطّاة بالإسفلت، عبارة عن عقدة معقّدة من دروب كثيرة وراءها الدّغل ثانية.

بات النّظر الآن إلى مسافة أبعد ممكنًا، وسأل أرتيوم نفسه إن كان شروق الشّمس المخيف قد اقترب. الطّرق مبقّعة ببقايا السّيّارات المحروقة المشوّهة. ولم يبق شيء هنا، فخلال عقدين من الرّحلات إلى السّطح نجح المطاردون في أخذ كلّ شيء استطاعوا أخذه. أخذوا البنزين من خزّانات الوقود والبطاريّات والمولّدات والأضواء الأماميّة وإشارات المرور، والمقاعد الممزّقة الّتي ما زال اللّحم البشريّ عليها.. ويمكنك أن تجد كلّ هذا في فدنكه وفي أيّ سوق ضخم في المترو. لقد اقتُلِع الإسفلت، وكانت حفر القنابل والصّدوع تُرى في كلّ مكان، وقد برز منها العشب والنّباتات الطّريّة الّتي انحنت تحت ثقل أجراسها العليا المملوءة بالبذور كما هو واضح. ظهر ممرّ نيواربات الضّيّق المظلم أمام أرتيوم مباشرة، في أحد طرفيه بيوتًا غير متضرّرة شكّلت كتابًا مفتوحًا في تصميمها، وعلى الطّرف الآخر أبنية شاهقة منهارة جزئيًّا بارتفاع عشرين طابقًا. بقي الطّريق إلى المكتبة والكرملين خلف أرتيوم.

وقف أرتيوم في وسط مقبرة الحضارة المهيبة هذه، وشعر كأنّه عالم آثار يكتشف مدينة أثريّة وبقايا قوّة بائدة، وجماليّات تجبر الّذين يرونها حتّى بعد قرون كثيرة، على الشّعور برجفة الرّهبة. حاول أن يتخيّل النّاس الّذين سكنوا هذه البنايات العملاقة، والّذين انتقلوا بهذه المركبات المرشوشة بطلاء جديد، والّتي تندفع بنعومة على طرق السّطح الملساء المدفأة بالإطارات المطّاطيّة. تخيّل أيضًا النّاس الّذين

ينزلون إلى داخل المترو ليخرجوا من نقطة ما في هذه المدينة التي لاحدود لها، إلى نقاط أخرى بسرعة. مستحيل. ترى، بماذا كانوا يفكّرون في كلّ يوم؟ ما الّذي كان يقلقهم؟ ما الّذي يمكن أن يقلق النّاس سوى أن يهتمّوا بحياتهم في كلّ ثانية، ويقاتلوا دائمًا من أجلها، ويحاولوا إطالتها يومًا واحدًا على الأقلّ.

في هذه اللّحظة تبدّدت الغيوم أخيرًا، وظهر جزء من قرص القمر مصفّر ومخطّط برسومات غريبة. غمر الضّوء السّاطع الّذي سقط عبر فتحات بين الغيوم المتدنّية الميّتة، وكثّف فخامتها الكئيبة مئة ضعف وعادت البيوت والأشجار الّتي كانت تبدو مجرّد صور ظليلة شبحيّة، إلى الحياة واكتسبت أبعادًا حقيقيّة.

لم يستطع أرتيوم أن يتحرّك من المكان، فنظر مسحورًا من جانب لآخر. وحاول أن يخمد الرّجفة الّتي باغتته. الآن فقط، بدأ يفهم الحزن الّذي سمعه في أصوات الشّيوخ الّذن كانوا يستذكرون الماضي، وعادوا في خيالاتهم إلى المدينة الّتي عاشوا فيها سابقًا. الآن فقط بدأ يشعر كم أصبح الإنسان الآن بعيدًا عن إنجازاته السّابقة وفتوحاته، مثل طير محلّق باعتزاز، جرُح جرحًا مميتًا، وسقط على الأرض لكي يختبئ في صدع ويخفي نفسه فيه ويموتَ بهدوء. تذكّر الجدال الّذي وصل إلى مسمعه بين زوج أمّه وهنتر. وكان الجدال حول تساؤلاتهم عن قدرة الإنسان على النّجاة والبقاء حيًّا، وحتّى إن استطاع.. هل سيكون نفس ذلك الإنسان الّذي فتح العالم وحكمه بثقة؟ الآن وبعد أن استطاع أرتيوم أن يقيّم ويقدّر من أيّ قمم وذرى سقط الإنسان في الهاوية، تبخّر إيمانه في مستقبل جميل إلى الأبد.

باتت كالينينسكي بروسبيكت الفسيحة بعيدة عنه، وبهت نورها حتّى ذاب في البعيد المظلم. يقف أرتيوم الآن على الطّريق وحيدًا تمامًا، لا يحيط به سوى أشباح الماضي وظلاله. وحاول أن يتخيّل العدد الكبير للنّاس الّذين كانوا يملأون الأرصفة في اللّيل والنّهار، وكم عدد السّيّارات الّتي كانت تمرّ بسرعة خياليّة في نفس المكان الّذي يقف فيه. وكم هي مريحة ودافئة نوافذ البيوت الفارغة السّوداء الّتي كانت تتوهّج في الماضي. أين تبدّد كلّ ذلك؟ بدا العالم لأرتيوم قاحلًا ومهجورًا أكثر من قبل، لكنّه أدرك أنّ هذا عبارة عن وهم، فالأرض ليست قاحلة أو ميّتة، ولم تُهجر وإنّما بدّلت مالكيها فقط. وبعد التّفكير بذلك استدار للخلف نحو المكتبة.

حين كان أرتيوم في وسط الطّريق كانوا يقفون على بعد مئة متر تقريبًا عنه بلا حراك، لا يقلّ عددهم عن خمسة مخلوقات. ولم يتعمّدوا الاختباء في الأزقّة بعد الآن، ولم يحاولوا أن يلفتوا انتباهه أيضًا. لم يفهم أرتيوم كيف استطاعوا أن يتسلّلوا ويلحقوا به بسرعة وصمت. هذه الكائنات كانت واضحة ومميّزة وخصوصًا في ضوء القمر، فهي مخلوقات جبّارة لها أطراف خلفيّة متطوّرة ربّما أطول مما بدت له أوّل مرّة. لم يقدر أرتيوم أن يرى عيونها من تلك المسافة، إلّا أنّه عرف أنّها تنتظر فرصتها الآن، وأنّها تتفحّصه وتشمّ الهواء الرّطب لتعرف رائحته. ربّما كانت رائحة البارود معروفة لتلك الوحوش لذلك ربطت نفسها به، ولهذا لم تقرّر مهاجمته بعد، وظلّت تراقب أرتيوم من بعيد وتفتّش عن علامة تردّد أو ضعف في سلوكه. وربّما كانت ترافق أرتيوم إلى حدود ملكيّتها فقط، ولا تضمر له أيّ أذى؟

كيف له أن يعرف كيف ستتصرّف المخلوقات التي ظهرت على الأرض بشكل مناقض لقوانين التّطوّر؟

ولكي يحافظ أرتيوم على ضبط النّفس، تحرّك إلى الأمام والخلف، وواصل تقدّمه متظاهرًا بعدم اكتراث زائف. وظلّ يسترق النّظر إليها كلّ عشر خطوات. في البداية، ظلّت المخلوقات في مكانها، ولكن بعدئذ بدأت أسوأ مخاوفه تتحقّق. انخفضت على قوائمها الأربعة ومشت ببطء خلفه، وحين باتت على بعد مئتي متر عنه، توقّفت مرّة أخرى. ورغم أنّ أرتيوم أصبح معتادًا على رفقته الغريبة، إلّا أنّه خاف أن تفلت من نظره، لذلك أمسك برشّاشه وكان مستعدًّا. مشوا بهذه الطّريقة معًا في الجادّة العريضة الفارغة الّتي غمرها ضوء القمر. رجل يقظ مشدود مثل زنبرك يقف وينظر خلفه كلّ نصف دقيقة، وفي أعقابه خمس أو ستّ مخلوقات غريبة تجاريه بالمشيّ بتروٍّ. ولكن بعد قليل بدا له أنّ المسافة الّتي حافظت المخلوقات عليها أصبحت أقصر، والوحوش الّتي كانت تلاحقه بشكل جماعيّ من قبل، بدأت الآن تنتشر كأنّها تحاول الالتفاف حوله ومحاصرته. لم يتعامل أرتيوم قط مع زمرة من الضّواري المفترسة الصّائدة من قبل، ولسبب ما لم يساوره أيّ شكّ بأنّ المخلوقات كانت تستعدّ للهجوم. لقد حان الوقت لأن يتصرّف. استدار حوله بقوّة وتنكّب بندقيّته الآليّة وحدّد أحد الكائنات المظلمة في جهاز الرّؤية. فتبدّل سلوك المخلوقات فعلًا، فهذه المرّة لم تقف وتنتظر حتّى يبتعد أكثر، بل تابعت الاقتراب منه بشكل غير محسوس، وشكّلت نصف دائرة تقريبًا بالتّدريج. يجب عليه أن يخيفها ويبعدها قبل أن تنجح في تقصير المسافة إلى المدى الّذي يتلوه الهجوم.

رفع أرتيوم السّبطانة قليلًا وأطلق النّار في الهواء. ارتدّت الفرقعة من جدران الأبنية الشّاهقة، ووصل صداها إلى نهاية الجادّة. سقط مشط الذّخيرة الفارغ على الإسفلت وأصدر صليلًا. وبعدئذ سمع زئيرًا يصمّ الآذان مليء بالغضب الشّديد، فاندفعت الوحوش بسرعة وقوّة إلى الأمام واستطاعت أن تقطع العشرات من الأمتار الّتي تفصلها عن أرتيوم في عدّة ثوان، لكنّه كان مستعدًّا أيضًا. وحينما كان الوحش الأقرب في مرماه، رشقه بسلسلة قصيرة من الطّلقات وركض نحو البيوت.

وبالحكم من نوبة الصّراخ الّتي أطلقها المخلوق فإنّه نجح في إصابته. وكان من المستحيل له يعرف إن كان قد أعاق الوحوش الباقية أم أغضبها أكثر.

بعدئذ سُمعت صيحة جديدة لم تكن الزّئير المهدّد للوحوش الّتي كانت تتصيّده، وإنّما صرخة عالية ثاقبة طويلة حادّة جعلت الدّم يتخثّر في عروقه. وصلت لمسمعه من فوق ففهم أرتيوم أنّ مشاركًا جديدًا قد انضمّ إلى اللّعبة، ومن الواضح أنّ صوت الطّلقات قد جذب انتباه وحش طائر مماثل لذلك الّذي نسج عشّه على قبّة الكاتدرائيّة.

اندفع ظلّ ضخم فوق رأس أرتيوم مثل الطّلقة، فاستدار للخلف للحظة فرأى المخلوقات تتبعثر، ولم يبق في وسط الشارع سوى واحدًا منها، وهو المخلوق الّذي جُرح كما يبدو. ترنّح المخلوق الجريح بطريقة خرقاء نحو البيوت واستمرّ في صراخه. وكان يأمل بأن يخفي نفسه هناك أيضًا، لكن لم تكن لديه أيّ فرصة في النّجاة، وقد رسم الحيوان المسخ دائرة أخرى على ارتفاع عشرات الأمتار، ثمّ طوى

جناحيه الجلديّين الضّخمين وخرّ على الضّحيّة. انقضّ للأسفل بسرعة شديدة، لذلك لم ير أرتيوم ما حدث بعد ذلك. أمسك الطّائر الضّخم العملاق بالمخلوق الّذي أطلق صرخة ألمه الأخيرة، ورفع طريدته عاليًا دون أيّ جهد واضح، وحمله برويّة إلى سطح إحدى البنايات الشّاهقة.

لم يعد مطارديه للهجوم فورًا فقد خافوا أن يعود المسخ، ولم يفوّت أرتيوم الفرصة. ضغط أرتيوم نفسه على جدران البيوت وركض إلى الأمام إلى حيث تقع سادوفوي كولتسو حسب حساباته، واستطاع أن يقطع نصف كيلومتر قبل أن يلهث، ثمّ نظر للوراء ليتأكّد إن كانت الوحوش الّتي تطارده قد استجمعت فطنتها. كانت الجادّة فارغة، ولكن بعد أن قطع عشرات الأمتار ونظر في أحد الأزقّة المؤدّية إلى نيواربات، لاحظ لرعبه ظلالًا مألوفةً لا تتحرّك فيه. الآن بدأ يفهم لماذا لم تكن هذه المخلوقات في عجلة من أمرها لتظهر في مناطق مكشوفة، ولماذا فضّلت تعقّب ضحاياها من الشّوارع الجانبيّة القريبة، لأنّها كانت تخشى من لفت انتباه مسوخ أضخم فتصبح ضحيّة لها خلال مطاردتها له.

ظلّ أرتيوم يستدير إلى الوراء في كلّ دقيقة لينظر، وتذكّر أنّ الوحوش كانت قادرة على التحرّك بسرعة فائقة، وصمت عمليًّا بنفس الوقت وخاف أن تمسك به على حين غرّة. باتت الآن نهاية الجادّة مرئيّة حين تسابقت المخلوقات من كلّ الأزقّة وبدأت في تطويقه مرّة أخرى. أطلق أرتيوم النّار في الهواء فورًا، بعد أن تعلّم من تجربته راجيًا أن يجذب الوحش المجنّح كما من قبل ويرعب الوحوش ويبعدها. تجمّدت في مكانها برهة بالفعل، ووقفت على أرجلها الخلفيّة ورفعت أعناقها. لكنّ السّماء ظلّت فارغة، يبدو أنّ المسخ لم ينته بعد من التّعامل مع ضحيّته الأولى. أدرك أرتيوم ذلك قبل مطارديه وانطلق بسرعة إلى اليمين ولاذ بأحد البيوت وغاص في أقرب مدخل. لقد حذّره ميلنك من هذا وقال له إنّ البيوت مسكونة، لكن الاصطدام مع عدوّ جبّار ومتحرّك كتلك الوحوش عمل جنونيّ تمامًا. سوف تمزّقه إربا قبل أن يحرّر قفل بندقيّته الآليّة. كان المدخل مظلمًا فاضطرّ أن يشعل مصباحه. في بقعة الضّوء المستديرة ظهرت جدران بالية مغطّاة بقذارة خُربشت منذ عدّة عقود، وظهر سلّم قذر وأبواب مكسورة لشقق مدمّرة ومحروقة، وجرذان جريئة كانت تعدو في المكان كأنّها تملكه، إضافة لصورة الخراب.

اختار المدخل بحكمة فقد كانت نوافذ بيت الدّرج تطلّ على الجادّة، وبعد أن تسلّق إلى الطّابق التّالي بات متأكّدا من أنّ الوحوش لم تقرّر تعقّبه. تتسلّلت إلى الأبواب الأماميّة، ولكن بدلًا من أن تدخل، كانت تطوّقه وتقرفص على أكفالها وتتحوّل إلى تماثيل حجرّية مرّة أخرى. لم يصدق أرتيوم أنّها ستتراجع وتسمح لضحيّتها في التّملّص، وأنّها ستحاول عاجلًا أم آجلًا أن تصل إليه من الخارج إن لم يكن هناك شيء يختبىء في المدخل ويجبر أرتيوم على الفرار.

تسلّق طابقًا أعلى وأنار الأبواب فاكتشف أنّ أحدها كان مغلقًا. وضع كتفه إليه فتأكّد أنّه مقفل. وبدون تفكير أو تأنّ وضع فوّهة رشّاشه على فتحة المفتاح وأطلق النّار وفتح الباب بركلة من قدمه. وحين دخل منه وجد أنّه كغيره من الشّقق الأخرى بخصوص نصب دفاعاته، لكنّه لم يقدر أن يفوّت فرصة النّظر إلى منزل أناس من

حقبة ماضية لم يُمسّ ولم يتأثر. أغلق أوّلا الباب بقوّة وسدّه بخزانة كانت في المدخل. هذا الحاجز لن يتحمّل هجومًا خطيرًا، لكنّهم لن يستطيعوا تجاوزه دون أن يلاحظهم على الأقلّ. بعد ذلك اقترب أرتيوم من النّافذة ونظر إلى الخارج بحذر. فوجد أنّ ارتفاع الطّابق الرّابع موقع إطلاق مثاليّ، ويرى منه تمامًا أيّ اقتراب من المدخل. هناك حوالي عشرة وحوش تجلس بشكل نصف دائرة حوله. والأفضليّة الآن له فلم يضيّع وقتًا في استغلالها. شغّل منظار الرّشاش اللّيزري، ووضع النّقطة الحمراء على رأس أكبر الوحوش، وأخذ نفسًا ثمّ شدّ الزّناد.

فدوّى صوت زخّة قصيرة من الرّصاص وسقط المخلوق على جانبه بصمت. هربت الوحوش الأخرى في اتّجاهات مختلفة بسرعة البرق، وبعد لحظة كان الشّارع فارغًا. ولكن ليس هناك أدنى شكّ بأنّها لم تفكّر في الابتعاد كثيرًا. قرّر أرتيوم أن ينتظر في الخارج، ويتأكّد من أنّ الوحوش الأخرى خافت بسبب موت زميلها وابتعدت.

وفي هذا الوقت كان لديه القليل من الوقت لتفحّص الشّقّة.

لقد كان الزّجاج هنا مكسَّرا منذ زمن بعيد كما في البيت كلّه، إلّا أنّ الأثاث وكلّ التّجهيزات حُفظت سليمة وبشكل يُثير الدّهشة. تناثرت أوراق صغيرة على الأرض تشبه سمّ الجرذان الّذي يستخدم في فدنكه، وقد تكون السّبب الّذي جعل أرتيوم لا يلاحظ أيّ جرذ في الغرف. وكلّما مشى في الشّقّة أكثر اقتنع أكثر بأنّ المقيمين فيها لم يهجروها على عجل، وأنّهم حافظوا عليها آملين العودة يومًا ما، فلم يُترك أيّ طعام في المطبخ كي لا يجلب القوارض أو الحشرات، وتمّ لفّ أكثر الأثاث بعناية بورق السّلوفان.

عند الانتقال من غرفة لأخرى حاول أرتيوم أن يتخيّل كيف كانت الحياة اليوميّة للنّاس الّذين عاشوا هنا. كم شخصًا عاش هنا؟ بأيّ وقت كانوا يستيقظون؟ متى يصلون إلى البيت من العمل؟ ومتى يتناولون طعام العشاء؟ من كان يجلس على رأس الطّاولة؟ لقد عرف عن كثير من مهنهم وطقوسهم وأشياءهم من خلا الكتب فقط. والآن وبعد أن رأى منزلهم الحقيقيّ، اقتنع أنّ الكثير ممّا تخيّله سابقًا كان خطأ تمامًا.

رفع أرتيوم غشاء البوليثيلين شبه الشّفاف، وتفحّص رفوف الكتب. انتصبت كتب صور أطفال ملوّنة عديدة وسط قصص بوليسيّة عرفها من أكشاك الكتب في المترو. أمسك بظهر واحدة منها وسحبها إلى الخارج. بينما كان يتفحّص الصّور المزيّنة للحيوانات السّعيدة، فسقطت صفحة كرتونيّة من الكتاب. وانحنى أرتيوم ورفعها عن الأرض، كانت صورة باهتة لامرأة تبتسم مع طفل صغير في ذراعيها.

فتحجّر في مكانه...

خفق قلبه بقوّة وسرعة وبعد أن نُثر الدّم عبر جسده في ضربات متناسبة، تسارع فجأة وبات ينبض بشكل غير ملائم. أراد أرتيوم أن يزيل قناع الغاز المشدود،

ليحصل على جرعة من الهواء الجديد إن لم يكن مسمومًا. أخذ الصّورة من الرّف بحذر، فقد خاف أن تتحوّل إلى غبار من لمسته، ورفعها إلى عينيه.

المرأة الّتي في الصورة في الثّلاثين من عمرها تقريبًا، والصّغير الّذي في ذراعيها لا يزيد عن السّنتين، ومن الصّعب التّحديد إن كان صبيًّا أم فتاة من القلنسوة المضحكة الّتي على رأسه. كان الطّفل ينظر إلى الكاميرا مباشرة، وكان تعبير وجهه ناضجًا وجديًّا بشكل يثير الدّهشة. قلب أرتيوم الصّورة وغبّش زجاج قناعه الغازيّ. كُتِب على الجانب الآخر في قلم حبر أزرق سائل: عمر الصغير أرتيوم سنتان وخمسة أشهر. كان الأمر كما لو أنّهم

نزعوا أحد فخذيه، وخارت ساقاه وانزلق على الأرض. ووضع الصّورة في ضوء القمر السّاقط من النّافذة. لماذا بدت ابتسامة المرأة الّتي في الصّورة مألوفة له، ومثل ابتسامته؟ لماذا شعر بالاختناق عندما رآها فورًا؟

لقد عاش في هذه المدينة قبل أن تهلك عشرة ملايين شخص، وأرتيوم ليس الاسم الأكثر انتشارا فقط، بل هناك عشرات آلاف الأطفال بهذا الاسم في مدينة كبيرة جدًّا فيها ملايين كثيرة من النّاس، وكأنّ كلّ السّكّان الحاليّين للمترو نُعتوا بنفس الاسم. كانت الفرصة صغيرة جدًّا، لذلك فالاهتمام بها غير منطقيّ. لكن.. لماذا تبدو الابتسامة الّتي في الصّورة مألوفة له؟

حاول أن يتذكّر قصاصات من ذكريات طفولته الّتي كانت تومض في عقله أحيانًا. غرفة صغيرة مريحة، وإضاءة ناعمة، وامرأة تقرأ في كتاب... متّكأ واسع. وثب وعبر الغرفة مثل زوبعة، وحاول أن يجد إحدى قطع الأثاث الّتي تشبه القطّعة الّتي كان يحلم بها. فبدا له في لحظة، أنّ الأثاث في إحدى الغرف، مرتّب بنفس الوضعيّة الّتي في ذكرياته. وبدت الأريكة مختلفة قليلًا، ولم تكن هناك نافذة، لكن هذه الصّورة ربّما تركت شيئًا وبصمة مشوّهة في وعي طفل عمره ثلاث سنوات...

ثلاث سنوات؟ العمر على الصّورة مختلف، لكن هذا لا يعني الكثير. لم يكن هناك تاريخ مع الكتابة. فقد تكون التقطت في أيّ وقت، وليس من الضّروريّ أنّها التقطت قبل أن يضطرّ ساكنو الشّقّة إلى مغادرتها إلى الأبد بعدّة أيّام. ربّما أُخذت الصّورة قبل نصف سنة أو سنة من هذا، هكذا أقنع نفسه. عندئذ سيتطابق عمر الصّبيّ الّذي في القبّعة مع عمره... الاحتمال بأن يكون هو الّذي في الصّورة مع أمّه أكبر بكثير. ولكن ربّما أُخذت الصّورة قبل هذا بثلاث أو خمس سنوات، أعلن صوت غريب ببرود داخله يمكن أن يكون.

وفجأة، جاء في باله فكرة أخرى. وألقى نظرة حوله حين وجد الباب مفتوحًا إلى الحمّام، وكاد يفوته ما كان يبحث عنه، كانت المرآة مغطّاة بطبقة من الغبار، لدرجة لم تعكس ضوء مصباحه. فأزال أرتيوم منشفة تركها أصحاب الشّقّة من علّاقتها، ومسح المرآة. عكست المنطقة الّتي نظّفها صورته في قناعه الغازيّ وخوذته. أنار نفسه بضوء المصباح ونظر إلى المرآة.

لم يكن وجهه المنهك الهزيل مرئيًّا تمامًا تحت مقدّمة القناع الغازيّ البلاستيكيّة النّاتئة. لكنّ نظرة العينين الغائرتين عميقًا واللّتين شقّتا طريقهما من المرآة بالكاد، بدت فجأة تشبه نظرة الصّبيّ الّذي في الصّورة. قرّب أرتيوم الصّورة إلى وجهه ونظر بتمعّن إلى الوجه الصّغير، ثمّ نظر إلى المرآة. حمل الضّوء وسلّطه على الصّورة ثانية، ونظر إلى وجهه تحت القناع وحاول أن يتذكّر كيف بدا في آخر مرّة رأى فيها انعكاس صورته في المرآة.

متى كان ذلك؟ ليس قبل أن يغادر فدنكه بوقت طويل، ولكن يستحيل القول كم مرّ من الوقت منذ ذلك الحين. وبالحكم من خلال الرّجل الّذي رآه الآن في المرآة، سنوات كثيرة... لو كان بمقدوره أن ينزع هذا القناع اللّعين، ويقارن نفسه مع الطّفل الّذي في الصّورة، فالنّاس أحيانًا يصبحون غير معروفين حين يكبرون، ولكن يبقى شيء في الوجه يذكّر بطفولتهم البعيدة.

هناك احتمال واحد، وهو إن عاد إلى فدنكه، فيمكنه أن يسأل سوخوي إن كانت المرأة الّتي تبتسم له الآن من قصاصة الورق، هي ذاتها المرأة الّتي كان قدرها أن تلتهمها الجرذان، والّتي سلّمته حياة الطّفل في المحطّة. لقد بدت مثل أمّه. سيتعرّف سوخوي عليها رغم تكشيرة اليأس والتّوسّل الّتي شوّهت وجهها، فلديه ذاكرة رائعة ويستطيع أن يعرف بدقّة من كان في الصورة، وهل هي أم لا؟

تفحّص أرتيوم الصّورة مرّة أخرى، ثمّ وبلطف غير معتاد ربت على صورة المرأة ووضعها بحذر في داخل الكتاب الصّغير الّذي سقطت منه، وخبّأه في حقيبة ظهره. شيء غريب، فكّر، منذ عدّة ساعات فقط كان في أكبر مخزن للمعرفة في القارّة، حيث يمكنه أن يأخذ ما يريد من ملايين المجلّدات المختلفة الّتي كان الكثير منها نفيسًا جدًّا، لكنّه تركها تجمع الغبار على الرّفوف، ولم يخطر بباله أبدًا أن يستفيد من غنى المكتبة. وبدلًا من ذلك أخذ كتاب أطفال رخيص برسوم متواضعة، وشعر أنّه فاز بأكبر كنوز العالم.

عاد أرتيوم إلى الصّالة وهو ينوي أن يقلّب الكتب الباقية من الرّفّ، وربّما ينظر في داخل الخزن أيضًا بحثًا عن ألبوم صور. ولكن حين رفع عينيه نحو النّافذة شعر بتغييرات لا تُصدّق هناك. فانتابه الارتباك، شيء ما لم يكن صحيحًا. اقترب كثر وأدرك أنّه كان مخطئًا، إنّه لون اللّيل يتبدل، وظهرت آثار زهريّة مصفّرة فيه. إنّه يُضاء.

جلست الوحوش بجانب المدخل وتردّدت في الدّخول إلى البيت. ولم ير جسد رفيقهم الميّت في أيّ مكان، ولم يكن واضحًا إن كان العملاق المجنّح حمله بعيدًا، أم هم مزّقوه إربًا. كما لم يفهم أرتيوم ما الّذي منعهم من اقتحام الشّقّة، لكنّها في الوقت الحالي مناسبة جدًّا له.

هل سينجح في الوصول إلى سمولنسكايا قبل شروق الشّمس؟ والأهمّ هل سيتمكّن من الهرب والنجاة من مطارديه؟ كان من الممكن والمتاح، أن يبقى في الشّقّة المحصّنة، ويختبىء في الحمّام من أشعّة الشّمس. وينتظر حتّى تطرد تلك الحيوانات الضّارية، ثمّ ينطلق في طريقه حين يحلّ الظّلام. ولكن كم من الوقت ستصمد بدلته

الواقية؟ وإلى متى ستدوم مصفاة قناعه الغازيّ؟ ماذا سيفعل ميلنك إن لم يجده في المكان والزّمان المتّفق عليهما؟

اقترب أرتيوم من الباب المؤدّي إلى بيت الدّرج، ثمّ أصغى.. صمت.. أبعد الخزانة بحذر وفتح الباب قليلًا وببطء. لم يكن هناك أحد، ولكن بعد أن أنار الدّرج بمصباحه، لاحظ شيئًا لم يره من قبل، مادّة غرويّة لزجة شفّافة سميكة تغلّف درجات السّلّم. بدا كما لو أنّ شيئا زحف ونزل منها وترك أثرًا خلفه. لم يقترب الأثر من باب الشّقّة الّتي أمضى وقته فيها، لكنّ هذا لم يرح أرتيوم. فهل يعني هذا أنّ البيوت الّتي بدت مهجورة لم تكن فارغة؟

لم يعد يريد الآن البقاء في الشّقّة عداك عن النّوم فيها. وهناك إمكانيّة واحدة أمامه، وهي أن يبعد الوحوش بالقوّة ويركض إلى سمولينسكايا، وأن يفعل هذا قبل أن تحرق الشّمس عينيه وتستيقظ الوحوش الّتي لا تُرى.

في هذه المرّة لم يسدّد على الهدف بعناية، لكنّه حاول أن يؤذي الوحوش الضّارية بأكبر قدر ممكن. فزأر منها اثنان وتكوّما على الأرض، واختفى الآخرون في الأزقّة. وبدا أنّ الطّريق خاليًا.

ركض أرتيوم بحذر وقلق من كمين ما. نظر إلى الخارج من المدخل واندفع بكلّ قوّته نحو سادوفوي كولتسو. يا له من دغل كابوسي مخيف هذا الّذي في حدائق الرّينغ، فحتّى قشور الأشجار الرّقيقة فيه، تحوّلت إلى متاهات مظلمة مع السّنين، عداك عن الحدائق النّباتيّة (بوتانيكال غادرنز) وما يفترض أنّه نما وكبر فيها.

أعطاه مطاردوه أفضليّة بينما كانوا يتجمّعون في قطيع واحد، واستطاع أن يصل إلى نهاية الجادّة تقريبًا. أصبح هناك ضوء أكثر، لكنّ أشعّة الشّمس لا تروّع هذه الوحوش أبدًا، فقد انقسموا إلى مجوعتين وانطلقوا إلى الأمام مقلّصين المسافة الّتي تفصلهم عن أرتيوم في كلّ ثانية تمرّ. هنا في الفضاء المكشوف كانت الأفضليّة لهم، وأرتيوم كان عاجزًا عن التّوقّف عن إطلاق النّار. وبنفس الوقت كانت الوحوش تتنقل على قوائمها الأربعة، ولم ترتفع أشكالها الظّليلة أكثر من متر عن الأرض. لقد اندمجت في الطّريق تقريبًا. ومهما حاول أرتيوم أن يركض، فقد كان للبدلة الواقية وحقيبة الظّهر والبندقيّتان الآليّتان والجهد الّذي تراكم في اللّيلة الّتي بدت بلا نهاية، حضورها وأثرها عليه.

كان أرتيوم يائسًا، وفكّر في أنّ هذه الكلاب الجهنميّة ستلحق به عاجلًا وتقتله. تذكّر أجساد الوحوش الجبّارة المشوّهة الملقاة في بركة من الدّم في المدخل حيث طرحتهم زخّة رصاص من رشّاشه. ولم يتوفّر له الوقت كي يتفحّصها، لكن حتّى نظرة واحدة كانت كافية لنقشها في ذاكرته لوقت طويل، شعر بنيّ لامع صقيل، ورؤوس مستديرة ضخمة وأفواه زوّدت بعشرات الأسنان الصّغيرة الحادّة الّتي نمت في صفّين كما يبدو.

استعرض في ذهنه كلّ الحيوانات الّتي عرفها، فلم يستطع أن يتذكّر واحدًا يمكنه أن يُنتج مثل هذه الوحوش، حتّى بعد التّأثيرات الإشعاعيّة.

لحسن الحظ لم تنمو الأشجار في سادوفوي كولتسو. الشارع عريض جدًّا يمتدّ يمينًا ويسارًا من التّقاطع على مدّ النّظر. وقبل أن يستأنف الرّكض ثانية، أطلق أرتيوم زخّة قصيرة من الرّصاص على الوحوش دون أن ينظر. كانت على بعد أقلّ من خمسين مترًا عنه، فتفرّقت لتشكّل نصف دائرة مرّة أخرى. وكان بعضها يتحرّك معه بنفس المستوى.

في سادوفويي بحث عن الطّريق وسط حفر ضخمة بعمق يتراوح بين خمسة إلى ستة أمتار، وانعطف حول أحد الأماكن لكي يتجنّب صدعًا عميقًا شقَّ سطح الطّريق إلى نصفين. بدت المباني القريبة منه غريبة، بدت منصهرة أكثر منها محروقة. فخلقت انطباعًا بأنّ شيئًا غريبًا قد حدث هنا، وأنّ هذه المنطقة تحمّلت ويلات أكثر بكثير من كالينينسكي بروسبيكت. وعلى بعد عدّة مئات من الأمتار ارتفعت بناية بحجم لا يمكن تخيّله. بدت مثل قلعة من القرون الوسطى، وكانت خلفيّة مهيبة قاتمة لهذا المنظر الطّبيعي المضطرب. نظر أرتيوم للأعلى لجزء من الثّانية وأطلق تنهيدة ارتياح. ظلّ مجنّح مخيف، حلّق فوق القلعة الّتي أصبحت خلاصه، فكلّ ما عليه أن يجذب انتباهه لكي يشغل نفسه بمطارديه. رفع الرّشّاش بيد واحدة، وسدّد على الوحش الطّائر وعصر الزّناد.

لم يحدث شيء.

لقد نفذت ذخيرته.

وكان من الصّعب سحب الرّشّاش الاحتياطيّ المعلّق بظهره، إلى الأمام وهو يركض.

غاص أرتيوم في أقرب زقاق منه، واستند على الجدار وبدّل الأسلحة.

الآن لم يعد مجبرًا أن يترك الوحوش تقترب منه، بينما كان يفرّغ المخزن في الرّشّاش الثّاني.

أوّل الوحوش الّذي ظهر قريبًا منه، يجلس على قوائمه الخلفيّة مع الحركة المعتادة. ويمطّ نفسه إلى كلّ ارتفاعه، وتجاسر أكثر واقترب جدًّا منه، لذلك استطاع أرتيوم أن يرى عينيه لأوّل مرّة، عينان صغيرتان تختفيان تحت رموش كثيفة، وتشتعلان بنار خضراء شرّيرة، تشبه وميض الشّعلة الغريبة الّتي في المنتزه.

لم يكن هناك جهاز رؤية ليزريّ على كلاشنكوف دانيال، ولكن لا يخطىء المرء عادة الهدف من هكذا مسافة. وضع جذع الوحش الواقف في إطار رؤيته وشدّ الزّناد.

توقّف المزلاج بعد أن تحرّك قليلًا إلى الوسط. ماذا حدث؟ هل تشوّش وأخذ الرّشاش الخطأ بسبب استعجاله؟ بالتّأكيد لا، لأنّ سلاحه فيه منظار ليزري.. حاول أرتيوم شدّ المزلاج لكنّه استعصى.

زوبعة من الأفكار لفّت برأسه. دانيال، المكتبيون... لهذا السّبب لم يقاوم رفيقه حين هاجمه الوحش الرّماديّ في متاهة الكتب.. فرشّاشه لم يعمل. وعلى الأرجح أنّه شدّ

المزلاج بسرعة وهياج حين جرّه المكتبي إلى أعماق الأروقة...

خيّم صمت حين ظهر وحشان آخران مثل الأشباح. وكانت تتفحّص أرتيوم عن قرب، وأرتيوم ينظر بيأس إلى رشاش دانيال. بدا أنّها كانت ترسم قراراتها النّهائيّة. قفز أقرب المخلوقات إليه، القائد على الأرجح، وكان على بعد خمسة أمتار فقط عن أرتيوم.

في هذه اللّحظة حام فوق رؤوسهم ظلّ عملاق. فضغطت الوحوش نفسها إلى الأرض ورفعت رؤوسها. اغتنم أرتيوم ارتباكها وهرب بسرعة إلى إحدى القناطر، ولم يعد يأمل في الخروج حيًّا من هذه الفوضى، لكنّه كان يحاول غريزيًّا أن يؤجّل لحظة موته. لم يكن لديه أوهى فرصة ضدّ الوحوش في الأزقّة، وحتّى طريق العودة إلى سادوفوي كولتسو انقطع مسبقًا.

وجد أرتيوم نفسه في وسط ساحة فارغة تحيط بأطرافها جدران البيوت، وتُرى فيها قناطر وممرّات. ارتفعت نفس القلعة المظلمة الّتي انطبعت في ذهنه في سادوفوي كولتسو في السّماء خلف البناء المواجه له. وأخيرًا انتزع نظره عنها فرأى كتابة على البناء المقابل: (سكّة أنفاق ف ا لينين- موسكو) وتحتها بقليل (محطّة سمولينسكايا) كان باب السّنديان العالي مفتوحًا جزئيًّا. ومن الصّعب القول كيف نجح في التملّص منهم. شعر بهاجس في الخطر وإحساس بتيّار هواء خفيف، فتنّبه إلى اندفاع حيوان مفترس نحو فريسته. حطّ الوحش على بعد نصف متر عنه. وركض واندفع بأقصى قوّته نحو مدخل المترو، فبيته كان هناك وعالمه هناك تحت الأرض وسيصبح سيّد الوضع ثانية.

بدا دهليز سمولينسكايا كما توقّعه أرتيوم تمامًا، مظلم وفارغ. توضّح على الفور أن أهل هذه المحطّة كانوا يأتون إلى السّطح كثيرًا، فقد كانت أكشاك التّذاكر والتّسهيلات المكتبيّة مفتوحة ومنهوبة، وكلّ شيء ذو فائدة تمّ نقله إلى تحت الأرض منذ سنين كثيرة. لم يبق أبواب دوّارة ولا أكشاك للعاملين، والأساسات الإسمنتيّة مجرّد انعكاس لما كان في زمن ما في الماضي. قنطرة النّفق كانت مرئيّة وعدّة مصاعد تصل إلى أعماق لا تصدّق. ضاع شعاع المصباح في مكان ما في وسط المهبط، ولم يعد أرتيوم متأكّدا إن كان هناك مدخل فعلًا. لكن من المستحيل أن يبقى حيث كان، فالوحوش اخترقت الدّهليز. عرف ذلك لأنّه سمع صرير الباب. وفي بضع ثوان ستصل إلى المصاعد، ويختفي ذلك الرّأس الصّغير الّذي ما زال يملكه.

مشى أرتيوم على الدّرج المحفّر بشكل أخرق، وبدأ بالنّزول. وحاول أن يقفز عبر عدّة درجات، لكنّ قدمه زلّت على الغطاء الرّطب وارتطم بالأسفل وضُربت مؤخّرة رأسه بزاوية. ولم ينجح في التّوقّف إلّا بعد أن ضرب عشر درجات بخوذته ومؤخّرته. وحين فتّش أرتيوم قسم الطّريق الّذي خلفه بضوء مصباحه، اكتشف بالضّبط ما كان يبحث عنه ويخشى أن يجده، الأشكال السّوداء الثّابتة. كانت كعادتها دائمًا، تقف ساكنة كالأصنام تدرس الوضع، أو تتشاور بشكل غير مسموع قبل أن تهاجم. استدار أرتيوم وحاول أن يقفز فوق درجتين مرّة أخرى. وهذه المرّة كانت

النّتيجة أفضل له وانزلقت يده اليمنى على الدّرابزون المطاطيّ، بينما كان يمسك مصباحه بيده اليسرى، وركض حوالي عشرين ثانية أخرى قبل أن يسقط ثانية.

سمع صوت خطوات ثقيلة من الخلف. كانت المخلوقات مصمّمة. وتمنّى أرتيوم من كلّ قلبه أن تنهار الدّرجات الّتي أصدرت صريرًا فاجعًا تحت وزنه الخفيف، وألّا تتحمل وزن مطارديه. لكنّ القعقعة اقتربت وكان واضحًا من الظّلال أنّ السّلّم تعامل مع الحمل بشكل جيّد. ظهر في شعاع مصباحه جدار من القرميد مع باب كبير، لا يبعد عنه أكثر من عشرين مترًا. فرفع أرتيوم قدميه بصعوبة وقطع المسافة النّهائيّة بخمسة عشر ثانية بدت له مثل الأبديّة.

كان الباب مصنوعًا من صفائح فولاذيّة، ويرجع صدى لطم قبضتيه كالجرس. وثب عليه أرتيوم بكلّ قوّته. وكانت الظّلال المقتربة الّتي رآها بشكل غامض في شبه الظّلام، تتحفّز للانقضاض عليه.

لم يدرك الخطأ الفادح الّذي ارتكبه إلّا بعد عدّة ثوان، وغمرته قشعريرة مفاجئة، فبدلًا من الطّرق على الباب بالطّريقة المشفّرة المرتّبة مسبقًا، هو لم يفعل سوى أنّه أرعب الحراس. والآن بات من غير المحتمل أن يفتح الباب تحت أيّ ظرف. ولا يهمّ من الّذي كان يحاول الدّخول، وقلّص احتمال فتح الباب أكثر من أنّ الشّمس قد أشرقت مسبقًا.

كيف تفعل الإشارة الصّوتيّة المعدّة مسبقًا تمامًا؟ ثلاث دقّات سريعة وثلاث دقّات بطيئة ثمّ ثلاث دقّات سريعة أخرى؟ بالتّأكيد لا، هذه ليست إشارة الإنقاذ. كانت الإشارة بالتّأكيد ثلاث دقّات في البداية وثلاث في النّهاية، لكنّه لم يعد يتذكّر إن كانت بطيئة أم سريعة. الأفضل إشارة الإنقاذ، فعلى الأقلّ سيفهم الحرّاس أنّ إنسانًا ما على الطّرف الآخر من الباب.

بعد أن خبط على الفولاذ أكثر من مرّة سحب أرتيوم رشّاشه من كتفه، واستبدل المخزن فيه بيدين ترتعشان. ثمّ ضغط الضّوء على سبطانة السّلاح وحدّد بعصبيّة الأقواس العليا بها. ظلال طويلة من المصابيح النّاجية غطّت بعضها البعض في شعاع ضوئه المتنقّل، وكان من المستحيل أن تضمن أنّ الظّلّ الأسود لا يكمن في أحدها...

كما من قبل، ظلّ الطّرف الآخر من الباب الحديديّ هادئًا تمامًا. يا إلهي إنّها فعلًا ليست سمولينسكايا، فكّر أريتوم. هل هذا المدخل مسدود منذ عقود، ولم يستخدمه أحد منذ ذلك الحين؟ لقد وصل إلى هنا بالصّدفة تمامًا، ولم يتّبع تعليمات المطارد أبدًا. وقد يكون أخطأ في ذلك.

اقترب صرير الدّرج منه على بعد خمسة عشر مترًا. ولم يقدر أرتيوم أن يتحمّله، فأطلق صليّة من رشّاشه في الجهة الّتي سُمع منها الصّوت. وسبّب الصّدى وجعًا لأذني أرتيوم.

ولكن لاشيء مثل عويل الوحش الجريح الّذي سمعه فقد ضاعت الطّلقات. ضغط أرتيوم الّذي لم تكن لديه الشّجاعة لأن ينظر بعيدًا، ظهره على الباب. وبدأ يضرب

الحديد بقبضتيه بعنف، ثلاث سريعة.. ثلاث بطيئة.. ثلاث سريعة.. وظنّ أنّه سمع صوت طحن معدنيّ ثقيل من الباب، وفي تلك اللّحظة بالضّبط طار شكل أحد الضّواري من الظّلال بسرعة مذهلة.

أمسك أرتيوم بالرّشّاش المعلّق على يده اليمنى، وضغط الزّناد بالصّدفة تقريبًا حين تراجع للوراء غريزيًّا. اكتسحت الرّصاصات جسد المخلوق الّذي في الهواء، وبدلًا من أن يمسك بحلق أرتيوم، انهار على الدّرجات الأخيرة من المصعد، ولم يعلو أكثر من مترين. ولكنّه بعد لحظة رفع رأسه متجاهلًا الدّم المتفجّر من جرحه، وتقدّم إلى الأمام.

ثمّ وثب ثانية وهويترنّح، وضغط أرتيوم على الباب الفولاذيّ البارد. ولم يعد الوحش قادرًا على الهجوم، فالطّلقات الأخيرة ضربت رأسه، وهو ميّت مسبقًا بانتهاء اندفاعه، لكنّ عطالة جسده كان كافية لكسر جمجمة أرتيوم لو لم يكن يضع خوذة.

انفتح الباب وتدفّق منه ضوء أبيض. سمع ضجيج مرعب من المصاعد، وبالحكم من خلال الصّوت هناك لا يقلّ عن خمسة من هذه الوحوش الآن. أمسكت به يد قويّة من ياقته، وسحبته إلى الدّاخل ورنّ المعدن مرّة أخرى. أغلقوا الباب ودربسوه.

هل تأذّيت؟ سأله الصّوت الّذي بجانبه.

اللّعنة إن كان يعرف، أجاب آخر: هل رأيت من جلب معه؟ نحن لم نرعبهم ونبعدهم في المرّة الأخيرة إلّا بعد أن استخدمنا الغاز.

اتركه، إنّه معي، أرتيوم.. هيه يا أرتيوم.. عد إلى وعيك. ناداه شخص مألوف.. ففتح أرتيوم عينيه بصعوبة.

ثلاثة رجال كانوا ينحنون فوقه. اثنان على الأرجح حارسا البوّابة. كانوا يرتدون ستر رماديّة داكنة، وقبّعات محبوكة وصدرا مضادّة للرّصاص. وبتنهيدة ارتياح عرف أنّ الثّالث كان ميلنك.

هل هذا هو؟ أم ماذا؟ سأل أحد الحرّاس بخيبة أمل.

إذًا خذه، ولكن لا تنسى بخصوص الحجر الصحّيّ والتّطهير من التّلوّث.

هل هناك محاضرات أخرى؟ سأل المطارد مكشّرا. انهض يا أرتيوم، لقد مرّ وقت طويل، قال وهو يمدّ له يده.

حاول أرتيوم أن يقف لكنّ ساقاه رفضتا التحرّك. تمايل وشعر بالدّوار وكان كالسّكران.

يجب أن نأخذه إلى المشفى. أنت ساعدني وأنت أغلق الأبواب المقاومة للضّغط، أمر ميلنك.

وبينما كان الطّبيب يفحصه، تفحّص أرتيوم القرميد الأبيض في غرفة العمليّات. كانت نظيفة تتلألأ، وهناك رائحة حادّة للمبيّضات في الجوّ، وعدد من مصابيح

مشعّة مثبّتة تحت السّقف، وبضع طاولات للعمليّات الجراحيّة، وصندوق أدوات جاهزة للاستخدام معلّق بجانب كلّ طاولة.

كانت حالة المستشفى الصّغير هنا مثيرة للإعجاب، لكنّ أرتيوم لم يفهم لماذا تحتاجها سمولينسكايا المسالمة.

ليس هناك كسور مجرّد كدمات وعدّة خدوش. لقد طهّرناها من الجراثيم، قال الطّبيب وهو يمسح يديه بمنشفة نظيفة.

هل يمكن أن تتركنا لوحدنا قليلًا؟ طلب ميلنك من الطّبيب، أحبّ أن أناقش شيئًا بشكل سرّيّ.

أمال الطّبيب برأسه عارفًا وغادر.

طالب المطارد الّذي جلس على حافّة السّرير الّذي استلقى عليه أرتيوم، بتفاصيل ما حدث.

وبتقديره كان يفترض بأرتيوم أن يظهر في سمولينسكايا قبل ساعتين، وميلنك بدأ مسبقًا يخطّط للصّعود إلى السّطح في محاولة منه لإيجاده. استمع إلى نهاية قصّة المطاردة، ولكن بلا اهتمام خاصّ وسمّى الوحوش الطّائرة بكلمة معجميّة "بتيروداكتيل حيوان منقرض" لكنّ الطّريقة الّتي أخفى أريتوم نفسه بها عند الباب الأماميّ، أثارت اهتمامه فعلا. تجهّم المطارد الّذي عرف أنّه بينما كان يجلس مستدفئًا في شقّته، كان أحد ما يحبو على السّلّم.

هل أنت متأكّد أنّك لم تدس بقدميك في القذارة الّتي على الدّرج؟ هزّ رأسه. أسأل الله أنّك لم تجلب تلك القذارة إلى داخل المحطّة. لقد أخبرتك ألّا تقترب من البيوت. اعتبر نفسك محظوظًا فعلًا لأنّها لم تتقّط عليك حين كنت تقوم بزيارتك.

نهض ميلنك وذهب إلى المدخل حيث تُرك حذاء أرتيوم، وتفحّص نعليه بعناية. وحين لم يجد ما يثير الرّيبة أعاده إلى مكانه.

كما قلت أيضًا، الطّريق إلى بوليس محرّم عليك في الوقت الحالي. فأنا لم أستطع أن أخبر البراهمة بالحقيقة، لذلك هم يظنّون أنّكما اختفيتما خلال الرّحلة إلى المكتبة. وأرسلوني للبحث عنكما. ماذا حدث لشريكك هناك؟

أخبره أرتيوم بكلّ القصّة مرّة أخرى من بدايتها حتّى نهايتها، وشرح له بصدق هذه المرّة كيف مات دانيال بالضّبط. فجفل المطارد.

من الأفضل أن تحتفظ بهذا لنفسك. ولكي أكون صادقًا، أحببت النّسخة الأولى أكثر. الثّانية ستتسبّب في أسئلة كثيرة من البراهمة. لقد قُتل رجلهم بيدك وأنت لم تجد الكتب. لهذا فالمكافأة المتبقّية هو أنت. وبالمناسبة، أضاف وهو ينظر بغضب إلى أرتيوم: ماذا كان في المغلّف؟

رفع أرتيوم نفسه على كوعيه، وأخرج من جيبه كيسًا غطّاه دم جافّ، ثمّ نظر إلى ميلنك بلطف وفتحه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر: الخارطة

كانت هناك صحيفة من الورق أُخذت من مذكّرة مدرسيّة، وطُويت أربع مرّات. وورقة مسودة سميكة مع رسوم فظّة للأنفاق بقلم رصاص. وهذا بالضّبط ماتوقّع أرتيوم أن يراه في داخل المغلّف (خارطة ومفاتيحها) حين كان يركض باتّجاه سمولينسكايا عبر كالينينسكي بروسبيكت لم يكن لديه الوقت للتّفكير بما يمكن أن يوجد في الكيس الّذي أعطاه له داينال. الحلّ الإعجازيّ لمشكلة لا حلّ لها، والشّيء القادر أن يأخذ من فدنكه والمترو كلّه، الشّرّ المبهم والمحتوم.

انتشرت بقعة بنيّة مائلة للاحمرار في وسط صفحة التّفسيرات. يجب أن ترطّب الورقة قليلًا، لأنّ دم البرهميّ علق بها. وبسرعة للكشف عن رسالتها، ويجب بذل عناية كبيرة كي لا تتضرّر التّعليمات المكتوبة عليها.

الجزء رقم... نفق... دي 6... تمديدات سليمة... حتّى 400.000 متر مربّع... نبع ماء... ليس في وضعيّة جيّدة للعمل... غير متوقّع... وثبت الكلمات إلى إرتيوم، والّتي حاولت القفز من السّطور الأفقيّة، فاندمجت في كلّ واحد، وبقي معناها غير مفهوم تمامًا له. وبعد أن يئس من تشكيلها في شيء منطقيّ، ناول الرّسالة إلي ميلنك. فأخذ ميلينك الورقة بيده بعناية، وثبّت عينيه الطمّاعتين على الحروف. ظلّ صامتًا لبعض الوقت، ثمّ رأى أرتيوم كيف زحف حاجباه إلى الأعلى بريبة.

هذا لا يمكن أن يكون، همس المطارد. هذا هراء تمامًا، لا يمكنهم أن يتغاضوا عن شيء كهذا...

قلب الورقة ونظر إليها من الجانب الآخر، ثمّ بدأ يقرأ ثانية من البداية.

احتفظوا بها لأنفسهم... لم يخبروا العسكر، وهذا ليس أمرًا مفاجئًا في الحقيقة. أرهم شيئًا مثل هذا وسيعتبرونه شيئًا قديمًا على الفور، تمتم ميلنك، بينما كان أرتيوم ينتظر بصبر بعض التّفسيرات. ولكن هل هم أغفلوها فعلًا؟ إنّها خاطئة. ولنفترض أنّها صحيحة... هذا يعني أنّهم راجعوها كما يفترض.

هل يمكن أن تساعدنا فعلًا؟ لم يعد أرتيوم يقوى على التّحمّل.

إن كان كلّ ما كُتب هنا صحيحًا، فهناك أمل، أمال المطارد رأسه.

حول ماذا هي؟ أنا لم أفهم شيئًا.

لم يجب ميلنك فورًا. وقرأ الرّسالة مرّة أخرى حتّى نهايتها، ثمّ فكّر لعدّة ثوان قبل أن يبدأ بسرد حكايته:

أنا سمعت عن شيء كهذا من قبل. كانت الأساطير تنتقل بسرعة حولنا، لكن هناك الآلاف منها في المترو كما ترى. فنحن نعيش بالأساطير وليس بالخبز وحده. عن الجامعة (يونيفيرستي) والكرملين وبوليس، لكن لا تستطيع أن تعرف أيًّا منها حقيقة وأيًّا منها لُفّق حول موقد نار في بلوشتشاد ايليشا وهكذا كما ترى. عمومًا كانت

هناك إشاعات حول وحدة صاروخيّة نجت في مكان في موسكو أو خارجها. طبعًا من غير الممكن أن يحدث ذلك. إنّ المعدّات العسكريّة والذّخائر هي الهدف رقم واحد دائمًا. لكنّ الإشاعات قالت أنّهم لم ينجحوا أو أنّهم لم يدركوا حقيقة الأمر أو أنهم نسوها، وأنّ إحدى الوحدات الصّاروخيّة لم تتضرّر إطلاقًا. وتحدّثت الإشاعات على أنّ أحد ما مشى هناك ورأى شيئًا، وزعموا أنّ التّجهيزات كانت تحت مشمّع. وهو نوع جديد من حظائر الطّائرات... صحيح، ليس هناك حاجة لها في المترو، فلا يمكنك الوصول إلى عدوّك في عمق كهذا. صمدوا، حسنًا، ليظلّوا صامدين.

وما علاقة التّجهيزات الصّاروخيّة بها؟ نظر أرتيوم إلى المطارد في حيرة، وأنزل قدمه عن الأريكة.

إنّ الدّارك ونز يأتون إلى فدنكه من الحديقة النّباتيّة، وهنتر يشكّ في أنّهم ينزلون إلى المترو من السّطح مباشرة إلى تلك المنطقة ومن المنطقيّ أن يعيشوا في الأعلى هناك كما يفترض. وفي الحقيقة هناك روايتان: الأولى تقول أنّهم يأتون من مكان مثل خليّة نحل (تعبير مجازيّ) غير بعيد عن مدخل المترو. وتقول الثّانية ليس هناك خليّة نحل، وأنّ الدّارك ونز يأتون من خارج المدينة. إذًا هناك سؤال: لماذا لم نلاحظ الكثير منهم في أيّ مكان آخر؟ إنّه منطقيّ.

ورغم ذلك، ربّما هي مسألة وقت. عمومًا هذا هو الوضع، حتّى إن وصلوا من مكان ما بعيد، فلن نقدر أن نفعل أيّ شيء معهم بأيّ حال. ونحن سننسف النّفق تحت فدنكه أو برسبيكت مير، وسيجدون مداخل جديدة عاجلًا أو آجلًا.

إنّ خيارنا الوحيد أن نتحصّن بالمترو ونغلقه علينا بإحكام وننسى العودة إلى السّطح إلى الأبد، ونعيش على الخنازير والفطر. وأنا كمطارد أستطيع القول بيقين أنّنا لن نستمرّ طويلًا جدًّا، لكن إن كان لهم خليّة وكانت قريبة منّا هنا كما يعتقد هنتر...

صواريخ؟ قال أرتيوم أخيرًا.

مدافع باثنتي عشر صاروخ مع رؤوس حربيّة متشظّية انفجاريّة عالية، تغطّي مساحة 400.000 متر مربّع، قرأ ميلنك بعد أن وجد المكان الضّروريّ في الرّسالة. عدد من تلك المدافع من الحديقة النّباتيّة ستحوّلهم إلى تراب.

لكنّك قلت للتّوّ إنّ هذا كلّه مجرّد أساطير، اعترض أرتيوم.

حسنًا، يقول البراهمة أنّها ليست كذلك، لوّح المطارد بالورقة: إنّها تشرح هنا كيف نجد طريقنا إلى موقع هذه الوحدة العسكريّة أيضًا. صحيح، تقول الرّسالة أنّ التّجهيزات لا تعمل جزئيًّا حسنًا، إذًا كيف سنصل إلى هناك؟

دي 6 تعني دي 6 هنا. المترو 2. تشير الخريطة إلى موقع واحد من المداخل. ويقولون أنّ ذلك المدخل يؤدّي من هناك إلى هذه الوحدة. لكنّهم يقولون أنّ عقبات خفيّة قد تظهر في المحاولة إلى الوصول إلى المترو 2.

مراقبون خفيّون؟ تذكّر أرتيوم محادثة سمعها ذات مرّة.

مراقبون؟ هذا تخريف وهراء، تجعّد وجه ميلنك.

وحدة الصّواريخ أسطورة أيضًا؟ أضاف أرتيوم.

تبقى أسطورة طالما لم أرها بنفسي، اختصر المطارد.

وأين المخرج إلى المترو 2؟

إنّه مكتوب هنا: محطّة مایاکوفسکایا. هذا غريب... ففي كلّ المرّات الكثيرة الّتي ذهبت فيها إلى مايكوفسكايا، لم أسمع أبدًا بشيء كهذا.

إذًا ماذا سنفعل الآن؟ كان أرتيوم فضوليًّا.

تعال معي، أجابه المطارد: استرخي أنت وأنا سأفكّر بالأمر قليلًا ونتناقش به غدًا.

لم يشعر أرتيوم بالجوع الشّديد إلّا حين بدأ ميلنك الحديث عن الطّعام. وثب على الأرض المبلّطة الباردة، ومشى يعرج إلى حذائه حين أوقفه المطارد بإيماءة.

اترك حذاءك وكلّ ثيابك، وضعها في ذلك الصّندوق. سوف ينظفّونها ويطهّرونها. سيفحصون حقيبة ظهرك أيضًا. هناك على الطّاولة سروال وسترة، البسهما.

بدت سمولينسكايا كئيبة، سقف نصف دائريّ منخفض، وقناطر ضيّقة في جدران ضخمة رُصفت بالمرمر الأبيض. ورغم الأعمدة المزيّنة المزيّفة المتدلّية من الأقواس وأعمال الجبس المحفوظة جيًّدا الّتي زيّنت الجدران إلى القمّة، إلّا أنّها أكّدت الانطباع الأوّل.

أعطت المحطّة انطباعًا بأنّها قلعة محاصرة منذ وقت طويل، وأنّ المدافعين عنها تفنّنوا في أسلوبهم، وأعطوا المكان منظرًا أقسى حتّى. فالجدار الإسمنتيّ المضاعف مع الأبواب الفولاذيّة الضّخمة على كلا جانبيّ البوّابة المضغوطة، ومواقع إطلاق النّار الإسمنتيّة عند مداخل الأنفاق، كلّها تقول أنّ السّكّان هنا لديهم مبرّراتهم للخوف على سلامتهم، ومن النّادر أن ترى نساء في سمولينسكايا، أمّا الرّجال فيحملون أسلحة. حين سأل أرتيوم ميلنك مباشرة عمّا حدث لهذه المحطّة، هزّ الأخير رأسه بشكل مبهم فقط، وقال أنّه لم ير شيئا غير عاديّ هنا.

على كلّ حال هناك شعور غريب معلّق في الجوّ، لم يترك أرتيوم. فكأنّ كلّ واحد هنا كان ينتظر شيئًا ما. كانت الأكشاك مرتّبة في صفّ في وسط القاعة، وتُركت كلّ القناطر شاغرة وكأنّهم خافوا إن سدّوها، أن تُعيق الإخلاء العاجل. وبنفس الوقت كانت كلّ المباني السّكنيّة تقع حصريًّا في الفراغات الّتي بين الأقواس.

وفي منتصف المسافة بين كلّ منصّة قطار حيث تهبط إلى القضبان الحديديّة، يجلس موظّفو الجمارك يراقبون النّفق من كلا الجانبين بشكل دائم. أضيف إلى تلك الصّورة الصّمت التّام تقريبًا في المحطّة، فهنا يتكلّم النّاس بأصوات منخفضة مع بعضهم البعض، ويتهامسون تمامًا أحيانًا، كما لو أنّهم يخشون من أن تُخفِي أصواتهم نوعًا مزعجًا من الأصوات يأتي من الأنفاق.

حاول أرتيوم أن يتذكّر ما كان يعرفه عن سمولينسكايا. هل لديها جيران خطيرون؟ كلّا، على أحد طرفي السّكّة بوليس الآمنة المشرقة، وقلب المترو والنّفق الآخر

يؤدّي إلى كييفسكايا التي لا يتذكر عنها سوى أنّها مأهولة بشكل أساسيّ بنفس القوقازيّين الّذين رآهم في كيتاي غورود وفي زنازين الفاشيّين في بوشكينسكايا من قبل، لكنّهم كانوا أناس عاديّين ولايستحقّون الاهتمام.

غرفة طعام وضعت في الخيمة الوسطى. وقد فات موعد العشاء بالحكم من كلّ شيء، إذ لم تبق سوى قلّة من النّاس على الطّاولات غير المتقنة، والمصنوعة محليًّا. عاد أرتيوم بعد بضع دقائق، وجلس إلى إحدى الطّاولات، وأمامه زبديّة من عصيدة رقيقة غير شهيّة تدخّن. وتحت نظرة مطمئنة من المطارد تجرّأ أرتيوم أن يجرّبها، ولم يتوقّف حتّى أفرغها. تبيّن أنّ الطّبق المحليّ رائع المذاق علمًا أنّ تحديد المادّة الّتي أُعدّ منها بالضّبط..

كان صعبًا. ولكن يمكن القول عن يقين أنّ الطّبّاخ لم يقتصد في اللّحم.

بعد أن انتهى أرتيوم من الطّعام وضع الزّبديّة الخزفيّة جانبًا، ونظر حوله بهدوء. هناك رجلان على الطّاولة المجاورة يتكلّمان بهدوء، وعلى الرّغم من أنّهما كانا يلبسان سترات تقليديّة مبطّنة، إلّا أنّ شيئًا ما في مظهرهما جعله يتخيّلهما في بدلات واقية تامّة وأسلحة رشّاشة جاهزة. ضبط أرتيوم أحدهما يتبادل نظرات مع ميلنك دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. تفحّص الرّجل الّذي في السّترة المبطّنة أرتيوم عرضيًّا، ثمّ عاد إلى محادثته المترويّة.

مرّت دقائق أخرى كثيرة في صمت. وحاول أرتيوم أن يتكلّم مرّة أخرى معه عن المحطّة، لكنّ ميلنك ردّ بتردّد واقتضاب.

نهض الرّجل الّذي في السّترة المبطّنة عن مقعده، ومشى إلى طاولتهما، ومال نحو ميلنك وقال: ماذا سنفعل مع كييفسكايا؟ لقد وصلت إلى وضع صعب...

حسنًا يا أرتيوم، اذهب وخذ قسطًا من الرّاحة، قال المطارد. الخيمة الثّالثة من هنا مخصّصة للضّيوف، لقد جُهِّزَ السّرير مسبقًا، قمت بالتّرتيبات. وأنا سأبقى هنا برهة، يجب أن أتحدّث مع هذين الرّجلين.

بشعور مألوف من الاستياء كما لو أنّهم أبعدوه كي لا يسترق السّمع إلى محادثات البالغين، وقف أرتيوم مطيعًا، وانطلق نحو المخرج، وعزّا نفسه بأنّه سيكون قادرًا على تفحّص المحطّة لوحده على الأقل.

الآن وحين تمكّن من إلقاء نظرة مهتمّة أقرب، اكتشف غرائب أخرى كثيرة. فقد أخليت الصّالة تمامًا، وكانت النّفاية المصنّفة الّتي تملأ بشكل محتوم غالبيّة محطّات المترو المأهولة، مفقودة هنا. سمولينسكايا كانت أوسع، ولا توحي بأنّها محطّة مأهولة بالسّكّان. وذكّرته فجأة بصورة من كتاب للتّاريخ، صور فيها مخيّم عسكريّ لفيالق رومانيّة. فراغ منظّم بشكل صحيح ومتناسق، ليس فيه أيّ إفراط وأماكن الحراسة في كلّ مكان، والمداخل والمخارج معزّزة.

لم ينجح أرتيوم في التّجوّل طويلًا في المحطّة، فحين واجهه السّكّان المحليّون بنظرات مريبة صريحة، أدرك بعد عدّة دقائق أنّهم كانوا يراقبونه، ولهذا فضّل التّراجع إلى خيمة الضّيوف. وجد بانتظاره سريرًا مصنًّعا، وفي إحدى الزّوايا حقيبة

بلاستيكيّة كتب اسمه عليها. غاص أرتيوم في نوابض السّرير التي أصدرت صريرًا، وفتح الحقيبة الّتي في داخلها الأشياء الّتي تركها في حقيبة ظهره. بحث بشكل أعمق فيها لمدّة ثانية، وأخرج من الحقيبة كتاب الأطفال الّذي جلبه من السّطح. تساءل إن كانوا فتّشوا الكنز الصّغير بعدّاد غيغر، وبالتّأكيد بدأ مقياس الجرعات يفرقع بعصبيّة قرب الكتاب، لكنّ أرتيوم فضّل عدم التّفكير بالأمر. تصفّح بضع صفحات، ثمّ تفحّص الصّور الباهتة الّتي على الورق المصفرّ، وأجلّ اللّحظة الّتي يجد فيها صورة فوتوغرافية بين الصّفحات التّالية إلى وقت تال.

هل ستكون هذه؟

مهما حدث له الآن أو لفدنكه أو للمترو كلّه، يجب عليه أوّلًا أن يعود إلى المحطّة لكي يسأل سوخوي: من هؤلاء في الصّورة؟ وهل المرأة في الصّورة هي أمّه أم لا؟ ضغط أرتيوم شفتيه على الصّورة ثمّ وضعها بين الصّفحات ثانية، وأعاد الكتاب إلى حقيبة الظّهر وخبأها. ولمدّة ثانية واحدة، تبيّن له أنّ شيئًا في حياته بات واضحًا بالتّدريج، وبعد لحظة غرق في النّوم.

وحين فتح أرتيوم عينيه وغادر الخيمة، لم يهتمّ بالتّغيير الكبير في المحطّة الّتي لم يبق فيها سوى أقلّ من عشر وحدات سكنيّة فقط. أمّا البقيّة فقد دُمّرت أو حرقت. كان السّخام يغطّي الجدران الّتي ثقّبها الرّصاص، وتفتّت الجبس من السّقف وسقط على الأرضيّة في قطع كبيرة، أمّا حول حوافّ المنصّة فقد تدفّقت جداول سوداء مشؤومة تُنذر بفيضان قادم. لم يكن في الصّالة أحد تقريبًا سوى فتاة صغيرة تلعب بدمى، بمحاذاة إحدى الخيام. ومن المنصّة الأخرى حيث يقع درج مخرج جديد من المحطّة، سمع صراخًا مكتومًا، ولم يكن هناك سوى مصباحي إنارة للطّوارئ يبدّدان الظّلام في الصّالة.

البندقية نصف الية التي تركها ارتيوم عند رأس الغمد السرير اختفت في مكان ما. فتش كل الكشك عبثا واستسلم الى واقع ان عليه الذهاب اعزلا.

لكن ماذا حدث هناك؟ أحبّ أرتيوم أن يطرح هذا السّؤال على الفتاة الصّغيرة الّتي كانت تلعب، لكنّها بكت وسالت دموعها بإفراط حين رأته، لذلك كان الحصول على أيّ شيء منها مستحيلًا.

ترك أرتيوم الفتاة الصّغيرة تختنق في دموعها، واجتاز بحذر القنطرة، وألقى نظرة على الدّرب. أوّل شي جذب نظره ثلاثة أحرف برونزيّة ثُبّتت ببراغي على واجهة مرمريّة:"ف.نكه." أين حرف "د" يجب أن يكون هناك أثر أسود. لكنّ كسرًا عميقًا اخترق النّقش كلّه على طول المرمر.

كان عليه أن يتفحّص ما يحدث في النّفق. لو أن أحدًا استولى على المحطّات، فيجب عليه قبل الرّجوع للمساعدة أن يستكشف الوضع، لكي يشرح لحلفائه من الجنوب طبيعة الخطر الّذي يهدّدهم بالضّبط.

وبعد دخول أرتيوم إلى الخطّ فورًا، كان الظّلام لا يُخترق، ولم يكن يرى أبعد من كوعه، وهناك شيء يتلفّظ بأصوات غريبة ممضوغة في أعماق النّفق. كان الذّهاب

إلى هناك ضربًا من الجنون. وحين توقفت الأصوات لوهلة، بدأ يسمع خرخرة ماء على طول الأرضيّة تدفّق حول حذاءه، فاندفع عائدًا باتّجاه فدنكه.

اهتزت ساقاه ورفضتا التّقدّم إلى الأمام. وحذّره الصّوت في رأسه مرّة تلو أخرى، أنّ الاستمرار خطير جدًّا، وأنّ المخاطرة كبيرة جدًّا، ولن يرى أيّ شيء في هذا الظّلام بأيّ حال. لكنّ قسمًا آخر منه لم يكترث البتّة لكلّ تلك الحجج المنطقيّة، وكان يشدّه بشكل أعمق إلى داخل الظّلام. وبعد أن استسلم لنفسه، قام بخطوة أخرى إلى الأمام مثل دمية رُبِط زنبركها. أصبح الظّلام المحيط به تامًّا ولم يكن هناك أيّ شيء مرئيّ. وثار إحساس غريب في داخل أرتيوم كما لو أنّ جسده اختفى ولم يبق منه سوى طنين نفسه السّابقة، واعتمد على عقله كليًّا.

تقدّم أرتيوم أكثر لبعض الوقت، لكنّ الأصوات من الجهة الّتي كان متوجًّها إليها لم تقترب أكثر. ثمّ سمع أصواتًا أخرى، وهي حفيف خطى. النّسخة المطابقة تمامًا لتلك الّتي سمعها سابقًا في الظّلام نفسه، لكنّه لم يتذكّر أين سمعها بالضّبط وتحت أيّ ظروف. وفي كلّ خطوة جديدة تصله من أعماق النّفق غير المرئيّة، كان أرتيوم يشعر وكأنّ رعبًا أسود باردًا يرشح قطرة إثر قطرة في قلبه.

وبعد عدّة لحظات لم يعد قادرًا على التّحمّل، فاستدار وركض مسرعًا باتّجاه المحطّة. لم يكن يرى الوصلات العرضيّة لسكّة الحديد في الظّلام، فتعثّر فوق إحداها وسقط وعرف الآن أنّ النّهاية المحتومة جاءت.

تصبّب العرق من أرتيوم ولم يدرك مباشرة أنّه سقط خارج السّرير أثناء الحلم. كان رأسه ثقيلًا بشكل غير عاديّ، وشعر بألم بليد في صدغيه، وأمضى بضع دقائق أخرى على الأرض حتّى صحا أخيرًا، لكنّه ظلّ عاجزًا عن الوقوف على قدميه.

وفي تلك اللّحظة الّتي صحا رأسه فيها قليلًا، تلاشت بقايا الكابوس تمامًا ولم يعد قادرًا على تذكّر حلمه تقريبًا.

نظر إلى الخارج بعد أن رفع السّتائر. بالإضافة إلى بعض الحرس لم يكن هناك أحد، فمن الواضح أنّ الوقت كان ليلًا. وبعد أن استنشق وزفر بعمق الهواء الرّطب المعتاد عدّة مرّات، عاد أرتيوم إلى الخيمة، وتمدّد على السّرير ثمّ نام بدون أحلام مثل جذع شجرة.

أيقظه ميلنك من النّوم، وكان يرتدي سترة سوداء عازلة ذات ياقة مرفوعة وبنطالًا عسكريًّا بجيوب. وبدا عازمًا على مغادرة المحطّة في أيّ دقيقة من الآن. وكان يضع على رأسه نفس القبّعة السّوداء القديمة، مع حقيبتين كبيرتين بدتا مألوفتين لأرتيوم.

دفع ميلنك إحداهما نحو أرتيوم بحذائه وقال:

هنا، حذاء وبدلة وحقيبة ظهر وأسلحة. بدّل حذاءك واستعدّ. ولا حاجة لأن ترتدي أيّ درع، فنحن لا ننوي الذّهاب إلى السّطح. أحضرها معك فقط. سنغادر في غضون نصف ساعة.

إلى أين سنذهب؟ سأله أرتيوم وهو شبه مستيقظ وعيونه ترمش محاولاً أن يكبح تثاؤبه.

كييفسكايا، إن كنت على ما يرام. وبعدها إلى بيلوروسكايا عن طريق الرّينغ وإلى ماياكوفسكايا. وهناك سنرى. استعدّ.

جلس المطارد على كرسيّ في الزّاوية، وأخرج قصاصة من جريدة من جيبه، وبدأ يلفّ سيجارة وهو ينظر إلى أرتيوم بين الحين والآخر. وتحت هذه الرّقابة أصبح أرتيوم عصبيًّا وأخطأ في كلّ شيء.

لكنّه بعد عشرين دقيقة صار جاهزًا. لم يقل أيّ كلمة، نهض ميلنك عن المقعد والتقط حقيبته ومشى إلى المنصّة. نظر أرتيوم حول الغرفة ولحق به.

مرّا عبر قنطرة وخرجا إلى الدّروب. وبعد أن تسلّقا سلّمًا خشبيًّا أُضيف للدّرب، أومأ ميلنك برأسه للحرس وسارا باتّجاه النّفق. لم ينتبه أرتيوم كيف كانت المداخل والخطوط مرتّبة إلّا الآن. وعلى جانب المنصّة الّتي تؤدّي إلى كييفسكايا، كان نصف الدّرب مسدودًا بمربض مدفع إسمنتيّ مع فتحات ضيّقة للبنادق بالإضافة إلى حاجز معدنيّ يسدّ الممرّ أيضًا. وهناك خفيران يقومان بالحراسة. ثرثر ميلنك معهما بعبارات موجزة، وفتح بعدها أحدهما القفل ودفع الحاجز المعدنيّ.

في أحد أطراف النّفق امتدّ سلك أسود عازل ملتفّ، تدلّى منه مصباح ضعيف كلّ عشرة أمتار. وبدت هذه الإضاءة البائسة لأرتيوم رفاهية. وبعد مئة خطوة فُصل السّلك، حيث ينتظرهم في هذا المكان مركز حراسة آخر. لم يكن أفراد الدّوريّة يرتدون بزّات نظاميّة، لكنّهم بدوا أكثر خطورة من العسكر في بوليس. أومأ أحدهم برأسه بعد أن عرفوا ميلنك بالنّظر وتركوه يمرّ. وقف المطارد على حافّة الفراغ المضاء، وأخذ مصباحه من حقيبته وأشعله.

بعد عدّة مئات من الأمتار سُمِعت أصوات في الأمام، وظهر وهج مصابيح كشّافة. انزلقت بندقية ميلنك من كتفه واستقرّت بيديه في حركة دقيقة لا تُدرك. فحذا أرتيوم حذوه.

الاحتمال الأرجح أنّها دوريّة بعيدة المدى من سمولنسكايا. وكان هناك رجلان مسلّحان قويّان في ستر دافئة، مع ياقات من الفرو المزيّف، يتجادلان مع ثلاثة من الباعة الجوّالين. وضع أفراد الدّوريّة قبّعات مدوّرة مربوطة على رؤوسهم، وعلى صدر كلّ منهم عُلّقت أجهزة رؤية ليليّة بأحزمة جلديّة، ولدى البائعين الجوّالين أسلحة، لكنّ أرتيوم كان مستعدًّا للمراهنة بأيّ شيء على أنّهم لم يكونوا مجرّد تجّار، فقد كان بأيدهم رزم ضخمة من الخرق وخريطة للأنفاق. ولهم نفس النّظرة الخبيثة الخاصّة، وعيون تلمع بنشاط تحت أشعّة المصابيح، لقد رأى كلّ هذا بشكل متكرّر. هم يسمحون عادة بدخول الباعة إلى المحطّات بدون أيّ مشكلة، ولكن يبدو أنّ حضورهم لم يكن متوقّعًا في سمولينسكايا.

حسنًا، أيّها الصّديق، كلّ شيء على ما يرام، نحن سنمرّ، حاول أحد التّجّار أن يقنع أحد أفراد الدّورية، وكان رجلًا طويلًا ورفيعًا له شارب، ويرتدي سترة مبطّنة

ضيّقة.

هذه هي أمتعتنا انظر إليها بنفسك، نحن سنبيعها في بوليس، ردّد البائع الآخر، وكان فتى مكتنزًا قصيرًا غطّى شعر رأسه عيونه.

ما هو ضررنا عليكم؟ لا يوجد سوى البضاعة، انظر سراويل جينز كأنّها جديدة تمامًا بقياسك، لها اسم تجاريّ وسأعطيك واحدًا مجانًا، بادر الثّالث قائلًا.

هزّ الخفير رأسه في صمت وهو يسدّ الممرّ، ولم يردّ بشيء تقريبًا. لكن حين حاول أحد التّجّار التّقدّم خطوة إلى الأمام بعد أن اعتبروا صمته موافقة، سحب الحارسان بوقت واحد لساني أمان بندقيّتيهما الآليّتين. ووقف ميلنك وأرتيوم على بعد خمسة أمتار خلفهم. أخفض المطارد سلاحه لكنّ التّوتّر كان واضحًا في هيئته.

قف، أعطيك خمس ثوان للعودة والمغادرة. إنّها محطّة أمن. ولا يسمح لأيّ واحد هنا. خمسة... أربعة... بدأ أحد الحرّاس بالعدّ.

حسنًا، كيف يفترض أن نصل إلى هناك، عبر الرّينغ مرّة أخرى؟ كاد أحد الباعة أن يغضب ويثور، لكنّ واحدًا آخر منهم هزّ رأسه مستسلمًا، وجرّه من أكمامه. والتقط التّجّار رزم خرقهم من الأرض وتراجعوا إلى الخلف.

أعطى المطارد أرتيوم إشارة بعد الانتظار لمدّة دقيقة واحدة، وبدأا السّير إلى كييفسكايا خلف الباعة مباشرة. وحين اجتازوا الحرّاس أومأ أحدهم لميلنك بصمت، ووضع إصبعين اثنين على رأسه تحيّة له.

محطّة أمن؟ كان أرتيوم فضوليًّا حين اجتازا الشّريط المحميّ. من كان ذلك الرّجل؟

ارجع واسأله، قال الآخر بشكل مفاجىء، وصدّ أرتيوم كي لا يطرح أيّ أسئلة أخرى.

رغم أنّ أرتيوم وميلنك حاولا أن يظلّا أبعد قليلًا عن الباعة الجوّالين الّذين مشوا أمامهما، إلّا أنّ أصواتهم كانت تقترب أكثر. وفجأة انقطعت ولم يجتازا عشرين خطوة حتّى سُلّط شعاع ضوء على وجهيهما.

هيه، من هناك؟ ماذا تحتاجان؟ صاح أحد ما بغضب، وعرف أرتيوم أنّ الصّوت كان لأحد التّجّار.

اهدأ، ودعنا نمرّ، نحن لن نضايقكم. نحن ذاهبون إلى كييفسكايا، قال المطارد بهدوء ولكن بوضوح.

تمرّون؟ سندعكم تتقدّمون. فلاحاجة لنا أن تتنفّسوا تحت أعناقنا، صرخوا من الظّلام بعد أن تشاوروا قليلًا.

هزّ ميلنك كتفيه في استهجان واستياء، وحرّك رأسه بتمهّل. وبعد ثلاثين مترًا تقريبًا كان الباعة الثّلاثة ينتظرونهما. وعند اقتراب أرتيوم وميلنك أنزل التّجّار بضاعتهم إلى الأرض، وتفرّقوا وسمحوا لهما بالمرور.

بدأ المطارد بالمشي مبتعدًا، وكأنّ شيئًا لم يحدث. لكنّ أرتيوم لاحظ أنّ سرعة سيره قد تبدّلت. بات يمشي الآن بصمت، وكأنّه يأمل في كتم الأصوات. لم ينظر ولو لمرّة واحدة إلى الباعة الّذين كانوا يتعقّبونهما. حاول أرتيوم لمدّة ثلاث دقائق أن يتغلّب على رغبته في الالتفات، وأخيرًا نظر إلى الخلف في كلّ الأحوال. هيه، سمع صوتًا متوتّرا من الخلف: انتظر هناك. فتوقّف المطارد. وبدأ أرتيوم يشعر بالارتباك. لماذا استجاب ميلنك صاغرًا لبعض التّجّار الصّغار؟

هل كانوا عنيفين جدًّا بسبب كييفسكايا؟ أم لأنّهم كانوا يحمون بوليس؟ سأل أحد الباعة حين لحق بهما.

بسبب كييفسكايا طبعا، ردّ ميلنك وشعر أرتيوم بوخز الغيرة، ولم يرغب المطارد أن يخبره بأيّ شيء.

نعم، أفهم ذلك. أصبح الأمر مخيفًا في كييفسكايا الآن. حسنًا، هذا جيّد وقريبًا ستصبح نقاط الحراسة هذه التّابعة لكم ساخنة، أفهمت؟ سيهرع كلّ من ينجو ويبقى حيًّا من محطّة كييفسكايا، ويأتي إليكم. لذا من الأفضل أن ترموهم بالرّصاص، دمدم البائع النّحيل الطّويل.

هل هاجمت البنادق بنفسك؟ قال الآخر متفاخرًا وبشكل حاقد. تبًّا، لا تتظاهر بأنّك بطل.

حسنًا، ولم تكن ساخنًا متحمًّسا أيضًا، ردّ النّحيل الطّويل.

ما الّذي يحدث هنا؟ لم يستطع أرتيوم احتواء نفسه.

نظر إليه البائعان فورًا كما لو أنّه سأل سؤالا غبيًّا جدًّا، يمكن لطفل صغير أن يجيب عليه. والتزم المطارد الهدوء. وزاد صمت الباعة، ومشوا في صمت لبعض الوقت. ولم يعد أرتيوم راغبا بسماع أيّ تفسير، وذلك بسبب الصّمت المطوّل الّذي كان يزداد توتّرًا. وحين قرّر أنّه على وشك التّنازل لهم، قال التّاجر النّحيل الطّويل أخيرًا، وبشكل متردّد:

الأنفاق إلى بارك بوبدي هناك، أمامنا مباشرة...

التصق البائعان الآخران ببعضهما عند سماع اسم المحطّة، وتخيّل أرتيوم لمدّة ثانية واحدة أنّ هناك هواء نفق رطب، وأنّ جدران النّفق تنهار. حتّى ميلنك هزّ كتفه كمن يحاول أن يدفّئ نفسه. لم يسمع أرتيوم قطّ أيّ شيء سيّء عن بارك بوبدي، ولم يتذكّر ولو حكاية واحدة لها علاقة بهذه المحطّة. هل أصبح قلقًا جدًّا لأنّه سمع باسمها؟

ماذا؟ هل ساءت الأمور أكثر؟

وماذا نعرف نحن؟ نحن مجرّد قوم عاديّين، نمرّ بها أحيانا. ابق هناك وستفهم، تمتم التّاجر الملتحي بشكل مبهم.

النّاس يختفون، قال البائع القصير الممتلىء بصوت منخفض. الكثيرون خائفون، لهذا هربوا. ولا أحد يعرف من اختفى ومن هرب، وهذا يخيف البقيّة أكثر.

كلّ هذه الأنفاق ملعونة، قال الطّويل النّحيل، وبصق على الأرض.

لكنّ الأنفاق مسدودة، قال ميلنك مفصحًا عن الواقع.

لقد سدّت منذ مئات السّنين، ولكن ماذا عنها منذ ذلك الحين إلى الآن؟ حسنًا، لو كنت غريبًا يفترض بك أن تفهّمنا بشكل افضل. فكلّ واحد هناك يعرف بوجود خوف من الأنفاق، رغم أنّها نُسفت وسدّت ثلاث مرّات. ويمكنك أن تشعر بالخوف وتراه في وجوههم حالما يظهرون هنا، حتّى سيرجيتش هذا. أشار الرّجل الطّويل النّحيل إلى رفيقه الملتحي.

تمامًا، أكّد سيرجيتش الأشعث، ورسم علامة الصّليب على نفسه لسبب أو لآخر.

لكنّهم يحرسون الأنفاق، أليس كذلك؟ سأل ميلنك.

الدّوريّات هنا يوميًّا، أومأ الملتحي برأسه.

ألم يمسكوا بأيّ أحد بعد؟ أو يروا أيّ أحد؟ سأل المطارد.

وكيف لنا أن نعرف؟ أومأ البائع معبّرًا عن عجزه. لم أسمع. لكنّهم يحاولون الإمساك بواحد.

وماذا يقول السّكّان المحليّون عن الأمر؟ تابع ميلنك دون أن يتراجع.

لم يقل الطّويل الهزيل شيئًا، وأومأ بشكل غامض، لكنّ سيرجيتش نظر إلى الوراء وهمس قائلًا:

إنّها مدينة الموتى، ورسم بعدها إشارة الصّليب على نفسه مرّة أخرى.

أراد أرتيوم أن يضحك، لقد سمع قصصًا كثيرة جدًّا، وخرافات وأساطير ونظريّات عن مكان الموتى في المترو، وعن أرواح في الأنابيب على طول جدران النّفق وبوّابات إلى الجحيم حفروها في إحدى المحطّات... والآن هناك مدينة من الموتى في بارك بوبدي، لكنّ التّيّار الشّبحيّ جعله يكتم ضحكته. وشعر ببرد شديد رغم الثّياب الدافئة. والأسوأ من كلّ هذا أنّ ميلنك صمت وتوقّف عن طرح الأسئلة. تمنّى أرتيوم لو أنّ رفيقه أبعد فكرة سخيفة كهذه.

قطعوا ما بقي من الطّريق في صمت، وغرق كلّ منهم في أفكاره الخاصّة به. وتبيّن أنّ الطّريق هادىء تمامًا وفارغ وجافٌّ وواضحٌ. ولكن رغم كلّ شيء كان الإحساس الثّقيل بوجود شيء سيّء ينتظرهم يزداد في كلّ خطوة.

وحالما دخلوا إلى المحطّة هاجمهم هذا الشّعور مثل مياه جوفيّة باردة وكثيفة يتعذّر ضبطها.

الخوف يحكم كلّ شيء هنا تمامًا، وهذا واضح من النّظرة الأولى. هل هذه هي كييفسكايا المشمسة الّتي تكلّم عنها القوقازيّ الّذي كان يقيم معه في زنزانة في الأسر

الفاشيّ؟ أم هل كان في ذهنه محطة تحمل نفس الاسم تقع في فرع فيلفسكايا؟

لا يمكن القول أنّ المحطّة أُهملت وهُجرت، وأنّ كلّ السّكّان فرّوا. وتبيّن أنّ هناك عدد كبير من النّاس هنا، لكن كييفسكايا ولّدت لديهم انطباعًا بأنّها لم تعد لساكنيها الّذين كانوا يحاولون البقاء بجانب بعضهم البعض. كانت الخيام مثبّتة بالجدران وببعضها البعض في وسط الصّالة، ولم تراع المسافة المطلوبة بينها من قوانين السّلامة في أيّ مكان. من الواضح أنّ النّاس كانوا مرعوبين من شيء أشدّ خطرًا من الحريق والنّار، وهم يمرّون ويشيحون النّظر بعيدًا حين ينظر المرء بعيونهم، ويتجنّبون الغرباء ويبتعدون عن دربهم، ويعدون كالخنافس مسرعين على طول الشّقوق.

تنخفض المنصّة الّتي انضغطت بين صفّين من القناطر المدوّرة والمنخفضة في أحد جوانبها، وتصل إلى عدد من السّلالم. أمّا الجانب الآخر فقد ارتفع عند درج قصير حيث فُتِح ممرّ جانبيّ إلى المحطّة الأخرى. انتشر دخّان الفحم في أماكن كثيرة، كما انتشرت رائحة معذّبة للّحم المشويّ، وهناك طفل يبكي في مكان ما. رغم أنّ كييفسكايا تقع على حافّة مدينة الموتى الّتي يخافها الباعة الجوّالون، إلّا أنّها كانت زاخرة بالحياة تمامًا.

اختفى الباعة الجوّالون بسرعة في الممرّ المؤدّي إلى الخطّ الآخر بعد أن ودّعوا ميلنك وأرتيوم.

نظر ميلنك على طول الجانبين بحذر، ثمّ بدأ يمشي بجانب أحد الممرّات. وتبيّن على الفور أنّه كان يأتي إلى هنا بشكل متكرّر. لم يفهم أرتيوم لماذا استجوب المطارد الباعة الجّوالين بالتّفصيل عن المحطّة. هل كان يرجو أن تُكشف إشارة خفيفة بالصّدفة عن الحالة الحقيقيّة للأمور؟ أم هل حاول أن يتخلّص من جواسيس محتملين؟

توقّفوا بعد ثانية في مدخل مكتب للخدمات. كان الباب مفتوحًا لكنّ الحارس وقف في الخارج. وخمّن أرتيوم بأنّها السّلطات.

جاء رجل كهل حليق الذّقن مع شعر مسرّح جيًّدا ليستقبل المطارد. كان يرتدي بدلة زرقاء يلبسها عمّال المترو، قديمة وباهتة من كثرة الغسيل، لكنّها نظيفة بشكل مدهش. وكان واضحًا اعتناؤه الشّديد بنفسه في هذه المحطّة. حيّا الرّجل ميلنك، ولسبب ما وضع إصبعين على جبهته، ولكن ليس بصدق كما فعل أفراد الدّوريّة في النّفق، وإنّما بشكل ساخر مع نظرة ساخرة أيضًا.

طاب يومك، قالها بصوت عميق لطيف.

طاب يومك يا سيّدي، ردّ المطارد وابتسم.

وبعد عشرة دقائق جلسوا في غرفة دافئة، وشربوا أفضل شاي فطر. هذه المرّة لم يُترك أرتيوم في الخارج كما توقّع، وإنّما سُمح له بأن يشارك في مناقشة قضايا مهمّة. ولسوء الحظّ، لم يفهم أيّ شيء من المحادثة بين المطارد ورئيس المحطّة الّذي خاطبه ميلنك باسم اركادي سيمونوفيتش. في البداية سأل ميلنك عن شخص

محدّد اسمه تريتياك، ثمّ بدأ يستفسر إن كانت هناك أيّ تغييرات في الأنفاق. أفاد الرّئيس أنّ تريتياك غادر في عمل شخصيّ ويُفترض أن يعود قريبًا جدًّا، واقترح أن ينتظراه. وبعد ذلك غاصا في تفاصيل اتّفاقيّات من نوع ما، بطريقة فقد فيها خيط المحادثة تمامًا. فجلس هناك يرتشف شايه الحارّ، وقد ذكّرته رائحة الفطر بمحطّته فنظر حوله. من الواضح أنّ كييفسكايا عرفت أوقاتًا أفضل، كانت جدران الغرفة مغطّاة بسجّاد أكله العثّ، لكنّه حافظ على تصميمه. وفي أماكن كثيرة فوق السّجّاد مباشرة، ثُبّتت رسوم تخطيطيّة بقلم رصاص لوصلات النّفق في إطارات مذّهبة عريضة. وبدت الطّاولة الّتي جلسوا عليها مثل أنتيكة (قديمة جدا) ولم يستطع أرتيوم أن يتخيّل كم من المطاردين احتاج لكي ينزلها من شقّة فارغة لأحد ما، وكم دفع مالك المحطّة ثمنًا لها. عُلّق سيف معقوف أسود بفعل الزّمن على أحد الجدران، وبجانبه مسدّس من زمن قبل التّاريخ، غير مناسب للإطلاق كما هو واضح. وفي الطّرف البعيد من الغرفة على خزانة الثّياب وضعت جمجمة بيضاء ضخمة لكائن ما.

لا يوجد شيء في هذه الأنفاق بالتّأكيد. هزّ اركادي سيميونوفيتش، نحن نبقي الحراسة كي يظلّ النّاس هادئين. أنت ذهبت إلى هناك بنفسك، وتعرف جيًّدا أنّ كلا الخطّين تمّ سدّهما على بعد ثلاثمائة متر من المحطّة. ولا توجد أيّ فرصة ليظهر أيّ أحد. إنّها خرافة.

لكنّ النّاس يختفون؟ تجهّم ميلنك.

هم يختفون، وافق الرّئيس. لكن لا نعرف أين. وأعتقد أنّهم يهربون. فليس لدينا أشرطة نطاقات محميّة في الممرّاتظن وهناك، لوح بيده نحو الدّرج، مدينة كاملة. يستطيعون الذّهاب إلى أيّ مكان يحبّونه، إلى الرّينغ وإلى فيليفسكايا، ويقولون أنّ هانسا تسمح بدخول النّاس الخارجين من محطّتنا الآن.

ولكن ما هو الشّيء الّذي يخافونه؟ سأل المطارد.

ما هو؟ من حقيقة أنّ النّاس يختفون. أنت تدور في حلقة مفرغة، أومأ اركادي سيميونوفيتش يائسًا.

أمر غريب، قال ميلنك مرتابًا. أنت تعرف، دعنا ننزل إلى الحرس ثانية بينما ننتظر تريتياك. أنا أطلعك فقط، وإلّا فإنّهم سيقلقون السمولينسكيين ويزعجوهم بالأسئلة.

أنا أفهم، أمال الرّئيس برأسه. حسنًا، اذهب أنت إلى الخيمة الثّالثة، أنطون يقيم هناك الآن، وسيكون قائد الورديّة التّالية. وأخبره أنّني أنا أرسلتك.

كانت هناك ضجّة في الخيمة المطليّة برقم "3". صبيّان صغيران بعمر العاشرة، يلعبان على الأرض بأغلفة طلقات أسلحة آليّة.

جلست بجانبهما فتاة صغيرة تنظر إلى أخويها بدهشة وفضول، لكنّها لم تقرّر أن تشارك في اللّعبة. ومعهم امرأة أنيقة في وسط عمرها ترتدي مئزرًا، وتعدّ نوعًا من طعام من أجل العشاء. كان الجوّ مريحًا هنا، علقت فيه رائحة منزليّة لذيذة.

لقد خرج أنطون، تفضّلا اجلسا وانتظراه، عرضت المرأة وهي تبتسم بمودّة.

بدأ الصّبيّان يحدّقان بهما باهتمام، ثمّ اقترب أحدهما من أرتيوم: هل لديك أغلفة طلقات؟ سأل وهو ينظر إليه بصفاقة.

أوليغ توقّف عن تسوّلك فورًا، قالت المرأة بقسوة دون أن تتوقّف عن إعداد الطّعام.

دُهش أرتيوم،بينما وضع ميلنك يده في جيب سرواله وتلمّس وسحب عدّة أغلفة مستطيلة غير عاديّة، ليست طلقات كلاشنكوف. وجمعهنّ في قبضته وخشخشهن مثل خشخيشة الأطفال، ثمّ مدّ المطارد الكنز للطّفل الّذي أشرقت عيناه فورًا، لكنّه لم يجرؤ أن يأخذ الهديّة.

خذها، خذها، غمزه المطارد وأفرغ الخراطيش في راحة الولد الممدودة.

الآن سوف أربح، انظر، كم هي كبيرة، ستكون سبيتسناز (تعني الكلمة الوحدات الخاصّة الرّوسيّة-المترجم) صاح الولد بسعادة.

راقبهما أرتيوم ورأى أنّ الصّبيّان وضعا الأغلفة في صفّين متساويين، ومن الواضح أنّهما تمثّلان جنود لعب. هو نفسه لعب مثل تلك اللعبة في الماضي وكان محظوظا، فما زال لديه جنود لعب صغار حقيقيّين، لكن من مجموعات مختلفة.

وحين انتشرت المعركة على الأرض، دخل والد الأطفال إلى الخيمة. كان رجلًا قصيرًا ونحيلًا بشعر أشقر غامق. وحين رأى الغريبين أومأ برأسه لهما بصمت، ولم يتفوّه بكلمة، وحدّق بميلنك طويلًا.

بابا، بابا، هل جلبت لنا مزيدًا من أغلفة الطّلقات؟ بات عند أوليغ أكثر منّي، لقد أعطاه الرّجلان أغلفة طويلة، تذمّر الصّبيّ الثّاني وهو يشدّ ساق سروال الأب.

من السّلطات، شرح المطارد: نحن سنذهب للحراسة معك في الأنفاق كقوّة تعزيزيّة.

تعزيزات إضافيّة.. غير معقول، تمتم رئيس الخيمة، ولكنّ خطوط وجهه أصبحت ملساء. اسمي أنطون، سنتناول القليل من الطّعام ونذهب، اجلسا. وأشار إلى الأكياس المملوءة الّتي تقوم مقام المقاعد في بيته.

تشارك الضّيفان رغم مقاومتهما في زبديّة من جذور ودرن غير مألوفة لأرتيوم. نظر أرتيوم إلى المطارد مستفسرًا، لكنّ المطارد طعن قطعة بشوكته ووضعها في فمه، وبدأ يقضم وانعكس شي يشبه الرّضا على وجهه، وهذا منح الشّجاعة لأرتيوم. يختلف مذاق الجذور تمامًا عن الفطر، فقد كانت حلوة ودسمة قليلًا، أكلا حتّى الشّبع في بضع دقائق فقط.

في البداية أراد أرتيوم أن يسأل عن ما كانوا يأكلونه، لكنّه فكّر بعدئذ أنّه من الأفضل له ألّا يعرف. الطّعام كان جذّابا وجيّدا. وفي بعض الأماكن يعتبرون مخّ الجرذان طعامًا شهيًّا ورفاهية.

بابا، هل أستطيع الذّهاب معك إلى الحراسة؟ سأل الطّفل الّذي أعطاه المطارد الأغلفة، بعد أن أكل نصف حصّته، ونشر البقيّة على أطراف الطّبق.

كلا، يا اوليغ، ردّ المضيف متجهًّما.

أوليغينكا، ما هذا الحديث عن الحراسة؟ ماذا تظنّها؟ هم لا يأخذون الصّبية الصّغار إلى هناك، قالت المرأة وهي تأخذ الابن من يده.

ماما، ماذا تقصدين بولد صغير؟ سأل أوليغ وهو يتفحّص الضّيفين، وكان متضايقًا وحاول أن يتكلّم بصوت عميق.

لا تفكّر بذلك حتّى، هل تريد أن تدفعني إلى الهستريا؟ رفعت الأمّ صوتها.

حسنًا، رائع، رائع، دمدم الولد.

ولكن حين ذهبت أمّه إلى طرف الخيمة الآخر لتحضر شيئًا من أجل الطّاولة، شدّ والده من يده فورًا، وهمس له بصوت عال:

لكنّك أخذتني في المرّة الماضية...

انتهى الحديث، قال الأب بصرامة.

لا يهم... دمدم أوليغ بكلماته الأخيرة لنفسه هامسًا، لذلك لم يُسمع صوته بوضوح.

وبعد تناول الطّعام وقف أنطون عن الطّاولة، وفتح صندوقًا معدنيًّا وُضع على الأرض، وأخرج منه اك-47 عسكريّة قديمة وقال:

هل نذهب؟ إنّها ورديّة قصيرة اليوم، وسأعود بعد ستّ ساعات، أخبر زوجته بذلك.

وقف كلّ من ميلنك وأرتيوم فورا. ونظر أوليغ الصّغير بيأس إلى والده، وتململ مضطربًا في مقعده وقرّر ألّا يقول شيئًا.

عند فتحة النّفق المظلم جلس حارسان على حافّة المنصّة، بينما تدلّت أرجلهم للأسفل. وحارس ثالث يسدّ الممرّ ويدقّ شيئًا ما في الظّلام. هناك طباعة على الجدار: (اتّحاد أرباتسكايا، أهلًا وسهلًا) كانت الحروف شبه ممحيّة، والواضح أنّهم لم يعيدوا طبعها منذ وقت طويل جدًّا. كان الحراس يتحدثون فيما بينهم بالهمس، حتّى أنّهم يسكتون من يرفع صوته منهم.

بالإضافة إلى المطارد وأرتيوم رافق رجلان محليّان أنطون. كانا كئيبين وغير ثرثارين، وينظران إلى الضّيفين بحقد، ولم يحفظ أرتيوم اسميهما أبدًا.

وبعد تبادل بعض العبارات القصيرة مع النّاس الّذين يحمون المدخل المؤدّي إلى النّفق، نزلوا إلى الدّروب، وتقدّموا إلى الأمام ببطء. كان النّفق حول القناطر تقليديًّا جدًّا، ولم تتأثّر الجدران والأرض بمرور الزّمن كما يبدو.

ولكنّ الشّعور المزعج الّذي تكلّم عنه الباعة الجوّالون، بدأ يلفّ أرتيوم منذ خطواته الأولى.

زحف خوف مظلم لا يُفسّر من الأعماق ليستقبله. وكان الخطّ هادئًا. سُمعِت بعض الأصوات البشريّة من بعيد، وهي على الأرجح لدوريّة تموضعت هناك أيضًا.

كان واحدًا من أغرب المخافر التي رآها أرتيوم.

عدّة رجال جلسوا حول حقائب مملوءة بالرّمل، وفي الوسط انتصب موقد من الحديد القويّ، وعلى مسافة أبعد دلو من زيت الوقود. لا ينير وجوه أفراد الدّوريّة سوى ألسنة اللّهب الّتي تخترق شقوق الموقد الضيّقة، وضوء فتيلة المصباح الزّيتيّ المترجرج المعلّق بالسّقف. كان المصباح يتمايل بهواء النّفق الواهن، ولذلك بدت ظلال النّاس الجالسين بلاحراك، وكأنّهم يعيشون حياتهم الخاصة.

أفراد الحراسة يجلسون وظهورهم إلى النّفق، والهواء يثير أعينهم. جمع الحرّاس أنفسهم ليذهبوا إلى بيوتهم وهم يغطّون بأيديهم أعينهم من الأشعّة القويّة لمصابيح النّوبة الّتي ستتولّى الحراسة بعدهم.

حسنًا، كيف هي الأمور؟ سأل أنطون أحدهم وهو يغرف غرفة من زيت الوقود.

كيف يمكن أن تكون هنا؟ كشّر فرد النّوبة الأعلى مرتبة بكآبة: كما هي دائمًا، فارغ وهادىء، هادىء... واستنشق بعد أن نهض محدودبًا، وبدأ يمشي باتّجاه المحطّة. بينما كان الباقون منهم ينقلون حقائبهم إلى أماكن أقرب من الموقد، ويزرعون أنفسهم. التفت ميلنك إلى أنطون:حسنًا، ما رأيك أن نواصل ونلقي نظرة على ما يوجد هناك؟

لا يوجد شيء يُرى هناك، إنّه مسدود تمامًا، لقد رأيته مئات المرّات سابقًا. انظر إن أردت، إنّه على بعد خمسة عشر مترًا من هنا، أشار أنطون إلى جهة بارك بوبدي.

كان النّفق شبه مدمّر قبل سدّه، فقد غطّت الأرض شظايا الحجر والتّراب، وتدلّى السّقف في بعض الأماكن، وتفتّت الجدران واقتربت من بعضها. والفتحة المطمورة لمدخل مكاتب خدميّة مجهولة على الجانب، ازداد سوادها. وفي نهاية هذا الملحق قضبان حديديّة صدئة، انغرست في كومة غطّتها كتل إسمنتيّة امتزجت بحجارة الأرصفة والتّربة. وكانت أنابيب الخطّ المعدنيّة المستعملة الّتي تمتدّ على طول الجدران مغمورة بطبقة ترابيّة أيضًا.

أضاء ميلنك النّفق المنهار بالمصباح، ولم يجد أيّة أبواب سريّة، فهزّ كتفيه غير مبال، وعاد باتّجاه الباب المائل. وجّه الضّوء إلى الدّاخل، وحدّق هناك لكنّه لم يجتز العتبة.

ألا توجد أيّ تغييرات في الخطّ الثّاني أيضًا؟ سأل ميلنك أنطون وهو يستدير نحو الموقد.

إنّه بهذه الحال منذ عشر سنين، ردّ الأخير.

خيّم الصّمت لبعض الوقت. ومع إطفاء المصابيح الكشّافة جاء الضّوء مرّة أخرى فقط من الموقد المغطّى بشكل رخو، ومن شعلة صغيرة جدًّا من خلف زجاج المصباح الزّيتي الملوّث بالسّخام، وأصبح الظّلام المحيط كثيفًا. تجمّع الحرّاس كلّهم حول الموقد، واقتربوا منه بأقصى ما يمكن، حيث سدّت ألسنة اللّهب الصّفراء الظّلام والبرد، ويستطيع المرء التنفّس بحريّة أكبر هنا. صمت أرتيوم بقدر ما

استطاع، لكنّ الحاجة إلى سماع صوت ما، أجبرته أن يتغلب على خجله: أنا لم أزر محطّتكم من قبل، سعل وأخبر أنطون. وأنا لا أفهم لماذا تقومون بالحراسة هنا طالما ليس هناك شيء؟ حتّى أنّكم لا تنظرون إلى تلك الجهة.

ذلك هو ترتيب الأشياء، شرح أنطون: يقولون لهذا السّبب لا يوجد شيء طالما نحن نقوم بالحراسة.

وماذا يوجد هناك وراء حاجز الصّدّ؟

أعتقد أنّه النّفق، توقّف لثانية واحدة، استدار ونظر إلى الطّريق المسدود، كلّ الطّريق المؤدّي إلى بارك بوبدي.

هل يعيش أحد هناك؟

لم يردّ أنطون، لكنّه هزّ رأسه بشكل غامض. ظلّ ساكتًا برهةً، ثمّ سأل باهتمام:

ألا تعرف أيّ شيء عن بارك بوبدي؟ ودون انتظار الجواب، أنطون قائلًا: وحده المولى من يعرف ماذا ظلّ هناك الآن، لكن سابقًا كانت محطّة مزدوجة ضخمة، واحدة من الّتي بُنيت في الأخير. هؤلاء الأكبر سنًّا زاروها ثمّ عادوا... حسنًا، حتّى... على كلّ حال يقولون أنّها صُنعت بشكل مترف، والمحطّة تقع على عمق كبير، ليست مثل الإنشاءات الجديدة الأخرى، والنّاس هناك عاشوا رفاهية، ولكن ليس لوقت طويل. حتّى انهار النّفق.

لكن كيف حدث ذلك؟ سأله أرتيوم.

يقولون، نظر أنطون إلى الآخرين: إنّه انهار من تلقاء نفسه. لقد صمّموه بطريقة رديئة، أو أنّ موادّ البناء سرقت أو شيء ما آخر. ولكنّ ذلك حدث منذ زمن بعيد جدًّا، ولا أحد يتذكّر بشكل أكيد.

قال أحد الحرّاس: أنا سمعت أن السّلطات المحليّة فجّرت الخطّين. إمّا لأنّهم كانوا في تنافس مع بارك بوبدي أو لشيء آخر... أو ربّما خافوا أن تخضعهم بارك وتستعبدهم مع الوقت. ولكن هنا، في كييفسكايا، أنت نفسك تعرف في ذلك الوقت من كان القائد، ومن كان يتاجر بالفاكهة في السّوق سابقًا. النّاس الهائجون (هت- الهاربون من وجه العدالة) الّذين اعتادوا على تفكيك الأشياء. صندوق من الدّيناميت في هذا النّفق، وصندوق آخر في ذاك أبعد قليلًا من محطّتهم، وتتمّ العمليّة. وبمثل هذا العمل الهمجيّ تُحلّ المشكلة.

وماذا حدث معهم لاحقًا؟ كان أرتيوم فضوليًّا.

حسنًا، نحن لا نعرف، نحن وصلنا إلى هنا بعد ذلك... كان أنطون على وشك البدء لكنّ الحارس الّذي كان يتحدّث قاطعه:

وماذا يمكن أن يحدث؟ مات الجميع. يجب أن تفهم أنّه حين تُفصل محطّة عن المترو، فإنّه لا يمكنها أن تعيش طويلًا. فالمصافي تتوقّف أو المولّدات، أو يبدأ الفيضان. فلم يتمّ إعداد النّاس ليكونوا على السّطح حتّى الآن. سمعت أنّهم حاولوا أن

يحفروا في البداية، لكنّهم استسلموا لاحقًا. هؤلاء الذين خدموا هنا في البداية، يقولون أنّهم سمعوا صراخهم عبر الأنابيب، ولكن حتّى ذلك توقّف قريبًا جدًّا.

سعل ومدّ يديه نحو الموقد. وبعد أن دفّأ يديه، نظر الخفير إلى أرتيوم وأضاف: لم تكن الحرب فقط، فمن يقاتل مثل ذلك؟ كان معهم نساء كما تعرف وأطفال. أقوام... مدينة كاملة. ومن أجل ماذا؟ لم يريدوا أن يقسموا النّقود. يبدو أنّهم لم يقتلوا بأنفسهم أيّ أحد. أنت سألت: ماذا يوجد هناك، على الطّرف الآخر من حاجز الصّدّ؟ يوجد هناك الموت.

هزّ أنطون رأسه لكنّه لم يقل أيّ كلمة. ونظر ميلنك إلى أرتيوم باهتمام، وكاد أن يفتح فمه وكأنّه أراد أن يضيف شيئًا للقصّة الّتي سمعها، لكنّه غيّر رأيه. شعر أرتيوم بالبرد فعلا، ومطّ نفسه نحو الموقد أيضًا. حاول أن يتخيّل معنى العيش في هذه المحطّة، الّتي يعتقد سكّانها بأنّ قضبان السّكّة الحديديّة الّتي تغادر بيوتهم، تؤدّي إلى مملكة الموت مباشرة.

بدأ أرتيوم يفهم تدريجيًّا أنّ الحراسة الغريبة في هذا النّفق المتشقّق لم تكن غير ضروريّة، وإنما كانت طقس على الأغلب. من يخيفون ويبعدون عن المحطّة وهم يجلسون هنا؟ سيمنعون مَن مِن المجيء إلى المحطّة وإلى بقيّة المترو؟ ازادات برودة الجوّ ولم يعد يقيه من رجفة البرد لا الموقد الحديديّ ولا السّترة الدّافئة الّتي أعطاها له ميلنك.

استدار المطارد بشكل غير متوقّع نحو النّفق المؤدّي إلى كييفسكايا، ونهض عن مقعده، وأصغى وراقب. حتّى أنّ أرتيوم أدرك سبب قلقه في عدّة ثوان.

سمعت خطوات سريعة ناعمة من هناك، وعلى مسافة انتثر وهج مصباح ضعيف عليها، كما لو أنّ أحدًا مسرعًا يقفز فوق الوصلات بكلّ قوّته ليصل إليهم.

قفز المطارد عن مقعده، وضغط نفسه إلى الجدار، وسدّد بندقيّته النّصف آليّة إلى بقعة الضّوء.

ونهض أنطون بهدوء وحدّق بالظّلام. ومن خلال وضعه السّهل كان واضحًا أنّه لم يكن يتخيّل أيّ خطر جدّيّ قد يأتي من ذاك الطّرف من النّفق. حرّك ميلنك مفتاح مصباحه، فتراجع الظّلام بعيدًا بعناد.

وعلى بعد ثلاثين قدم عنهم، وقف شكل صغير هشّ، ساكنًا بعيدًا عنهم رافعًا يديه في وسط سرير المسار.

بوب، بوب، إنّه أنا، لاتطلق النّار. كان الصّوت لطفل، فحوّل المطارد ضوءه إلى تلك الجهة، وهزّ نفسه ثمّ رفعها عن الأرض. كان الطّفل يقف بجانب الموقد بعد دقيقة واحدة، ويتفحّص حذائه بارتباك. لقد كان ابن أنطون، الابن الّذي طلب أن يذهب للحراسة معه.

هل حدث أيّ شيء؟ سأل الأب بقلق.

كلّا، أردت أن أكون معك فقط. فأنا لم أعد ولدًا صغيرًا لأجلس في الخيمة مع أمّي.

كيف وصلت إلى هنا؟ يوجد حارس هناك.

كذبت عليه وقلت إنّ أمّي أرسلتني لكي أراك. كان العمّ بيتيا، إنّه يعرفني. قال لي لا تنظر إلى الممرّات الجانبيّة، وستصل إلى أبيك بسرعة، وسمح لي بالمرور.

سنتحدّث للعمّ بيتيا مرّة أخرى، وعد أنطون بذلك جادًّا. وأنت فكّر برهة كيف ستشرح هذا لأمّك. لن أدعك تعود لوحدك.

هل أستطيع البقاء معك؟ لم يقدر الطّفل أن يخبّا فرحته فبدأ يثب هنا وهناك.

تحرّك أنطون جانبًا، وأجلس ابنه على الأكياس الدّافئة. خلع سترته وأوشك أن يلفّه بها، لكنّ الطّفل التوى للأسفل إلى الأرض وأخرج المتاع الّذي جلبه معه من جيبه، ونشره على خرقة: حفنة من أغلفة الخراطيش وأشياء اخرى. جلس بجانب أرتيوم الّذي توفّر له الوقت ليتفحّص كلّ هذه الأشياء، وكان الأكثر متعة بينها صندوق معدنيّ صغير مع قبضة تدور. حين أمسكه أوليغ بيد واحدة ولفّها بأصابع اليد الأخرى، نفث الصّندوق أصواتًا معدنيّة رنّانة، وعزف لحنًا آليًّا بسيطًا. كان الصّندوق مسليًّا ويستحقّ أن يسنده على شيء آخر، لأنّه بدأ يرجع الصّدى ويضخّم الصّوت مرّات كثيرة. أتى الصّدى بأفضل شكل من الموقد الحديديّ، ولكن لم يكن ممكنًا ترك الأداة هناك طويلًا لأنّها تسخن بسرعة كبيرة. إنّه صندوق ممتع جدًّا، لذلك قرّر أرتيوم تجريبه.

يا للهول ما هذا؟ قال الولد وهو يعطيه الصّندوق الحارّ، وينفخ على أصابعه الّتي احترقت.و وعده بشكل تآمري: سأريك تلك الخدعة لاحقًا.

مرّ نصف السّاعة التّالي ببطء. ولم يلاحظ أرتيوم النّظرات الغاضبة للحرّاس، وهو يدير القبضة بشكل مستمرّ ويستمع إلى الموسيقا. همس ميلنك بشيء لأنطون، أمّا الطّفل فكان يلعب على الأرض بأغلفة خراطيشه. كان اللّحن الصّادر عن صندوق الموسيقا الصّغير كئيبًا قليلًا، لكنّه ساحر في طريقته، وكان من المستحيل التّوقّف.

كلّا، أنا لا أفهم، قال المطارد ووقف عن مقعده: إن تدمّر النّفقان المحميّان، فأين سيختبىء النّاس برأيك؟

ومن قال إنّ كلّ ذلك في هذه الأنفاق؟ تطلّع أنطون للأعلى والأسفل. هناك ممرّات إلى الخطوط الأخرى، مجموعهما اثنان، والخطوط إلى سمولينسكايا. أظنّ أنّ أحدًا ما يستغلّ معتقداتنا الخرافيّة ويستفيد منها.

أيّ خرافات؟ قاطعه الحارس الّذي أخبره عن نسف النّفق، والنّاس الّذين تُركوا لمصيرهم في الطّرف الآخر. لعنة محطّتنا أنّها وقفت في صفّ بارك بوبدي، وقد حُكم علينا كلّنا أن نعيش فيها...

وأنت يا سانيش تعكّر المياه، قاطعه أنطون باستياء. فالنّاس هنا يسألون عن أشياء خطيرة، وأنت تنشر حكايتك هنا وهناك.

دعنا نتمشّى، فقد رأيت بعض الأبواب على طول الطّريق، ومخرج جانبيّ. وأريد أن ألقي نظرة، قال ميلنك له. النّاس خائفون في سمولينسكايا أيضًا. إنّ كولباكوف

مهتمّ بالأمر شخصيًّا.

هل صحيح أنّه أصبح مهتمًّا الآن؟ ابتسم أنطون بحزن.

هم أيضًا يطرحون أسئلة في بوليس. سحب المطارد جريدة مطويّة من جيبه.

وقد رأى أرتيوم مثل تلك الجريدة في بوليس، حيث وضعت على صينيّة في أحد الممرّات للبيع بكلفة عشر طلقات. ولكن دفع هذا الثّمن الكبير من أجل جريدة من ورق لفّ طُبع عليه إشاعات بشكل رديء، أمر لا يستحقّ. ويبدو أنّ ميلنك لم يأسف على الطّلقات وقام بشرائها. حُشدت مقالات قصيرة كثيرة تحت الاسم الفخم (أخبار المترو) على الورق المصفرّ المقصوص بشكل فظّ. وأُرفقت بإحدى القطع، صورة بالأبيض والأسود حتّى،

وكُتب في المقدّمة: حوادث اختفاء غريبة تتواصل في كييفسكايا.

يقولون أنّ المدخّنين ما يزالون أحياء. أخذ أنطون الجريدة في يديه، سهّلها ثمّ فتحها. حسنًا، لنذهب، سأريك الفروع الجانبيّة. ألا تتوقّف عن القراءة؟

أومأ المطارد برأسه، ووقف أنطون ونظر إلى ابنه وقال له:

سأعود على الفور، لا تسيء التّصرّف هنا بدوني. والتفت إلى ارتيوم وطلب منه أن يعتني به أن يكون صديقا.

لم يكن أمام أرتيوم سوى أن يوافق. وبمجرّد أن خرج والده والمطارد وابتعدا قليلًا، قفز أوليغ وأخذ الصّندوق من أرتيوم بنظرة سيّئة وصاح به: أمسكني. وركض مسرعًا نحو النّهاية المسدودة. نظر أرتيوم إلى بقيّة الحرّاس بعد أن تذكّر أنّ الصّبيّ كان مسؤوليّته الآن، فأضاء مصباحه ولحق بأوليغ.

لم يفتّش أرتيوم مكاتب الخدمات شبه المدمّرة، وانتظر بجانب حاجز الصّدّ.

انظر إلى ما يحدث الآن، قال الصّبيّ.

اندفع أوليغ وتسلّق الحجارة ووصل إلى مستوى الأنابيب، واختفى في داخل حاجز الصّدّ. ثمّ أخرج الصّندوق ووضعه على الأنبوب ودوّر القبضة وقال: استمع..

بدأ الأنبوب يدندن ويردّد الصّدى، وكأنّه مُلأ من الدّاخل بلحن حزين بسيط يعزفه الصّندوق. ضغط الولد أذنه على الأنبوب وكأنّه سحر، واستمرّ في تدوير القبضة وهو يسحب أصواتًا من الصّندوق المعدنيّ.

توقّف لمدّة ثانية واحدة، أصغى وابتسم بسعادة، ثمّ قفز للأسفل عن كومة الحجارة، ومدّ صندوق الموسيقا لأرتيوم:

تفضّل، جرّبه بنفسك.

استطاع أرتيوم أن يتخيّل كيف يتبدّل صوت اللّحن، حين يمرّره عبر الأنبوب المعدنيّ. لكنّ عيون الطّفل كانت ساطعة جدًّا، لذلك قرّر ألّا يكون شخصًا مزعجًا. أسند الصّندوق على الأنبوب وضغط أذنه إلى المعدن البارد، وبدأ يدوّر القبضة،

فبدأت الموسيقى تدوّي بصوت عال لدرجة أنّه أبعد رأسه تقريبًا. لم يكن أرتيوم مطّلعا على قوانين الصّوت، ولم يفهم بأيّ معجزة تستطيع هذه القطعة المعدنيّة أن تضخّم اللّحن داخل هذا الصّندوق الّذي يرنّ بشكل ضعيف.

وبعد أن أدار القبضة لعدّة ثوان أخرى، وشغّل اللّحن القصير ثلاث مرّات، أومأ برأسه لأوليغ:

إنّه ممتاز.

أصغ مرّة أخرى، وبدأ يضحك. لا تشغّله، استمع فقط، هزّ أرتيوم كتفه غير مبال، ونظر إلى مركز الحراسة ليرى إن كان ميلنك وأنطون قد عادا، ثمّ وضع أذنه على الأنبوب مرّة أخرى. ما الّذي يمكن أن يسمعه الآن؟ الرّيح؟ صدى الضّجيج المخيف الّذي يغمر الأنفاق بين إليكسييفسكايا وبروسبيكت مير؟

ومن مسافة لا تصدّق شقّت الأصوات المكتومة طريقها عبر طبقة الأرض بصعوبة وأتت. جاءت من جهة بارك بوبدي الميتة، ما من شكّ في ذلك. وقف أرتيوم ساكنًا بلاحراك يصغي، وشعر بالتّدريج بالبّرد وفهم أنّه يستمع إلى شيء مستحيل، موسيقى..

أحد ما أو شيء ما على بعد عدّة كيلومترات عنه، كان ينسخ ذلك اللّحن السّوداويّ من صندوق الموسيقى نغمة بعد أخرى. لكنّ هذا لم يكن صدى، فالعازف المجهول أخطأ في عدّة أماكن، فقد قصّر نغمة واحدة في مكان ما، لكنّ الموضع الرّئيسي بقي معروفًا تمامًا. والأهمّ أنّ الصّوت لم يكن صوت جرس رنّان، بل أشبه بالطّنين... أو الغناء؟ كان كورالا غير مميّز لأصوات كثيرة جدًّا؟ كلّا، إنه طنين رغم كلّ شيء.

ماذا يعزف الأنبوب؟ سأله أوليغ بابتسامة.

اصمت فأنا ما زلت أصغي لأعرف ماذا يكون. بالكاد فتح أرتيوم شفتيه وتمتم بصوت أجشّ.

الأنبوب يعزف، الموسيقى، شرح الصّبيّ ببساطة.

إنّ السّوداويّة والانطباع المسيطر والقاسي الّذي أحدثه هذا الغناء الغريب المخيف في نفس أرتيوم، لم تنتقل إلى الصّبيّ كما يبدو، فقد كان الأمر بالنّسبة له مجرّد لعبة سعيدة. ولم يسأل أبدًا كيف استطاع أن يسمع لحنًا من محطّة معزولة عن كلّ العالم، محطّة تلاشى فيها كلّ الأحياء إلى هواء رقيق منذ أكثر من عقد من الزّمن.

تسلّق أوليغ الحجارة، وكان على وشك الاستعداد للبدء في تشغيل آلته الصّغيرة مرّة أخرى. لكنّ أرتيوم شعر فجأة بخوف لا يفسّر على الصّبيّ وعلى نفسه. فأمسك الصّبيّ من يده دون أن يكترث باعتراضاته، وجرّه وعادا إلى الموقد.

جبان، جبان، صرخ أوليغ. هذه الحكايات الشّعبيّة لا يصدّقها سوى الأطفال.

أيّ حكايات؟ توقّف أرتيوم ونظر في عينيه.

الحكايات التي تقول أنّهم يأخذون الأطفال الذين يدخلون إلى الأنفاق ليستمعوا إلى الأنابيب.

من يأخذهم؟ جرّ الصّبيّ وقرّبه من المدفأة.

الأموات.

توقّفت المحادثة لأنّ أحد الحرّاس كان يتكلّم عن خطيئة أثارته، ونظر إليهما طويلًا وبانزعاج. لذلك علقت الكلمات في حنجرتيهما.

انتهت مغامرتهما في الوقت المناسب، فقد عاد أنطون والمطارد إلى مركز الحراسة ومعهما شخص آخر. ثبّت أرتيوم الصّبيّ بسرعة في مقعده.

اعذرونا، لقد تأخّرنا. جلس أنطون على الأكياس بجانب أرتيوم. لم يكن مشاغبًا أليس كذلك؟

هزّ أرتيوم رأسه راجيًا أن يعقل الصّبيّ قليلًا، وألّا يتباهى بمغامرتهما. ويبدو أنّه فهم كلّ شيء بنفسه بشكل ممتاز. نشر أوليغ أغلفة طلقاته بنظرة مفتونة.

كان الرّجل الثّالث الّذي وصل مع أنطون والمطارد، رجلًا هزيلًا أصلعًا له وجنتان غائرتان، وهناك جيوب تحت عينيه. وكان مألوفًا لأرتيوم.

اقترب من الموقد بعد دقيقة وأومأ إلى الحرّاس. تفحّصه أرتيوم عن قرب، لكنّه لم يقل شيئًا. قدّمه ميلنك:

هذا هو تريتياك، قال لأرتيوم. سوف يذهب معنا ويكون في المقدّمة. إنّه أخصائيّ، رجل الصّاروخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السّادس عشر: أغنية الموتى

لا توجد هناك مداخل سريّة، ولم توجد أبدًا. هل حقًّا أنت لا تعرف بذلك؟ رفع تريتياك صوته باستياء. وتطايرت كلماته إلى أرتيوم وهم يعودون من الحراسة-إلى كييفسكايا. مشى المطارد وتريتياك خلف الآخرين قليلًا، حيث كانا يناقشان أمرًا ما بحيويّة. وحين تخلّف أرتيوم ليشارك في حديثهما بدأا يهمسا،ن وتركاه لينضمّ إلى المجموعة الرّئيسيّة ثانية. أمّا أوليغ الصّغيرفظلّ يثب ويحاول ألّا يتأخّر عن الرّاشدين، ورفض التّسلّق على

كتفي والده، وأمسك على الفور به من يده، وردّد وهو سعيد:أنا رجل الصّاروخ أيضًا.

نظر أرتيوم إلى الولد باندهاش. وكان بجانبه حين قدّم ميلنك تريتياك له، والأرجح أنّ الصّبيّ سمع بهذه الكلمة بالصّدفة. فهل يفهم ما تعنيه؟

لكن لا تخبر أحدًا، أضاف أوليغ بسرعة. لا يُسمح للآخرين بمعرفة ذلك. إنّه سرّ.

حسنًا لن أخبر أحدًا، ردّ أرتيوم عليه ممازحًا.

إنّه ليس عار، على العكس تمامًا. يجب أن تكون فخورًا به، ولكن قد يقول الآخرون أشياء سيئة عنك بسبب الحسد، شرح الصبي ذلك رغم أنّ أرتيوم لم يقصد أن يسأله أيّ شيء.

كان أنطون يمشي على بعد عشر خطوات أمامهم، ويُنير مصباحه. بينما أومأ الصّبيّ إلى الشّكل الهشّ وهمس بصوت عال:

بابا قال ألّا أري هذا لأحد، لكنّك تعرف كيف تحفظ الأسرار. ها هو.. وأخرج قطعة قماش صغيرة من جيب داخليّ.

سلّط أرتيوم مصباحه عليها فوجدها عروة ممزّقة، دائرة من مادّة سميكة مكسوّة بالمطّاط، قطرها سبع سنتمرات تقريبًا. كانت سوداء تمامًا في أحد طرفيها، وعلى الطّرف الآخر تصوّر ثلاثة أشياء مستطيلة مبهمة متقاطعة على خلفيّة سوداء. لا تختلف عن واحدة من زهرات الثّلج ذات الرّؤوس السّداسيّة الّتي تزيّن بها فدنكه في عيد رأس السّنة.

أحد الأشياء كان واقفًا بشكل عموديّ، وعرف أرتيوم أنّه خرطوشة من بندقيّة آليّة أو بندقيّة قنّاص، ولكن هناك أجنحة تتصل بقاعدتها. لكنّه لم يتعرّف على الشّيئين المتطابقين الأصفرين المزوّدين بحلقات على أطرافهما. كانت زهرة اللّبن الثّلجيّة الغريبة، مطوّقة بأكليل من طراز محدّد يشبه عقد شريط القبّعات القديمة. وهناك حروف حول دائرة العروة، لكنّ ألوانها بهتت فلم يستطع أرتيوم أن يقرأ سوى كلمة.. جند وكلمة.. وسيا، اللّتان كتبتا في الأسفل تحت الرّسم. ولو توفّر له القليل من الوقت الإضافيّ لاستطاع أن يفهم الشّيء الّذي أظهره له الولد.

هيه، أوليجيك، تعال هناك شيء من أجلك، صاح أنطون بابنه.

ما هذا؟ سأل أرتيوم الصّبيّ قبل أن يخطف العروة منه، ويخفيها في جيبه.

(ار ايه في) نطق أوليج بحرص وهو يتألّق بالفخر، ثمّ غمزه وركض إلى والده.

تسلّق الحرّاس سلّمًا نقّالًا ليصلوا إلى المحطّة. ثمّ تفرّقوا وذهبوا إلى بيوتهم. كانت زوجة أنطون تنتظره عند المخرج تمامًا. ورمت نفسها والدّموع في عينيها، لتقابل أوليج الصّغير. فأمسكته من ذراعه ثمّ زعقت بزوجها:

هل تحاول أن تقلقني وتزعجني؟ بماذا يفترض بي أن أفكّر؟ لقد غادر الطّفل البيت منذ عدّة ساعات. ثم صاحت: لماذا يفترض بي أن أهتمّ بكلّ واحد؟ أنت نفسك مثل طفل، لم تستطع أن تجلبه وتعيده إلى البيت.

أرجوك يا لين ليس أمام النّاس، تمتم أنطون وهو ينظر حوله في ارتباك. أنا لم أستطع أن أترك الحراسة، فكّري بما تقولينه. آمر مخفر متقدّم، ويغادر مخفره فجأة..

آمر، تقدّم وسيطر.. كأنّك لا تعرف ماذا يجري هنا، لقد اختفى ولد صغير لأحد الجيران منذ أسبوع.

أسرع ميلنك وتريتياك الخطى، ولم يتوقّفا ليودّعا أنطون حتّى، وتركاه وزوجته لوحدهما. أسرع أرتيوم في أثرهما. ولوقت طويل بعد ذلك، ظلّ بكاء زوجة أنطون وتأنيبها له يصله، لكنّ الكلمات لم تكن واضحة.

توجّه الثّلاثة إلى مرافق المكاتب حيث يقع مكتب رئيس الأركان، وبعد عدّة دقائق كانوا يجلسون في الغرفة ذات السّجّاد البالي المعلّق. أومأ رئيس المحطّة برأسه عارفًا، ورحل حين طلب منه المطارد أن يتركهم لوحدهم.

يبدو أنّك لا تملك جواز سفر، أليس كذلك؟ لاحظ ميلنك وهو يلتفت إلى أرتيوم فهزّ رأسه باستياء. لقد صادر الفاشيّون الوثيقة، وبدونها تحوّل إلى منبوذ ومتشرّد اجتماعي.

لن تقبل به هانسا والخطّ الأحمر وبوليس. وطالما كان المطارد بجانب أرتيوم، لم يسأله أحد أيّ أسئلة شخصيّة. ولكن بعد أن يجد نفسه وحيدًا سيضطرّ إلى التّجوّل بين المحطّات المنبوذة والهمجيّة مثل كييفسكايا، ولن يحلم بالعودة إلى فدنكه.

لا أستطيع اصطحابك إلى هانسا بدون جواز سفر. ويجب أن أجد النّاس الضّروريّين من أجله أوّلًا، قال ميلنك، وكأنّه يؤكّد أفكاره. ربّما يمكننا الحصول على جواز جديد لك، ولكنّ ذلك يستغرق وقتًا. أو أنّنا سنسلك أقصر طريق إلى ماياكوفسكايا، وسيكون عبر الرّينغ سواء أحببنا ذلك أم كرهناه. فماذا سنفعل؟

هزّ أرتيوم كتفه بلا مبالاة، وهو يميل إلى الموافقة على ما قاله المطارد، فقد كان الانتظار مستحيلًا، وهو لن يستطيع أن يلتفّ حول هانسا إلى ماياكوفسكايا لوحده. النّفق المحاذي لها من الجانب الآخر يأتي مستقيمًا من تفيرسكايا، عداك عن العودة

إلى وكر الفاشيّين، وعن المحطة التي تحوّلت إلى زنزانة حماقة.. إنّه أمام نهاية مسدودة.

قال ميلنك: من الأفضل أن نذهب أنا وتريتياك معًا إلى مایاكوفسكايا الآن.

سنبحث عن مدخل إلى دي 6. سنجده ونعود إليك، وربّما يظهر شيء حول جواز سفرك. وإن لم نجد مدخلًا سنعود في كلّ الأحوال. لن تنتظرنا طويلًا، نستطيع أن نصل بسرعة، ويمكننا فعل ذلك في يوم واحد. هل ستنتظر؟ نظر إلى أرتيوم بشكل ساخر.

هزّ أرتيوم كتفه بلامبالاة مرّة أخرى، وشعر أنّهما يعاملانه كطفل.

لقد أدّى غرضه، وأخبرهم عن الخطر، والآن هما لا يريدانه.. هكذا ظنّ أرتيوم.

ممتاز، قال المطارد. توقّع حضورنا عند الصّباح تقريبًا. سنأتي إلى هنا مباشرة كي لا نخسر الوقت، وبالنّسبة للطّعام والسّكن سنناقشه كلّه مع أركادي سيميونوفتش. لن يزعجك. يبدو أنّه... كلّا، ليس هذا إطلاقًا.

تحسّس ميلنك جيبه وسحب منه نفس الورقة الملوّثة بالدّم والّتي عليها المخطّط والمفاتيح: خذها لقد نسخت واحدة لنفسي. فمن يعرف إلى ما ستؤول إليه الأشياء. ولكن لا تدع أحدًا يراها...

غادر ميلنك وتريتياك بعد أقلّ من ساعة بعد أن تكلّما مع رئيس المحطّة. أركادي الدّقيق في مواعيده أخذ أرتيوم فورًا إلى خيمته، ودعاه إلى تناول العشاء معه في المساء، ثمّ تركه ليرتاح.

تقع خيمة الضّيوف في مكان بعيد عن الطّريق قليلًا، وعلى الرّغم من بقائها في حالة ممتازة، إلّا أنّ أرتيوم شعر بعدم الرّاحة فيها منذ البداية. نظر إلى الخارج، واقتنع ثانية أنّ بقيّة المساكن كانت مكتظّة بجانب بعضها البعض، وأنّها تقع كلّها في أقصى مكان ممكن عن المداخل المؤدّية إلى الأنفاق. وبعد أن ذهب المطارد وبات أرتيوم لوحده في محطّة غير مألوفة له، عاوده شعوره بالقلق الّذي جرّبه سابقًا مرّة أخرى. كان الوضع مخيفًا في كييفسكايا بنفس الطّريقة تمامًا، مجرّد خوف بدون أيّ سبب واضح. لقد بات الوقت متأخّرا. وتلاشت أصوات الأولاد، ولم يرفع الرّاشدون خيامهم. لم يحبّ أرتيوم أن يتمشّى حول المنصّة أبدًا. وبعد أن قرأ أرتيوم رسالة المتوفّى دانيال للمرّة الثّالثة، لم يستطع التّحمّل فغادر من أجل العشاء مع أركادي سيميونوفتش قبل نصف ساعة من الوقت المتّفق عليه. مكتب الخدمات انقلب إلى مطبخ تعمل فيه فتاة جذّابة تكبر أرتيوم بقليل.

كانت تطهو لحمًا ونوعًا من جذور الخضار في مقلاة كبيرة، وبجانبها نوع من الجذور البيضاء كالّتي أكلها في خيمة أنطون. جلس رئيس المحطّة على كرسيّ يتصفّح كتيّبًا ممزّقًا طبعت على غلافه صورة مسدّس وسيقان امرأة في جوارب سوداء. وعندما رأى أرتيوم، وضع أركادي سيميونوفتش الكتاب جانبًا في ارتباك.

الوضع هنا ممل لنا طبعًا. ابتسم متعمّدًا للشاب، تعال معي إلى المكتب. كاترينا ستعدّ لنا طاولة الطّعام. سنتناول بعض الشّراب حتّى ذلك الحين. لقد بدت الغرفة الآن ذات السّجاد والجمجمة، مختلفة تمامًا، فقد أضيئت بمصباح، والطّاولة عليها غطاء قماشيّ أخضر، أصبحت مريحة أكثر فتبدّد التّوتر الّذي انتاب أرتيوم على المنصّة، ولم يبق له أثر في أشعّة هذا المصباح. أخرج أركادي سيميونوفتش قارورة صغيرة من الخزانة، وصبّ سائلًا بنيًّا ذا رائحة تجعل الرّأس يلفّ، في أقداح مدوّرة من الوسط غير عاديّة. خرجت كميّة قليلة من السّائل، فتوقّع أرتيوم أنّ هذه القارورة قد كلّفت أكثر من صندوق كامل من الشراب المخمّر البيتيّ الّذي جرّبه في كيتاي غورود.

قليل من الكونياك. ردّ أركادي سيميونوفتش على نظرة أرتيوم الفضوليّة. كونياك أرمني طبعًا، عمره ثلاثون سنة تقريبًا. في صحّتك. نظر الرّئيس إلى السّقف بشكل حالم وخاطب أرتيوم: لا تخف، إنّه غير ملوّث، فأنا فحصته بنفسي بمقياس الجرع.

كان الشّراب غير العاديّ قويًّا جدًّا، لكنّ المذاق الطّيّب والنّكهة الحادّة جعلته سائغًا. لم يبتلعه أرتيوم فورًا، بل حاول أن يتذوّقه مقتديًا بمضيفه. اندلعت نار في داخله ببطء، لكنّها بردت بالتّدريج وتحوّلت إلى حرارة مريحة بشكل مقبول. أصبحت الغرفة مقبولة أكثر، وأركادي سيميونوفتش محبوبًا أكثر أيضًا.

شيء مدهش، علّق أرتيوم وقد حوّل عينيه في رضا.

إنّه جيّد، صحيح؟ وجد المطاردون قبل سنة ونصف تقريبًا مخزن بقّال مملوء، لم يُمسّ نهائيًّا في كراسنوبريزنسكايا، هذا المخزن كان في قبو كما كانوا يفعلون سابقًا. سقطت اليافتة ولم يلاحظها أحد، لكنّ واحدًا منّا كان يتذكّر المخزن من قبل، قبل أن يتحطّم. وكان يبحث أحيانًا هناك، فقرّر أن يجرّبه فوجده أفضل بعد هذه السّنين الكثيرة. ولأنّنا أصدقاء إلى حدّ ما نعرف أعطاني قارورتين مقابل مئة رصاصة. بينما طلبوا مائتي رصاصة من أجل قارورة واحدة في كيتاي غورود.

أخذ جرعة أخرى ثمّ نظر إلى الكونياك في تأمّل عبر ضوء المصباح.

يسمّون هذا المطارد فاسيًا، أخبره الرّئيس. كان رجلًا طيّبًا وشابًّا جدّيًّا، وليس من نوع الصّبية الّذين يركضون وراء اللاّشيء. لقد أحضر كلّ الأشياء الجيّدة، وكان يأتي إليّ أوّلًا فور عودته من الأعلى. ويقول حسنًا يا سيميونوفتش، بعض المؤون الجديدة. قال أركادي سيميونوفتش في ابتسامة ضعيفة.

هل حدث له شيء ما؟ سأل أرتيوم.

لقد أحبّ كرسنوبريزنسكايا كثيرًا جدًّا، وكان يقول دائمًا أنّها أيلدورادو حقيقيّة، قال أركادي سيميونوفتش بحزن. لم يمسّ أيّ شيء في إحدى الأبنية السّتالينيّة الشّاهقة، وهذا يوضّح لماذا كانت سليمة... كانت الغابة عبر الطّريق مباشرة. من الّذي يدسّ أنفه هناك في كراسنوبريزنسكايا؟ هكذا خوف... كان فاسياتكا مستقتلًا وكان يجازف دائمًا، وفي النّهاية وقع في ورطة. سحبوه إلى داخل الغابة، وبالكاد نجح شريكه في

الهرب. لهذا دعنا نشرب لروحه. تنفس الرّئيس بشكل مسموع وصبّ مرّة أخرى له ولأرتيوم.

كان أرتيوم على وشك أن يعترض عندما تذكّر السّعر الباهض للكونياك، لكنّ أركادي سيميونوفتش وضع القدح المفلطح في يده، وقال إن الرّفض إهانة لذكرى المطارد المتهوّر الّذي حاز على هذا المشروب الإلهيّ.

في ذلك الوقت أعدّت الفتاة طاولة الطّعام، وانتقل أرتيوم وأركادي سيميونوفتش إلى ويسكي عادي، لكنّه لطيف. لقد طُهي اللّحم وأُعدّ بشكل مبهج.

المحطّة بغيضة وكريهة بالنّسبة لك؟ بعد ساعة ونصف كان أرتيوم صريحًا: إنّ الوضع مروّع هنا، ويوجد شيء قاسي ومستبدّ...

لقد اعتدنا عليها، هزّ أركادي سيميونوفتش رأسه. والنّاس يعيشون هنا. إنّها ليست أسوأ من بعض...

كلّا، لا تظنّ أنّني لم أفهم، أسرع أرتيوم لتهدئة رئيس كييفسكايا الّذي اعتبر كلامه إساءة. أنت تفعل كلّ ما هو ممكن بالتّأكيد، ولكنّ شيئًا ما يحدث هنا. فالكلّ يتحدّثون عن شيء واحد فقط تقريبًا: النّاس يختفون.

إنّهم يكذبون، قاطعه أركادي سيميونوفتش، لكنّه أضاف: لا يختفون كلّهم وإنّما الأطفال فقط.

هل يأخذهم الموتى؟

من يعرف من يأخذهم؟ فأنا نفسي لا أؤمن بالموتى. لقد رأيت أمواتًا في حياتي ولن أخطىء، فهم لم يأخذوا أيّ أحد إلى أيّ مكان. إنّهم يستلقون بهدوء وسكينة هناك، وراء حاجز الصّدّ، لوّح أركادي سيميونوفتش بيده في جهة بارك بوبدي، وكاد يفقد توازنه. هناك أحد ما، ذلك مؤكّد. ويستحيل علينا أن نذهب إلى هناك.

لماذا؟ حاول أرتيوم أن يركّز على قدحه، لكنّه كان يزداد تشوّشا طول الوقت، وبدأ يبتعد إلى مكان ما.

انتظر قليلًا سوف أريك...

اصطدم الرّئيس بالطّاولة حين تحرّك، وابتعد عنها ثمّ نهض بصعوبة، وذهب إلى الخزانة مترنّحا. نقّب بيده في أحد الرّفوف ورفع بحذر إلى الضّوء، إبرة معدنيّة طويلة في طرفها السّميك شوكة.

ما هذه؟ تجهّم أرتيوم.

هذه هي الّتي أودّ أن أعرفها.

من أين حصلت عليها؟

من عنق الحارس الّذي كان يحرس النّفق اليمينيّ. لم يخرج منه دم لكنّه كان ملقى هناك مزرقًّا تمامًا والزّبد يخرج من فمه.

هل أتوا من بارك بوبدي؟ خمّن أرتيوم.

اللّعنة إن كان هناك من يعرف، دمدم أركادي سيميونوفتش، وبنفس الوقت قلب الأقداح. لكن، أضاف وهو يعيد الإبرة إلى داخل الخزانة: لا تخبر أيّ أحدٍ.

ولماذا لم تخبر أحدًا بذلك؟ سوف يساعدونك ويستقر النّاس.

لن يستقرّ أحد منهم، وكلّهم يريدون الفرار كالجرذان، إنّهم يهربون الآن، ولم يدافعوا عن أنفسهم ضدّ أحد هنا، فليس هناك عدوّ ظاهر. إنّه خفيّ ولهذا هم خائفون. لو أريتهم هذه الإبرة ماذا سيحصل بعد ذلك؟ هل تعتقد أنّ كلّ شيء سيستقرّ؟ هذا سخيف، سيختفي أولاد الزّنا كلّهم ويتركوني لوحدي هنا. وأيّ رئيس محطّة سأكون، إذ لا يوجد شعب؟ قبطان بلا سفينة، رفع صوته ثمّ أطلق صريرًا وصمت.

أركاشا، أركاشا، يجب ألّا تكون هكذا، كلّ شيء على ما يرام. جلست الفتاة بجانبه خائفة وربتت على رأسه. فهم أرتيوم عبر الضّباب الكحوليّ أنّها لم تكن ابنة الرّئيس.

أولاد العاهرات سيهربون كلّهم، مثل الجرذان من السّفينة، سأكون وحيدًا، لكنّنا لن نستسلم، لم يهدأ.

وقف أرتيوم بصعوبة ومشى نحو المخرج مترنّحا. طقطق الحارس الّذي على الباب أصابعه في وجهه، وأشار إلى مكتب أركادي سيميونوفتش.

ثمل جدًّا، تمتم أرتيوم: الأفضل ألّا تلمسه حتّى الغد. وترنّح ببطء ومشى متثاقلًا باتّجاه خيمته.

يجب أن يجد الطّريق. حاول بضع مرّات أن يدخل إلى مساكن أناس آخرين، لكنّ شتائم ذكوريّة فجّة وصرخات نسائيّة ثاقبة، أخبرته أنّه دخل إلى الخيمة الخطأ. وثبت له أنّ الويسكي أقوى فعالية من الشّراب المخمّر البيتي، وبدأ يشعر بقوّته الكاملة الآن فقط. انطفأت القناطر والأعمدة أمام عينيه، والأفظع من ذلك أنّه بدأ يشعر بالغثيان. قد يجد أرتيوم من يساعده في الوصول إلى خيمة الضّيوف لو لم يتأخّر الوقت. لكنّ المحطة الآن فارغة تمامًا، وحتّى مركز الحراسة الّذي عند مخرج النّفق كان مهجورًا على الأرجح. لم يبق في كلّ المحطة سوى ثلاثة أو أربعة مصابيح مضاءة، والمنصّة غارقة في الظّلام. حين توقّف أرتيوم ونظر حوله بانتباه، فظهر له أنّ شيئًا ما يتحرّك بهدوء في الظّلام. مشى بتثاقل غير مصدّق عينيه إلى جهة المكان الّذي ارتاب به، بفضول وبشجاعة الثّمل. ليس بعيدًا عن التّحويلة إلى خطّ فيلفسكايا، وعند إحدى القناطر. لم تكن حركة بقع الظّلام تدرجيّة كما في الزّوايا، وإنّما حادّة ومتعمّدة تقريبًا.

هيه، من هناك؟ صاح بصوت عال بعد أن اقترب مسافة خمسة عشر مترًا تقريبًا.

لم يجب أحد، ولكن بدا له أنّ ظلًّا طويلًا كان يرشح من بقعة مظلمة بشكل خاصّ، ثمّ اندمج بالظّلام تقريبًا. كان أرتيوم متأكّدًا من أنّ أحدًا ما كان ينظر إليه من الظّلام. بالرغم من أنه غير متوازن، لكنّه تماسك وتقدّم خطوة أخرى.

وفجأة تناقص حجم الظل كما لو أنّه تقلص وانسل بعيدًا. وفاحت رائحة مقزّزة فجأة، فتراجع للوراء. ماهذه الرّائحة؟ عادت إلى مخيّلته صورة شيء رآه في النّفق عند الاقتراب إلى الرّايخ الرّابع، وظهرت أمام عينيه، أجساد تكوّمت فوق بعضها البعض، وأيادي مربوطة وراء الظّهر. رائحة تفسّخ؟

في تلك اللّحظة وبسرعة جهنميّة اندفع الظّلّ نحوه مثل سهم يطير من قوسه. وظهر أمام عينيه ولمدّة ثانية واحدة، وجه شاحب مغطّى ببقع غريبة، وله عيون غائرة عميقًا.

الموتى، أزّ أرتيوم.

بعدئذ تمزّق رأسه إلى آلاف الأجزاء، وبدأ السّقف يرقص وينقلب، وكلّ شيء يخبو ويتلاشى. سمع أصوات، ورأى رؤى تومض وتختفي، تنبثق وتحتجب في هدوء واهن.

ماما لن تسمح لي، سوف تنزعج، قال الطّفل من مكان غير بعيد. كان الأمر مستحيلًا اليوم فقد بكت طوال المساء... كلّا، أنا لست خائفًا، وأنت لست مخيفًا، وتغنّي بشكل جميل... أنا لا أريد لأمّي أن تبكي مرّة أخرى. لا أريد أن أسبّب لها الأذى. حسنًا ربّما لبرهة قصيرة... هل سنعود قبل الصباح؟

الوقت يضيع.. الوقت يضيع، كرّر ذلك صوت ذكوريّ منخفض.

ليس لدينا اليوم كلّه، هم على وشك أن يُغلقوا. انهض، لا تستلقي هناك. انهض، فإن فقدت الأمل أو أحجمت أو استسلمت، سيأخذ آخرون مكانك. أنا أواصل الصّراع وأنت يجب أن تواصل أيضًا. انهض، أنت لا تفهم...

من يكون هو مرّة أخرى؟ إلى الرئيس؟ كضيف؟ حسنًا، أنا سأجلب واحدًا طبعًا. تقدّم، أنت تفيدنا أيضًا... حرّك ساقك على الأقل. تجهّم... ألا يهمّك ماذا لديه وماذا يجلجل في جيوبه؟ حسنًا، أنا أمزح، هذا كلّ شيء. لقد ذهبنا إلى أقصى ما نستطيعن وأنا لن، لن، أنا راحل...

تحرّك جناح الخيمة جانبًا بشكل مفاجئ، وضرب وجهه شعاع مصباح.

هل أنت أرتيوم؟ لم يستطع رؤية الوجه بشكل جيّد، لكنّ الصّوت كان لشابّ.

قفز أرتيوم من السّرير، لكنّ رأسه بدأ يلفّ فجأة، وشعر بأنّه مريض. وخفق ألم بليد في مؤخّرة رأسه. وكلّما لمسه كان يشعر به كالنّارن وكان شعره ملبّدًا، وعلى الأرجح من دم جاف. ترى ماذا حدث له؟

هل تسمح لي بالدّخول؟ سأل الوافد ودخل إلى الخيمة دون انتظار الإذن، ثمّ أغلق الجناح خلفه، ودفع بشيء معدنيّ في يد أرتيوم. وبعد أن سلّط عليه ضوء مصباحه، نظر أرتيوم إليه. إنّه غلاف خرطوشة حُوِّلت إلى كبسولة مقلوظة مثل التي أعطاها له هنتر تمامًا. لم يصدّق أرتيوم عينيه، وحاول أن يفتح الغطاء، لكنّها انزلقت لأنّ يداه متعرّقتين من الإثارة. وأخيرًا سقطت قطعة صغيرة جدًّا من الورق في الضّوء. هل كانت رسالة خطيّة من ميلنك فعلًا؟ (تعقيدات غير متوقّعة. المخرج

إلى د 6 مسدود. تريتياك قتل. انتظرني. لا تذهب إلى أيّ مكان. نحتاج إلى الوقت لننظّم أنفسنا. سأعود بأقصى سرعة ممكنة. ميلنك). قرأ أرتيوم الرّسالة مرّة أخرى ليحلّل المحتوى. هل قُتل تريتياك؟ هل تمّ سدّ المخرج د 6؟ لكن هذا يعني أنّ كلّ خططهم وآمالهم قد تحوّلت إلى رماد وتراب.. ثمّ نظر إلى المبعوث وهو مذهول مخبول.

أمرك ميلنك أن تبقى هنا، وأن تنتظره، أكّد الزّائر.

قال ميلنك إنّ تريتياك مات. لقد قتلوه بإبرة مسمومة، ونحن لانعرف الفاعل. والآن سيقود محاولة للتّعبئة. هذا هو الحال، يجب علي أن أسرع، هل لديك أيّ ردٍّ أو جواب؟ فكّر أرتيوم قليلًا بما يمكن أن يكتبه إلى المطارد. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أيّ أمل بقي هناك الآن؟ هل أترك كلّ شيء وأعود إلى فدنكه، لأكون بقرب الأحباب والأصدقاء في الدّقائق الأخيرة؟ هزّ رأسه. فاستدار المبعوث بصمت وخرج. سقط أرتيوم على السّرير وبدأ يفكّر. فليس لديه أيّ مكان يذهب إليه الآن. وهو غير قادر على أن يذهب إلى الرّينغ. ولا أن يعود إلى سمولينسكايا بدون جواز سفر ومرافق. كان أمله الوحيد أن يكون أركادي سيميونوفتش كريمًا ومضيافًا في الأيّام القادمة، كما كان في اليوم السّابق.

اليوم عيد في كييفسكايا، فقد أُنير المصباح بقوّة مضاعفة. وبجانب مكتب الخدمات حيث تقع شقّة رئيس المحطّة أُنير مصباح زئبقيّ آخر بضوء العيد. مشى أرتيوم ببطء وتثاقل إلى مكتب الرّئيس وهو منكمش من الألم الّذي في رأسه. أوقفه حارس عند المدخل بإيماءة. وأتى ضجيج من الدّاخل، هناك عدد من الرّجال يتحدّثون بأصوات عالية. إنّه مشغول، شرح الحارس، انتظر إن أحببت.

وبعد عدّة دقائق طار أنطون من الغرفة مثل طلقة. وركض رئيس المكتب في أعقابه. بالرغم من شعره الممشّط بشكل مثالي، كان تحت عينيه أكياس، ووجهه منفّخ بشكل ملحوظ ومغطّى بشعر قصير فضيّ.

وماذا يمكنني أن أفعل؟ صاح الرّئيس وهو يتعقّب أنطون، ثمّ بصق ولطم نفسه بيده على جبينه، وابتسم بشكل ساخر حين لاحظ أرتيوم.

يجب أن أبقى معك هنا حتّى يعود ميلنك، قال أرتيوم بشكل اعتذاري.

أعرف، أعرف، أخبروني بذلك. دعنا نذهب إلى الدّاخل. لقد أعطوني أمرًا يتعلّق بك. ثمّ دعاه أركادي سيميونوفتش إلى داخل الغرفة بإيماءة.

أخبروني أن آخذ صورة لك من أجل جواز سفر، في الوقت الّذي تنتظر فيه ميلنك. ما تزال عندي المعدّات من الزّمن الّذي كانت فيه كييفسكايا محطّة عاديّة ونظاميّة. وأرجو أن يحصل ميلنك على جواز سفر فارغ، ونصنع لك الوثيقة.

أجلس أرتيوم على كرسيّ، وأشار إلى عدسات كاميرا بلاستيكيّة صغيرة عنده. كان هناك وميض يعمي العيون، وقد قضى أرتيوم الخمس دقائق التّالية معميًّا تمامًا، وهو ينظر حوله في عجز.

اعذرني فقد نسيت أن أحذرك. لا بدّ أنّك جائع جدًّا. ادخل، كاتيا ستقدّم الطعام لك، أمّا أنا فليس لديّ الوقت من أجلك اليوم. إنّ الأمور تزداد سوءًا هنا. لقد اختفى ابن أنطون الأكبر أثناء اللّيلة الماضية، ووضع المحطّة كلّها في حالة حرجة الآن. ومن أجل ماذا؟ لقد أخبروني أنّهم وجدوك بين المنصّتين هذا الصّباح، ورأسك ينزف، ماذا حدث؟

لا أتذكّر، صمت قليلًا ثمّ قال:على الأرجح أنّني سقطت حين كنت ثملًا.

نعم... شيء جيّد أنّنا نعمنا باستراحة يوم أمس، كشّر الرّئيس، حسنًا يا أرتيوم علي الآن أن أباشر العمل. زرني بعد قليل من الآن.

انزلق أرتيوم عن الكرسيّ. وكان وجه الصّغير أوليج أمامه.. ابن أنطون البكر. هل كان هو فعلًا؟ تذكّر كيف أدار الولد قبضة صندوقه الموسيقي في اللّيلة السّابقة، وكيف وضعه على حديد الأنبوب، ثمّ قال الأولاد الصّغار فقط يخافون أن يخطفهم الأموات إن مشوا داخل الأنفاق وأصغوا إلى الأنابيب. شعر أرتيوم بالقشعريرة. هل كان ذلك حقيقيّ؟ هل حدث ذلك بسببه؟ حدّق عاجزًا بأركادي سيميونوفتش مرّة أخرى، وبدأ يفتح فمه، لكنّه ذهب إلى الخارج دون أن يتكلّم.

عاد أرتيوم إلى خيمته، وجلس على الأرض في صمت لبعض الوقت ينظر في الخلاء. الآن بدأت الأمور تتضّح له: لقد اختاره مجهول لهذه المهمّة، وحكم عليه باللّعن بنفس الوقت: لقد مات كلّ من قرّر أن يشاركه ولو في جزء من الطّريق تقريبًا. بوربون ويخائيل بورفيرفتش وحفيده ودانيال... وخان الّذي اختفى بلا أثر، وحتّى مقاتلي اللّواء الثّوري الّذين أنقذوه ربّما قتلوا في المعبر الثّاني مباشرة، والآن تريتياك. لكن الصّغير أوليج؟ هل جلب أرتيوم الموت لرفاقه؟

وثب من مكانه دون أن يفهم ما يجري حوله، وألقى حقيبة الظّهر والبندقيّة الآليّة على ظهره، والتقط مصباحه وخرج إلى المنصّة. مشى بشكل آليّ إلى المكان الّذي هاجموه فيه أثناء اللّيل.

اقترب أكثر ثمّ جمد في مكانه. نظر إليه الرّجل الميّت عبر السّديم الباهت لذاكرة مخمورة. لقد تذكّر كلّ شيء. لم يكن يحلم. ويجب عليه أن يجد أوليج أو يساعد أنطون في البحث عن ابنه على الأقل. فقد كان خطأه. هو لم يعتن بالصّبيّ وسمح له باللّعب بألعابه الغريبة مع الأنابيب، والآن هو آمن وسالم هنا، بينما اختفى الصّبيّ. كان أتيوم مقتنعًا بأنه لم يهرب. لقد حدث شيء شيء لا يفسّر هنا أثناء اللّيل، وأرتيوم مذنب لأنّه ربّما كان قادرًا على منعه، لكنّه كان عاجزًا. نظر إلى البقعة الّتي اختبأ فيها الغريب المخيف في الظّلال. كوم نفاية ألقي هناك، ولكن عند تفحّصه لم يجد أريتوم سوى قطّة شاردة ابتعدت مذعورة. وبعد أن فتّش المنصّة بلا نتيجة، اقترب من المسارات وقفز على قضبان السّكّة الحديديّة. فرأوه حرّاس مدخل النّفق، وراقبوه بكسل وحذّروه بأنّ الدّخول إلى المعابر سيعرّضه للخطر، ولن يتحمّل أحد المسؤوليّة عنه.

لم يذهب أرتيوم في نفس النّفق هذه المرّة كما اليوم السّابق، بل أخذ الثاني الموازي للأوّل، وكما قال آمر الحرّاس كان هذا المعبر مسدودًا أيضًا. هناك موقع للحراسة عند جدار الصّدّ، عبارة عن برميل حديديّ عمل كموقد، وأكياس مكوّمة حوله، وعلى جانبه عربة يد محمّلة بسطول من الفحم.

كان الحرّاس الجالسون على الأكياس يتهامسون بشيء ما، وعند اقترابه قفزوا عن مقاعدهم وثبّتوا أعينهم على أرتيوم. وأعطاه أحدهم الموافقة، وهدأ الآخرون واستقرّوا كما كانوا من قبل. وبعد أن نظر أرتيوم عن قرب أكثر، عرف أنّ أنطون كان آمرهم وتمتم بشيء مربك بسرعة، ثمّ استدار ورجع من حيث أتى. كان وجهه يحترق، ولم يقدر أن ينظر في عيون الرّجل الّذي اختفى ابنه بسببه.

مشى أرتيوم ببطء، وقد أخفض رأسه وظلّ يكرّر هامسًا: لم يكن خطأي، إن لم أكن قادرًا... ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ كانت بقعة ضوء مصباحه تسبقه. وفجأة، لاحظ شيئًا صغيرًا مرميًّا ومهجورًا في الظّلّ بين الوصلتين العرضيّتين الخشبيّتين. بدا له مألوفًا حتّى من بعيد، فتسارعت دقّات قلبه. انحنى أرتيوم والتقط الصّندوق الصّغير عن الأرض. أدار المقبض وردّ الصّندوق بذلك اللّحن الكئيب الرّنّان. صندوق موسيقى أوليج. ربّما رماه أحد أو أسقطه هو هنا بدون قصد.

رمى أرتيوم حقيبة ظهره، وبدأ يتفحّص جدران النّفق مرّتين. وجد أرتيوم في مكان غير بعيد بابًا يؤدّي إلى مكتب الخدمات، لكنّه اكتشف مرحاضًا عموميًّا مهدَّمًا خلفه. عشرون دقيقة من التّفتيش في النّفق لم توصله إلى أيّ مكان.

عاد إلى حقيبة ظهره وانخفض إلى الأرض، وأسند ظهره على الجدار. رمى رأسه للوراء وحدّق بالسّقف وهو منهك. وبعد ثانية، عاد ووقف على قدميه ورفرف شعاع مصباحه، فكشف عن ثغرة سوداء لا تُلاحظ في إسمنت السّقف المسودّ تقريبًا. هناك باب مغلق بشكل رخو فوق المكان الّذي التقط منه أرتيوم صندوق أوليج الموسيقي تمامًا. لكن لم يكن هناك أيّ طريق للوصول إلى الباب، وكان ارتفاع السّقف لا يقلّ عن ثلاثة أمتار.

قدّم الحلّ نفسه بسرعة البرق. وأمسك أرتيوم الصندوق الّذي وجده، وقذف بحقيبة ظهره على قضبان سكّة الحديد، وانطلق بأقصى سرعة إلى الحرّاس. لم يعد خائفًا من النّظر بعيني أنطون. أبطأ من سرعته عند الاقتراب من مركز الحراسة كي لا يصاب الحرس بالذّعر، واقترب من أنطون وأخبره في همس عن اكتشافه. وبعد دقيقتين غادرا مركز الحراسة تحت نظرات البقيّة المرتابة، وأدارا مقابض العربة الّتي تعمل بالأيدي بالتّناوب.

أوقفا عربة اليد تحت الباب مباشرة. وكانت العربة عالية بما يكفي، لذلك تسلّق أرتيوم على كتفي أنطون واستطاع أن يصل. حرّك الغطاء وحمل نفسه إلى الدّاخل، ثمّ سحب شريكه. امتدّ الدّهليز إلى كلا الجهتين، لكنّ أنطون حسم أمره وتحرّك في جهة بارك بوبدي.

وبعد عدّة ثوان اتضح أنّه كان مصيبًا. تألق غلاف خرطوشة مستطيلة في الضّوء الباهت. كانت واحدة من تلك الّتي أعطاها ميلنك للصّبيّ في اليوم السّابق. هرول أنطون مدفوعًا باكتشافه، وقطع حوالي العشرين مترًا إلى مكان فيه مدخل دهليز في داخل جدار، وباب آخر نصف مفتوح أيضًا وفتحة مسودّة في الأرض. أخفض أرتيوم نفسه للأسفل بشكل واثق.

وقبل أن يتمكّن أرتيوم من الوصول إلى هدفه، اختفى وكان هناك صوت ارتطام من الفتحة وسباب، ثمّ صوت مخنوق قال له: احذر عندما تقفز إنّها بعمق ثلاثة أمتار. تعال، أنا سأشعل الضّوء لك. وضع أرتيوم يديه على الحافّة وتدلّى وتأرجح عدّة مرّات، ثمّ أرخى أصابعه وحاول أن تكون ساقاه بين الوصلات الخشبيّة العرضيّة.

كيف سنخرج أنفسنا من هنا ونعود؟ سأل وهو يستوي

سنجد حلًّا، طرد أنطون الفكرة بتلويحة من يده.

هل أنت متأكّد أنّهم لم يعتقدوا بأنّك ميّت؟

هزّ أرتيوم كتفه بلا اكتراث. ورغم الألم الّذي في مؤخّرة رأسه، بدت له فكرة تعرّضه لهجوم من قبل كائن ما، ليلة أمس في كييفسكايا، سخيفة بعد أن صحا الآن من سكره.

سوف نذهب إلى بارك بودي، قرّر أنطون. وإن كانت هناك متاعب فالتّهديد لن يأتي إلّا من هناك. ولابدّ أنّك شعرت به أيضًا، فأنت كنت بنفسك في المحطّة.

لكن لماذا لم تقل لنا شيئًا يوم أمس؟ سأل أرتيوم وهو يحاول اللّحاق بأنطون ومجاراته في السّير.

لم يسمح لنا الرّئيس بذلك، ردّ بتجهّم: إنّ سيمينوفتش خائف فعلًا من الذّعر، ويجب عليه ألّا ينشر الإشاعات، فهو قلق على منصبه. ولكن لكلّ واحد نقائصه. لقد أخبرته منذ وقت طويل جدًّا بأنّهم لن يستطيعوا حفظ الأسرار إلى الأبد. فقد اختفى ثلاثة أطفال في الشّهرين الأخيرين، وفرّت أربع عائلات من المحطّة، وهناك حارسنا مع الإبرة المسمومة في رقبته. لكنّه يقول إنّ الذّعر سيتلو ذلك ونفقد السّيطرة. إنّه جبان. بصق أنطون في غضب مفاجئ.

ولكن من الّذي صنع تلك الإبرة؟

توقّف أرتيوم في منتصف الجملة، وجمد أنطون في مساره.

ماذا يكون ذاك مرّة أخرى؟ هل رأيته؟ سأل الحارس الّذي بُوغت.

لم يجب أرتيوم الّذي وقف وحدّق بالأرض، وحرّك المصباح من طرف لآخر لينظر بشكل أفضل إلى المكان الّذي أشار إليه الحارس. شكل عملاق رُسم بشكل فجّ بلون أبيض على الأرض. كان شكله الملتوي بعرض أربعين سنتمترًا وبطول مترين، يشبه أفعى زاحفة، أو دودة. وفي أحد أطرافه انتفاخ يشبه الرّأس، ممّا أعطاه شبهًا أكبر بإحدى الزّواحف الضّخمة.

أفعى، اقترح أرتيوم.

ربّما دلقوا بعض الطّلاء؟ حاول أنطون مازحًا.

كلّا لم يدلقوا شيئًا. هذا هو الرّأس، إنّه ينظر في ذلك الاتّجاه. إنّه يزحف إلى بارك بوبدي...

إذًا، سوف نتبعه.

وبعد عدّة مئات من الأمتار وجدوا أغلفة الخراطيش في وسط الممرّ. وبدأ كلاهما المشي بسرعة أكبر.

صبيّ طيّب، قال أنطون بفخر. أتدري ربّما كان يفكّر في ترك أثر خلفه.

أومأ أنطون برأسه. أصبح متأكّدًا أكثر أنّ الصّبيّ ما زال حيًّا، طالما كان المخلوق المجهول قادرًا على الوصول إليه دون ضجّة. لكن، هل وافق أوليج من تلقاء نفسه وبإرادته أن يذهب مع خاطفه الغامض؟ إذًا لماذا يترك علامات في أثره؟ هدأ أرتيوم لعدّة دقائق وكذلك أنطون. بدّد الظّلام القويّ والحادّ الفرح الحديث والأمل، وأصبح خائفًا قليلًا مرّة أخرى. وفي محاولة لإرضاء الأب وتعويضه، نسي أرتيوم كلّ التّحذيرات والحكايات المرعبة الّتي رُويت في همس، ونسي أمر المطارد له بأن لا يغادر كييفسكايا.

كان أنطون يندفع بقوّة إلى الأمام ليجد ابنه، لكن لماذا يحاول أرتيوم الذّهاب إلى بارك بوبدي المشؤومة؟ لماذا يهمل نفسه ومهمّته الأساسيّة؟ ولثانية واحدة تذكّر النّاس الغريبين من بوليانكا، والنّقاش حول القدر، وشعر بالارتياح. لكنّ ارتياحه لم يدم أكثر من عشر دقائق، إلى الرّمز التّالي الّذي يصوّر أفعى.

الشّكل هذه المرّة أكبر بمرّتين من الرّسم السّابق، وبدا وكأنّه يقنع المسافرين بأنّهم ذاهبون في الاتّجاه الصحيح. ولكنّ أرتيوم لم يكن سعيدًا به.

بدا النّفق بلانهاية. مشوا ومشوا طويلًا، ومرّت ساعتان أخريان بناء على حسابات أرتيوم.

كان طول الأفعى العملاقة الثّالثة أكثر من عشرة أمتار، وسمعوا شيئًا هناك. جمد أنطون، وأدار أذنه نحو النّفق، وأصغى أرتيوم أيضًا. أصوات غريبة تأتي من أعماق المعابر في نوبات وطفرات. في البداية لم يعرف طبيعتها، لكنّه فهم لاحقًا، إنّها أغنية شبيهة لتلك الّتي عزفتها الأنابيب على صندوق الموسيقى في كييفسكايا، مصحوبة بضرب الطّبول.

لسنا بعيدين الآن، أومأ أنطون

الوقت الّذي كان ينسلّ ببطء، توقّف تمامًا تقريبًا. نظر أرتيوم إلى شريكه، فتأكّد بوضوح مروّع أنّه كان يميل برأسه بشكل دراماتيكي كما لو أن رأسه ينتفض في تشنّجات. وحين بدأ أنطون يمشي إلى جانبه، بدا مثيرًا للضّحك مثل حيوان لعبة حُشِي بخرق. فكّر أرتيوم أنّ عليه أن يمسك به، لكنّ وخزة حادّة في كتفه أوقفته عن

فعل ذلك. نظر إلى المكان الذي أوجعه محتارًا، فاكتشف إبرة معدنيّة بريشة انغرزت في سترته. لم يحاول سحبها وإخراجها. فقد تحجّر كلّ جسده، ثم اختفى الألم فجأة. انتهى أرتيوم بسقوطه على الأرض، لكنّه ظلّ واعيًا تمامًا، أمّا تنفّسه فأصبح أصعب، ولم يكن قادرًا على تحريك أطرافه. سمع خطى تقترب منه سريعة ورشيقة وعديمة الوزن. لا يمكن أن يكون الكائن المقترب بشريًّان فقد تعلّم أرتيوم تمييز الخطى البشريّة منذ وقت طويل في الدّوريّات في فدنكه. ثمّ وصلت إلى أنفه رائحة بغيضة مفاجئة.

واحد، اثنان.. غريبان ظهرا، قال أحد ما فوق رأسه.

أنا رامي جيّد، وكان بعيدا جدًّا.

العنق، الكتف، ردّ الآخر

كانت الأصوات غريبة، خالية من أيّ نغمة، منبسطة وقد ذكّرته بأزيز الرّيح الرّتيب في الأنفاق. وعلى كلّ حال كانت أصواتًا بشريّة بالتّأكيد.

لتأكل، تصويب جيّد. ذلك ما تريده الدّودة الكبرى، تابع الصّوت الأوّل.

لتأكل، الأوّل: انت، الثّاني: أنا، سنحمل الغرباء إلى البيت، أضاف الثّاني.

الصّورة الّتي أمامه جعلت أرتيوم يجفل، وقد انتزعاه من الأرض بطريقة مؤلمة. ولجزء من لحظة، ومض وجه أمام عينيه، وجه ضيّق بعيون داكنة غائرة جدًّا. بعد ذلك أطفأوا المصابيح وأصبح المكان بقعة سوداء. لم يفهم أرتيوم إلّا من خلال تدفّق الدّم من رأسه، أنّهم كانوا يجرّونه كالكيس إلى مكان ما بقسوة. استمرّت المحادثة لبعض الوقت، ولكنّ الكلمات كانت ممزوجة بتأوّه شديد الآن.

إبرة تسبّب الشّلل، لماذا لم تكن سامّة؟

ذلك ما أمر به القائد. ذلك ما أمر به القسّ. الدّودة الكبرى تريد الأمر بتلك الطّريقة. إنّها جيّدة لحفظ اللّحم.

أنت ذكيّ. فأنت والقسّيسون أصدقاء. القسّ يعلّمك.

لتأكل.

واحد، اثنان، الأعداء قادمون. وهناك رائحة بارود في الهواء.. إطلاق نار.. عدوّ سيّء. كيف وصلوا إلى هنا؟

لا أعرف. إنّ القائد وفارتان يقومان بالاستجواب، أمّا أنا وأنت صيّادان. جيّد أن تكون الدّودة الكبرى سعيدة، هذا يعني أنّنا سنحصل على مكافأة.

الكثير من الأكل؟ حذاء؟ سترة؟"

بل الكثير من الأكل. لا سترات ولا أحذية.

أنا صغير، أنا أصيد الأعداء.. أمر جيّد. هل هناك الكثير؟ مكافأة... أنا سعيد.

هذا يوم جيّد، لقد جلب فأران، واحد صغير جديد. أنت وأنا، نحن نصيد الأعداء. الدّودة الكبرى سعيدة، والنّاس يغنّون.. عيد.

عيد.. أنا سعيد. رقص؟ فودكا؟ أنا أرقص مع ناتاشا.

ناتاشا والقائد، يرقصان. وليس أنت.

أنا صغير وقويّ والقائد عجوز جدًّا، وناتشا صغيرة. أنا أصيد الأعداء، شجاع، أمر جيّد. ناتاشا وأنا، نحن نرقص.

سُمعت أصوات جديدة تتنازع في مكان غير بعيد، فخمّن أرتيوم أنهم جلبوهما إلى المحطّة. كان المكان مظلمًا كما في الأنفاق، ولم يكن في المكان كلّه إلّا موقد صغير يشتعل. رموه بلامبالاة على الأرض بجانب الموقد، وأمسكت أصابع فولاذيّة بلحيته، وأدارت وجهه للأعلى. وقف حوله عدد من النّاس بمظهر غريب لا يمكن تخيّله. كانوا عراة تمامًا تقريبًا، ورؤوسهم محلوقة تمامًا ويبدو أنّهم لايشعرون بالبرد أبدًا. على جبهة كلّ واحد منهم ترى خطّ مموّج مشابه للصّور الّتي في نقطة التّقاطع. قوامهم الهزيل جعلهم يبدون معتلّي الصّحّة، وجناتهم غائرة، وجلد باهت اللّون. لكنّهم يشعّون بنوع من قوّة فوق بشريّة. تذكّر أرتيوم الصّعوبة الّتي واجهها ميلنك في حمل تن الجريح من المكتبة، وقارن هذا بالسّرعة الّتي جلبته فيها هذه المخلوقات الغريبة إلى المحطّة. كان في يد كلّ واحد منهم تقريبًا، سهم طويل. ودهش أرتيوم عندما عرف أنّها كانت مصنوعة من أغلفة بلاستيكيّة تستخدم في عزل رزم الأسلاك الكهربائيّة. كلّ هؤلاء النّاس الغريبين من نفس العمر. ولم يكن أحد منهم فوق الثّلاثين. تفحّصوهما بصمت لبعض الوقت، ثمّ قال رجل منهم له لحية مع خطّ أحمر على جبينه: أنا سعيد، فهذان عدوّان للدّودة الكبرى من أهل الآلات. أناس أشرار ولحم طريّ، ستكون الدّودة الكبرى راضية. إنّ شاراب وفوفان شجاعان. سوف آخذ أهل الآلة إلى السّجن وأستجوبهما. وغدًا إجازة، وكلّ النّاس الطّيّبين سيأكلون الأعداء. فوفان، أيّ إبرة؟ الإبرة الّتي تسبّب الشّلل؟

نعم، الّتي تسبّب الشّلل، أجاب الرّجل الأسمن والّذي يوجد خطّ أزرق على جبهته.

الّتي تسبّب الشّلل جيّدة. لأنّها لم تلوّث اللّحم، قال الملتحي.

فوفان، شاراب، اجلبا الأعداء وتعالا معي إلى السّجن.

بدأ الضّوء يتراجع، وأصوات جديدة كانت تنادي من قرب. وعبّر أحد ما عن بهجته بشكل غير مسموع، وانتحب آخر بحزن. بعد ذلك سُمع غناء ضعيف بالكاد يسمع، لكنّه لم يكن جيّدًا. بدا وكأنّ الأموات كانوا يغنّون فعلًا، وتذكّر أرتيوم الحطّابات اللّواتي شققن طريقهنّ من بارك بوبدي. بعد ذلك وضعوه على الأرض مرّة أخرى ورموا أنطون الّذي فقد شعوره منذ زمن طويل، بجانبه.

وكأنّ أحد ما دفعه وأوحى له أن ينهض على الفور..

مطّ أطرافه وأشعل مصباحه، وغطّى أنطون بيده لكي لا يؤذي العيون شبه النّائمة الحسّاسة. وتفحّص الخيمة (أين البندقيّة الآليّة؟!) وذهب إلى المحطّة. لطالما شعر

بحنين قويّ إلى الوطن، لكنّه الآن وبعد أن ظهر في فدنكه لم يكن سعيدًا أبدًا. الدّخّان يتصاعد من السّقف والخيام الفارغة بأحدث الرصاص فيها ثقوبًا كثيرة، وكان الهواء محمّلًا برماد ثقيل.. يبدو أنّ شيئًا مرعبًا قد حدث هنا، وكانت المحطّة تختلف بشكل لافت عن الشّكل الّذي يتذكّرها فيه. ومن بعيد، من الممرّ الّذي في الطّرف الآخر من المنصّة على الأرجح، سمع عواء وحشيّ كما لو أنّهم كانوا يقطّعون أحدًا إلى شرائح هناك. أضاء المحطّة بشكل باهتن مصباحا طوارىء، واخترقت أشعّتهما الضّعيفة خصل الدّخّان الكسولة بصعوبة. لم يكن هناك أحد على كلّ المنصّة، ماعدا طفلة صغيرة تلعب على الأرض بجوار إحدى الخيم المتجاورة.

كاد أرتيوم أن يسألها عمّا حدث هنا وأين اختفى البقيّة، لكنّه غيّر رأيه لأنّ الفتاة بدأت تصرخ بصوت عال حين رأته.

الأنفاق.. الأنفاق من فدنكه إلى الحديقة النّباتيّة. لو ذهب سكّان محطّته إلى مكان فسيكون إلى تلك الحديقة، ولو أنّهم هربوا إلى المركز إلى هانسا، لما تركوه والطّفلة لوحدهما.

قفز أرتيوم على المسار، وتحرّك باتّجاه المدخل المظلم الخالي. وفكّر بأنّ الأمر خطير بلا أسلحة، ولكن لم يكن لديه ما يخسره وعليه أن يستكشف الوضع. هل استطاع الدّارك ونز أن يخترقوا الدّفاعات؟ إذًا أيّ أمل بقي لهم. يجب عليه أن يكتشف الحقيقة وينقلها إلى الحلفاء الجنوبيّين.

طوّقه الظّلام بعد المدخل مباشرة وأتى الخوف مع الظّلام. ولم يكن يرى أيّ شيء أمامه بتاتًا، لكنّه استطاع أن يسمع أصواتًا مقزّزة ماضغة. أسِف ثانية على افتقاره لبندقيّة آليّة، لكنّ الآوان فات على التّراجع. وبدأت الخطى تصدر صوتًا من بعيد، ثمّ صارت تقترب أكثر. وظلّت تقترب كلّما تقدّم إلى الأمام، وتتوقّف حين يقف. لقد حدث له فيما مضى شيء مشابه، لكنّه لم يتذكّر أين وكيف. كان الوضع مخيفًا واقتراب هذا الكائن غير المرئيّ والمجهول... هل هو خصم؟ لم تسمح له ركبتاه المرتعشتان بالتّحرّك بسرعة، وكان الوقت عائقًا كبيرًا إلى جانب الرّعب. سقط عرق بارد على صدغيه. وشعر بالقلق والارتباك في كلّ ثانية تمرّ. وأخيرًا، وحين اقتربت الخطا ولم يعد بينه وبينها سوى ثلاثة أمتار، فقد قدرته على التّحمّل، فتعثّر وسقط ونهض عن الأرض وأسرع عائدًا إلى المحطّة. وللمرّة الثّالثة ترفض ساقاه الضّعيفتان حمله، فأدرك أنّ الموت بات وشيكًا.

كلّ شيء على هذه الأرض نتيجة وعاقبة للدّودة الكبرى. في زمن ما في الماضي كان العالم كلّه يتألّف من الحجارة، ولم يكن عليه شيء سوى الحجر. لم يكن هناك هواء أو ماء أو ضوء أو نار، لم يكن هناك إنسان أو وحش. كان هناك الحجر فقط، ثمّ جعلته الدّودة الكبرى بيتًا لها.

ولكن، كيف وصلت الدّودة الكبرى إلى هنا؟ ومن أيّ مكان جاءت؟ من حملها؟

الدّودة الكبرى موجودة دائمًا. لا تقاطع الكلام. جعلت لنفسها بيتًا من حجارة صلبة في منتصف العالم، وقالت: هذا العالم سيكون لي، إنّه مصنوع من حجر صلب،

لكنّي سأقضم ممرّاتي الخاصّة فيه.. إنّه بارد، لكنّني سأدفئه بحرارة جسدي.. إنّه مظلم لكنّي سأنيره بضوء عيوني.. إنّه ميّت لكنّي سأسكنه مع كائناتي.

ما هي كائناتك؟

الكائنات هي المخلوقات الّتي تنتج من رحم الدّودة الكبرى، أنت وأنا وكلّنا كائناتها. ثمّ قالت الدّودة الكبرى: سيكون كلّ شيء كما أقول، لأنّ هذا العالم لي من الآن فصاعدًا. وبدأت تقضم ممرّات عبر الحجر الصّلب فلان الحجر في بطنها ورطّبه لعابه وعصاراتها، وأصبح الحجر حيًّا وبدأ يحمل الفطر. وبعد أن قضمت الدّودة الكبرى الحجر، تركته يمرّ من خلالها وظلّت تفعل ذلك لآلاف السّنين حتّى غطّت ممرّاتها كلّ الكرة الأرضيّة.

ألف؟ ماذا؟ واحد، اثنان، ثلاثة؟ كم هو؟ الألف؟

لديك عشرة أصابع على يديك، وشاراب لديه عشرة، فإن حسبت نفسك وجروم وأناسا آخرين لهم أصابع بقدر أصابعك وكلّ واحد منهم يكون له عشرة أضعاف أصابعه. هذه ستكون مئة، وتكون ألفًا حين تُضاعف المئة إلى عشرة أضعاف.

ستكون تلك قدر كبير من الأصابع، أنا لا أستطيع عدّها.

ليس مهمًّا. حين ظهرت دروب الدّودة الكبرى على الأرض، انتهى عملها الأوّل، ثمّ قالت بعدئذ: أنا قضمت آلاف وآلاف الدّروب عبر الحجر الصّلب، وبعثرت الحجر وحوّلته إلى فتات. وقد مرّ هذا الجريش من الحبيبات عبر رحمي، وانتقع في عصارة حياتي وأصبح حيًّا. في السّابق شغلت الحجارة كلّ الفراغ في العالم، لكن الآن ظهر مكان فارغ. الآن لم يعد هناك مكان للأطفال الّذين سأحمل بهم. إنّ أولى الكائنات الّتي لم يعد أحد يتذكّر أسماءها خرجت من رحمها. كانت كائنات كبيرة وقويّة مثل الدّودة الكبرى نفسها. أحبّتها الدّودة الكبرى، لكن لم يكن هناك ما تشربه لأنّ العالم لم يكن فيه ماء، فماتت من العطش ثمّ حزنت الدّودة الكبرى بعدئذ.. وهي الّتي لم تعرف الحزن من قبل، إذ لم يكن هناك أحد تحبّه، ولم تعرف الوحدة والعزلة. لكنّها خلقت حياة جديدة أحبّتها، وكان فراقها صعبًا عليها. ثمّ بدأت الدّودة الكبرى بالبكاء، وملأت هذه الدّموع العالم فظهر الماء. وقالت:

الآن يوجد مكان أيضًا يمكن للواحد أن يعيش فيه، وماء يمكن أن يشرب منه. وعادت الحياة إلى الأرض الّتي أُتخمت بعصارة رحمها وحملت الفطر. الآن سأخلق بعض المخلوقات وسأحمل بأولادي. سيعيشون في الدّروب الّتي قضمتها ويشربون من دموعي ويأكلون الفطر الّذي نما بعصارة رحمي. ولكنّها خشيت من أن تلد مخلوقات ضخمة مثلها مرّة أخرى، فكما ترى.. ليس هناك فراغ وماء وفطر يكفي، فخلقت في البداية البراغيث، ومن بعدها الجرذان، ثمّ القطط، ومن بعدها الدّجاج ثمّ الكلاب، ومن بعدها الخنازير والإنسان. لكنّ الأمور لم تكن كما توقّعت، لقد بدأت البراغيث بشرب الدّماء، والقطط بأكل الفئران، والكلاب باضطهاد القطط، والإنسان بقتل كلّ المخلوقات الأخرى وأكلها. وحين قتل الإنسان إنسانًا آخر وأكله لأوّل مرّة، أدركت الدّودة الكبرى أنّ أولادها أصبحوا غير جديرين بها، فبكت.

وكلما أكل إنسان إنسانًا آخر، كانت الدّودة الكبرى تبكي، فتفيض الممرّات بدموعها. الإنسان طيّب، واللّحم لذيذ وحلو، لكن يستطيع الواحد أكل أعداءه فقط.. أنا أعرف.

أطبق أرتيوم أصابعه المرتخية على يده. وكانت يداه مربوطتين خلف ظهره بقطعة من سلك، وأصابهما الخدر. لكنّهما أصبحتا تستجيبان على الأقلّ مرّة أخرى، كما أنّ شعوره بالألم الّذي في كلّ جسده كان علامة جيّدة، تظهر أنّ الشّلل الّذي سبّبته الإبرة المسمومة كان مؤقّتًا. دارت الفكرة البلهاء في رأسه في تعارض مع القاصّ المجهول، بأنّه لا يملك أيّ ذاكرة عن كيفيّة وصول الدّجاج إلى داخل المترو. ولا شكّ أنّ بعض التّجّار نجحوا في جلبه من سوق ما في مكان ما. هو يعرف أنّهم جلبوا الخنازير من أحد سرادق فدنكه، أمّا الدّجاج... حاول أن يرى الّذي بجانبه، لكنّ ظلامًا دامسًا كاملًا كان حوله. وعلى أيّ حال هناك أحد ما غير بعيد جدًّا عنه.

مرّ نصف ساعة منذ أن عاد أرتيوم إلى وعيه، وأصبح يدرك المكان الّذي كان فيه بالتّدريج.

إنّه يتحرّك، أستطيع سماعه، قالها صوت أجشّ، سوف أستدعي القائد ليقوم بالاستجواب. وتحرّك شيء ما ثمّ توقّف. وحاول أرتيوم أن يمدّ ساقيه، فتبيّن له أنّهما مقيّدتان بسلك أيضًا. حاول أن يتدحرج على جانبه الآخر، فضرب بشيء طريّ ثمّ سمع أنّة طويلة عميقة يملأها الألم.

أنطون، هل هذا هو أنت؟ همس أرتيوم. لكن لم يكن هناك جواب.

أها... لقد عاد عدوّا الدّودة الكبرى إلى وعيهما، قال إحد ما ساخرًا في الظّلام.

كان من الأفضل لو أنّك لم تعد إلى وعيك... كان نفس الصّوت المتقطّع العاقل الّذي كان يروي قصّة الدّودة الكبرى، وخلق الحياة في النّصف ساعة الماضية. وتوضّح له على الفور أنّ مراقبه كان مختلفًا عن سكّان المحطّة الآخرين، وبدلًا من العبارات البدائيّة المقطّعة، كان يتكلّم بشكل لائق وطنّان إلى حدٍّ ما. وكان بشريًّا تمامًا حتّى في جرس صوته، بخلاف الآخرين.

من أنت؟ حرّرنا، أزّ أرتيوم وهو يحرّك لسانه بصعوبة.

نعم، نعم، هذا ما يقوله الكلّ. كلّا، لسوء الحظّ أنّ رحلاتك انتهت أينما كانت وجهتك. إنّهم سوف يعذّبونك ويشوونك، فماذا ستفعل؟ ردّ الصّوت من الظّلام بصعوبة.

هل أنت مسجون أيضًا؟ سأل أرتيوم.

نحن كلّنا في سجن، إنّهم سيحرّرونك في هذا اليوم بالضّبط، قهقه الرّفيق الخفيّ.

أنّ أنطون وتأوّه مرّة أخرى، وبدأ يتحرّك ثمّ تمتم بشيء غير مفهوم، لكنّه لم يستردّ وعيه.

لماذا تجلسون معًا في الظّلام مثل سكّان الكهوف؟

أُشعلت ولّاعة وأضاءت شعلتها وجه المتكلّم، له لحية رماديّة طويلة قذرة، وشعر متلبّد باهت، وعيون ساخرة ضاعت في شبكة من التّجاعيد. عمره لا يقلّ عن

السّتين. يجلس على كرسيّ بمحاذاة طرف القضبان الحديديّة التي تقسم الغرفة إلى نصفين، الغرفة الشبيهة بغرفة أخرى في فدنكه أيضًا، ولها اسم غريب (غرفة السّعدان). لم ير أرتيوم السّعادين إلّا في كتب علم الأحياء المدرسيّة وكتب الأطفال. وعلى كلٍّ كانت الغرفة تستخدم كسجن.

لا أستطيع التّعوّد على الظّلام اللّعين بأيّ شكل، يجب أن أستخدم هذه النّفاية، انتحب العجوز وهو يغطّي عينيه. حسنًا، لماذا جئت إلى هنا؟ ألا توجد أماكن كافية في ذلك الجانب؟

اسمع، لم يسمح له أرتيوم بإكمال كلامه. أنت طليق وتستطيع أن تدعنا نخرج قبل أن يعود آكلو لحوم البشر هؤلاء، أنت إنسان عاديّ وسويّ.

طبعًا أستطيع، أجاب، لكنّي لن أفعل طبعًا. فنحن لا نعقد اتّفاقيّات مع أعداء الدّودة الكبرى.

تبًّا وماذا تكون الدّودة الكبرى؟ وعن ماذا تتحدّث أنت؟ أنا لم أر أو أسمع بها، ولهذا لا يمكن أن أكون عدوّها.

ليس مهمًّا إن كنت سمعت بها أم لا. أنت أتيت من ذلك الجانب، من المكان الّذي يعيش فيه أعداؤها، وذلك يعنّي أنّكم جواسيس، تحوّل صوت الرّجل العجوز الخشن السّاخر المثير للأعصاب إلى طقطقة فولاذيّة. أنتم لديكم أسلحة ناريّة ومصابيح كشّافة.. دمى ميكانيكيّة لعينة.. آلات للقتل. أيّ دليل أكبر من هذا تحتاج لتفهموا أنّكم كفرة، وأنّكم أعداء الحياة وأعداء الدّودة الكبرى؟ قفز من مقعده واقترب من القضبان: أنت وهؤلاء الّذين من أمثالك تتحمّلون ذنب كلّ شيء. أطفأ الرّجل العجوز الولّاعة الّتي أصبحت حارّة جدًّا، وفي الظّلام المنتهك لكلّ الحدود، سمعه وهو ينفخ على أصابعه المحترقة. بعد ذلك صاح صوت جديد. هذا الصّوت هسّ هسيسًا وجمّد الدّماء في العروق. فزاد خوف أرتيوم. وتذكّر تريتياك الّذي قُتل بإبرة مسمومة. أرجوك، بدأ يهمس بحماس قبل أن يفوت الآوان، لماذا تفعل هذا؟

ولم يقل الرّجل العجوز شيئًا وبعد دقيقة واحدة امتلأ المكان بأصوات طقطقة أقدام حافية على الإسمنت، وتنفّس أجشّ، وصفير هواء مسحوب بالمناخر. لم ير أرتيوم أيّ واحد من هؤلاء يدخل، لكنّه شعر بأنّهم كانوا يتفحّصونه من قرب وينظرون إليه ويشمّونه ويصغون كيف يدقّ قلبه في صدره بصوت عال.

أهل النّار. رائحته كالدّخّان، رائحته كالخوف. الأوّل رائحته من المحطّة الّتي في الجانب الآخر. والثّاني أجنبيّ. الأوّل والثّاني كلاهما عدوّان، هس أحدهم أخيرًا.

دعوا فارتان يفعلها، أمر صوت آخر.

أشعلوا النّار، أمر أحدهم. أُشعلت الولّاعة مرّة أخرى.

في الغرفة بجانب الرّجل العجوز الّذي ترفرف الشّعلة في يده، وقف ثلاثة متوحّشين حليقي الرّؤوس، يظلّلون بأيدهم أعينهم. كان أرتيوم قد رأى أحدهم مسبقًا، إنّه السّمين الّذي حمله، وبدا الآخر مألوفًا له بشكل غريب. نظر أرتيوم في عيونهم

مباشرة وتقدّم خطوة إلى الأمام ووقف عند القضبان. رائحته لا تشبه رائحة البقيّة، اكتشف أرتيوم رائحة لحم فاسد تنبعث من هذا الرّجل. ولم يتوقّفوا عن النّظر إليه. جفل أرتيوم فقد أدرك وفهم أين رأى هذا الوجه سابقًا. لقد كان المخلوق الّذي هاجمه في اللّيل في كييفسكايا. سيطر شعور غريب على أرتيوم يشبه الشّلل، لكنّ عقله لم يتأثّر هذه المرّة. ظلّ تفكيره صامدًا وفتح طائعًا شعوره إلى السّبر الصّامت.

عبر باب السّدّ... بقي الباب مفتوحًا... لقد جاءا من أجل الصّبيّ، من أجل ابن أنطون، سرقوه في اللّيل. وأنا مذنب بكلّ ذلك، أنا سمحت له بالاستماع إلى موسيقاكم عبر الأنبوب... أنا تسلّقت إلى داخل عربة اليد، ولم نخبر أحدًا. وصلنا معًا، لم نغلقه، ردّ أرتيوم على الأسئلة الّتي ثارت في رأسه. وكان من المستحيل أن يقاوم أو يخفي أيّ شيء عن الصّوت الصّامت المطالب بأجوبة منه. وعرف مستجوب أرتيوم في دقيقة واحدة، كلّ شيء مهمّ ثمّ أومأ برأسه وتراجع للخلف. أطفأت النّار. وببطء مثل الشّعور العائد إلى يد خدرة استعاد أرتيوم القدرة على التحكّم.

فويان، كولاك، عودا إلى النّفق، إلى الممرّ، وأغلقا الباب، أمر بذلك القائد الملتحي. سيبقي الأعداء هنا، وديرون سيحرس الأعداء. غدًا سيكون إجازة وسيأكل النّاس الأعداء ويمجّدون الدّودة الكبرى.

ماذا فعلتم بأوليج؟ ماذا فعلتم بالطّفل؟ بدأ أرتيوم يأزّ في أثرهم.

وصدر عن الباب صوت مكتوم وعميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السّابع عشر: أولاد الدّودة

مرّت عدّة دقائق في ظلام تامّ، حاول فيها أرتيوم الّذي ظنّ أنّهم تركوه لوحده أن يقف أو يجلس على الأقل. فقد كانت يداه ورجلاه التي رُبطت بإحكام، مخدّرة وتؤلمه. وتذكّر كلمات زوج أمّه حين شرح له مرّة أنّ ترك عصبة أو رباط لفترة طويلة جدًّا، يمكن أن تقتل الجلد رغم أنّ الأمر لم يبد مهمًّا الآن.

استلق بهدوء، جاء العدو.. رنّ أحد الأصوات. درون سيبصق إبرة تسبّب الشّلل.

إنّها ليست ضروريّة، تجمّد أرتيوم صاغرا، ويجب ألّا تطلق. كان لديه بصيص أمل، فربّما يمكنه أن يقنع سجّانه كي يساعده على الخروج. ولكن كيف يمكنك أن تتحدّث إلى متوحّش يكاد لا يفهمك؟

ومن تكون هذه الدّودة الكبرى؟ سأل أرتيوم عن أوّل شيء خطر بباله.

الدّودة الكبرى خلقت الأرض، خلقت العالم وخلقت الإنسان.. الدّودة الكبرى هي كلّ شيء.. الدّودة الكبرى هي الحياة. أمّا أعداء الدّودة الكبرى، أهل الآلات هم الموت.

أنا لم أسمع بها أبدًا، قال أرتيوم مختارًا كلماته بعناية: أين تعيش؟

الدّودة الكبرى تعيش هنا، بجانبنا وحولنا. الدّودة الكبرى تحفر كلّ الممرّات. بينما قال الإنسان أنّه هو من حفرها. كلّا، الدّودة لكبرى هي من فعلت، إنّها تعطي الحياة وتأخذ الحياة. تحفر ممرّات جديدة ليعيش النّاس فيها. النّاس الأخيار يجلّون الدّودة الكبرى ويحترمونها. أمّا أعداؤها يريدون أن يقتلوها، وهذا ما يقوله الكهنة.

من هم الكهنة؟

هم كبار السّنّ مع شعر على رؤوسهم، ولا أحد يستطع إلّا هم. فهم يعرفون ويُصغون إلى رغبات الدّودة الكبرى ويبلّغون النّاس. هكذا يفعل النّاس الأخيار، أمّا النّاس السّيّئون لا يطيعون.. النّاس السّيّئون هم الأعداء، والأخيار يأكلونهم.

بدأ أرتيوم يدرك الأشياء ويميّز فيما بينها بالتّدريج بعد أن استذكر المحادثة الّتي وصلت إلى مسامعه. الرّجل العجوز الّذي كان يروي أسطورة الدّودة، هو أحد هؤلاء الكهنة على الأرجح.

القسّ يقول: أكل النّاس حرام. ويقول أيضًا أنّ الدّودة الكبرى ستبكي حين يأكل إنسان إنسانا آخر، ذكّره أرتيوم محاولًا أن يعبّر عن أفكاره بدقّة كما فعل المتوحّش. ثمّ أضاف بحذر: إنّ أكل البشر ضدّ مشيئة الدّودة الكبرى. وإن بقينا هنا سوف يأكلوننا، وستحزن الدّودة الكبيرة وتبكي.

سمع صوتًا ساخرًا من الظّلام يقول: طبعًا ستبكي الدّودة الكبرى، لكنّ العواطف عواطف، وأنت لا تستبدل الغذاء البروتينيّ بأيذ غذاء آخر. ويبدو أنّ المتكلّم هو نفس الرّجل العجوز، لقد عرف أرتيوم جرس ونغمة صوته. ولم يعرف إن كان

الرّجل في الغرفة طوال الوقت، أم أنّه تسلل دون أن يلاحظه أحد للتوّ. أنا لست مهتمًّا، فهو لن يخرج من الزّنزانة الآن. ثمّ خطرت لأرتيوم فكرة أخرى، فأشعرته ببرد قارس. كم كان أنطون محظوظًا لأنّه لم يستردّ وعيه ولم يسمع هذا حتّى الآن.

والطّفل؟ الأولاد الّذين سرقتهم؟ هل أكلتهم أيضًا؟ الصّبيّ؟ أوليج؟ سأله بصوت لا يكاد يُسمع وحدّق بالظّلام بعيون مفتوحة إلى اقصاها من الخوف.

نحن لا نأكل الصّغار، ردّ المتوحّش. لكنّ أرتيوم ظنّ أنّ الرّجل العجوز هو من أجاب. الصّغار لا يمكن أن يكونوا أشرارًا، ولا يمكن أن يكونوا أعداء. نحن نأخذ الصّغار لكي نشرح لهم كيف يعيشون، ونحدّثهم عن الدّودة الكبرى. نعلّمهم كيف يمجّدونها ويبجّلونها.

قال القسّ: ولد طيّب يادرون، أنت تلميذي المفضّل، علّل قائلًا.

ماذا حدث للصّبيّ الّذي سرقته اللّيلة الماضية؟ أين هو؟ من جرّه وخطفه هو مسخك، أنا أعرف، قال أرتيوم.

مسخ؟ ومن خلق هذه المسوخ؟! سأل الرّجل العجوز بغضب. من خلق هذه الأشياء الصّامتة ذات الثّلاثة أعين والسّتّة أصابع، والّتي بدون أذرع وتموت أثناء الولادة وتعجز عن التّكاثر؟ من حرمهم من الشّكل البشريّ ووعدهم بالفردوس ورماهم ليموتوا في أحشاء هذه المدينة الملعونة العمياء؟ من الّذي يجب أن يُلام؟ ومن هو المسخ الحقيقيّ؟

سكت أرتيوم. ولم يقل الرّجل العجوز أكثر من ذلك، وتنفّس بصعوبة وحاول أن يهدّىء نفسه. وأخيرًا.. استردّ أنطون وعيه.

أين هو؟ قال بصوت أجشّ: أين ابني؟ أعطوني ابني.. بدأ يصرخ وحاول أن يحرّر نفسه، وبدأ يتدحرج على الأرض ويضرب قضبان القفص والجدار.

عنيف، لاحظ الرّجل العجوز في نغمته السّاخرة السّابقة. هدّئه يا درون.

سمع صوتًا غريبًا يشبه العطاس، وصفر شيء في الهواء.. فهدأ أنطون مرّة أخرى بعد عدّة ثوان.

مفيد جدًّا، قال القسّ. أنا سأذهب وأُحضر الصّبيّ، دعه يرى والده ويودّعه. إنّه صبيّ طيّب بالمناسبة، ويجدر بأبيه أن يفتخر به، إنّه يقاوم التّنويم المغناطيسيّ بشكل جيّد.

بدأ يتنقّل على الأرض ثمّ سُمِع صرير الباب.

لا حاجة إلى الخوف، قال السّجّان بلطف غير متوقّع. النّاس الأخيار لا يقتلون ولا يأكلون أطفال أعداءهم، لأنّ الصّغار لا يرتكبون الذّنوب، كما أنّ تعليمهم العيش بشكل جيّد ممكن. والدّودة الكبرى تسامح الأعداء الصّغار.

يا إلهي ما هذه الدّودة الكبرى؟ هذا سخف مطلق.. أسوأ من الملحدين والسّتالينيّين، كيف تؤمنون بها؟ هل رأى أحد منكم دودتكم؟ هل رأيتها؟حاول أرتيوم التّهكّم، لكنّ

الأمر لم يكن سهلًا، وهو ممدّد على الأرض وقد رُبطت ذراعاه ورجلاه. ومثلما انتظر أن يشنق في السّجن سابقًا، أصبح غير مبال بقدره ومصيره الآن، فوضع رأسه على الأرض الباردة ثمّ أغلق عينيه دون أن يتوقّع ردًّا.

إنّ النّظر إلى الدّودة الكبرى محرّم، وعمل محظور، قال المتوحّش بحدّة.

وهذا الشّيء لا يمكن أن يكون، ردّ أرتيوم متردّدًا: ليس هناك وجود للدّودة، والنّاس هم من صنعوا الأنفاق، وهي مبيّنة على الخرائط، وهناك نفق دائريّ حتّى في هانسا، والنّاس فقط هم من يستطيعون بناء أنفاق مدوّرة. وأنا لا أعتقد أنّك تعرف حتّى ما هي الخارطة.

أنا أعرف، قال درون بهدوء. فأنا أدرس مع القسّ، وهو يرينا. لا توجد ممرّات كثيرة على الخريطة، لقد شقّت الدّودة الكبرى ممرّات جديدة غير موجودة الخريطة. وحتّى هنا في وطننا، توجد ممرّات جديدة مقدّسة غير موجودة على الخريطة أيضًا. أهل الآلات رسموا الخرائط ويظنّون أنّهم حفروا الممرّات. أغبياء ومتباهون، هم لا يعرفون شيئًا، وسوف تعاقبهم الدّودة الكبرى على هذا.

لماذا تعاقبهم؟ لم يفهم أرتيوم.

بسبب الغط... الغط-ر-سة، تلفّظ المتوحّش بعناية.

بسبب الغطرسة، أكّد صوت القسّ. لقد خلقت الدّودة الكبرى الإنسان أخيرًا، وكان الإنسان ذريّتها المفضّلة. فهي لم تعط العقل لأيٍّ من المخلوقات الأخرى، لكنّها أعطته للإنسان. هي تعرف أنّ العقل لعبة خطرة، ولذلك أمرته قائلة: عش في العالم مع نفسك ومع الأرض ومع الحياة وكلّ المخلوقات الأخرى، ومجدّني. وبعد هذا ذهبت الدّودة الكبرى إلى أحشاء الأرض العميقة، لكنّها قالت مسبقًا: سيأتي اليوم الّذي أعود فيه، لذلك تصرّف كما لو أنّني معك. فأطاع النّاس خالقتهم، وعاشوا في العالم مع الأرض الّتي خلقتها ومع بعضهم البعض ومع المخلوقات الأخرى، وتناقلوا من الآباء إلى الأبناء ومن الأمّهات إلى البنات كلمات الدّودة الكبرى. لكن هؤلاء الّذين سمعوا أمرها بآذانهم ماتوا، ومات أولادهم، وتبدّلت أجيال كثيرة ولم تعد الدّودة الكبرى. ثمّ توقّف النّاس بعد ذلك عن مراعاة العهود، وفعلوا ما يريدون وظهر الّذين قالوا: لا وجود للدّودة الكبرى سابقًا، وليس لها وجود الآن.

وتوقّع آخرون أنّ الدّودة الكبرى ستعود وتعاقبهم. ستحرقهم بضوء عيونها وتلتهم أجسادهم، وتهدم الممرّات الّتي يعيشون فيها. لم ترجع الدّودة الكبرى، ولكنّها بكت من أجل النّاس وارتفعت دموعها من الأعماق وغمرت الممرّات السّفليّة. لكنّ هؤلاء الّذين ارتدّوا عن خالقتهم قالوا:لم يخلقنا أحد، نحن كنّا موجودين دائمًا.. الإنسان كائن جميل وقويّ ولا يمكن للدّودة الكبرى أن تخلقه. وقالوا أيضًا: كلّ الأرض لنا وكانت لنا وستظلّ لنا، وأنّ الدّودة الكبرى لم تشقّ ممرّات فيها، ونحن وأسلافنا من فعل ذلك. ثمّ أشعلوا النّار وبدأوا بقتل الكائنات الّتي خلقتها الدّودة الكبرى، وقالوا: كلّ الحياة الّتي حولنا لنا، وكلّ شيء هنا فقط لإشباع جوعنا. واخترعوا الآلات لكي يقتلوا بسرعة أكبر، ولكي يزرعوا الموت ويدمّروا الحياة الّتي خلقتها الدّودة

الكبرى، ويخضعوا عالمها لهم. لكنّ الدّودة الكبرى لم تنهض من الأعماق السّحيقة الّتي ذهبت إليها، حتّى بعد أن فعلوا وقالوا كلّ ذلك. ثمّ ضحكوا ساخرين وبدأوا بفعل المزيد ضدّ ما تكلّمت عنه، ولكي يذلّوها، قرّروا أن يبنوا آلات تكون نسخًا عنهم، وابتدعوا هذه الآلات ودخلوا إلى باطنها وضحكوا: الآن نستطيع أن نحكم مثل الدّودة الكبرى، ولكن ليس كحاكم وحيد، بل بالعشرات، والضّوء ينطلق من عيوننا والرّعد يتدحرج حين نزحف وندبّ، والنّاس يتركون رحمهم. نحن خلقنا الدّودة وليست هي من خلقتنا. لكن حتّى هذا لم يكن كافيًا لهم، فقد كبر الكره في قلوبهم، وقرّروا أن يدمّروا الأرض الّتي يعيشون عليها أيضًا. فخلقوا الآلاف من الآلات المختلفة، تلك الّتي تقذف اللّهب وتبصق الحديد، وحوّلوا الأرض إلى أقسام، وبدأوا في تدميرها وتدمير كلّ شيء حيّ فيها. لم تستطع الدّودة الكبرى أن تتحمّل أكثر من ذلك، فحكمت عليهم.. حيث أخذت منهم أنفس وأعظم هبة وهي العقل. لقد باغتهم الجنون، وحوّلوا آلاتهم ضدّ بعضهم البعض، فقتلوا بعضهم بعضًا، ونسوا لماذا صنعوا الآلات، وماذا كانوا يفعلون. وكانوا عاجزين عن التّوقّف.. هكذا عاقبت الدّودة الكبرى الإنسان على غطرسته.

ولكن، ليس كلّ النّاس فعلوا ذلك؟ سأل صوت طفل.

كلّا هناك من يتذكّرون دائمًا الدّودة الكبرى، ويجلّونها. لقد تبرّأوا من الآلات والضّوء وعاشوا في العالم مع الأرض. لقد نجوا، فالدّودة الكبرى لا تنسى وفاءها، فحفظت لهم عقولهم، ووعدت بأن تعطيهم العالم كلّه حين يسقط أعداءها، وهكذا سيكون.

وسيكون الأمر هكذا، كرّر المتوحّش والطّفل معًا.

أوليج؟ نادى أرتيوم بعد أن سمع شيئًا مألوفًا في صوت الطّفل. لكنّ الطّفل لم يجب.

وإلى هذا اليوم، يعيش أعداء الدّودة الكبرى في الممرّات الّتي آوتهم، وذلك ليس لعدم وجود مكان آخر يلتجؤون فيه، وإنّما لأنّهم ظلّوا يعبدون آلاتهم وليس الدّودة الكبرى. إنّ صبر الدّودة الكبرى هائل، واكتفت منذ قرون طويلة من انتهاكات البشر، لكنّ ذلك ليس أبديًّا. لقد تكهّنوا من قبل أنّ الدّودة الكبرى حين توجّه ضربتها إلى قلب بلاد أعدائها الأسود، سيتحطّم ويسقط العالم بأيدي النّاس الأخيار. وتكهّنوا أيضًا أنّ السّاعة ستأتي وستستدعي الدّودة الكبرى الأنهار والأرض والهواء للمساعدة، وستغور الطّبقة الأرضيّة، وتتدفّق التّيّارات الهائجة، ويُرسَل قلب العدوّ المظلم إلى عالم النّسيان. وبعد ذلك ينتصر الصّواب، وتعمّ السّعادة للأخيار، والحياة تكون بلا أمراض، ويكثر الفطر بقدر ما يريد المرء، وكلّ أنوع الدّواب بوفرة.

أُضيئت شعلة. ونجح أرتيوم في إسناد ظهره إلى الجدار، والآن لم يعد بحاجة لأن يحني جسده ويتألّم ليظلّ النّاس الّذين على الطّرف الآخر من القضبان في مجال رؤيته. هناك ولد صغير في وسط الغرفة، قرفص على الأرض وأدار ظهره باتّجاه أرتيوم، وخيّم فوقه شكل القسّ الباهت الّذي أنارته شعلة قدّاحة كان يحملها في يده، وبجانبه وقف المتوحّش مستندًا على عضادة الباب وبيده أنبوب النّفخ الّذي يطلق بواسطته الأبر المميتة أو السّامّة. توجّهت كلّ العيون إلى الرّجل العجوز الّذي أنهى

سرده للتوّ. وأدار أرتيوم رأسه بصعوبة، ونظر إلى أنطون الذي ثبت بوضعيّة متشنّجة، أبقته فيها الإبرة الّتي تسبّب الشّلل. وكان يحدّق بالسّقف، ولم يكن يرى ابنه، لكنّه كان يسمع كلّ شيء بالتّأكيد.

انهض يا بنيّ وانظر إلى هؤلاء النّاس، قال القسّ. فوقف الصّبيّ على قدميه فورًا، والتفت إلى أرتيوم.. لقد كان أوليج.

اقترب منهما أكثر. هل تعرف أيًّا منهما؟ سأل الرّجل العجوز.

نعم، هزّ الصّبيّ رأسه بالإيجاب وهو ينظر إلى أرتيوم بغضب.

إنّه بابا والرّجل الآخر، استمعت معه إلى أغانيكم عبر الأنبوب.

أبوك وصديقه شخصان سيّئان، كانا يستعملان الآلات ويذمّان الدّودة الكبرى. هل تتذكّر؟ أنت أخبرتني أنا والعمّ فارتان بما فعله والدك حين قرّر النّاس السّيّئون تدمير العالم؟

نعم، هزّ أوليج رأسه مرّة أخرى.

إذًا أخبرنا مرّة أخرى، وضع الرّجل العجوز الولّاعة في يده الأخرى.

أبي يعمل في أر.في. إيه. القوّات الصّاروخيّة، كان رجل صواريخ. وأردت أن أكون مثله أيضًا حين أكبر.

جفّ حلق أرتيوم.. كيف لم يستطع حلّ هذا اللّغز من قبل؟ إذًا من هنا حصل الصّبيّ على تلك العروة الغريبة، ولهذا قال إنّه كان رجل صواريخ مثل تريتياك الذّبيح. كانت المصادفة لا تصدّق تقريبًا. هناك أناس بقوا في المترو كلّه يخدمون في القوى الصاروخية... وانتهى اثنان منهم في كييفسكايا. هل يمكن أن يكون هذا مجرّد صدفة؟

كرجل صواريخ... هؤلاء النّاس ابتكروا شرًّا للعالم أعظم من كلّ البقيّة مجتمعين. أرسلوا آلات ومعدّات حرقت ودمّرت الأرض، وكلّ أشكال الحياة عليها تقريبًا. إنّ الدّودة الكبرى تسامح الكثيرين من الّذين ينحرفون ويضلّون، ولا تسامح الّذين يصدرون الأوامر لتدمير العالم ويزرعون الموت فيه، أو الّذين ينفّذونها. لقد سبّب ولدك ألماً لا يطاق للدّودة الكبرى، ودمّر عالمنا بيديه. فهل تعرف ماذا يستحقّ؟ أصبح صوت الرّجل العجوز قاسيًا وصارمًا.

الموت؟ سأل الصّبيّ غير متأكّد، بينما كان ينظر إلى القسّ أوّلًا ثمّ إلى والده الّذي انطوى على أرضيّة قفص سعدان.

الموت، أكّد القسّ، يجب أن يموت. كلّما كان موت النّاس الأشرار الّذين نقلوا الألم إلى الدّودة الكبرى أسرع، سينجز الوعد بشكل أسرع ويولد العالم من جديد، ويتمّ تسليمه للنّاس الأخيار.

إذًا، بابا يجب أن يموت، استنتج أوليج.

ذلك هو الولد، طبطب الرّجل العجوز على رأس الولد بلطف.

والآن اركض والعب مع العم فارتان والأولاد مرّة أخرى. لكن انتبه وكن حذرًا في الظّلام، لا تقع، أرشده إلى الطّريق يا درون، وأنا سأجلس أكثر لبرهة معهم. ثمّ ارجع بعد نصف ساعة مع الآخرين واجلبوا الأكياس، سنكون جاهزين.

أُطفىء الضّوء، وتلاشى حفيف خطوات المتوحّش السّريعة، ووقع أقدام الطّفل الخفيفة بعيدًا. سعل القسّ وقال لأرتيوم: سأتحدّث معك قليلًا إن لم يكن لديك اعتراض على ذلك. نحن عادة لا نأخذ أسرى إلّا إن كانوا أطفالًا، ومن ثمّ يصبحون ضعفاء ويولدون مرضى... وبتنا نرى أعدادًا متزايدة من البالغين الصّمّ ويسعدني التّحدّث معهم، وأرجو ألّا يمانعوا لكنّهم كانوا يأكلونهم بسرعة أيضًا...

لماذا تعلّمونهم إذًا أنّ أكل البشر أمر سيّء؟ سأل أرتيوم.

الدّودة ستبكي هناك، و...؟ كيف سأشرح الأمر لك؟ إنّه من أجلهم في المستقبل. بالنّسبة لك طبعًا أنت ستضيّع هذه اللّحظة، وحتّى أنا. لكن الآن تمّ وضع الأساس لحضارة المستقبل، حضارة ستعيش مع الطّبيعة في العالم. وإنّ أكل لحوم البشر شرّ ضروريّ لهم، فلا يوجد شيء بدون بروتين حيواني كما ترى، والأساطير تبقى. لكنّهم سيتوقّفون عن هذا الفعل حين تضمحلّ الحاجة المباشرة للقتل، ولا يرى المرء وجوهًا مثل وجهك. عندئذ فقط تتذكّر الدّودة الكبرى ومن سوء الحظّ، أن لا يعيش المرء في هذا الزّمن الممتاز... وبدأ الرّجل العجوز يضحك بشكل بغيض.

أنت تعرف، أنّني رأيت أشياء كثيرة جدًّا في المترو، قال أرتيوم، وفي إحدى المحطّات هم يعتقدون أنّ المرء إذا حفر بعمق كاف، فسيحفر الطّريق إلى الجحيم. وفي محطّة أخرى يعتقدون أنّهم يعيشون على عتبة الفردوس، لأنّ المعركة النّهائيّة بين الخير والشّرّ انتهت. وهؤلاء الّذين نجوا قد اختيروا ليدخلوا إلى مملكة السّماء. وبعد ذلك كلّه، لا تبدو قصّتك عن الدّودة مقنعة بأيّ شكل. هل تؤمن بنفسك على الأقلّ؟

ما الفرق بالنّسبة لك فيما أؤمن أنا به، وما يؤمن به بقيّة الكهنة؟ كشّر القسّ: فأنت لن تعيش وقتًا أطول وإنّما بضع ساعات فقط. لهذا سأروي لك شيئًا، لا يستطيع المرء أن يكون صريحًا جدًّا مع أحد مثل شخص سيحمل كلّ ما يبوح به إلى القبر. لهذا ما أؤمن به أنا غير مهمّ. والشّيء الرّئيسيّ أن يؤمن النّاس به. ومن الصّعب أن تؤمن بربّ تخلقه أنت بنفسك.. توقّف القسّ برهة قصيرة ليفكّر ثمّ تابع: كيف يمكنني أن أشرح الأمر لك؟ حين كنت طالبًا، درست الفلسفة وعلم النّفس في الجامعة، ولكن أشكّ إن كان ذلك يعني لك شيئًا، وكان لديّ أستاذ جامعيّ مدرّس في علم النّفس كوغنيتيف، وهو رجل مطّلع جدًّا، وهو من عرض أساس العمليّة الفكريّة بشكل ممنهج، وكان الاستماع إليه متعة حقيقيّة. فطرحت عليه سؤالا يتبادر إلى كلّ أذهان الآخرين في ذلك العمر: هل الرّبّ موجود؟ قرأت كتبًا مختلفة ودخلت في أحاديث كما هي العادة، وكنت أميل إلى وجهة النّظر الّتي ترى أنّه غير موجود على الأرجح. وبطريقة ما قرّرت أنّ هذا الأستاذ الجامعيّ بالخصوص خبير عظيم في الرّوح البشريّة، ويستطيع أن يجبني بدقّة على سؤالي الّذي عذّبني وآلمني جدًّا.

ذهبت لأراه في مكتبه بحجّة مناقشة ورقة، ثمّ سألته: في رأيك يا إيفان ميخاليتش، هل الرّبّ موجود فعلًا؟ عندئذ فاجئني حقًّا. وقال: بالنّسبة لي هذا السّؤال لا يستحقّ طرحه. فأنا من عائلة من المؤمنين بالرّبّ، وقد اعتدت على فكرة أنّه موجود.

ومن وجهة نظر علم النفس فأنا لم أحاول تحليل الحقيقة، لأنّني لم أرد أن أفعل. وقال: عمومًا بالنّسبة لي لا يُعتبر الأمر قضيّة معرفيّة مهمّة مبنيّة على مبدأ وقاعدة كالسّلوك اليوميّ مثلًا. ولم يكن إيماني مؤسّس على قناعة صادقة بوجود سلطة عليا، ولكنّي كنت أنجز وأنفّذ الوصايا المفروضة، والصّلاة في اللّيل والذّهاب إلى الكنيسة، فقد كان هذا أفضل لي وأكثر طمأنينة. صمت الرّجل العجوز.

وماذا بعد؟ لم يستطع أرتيوم كبح نفسه.

إنّ إيماني بالدّودة الكبرى أو عدمه ليس مهمًّا جدًّا، لكنّ الوصايا الإلهيّة تعيش لقرون، وهناك شيء آخر أيضًا: ابتدع ربًّا وتعلّم كلمته. صدّقني إنّ الدّودة الكبرى ليست أسوأ من الآلهة الآخرين، والدّودة بقيت على قيد الحياة أكثر من الكثيرين منهم.

أغلق أرتيوم عينيه. ليس لدى درون أو رئيس هذه القبيلة المدهشة، أو حتّى هذه الكائنات الغريبة مثل فارتان، أدنى شكّ بوجود الدّودة الكبرى. فهي بالنّسبة لهم بديهيّة، والتّفسير الوحيد لما يرونه حولهم والسّلطة الوحيدة للفعل ومقياس الخير والشّرّ. بماذا يستطيع الإنسان الّذي لم ير قط سوى المترو، أن يؤمن بغير ذلك؟ ولكن هناك شيء في أسطورة الدّودة الكبرى لم يستطع أرتيوم أن يفهمه بعد، فسأل:

لكن لماذا تحرّضهم كثيرًا ضدّ الآلات؟ ما هو الشّيء السّيّء جدًّا في هذه الآلات؟ الكهرباء والإنارة والأسلحة النّارية وغير ذلك... تعليماتك تعني أنّ شعبك يعيش بدونها.

ما هو السّيّء في الآلات؟! تبدّلت نبرة صوت الرّجل العجوز بشكل مثير ومفاجىء، وتبخّرت الطّبيعة الطّيّبة والصّبر الّذي قدّم فيه أفكاره للتوّ، وقال: أنت تنوي أن تعضني بفوائد الآلات قبل ساعة واحدة من موتك. انظر حولك.. فقط الإنسان الأعمى هو من لا يلاحظ لو أنّ البشريّة تدين بنوع من الإثم.. عندها لن تتّكل كثيرًا جدًّا على الآلات.. كيف تجرؤ على السّخرية من الدّور الهامّ للمعدّات هنا في محطّتي؟ أنت أيّها النّكرة.

لم يتوقّع أرتيوم ردّة الفعل القويّة من الرّجل العجوز، فقد كان سؤاله هذا أقلّ تحريضًا وإثارة من سابقه حول إيمانه في الدّودة الكبرى. كان تنفّس الرّجل العجوز الثّقيل مسموعًا في الظّلام، حين همس بنوع من الشّتائم وحاول أن يهدّىء نفسه، ولم يستأنف كلامه إلّا بعد عدّة دقائق: أنا غير معتاد على التكلّم مع الكفرة. وقد استعاد العجوز التّحكّم بنفسه، وذلك بالحكم على صوته. لقد حملني الحديث معك بعيدًا، ويبدو أنّ شيئًا ما أعاق الرّجال الصّغار، فهم لم يحضروا الأكياس. وتوقّف عن الكلام متعمّدًا.

أيّة أكياس؟ ردّ أرتيوم على الحيلة.

إنّهم سوف يحضّرونك ويعدّونك. فأنا حين تكلمت عن التعذيب، لم أكن دقيقًا تمامًا. وإنّ القسوة الحمقاء تتعارض مع طبيعة الدّودة الكبرى. أمّا أنا وزملائي حين أدركنا أنّ أكل لحوم البشر ترسّخ هنا، ولم يعد بوسعنا فعل شيء ضدّه، قرّرنا أن نهتمّ بالجانب الطّبخي من المشكلة. وذكر أحدهم أنّ الكوريّين حين يأكلون الكلاب، يمسكون بها أحياء ويضعونها في أكياس ويضربونها بالعصيّ حتّى الموت، فتكون بذلك فائدة اللّحم كثيرة، ويصبح غضًّا وطريًّا. إنّ الأورام الدّمويّة لإنسان ما، هي عبارة عن شريحة لحم بعظمها لإنسان آخر. لهذا لا تحكم علينا بقسوة. أنا نفسي يسعدني أكثر أن أموت أوّلًا على أن أعاني وجع العصيّ. من المؤكّد أن يكون هناك نزيف داخلي، والوصفة وصفة، فرقع العجوز بالولّاعة لينظر إلى التّأثير الّذي أنتجه، لكنّ شيء ما يجعلهم يستمرّون في ذلك، ومن المفترض ألّا يحصل... أضاف.

قاطعه صوت صفير. وسمع أرتيوم أصوات وركض وأطفال يبكون، وذلك الصّفير المشؤوم أيضًا. لقد حدث شيء ما في المحطّة، أصغى القسّ إلى الضّجيج بقلق، ثمّ أطفأ النّار واشتدّ صمته.

وبعد عدّة دقائق بدأت أحذية ثقيلة تدوّي على العتبة، وتمتم صوت منخفض: هل يوجد أيّ شخص حيّ؟

نعم، نحن هنا، أرتيوم وأنطون، صرخ أرتيوم بأعلى صوته راجيًا ألّا يكون لدى الرّجل العجوز أنابيب بأبر مسمّمة معلّقة حول رقبته.

إنّهم هنا، غطّني والصّبيّ، صرخ شخص ما. فهناك ضوء وميض ساطع مبهر. اندفع الرّجل العجوز نحو المخرج، لكنّ رجلًا سدّ طريقه وضربه على رقبته. بدأ القسّ يصفر، وسقط.

الباب، أمسك الباب، انهار شيء ما وبدأ الجبس يسقط من السّقف، فأغمض أرتيوم عينيه، وحين فتحهما رأى رجلين يقفان في الغرفة. لم يكونا من الجنود العاديّين ولم ير أرتيوم مثلهما من قبل.

كانا يلبسان صدر مضادّة للرّصاص طويلة فوق بذلة نظاميّة سوداء مفصّلة، ويتسلّحان ببنادق قصيرة غير عاديّة، مع جهاز رؤية ليزريّ وكواتم صوت. بالإضافة إلى خوذ ضخمة من التيتانيوم مع حمايات للوجه مثل الهانسا سبتسناز، ودروع كبيرة من التّيتانيوم بها شقوق ضيّقة للعيون، أضيفت إلى المنظر المهيب. وشوهد قاذف لهب على ظهر أحدهم. فتّشوا الغرفة بسرعة، وأناروها بمصابيح قويّة طويلة لا تصدّق، شكلها كالهراوات.

هذان؟ سأل أحدهما.

هما، أكّد الآخر. تفحّصا قفل باب قفص السّعدان بشكل كاف، وتراجع الأوّل للوراء، أخذ عدّة خطوات ووثب، وضرب القفص بحذائه. فتكسّرت المفاصل الصّدئة، وسقط الباب على بعد نصف قدم من قدم أرتيوم. نزل الرّجل على إحدى ركبتيه أمام أرتيوم ورفع حماية وجهه. كلّ شيء بات الآن في مكانه: كان ميلنك ينظر إلى

أرتيوم عبر عيون محدّقة. انزلقت سكينه المسنّنة العريضة على طول الأسلاك التي ربطت رجلا أرتيوم ويداه. ثمّ قطع المطارد السّلك الّذي رُبط به أنطون.

أحياء، قال ميلنك راضيًا. هل تستطيع المشي؟

أومأ أرتيوم برأسه، لكنّه كان عاجزًا عن رفع نفسه على قدميه. ولم يكن جسده المخدّر تحت سيطرته تمامًا بعد. ركض عدّة رجال آخرون ودخلوا إلى الغرفة. وأخذ اثنان منهما أوضاعًا دفاعيّة فورًا عند الأبواب. كانوا ثمانية مقاتلين في الفريق. وكانوا مكسّوين ومزوّدين بنفس معدّات الّذين اقتحموا الغرفة وأكثرهم كانوا يلبسون عباءات طويلة كالّتي كان يلبسها هنتر. ركض الطّفل بسرعة إلى داخل القفص وانحنى فوق أنطون.

بابا، بابا، أنا كذبت عليهم لكي يظنّوا أنّني في صفّهم، وأخبرتهم أين أنت. سامحني يا بابا. بابا لا تبق صامتًا، ولم يستطع الصّبيّ أن يمنع دموعه. نظر أنطون إلى السّقف بعيون زجاجيّة. وخشي أرتيوم أن تكون الإبرتين المسبّبتين للشّلل أثّرتا كثيرًا على آمر الحرس. وضع ميلنك سبّابته على رقبة أنطون وقال: إنّه في وضع جيّد، إنّه حيّ.. اجلبوا نقّالة.

وبينما كان أرتيوم يتحدّث عن أثر الأبر السّامة، فكّ اثنان من المقاتلين نقّالة قماشيّة على الأرض، وحملا أنطون عليها. بدا الرّجل العجوز الّذي كان على الأرض، وكأنّه يتحرّك ويتمتم بشيء.

من يكون هذا؟ سأل ميلنك، وبعد أن سمع من أرتيوم الشّرح، قال: سنأخذه معنا ونستخدمه كغطاء. كيف هو الوضع؟

هدوء تامّ، قال مقاتل يحرس باب المدخل.

دعونا نعود إلى النّفق، قال المطارد.

يجب علينا أن نعود إلى القاعدة مع الجريح والرّهينة من أجل استجوابهم. هيّا نذهب. ورمى بندقيّة آليّة لأرتيوم. إن سار كلّ شيء كما هو مخطّط، لن تضطرّ إلى استخدامها. وأنت لا تملك درعًا، لهذا من الأفضل أن تبقى تحت غطاء. احرس الصّغير.

أومأ أرتيوم برأسه، وأخذ أوليج من يده، وأبعده عن النّقّالة الّتي استلقى عليها والده.

دعونا نبني (السّلحفاة) أمر ميلنك. شكّل المقاتلون شكلًا بيضويًّا في لحظة، وأبرزوا دروعهم المربوطة فوقها، ولم يرى منهم سوى الخوذ. وحمل أربعة مقاتلين النّقّالة بأيدهم الخالية. كان الصّبيّ وأرتيوم داخل التّشكيل، وقد غطّتهما الدّروع بشكل تامّ. كمّموا فم الرّجل العجوز، وربطوا يديه خلف ظهره، ووضعوه على رأس التّشكيل. وبعد لكزات قويّة كثيرة توقّف عن محاولة تحرير نفسه، وهدىء وحدّق بتجهّم في الأرض. قام المقاتلان اللّذان في المقدّمة ولديهما أدوات رؤية ليلية، بدور عيون (السّلحفاة). كانت الأدوات مثبّتة بالخوذ مباشرة، لهذا بقيت أيديهما حرّة.

انحنى أفراد الفريق بناء على أمر، وغطوا سيقانهم بالدّروع وتحرّكوا إلى الأمام برشاقة وسرعة. أمسك أرتيوم بيد أوليح بقوّة وجرّه معه، وكان مضغوطًا بين اثنين من المقاتلين، فلم ير شيئًا او يعرف ماذا يحدث إلّا من خلال نقاشات متقطّعة.

ثلاثة على اليمين... نساء وطفل.

على اليسار، في القنطرة، في القنطرة، إنّهم يطلقون. وبدأت الأبر ترنّ على معدن الدّروع.

أخرجهم، سمعت طلقات بندقيّة آليّة ردًّا على ذلك.

هناك واحد.. اثنان.. واصلوا التّحرّك، واصلوا التّحرّك.

من الخلف، بال وموف،

بعض الطّلقات الأخرى.

أين، أين؟ لا تذهب إلى هناك.

إلى الأمام، قلت، أمسك بالرّهينة.

اللّعنة، لقد طار أمام عيوني..

قف، قف، قف.

ماذا هناك؟

إنّه مسدود تمامًا، يوجد هناك حوالي أربعين شخصًا، متاريس.

هل المكان بعيد؟

عشرون مترًا. هم لا يطلقون.

إنّهم يقتربون من الأطراف.

متى نجحوا في بناء متاريس؟

سقطت زخّة من الأبر على الدّروع. وعند الإشارة، نزلوا كلّهم على ركبهم، لهذا باتت الدّروع تغطّيهم تمامًا الآن. انحنى أرتيوم مغطّيًا الصّبيّ. ووضعوا النّقّالة مع أرتيوم على الأرض. وتكاثف هطول الأبر.

لا تردّوا، لا تردّوا، سننتظر...

لقد أصابت حذائي.

جهزّوا الضّوء عند العدد ثلاث، أضواء المصابيح وإطلاق النّار. كلّ من لديه أجهزة رؤية ليليّة، اختاروا أهدافكم الآن.. واحد...

كيف يطلقون هم؟

اثنان، ثلاثة، أضئيت مصابيح كشافة قويّة في وقت واحد، وفتحت البنادق الآليّة. وسمع أرتيوم في مكان ما في المقدّمة، صراخ وأنين المحتضرين. ثمّ توقّف إطلاق النّار بشكل غير متوقّع. وأصغى أرتيوم.

هناك، هناك، مع الرّاية البيضاء، هل هم يستسلمون أم ماذا؟

أوقفوا إطلاق النّار، سوف نتحدّث. ضعوا الرّهينة في المقدّمة.

توقّف أيّها النّغل، أمسكت به لقد أمسكته.. عجوز ذكيّ.

لدينا قسّكم، اتركونا نغادر، صاح ميلنك. دعونا نعود إلى النّفق، أكرّر: دعونا نرحل.

حسنًا ماذا يوجد هناك؟

ردّ الفعل صفر. إنّهم صامتون.

ربّما لم يفهموا علينا؟

إذًا سلّط الضّوء عليه بشكل أفضل من أجلي.

انظر. ثمّ توقّفت المفاوضات فجأة. كان الأمر كما لو أنّ المقاتلين انهمكوا في التّفكير بدءًا من الّذين في المقدّمة، ثم هدأ بعدهم الّذين كانوا يغطّون المؤخّرة. كان الصّمت متوتّرًا وليس جيّدًا.

ماذا هناك؟ سأل أرتيوم بقلق، ولم يجبه أحد. توقّف النّاس عن التّحرّك. وشعر أرتيوم أن يده الّتي كانت تمسك بالصّبيّ بدأت تتعرّق. لقد هزّته.

أنا أشعر... إنّه ينظر إلينا، قال بهدوء.

قال ميلنك فجأة: أطلقوا سراح الرّهينة.

أطلقوا الرّهينة، كرّر مقاتل آخر. ثم لم يعد أرتيوم يسمع أيّ شيء، فاعتدل ونظر من فوق الدّروع والخوذ. في الأمام وعلى بعد عشر خطوات منهم، في تقاطع ثلاثة أضواء قوية تعمي البصر، وقف رجل ضخم وطويل أحدب، لم ترمش عيناه ولم يحمهما من الضّوء، مع راية بيضاء في يده الطّويلة ذات العقد. رأى أرتيوم وجهه بوضوح. وهو يشبه فارتان الّذي استجوبه منذ عدّة ساعات. راوغ أرتيوم خلف الدّروع، وحرّر مسمار أمان بندقيّته الآليّة ولقّمها بطلقة واحدة. ظلّ المنظر الّذي رآه للتوّ ماثلًا أمامه، كان منظرًا غريبًا ومخيفًا وفاتنًا بنفس الوقت، وذكّره للحظة بكتاب قديم عن حكايات وأساطير الإغريق القدماء، أحبّ النّظر إليه حين كان طفلًا. تتحدّث إحدى الأساطير عن مخلوق بشع، شكله نصف بشريّ، حوّلت نظراته الكثير من المحاربين الشّجعان إلى حجارة. فجذب أرتيوم أنفاسه، وجمع كلّ قوّة إرادته بعد إن منع نفسه من النّظر بوجه المنوّم المغناطيسيّ.

وقفز فوق الدّروع مثل جنيّ صغير على أرجوحة، وشدّ الزّناد. وبعد المعركة الصّامتة الغريبة بين البنادق الآليّة المزوّدة بكواتم الصّوت، وبين أنابيب النّفخ، بدأ

إطلاق نار الكلاشنكوف يرجّ قبب المحطة. ورغم أنّ أرتيوم كان مقتنعًا انه من المستحيل أن يخطىء التّصويب من هكذا مسافة، إلّا أنّ ما خاف منه قد حدث، لقد خمّن المخلوق نواياه، وبمجرّد أن ظهر رأس أرتيوم فوق الدّروع، وقعت عينه بشرك تلك النّظرات المميتة. نجح في الضّغط على الزّناد، لكنّ يدًا غير مرئيّة دفعت بسرعة ورشاقة سبطانة البندقيّة جانبًا. كلّ رشقة الرّصاص أخطأت الهدف تقريبًا، ماعدا واحدة مدوّرة أصابت المخلوق في الكتف. أصدر صوتًا حلقيًّا يثقب الآذان، ثمّ بحركة مراوغة واحدة اختفى في الظّلام. فكّر أرتيوم فوجد أنّ لديهم عدّة ثوان، فقط عدّة ثوان. حين اخترق فريق ميلنك بارك بوبدي، كان عنصر المفاجئة إلى جانبه. لكن الآن وبعد أن نظّم المتوحّشون دفاعاتهم، لم تبق هناك أيّ فرصة للتّغلّب على الحاجز الّذي بنوه. إنّ الرّكض في الطّريق الآخر بات المخرج الوحيد الآن. وومضت في رأس أرتيوم كلمات سجّانه (أنفاق ليست على خريطة المترو تغادر المحطّة).

هل هناك أنفاق اخرى هنا؟ سأل أوليج.

هناك محطّة أخرى وراء المعبر، مثل هذه تمامًا كأنّها صورتها في المرآة، لوّح الصّبيّ بيده: نحن لعبنا هناك، هناك أنفاق كما هنا، لكنّهم منعونا من الذّهاب إليها.

سنتراجع، نحو المعبر، رفع أرتيوم صوته وحاول أن يخفض صوته ويقلّد صوت ميلنك الآمر الجهير.

أيّ شيطان؟ زمجر المطارد باستياء. ويبدو أنّه عاد إلى وعيه.

أمسكه أرتيوم من كتفه: بسرعة، لديهم منوّم مغناطيسيّ هناك، بدأ يبرّبر، لا نستطيع اختراق هذا الحاجز، ويوجد مخرج آخر هناك وراء المعبر.

صحيح، هذه المحطّة مزدوجة، لنذهب، قبل المطارد القرار. أمسكوا المتراس، تراجعوا، ببطء، ببطء.

بدأ الآخرون يتحرّكون ببطء وكأنّهم معارضين. واستطاع أرتيوم أن يجبر الفريق ويعيد تشكيل نفسه ويتراجع قبل أن تُرمى عليهم إبر جديدة من الظّلام، بعد أن حفّزهم بأوامر جديدة. وحين وقفوا على درجات الممرّ أطلق المقاتل الّذي يرافق المؤخّرة صرخة وأمسك بقصبة ساقه، لكنّه استمرّ في التّسلّق بساقيه المتخشّبتين لعدّة ثوان، ثمّ أسقطه كلّاب هائل وفتله كأنه غسيل معصور، وانهار على الأرض. توقّف الفريق، وتحت غطاء الدّروع اندفع مقاتلان اثنان لرفع رفيقهما عن الأرض، لكنّ الأمر قد انتهى. لقد ازرقّ جسده أمام عيونهما، وظهر زبد على لثّته. عرف أرتيوم معنى هذا وكذلك ميلنك.

خذوا درعه وخوذته وبندقيّته الآليّة، بسرعة، أمر أرتيوم. هيّا نذهب، لنذهب، صرخ بالبقيّة.

كانت الخوذة المصنوعة من التّيتانيوم ملطّخة بزبد بشع، وكان عليه أن يأخذها من رأس الرّجل الميّت. عجز أرتيوم على أن يجبر نفسه ويفعل ذلك. واكتفى بالبندقيّة الآليّة والدّرع، وأخذ مكانه في مؤخّرة التّشكيل، وغطّى نفسه بالدّرع وتحرّك وراء

الآخرين. الآن هم يركضون تقريبًا. وبعد ذلك ألقى شخص ما قنبلة دخانيّة بعيدًا أمامهم، فاستغلّ الفريق الفوضى وبدأ بالنّزول إلى المسارات. صرخ مقاتل آخر بصوت عال وبشكل مفاجئ وسقط على الأرض. فلم يبق إلّا ثلاثة لحمل النّقالة وأنطون الجريح. تردّد أرتيوم في أن يظهر من خلف الدّرع ويطلق النّار عدّة مرّات دون أن ينظر. وازداد الهدوء الغريب فلم تعد الإبر تُطلق وتتساقط عليهم، رغم أنّ المطاردة لم تنته. وذلك واضح من خلال حفيف الخطى والأصوات من حولهم. كان الفريق على بعد عشرة أمتار من مدخل النّفق، فتقدّم المقاتلون الأوائل إلى الدّاخل، واستدار اثنان من المقاتلين وفتّشا الأماكن القريبة بمصابيحهم، وغطّيا البقيّة. ولكن لم تكن هناك حاجة لهذا. إذ لم ينو المتوحّشون كما يبدو ملاحقتهم في الأنفاق، بل تجمّعوا على شكل نصف دائرة وأخفضوا أنابيبهم، وظلّلوا أعينهم بأيديهم من ضوء المصابيح القويّة وانتظروا شيئًا ما في صمت.

أعداء الدّودة الكبرى، اسمعوا، قال القائد الملتحي الّذي ظهر من التّجمّع. الأعداء ذاهبون إلى الممرّات المقدّسة عند الدّودة الكبرى. والنّاس الأخيار لن يلحقوا بهم، فالذّهاب إلى هناك اليوم، محرّم وخطر عظيم.. موت ولعنة. لذلك دع الأعداء يعيدون القسّ ويرحلوا.

لا تدعوه يذهب، لا تُصغوا إليهم، أمر ميلنك ببطء، لنذهب.

واصلوا التّحرّك بحذر، وكان أرتيوم وبعض المقاتلين الآخرين يتحرّكون إلى الخلف دون أن يحوّلوا نظرهم عن المحطّة الّتي تركوها خلفهم. في البداية لم يلحقوا بهم فعليًّا. وسمع صوت من المحطّة لأحد ما، كان يجادل في البداية بصوت عال، ثمّ بدأ بالصّراخ:

درون لا يستطيع، يجب على درون أن يذهب، من أجل المعلّم.

الذّهاب محرّم. قف، قف، واندفع شكل أسود من الظّلام إلى أشعّة المصابيح بسرعة كبيرة، بحيث يصعب ضربه وإصابته. وظهر خلفه آخرون من بعيد على الفور أيضًا. وقذف أحد المقاتلين بشيء إلى الأمام حين عجز عن استهداف الهمجيّ الأوّل.

انبطحوا، قنبلة يدويّة. قذف أرتيوم بنفسه على الوصلات ووجهه للأسفل، وغطّى رأسه بيديه، وفتح فمه كما علّمه زوج أمّه. الصّوت الّذي لا يصدّق والقوّة الصّامّة للآذان من موجة الصّدمة، ضربت أذنيه وضغطته على الأرض. تمدّد هناك لبضع دقائق وهو يفتح عينيه ويغلقهما محاولًا استعادة وعيه.

لا، لا، لاتطلقوا النّار، لا تطلقوا النّار،لا تطلقوا النّار، درون لا يحمل سلاحًا، لا تطلقوا. أدار رأسه ونظر حوله. وفي تقاطع الأضواء وقف المتوحّش الّذي كان يحرسهما حين كانا سجينين في قفص القرد، وقف رافعًا يديه للأعلى واثنان من المقاتلين يراقبانه في انتظار الأوامر. ونهض البقيّة عن الأرض وهزّوا أنفسهم. علق غبار كثيف من الصّخر في الهواء، وأتى زحف قويّ من جانب المحطّة.

ماذا؟ هل انهارت؟ سأل أحد ما.

من قنبلة يدويّة واحدة... المترو كله دخّان متماسك بشعرة.

حسنًا، لن يحاولوا الدّخول إلى هنا مرّة أخرى حتّى يتخلّصوا من الانسداد.

فذلك يجب أن يقيّدهم. لنذهب، فليس لدينا الوقت، ونحن لا نعرف متى سيعودون إلى وعيهم، أمر ميلنك وهو يقترب.

لم يتوقّفوا إلّا بعد نصف ساعة من ذلك. وخلال هذا الوقت انقسم النّفق إلى اتّجاهين. والمطارد الّذي كان يمشي في المقدّمة، اختار الطّريق الّذي أراده. شوهدت حلقات حديديّة ضخمة في أحد الأماكن، وكانت على الأرجح أغطية أبواب أو نوافذ قويّة تتدلّى، وبجانبها تبعثرت بقايا بوّابة مقاومة للضّغط. ما عدا ذلك لم يكن هناك شيء مهمّ، النفق فارغ تمامًا، ومظلم جدًّا، لا حياة فيه.

مشوا ببطء. وتعثّر الرّجل العجوز في كلّ خطوة، وسقط على الأرض عدّة مرّات. ومشى درون مكرهًا وتمتم لنفسه عن التّحريم واللّعن إلى أن أغلقوا فمه. وحين سمح لهم المطارد أخيرًا بالتّوقّف بعد أن نشر حرّاسا مع أجهزة رؤية ليليّة لمسافة خمسين مترًا على الجهتين، انهار القسّ المنهك على الأرض. واستمرّ الهمجيّ الّذي تعذّر عليه الكلام بسبب السدّة الّتي في فمه، في التّوسّل إلى أن جلبه المرافق قريبًا من الرّجل العجوز، وسقط على ركبتيه أمامه وطبطب على رأس الرّجل العجوز بيديه المقيّدتين. اندفع الصّغير أوليج إلى النّقّالة الّتي تمدّد عليها والده، وبدأ بالبكاء. لقد مرّ شلل أنطون، لكنّه ظلّ فاقدًا وعيه كما كان حين ضربته الإبرة الأولى. أومأ المطارد لأرتيوم بأن يأتي إلى جانبه. ولم يعد أرتيوم قادرًا أن يحتوي فضوله.

كيف وجدتمونا؟ كنتُ متأكّدا من أنّهم سيأكلوننا، اعترف لميلنك.

هل تظنّ أنّ الأمر صعب؟ أنت تركت عربة اليد تحت الباب مباشرة. فلاحظها الحرّاس حين لم يظهر أنطون من أجل الشّاي. ولم يحاولوا إقحام أنفسهم في الدّاخل. وضعوا حارسًا ونقلوا الخبر إلى الرّئيس. وأنت لم تنتظرني حتّى لفترة قصيرة. بعدئذ غادرت إلى سمولينسكايا مرّة أخرى، إلى القاعدة من أجل المصادقة والشّرعيّة، وتجمّعنا عند الإنذار بالخطر، لكنّنا احتجنا إلى الوقت. وبينما كنّا نجمع المعدّات، بدأت أتذكّر الأشياء الضروريّة والمهمّة في مایاکوفسكايا. فهي محطّة مشابهة، يوجد فيها نفق جانبيّ منهار، هناك حيث افترقنا أنا وتريتياك. كنّا نبحث عن مدخل دي 6 على الخارطة. وكنّا نبعد عن بعض خمسين مترًا تقريبًا، وقد اقترب أكثر منه على الأرجح. لم أقطع أكثر من ثلاث دقائق فقط، وصحت له، لكنّه لم يرد، فركضت إليه. وجدته ممدًّدا هناك وقد ازرقّ كلّ جسده وانتفخ، وتشقّقت شفتاه بهذه القذارة. أمسكته من ساقيه وجررته إلى المحطّة.

وبينما كنت أجرّه تذكّرت سيميونوفتش وقصّته عن الحارس الّذي تسمّم. سلّطت ضوئي على تريتياك فوجدت إبرة في ساقه. بعدئذ بدأ كلّ شيء في يستقرّ في مكانه. أرسلت رسولًا إليك بأسرع ما يمكن لكي تبقى في المحطّة وأرتّب أنا أمورك وأعود إليك. لكنّي لم أنجح.

هل هم فعلا في مايكوفسكايا أيضًا؟ كان أرتيوم مندهشا. لكن كيف وصلوا إلى هناك من بارك بوبدي؟

هكذا وصلوا إلى هناك. أزاح المطارد خوذته الثّقيلة ووضعها على الأرض. أنت ستسامحني طبعًا، لكنّنا لم نأت من أجلك فقط، وإنّما من أجل تبادل المعلومات أيضًا. وأنا أعتقد بوجود مخرج آخر إلى المترو 2. ومن هنا تسلّل آكلو لحوم البشر (خاصّتك) هؤلاء إلى ماياكوفسكايا. وبالمناسبة هناك نفس القصّة الموجودة هنا، حيث يختفي الأطفال من المحطّة في اللّيل، ولا يعرف سوى الشّيطان المكان الّذي يذهبون إليه، ونحن لم نر جلدًا أو شعرًا لهم.

هذا ما تريد أن تقوله... وبدت الفكرة لأرتيوم غير قابلة للتّصديق، لهذا لم يجرؤ أن ينطق بها بشكل مسموع. في رأيك، هل المخرج إلى المترو 2 في مكان قريب من هنا؟ تحرّكت الإشاعات والقصص والأساطير والنّظريّات عن المترو 2، والّتي سمعها خلال حياته كالدّوّامة في رأس أرتيوم.

دعني أخبرك بشيء آخر، غمزه المطارد: أعتقد أنّنا فيه مسبقًا. وكان من المستحيل إثبات ذلك.

طلب أرتيوم مصباحًا من أحد المقاتلين، وبدأ يدرس جدران النّفق. ورأى نظرات الدّهشة من قبل الآخرين وهو يعرف أنّه بدا أحمقًا فعلًا، لكنّه لم يستطع منع نفسه. وعندئذ أدرك جزئيًّا ما توقّع أن يراه حين يصل إلى المترو2. الدّرابزونات الذّهبيّة؟ أناس يعيشون كما عاشوا سابقًا، لا يعرفون وجود الرّعب الرّاهن، وفي وفرة خرافيّة؟ آلهة؟ انتقل من حارس لآخر ولم يجد شيئًا، ثمّ استدار نحو ميلنك الّذي كان يتكلّم مع المقاتل الّذي يحرس الهمجيّين الاثنين.

ماذا عن الرّهينتين؟ أنقضي عليهما؟ سأل المرافق عرضيًا.

سنجري معهما أوّلًا حديثًا قصيرًا، أجاب المطارد. انحنى للأسفل وأخرج السّدّادة من فم الرّجل العجوز. ثمّ كرّر نفس العمل مع السّجين الثّاني.

معلّمي، معلّمي، درون قادم معك. أنا آت معك يا معلّم.. بدأ الهمجيّ بالنّواح فورًا وهو يتمايل من طرف لآخر فوق القسّ الّذي يأنّ. درون انتهك حظر الممرّات المقدّسة، درون مستعدّ للموت على يد أعداء الدّودة الكبرى، لكنّ درون آت معك إلى النّهاية.

ماذا يوجد هناك أيضًا؟ ما هذه الدّودة الكبرى؟ وماذا عن الممرّات المقدّسة؟ سأل ميلنك.

ظلّ الرّجل العجوز صامتًا.

أسرع درون في القول بعد أن نظر إلى المرافقين في خوف: الممرّات المقدّسة للدّودة الكبرى محرّمة عن النّاس الأخيار. وربّما تظهر الدّودة الكبرى هناك. الإنسان يستطيع أن يرى. والنّظر إليها محرّم، يستطيع الكهنة فقط. درون خائف لكنّه جاء، درون جاء مع المعلّم.

أيّ دودة؟ عقص المطارد أنفه.

الدأودة الكبرى (خالقة الحياة) شرح درون. الممرّات السّرّيّة أبعد، ولا يستطيع الشّخص أن يذهب فيها يوميًّا. فهناك أيّام محرّمة. واليوم يوم محرّم. فإن رأيت الدّودة الكبرى، ستحوّلك إلى رماد، وإن سمعتها سوف تُلعَن وتموت بسرعة. كلّ واحد يعرف ذلك. كبار السّن قالوا هذا الكلام.

ماذا؟ هل كلّ المغفّلين هناك مثل هذا الّذي هنا؟ نظر المطارد إلى أرتيوم.

كلّا، هز رأسه، تحدّث إلى القسّ.

نيافتكم، خاطب ميلنك القسّ ساخرًا، أنت ستعذرني، فأنا مجرّد جنديّ قديم، فكيف سأعبر لك؟ فأنا لا أعرف لغة الغطرسة. ولكن يوجد مكان واحد في حيازتكم ونحن نبحث عنه. ويفترض أنّه سهل المنال، أشياء مخبّأة هناك، أسهم مشتعلة؟ عناقيد غضب؟ حدّق بوجه الرّجل العجوز أملا أن يردّ على واحدة من استعارته المجازيّة، لكنّ القسّ بقي ساكتًا بعناد، ويحدّق به بغضب من تحت حاجبيه.

الدّموع الحرّة للآلهة؟ استمرّ المطارد قائلًا أمام دهشة أرتيوم والآخرين محاولًا أن يحصل على إجابات. صواعق برق زوس؟ فقاطعه العجوز أخيرًا، وقال بازدراء: توقّف عن لعب دور الأحمق. فلا يوجد شيء خارق وأبعد من الخبرة البشريّة لتدوس عليه بحذائك العسكريّ القذر.

صواريخ، أصبح ميلنك مثل رجل الأعمال فورًا. وحدة الصّواريخ الّتي كانت خارج موسكو، ومخرج من النّفق إلى مياكافوسكايا. يجب أن تتذكّر عمّا أحدّثك به. يجب علينا أن نصل إلى هناك فورًا، ومن الأفضل لك أن تتعاون.

صواريخ... كرّر الرّجل العجوز ببطء كما لو أنّه يختبر طعم الكلمة.

صواريخ... أنت في الخمسين من عمرك ربّما، أليس صحيحًا؟ ما زلت تتذكّر. سمّوها في الغرب باسم اس اس-18 (الشّيطان). إنّه التّبصّر الوحيد للحضارة البشريّة العمياء منذ الولادة.

هل أنتم عظماء جدًّا حقًّا؟ لقد دمّرتم العالم كلّه. هل أنتم فعلًا عظماء جدًّا؟

اسمع نيافتكم، ليس لدينا الوقت لهذا، قاطعه ميلنك. أعطيك خمس دقائق. وفرقعت أصابعه حين مدّ يده.

جفل الرّجل العجوز. ولم يكن للباس القتال الّذي يرتديه المطارد، أو مقاتليه، أو تهديده المبطّن بشكل سيّء في صوت ميلنك، أيّ أثر على الرّجل العجوز.

وماذا، ماذا تستطيع أن تفعله بي؟ ابتسم. تعذّبني؟ تقتلني؟ هيّا تقدّم. فأنا عجوز مسبقًا، وفي ديننا ليس هناك عددًا كافيًا من الشّهداء. لهذا اقتلني كما قتلتم مئات الملايين من النّاس، كما قتلتم العالم كلّه، عالمنا كلّه. هيّا افعل، اضغط زناد آلتك اللّعينة كما ضغطتم أزندة وأزرار عشرات آلاف الأدوات المميتة المختلفة، وتحوّل صوت الرّجل العجوز الّذي كان ضعيفًا ومحشرجًا في البداية، إلى صوت فولاذيّ

بسرعة. ورغم شعره الرّماديّ الملبّد، ويداه المربوطتان وقامته القصيرة، لم يعد يبدو مثيرًا للشّفقة وحزينًا. حيث انبثقت منه قوّة غريبة، وكلّ كلمة جديدة منه، كانت مقنعة ومتوعّدة أكثر من سابقتها. لست مضطرًّا أن تخنقني بيديك، لست مضطرًّا أن ترى ألمي المبرّح. أنت وكل آلاتكم ستلعنون، أنتم انتقصتم قدر الحياة والموت... هل تعتبرني مجنونًا؟ لكنّ المجانين الحقيقيّين هم أنتم وآباؤكم وأولادكم. أليست محاولتكم لإخضاع الأرض كلّها لأنفسكم، ولجم الطّبيعة وجعلها تتشنّج وتتكمش عبارة عن جنون خطير؟ أين كنتم حين دُمِّر العالم؟ هل رأيتم كيف كان؟ هل رأيتم ما رأيته أنا؟ في البداية انصهرت السّماء ثمّ ابتلعتها الغيوم الميّتة. الأنهار والبحار الّتي كانت تغلي، نفثت على الشّواطىء مخلوقات سُلِقت حيّة، ثمّ تحوّلت إلى كستر مجمّد. واختفت الشّمس من السّماء، ولن تظهر ثانية إلّا بعد سنين. وتحوّلت البيوت إلى تراب في جزء من الثّانية، وتحوّل النّاس الّذين يعيشون فيها إلى رماد. هل سمعتم صرخاتهم الّتي طلبت المساعدة، وبهؤلاء الّذين ماتوا من الأوبئة وتشوّهوا بالإشعاع؟ هل سمعتم سبابهم؟ انظر إليه، وأشار إلى درون. انظر إلى كلّ هؤلاء الّذين لا أذرع لهم ولا عيون وبستّة أصابع، حتّى هؤلاء الّذين أحرزوا قدرات جديدة.

سقط المتوحّش على ركبتيه، واستولى على كلّ كلمة من قسّه برهبة. وشعر أرتيوم بشيء مماثل. حتّى الجنود الآخرون تراجعوا خطوة للوراء بتردّد، ولم يستمر سوى ميلنك مثبّتًا عينيه، وينظر في عيون الرّجل العجوز.

هل رأيت موت هذا العالم؟ لم تعرف الأرض شرًّا أعظم من حضارتكم الآليّة الملعونة. حضارتكم ورم سرطانيّ، إنّها أميبا ضخمة تمتصّ كلّ شيء مفيد ومغذ بنهم، وتطرح الفضلات السّامّة النّتنة. والآن تحتاجون إلى صواريخ مرّة أخرى، تحتاجون إلى أشدّ الأسلحة رعبًا، الأسلحة الّتي أبدعتها حضارة مجرمين، لماذا؟ لكي تكملوا ما بدأتموه؟ أيّها القتلة، أنا أكرههم، أكرهكم كلّكم، صاح في غضب شديد ثمّ أصابته نوبة سعال وسكت. لم ينبس أحد بكلمة واحدة حتّى توقّف عن السّعال وتابع: لكنّ وقتكم وصل إلى نهايته... وحتّى إن لم أعش إلى ذلك الحين، سيأتي آخرون ويحلّوا مكانكم. سيأتي هؤلاء الّذين يدركون ويفهمون شرّ التّكنولوجيا المميت، هؤلاء الّذين يستطيعون أن يديروا الأمور بدونها. ثمّ إنّ أعدادكم تتناقص وأنت لن تبقى هنا وقتًا أطول. ومن المحزن أنّني لن أرى كربك، لكنّنا نربّي أبناءً سيفعلون ذلك. سيندم الإنسان لأنّه دمّر كلّ شيء ذا قيمة له، بسبب غطرسته. وبعد قرون من الخداع والأوهام، سيتعلّم أخيرًا أن يميّز بين الشّرّ والخير، وبين الحقيقة والكذبة. نحن نثقّف هؤلاء الّذين سوف يسكنون الأرض من بعدكم، ولهذا كربكم لن يطول، فقريبًا جدًّا سندفع خنجر الرّحمة في قلوبكم، في القلب المترهّل لحضارتكم المتعفّنة... وذلك اليوم قريب.

وبصق على قدمي ميلنك.

لم يردّ المطارد عليه فورًا، وألقى نظرة سريعة على الرّجل العجوز الّذي كان يرتعش من شدّة غضبه. بعدئذٍ سأل باهتمام بعد أن ضمّ ذراعيه على صدره: وماذا

أيضًا؟ أنت تخيّلت دودة وألفت حكاية فقط لتحرّض في جماعتك من آكلي لحوم البشر كره التّكنولوجيا والتّقدّم، أليس كذلك؟

اخرس، ماذا تعرف عن كرهي لتكنولوجيّتكم الشّيطانيّة الملعونة؟ ماذا تفهم عن النّاس وآمالهم وأهدافهم وحاجاتهم؟ إن كانت الآلهة القديمة سمحت للنّاس أن يذهبوا إلى الجحيم، ويقتلوا أنفسهم مع عالمهم، فإنّه من العبث إحياءهم. في كلماتك أسمع الغطرسة القذرة والاحتقار اللّذان أوصلا البشريّة إلى شفير الكارثة. لهذا لو لم تكن هناك دودة كبرى لكنّا ابتدعناها، وسوف تقتنع قريبًا جدًّا بأنّ هذه الرّبّة المختلقة التّحت أرضيّة، أقوى وأعظم من كائناتكم السّماويّة، ومن تلك الأصنام الّتي تشقلبت وسقطت من عروشها وتكسّرت إربا. أنتم تسخرون من الدّودة الكبرى، تابع وضحك. لكن لن تكون الضّحكة الأخيرة لكم.

ذلك يكفي، الكعام (سدّادة الفم) أمر المطارد. لا تلمسوه الآن، ربّما يكون مفيدًا لنا مرّة أخرى.

حشو السدّادة في فم الرّجل العجوز المقاوم حين صاح بشيء فاحش.

ووقف الهمجيّ بهدوء، وتدلت كتفاه ببؤس. لكنّه لم يشح عينيه الباهتتين عن القسّ.

معلّمي، ماذا يعني لا وجود للدّودة الكبرى؟ نطق بوقار أخيرًا. ولم ينظر الرّجل العجوز إليه حتّى. ماذا يعني؟ أنّ المعلّم ابتدع الدّودة الكبرى؟ تكلّم درون بشكل بليد وهو يهزّ رأسه من جانب لآخر.

لم يجب القس. وبدا لأرتيوم أن الرّجل العجوز استنفذ كلّ طاقته الحيويّة وإرادته في خطابه، وهو منهك الآن.

يا معلّم، يا معلّم، توجد دودة كبرى... هل تضلّلهم؟ لماذا؟ أنت لا تقول الحقيقة، لتشوّش الأعداء؟ هي موجودة.. موجودة، بدأ درون يصرخ بشكل غير متوقع. وسُمِع يأس كبير في عويله وبكائه، لذلك أراد أرتيوم أن يقترب منه ويواسيه. ويبدو أن العجوز قد ودّع الحياة ولم يعد يهتمّ بتلميذه، إذ شغلته الآن قضايا أخرى.

هي موجودة، هي موجودة، هي موجودة، ونحن أولادها، نحن كلّنا أولادها. هي كانت موجودة دائمًا وستظلّ كذلك، هي موجودة. وإن لم تكن هناك دودة كبرى فهذا يعني أنّنا وحيدون تمامًا.

شيء مرعب حدث للمتوحّش الّذي تُرِك متكولًا. دخل درون في غشيّة وهزّ رأسه راجيًا أن ينسى ما سمعه، وهو ينفث بنفس الكلام والدّموع تتساقط من عينيه، واللّعاب يسيل من فمه. ولم يحاول أن يجفّف نفسه حتّى، وكان ينتف جمجمته الحليقة بيديه. حرّر الجنود قيوده فسقط على الأرض وغطّى أذنيه بيديه وضرب رأسه. بدأ يتدحرج بشكل متهوّر ومنفلت، وملأت صرخاته النّفق كلّه. وحاول المقاتلون تهدئته، لكن حتّى الرّكلات واللّطمات لم توقف الولولة الّتي تفجّرت من صدره.

نظر ميلنك باستهجان إلى آكل لحم البشر، ثمّ فكّ أزرار قراب المسدّس المعلّق بوركه، وسحب الستيتشكن وأزال عنه كاتم الصّوت، وسدّد على درون وشدّ الزّناد.

فصدرت خبطة هادئة عن الكاتم وترنّح الهمجيّ مباشرة. توقف الصّراخ غير المفهوم الّذي كان يحدثه فجأة، لكنّ الصّدى كرّر آخر الأصوات لثوان أخرى كما لو أنّه يمدّ حياة درون للحظة: يييييييييددددددد.... عندها فقط خطر لأرتيوم أن ما صرخ به الهمجيّ قبل موته كانت كلمة (وحيدًا)

أعاد المطارد مسدّسه إلى القراب. ولم يقدر أرتيوم أن يرفع عينيه نحوه. وبدلًا من ذلك نظر إلى درون الّذي أسكت والقسّ الجالس غير بعيد عنه. لم يبد أيّ ردّة فعل نحو موت تلميذه. حين سمع قعقعة المسدّس انتفض العجوز بالكاد، ثمّ نظر إلى جسد الهمجيّ، وعاد والتفت بعيدًا بلامبالاة.

لنواصل سيرنا، أمر ميلنك. فمع هذا الضّجيج، سيأتي نصف المترو راكضين إلى هنا.

شكّل الفريق نفسه مباشرة. وضعوا أرتيوم في المؤخّرة مزوَّدا بمصباح قويّ وصدرة ضدّ الرّصاص لأحد المقاتلين الّذين كانوا يحملون أنطون. وبعد دقيقة، تحرّكوا عميقًا داخل النّفق. ولم يكن أرتيوم مناسبًا ليكون الرّجل الأخير، فقد حرّك ساقيه بصعوبة وتعثّر على العوارض، ونظر بعجز إلى المقاتل الّذي يمشي في المقدّمة.

رنّ زعيق درون المحتضر في أذنيه، وكذلك يأسه وخيبة أمله وعناده في رفضه التّصديق بأنّ الإنسان يترك وحيدًا تمامًا في عالمه الكئيب والمرعب. وانتقل ذلك منه إلى أرتيوم. والغريب أنّه بمجرّد سماع زعيق الهمجيّ وحنينه التامّ الميؤوس منه لكائن إلهيّ مُبتَدَع سخيف، بدأ يفهم الشّعور الكونيّ للعزلة الّذي غذّى إيمان البشريّة.

إن كان المطارد على صواب فإنّهم كانوا يهبطون إلى أحشاء المترو-2 منذ أكثر من ساعة. وسوف يتبيّن لهم أنّ البناء الغامض مجرّد تصميم هندسيّ هجره مالكوه منذ زمن بعيد، ويحتلّه الآن آكلو لحوم البشر شبه العقلاء، وكهنتهم المتعصّبين.

بدأ المقاتلون يتهامسون. ودخل الفريق محطّة فارغة ذات تصميم غريب جدًّا، رصيف قصير وسقف منخفض وأعمدة سميكة بشكل هائل من الإسمنت المسلّح، وجدران قرميديّة بدلًا من المرمر المعتاد. وتشير إلى أنّ المهمّة الوحيدة للمحطّة هي توفير الحماية بأقصى قدر من الفعاليّة للّذين استخدموها، بعيدا عمّا إذا كانت مريحة للعين أم لا. وشكّلت الأحرف البرونزيّة الباهتة الّتي على الجدار بفعل الزّمن كلمة غير مفهومة (سوفمن) وظهر في مكان آخر (دوم برافيتلستفا ر.ف) فعرف أرتيوم أنّه لا توجد محطّات بهذه الأسماء في المترو المعتاد.

لم ينو ميلنك أن يتوقّف هنا كما يبدو. ونظر حوله بسرعة، ثمّ تكلّم بلطف إلى مقاتليه عن شيء ما، وتابع الفريق تحرّكه. غمر أرتيوم شعور غريب لم يقدر أن يعبّر عنه بالكلام. فقد تحوّل مراقبون خفيّون من قوى غير مفهومة مهدّدة حكيمة، إلى تماثيل قديمة خياليّة تشرح أساطير قديمة تتقوّض من الرّطوبة وهواء الأنفاق. وبنفس الوقت ضاعت المعتقدات الأخرى الّتي صادفها أثناء رحلته في سفاسف وعيه. لقد

فتِح أمامه واحد من أكبر أسرار المترو، وكان يسير عبر الدي-6 الذي سمّاه أحد رفاقه أسطورة المترو الذّهبيّة. ولكن بدلًا من أن تغمره موجة من السّعادة، كان أرتيوم يشعر بمرارة غير مفهومة. وبدأ يدرك أنّ بعض الأسرار يجب أن تبقى اسرارًا، لأنّها بلا إجابات. وأنّ هناك أسئلة من الأفضل للإنسان ألّا يعرف أجوبتها.

شعر أرتيوم بأنفاس النّفق الباردة على خدّه، والّتي تلت قافلة دموعه المتساقطة. وهزّ رأسه كما فعل درون قبل برهة. وبدأ يرتعش من التّيّار الرّطب الّذي كان يحمل رائحة الرّطوبة والخراب، بالإضافة إلى شعوره بالعزلة والخلاء. كانت مهمّة ومحاولات الإنسان في البقاء حيًّا في عالم متغيّر، لا قيمة لها. ولم يكن هناك شيء، مجرّد نفق مظلم فارغ فقط، يُفترض به أن يشقّ طريقه عبره بتثاقل من (محطّة الولادة) إلى (محطّة الموت).

يحاول الّذين يبحثون عن الإيمان إن يجدوا فروعًا جانبيّة في هذا الخط، لكن ليس هناك سوى محطّتين ونفق واحد يصل بينهما.

وحين جمع أرتيوم أفكاره تبيّن أنّه سقط على بعد عشرات الخطى خلف الآخرين. ولم يفهم مباشرة ما الّذي أجبره أن يستردّ وعيه. بعد ذلك نظر إلى الجدران وأصغى عن قرب وأدرك أنّه على أحد الجدران تدلّى باب لم يغلق جيًّدا، ووصله عبره صوت عال غريب متزايد. وكان نوعًا من تمتمة باهتة أو دمدمة ساخطة، ربّما لم تكن مسموعة حين تجاوز الآخرون الباب، لكن الآن أصبح من الصّعب ألّا يلاحظ هذا الضّجيج.

لقد ابتعد الآخرون عنه بمقدار مئة متر. وبعد أن تغلّب على الرّغبة في الاندفاع خلفهم واللّحاق بهم، حبس أرتيوم أنفاسه واقترب من الباب ودفعه. كشف دهليز طويل وعريض عن نفسه، ينتهي في مربّع أسود كمخرج. كانت التّمتمة تأتي من هناك. وتحوّلت التّمتة إلى مايشبه زئير حيوان ضخم. ولم يجرؤ أرتيوم أن يخطو إلى الدّاخل، فوقف كالمسحور يحدّق في الفراغ المظلم ويصغي، حتّى تضاعف الزّئير مرّات كثيرة. ورأى في شعاع مصباحه شيئًا ضخمًا بشكل لا يصدّق يندفع نحوه بسرعة. فتراجع إلى الخلف وأغلق الباب بقوّة، وأسرع للّحاق بالآخرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثّامن عشر: الحكومة السّلطة

لاحظوا غيابه فتوقفوا. واندفع شعاع أبيض في النفق. حين سقط على أرتيوم رفع يديه تحسبًّا وصرخ:

إنّه أنا، لا تطلقوا النّار، أُطفأ المصباح وتحرّك أرتيوم إلى الأمام بسرعة متوقّعًا توبيخًا الآن، ولكن حين وصل إلى الآخرين قال له أرتيوم بهدوء: ألم تسمع أيّ صوت حتّى الآن؟ أومأ أرتيوم برأسه. ولم يرغب في الحديث عمّا رآه للتّوّ، وظنّ أنّ ذلك من خياله ربّما. عرف أنّ عليه أن يتعامل مع انطباعته بحذر في المترو. ما هو الصّوت؟ بدا مثل قطار مرّ مسرعًا جدًّا، لكنّه لا يمكن أن يكون قطارًا. لم يكن هناك كهرباء كافية في المترو لتحرّك القطارات منذ عشرات السّنين. وكان الاحتمال الثّاني أرجح. وتذكّر أرتيوم تحذيرات الهمجيّين بخصوص الممرّات المقدّسة للدّودة الكبرى.

إذًا، القطارات لم تعد تسير، صحيح؟ سأل أرتيوم المطارد.

نظر إليه ميلنك باستياء: أيّ قطارات؟ لقد توقّفت عن السّير سابقًا، ولم تتحرّك مرّة أخرى أبدًا إلى أن نُهِبت كقطع غيار. هل تعرف شيئًا عن هذه الأصوات؟ أعتقد أنّها مياه باطنيّة، حيث يوجد نهر قريب من هنا ونحن مررنا تحته. دعك من ذلك، توجد مشاكل أكثر أهميّة، فما زلنا لا نعرف كيف سنخرج من هنا.

لم يرغب أرتيوم أن يدع المطارد يظنّ أنّه يتعامل مع مجنون، لهذا بقي ساكتًا وترك الموضوع يسقط. ربّما كان النّهر. أصوات مزعجة لمياه تجري وخرخرة جداول سوداء رفيعة على طول حوافّ السّكّة الحديديّة عكّرت الصّمت الكئيب للنّفق هنا. كانت جدران النّفق تومض بالرّطوبة، وغطّتها طبقة رقيقة مبيضّة من العفن، وتوجد برك موحلة هنا وهناك. أصبح أرتيوم معتادًا على المياة المخيفة في الأنفاق، وجعله هذا الخطّ بشكل خاص متضايقًا. لقد أخبره زوج أمّه عن الأنفاق الّتي تفيض والمحطّات. ولحسن الحظّ، أنّها كانت عميقة وبعيدة جدًّا، لذلك كان انتشار الكارثة إلى كلّ الفرع غير محتمل. وكلّما ابتعدت أكثر جفّ المكان حولهم أكثر. اختفت الجداول الصّغيرة بالتّدريج، وبات وجود العفن على الجدران أندر، وأصبح الهواء أخفّ. نزل النّفق للأسفل تاركًا كلّ شيء فارغًا. وللمرّة العاشرة تذكّر أرتيوم بوربون وهو يقول إنّ الخطّ الفارغ يكون الأكثر رعبًا من بينها جميعًا.

الآخرون أدركوا أيضًا هذا كما يبدو، ونظروا إلى أرتيوم وهو يتعثّر في المؤخّرة. ولكن بعد أن نظروا في عينيه استداروا بسرعة. ومشوا إلى الأمام بشكل مستقيم كلّ الوقت، ولم يتباطئوا عند القضبان الّتي قُطعت من الأفرع الجانبيّة والأبواب الحديديّة السّميكة المقفلة على الجدران. الآن فقط، بات واضحًا لأرتيوم كم هي كبيرة أبعاد المتاهة الّتي حُفرت في الأرض تحت المدينة بواسطة عشرات الأجيال من سكّانها. يتألّف المترو من ممرّات عديدة، ودهاليز تمتدّ داخل أعماق شبكة عنكبوتيّة عملاقة. بعض الأبواب الّتي مرّوا بها كانت مفتوحة، وأظهر شعاع

المصباح الذي اختلس النّظر داخلها، غرفًا مهجورة وأسرّة منامة صدئة. لقد ساد الخراب في كلّ مكان. بحث أرتيوم عبثًا عن أيّ أثر للوجود البشريّ. حتّى المترو هجر هذه البناء العظيم منذ زمن طويل جدًّا.

بدا المسير أبديًّا، والرّجل العجوز يمشي ببطء أكثر، كان منهكًا ولم تعد تجبره الوخزات في ظهره، أو لغة المقاتلين القذرة على السّير معهم. لم يتوقّف الفريق لأكثر من نصف دقيقة، وكان المقاتلون الّذين يحملون النّقّالة مع أنطون بحاجة إلى تبديل أيديهم.

والمدهش أن أوليج ظلّ متماسكًا. وعلى الرّغم من أنّه كان متعبًا، إلّا أنّه لم يتذمّر صراحة. كان يشهق بعناد محاولًا أن يجاري الجميع في سرعة سيرهم. وفي المقدّمة انفجر نقاش نشط.

نظر أرتيوم من خلف ظهور المقاتلين العريضة، وفهم ما يجري.

لقد دخلوا إلى محطّة جديدة، بدت مثل سابقتها تمامًا، قناطر منخفضة وأعمدة سميكة كأرجل الفيلة، وجدران إسمنتيّة ملوّنة بطلاء زيتيّ. كانت المنصّة عريضة لدرجة أنّ المرء لا يستطيع رؤية ما يوجد في طرفها الآخر بوضوح. نظرة عاجلة أوحت أنّ هناك ألفي شخص ينتظرون قطارًا هنا. ولكن لم تكن هنا روح واحدة، وآخر قطار أُرسل إلى وجهة مجهولة منذ زمن بعيد. لذلك كانت القضبان مغطّاة بغبار أسود وعلى الوصلات العرضيّة نمت الطّحالب. اسم المحطّة الّذي كتب بأحرف برونزيّة جعل أرتيوم يرتعد من الخوف، إنّها نفس الكلمة الغامضة (جينشتاب). وتذكّر فورًا هيئة الأركان في بوليس والأضواء الضّعيفة الّتي تتجوّل في السّاحة المهجورة قرب جدران مبنى وزارة الدّفاع المدمّرة. رفع ميلنك يده الّتي في القفّاز، فتجمّد الفريق في نفس اللّحظة.

أولمان، خلفي، قال المطارد. وتسلّق المنصّة، فلحق به المقاتل النّشيط الّذي كان يمشي بجانبه. تلاشت أصوات خطواتهما النّاعمة المختلسة في المحطّة الهادئة. وأخذ أفراد الفريق أوضاعًا دفاعيّة كما لو أنّهم أُمروا بذلك، ونظروا إلى جهتيّ النّفق. قرّر أرتيوم حين وجد نفسه في المنتصف، أنّه ربّما يتمكّن من تفحّص المحطّة الغريبة تحت غطاء رفاقه.

هل سيموت بابا؟ شعر بأنّ الصّبيّ شدّ أكمامه. فأخفض أرتيوم عينيه ووجد أوليج واقفًا يحدّق به متوسّلًا، وفهم أرتيوم أنّ الطّفل جاهز للبكاء. هزّ رأسه بطريقة مطمئنة، وطبطب على رأس الصّبيّ.

هل هذا لأنّني أخبرتهم أين يعمل بابا؟ هل أذوه بسبب ذلك؟ سأل أوليج. أخبرني بابا دائمًا ألّا أتحدّث مع أيّ أحد. ثمّ بكى وقال إن النّاس لا يحبّون رجال الصّواريخ. بابا قال إنّ هذا العمل ليس معيبًا وسيّئًا، وأنّ رجال الصّواريخ كانوا يحمون البلاد، وأنّ الآخرون يحسدونهم فقط.

نظر أرتيوم إلى القس بقلق، ولكنّ الرّجل العجوز المنهك من الرّحلة، جلس على الأرض وحملق بدون أيّ تعبير في الفراغ، غير كمترث بمحادثتهم.

عاد ميلنك وألمان بعد عدّة دقائق. فاجتمع الفريق حول المطارد الذي وضع الآخرين في الصّورة:

المحطّة فارغة لكنّها لم تُهجر. وهناك صور لدودتهم في عدّة أماكن، وهناك أيضًا شيء آخر... وجدنا رسمًا تخطيطيًّا على الجدار بخط اليد. وإن صدّقه المرء فإنّ هذا الفرع يؤدّي إلى الكرملين، كما أنّ المحطّة المركزيّة والتّحويلة إلى الخطوط الأخرى. وهناك أيضًا واحدة من التّحويلات تذهب في جهة مايكوفسكايا. ويجب أن نتحرّك إلى تلك الجهة. يجب أن يكون المسار حرًّا. لن نحشر أنوفنا في الممرّات الجانبيّة. هل هناك أسئلة؟

نظر المقاتلون إلى بعضهم ولم يقولوا شيئًا. كان الرّجل العجوز يجلس لامباليًا على الأرض حتى الآن، لكنّه أصبح منزعجًا حين سمع بكلمة (الكرملين) فبدأ يهزّ رأسه ويدمدم بشيء. وانحنى ميلك وانتزع السّدّادة من فمه.

لا يمكنك الذّهاب إلى هناك، لا تستطيع، أنا لن أذهب إلى الكرملين، اتركوني هنا.. بدأ القسّ يهذر.

ما الخطأ في ذلك؟ سأله المطارد بغضب.

لا نستطيع أن نذهب إلى الكرملين، لا نسطيع أن نذهب إلى هناك، أنا لن أذهب.. وظلّ الرّجل العجوز يكرّر ذلك بعصبيّة مثل لعبة مربوطة.

هذا رائع أنّك لن تذهب إلى هناك، أجابه المطارد، على الأقلّ لن يكون رفاقك هناك. إنّ النّفق فارغ ونظيف، وأنا لا أنوي الدّخول في الفروع الجانبيّة، وأفضّل الذّهاب بشكل مستقيم عبره، عن طريق الكرملين.

بدأ النّاس يتهامسون. وفهم أرتيوم بعد أن تذكّر الوهج على أبراج الكرملين، لماذا لم يكن القسّ وحده الخائف من الظّهور هناك.

كلّ واحد منكم، قال ميلنك. نحن سنتقدّم.. ليس لدينا وقت نضيّعه.. إنّ اليوم محرّم عندهم، ولا يوجد أحد في الأنفاق.. ونحن لا نعرف متى سينتهي هذا اليوم، لهذا علينا أن نسرع ونواصل السّير. أنهضوه.

كلّا، لا تذهبوا إلى هناك، لا تستطيعون. أنا لن أذهب. يبدو أنّ الرّجل العجوز قد جُنّ تمامًا. وحين اقترب منه أحد المقاتلين، انسلّ القسّ من يديه بحركة أفعوانيّة غير مدركة بالحواس، لكنّه جمد بطاعة مزيّفة حين رأى فوّهة البندقيّة الآليّة موجّهة إليه.

حسنًا، ضيعوا.. وانقلبت ضحكته المنتصرة إلى أزيز مخنوق بعد عدّة ثوان، تشنّج وتلوّى جسده، وخرج زبد غزير من فمه. أصبح وجهه قناعًا شنيعًا، وارتفعت زوايا فمه بشدّة للأعلى. كانت الابتسامة الأشدّ رعبًا التي رآها أرتيوم في كلّ حياته.

جاهزون، قال ميلنك. اقترب من الرّجل العجوز الّذي سقط على الأرض، ونظر إليه وقلّبه بطرف حذاءه. تحرّك الجسد المتيبّس ببطء، وتدحرج ووجهه نحو الأسفل. في البداية ظنّ أرتيوم أنّ المطارد فعلها لكي لا يرى وجه الرّجل الميّت، لكنّه فهم السّبب الحقيقيّ بعد ذلك. أنار ميلنك الأسلاك الّتي شُدّت بإحكام حول رسغي الرّجل

العجوز بمصباحه. وكان القسّ يعصر الإبرة التي غرسها في ساعده في قبضته اليمنى. لم يفهم أرتيوم كيف احتال وفعلها، وأين خبّأ السّهم المسموم، ولماذا لم يستخدمه قبل ذلك. ابتعد عن الجسد وغطّى عيون أوليج براحة يده. وتوقّف الفريق في مكانه ساكنًا، ولم يتحرّك أحد من المقاتلين على الرّغم من إعطاء الأمر بذلك. نظر إليهم المطارد. يستطيع المرء أن يتخيّل ما كان يحدث في رؤوس المقاتلين. لا بدّ أنهم يتساءلون عمّا ينتظرهم في الكرملين، إذ أنّ الأسير قد فضّل الانتحار ليتجنّب الذّهاب إلى هناك. ودون أن يضيّع أيّ وقت لسماع الآراء، خطا ميلنك نحو النّقّالة الّتي بها أنطون وانحنى وأخذ إحدى مقابضها.

أولمان، نادى. وبعد ثانية من التّردّد أخذ الكشّاف العريض المنكبين مكانه عند مقبض النّقّالة الثّاني. اقترب منهما أرتيوم مستسلمًا لحافز غير متوقّع، وأمسك بمقبض النّقّالة الخلفي، ووقف واحد آخر بجانبه. وقف المطارد باستقامة وتحرّك إلى الأمام دون أن ينطق بكلمة. ولحق الآخرون به، وأخذ الفريق تشكيلًا قتاليًّا مرّة أخرى.

إنّه ليس بعيدًا جدًّا الآن، قال ميلنك بهدوء، حوالي مائتي متر. والشّيء الرّئيسيّ أن نجد المعبر إلى الخطّ الآخر. وبعد ذلك نتابع إلى مايكوفسكايا. أنا لا أعرف كم تبعد، ولا يوجد تريتياك، نحن سنفكّر بشيء ما. الآن لدينا طريق واحد فقط، ويستحيل أن ننحرف عنه.

حديثه عن الطّريق أيقظ شيئًا ما في أرتيوم، وتذكّر رحلته مرّة أخرى. وبعد التّفكير بها لم يدرك مباشرة ما كان ميلنك يتحدّث عنه، لكنّه حين سمع إشارة المطارد إلى تريتياك الميّت، انطلق وهمس له بصوت عال:

أنطون، الرّجل الجريح يبدو أنّه خدم في الآر في إيه (القوّات الصّاروخيّة) لهذا هو رجل صواريخ. وهذا يعني أنّه ما زال في مقدورنا أن نفعلها، أليس كذلك؟

نظر أرتيوم إلى قائد الحرس الّذي على النّقّالة.

وبدا مريضًا فعلًا. تجاوز أنطون الشّلل منذ وقت طويل، لكنّه الآن فريسة للهذيان. وقد حلّ مكان أنينه أوامر غاضبة غير واضحة، كما عذّبته توسّلات يائسة ونشيج وتمتمة. وكلّما اقتربوا من الكرملين أكثر علت صيحات الرّجل الجريح أكثر، ووثب عن النّقّالة أكثر. أنا قلت، لا تجادل. إنّهم قادمون.. اضرب الأرض. جبناء... لكن كيف... لكن كيف هو حال الآخرين؟ لا أحد سيكون قادرًا هناك... لا أحد.

كان أنطون يتجادل مع رفاق لم يستطع أحد رؤيتهم إلّا هو. غطّى العرق جبينه، واغتنم أوليج الّذي كان يركض بمحاذاة النّقّالة استراحة قصيرة حين بدّل المقاتلون أيديهم، وربت على جبين والده بخرقة. أشعل ميلنك مصباحه وسلّطه على قائد الحرس وكأنّه يحاول أن يفهم إن كان سيعود إلى وعيه. ومضت مقلتا أنطون للأمام والخلف تحت جفنيهما، وصرّ على أسنانه، وشدّ قبضتيه وقذف بجسده إلى هذا الجانب وذاك، ولم يمنعه من السّقوط عن الحمّالة سوى أشرطة القماش، لكنّ حمله ازداد صعوبة.

وبعد خمسين مترًا أخرى رفع ميلنك يده فوقف الفريق. ظهر رمز مطليّ بشكل فجّ على الأرض في لون أبيض، الآن الخطّ الملتوي المعتاد أقحم رأسه السّميك نحو علامة حمراء سمينة، قطعت الخطّ المتّجه إلى الأمام. فأطلق أولمان صفرة.

إنّ الضّوء الأحمر مضاء، ويقول ليس هناك طريق. فضحك أحد ما بعصبيّة من المؤخّرة.

إنّ هذه الإشارة من أجل الدّودة، وهي لا تهمّنا، قاطعه المطارد.. تقدّموا.

على كلّ حال كانوا يتحركّون إلى الأمام ببطء الآن. وضع ميلنك جهاز الرّؤية اللّيليّة، وأخذ موقعًا على رأس الفريق. وتوقّفوا عن الإسراع، ولكن ليس بسبب الحذر فقط، بل لأنّ النّفق عند محطّة (جنشتاب) بدأ ينخفض بحدّة للأسفل. وشعروا بضباب غير مرئيّ لكنّه ملموس وحقيقيّ لوجود ما كان يزحف من الكرملين. كان يلفّ النّاس، يحجبهم، فأقنعهم بوجود شيء ما لا يفسّر، شيء ضخم وشرّير مختبىء هناك في الأعماق المظلمة السّوداء. وانتاب أرتيوم شعور لم يجرّبه من قبل أبدًا. لم يكن مثل الدّوّامة المظلمة الّتي طاردته في الخطوط في زوخاريفسكايا، أو مثل الأصوات الّتي في الأنابيب، أو الخوف الخرافيّ الّذي أحدثه وغذّاه النّاس في الأنفاق الّتي تؤدّي إلى بارك بوبدي. هذه المرّة شعر بقوّة أكبر، بشيء غير حيّ لكنّه مع ذلك حيّ، كان مخفيًا. نظر أرتيوم إلى الشّجاع القويّ أولمان وهو يمشي على الطّرف الآخر من النّقّالة، وفجأة أراد التّحدّث معه. ولم يكن مهمًّا موضوع الحديث. أراد أن يسمع صوتًا بشريًّا فقط.

لماذا تتوهّج النّجوم الّتي على أبراج الكرملين؟ كان السّؤال يعذّبه.

من أخبرك أنّها تتوهّج؟ سأل المقاتل في اندهاش. لا يوجد شيء كهذا هناك. إنّ الأمر مع الكرملين كالتّالي: كلّ شخص يرى ما يريد أن يراه. بعض النّاس يقولون أنّه لم يعد موجودا منذ زمن طويل. وأنّ كلّ واحد يتمنّى أن يرى الكرملين. هم يريدون أن يصدّقوا أنّ قدس الأقداس ظلّ سليمًا.

وماذا حدث له؟ سأل أرتيوم.

لا أحد يعرف، ردّ أولمان، ماعدا آكلي لحوم البشر خاصتك. أنا كنت صغيرًا عمري عشر سنوات تقريبًا آنذاك، وهؤلاء الّذين قاتلوا يقولون أنّهم لم يريدوا أن يدمّروا الكرملين. لهذا أسقطوا عليه شيئًا سريًّا متطوّرًا... أسلحة بيولجيّة. في البداية لم يلاحظوه فورًا، ولم يقرعوا أجراس الإنذار ولم يدركوا الأمور إلّا بعد فوات الآوان. فالتهم كلّ من هناك وابتلع النّاس في المناطق المجاورة أيضًا، والذين كانوا يعيشون خارج الأسوار شعروا بالسّعادة والرّاحة حتّى ذلك الوقت.

لكن كيف يبتلع؟ عجز أرتيوم أن يتخلّص من رؤية النّجوم وهي تومض بضوء غير أرضيّ، على قمم أبراج الكرملين.

هل تعرف بوجود حشرة مثل الدّودلبوغ (حشرة تحفر حفر قمعيّة تصطاد بها النّمل)؟ تحفر هذه الحشرة قمعًا في الرّمل، وتتسلّق إلى القاع وتفتح فمها. وإن مرّت نملة ولمست حافة الحفرة، تنتهي سيرتها. إذ تتحرّك الحشرة فينهمر الرّمل إلى القاع

وتسقط النّملة في فمها مباشرة. وما يحدث في الكرملين مثله تمامًا حيث يقف الكرملين على حافّة قمع ينهار إلى الدّاخل ليسحبك إلى الأسفل ويمتصّك، وتكلّف المقاتل بابتسامة.

لكن لماذا يذهب النّاس إلى الدّاخل؟ أصرّ أرتيوم.

كيف لي أن أعرف؟ فعلى الأغلب تنويم مغناطيسي. خذ المشعوذين آكلي لحوم البشر خاصّتك مثلًا، لقد أجبرونا تقريبًا على البقاء هناك.

لماذا إذًا نتراجع وننسحب نحوه؟ سأل أرتيوم في نظرة حائرة.

هذه الأسئلة للرّئيس وليست لي. لكنّي أعرف أنّك يجب أن تبقى في الخارج، وأن تراقب الجدران والأبراج كي لا تختطفك. ولكن يبدو أنّنا في الدّاخل مسبقًا، فما الّذي سنراه هناك؟

التفت ميلنك إليهما وهمس لهما بغضب. اختصر أولمان على الفور، وسكت. وسمع صوت ضجيج غطّى على صوته. هل كان قرقرة ناعمة آتية من الأعماق؟ أم هزيم؟ لم ينبّئ بأيّ شيء فظيع، لكنّه كان متواصلًا ومزعجًا، ومن المستحيل تجاهله. مرّوا بثلاثة أبواب مقاومة للضّغط مرتّبة خلف بعضها البعض. كلّ الأبواب كانت مفتوحة على مصراعيها، ومرحِّبة. ورُفعت ستارة حديديّة إلى السّقف. أبواب؟! فكّر أرتيوم، نحن على عتبة باب.

افترقت الجدران فجأة وانتهت في قاعة فسيحة جدًّا من المرمر، لهذا لم يصل ضوء المصابيح القويّة إلى الجدار المقابل إلّا بالكاد. كان السّقف عاليًا وسميكًا هنا على عكس المحطّات الأخرى. وتدعمه أعمدة غنيّة بالزّخارف. شمعدانات مذهّبة ضخمة تحوّلت بفعل الزّمن إلى سواد، ما زالت تومض بشكل متألّق في أشعّة المصباح. ألواح هائلة من الفسيفساء غطّت الجدران. كانت تصوّر رجلًا عجوزًا ملتحيًا مع أشخاص في ثياب العمل يبتسمون له، وفتيات صغيرات في ثياب محتشمة وملافع بيضاء خفيفة، وجنود في قبّعات عسكريّة عفا عليها الزّمن، وسريّة من المقاتلين حُمِلوا إلى السّماء، ورتلًا مدوًّيا من الدّبّابات، وأخيرا.. الكرملين نفسه.

لم يكن لهذه المحطّة المدهشة اسم، لكنّ غيابه كان كافيًا ليفهم المرء أين كانوا. غطّت الأعمدة والجدران طبقة سميكة من الغبار الرّماديّ. ومن الواضح أنّ المكان لم تطأه قدم منذ عقود من الزّمن، والغريب أنّه حتّى المتوحّشين الجريئين فرّوا من هذا المكان. وعلى مسافة، هناك قطار غير عاديّ على المسار، مؤلّف من عربتين مصفّحتين بشكل ثقيل ومطليّتين بلون أخضر غامق واق. استبدلت نوافذه بشقوق مستطيلة وضيّقة تشبه شقوق البندقيّة. ولكلّ عربة باب واحد وكان مغلقًا. خطر لأرتيوم أنّ سكّان الكرملين لم يقدروا أن يستخدموا مسارهم السّرّيّ الخاصّ بهم للهروب، لهذا وصلوا إلى المنصّة ووقفوا.

إذًا هذا هو الوضع هنا... رفع المطارد رأسه نحو السّقف بأقصى ما سمحت به خوذته. سمعت حكايات كثيرة جدًّا، ولكنّها ليست مثل هذه أبدًا.

إلى أين سنذهب الآن؟ سأل أولمان ليس لديّ فكرة، اعترف ميلنك، ويجب علينا أن نستكشف ونفكّر.

لم يتركهم هذه المرّة فتحرّك النّاس في المكان معًا. كانت المحطّة كالمحطّات التّقليديّة في بعض النّواحي، حيث بُني على طول حواف المنصّة مساران وصالة طويلة، تنتهي بسلّمين توقّفا إلى الأبد، يؤدّيان إلى القناطر المدوّرة الرّائعة. السلّم الأقرب إليهم يصعد، والآخر يغطس إلى أعماق لا يمكن تخيّلها. ويفترض أن يوجد مصعد هنا، إذ لم يكن لدى ساكني الكرملين السّابقين دقيقتين لنزول المصعد كما لدى الكائنات الفانية. كان ميلنك مسحورًا وكذلك الآخرين. وحاولوا الوصول إلى الأقواس العالية بأشعّة مصابيحهم، وتفحّص المنحوتات البرونزيّة الّتي نُصبت في الصّالة. ونالت الألواح الرّائعة إعجابهم وأدهشتهم فخامة هذه المحطّة، إنّها قصر حقيقيّ تحت الأرض، حتّى أنّهم كانوا يهمسون كي لا ينتهكوا هدوءه. نسي أرتيوم الأخطار الّتي أنهى القسّ حياته بسببها حين كان ينظر إلى الجدران بإعجاب، ونسي أيضًا إشعاع نجمات الكرملين المخدّر والمسمّم. ولم يبق في رأسه سوى فكرة واحدة وهي محاولته بأقصى جهده أن يتخيّل كيف كان جمال هذه المحطّة الّذي لا يوصف، في ضوء تلك الشّمعدانات الفخمة.

اقتربوا من الجدار المقابل للصّالة حيث يبدأ السّلّم النّازل. وتساءل أرتيوم عمّا يُخبّأ هناك في الأسفل، ربّما محطّة أخرى أرسلت منها قطارات إلى غرف محصّنة سرّيّة تحت الأرض في الأورال؟ أم مسارات تؤدّي إلى داهليز لا حصر لها من الزّنازين؟ أم قلعة عميقة؟ أم مدّخرات استراتيجيّة من الأسلحة والأدوية والموادّ الغذائيّة؟ أم مجرّد درج مزدوج لا نهاية له، يؤدّي إلى الأسفل على مدى النّظر؟ وهل تقع النّقطة الأعمق من المترو الّتي تكلّم عنها خان هنا؟ كان أرتيوم يتخيّل الصّور غير المحتملة، ويؤجّل تلك اللّحظة الّتي سيرى فيها أخيرًا. ماذا يوجد فعلًا هناك عند الوصول إلى حافّة السّلّم؟ ولهذا السّبب لم يكن هو الأول عند الدّرابزون، بل كان المقاتل الّذي أخبره عن حشرة الدّودلبوغ هو من وصل إلى القوس قبله. أطلق صرخة وانكمش إلى الوراء خائفًا، وبعد لحظة، كان دور أرتيوم.

بدأ السّلّمان يتحرّكان ببطء مثل مخلوقات سحريّة نائمة منذ مئات السّنين، استيقظت فجأة وثنت عضلات مخدّرة منذ عصور من النّوم، ودبّت الدّرجات بصرير شديد. كان شيئًا غريبًا ومخيفًا يتعذّر وصفه... شيء ما لم يكن ينسجم مع ما يعرفه أرتيوم ويفهمه عن السّلالم، أحسّ به لكنّه عجز أن يمسك بذيل ظلّ الفهم المراوغ.

هل تسمع كم هو هادىء؟ من يحرّك السّلالم ليس المحرّك كما تعرف. إنّ الغرفة الآليّة لا تعمل. أولمان سهّل الأمر لكن طبعا كان هناك صرير الدّرج وطحن التّروس غير المشحّمة، وكلّ الأصوات الّتي بعثتها الآلة الّتي عادت إلى الحياة. هل ذلك كلّ شيء؟ سمع أرتيوم ثانية القرقرة المقرفة، وصوت الشّرب الّذي وصل إليه في النّفق. أتت الأصوات من الأعماق الّتي يؤدّي إليها المصعد. فاستجمع شجاعته واقترب من الحافّة، وأنار النّفق المائل الّذي انحدرت فيه الدّرجات البنّيّة المسودّة بسرعة متزايدة. ولأن شيئا مثل لحظة واحدة، بدا له أنّ سرّ الكرملين انكشف أمامه. فرأى شيئًا قذرًا بنيًّا زيتيًّا يفيض بشكل غامض ونشط، ويرشح عبر شقوق درجات

السّلم. كان ينبثق من هذه الشقوق المستطيلة الضّيّقة في دفقات قصيرة، ثمّ يرتفع ويهبط بتزامن على طول المصعد. ولم يكن التّموّج بلا معنى، فقد كانت هذه الدّفقات المادّيّة الحيّة جزء من كلّ واحد عملاق يحاول تحريك الدّرجات. ففي مكان ما في الأسفل وعلى عمق عشرات الأمتار، تنتشر هذه المادّة القذرة جدًّا والزّيتيّة بحريّة في الأرض، تنتفخ وتنقشع، تطفح وترتجف وتقذف بنفس تلك الأصوات الغريبة المقزّزة. بالنّسبة لأرتيوم كان القوس مثل فكّ هائل، وقبب مصعد النّفق مثل رقبة، والدّرج نفسه اللّسان النّهم لإله قديم رهيب أيقظوه غرباء. بعد ذلك وكما لو أنّ يدًا لمست شعوره وأسكتته. فرغ رأسه كما في النّفق ولم يُرد إلّا شيئًا واحدًا فقط، أن يخطو إلى المصعد وينزل به إلى الأسفل حيث تنتظره الإجابة على كلّ أسئلته. ومضت نجمات الكرملين مرّة أخرى أمام نظرة خياله المحدّقة...

اهرب، يا أرتيوم، صفعه قفّاز على خدّيه وحرق جلده. فأيقظ نفسه واندهش، كان الشّحم البّنيّ يزحف عاليًا عبر النّفق، ينتفخ بشكل مرئيّ ويمتدّ ويرغي مثل حليب خنزير يتبخّر. لم تطعه ساقاه وكان وهج شعوره قصيرًا جدًّا. أيًّا كان الّذي سيطر عليه، حرّره للحظة لكي يمسكه بقوّة ويسحبه إلى داخل السّديم مرّة أخرى.

اسحبه.

الصّبيّ أوّلا، ولا تصرخ...

ثقيل... والرّجل الجريح ما زال هناك...

ارمها، ارم النّقّالة، إلى أين ستذهب بالنّقّالة؟

انتظر لحظة، سأتسلّقه أيضًا، إنّه أسهل مع اثنين...

يدك، أعطني يدك، بسرعة.

يا أمّ الرّبّ. لقد خرج الآن...

ضيّقهما... لا تنظر، لا تنظر هناك، هل تسمعني؟

على وجنتيه.

لي، ذلك أمر، سأطلق النّار.

صور غريبة كانت تترجرج: خضرة وجانب عربة قطار زُرعت بالمسامير، وسقف مقلوب لسبب ما، ثمّ أرضيّة ترابيّة... ظلام... درع أخضر مرّة أخرى... ثمّ توقّف العالم عن التأرجح. وهدأ أكثر ثم جمد.

رفع أرتيوم نفسه ونظر حوله. كانوا يجلسون حوله على أرض القطار المدرّع. وكلّ المصابيح مطفأة، ولم يشتعل سوى مصباح جيب صغير وضع في المنتصف. لم يكن ضوءه كافيًا لترى ما كان يحدث في الصّالة، لكنّه سمع شيئًا يفور ويضطرب ويفيض من كلّ الأطراف. مرّة أخرى كان أحد ما يحاول بحذر أن يصل إلى عقله باللّمس، لكنّه هزّ رأسه فتبدّد بعض من ضبابه. نظر وعدّ أعضاء الفريق الّذين كانوا رابضين على السّقف ثانية وبشكل آليّ. الآن هناك خمسة منهم، لم يحسب أنطون

الذي لم يصحو بعد وابنه. لاحظ أرتيوم بشكل باهت أنّ أحد المقاتلين قد اختفى في مكان ما، لكنّ أفكاره تشتّت مرّة أخرى. وحالما كان رأسه يفرغ، يبدأ عقله بالانزلاق في هاوية عكرة يصعب عليه أن يقاتلها لوحده. عرف ميلنك بما كان يحدث وحاول أرتيوم أن يفهم هذه الفكرة بأنّه يجب أن يفكّر بأيّ شيء يحبّه، شرط أن يبقي عقله مشغولًا. وكان واضحًا أنّ الشّيء عينه كان يحدث مع الآخرين.

هذا ما حدث لهذه النّفاية حين تعرّضت للإشعاع، كانوا محقّين تمامًا، أسلحة بيولوجيّة. لكنّهم لم يفكّروا كيف سيكون أثرها التّراكمي، ومن الجيّد أيضًا أنّها بقيت خلف الجدار، ولم تخرج لى داخل المدينة... قال ميلنك.

لم يجبه أحد. هدأ المقاتلون وأنصتوا بشرود.

تكلّم، تكلّم، لا تسكت. هذا الظّلّ سيبقى في وعيك. هيه، أوغانسيان، أوغانسيان، بماذا تفكّر؟ هزّ المطارد أحد أتباعه. أولمان، اللّعنة، إلى أين تنظر؟ انظر إليّ، لا تسكت.

حلو... إنّه ينادي... قال القويّ أولمان وهو يرمش برموشه.

كم هو حلو؟ ألم تر ما حدث لديليغان؟ صفع المطارد المقاتل على خدّه بكلّ قوّته، فأشرقت نظرة أولمان السّباتيّة.

ارفعوا أيديكم، أرتيوم، سيرجي، إليّ، انظروا إليّ. وعلى بعد في الأسفل كانت الكتلة الرّهيبة تبقبق وتفور، وغطّت المنصّة كلّها، وأصبحت أكثر إصرارًا ولن يستطيعوا مقاومة ضغطها أكثر من ذلك.

فتيان، لا تستسلموا، استمرّوا معًا... معًا، دعونا نغنّي. لم يستسلم المطارد ونادى جنوده كي ينتظموا، ووزّع اللّطمات في الوجوه، أو أعادهم إلى وعيهم بلمسات خفيفة. انهضوا، بلاد ضخمة... انهضوا من أجل قتال مميت. صفّر بالنّشيد وطوّله، وخرج عن اللّحن. مع القوى الفاشية المظلمة... ضدّ حشودهم الهمجيّة اللّعينة...

دع الغضب النّبيل... يفور مثل الموجة، أكمل أولمان. وهاجت الكتلة واضطربت حول القطار بقوّة مزدوجة. لم يبدأ أرتيوم الغناء معهم فهو لايعرف كلمات الأغنية، وخطر له أنّ المقاتلين بدأوا الغناء لسبب خفيّ يتعلّق بقوّة الظّلام والموجة الفائرة. لم يكن أحد منهم يعرف سوى المقطع الأوّل واللّازمة ماعدا ميلنك. فغنّى المقطع الرّباعي التّالي لوحده، وومضت عيناه بشكل مهدّد ولم تسمحا لأيّ أحد أن يشرد ويتشتّت.. مثل قطبيّ-ين، نحن نعادي الكلّ، من أجل العالم والسّلام نحارب، هم يحاربون لكي يسود الظّلام ويحكم... تقريبًا كلّ واحد منهم غنّى اللّازمة، حتّى الصّغير أوليج حاول أن يردّد وراء البالغين. الجوقة المتنافرة من الأصوات الذكوريّة الخشنة المصدّعة والمحشرجة من التّدخين، دوّت ثانية وتردّد الصّدى في الصّالة المظلمة الّتي لا حدود لها. حلّق صوت الغناء إلى الأقواس العالية المطليّة بالفسيفساء، وارتدّ منها وسقط وغطس في داخل الكتلة المتّقدة المحتشدة في الأسفل. ولكنّ هذه الصّورة لسبعة رجال أصحّاء، جثموا على سقف قطار وهم يمسكون أيديهم، ويغنّون هذه الأغاني الفارغة الّتي كانت تبدو سخيفة ومضحكة لأرتيوم في

أيّ ظرف آخر، باتت الآن شبيهة بمشهد فاتر من كابوس. هو أراد أن يستيقظ فعلًا: (دع الغ-ض-ب الن-بي-ل يفو-ر م-ثل م-و-ج-ة...) حرب الشّعب مستمرّة، ح-ر-ر-ر-ب م-ق-د-س-س-س-ة، فتح أرتيوم فمه بقوّة وإتقان رغم أنّه لم يكن يغنّي، واهتزّ مع الموسيقى في الوقت الصّحيح. لم يسمع الكلمات في المقطع الشّعريّ الأوّل، ومع ذلك قرّر أنّها عن شعب يعيش في المترو، أو عن معارضة ومقاومة ضدّ الدّارك ونز الّذين وتحت هجومهم ستسقط محطّته الّتي ولد وعاش فيها قريبًا جدًّا كما يفترض. بعد ذلك سمع في مقطع شعريّ واحد (الفاشيّين) وفهم أرتيوم أنّها عن معركة مقاتلي اللّواء الأحمر مع أهالي بوشكينسكايا... حين انتزع نفسه من أفكاره وتأمّلاته، اكتشف أنّ الجوقة سكتت وربّما ميلنك نفسه لا يعرف المقاطع الشّعريّة التّالية.

أيّها الفتيان، دعونا ننشد أنشودة (حارب) كان المطارد يحاول أن يقنع مقاتليه. (حارب، يا أبي حارب، أبي، حارب. أنت لاتخبّىء قلبك خلف ظهر الفتيان) لكنّه سكت أيضًا بعد أن بدأ بوقت قليل. لفّ النّعاس الفريق. وبدأ المقاتلون يرخون قبضاتهم ثمّ تفسّخت الدّائرة. كلّ واحد منهم، كان هادئًا، حتّى أرتيوم الّذي كان يهذي ويدمدم طول الوقت. شعر بودك دافىء عكر من اللّامبلاة والإعياء يملأ الفراغ الّذي حدث في رأسه، فحاول أرتيوم أن يطرده بالتّفكير في مهمّته، ثمّ بدندنة أنغام الرّضع كما تذكّرها ثمّ كرّرها: أنا أظنّ، أظنّ، أظنّ أنّك لن تتمعّج وتتسلّل إلى داخلي... وقف المقاتل الّذي يُدعى أوغانيسيان فجأة بكلّ طوله. ورفع أرتيوم عينيه إليه بلامبالاة.

حسنًا، حان وقتي. احذروا، قال وهو يستأذن. نظر البقيّة إلى رفيقهم دون أن يردّوا ماعدا المطارد الّذي أومأ برأسه. اقترب أوغانيسيان من الحافّة دون تردّد، وتقدّم إلى الأمام ولم يصرخ، ولكن أتى صوت مزعج من الأسفل، كان مزيجًا من رشرشة وفرقعة جائعة.

إنّه ينادي... إنّه... ينادي، قال أولمان في صوت أغنية وبدأ ينهض أيضًا. بينما كان أرتيوم مسحورًا.

أظنّ أنّك لن تتمعّج وتتسلّل إلى داخلي، وعلقت معه كلمة (أنا) والآن بات يكرّرها دون أن يلاحظ أنّه كان يتكلّم بصوت عال: أنا، أنا، أنا، أنا، أنا. ثمّ أراد بقوّة وبشكل لا يُقاوم أن ينظر إلى الأسفل لكي يفهم إن كانت الكتلة الهائجة مازالت مشوّهة كما بدت له أوّلًا، أم هل كان مخطئًا؟ تذكّر مرّة أخرى النّجوم على أبراج الكرملين البعيدة والمغرية... وهنا قفز أوليج برشاقة على قدميه، وركض قليلًا ورمى بنفسه إلى الأسفل وهو يضحك سعيدًا. استقبل المستنقع الحيّ جسد الصّبيّ، وقضمه بهدوء. فهم أرتيوم أنّ الصّبيّ حسده فعزم أن يلحق به.

ولكن وبعد عدّة ثوان حين أغلقت الكتلة على رأس أوليج، وربّما في اللّحظة الّتي انتزعت فيها حياته منه، صرخ والده واستعاد وعيه. كان منهكًا ويتنفّس بصعوبة وينظر من جانب لآخر. ثمّ رفع نفسه وبدأ يهزّ الآخرين منتظرًا منهم إجابة: أين هو؟ ماذا حدث له؟ أين ابني؟ أين أوليج؟ أوليج، أوليجيك. بدأت وجوه المقاتلين

تستعيد الإدراك قليلًا قليلًا. حتى أرتيوم بدأ يصحو. وهو لم يعد متأكدا من أنّه رأى فعلًا أوليج يقفز في الكتلة المضطربة. لذلك لم يجب وحاول أن يهدّىء أنطون فقط، أنطون الّذي شعر كما يبدو بطريقة غامضة أنّ ما حدث نهائي ولا يمكن استعادته. ثمّ تفجّرت الهستريا الّتي انتابته إلى خدر شعر به أرتيوم، وميلنك والآخرين. وانتقل هياجه ويأسه المميت إليهم، ونُزعت اليد الخفيّة الّتي كانت تقبض على وعيهم بقوّة، وأبعدت.

أطلق المطارد عدّة طلقات اختباريّة على الكتلة الفائرة، ولكن بلا نجاح. ثمّ أمر المقاتل الّذي معه قاذف اللّهب، أن ينزع حقيبة الظّهر مع الوقود من كتفيه ويقذفها إلى أبعد مكان ممكن عن القطار. وأمر اثنين من المقاتلين الآخرين أن يوجّها مصباحيهما إلى البقعة الّتي تسقط فيها حقيبة الوقود. ثمّ استعدّ للإطلاق وأعطى أمر التّقدّم. دار المقاتل في مكانه ثمّ قذف الحقيبة وكاد يطير خلفها لو لم يتمسك بحافّة السّقف. طارت حقيبة الوقود في الجوّ، وبدأت تسقط على بعد خمسة عشر مترًا عن القطار.

انبطحوا، انتظر ميلنك حتى لامست السّطح الزّيتيّ النّابض، وشدّ الزّناد.

راقب أرتيوم طيران الحقيبة، بينما كان ممدًّدا على سقف القطار، وخبّأ وجهه في ثنية كوعه، وأمسك بكلّ قوّته بالدّرع البارد حين دوّت الطّلقة. كان الانفجار قويًّا جدًّا، وكاد أرتيوم أن يطير من السّقف حين ارتجّ القطار. ولم يحدث شيء لمدّة دقيقة. ولكن بدلًا من ذلك، بدأت الضّجّة تتحرّك بعيدًا بالتّدريج.

إنّه يرحل، إنّه يرحل، قال أولمان بصوت عال بجانب أذن أرتيوم. فرفع أرتيوم رأسه. ورأى من خلال ضوء المصابيح بوضح، تلك الكتلة الّتي شغلت كلّ مساحة الصّالة الهائلة وهي تنكمش وتتراجع وتعود إلى المصعد.

عجّلوا، قفز ميلنك على قدميه. وفور انزلاقها إلى الأسفل كونوا كلّكم خلفي، إلى ذلك النّفق مباشرة.

دُهش أرتيوم كيف لملينك أن يكون متأكًّدا، لكنّه لم يسأل. ثمّ عزا تردّد المطارد السّابق إلى ما كان يسيطر على ذهنه. لقد تحوّل المطارد الآن، وعاد قائدًا حاسمًا رصينًا مرّة أخرى لا يتسامح مع أيّ جدال. وذلك ليس لعدم وجود وقت للتّفكير، وإنّما لأنّه لم يرد التّفكير حتّى. كان الأمر الوحيد الّذي يشغل أرتيوم، كيف يخرجون من هذه المحطّة الملعونة بأسرع ما يمكن، قبل أن يستردّ الكائن الغريب الّذي سكن أقبية الكرملين وعيه، ويعود ليلتهمهم. لم يعد يرى المحطّة جميلة وعجيبة، فالآن بات كلّ شيء هنا معاديًا ومنفّرا. حتّى العمّال والفلّاحين الّذين كانوا ينظرون بغضب من الألواح الجداريّة ويبتسمون، ابتسامتهم كانت متكلّفة وحلوة.

وبعد أن قفزوا إلى المنصّة بشكل فوضويّ، اندفعوا إلى الطّرف المقابل من المحطّة. لقد صحا أنطون تمامًا، وركض بسرعة كالآخرين لذلك لم يعد هناك ما يعيق الفريق.

وبعد عشرين دقيقة من السّباق المجنون عبر النّفق الأسود، بدأ أرتيوم يلهث، وبدأ الآخرون يشعرون بالتّعب أيضًا. فسمح لهم المطارد أن يبطئوا ويتحوّلوا إلى المشي السّريع.

إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل أرتيوم مباغتًا، ميلنك.

أعتقد أنّنا الآن تحت تفيرسكايا... يجب أن نخرج قريبًا نحو ماياكوفسكايا. سنشرح ذلك هناك.

لكن كيف عرفت أيّ نفق ندخله؟ كان أرتيوم مستغربًا.

كان ذلك مبيّن على الخارطة الّتي وجدناها في جينشتاب، لكنّي لم أتذكّر هذا إلّا في الدّقيقة الأخيرة.

وبعد أن وصلوا إلى المحطّة طار كلّ شيء من رؤوسهم. وفكّر أرتيوم مليًّا. هل سروره بمحطّة الكرملين مع الصّور والتّماثيل ورحابة المحطّة وأهميّتها انتهى بلاشيء؟ أم أنّه كان بعض من الخداع الّذي أثاره كائن رهيب يترصّد في الكرملين؟ ثمّ تذكّر القرف والخوف الّذي أحدثته فيه تلك المحطّة، حين تبدّد المخدّر وبدأ يشكّ إن كانت هذه هي مشاعره الحقيقيّة. ربّما أجبرتهم (النّملة الأسد) أن يشعروا برغبة لا تقاوم للهرب من هناك بسرعة خطرة، عندما سبّبوا لها ألما؟ لم يعد أرتيوم واثقًا من مشاعره. هل حرّره مخلوق هائل من عقله، أم هل استمرّ المخلوق الرّهيب لعقله في إملاء الأفكار عليه وتحفيز تجاربه العاطفيّة؟ في أيّ لحظة وقع أرتيوم تحت تأثيره المنوّم؟ وهل هو حرّ في أخذ خياراته أحيانًا؟ وهل كانت خياراته حرّة قط؟

تذكّر أرتيوم اللّقاء مع القاطنين الغريبين في بوليانكا مرّة أخرى.

نظر إلى الوراء، كان أنطون يمشي على بعد خطوتين خلفه. ولم يعد يلحّ بالسّؤال عمّا حدث لابنه. فقد أخبره أحدهم بما جرى. وأصبح وجهه قاسيًا وشاحبًا كالموتى، وتحوّلت نظرته إلى الدّاخل. هل فهم أنطون أنّهم كانوا على بعد خطوة واحدة من إنقاذ الصّبيّ؟ وهل أصبح موته حادثًا عرضيًّا سخيفًا؟ لكنّ موته أنقذ حياة الآخرين. هل كان حادثًا عرضيًّا أم ضحيّة؟

أنت تعرف، نحن كلّنا نجونا بفضل أوليج فقط، وبسببه أنت استعدت وعيك، قال لأنطون دون أن يحدّد كيف حدث ذلك.

نعم، وافق أنطون بلا مبالاة.

أخبرنا أنّك خدمت في القوّات الصّاروخيّة. الاستراتيجيّة.

التّكتيكيّة، ردّ أنطون.

التّوشكا والاسكندر.

وأنظمة النّيران المتعدّدة؟ سميرتش واوراغان؟ سأل المطارد الّذي تباطأ قليلًا بعد أن سمع حدثيهما.

أستطيع العمل على تلك أيضًا. كنت محترفا، والجنديّة مهنتي وعلمونا ذلك. وكنّا كلّنا مهتمّين. أراد كلّ واحد أن يجرّبها. حتّى رأيت ما أدّت إليه.

لم يكن هناك أدنى اهتمام في صوته، ولم يكن هناك قلق بخصوص انكشاف سرّه للغرباء. كانت أجوبته قصيرة وآليّة. أومأ ميلنك برأسه وابتعد عنهما وذهب إلى المقدّمة.

نحن بحاجة ماسّة إلى مساعدتك، قال أرتيوم مختبرًا المياه. تحدث عندنا في فدنكه أشياء رهيبة. وتوقّف على الفور بعد أن فكّر بما رآه في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، فمهما كان مفزعًا ما حدث في فدنكه، لن يبدو شيئًا استثنائيًّا وقادرًا على أن يغمر المترو ويدمّر الإنسان أخيرًا كجنس من الأحياء. تأمّل أرتيوم هذه الفكرة وذكّر نفسه أنّها يمكن أن تكون آتية من الكائن الغريب. وتابع حديثه الموجّه إلى أنطون بعد أن استجمع أفكاره: لدينا بعض المخلوقات الّتي تتسلّل من السّطح، لكنّ أنطون أوقفه بإيماءة:

فقط قل ما الّذي يجب فعله وسأفعله أنا، نطق بحياد. لديّ الوقت الآن... إذ كيف أستطيع أن أعود إلى البيت بدون ابني؟

أومأ أرتيوم بعصبيّة ومشى بعيدًا عن الرّجل وتركه مع أفكاره.

الآن شعر بالقذارة وهو يسعى إلى الحصول على عون من رجل فقد ابنه للتوّ، لقد حُرِم منه الآن بسبب خطأ أرتيوم...

لحق بالمطارد مرّة أخرى. وكان واضحًا أنّ ميلنك في مزاج جيّد. فهو يدندن بشيء لنفسه بعد أن انتشر الفريق خلفه، وابتسم حين رأى أرتيوم. حاول أرتيوم أن يعيد إنتاج اللّحن الّذي دندن به ميلنك، فعرف أنّ الأغنية نفسها عن حرب مقدّسة غنّوها على سقف القطار.

في البداية كنت أظنّ أنّ هذه الأغنية من أجل حربنا ضدّ الدّارك ونز، ولكنّي أدركت فيما بعد أنّها عن الفاشيّين. من الّذي ألّفها؟ هل هم الشيوعيّون من الخطّ الأحمر؟

هذه الأغنية عمرها مئة سنة تقريبًا إن لم يكن مئة وخمسين، هزّ ميلنك رأسه. هم ألّفوها أوّلًا من أجل حرب واحدة، ثمّ كيّفوها لحرب أخرى. ومن الجيّد أنّها مناسبة لأيّ حرب. وطالما الإنسان حيّ، سيظلّ يعتبر نفسه ضوء العالم ويعتبر أعداءه الظّلام. هذا هو تفكيرهم على طرفيّ الجبهة.

أيًّا كان معناها، أضاف أرتيوم لنفسه وومض عقله مرّة أخرى وفكّر بالدّراك ونز. هل يمكن أن تعني أنّ النّاس، دعنا نقول سكّان فدنكه، هم الشّرّ والظّلام بالنّسبة لهم؟ غيّر أرتيوم فكرته ومنع نفسه من التّفكير بالدّارك ونز كأعداء عاديّين. فإن فتح المرء الباب لهم جزئيًّا، فلن يردعهم شيء.

كأنّك تقول أنّ هذه الأغنية أبديّة، تكلّم ميلنك بشكل غير متوقّع. هذا ما خطر ببالي أيضًا. في بلادنا كلّ العصور متشابهة. خذ مثالًا النّاس... أنت لن تغيّرهم بأيّ شكل. إنّهم عنيدون كالبغال. لهذا تبدو نهاية العالم وشيكة، وأنت لا تستطيع أن تذهب إلى

الخارج بدون بدلة مضادّة للإشعاع. وكل نوع من الهراء الذي رأيته سابقًا في السّينما قد تضاعف. كلّا، أنت لن تؤثّر بي، إنّهم سواء. يبدو لي أحيانًا أنّه لم يتبدّل أيّ شيء. حسنًا، أنا زرت الكرملين اليوم، وابتسم بسخرية، وكنت أفكّر بأنّه لايوجد أيّ شيء جديد هنا حتّى. أنا لست واثقًا حتّى متى ضربوننا بهذا الغباء.. قبل ثلاثين سنة أم ثلاثمائة؟

هل كان هناك مثل تلك الأسلحة قبل ثلاثمائة سنة؟ كان أرتيوم مشكّكا، لكنّ المطارد لم يجب. لقد رأوا رسمين أو ثلاثة للدّودة الكبرى على الأرض، لكن لم يكن هناك أيّ علامة للمتوحّشين.

وضع الرّسم الأوّل المقاتلين في وضعيّة دفاعيّة، وتجمّعوا ثانية بطريقة أسهل ليدافعوا بها عن أنفسهم. لكنّ التّوتّر تبدّد بعد أن صادفوا الرّسم الثّالث.

لم يكونوا يبربروا بهراء. اليوم هو عيد مقدّس لهم، وهم يقيمون في المحطّات ولا يدخلون إلى الأنفاق، لاحظ أولمان بارتياح.

لكنّ شيئًا آخر شغل المطارد. فوفقا لحساباته وكانت وحدة الصّواريخ قريبة جدًّا.

كرّر بشرود القول وهو يتفحّص الخريطة المرسومة باليد كلّ دقيقة:

في مكان ما هنا... أليس هذا هو؟ كلّا ليست تلك الزّاوية، لكن أين البوّابة المقاومة للضّغط؟ يفترض أننا اقتربنا منها...

وأخيرًا توقّفوا عند تفريعة مسدودة من اليسار بقضبان متشابكة، ورأوا في نهايتها بقايا بوّابة مقاومة للضّغط. وإلى اليمين نفق مستقيم على مدّ أضواء مصابيحهم.

ذلك هو، قرّر ميلنك، نحن هناك. كلّ شيء منسجم مع الخارطة. هناك خلف شبك القضبان انهار النّفق كما في بارك بوبدي، ويجب أن يكون الممرّ الّذي أخذوا تريتياك إلى داخله. لهذا... أضاء الخارطة بمصباح جيبه وفكّر بصوت عال: إنّ الخطّ يذهب بشكل مباشر من هذه التفريعة إلى الوحدة العسكريّة، والخطّ الآخر إلى الكرملين. نحن جئنا من هناك صحيح. ثمّ تسلّق خلف شبك القضبان مع أولمان وتجوّلا حول النّهاية المسدودة لعشرة دقائق تقريبًا يتفحّصون الجدران والسّقف بمصباحيهما.

جيّد، يوجد ممرّ في الأرض هذه المرّة، نوع من قمّة مدوّرة، مثل فتحة بالوعة. قال المطارد العائد: ليستريح كلّ واحد منكم.

وحين نزعوا عن أنفسهم حقائب الظّهر وانبطحوا على الأرض، حدث شيء غريب لأرتيوم: لقد نام فورًا رغم الوضع المحرج. إمّا أنّ الإنهاك المتراكم في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة حلّ عليه، أو أنّ سمّ الابرة المسبّبة للشّلل له مضار جانبيّة.

رأى أرتيوم نفسه مرّة أخرى نائمًا في الخيمة في فدنكه، وكانت كما في حلمه السّابق، الجوّ فيها كئيب ومقفر. كان أرتيوم يعرف مسبقًا ماذا سيحدث له الآن. سيقول مرحبًا للفتاة الصّغيرة الّتي كانت تلعب كالعادة، ولن يسألها عن أيّ شيء آخر. ثمّ يتوجّه مباشرة نحو المسارات. لن تخيفه الصّيحات البعيدة وتوسّلات

الرّحمة، فهو يعرف أنّه يرى الحلم غير المرحّب به مرّة أخرى لسبب ما خفيّ في الأنفاق. يفترض به أن يكتشف طبيعة التّهديد ويستطلع المحطّة وينقل حالها إلى كلّ حلفائه من الجنوب. ولكن بمجرّد أن غطّاه ظلام النّفق، تبخّرت ثقته بنفسه وبحقيقة أنّه يعرف لماذا هو هناك، وكيف سيواصل. كان مرعوبًا كما كان حين تجاوز حدود المحطّة لوحده لأوّل مرّة، ومثل ذلك الوقت بالضّبط حين لم يكن خوفه من الظّلام أو حفيف الأنفاق، وإنّما من المجهول والعجز عن التّكهّن بالخطر الّذي يخفيه الخطّ في المئة متر التّالية.

وبعد أن تذكّر بشكل غامض كيف تصرّف في أحلام سابقة، قرّر ألّا يستسلم للخوف هذه المرّة، وأن يتقدّم للأمام حتّى يلتقي بالمختبىء في الظّلام الّذي ينتظره.

أتى أحد ما نحوه. ولم يكن مستعجلًا كما كان، ولم يكن يمشي بخطواته القصيرة المختلسة الجبانة، وإنّما بخطوة واثقة قويّة. توقّف أرتيوم مساراته والتقط أنفاسه، فتوقّف الآخر أيضًا.

تعهّد أرتيوم لنفسه ألّا يهرب مهما حدث هذه المرّة. فلم يكن يفصلهما عن بعضهما سوى ثلاثة أمتار من خلال الحكم بواسطة الصّوت. فاهتزت ركبتا أرتيوم لكنّه وجد القوّة بطريقة ما ليتقدّم خطوة أخرى، وحين شعر برفرفة خفيفة في الهواء على وجهه مع اقتراب الآخر، لم يستطع التّحمّل، فقذف بيده إلى الأمام ودفع الكائن الخفيّ وهرب. لم يتعثّر هذه المرّة وركض لوقت طويل لا يطاق، ربّما ساعة أو ساعتان. ولم يكن هناك أثر لمحطّته الأم، ولم تكن هناك أيّ محطّة على الإطلاق، لا شيء أبدًا مجرّد نفق مظلم لا نهاية له. وكان هذا أشدّ رعبًا حتّى.

هيه هذا يكفي للغفوة، سوف تنام خلال الاجتماع. ضربه أولمان على كتفه.

استيقظ أرتيوم ونظر إلى الآخرين بشعور بالذّنب. يبدو أنّه لم ينم سوى بضع دقائق. كانوا يجلسون في دائرة. وفي الوسط ميلنك مع الخارطة يؤشّر ويشرح.

حسنًا، قال: إنّنا نبعد عن وجهتنا عشرون كليومتر تقريبًا. وإن حافظنا على سرعة سير جيّدة، ولم يعترض شيء طريقنا، يمكننا قطع المسافة في نصف يوم. تقع الوحدة العسكريّة على السّطح، وهناك مستودع محصّن تحتها، والنّفق يؤدّي إليها. على كلّ حال لا يوجد وقت للتّفكير بذلك. يجب علينا أن ننقسم. نظر إلى أرتيوم: هل أنت مستيقظ؟ أنت ستعود إلى المترو وسوف أعيّن أولمان للاعتناء بك. أمّا أنا والآخرون سنذهب إلى وحدة الصّواريخ.

كان أرتيوم على وشك أن يفتح فمه عازمًا على الاعتراض، لكنّ المطارد أوقفه بإيماءة توحي بنفاذ الصّبر. بدأ ميلنك بتوزيع الذّخيرة وهو يستند على كومة من حقائب الظّهر.

أنتما خذا سترات واقية، ويبقى لدينا أربعة فلا نعرف كيف هو الوضع هناك. يوجد جهاز لاسلكيّ واحد لكما، وجهاز لنا. الآن إلى التّعليمات: اذهبا إلى بروسبيكتف مير، هم ينتظرونكما هناك، فقد أرسلت بعض الرّسل. ثمّ نظر إلى ساعة يده: بعد اثنتا عشر ساعة اصعدا إلى السّطح وابحثا عن إشارتنا. إن كان كلّ شيء على

مايرام وكنّا على الهواء، سننتقل إلى المرحلة التّالية من العمليّة. مهمّتكما أن تجدا أفضل طريق إلى الحدائق النباتيّة (بوتانيكال غادرنز) ومن ثمّ اصعدا عاليًا لكي تساعداننا على توجيه النّيران وتصحيحها. (سميرتش) لها مساحة تدميريّة محدودة، ولا نعرف كم صاروخًا ما زال هناك، والحدائق ليست صغيرة. لا تقلقا، قال لأرتيوم، أولمان سيقوم بكلّ شيء. أنت كمرافق هناك. ولنا بالطّبع حاجة بك أيضًا. أنت تعرف كيف يبدو هؤلاء الدّارك ونز.

برج أوستانكينو مناسب جدًّا كدليل. إنّه أعرض في المنتصف حيث كان هناك مطعم يقدمون فيه صندويشات صغيرة جدًّا مع كافيار بأسعار خرافيّة. لكنّ النّاس لا يذهبون إلى هناك من أجلها، بل من أجل رؤية موسكو. حاولا أن تصلا إلى البرج. وإن لم تستطيعا يوجد بجانبه بناء طابقي عال أبيض مثل حرف بي وغير مسكون على الأغلب. إذًا... هذه خريطة موسكو لكما وهذه لنا. إنّها خرائب هناك حول السّاحات. أنتما انظرا واتّصلا. أمّا البقيّة فاتبعونا. الأمر ليس معقّدًا جدًّا، أكّد لهما. هل هناك أسئلة؟

وإذا لم يكن لديهم مأوى هناك؟ سأل ارتيوم.

حسنًا، نحن لا نستطيع أن نفعل المستحيل، ضرب المطارد الخارطة براحة يده، ولديّ مفاجئة هنا لكما، أضاف وهو يغمز أرتيوم.

أخرج ميلنك حقيبة بوليثيلين بيضاء بعد أن وصل إلى حقيبة ظهره، مع صورة ملوّنة بالية على طرفها. نظر أرتيوم بداخلها فأخرج جواز سفر بال وكتاب الأطفال مع الصّورة المدلّلة الّتي وجدها في الشّقّة المهملة في كالينسكي. حين هرع أرتيوم مسرعًا وراء أوليج ترك كنوزه في كييفسكايا، وذهب ميلنك إلى هناك وجلبها له معه. كان أولمان يجلس بجانب أرتيوم فنظر إليه بحيرة، ثمّ إلى المطارد.

أشياء شخصيّة، قال ميلنك وهو يبتسم. وأراد أرتيوم أن يشكره، لكنّ المطارد نهض عن مقعده قبل ذلك، وكان يعطي الأوامر للمقاتلين كي يتجمّعوا.

صعد أريتوم إلى أنطون الّذي كان مستغرقًا في أفكاره.

حظًّا جيّدًا، ومدّ يده إلى الحارس. أومأ أنطون بصمت، ووضع حقيبة الظّهر على ظهره. وكانت عيناه فارغتين تمامًا.

حسنًا، هذا كلّ شيء، لن نقول وداعًا. دوّنا الوقت، قال ميلنك، ثمّ استدار ورحل دون أن ينطق بكلمة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التّاسع عشر: المعركة الحاسمة

حرّكا الغطاء الحديديّ الصّلب الثّقيل عن فتحة الدّخول جانبا، ونزلا الدّرج. كان بئر المصعد الضّيّق العموديّ مكوًّنا من حلقات إسمنتيّة، نتأت عن كلّ حلقة سنّاد معدنيّ مثّلثي الشّكل. تغيّر أولمان فورًا بعد أن أصبحا لوحديهما. وكان يكلّم أرتيوم بعبارات قصيرة من مقطع واحد، وكان أغلبها إعطاء أوامر أو لوم وتأنيب. وبمجرّد أن حرّكوا الغطاء، أمر أرتيوم أن يشعل المصباح ويضع جهاز الرّؤية اللّيليّة وأن ينزل أوّلًا. زحف أرتيوم للأسفل متمسّكًا بالمساند. ولم يفهم حقيقة، سبب كلّ هذه التّحذيرات بما أنّهم لم يصادفوا أيّ خطر في طريقهم بعد الكرملين. وأخيرًا قرّر أرتيوم أنّ المطارد أعطى أولمان تعليمات خاصة، وبعد أن تُرك بلا قائد ملأ دور القائد نفسه بالحماس. ضرب أولمان أرتيوم على قدمه كإشارةَ للتّوقّف. فجمد أرتيوم في مكانه مطيعًا، وانتظر حتّى يشرح له أولمان ما كان يحدث. ولكن، سُمِعت ضربة ناعمة من الأسفل بدلًا من الشّرح. قفز أولمان على الأرض، وبعد بضع ثوان سمع أرتيوم طلقات بندقيّة مكتومة.

قال أولمان لأرتيوم في همسة عالية: يمكنك النّزول. بدأ أرتيوم بالنّزول، وحين انتهت المساند الحديديّة، حرّر يديه وسقط مترين تقريبًا، واستقرّ على أرض إسمنتيّة. رفع نفسه ونفض الغبار عن يديه ونظر حوله. وجدا نفسيهما في دهليز قصير طوله خمسة عشر مترًا تقريبًا. وفتحة الدّخول مفتوحة فوقهما في السّقف. وهناك فتحة أخرى مثلها في الأرض مع نفس الغطاء الحديديّ الصّلب المخدّد. وبجانبه وفي بركة من الدّم، انقلب وجه همجيّ ميّت إلى الأسفل وهو يعصر أنبوب النّفخ بقوّة في يده حتّى بعد موته.

كان يحرس الممرّ، ردّ أولمان بهدوء على نظرة أرتيوم المتسائلة، لكنّ النّوم غلبه. وعلى الأغلب لم يتوقّع أن يزحف أحد من هذا الجانب، فوضع أذنه على الباب وخرّ نائمًا.

هل قتلته... ماذا؟ بينما كان نائمًا؟ سأل أرتيوم.

وماذا في ذلك؟ لم تكن معركة عادلة، قال أولمان بازدراء. الآن سيتعلّم ألّا ينام أثناء الحراسة إن لم يتعلّم شيئًا آخر. وبأيّ حال، كان شخصًا سيًّئا إذ لم يراع يومهم المقدّس. فقد بُلِّغ ألّا يدخل إلى الأنفاق.

جرّ أولمان الجثّة جانبًا، وفتح الفتحة وأشعل مصباحه مرّة أخرى. كان بئر المصعد قصيرًا جدًّا هذه المرّة، ويؤدّي إلى مكتب مملوء بالنّفاية. جبل من صفائح معدنيّة وتروس ونوابض ودرابزونات مطليّة بالنّيكل، وقطع غيار كافية لحافلة كاملة، أخفت فتحة الدّخول عن الأعين الفضوليّة تمامًا. كانت مكوّمة فوق بعضها البعض في فوضى، عاليًا حتّى السّقف، وبقيت هناك بمعجزة. هناك ممرّ ضيّق بين هذه الكومة والجدار، لكنّ اجتيازه دون لمس وهدّ الجبل الكامل من المعدن، كان من شبه المستحيل.

باب طمِر بالقذارة حتى منتصفه، يذهب من المكتب إلى نفق مربّع غير عاديّ. وعلى اليسار هناك خطّ مسدود بعائق ماطن أو أنّهم أوقفوا المسار لسبب ما. وإلى اليمين نفق نظاميّ مدوّر وعريض. وبدا لهما وكأنّ حدًّا بين عالمين متشابكين تحت الأرض هنا. حتّى التّنفّس كان مختلفًا، فالهواء رطب جدًّا لكنّه لم يكن شبحيًّا وراكدًا كما في ممرّات دي6 السّرّيّة. لم يتأكّدا إلى أيّ مكان سيذهبان. وقرّرا ألّا يتحرّكا إلى الخارج بشكل عشوائيّ، وبما أنّ هناك مخفر متقدّم من الرّايخ الرّابع على هذا الخطّ. فحسب الخارطة تُقدّر المسافة من مایاکوفسکي إلى تشيخوفسكايا بعشرين دقيقة. فتّش أرتيوم في الحقيبة الّتي بها أشياءه، ووجد الخارطة الملوّثة بالدّم، والّتي حصل عليها من دانيال وعرف الوجهة الصّحيحة منها. وبأقلّ من خمس دقائق وصلا إلى مايكوفسكايا.

جلس أولمان على منضدة، وخلع عن رأسه الخوذة الثّقيلة وتنهّد بارتياح، ومسح وجهه الأحمر الرّطب بكمّه، ومرّر أصابعه بشعره الأشقر الغامق القصير. ورغم بنيته القويّة وعاداته كذئب أنفاق قديم، بدا أولمان أكبر من أرتيوم بقليل.

وبينما كانا يبحثان عن مكان يشتريان منه الطّعام، استطاع أرتيوم تفحّص المحطّة. ولم يعد يعرف كم مضى من الوقت على آخر وجبة تناولها. لكنّ معدته المؤلمة لم تعد قضيّة مسلّية. ولم يكن لدى أولمان مؤونة أكثر منه، لقد رحلا بسرعة ولم يجلبا سوى الضّروريّ.

كانت مایاکوفسکایا تشبه كييفسكايا. كانت ظلًّا لمحطّة أنيقة وبهيجة سابقة. وفي هذا النّصف المدمّر من المحطّة احتشد النّاس في خيام ممزّقة، أو في الخارج على المنصّة. كانت الجدران والأسقف مغطّاة بلطخ رطبة تقطر ماء. ولم يكن هناك سوى موقد صغير واحد لكلّ المحطّة، ولكنّه بلا وقود. النّاس يتحدّثون مع بعضهم في هدوء وكأنّهم بجانب سرير رجل يحتضر. ويوجد هناك حانوت واحد هو عبارة عن خيمة مرقّعة تتّسع لثلاثة رجال مع طاولة مطويّة ظهرت في المدخل. والاختيار محدود ومتواضع، جثث جرذان مسلوخة مجفّفة، وفطر ذابل ينتج هنا غير معروف متى أنتج، ومربعات من الطّحالب غير المقطّعة أيضًا. وضعت بطاقة بالثّمن بجانب كلّ مادّة في فخر، على قطع من صحف إخباريّة عليها أرقام كتبت بعناية بخطّ اليد. لم يكن هناك متسوّقين غيرهما تقريبًا، بالإضافة إلى امرأة حدباء تُعاني من سوء التّغذية تمسك بصبيّ صغير بيدها. كان الولد يجرّها نحو جرذ مستلق على منصّة العرض، لكنّ أمّه وبّخته:

لا تلمسه، لقد أكلنا لحمًا هذا الأسبوع. فأطاع الصّبيّ، لكنّه لم ينس أمر الجثّة لوقت طويل، فما أن التفتت الأمّ بعيدًا حتّى حاول مرّة أخرى أن يصل إلى الحيوان الميّت.

كولكا، ماذا قلت لك؟ إن كنت سيّئًا ستخرج الشّياطين من الأنفاق وتخطفك، ساشكا لم يطع أمّه فأخذته. وبّخت الأمّ ابنها ونجحت في آخر لحظة في إبعاده عن المنصّة.

لم يستطع أرتيوم وأولمان أن يقرّرا. وبدأ أرتيوم يفكّر أنّه بإمكانه البقاء حيًّا حتّى يصل إلى بروسبكت مير، حيث يكون الفطر طازجًا على الأقلّ.

ما رأيكما ببعض الجرذان؟ نقليها أمام الزّبون، قال صاحب الحانوت الأصلع ببعض الكرامة. شهادة في النّوعية، أضاف بشكل غامض.

شكرًا، لقد أكلت للتّوّ، أسرع أولمان برفض عرضه. أرتيوم ماذا تريد؟ أنا لن آخذ الطّحلب، ستنشب الحرب العالميّة الرّابعة في أحشائك منه.

نظرت المرأة إليه باستياء. ولم يكن في يدها سوى خرطوشتين تكفيان ثمنًا للطّحلب فقط، بالحكم من خلال الأسعار. وحين لاحظت أنّ أرتيوم كان ينظر إلى مالها المتواضع، خبّأت المرأة يدها خلف ظهرها.

لا شيء هنا، زمجرت بحقد.

إن كنت لا تنوين شراء شيء انصرفي من هنا.

نحن لسنا ميليونيريين كلّنا، بماذا تحملق؟

أراد أرتيوم أن يردّ، ولكنّ منظر ابنها حمله بعيدًا. كان الصّبيّ يشبه أوليج كثيرًا. له نفس الشّعر الهشّ الّذي بلا لون، والعينين المحمرّتين، والأنف المقلوب القصير. وضع الصّبيّ إبهامه في فمه وابتسم بخجل لأرتيوم وهو ينظر إليه بنوع من الكآبة. وشعر أرتيوم أنّ شفتيه توسّعتا في ابتسامة رغمًا عنه، وانتفخت عيناه بالدّموع. اعترضت المرأة نظرته وانفجرت غاضبة:

منحرفان لعينان. صرخت والشّرر يقدح من عينيها، لنذهب إلى البيت يا كولينكا، جرّت الصّبيّ من يده.

انتظري، توقّفي لدقيقة واحدة، ضغط أريتوم عدّة ظروف طلقات من مخزن بندقيّته الآليّة الاحتياطي، ولحق بالمرأة وأعطاها لها. تفضّلي هذه لك. لكوليا.

نظرت إليه بارتياب ثمّ لوت فمها بازدراء:

ماذا تظنّ أنّك تستطيع أن تحصل مقابل خمس خرطوشات؟ أن يكون طفلك؟

لم يفهم أرتيوم فورًا ما كان في ذهنها. وأخيرًا أتته الفكرة، وكاد أن يفتح فمه ويبدأ في الاعتذار، لكنّه لم يقدر أن ينطق بشيء. ووقف هناك فقط يحدّق بالخلاء. استبدلت الأمّ الّتي رضيت بالنّتيجة الّتي أحدثتها، فاستبدلت الغضب بالرّحمة.

موافقة بالتّأكيد، عشرون خرطوشة لنصف ساعة.

هزّ أريتوم رأسه مصعوقًا واستدار وانطلق راكضًا.

أيّها المهزوز، حسنًا أعطني خمس عشرة، صاحت المرأة خلفه

مازال أولمان واقفًا هناك يناقش شيئًا مع البائع.

حسنًا، ماذا عن الجرذان؟ ألم تقرّر بعد؟ سأل مالك الخيمة في كياسة بعد أن رأى أرتيوم يعود. لحظة أخرى وستبدأ بمساومتي.

فهم أريتوم لذلك جرّ أولمان خلفه وعجّلا في الخروج من هذه المحطة الملعونة. إلى أين أنت ذاهب بهذه السّرعة؟ سأل المقاتل حين كانا يسيران عبر النّفق في اتّجاه بيلوروسكايا، وبينما كان يحاول التأقلم مع الورم الّذي ظهر في حلقه حكى له أرتيوم ما حدث معه. لكنّ القصّة لم تخلق أيّ انطباع خاصّ عند أولمان.

وماذا في ذلك؟ يجب عليها أن تعيش بطريقة ما، ردّ.

لماذا مثل هكذا حياة ضرويّة بأيّ حال؟ تشنّج وجه أرتيوم: هل لديك أيّ فكرة؟

هزّ أولمان كتفيه العريضتين بلامبالاة.

ما معنى حياة كهذه؟ تتمسّك بها وتتحمّل هذه القذارة والذّلّ، وتدوس على أطفالك وتتخم وجهك بالطّحلب، من أجل ماذا؟ توقّف أرتيوم فجأة حين تذكّر هنتر الّذي كان يتحدّث عن غريزة البقاء، وعن حقيقة أنّ الإنسان يقاتل مثل حيوان برّيّ متوحّش من أجل حياته وبقاء الآخرين بكلّ قوّته. بعد ذلك ومنذ البداية أشعلت كلماته في نفس أرتيوم الأمل والرّغبة في القتال مثل ذلك الضّفدع الّذي خفق القشدة في إناء بقدميه، فتحوّلت إلى زبدة. والآن تبدو هذه الكلمات الّتي تفوّه بها زوج أمّه صادقة أكثر من قبل لسبب ما.

من أجل ماذا؟ أولمان عذّبه.

حسنًا، جيّد أيّها الشّابّ،من أجل ماذا تعيش أنت؟ ندم أرتيوم لأنّه تورّط في هذه المحادثة. فهو يقدّره كمقاتل تمامًا، ويعتبره ممتازًا. لكنّه كرفيق لم يكن ممتعًا أبدًا، ورأى أرتيوم أن الجدال معه حول معنى الحياة لا فائدة منه.

حسنًا أنا شخصيًّا، من أجل ماذا، ردّ بغضب لأنّه لم يستطع أن يتحمّل.

حسنًا، من أجل ماذا؟ بدأ أولمان يضحك. من أجل إنقاذ البشريّة؟ دعك من هذا، فهذا هراء. أنت لا تنقذها وهي لشخص آخر. أنا مثلًا، وأشعل المصباح على وجهه لكي يراه أرتيوم فلوى قسمات وجهه ليبدو كبطل. نظر إليه أرتيوم بغيرة، لكنّه لم يقل شيئًا. وبالتّالي استمرّ المقاتل: هم لا يستطيعون أن يعيشوا كلّهم من أجل أن يكونوا أبطالًا.

وماذا عنك أنت، هل ترى أنّ الحياة بلا معنى؟ حاول أرتيوم أن يطرح السّؤال بشكل ساخر.

كيف هي بلا معنى؟ إنّها ذات معنى بالنّسبة لي بنفس الطرّيقة الّتي تعني بها لكلّ واحد. وعمومًا البحث عن معنى الحياة يحدث عادة أثناء سنّ البلوغ. لكن بالنّسبة لك، يبدو أنّها أخذت وقتًا أطول. لم تكن نغمته عدوانيّة ومؤذية، لذلك لم يتجهّم أرتيوم. ملهمًا بنجاحه تابع أولمان: أنا أتذكّر حين كنت في السّابعة عشر من عمري حاولت أن أفهمها أيضا. لقد مرّت، لا يوجد للحياة إلّا معنى واحدًا يا أخي، أن تنجب الأطفال وتربّيهم. لكن دعهم يتعذّبون في السّؤال والإجابة عليه كما يستطيعون. تلك هي النّظريّة، وابتسم ثانية.

إذا لماذا أتيت معي؟ ألا تخاطر بحياتك؟ إن كنت لا تؤمن بإنقاذ البشريّة، إذا لماذا؟ سأل أرتيوم بعد وقت قصير.

أوّلا: أنا أمرت أن افعل هذا، قال أولمان بقسوة، والأوامر لا تناقش. ثانيًا: لا يكفي أن تنجب أطفالًا، يجب عليك أن تربّيهم. وكيف سأربّيهم وأجعلهم يكبرون إن كان الرّعاع خاصّتك من فدنكه يأكلونهم؟ رسمت هذه الثّقة بالنّفس الّتي نضحت منه، وقوّته وكلماته،صورة بسيطة للعالم، ومنظمة بشكل مغري لدرجة أنّ أرتيوم لم يعد يريد الجدال معه، وشعر من جانب آخر أنّ المقاتل كان يلهمه بالثّقة أيضًا.

كما قال ميلنك، تبيّن أنّ النّفق بين ماياكوفسكايا وبيلوروسكايا هادئ. صحيح، شيء ما كان يخبط في أعمدة التّهوية، ولكن مرّت جرذان متسلّلة بحجم عادي بضع مرّات، وذلك طمأن أرتيوم ثانية. كان القطّاع قصيرًا بشكل مدهش إذ لم يكملا الجدال حتّى ظهرت أضواء المحطّة أمامهم.

أثّرت هانسا على بيلوروسكايا كثيرًا لكونها قريبة منها، وبدا على الفور أنّها لم تكن محميّة جيّدا. بُنِي حصن صغير لصدّ النّيران على بعد عشرة أمتار من المدخل، وركّز رشّاش خفيف على أكياس ملأت بالقذارة. وكانت مفرزة الحرس مؤلّفة من خمسة رجال. بعد أن فتّشوا وثائقهما (و هنا كان جواز السّفر الجديد موجودًا) سألوهما بأدب إن كانا من الرّايخ. أجابا بكلّا وطمأنوا أرتيوم بعدم وجود شيء ضدّ الرّايخ هنا، وأنّ محطّتهم محطّة تجاريّة وملتزمة بالحياد، ولا تتدخّل بالصّراعات بين القوى، هانسا والرّايخ والخطّ الأحمر كما سمّاها رئيس الحرس.

وقبل مواصلة رحلتهما على طول الرّينغ، قرّر أرتيوم وأولمان أن يستريحا ويتناولا بعض الطّعام، فجلسا في حانة أنيقة غنيّة تقدّم الوجبات الخفيفة. وبينما كانا يأكلان شرائح اللّحم اللّذيذة والرّخيصة بأضلاعها، حصل أرتيوم على معلومات عن بيلوروسكايا.

جلس رجل أشقر الشّعر مدوّر الوجه، إلى طاولة مقابل طاولتهما، وقدّم نفسه بليونيد بيتروفتش، وكان يلتهم قطعة طويلة من لحم الخنزير والبيض، وحين فرغ فمه أخبرهما بسرور عن محطّته. لقد نجت بيلوروسكايا بفضل مرور لحم الخنازير ولحم الدّجاج عبرها. وهناك مشاريع ضخمة وناجحة وراء الرّينغ، أقرب إلى سوكول وحتّى فوكوفسكايا، رغم أنّ الأخيرة قريبة من السّطح بشكل خطر. كليومترات من الأنفاق والخطوط الهندسيّة حُوِّلت إلى مزارع لتربية المواشي والدّواجن الّتي تطعم كلّ هانسا، وتُحوِّل البضائع إلى الرّايخ الرّابع وإلى الخطّ الأحمر الشّبه جائع دائمًا. بالإضافة إلى ذلك فقد ورث أهالي دينامو عن أسلافهم حرفة الخياطة، فهم يخيطون سترًا من جلد الخنزير رآها أرتيوم في بروسبيكت مير.

ولا يوجد أيّ خطر خارجيّ من نهاية خطّ زاموسكفوريتسكايا، وفي كلّ السّنين الّتي عشناها في المترو لم يستثن أحد سوكول أو المطار أو دينامو من التّجارة. هانسا لا تطالبهم بشيء فهي راضية بجمع المكوس من انتقال البضائع، وبنفس الوقت هم يوفّرون لهم حماية من الفاشيّين والحمر. إن كان كلّ المقيمين في بيلوروسكايا

يعملون بالتّجارة. كما حقق مزارعون من سوكول وخيّاطون من ديناموا فوائدًا من تسليم البضائع بالجملة وتوزيعها. إنّ جلب كميّة من الخنازير أو الدّجاج الحيّ بعربات اليد وعربات التّرام الّتي يجرّها الرّجال، فيقوم النّاس في الجانب الآخر كما يكنّونهم هنا، بإفراغ ممتلكاهم بواسطة رافعات خاصّة نُصبت من أجل هذه الأغراض على المنصّات، ويقومون بتسوية حساباتهم ويغادرون إلى أوطانهم بعد ذلك. ازدهرت الحياة وتنشّطت في المحطّة. ونقل التّجّار المصمّمون (في بيلوروسكايا كانوا يسمّون "مدراء" لسبب ما) من (الترمينال محطّة بنهاية الخط) من مواقع التّفريغ إلى المستودعات، حقائبًا مجلجلة بالخراطيش، ووزّعوا التّعليمات للحمّالين الأقوياء. عربات صغيرة على عجلات مزيّتة جيًّدا محمّلة بصناديق ورزم، تتدحرج بلا ضجيج نحو صفوف من المناضد إو إلى خطّ الرّينغ الحدوديّ، حيث يتنظر مبعوثو الرّايخ تفريغ حمولة طلباتهم. كان عدد الفاشيّين هنا قليل جدًّا، وكان أغلبهم من الضّبّاط وليسوا من النّاس العاديّين، ويتصرّفون بأدب. كانوا متغطرسين قليلًا لكن ضمن حدود الأدب، وينظرون بعداونيّة إلى الرّجال من ذوي البشرة الدّاكنة والشّعر الأسود المتواجدين بأعداد كافية، من تجّار محليّين وحمّالين. ولم يحاول الفاشيّون فرض معتقداتهم أو قوانينهم على أحد.

ولدينا بنوك هنا أيضًا... جاءت أغلبها إلينا من الرّايخ من أجل البضائع كما يفترض، لكنّها في الحقيقة أتت لاستثمار مدّخراتها، شارك رفيقه الحديث مع أرتيوم.

أشكّ أنّهم سيلمسوننا أو يتعرّضوا لنا، فنحن مثل سويسرا بالنّسبة لهم، أضاف بشكل مبهم.

إنّ أموركم جيّدة هنا، قال أرتيوم بأدب.

ليس نحن فقط، وإنّما كلّ بيلوروسكاي. إذًا من أين أنتما؟ سأل ليونيد بيتروفيتش أخيرًا بدافع الاحترام. وتظاهر أرتيوم أنّ اهتمامه كان مركّزًا على طعامه ولم يسمع السّؤال.

أنا من فدنكه، ردّ أرتيوم وهو يسترق النّظر إليه.

ماذا تقول؟ يا للهول. وضع ليونيد بيتروفتش سكّينه وشوكته من يده، يقولون أنّ الأشياء هناك سيّئة فعلًا؟ سمعت أنّهم معلّقين بخيط. نصف النّاس ماتوا... هل هذا صحيح؟

علقت كتلة من الطّعام في حلق أرتيوم. يجب عليه أن يصل إلى فدنكه سواء كان ذلك الأفضل أم الأسوأ، ليرى أهله وجماعته للمرّة الأخيرة ربّما. كيف استطاع أن يضيّع وقتًا ثمينًا في الأكل؟ أبعد عنه الطّبق وسأل عن الفاتورة، وجرّ أولمان معه رغم اعتراضه. مرّا بالمناضد مع اللّحم والثّياب في فتحات القناطر، ومرّا بأكوام البضائع وبائعي المقايضة الجوّالين والحمّالين النّشيطين، والضّبّاط الفاشيّين الّذين يتجوّلون بشكل رصين، واتّجها نحو العبور إلى الخطّ الأحمر. فوق المدخل علقت قطعة قماش بيضاء مع دائرة بنيّة في الوسط. وفتّش وثائقهما اثنان من الرّماة في ثياب مموّهة رماديّة، وفتّشوا أشياءهم أيضًا. لم ينجح أرتيوم في الدّخول إلى أرض هانسا

بنفس السّهولة السّابقة. كان أولمان يمضغ قطعة الكستليتة التي دسّها في جيبه، وقدّم نوع هوية غير معروف لحرّاس الحدود، فأزاحوا قسمًا من الحاجز بصمت، وسمحوا لهما بالدّخول.

أيّ نوع من جوازات المرور ذلك؟ كان أرتيوم فضوليًّا.

إذًا... كتيّب المكافأة من أجل الوسام، من أجل خدمة الوطن، سخر أولمان منها.

إنّ الكلّ مدانون لكولينيلنا.

كان معبر الرّينغ خليطًا غريبًا من قلعة ومستودعات. وحدود هانسا الثّانية تبدأ بعد جسور المشاة التي فوق المسارات. متاريس حقيقيّة نُصبت هناك مع بنادق آليّة وقاذف لهب أيضًا. وعلى مسافة أبعد قليلًا انتشرت حامية كاملة مؤلّفة من عشرين جنديّ على الأقلّ بجانب نصب تذكاريّ من البرونز لرجل ملتحي، مع بندقيّة آليّة وفتاة ضعيفة وصبيّ كئيب، وأسلحة (على الأرجح كانوا مؤسّسي بيلوروسكايا أو أبطال معركة مع المتحوّلين كما ظنّ أرتيوم)

هذه الحامية بسبب الرّايخ، شرح أولمان لأرتيوم. هكذا هو الأمر مع الفاشيّين، ثق لكن تأكّد وتحقّق. لم يلمسوا سويسرا طبعًا، لكنّهم أخضعوا فرنسا لحكمهم.

هناك ثغرات في معرفتي بالتّاريخ، اعترف أرتيوم بارتباك. لم يستطع زوج أمّي إيجاد الكتيّب المدرسيّ الخاصّ بالصّفّ العاشر، لكنّي قرأت قليلًا عن الإغريق القدماء.

تقاطرت سلسلة لانهائيّة من الحمّالين مع صرر على أكتافهم، كالنّمل من أمام الجنود. كانت الحركة منظّمة جيّدًا حيث ينزل الحاملون على سلّم واحد، ويعودون بلا حمل على السّلّم الآخر. وهناك سلّم ثالث خُصّص للمارّة الباقين. وفي الأسفل جلس رامي بندقيّة آليّة في كشك زجاجيّ يراقب المصعد. فحص وثائق أرتيوم وأولمان مرّة أخرى وأعطاهما أوراق عليها ختم (تسجيل مؤقّت-للعبور) والتّاريخ.

سمّيت المحطّة بيلوروسكايا أيضًا، لكنّ الاختلاف عن أختها التّوأم كان لافتًا. كانتا مثل توأمين انفصلا عند الولادة، فانتهى أحدهما في كنف عائلة ملكيّة، والآخر تبنّاه رجل فقير وربّاه. ولقد خبا كلّ الازدهار الّذي عرفته بيلوروسكايا الأولى، بالمقارنة مع محطّة الرّينغ الّتي ومضت بجدران بيضاء متألّقة ونقوش الجصّ المعقّدة الفاتنة على السّقف، وبمصابيح النّيون الباهرة الّتي لم يضاء منها سوى ثلاثة في كلّ المحطّة، ومع ذلك كان ضوءها كافيًا ويزيد. انقسم الحمّالون على المنصّة إلى قسمين. مجموعة مشت عبر القناطر على اليسار، والأخرى على اليمين. يرمون رزمهم في أكوام ويعودون راكضين لجلب رزم جديدة. وهناك موقفان عند المسارات، واحد للبضائع نُصبت فيه رافعات صغيرة، والآخر للمسافرين، يقع فيه مكتب التّذاكر. وفي كلّ خمسة عشر أو عشرين دقيقة تمرّ بالمحطّة عربة حمولة يدويّة مزوّدة ببدن مكوّن من ألواح خشبيّة في الأرضيّة لحمل الصّناديق والرّزم. وعند قبضات العربة اليدويّة يقف ثلاثة رجال أو أربعة بالإضافة إلى حارس واحد لكلّ عربة.

كان وصول عربات المسافرين أندر بكثير، ممّا اضطرّ أرتيوم وأولمان أن يتنظرا أكثر من أربعين دقيقة. كما شرح لهم جابي التّذاكر فإنّ عربات المسافرين تنتظر حتّى يتجمّع عدد كاف من النّاس، لكي لا ترسل عدد من العمّال في رحلات قصيرة لا مبرّر لها. إنّ حقيقة وجود مكان في المترو تستطيع فيه شراء تذكرة (خرطوشة لكلّ محطّة) وتمرّ من محطّة لأخرى كما في الماضي، أدهشت أرتيوم كثيرًا. حتّى أنّه نسي تمامًا مشاكله لبعض الوقت، ووقف يراقب تحميل البضائع، ورأى كم كانت الحياة جميلة في المترو سابقًا حين كانت القطارات الضّخمة المذهلة تتحرّك على المسارات، وليس على العربات اليدويّة.

ها هي العربة الّتي ستحملكم قادمة، أعلن جابي التّذاكر وبدأ يدقّ بجرس صغير. تدحرجت عربة يد كبيرة ربطت بها عربة ترام مع مناضد خشبيّة، ثمّ وقفت. وبعد أن أبرزا تذاكرهما، جلسا على مقاعد خالية. بعد انتظار بضع دقائق أخرى للمسافرين المتأخّرين، تحرّكت العربة. وضعت نصف المناضد بحيث يكون وجه المسافرين إلى الأمام ووجه النّصف الآخر منهم إلى المؤخّرة. جلس أرتيوم على مقعد يواجه فيه المؤخّرة، وجلس أرتيوم في المقعد المتبقّي وظهره لأرتيوم.

لماذا رُتّبت المقاعد بهذا الشّكل الغريب في اتّجاهات مختلفة؟ سأل أرتيوم جارته وكانت امرأة عجوز سليمة في حوالي السّتّين من عمرها، ترتدي شالًا صوفيًّا مغربلًا بثقوب. فهذا وضع غير مريح كما تعرفين.

نفضت يديها.

وماذا في ذلك؟ هل ستدع النّفق يجنّ؟ أنتم الشّبّان طائشون، ألم تسمع بما حدث هناك قبل الأمس؟ حسنًا، جرذ كهذا، أومأت العجوز برعب، قفز من ناقلة وسحب مسافرًا.

لم يكن جرذًا، استدار رجل في سترة مبطّنة وقاطعها: إنّه واحد من المتحوّلين، هناك عدد كبير من المتحوّلين قرب كورسكايا..

وأنا أقول، جرذ، أخبرتني جارتي نينا بروكويفنا. هل تظنّ أنّني لا أعرف؟ قالت المرأة العجوز باستياء.

تجادلا لوقت طويل، ولكن لم يعد أريتوم يصغي إلى محادثتهما. فقد تحوّلت أفكاره إلى فدنكه مرّة أخرى. لقد قرّر مسبقًا وقبل أن يصعد إلى السّطح وينطلق في رحلته إلى برج أوستانكينو مع أولمان، أن يحاول العبور والوصول إلى محطّته الأم. هو لا يعرف للآن كيف سيقنع شريكه بذلك، لكنّه شعر أنّ هذه ربّما تكون الفرصة الأخيرة ليرى بيته وأصدقاءه، ولا يستطيع تجاهلها. من يعرف ماذا سيحدث لاحقًا؟ لقد قال المطارد أنّ مهمّتهما ليس فيها شيء معقّد، إلّا أنّ أرتيوم لم يصدّق أنّه سيقابله مرّة أخرى أبدًا. على أيّ حال وقبل البدء بالتّسلّق النّهائيّ للأعلى، يجب عليه أن يعود إلى فدنكه لبعض الوقت على الأقلّ. كيف ستبدو فدنكه؟ لحن موسيقيّ متناغم ومحبّب أستطيع سماعه وسماعه، فكّر أرتيوم. هل كان معارفه العرضيّين في بيلوروسكايا يتكلّمون الحقيقة؟ هل كانت المحطّة فعلًا على شفا السّقوط أمام هجوم

الدّارك ونز؟ هل مات نصف المدافعين عنها سلفًا؟ كم غاب عنها؟ أسبوعان؟ ثلاثة؟ أغلق عينيه وحاول أن يتخيّل قناطر محطّته المحبوبة وخطوط قببها الأنيقة، وشبكة قضبان تهويتها النّحاسيّة المطروقة بشكل دقيق وصفوف الخيام في الصّالة. تأرجحت عربة اليد بعد وهلة إلى قعقعة مهدّئة للعجلات، ولم يلاحظ أرتيوم أنّها نوّمته. كان يحلم بفدنكه مرّة أخرى...

لم يعد يدهشه أيّ شيء بعد الآن، ولم يحاول أن يصغي أو يفهم. لم يكن هدف حلمه في المحطّة، وإنّما في النّفق. ذهب أرتيوم مباشرة إلى المسارات بعد أن غادر الخيمة، وقفز للأسفل واتّجه جنوبًا نحو الحدائق النّباتيّة. لم يعد الظّلام يخيفه، وإنّما شيء آخر، كان خوفه من اللّقاء القادم في النّفق. من ينتظره هناك؟ ما الهدف منه؟ لماذا تخونه شجاعته دائمًا في النّهاية؟

ظهر توأمه أخيرًا في أعماق النّفق. اقتربت خطوات ناعمة واثقة بالتّدريج كما من قبل، فشعر أرتيوم بأعصابه تخونه، لكنّه تصرّف هذه المرّة بشكل أفضل. اهتزّت ركبتاه لكنّه استطاع السّيطرة عى نفسه، وانتظر حتّى وصل إلى المخلوق الخفيّ. غطّاه عرق بارد لزج، لكنّه لم يهرب حين أخبره تموّج الهواء الخفيف أنّ الكائن الغامض كان على بعد بضع سنتمرات من وجهه.

لا تهرب... انظر في عيون قدرك وقسمتك... همس بأذنه حفيف صوت ناشف. وهنا تذكّر أرتيوم، كيف نساه في كوابيسه الماضية؟ إنّ لديه ولّاعة في جيبه. تلمّسها وقدحها واستعدّ ليرى من كان يكلّمه. وعلى الفور أصابه الخدر ولم يشعر بشيء سوى أنّ أقدامه تجذّرت بالأرض. كان واحدًا من الظّلاميّين يقف بجانبه ولا يتحرّك. عيناه السّوداوتين بلا بؤبؤ، ومفتوحتان تمامًا تبحثان عن نظرته. فصاح أرتيوم بصوت عال بأقصى ما استطاع.

اللّعنة، وضعت المرأة العجوز يدها على قلبها وتنفّست بصعوبة. كيف لك أن تخيفني أيّها الطّاغية.

سامحيه من فضلك. إنّه معي و... وهو عصبيّ، التفت أولمان حوله وقال.

لكن ماذا رأيت هناك وجعلك تصرخ عاليًا؟ رمته المرأة العجوز بنظرة استغراب من تحت جفونها المنتفخة شبه المغمضة.

لقد كان حلمًا، أصابني كابوس، أجاب أرتيوم: سامحيني.

حلم؟! حسنًا الشّبّان سريعو التّأثّر. ثمّ بدأت تنوح وتشاحن مرّة أخرى.

في الواقع لقد نام أرتيوم وقتًا أطول، حتّى أنّه نام في الموقف عند نوفوسلوبودسكايا. ولكن لم يتسنّ له الوقت ليتذكّر مافهمه في نهاية كابوسه، لأنّ عربة المسافرين اليدويّة وصلت إلى بروسبيكت مير.

كان الوضع مختلفًا بشكل لافت عن الرّخاء الّذي تنعم فيه بيلوروسكايا. لم يعد الازدهار التّجاريّ إلى ما كان عليه في بروسبيكت مير، ولا حتّى علامة منه. ولكن من جانب آخر يلاحظ المرء فورًا وجود عدد كبير من الضّبّاط العسكريّين، قوّات

خاصّة وضبّاط يضعون إشارات تبيّن أنّهم من قوّات الهندسة. ومن طرف المنصّة الآخر وقفت على المسارات عربات حمولة محميّة كثيرة ومزوّدة بمحرّكات، مع صناديق غريبة مغطّاة بقماش زيتيّ ترابولين. وفي الصّالة هناك خمسون شخصًا تقريبًا يرتدون ملابس رثّة مع صناديق ثياب ضخمة موضوعة على الأرض، ينظرون حولهم بيأس.

ما الّذي يجري هنا؟ سأل أرتيوم أولمان.

ليس المهمّ ما يجري هنا، المهمّ هو ما يجري في فدنكه، ردّ المقاتل.

من الواضح أنّهم ينوون نسف النّفق وتفجيره. إن زحف الدّارك ونز عبره من بروسبيكت مير وستردّ هانسا على ذلك. الاحتمال الأكبر أنّهم يستعدّون إلى ضربة استباقيّة.

وبينما كانوا يعبرون إلى خطّ كالوجكا-ريجيسكايا، اقتنع أرتيوم أكثر بأنّ تخمين أولمان كان صحيحًا على الأغلب. كانت القوّات الخاصّة التّابعة لهانسا ناشطة في محطّة نصف قطريّة يفترض ألّا تكون. لقد سُدّ المدخلان الاثنان اللّذان يؤدّيان إلى الشّمال نحو فدنكه والحدائق النّباتيّة، وسوّرا. أحد ما بنى حصونًا مؤقّتة هنا في المكان الّذي يحرس فيه حرّاس حدود هانسا. لم يكن هناك زوّار في السّوق، وكانت نصف المواقف فارغة، والنّاس يتهامسون بعصبيّة وكأنّ بليّة محتومة تلوح فوق المحطّة. احتشد عدد كبير من النّاس في زاوية واحدة، عائلات كاملة مع صرر وحقائب. ونُصب طوق حول طاولة مستديرة مع إشارة كتب عليها (تسجيل المهاجرين).

انتظرني هنا سأذهب لأجد رجلنا. تركه أولمان في منطقة التّسوّق واختفى.

لكن كان لدى أرتيوم بضعة أشياء أراد أن يفعلها بنفسه، تسلّق ونزل على قضبان السّكّة الحديديّة، وصعد على أحد الحصون، وبدأ يتحدّث مع حارس حدود حزين.

هل مايزال الوصول إلى فدنكه ممكنًا؟

نحن مازلنا ندخلهم إلى هنا، لكن لا أنصح في الذّهاب إلى هناك، أجاب الحارس. ألم تسمع بما حدث ويحدث هناك؟ نوع من مصّاصي الدّماء دخلوا إلى المحطّة، كثيرون جدًّا بشكل لا يمكن إيقافهم. وقد سيطروا على كلّ المحطّة تقريبًا. ومن الواضح أنّ الوضع ساخن هناك فعلًا. ولو أنّ قيادتنا البخيلة قرّرت أن تسمح لهم ببعض الذّخائر المجانيّة، لكانوا صدّوهم حتّى يوم غد.

ماذا سيحدث غدًا؟

غدًا سننسف كلّ شي وندمّره. لقد وضعنا ديناميت على بعد ثلاثمائة متر من بروسبيكت في كلا النّفقين، وكلّ شيء سيكون ذكرى عزيزة.

لكن لماذا لا تساعدونهم؟ لدى هانسا القوّة بالتّأكيد، أليس كذلك؟

أخبرتك، يوجد مصّاصو دماء هناك. إنّها تعجّ بهم ولا يوجد ما يكفي من التّعزيزات والدّعم.

لكن ماذا عن النّاس من ريجيسكايا؟ ومن فدنكه نفسها؟

لم يستطع أرتيوم أن يصدّق أذنيه.

نحن حذّرناهم منذ عدّة أيّام، وهم يتقاطرون إلى هنا بشكل قليل. لقد أخذتهم هانسا. ونحن لسنا حيوانات، لكن عليهم أن يسرعوا. حين ينفذ الوقت يفوت الآوان، لهذا يجب عليك أن تصل إلى هناك وتعود بأقرب وقت ممكن. ماذا لديك هناك؟ تجارة؟ عائلة؟

كلاهما، ردّ أرتيوم وأومأ حارس الحدود برأسه عارفًا. كان أولمان واقفًا في القنطرة يتكلّم بهدوء مع شابّ طويل ورجل قويّ وصارم يرتدي معطف ميكانيكيّ، والشّعارات والرّموز الّتي تميّز رئيس المحطّة.

المركبة هناك في الأعلى والخزّان مملوء. على أيّ حال، مازال لديّ جهاز لاسلكي وبدلات واقية وبندقيّة بيشينيغ أخرى، وقنّاصة دراغونوف. أشار الشّاب إلى حقيبتين سوداوتين كبيرتين. يمكننا الصّعود في أيّ وقت. متّى ستحتاجنا في الأعلى هناك؟

سنرسل ونستقبل الإشارات كلّ ثمان ساعات. يجب أن نكون في الموقع قبل ذلك بقليل، ردّ أولمان. هل البوّابة المقاومة للضّغط تعمل؟ خاطب الرّئيس.

إنّها بحالة جيّدة، أكّد الرّئيس.

حين تعطي الكلمة. ليس علينا إلّا أن نبعد النّاس لكي لا يرتعبوا. هذا كلّ ما لديّ. لهذا سنستريح خمس ساعات تقريبًا ثمّ ننطلق إلى الأمام بأقصى سرعة، أوجز أولمان. هيه يا أرتيوم؟ هل نطفىء الأنوار؟

أنا لا أستطيع، أخبره أرتيوم وهو يجرّ شريكه جانبًا. يجب أن أعود إلى فدنكه لأودّعها وأنظر إليها. أنت كنت محقًّا، سوف ينسفون كلّ الأنفاق من بروسبيكت مير. ولن أرى محطّتي بعد الآن حتّى لو عدت حيًّا من هناك. يجب علي بكلّ صدق.

اسمع، إن كنت خائفًا من الصّعود من الدّارك ونز، قل هذا، وبدأ أولمان تقريبًا، لكن عندما رأى نظرة أرتيوم توقّف. كنت أمزح، سامحني.

صدقًا، يجب عليّ الذّهاب، كرّر أرتيوم. لم يستطع شرح شعوره لكنّه عرف أنّه يجب أن يصل إلى فدنكه مهما كانت التّكلفة.

حسنًا، إن كان عليك ذلك فليكن، ردّ المقاتل مرتبكًا. ليس لديك الوقت لتعود، خصوصًا إن كنت عازمًا على توديع أحد ما هناك. وإليك ما سنفعله نحن:

سننطلق من هنا إلى بروسبيكت مير في مركبة مع باشكا، ذاك الّذي معه الحقائب. نوينا سابقًا أن نذهب مباشرة إلى البرج، لكنّنا نستطيع أن نأخذ لفّة ونقترب من المدخل القديم لمترو فدنكه. كلّ شيء جديد انقلب رأسًا على عقب، يجب أن يعرف

أهلك ذلك. سننتظرك هناك. بعد خمس ساعات وخمسين دقيقة. وكل من لا يكون هناك في الوقت المحدّد، يكون قد تأخّر. هل لديك ساعة؟ تفضّل خذ ساعتي، سوف آخذ واحدة من باشكا. فكّ السّوار المعدنيّ.

بعد خمس ساعات وخمسين دقيقة. أومأ أرتيوم برأسه، صافح أولمان وجرى مسرعًا نحو الحصون. هزّ حارس الحدود رأسه حين رآه مرّة أخرى.

هل هناك أيّ شيء آخر يحدث في هذا المعبر؟ سأل أرتيوم. هل أنت هنا من أجل الأنابيب؟ أم ماذا؟

ليس هناك شيء. لقد أصلحوها ورمّموها على عجل. يقولون أنّ رأسك سيلفّ حين تمرّ بجانبها، ردّ الحارس.

شكره أرتيوم بإيماءة من رأسه، ثمّ أشعل مصباحه ومشى في النّفق. تسارعت أفكار مختلفة في رأسه في العشر دقائق الأولى، عن خطر المعبر الّذي ينتظره وعن طريقة الحياة المعقولة والمدروسة في بيلوروسكايا، ثمّ عن النّاقلات والقطارات الحقيقيّة. لكنّ ظلام النّفق امتصّ منه هذه الأفكار التّافهة بالتّدريج، وهذه الفوضى من الصّور الوامضة والعبارات المجزّأة.

في البداية شعر أرتيوم بهدوء وخلاء أكبر، ثمّ بدأ يفكّر بشيء آخر. كانت رحلته تقترب من نهايتها ولم يكن يعرف كم صار له بعيدًا عن محطّته، ربّما مرّ أسبوعان وربّما أكثر من شهر. بدت له رحلته بسيطة جدًّا وقصيرة، وهو يجلس على العربة اليدويّة في اليكسيفسكايا وينظر في خارطته القديمة في ضوء المصباح، ويحاول رسم مساره إلى بوليس... ينتظره فيها عالم مجهول أمامه لا يعرف عنه أيّ شيء عن يقين. كان في مقدوره أن يرسم مسارًا لنفسه لو اهتمّ فقط بطول الرّحلة وليس بكيف كانت تغيّر المسافر الّذي يمشيها. تكشف أنّ الحياة ستكون مختلفة جدًّا، ومشوّشة ومعقّدة وخطرة بشكل مميت. حتّى الرّفاق العرضيّين الّذين تقاسموا معه جزءًا صغيرًا من رحلته، دفعوا حياتهم ثمن ذلك. وتذكّر أريتوم أوليج. لكلّ واحد منهم قدره وقسمته. أخبره سيرجي أندرييفتش في بوليانكا: هل يعقل أنّ ذلك الموت الرّهيب غير المنطقيّ يُبقي على بعض النّاس ويسمح لهم بمواصلة أمورهم؟ ازداد شعور أرتيوم بالبرد وعدم الارتياح. إنّ قبول هذا الافتراض وهذه التّضحية يعني أنّ عليه أن يؤمن بأنّ رحلته لا يمكن أن تكون إلّا على حساب حياة شخص ما. هل يجب أن يداس على الآخرين ويهلكوا ويعوّقوا لكي ينجز هو قسمته المقدّرة مسبقًا؟ كان أوليج طبعًا أصغر من أن يسأل لماذا ولد، لكنّه لو فكّر بالأمر فلن يقبل بقدره هذا. مرّت وجوه ميخائيل بورفرفتش ودانيال وترتياك أمام عينيه.

لماذا ماتوا؟ لماذا نجا أرتيوم بنفسه؟ من الّذي أعطاه هذه المقدرة وهذا الحقّ؟ تأسّف أرتيوم لأنّ أولمان لم يكن معه الآن، والّذي يمكنه بملاحظة ساخرة منه أن يطرد كلّ مخاوفه وشكوكه. كان الاختلاف بينهما أنّ رحلة أرتيوم عبر المترو أجبرته أن يرى العالم من خلال موشور متعدّد الوجوه، لكنّ حياة أولمان الإسبارطيّة علّمته أن يرى الأشياء ببساطة، عبر منظار بندقيّة قنّاص. هو لم يعرف أيّهما كان محقًّا، لكنّ أرتيوم لم يعد يؤمن بوجود جواب صحيح وحيد فقط لكلّ سؤال. ففي الحياة عمومًا

والمترو خصوصًا، كل شيء غير واضح ومتغيّر ونسبيّ. فسّر له خان هذا في البداية باستخدام ساعة المحطّة كمثال. وإن ثبت أنّ المبدأ لفهم العالم كزمن أنّه خياليّ ونسبيّ، فما الّذي يمكن قوله إذًا بخصوص الآراء الأخرى الغير قابلة للجدل عن الحياة؟ كلّها من صوت الأنبوب في النّفق الّذي كان يسير عبره، ونجوم الكرملين السّاطعة إلى الأسرار الأبديّة للرّوح الإنسانيّة، لها تفسيرات كثيرة. وهناك أجوبة كثيرة على السّؤال (لماذا)؟ فقد كان كلّ الأشخاص الّذين التقاهم أرتيوم من آكلي لحوم البشر في بارك بوبدي، إلى المقاتلين من لواء تشي جيفارا، يعرفون كيف يجاوبون عليه فكلّهم لديهم إجاباتهم الخاصّة بهم، الطّائفيّون المتعصّبون وعبدة الشّيطان والفاشيّون والفلاسفة مع البنادق الآليّة، من أمثال خان. ولهذا السّبب بالذّات كان من الصّعب على أرتيوم أن يختار ويقبل بجواب واحد فقط. فقد كان أرتيوم يحصل على نسخة جديدة من هذا الجواب كلّ يوم، وفي اليوم التّالي تظهر نسخة أخرى لا تقلّ دقّة وشموليّة عن سابقاتها. لهذا لم يجبر نفسه على تصديق أيّ منها الحقيقيّ والصّحيح. سيصدّق من؟ وبماذا سيؤمن؟ بالدّودة الكبرى، الإله الّذي يأكل لحوم البشر بشكله الّذي يشبه قطارًا مكهربًا، ويسكن أرضًا جدباء جافّة مع كائنات حيّة. أم يؤمن بيهوه الحسود الحاقد، أم بتفوّق الرّجال ذوي الشّعر الأشقر والوجوه المستاءة من أصحاب الشّعور المجعّدة والأعراق من البشرة الدّاكنة؟ لقد أوحى شيء ما لأرتيوم بأنّها لا تختلف عن بعضها البعض بأيّ شيء، فكلّ معتقد ودين لا يخدم الإنسان إلّا كعكّاز يتّكىء عليه. وحين كان أرتيوم صغيرًا أضحكته قصّة والده عن القرد الّذي أخذ عصا ورفعها، فأصبح إنسانًا. وبعد ذلك يبدو أنّ القرد الذّكيّ لم يعد يترك العصا من يده لأنّه لا يستطيع الوقوف باستقامة بدونها. لقد أدرك أرتيوم لماذا يحتاج الإنسان إلى هذا الدّعم، فبدونه تصبح الحياة فارغة مثل نفق مهجور. إنّ صرخة المتوحّش اليائسة من بارك بوبدي حين أدرك أنّ الدّودة الكبرى لم تكن سوى حيلة وبدعة من كهنة شعبه، ما تزال تطنّ في أذن أرتيوم.

شعر أرتيوم بشيء مماثل، واكتشف أنّ المراقبين الخفيّين ليس لهم وجود، وبالنّسبة له إن رفض الاعتراف بالمراقبين والأفعى وآلهة المترو الأخرى، جعل الحياة أسهل. هل يعني ذلك أنّه أقوى من الآخرين؟ فهم أرتيوم أنّ ذلك غير صحيح. وكانت العصا في يده ويفترض به أن يصبح شجاعًا بما يكفي كي يعرفها، وسانده في ذلك إدراكه أنّه ينفّذ مهمّة ذات أهميّة كبرى. أي أنّ بقاء المترو على قيد الحياة كان في يديه، وأنّه لم يكلّف بمهمّته صدفة. وبشكل مقصود أو غير مقصود بحث أرتيوم عن دليل في كلّ شيء يثبت أنّه اختير لتنفيذ هذه المهمّة، ليس من قبل أحد ما مثل هنتر، وإنّما من أحد أو شيء أعظم. وواجبه أن يدمّر الدّارك ونز، وينقذ محطّته الأمّ والمقرّبين والأعزّاء منهم، ويوقف تدمير المترو. إنّ كلّ ما حدث له أثناء رحلته لم يثبت إلّا شيئًا واحدًا وهو أنّه لم يكن مثل أيّ أحد آخر، وأنّه أعدّ لشيء خاصّ. فمن المفروض أن يفرم ويدمّر الحشرات والهوام الّتي ستقضي على من بقي من البشريّة. وبينما كان يسير في الطّريق ويفسّر العلامات الّتي أرسلت في طريقه بإخلاص، كانت إرادته في النّجاح تتغلّب على الواقع والحقيقة، وتتلاعب بالاحتمالات الإحصائيّة، وتصدّ عنه الطّلقات وتعمي الوحوش والأعداء، وتجبر الحلفاء أن يكونوا في الموقع الصّحيح في الوقت الصّحيح. وإلّا فكيف يمكنه أن يفهم

لماذا حوّل له دانيال مخطط موقع وحدة الصّواريخ، هذه الوحدة التي لم تَدمّر منذ عقود بمعجزة؟ وإلّا فكيف له أن يفسّر، ضدّ كلّ المنطق السّليم، أنّه قابل واحد من رجال الصّواريخ القلّة الأحياء الوحيدين في المترو كلّه؟ هل وضعت العناية الإلهيّة الأسلحة القويّة بيد أرتيوم شخصيًّا، وأرسلت رجلًا ليساعده كي يوجّه ضربة الموت للقوّة عديمة الرّحمة الّتي لا يمكن تفسيرها، ويحطّمها؟ وإلّا فكيف يفسّر المرّات الّتي نجا فيها من أوضاع يائسة بمعجزات؟ كان يؤمن بقدره فكان منيعًا لا يمكن إيذاءه، علمًا أنّ النّاس الّذين رافقوه ماتوا واحدًا تلو الآخر. وتحوّلت أفكار أرتيوم إلى ما قاله سيرجي أندريفيتش في بوليانكا عن القدر. في ذلك الوقت دفعته تلك الكلمات إلى الأمام مثل نابض جديد مزيّت رُكِّب في آليّة لعبة بالية صدئة تعمل بالرّبط، وبنفس الوقت كانت مزعجة له. ربّما لأنّ هذه النّظرية حرمت أرتيوم من إرادته الحرّة، وأجبرته على الخضوع إلى خطّ قصّة قدره الخاصّ به. ولكن من جانب آخر، كيف يمكنه أن يدحض وجود هذا الخطّ من التّفكير بعد كلّ ما حدث له؟ لم يعد يؤمن بعد بأنّ حياته كلّها عبارة عن سلسلة متتالية من الأحداث العشوائيّة.

لقد حدث الكثير جدًّا مسبقًا، ومن المستحيل الخروج من هذا الأخدود هكذا. وإن ذهب بعيدًا جدًّا فعليه أن يذهب أبعد أكثر، هكذا كان المنطق العنيد للطرّيق المختار. لقد فات الآوان على أيّ شكوك ويجب عليه أن يمضي قدمًا، حتّى لو أنّ ذلك يعني تحمّل مسؤوليّة حياة الآخرين، وليس مسؤوليّة حياته فقط. فكلّ التّضحيات لم تكن عبثًا، وعليه أن يقبلها فهو ملزم أن يأخذ مساره حتّى النهاية، فهذا قدره وقسمته. كيف افتقر إلى هذا الوضوح سابقًا؟ لقد شكّك بكونه الشّخص المنتقى والمصطفى وشتّته الغباء والتّردّد طوال هذا الوقت، لكنّ الجواب كان هناك دائمًا. كان أولمان محقًّا عندما قال: ليس هناك حاجة إلى تعقيد الحياة.

أرتيوم يمشي الآن بقوّة ورشاقة وسرعة. ولم يسمع أيّ ضجيج قادم من الأنابيب، ولم يصادفه أيّ شيء خطير أبدًا في الأنفاق في كلّ الطّريق إلى فدنكه. صادفه أشخاص كانوا ذاهبين إلى بروسبكت مير، وكان هو يتحرّك بعكس تدفّق هؤلاء المحظوظين الّذين نال منهم التّعب والانهاك، وألقوا بكلّ شيء وهربوا من الخطر. نظروا إليه كمجنون، فقد كان يمشي وحيدًا في عرين الرّعب نفسه بنفس الوقت الّذي يحاول فيه الآخرون هجر المكان الملعون.

لم تكن هناك دوريّات في ريجيسكايا أو أليكسييفسكايا. وكان أرتيوم غارقًا في أفكاره، ولم يلاحظ أنّه اقترب من فدنكه رغم مرور ساعة ونصف من الوقت. تسلّق إلى داخل المحطّة ونظر حوله وارتجف رغمًا عنه، وذكّرته كثيرًا جدًّا بفدنكه الّتي رآها في كوابيسه.

نصف الإضاءة لم تكن تعمل، وهناك رائحة احتراق بارود في الهواء. وفي مكان بعيد سمع عويل وبكاء امرأة متألمة. أمسك أرتيوم بندقيّته الأليّة الّتي كانت في وضع الاستعداد، وتحرّك إلى الأمام متجنّبًا القناطر بحذر، ومتفحّصا الظّلال عن قرب. الوضع يوحي بأنّ الدّراك ونز نجحوا في اختراق السّياجات والوصول إلى المحطّة نفسها مرّة على الأقلّ. فقد أزيلت بعض الخيام، وفي عدّة أماكن هناك آثار دماء جافّة على الأرض. وما زال بعض من النّاس يعيشون هنا وهناك، فأحيانًا

يومض مصباح من خلال قماش الخيام. سمع إطلاق نار بعيد من النّفق الشماليّ، وكان المخرج المؤدّي إليه مغطّى بأكياس من التّراب بارتفاع قامة رجل. وهناك ثلاثة رجال ضغطوا أنفسهم معًا على متراس مترجّل يراقبون النّفق عبر شقوق للبنادق، ويُبقون كلّ من يقترب تحت بصرهم.

أرتيوم؟ أرتيوم، من أين أتيت؟ رحّب به صوت مألوف. استدار فرأى كيريل أحد الرّجال الّذين غادر معهم فدنكه في بداية رحلته. كانت ذراع كيريل في حمّالة، وشعره أشعث أكثر من المعتاد.

حسنًا، لقد عدتّ، أجاب أرتيوم بشكل غامض. كيف صمودكم هنا؟ أين العمّ ساشا؟ أين جينكا؟

جينكا؟ لقد أمسكوا به وقتلوه منذ أسبوع، قال كيريل بحزن وتشاؤم.

وانقبض قلب أرتيوم.

وزوج أمّي؟

سوخي حيّ وبخير، إنّه القائد والمسؤول. وهو في المستشفى الآن. لوّح كيريل بيده إلى جهة الدّرج المؤدّي إلى مخرج جديد من المحطّة.

شكرًا!

انطلق أرتيوم مسرعًا.

وأنت أين كنت بالضّبط؟ صاح كيريل خلفه.

كان المستشفى مشؤومًا. ولم يكن فيه الكثير من الجرحى الحقيقيّين سوى خمسة فقط. وشغل مرضى آخرون غالبيّة الفراغ. حُفّظوا كالأطفال، وحُصروا في حقائب نوم، ووُضِعوا في صفٍّ واحد. كلّهم عيونهم مفتوحة ويدمدمون بشكل متنافر عبر أفواههم نصف المفتوحة. لم تكن تعتني بهم ممرضة وإنّما رامي بندقيّة يحمل قارورة كلورفورم بيديه. ومن وقت لآخر واحد من هؤلاء المحفّظين، يبدأ بالتّململ على الأرض والولولة، فينقل هياجه للبقيّة فيقوم الحاس بوضع خرقة منقوعة بالكلورفورم على وجه الرّجل ليهدأ بعض الوقت ويسكن. لكنّه لا ينام ولا يغلق عيونه. لم يرِ أرتيوم سوخوي فورًا، فقد كان يجلس في المكتب يناقش شيئًا مع طبيب المحطّة. وبعد أن تركه صُعِق من المفاجأة عندما رأى أرتيوم أمامه.

أنت حيّ، أرتيومكا. حيّ.. الحمد للرّبّ.. أرتيوم. بدأ يتمتم وهو يتلمّس كتف أرتيوم وكأنّه يتمنّى أن يقنع نفسه بأنّ أرتيوم كان واقفا أمامه حقًّا. عانقه أرتيوم وكان خائفًا في أعماق روحه مثل طفل، أن يبدأ زوج أمّه بتوبيخه إن عاد إلى المحطّة، ربّما يقول له أين اختفيت، وكم أنت غير مسؤول، وإلى متى ستظلّ تتصرّف كصبيّ صغير... ولكن بدلًا من ذلك، ضمّه سوخوي إلى صدره أكثر ولم يتركه إلّا بعد وقت طويل. وحين انتهى العناق الأبويّ أخيرًا، رأى الدّموع تملأ عيني سوخوي ووجه احمرّ من الخجل. أخبر أرتيوم زوج أمّه باختصار أين اختفى، وعن الأشياء الّتي نجح في فعلها خلال ذلك الوقت، وشرح له السّبب الّذي عاد من أجله. لم يفعل

سوخوي شيئًا سوى أنّه هزّ رأسه وانتقد هنتر، ثمّ عاد إلى وعيه وقال أنّه لن يتكلم بسوء عن الأموات. لكنّه لم يعرف ماذا حدث لهنتر.

هل ترى ماذا يحدث هنا؟ بدأ صوت سوخوي يرتفع. إنّهم يتدفّقون إلى داخل المحطّة في كلّ ليلة، ولم يعد لدينا رصاصات كافية. وصلتنا عربة يد من بروسبيكت مير محمّلة بالذّخيرة، لكنّها قليلة وتافهة.

يريدون أن ينسفوا النّفق في بروسبيكت مير لفصل فدنكه والمحطّات الأخرى تمامًا، أخبره أرتيوم..

نعم... هم يخافون من المياه الأرضيّة ولن يغامروا بالاقتراب من فدنكه، لكن هذا لن يفيد طويلًا. سيجد الدّارك ونز مداخل أخرى.

متى ستغادر من هنا؟ لم يبق سوى قليل من الوقت فقط. أقلّ من يوم واحد، يجب أن تجهّز كلّ شيء.

نظر إليه زوج أمّه طويلًا كما لو كان يتفحّصه.

كلّا يا أرتيوم، أنا لديّ طريق واحد فقط من هنا، وهو ليس إلى بروسبيكت مير. عندنا ثلاثون رجل جريح هنا. ماذا سنفعل بهم؟ نرميهم كالنّفاية؟ ومن الّذي سيحافظ على الدّفاعات بينما أنا أنفذ بجلدي؟ كيف لي أن أذهب إلى رجل وأقول له: حسنا، أنت ابق هنا لكي تصدهم وتموت، وأنا ذاهب؟ كلّا... أخذ نفسًا: دعهم ينسفوه. سنصمد بقدر ما نستطيع، يجب أن أموت كرجل.

إذًا سأبقى معك، قال أرتيوم، لديهم صواريخ وسيتدبّرون أمرهم بدوني. ما هو غرضي بأيّ حال؟ أنا سأساعدك على الأقلّ.

كلّا، كلّا، يجب أن تذهب، قاطعه سوخوي. لدينا بوّابة عمليات مقاومة للضّغط، وأصبح المصعد يعمل ثانية. ويمكنك شقّ طريقك إلى المخرج بسرعة. يجب أن تذهب مع الآخرين فهم لا يعرفون الشّيء الّذي يتعاملون معه.

ظنّ أرتيوم أنّ زوج أمّه كان يبعده عن المحطّة لكي ينقذ حياته، فحاول أن يعترض لكنّ سوخوي لم يرد أن يسمع شيئًا.

أنت وحدك في مجموعتك من يعرف كيف يستطيع الدّراك ونز دفع النّاس إلى الجنون. وأشار إلى الجرحى المضمّدين.

ماذا بهم؟

كانوا في الأنفاق ولم يستطيعوا الصّمود. نجحنا في سحب هؤلاء وإخراجهم،و ذلك أمر جيّد. لكنّ الدّراك ونز مزّقوا الكثيرين جدًّا إلى قطع وهم أحياء. قوّتهم لا تصدّق. الشّيء الرّئيسيّ أنّهم حين يقتربون ويبدؤون في العواء، لا يتحمّل عويلهم سوى القلّة. وأنت تفهم ذلك. لقد ربط المتطوّعون من محطّتنا أيديهم معًا كيلا يهربوا، وهؤلاء الّذين نجحوا في فكّ أيديهم يستلقون هنا. وهناك بضعة جرحى فقط، لأنّه إن وصلك الدّارك ونز فمن الصّعب عليك أن تهرب.

جينكا؟ هل نالوا منه؟ سأل أرتيوم. أومأ سوخوي برأسه. قرّر أرتيوم ألا يدخل في التّفاصيل.

لنذهب بينما هناك فترة من الهدوء والسّكون، أضاف سوخوي وقد اغتنم صمته،سنتحدّث ونشرب الشّاي. مازال لدينا بقيّة. هل أنت جائع؟ عانقه زوج أمّه وانتقل إلى غرفة القائد.

نظر أرتيوم حوله في ذهول، ولم يستطع أن يصدّق أنّ فدنكه قد تغيّرت بكلّ هذا الشّكل خلال الأسابيع الّتي تركها فيها. المحطّة الّتي كانت مريحة وعائليّة، أصبحت الآن غارقة في كرب ويأس. أراد أن يهرب من هنا بأسرع ما يمكن. فرقعت بندقيّة آليّة خلفه، فالتقط أرتيوم سلاحه.

هذا إنذار، قال سوخوي. الوقت الأشدّ رعبًا سيبدأ بعد بضع ساعات. وأنا أشعر به مسبقًا. يدخل الدّارك ونز في كهوف، وقد قتلنا واحدًا منهم مؤخّرا. لا تخف أبدًا، إن بدأ شيء خطير فسيستخدم فتياننا صفّارة الإنذار ويعلنون النّفير العام.

فكّر أريتوم مليًّا. حلمه بالمشي داخل النّفق أصبح مستحيلًا الآن، ولقاء حقيقيّ مع واحد من الدّراك ونز لن ينتهي بلا أضرار على الأغلب، ولن يكون هناك أيّ مغزى في ذكره، بما أنّ سوخي لن يسمح له بالدّخول إلى النّفق لوحده. يجب أن يرفض مثل هذه الفكرة المجنونة، ولديه أشياء أكثر أهميّة يفعلها.

عرفت أنّنا سنرى بعضنا مرّة أخرى، وأنّك ستأتي، قال سوخوي وهو يصبّ الشّاي بعد أن كانا في غرفة القائد. وصل رجل إلى هنا منذ أسبوع يبحث عنك.

أيّ رجل؟ تحفّز أرتيوم.

قال أنّكما تعرفان بعضكما. هو طويل ونحيل وله لحية قصيرة. واسمه غريب، يشبه هنتر.

خان؟ قال أرتيوم باندهاش.

نعم ذلك هو. أخبرني أنّه سيعود إلى هنا مرّة أخرى، وكان متأكّدا جدًّا. لذلك ارتحت على الفور، وأعطاني شيئًا لك أيضًا. بحث سوخوي في محفظة الجيب الّتي يحفظ بها ملاحظات وأشياء معروفة له فقط، وأخرج ورقة مطويّة عدّة مرّات. حين فتحها أرتيوم رفع عينيه. كانت ملاحظة قصيرة، أربكته كلماتها الّتي كتبت بخطّ زائل رقيق. (الشّخص الّذي يكون شجاعًا وصابرًا بما يكفي ليحدّق في الظّلام طوال حياته، سيكون الأوّل الّذي يرى ومضة ضوء فيه)

ألم يعطك أيّ شيء آخر غير ذلك؟ سأل أرتيوم بنظرة حيرة.

كلّا، ردّ سوخوي. ظننتها رسالة مشفّرة.

لكنّ الرّجل جاء خصّيصا من أجل هذه. هزّ أرتيوم كتفيه لا مباليًا. نصف الّذي قاله خان وفعله، بدا لأرتيوم هراء تامّ. ولكن من جانب آخر، فإنّ النّصف الآخر أجبره

أن ينظر إلى العالم بطريقة أخرى. كيف له أن يعرف بأيّ نصف تتصل هذه الملاحظة؟

شربا الشّاي وتحدّثا لمدّة مقبولة. وكان أرتيوم عاجزًا عن التّخلّص من الشّعور بأنّه كان يرى زوج أمّه لآخر مرّة في حياته. بعدئذ حان وقت المغادرة.

شدّ سوخوي القبضة وارتفع غطاء ثقيل بصوت طاحن. انهمرت مياه راكدة من الخارج. ابتسم أرتيوم لسوخي وهو يقف في الطّين حتّى كاحليه رغم الدّموع الّتي كانت تنبع من عينيه. كان على وشك أن يودّعه حين تذكّر في آخر لحظة الشّيء المهمّ. سحب كتاب الأطفال من حقيبة ظهره، وفتحه على الصّفحة الّتي كانت الصّورة بداخلها، وناولها إلى زوج أمّه. وبدأ قلبه يدقّ بقلق.

ما هذه؟ سأل سوخوي باندهاش.

هل تعرفها؟ سأل أرتيوم وهو مفعم بالأمل. انظر عن قرب أكثر. أليست هذه هي أمّي؟ أنت رأيتها حين سلّمتني لك كما يُفترض.

أرتيوم، ابتسم سوخوي بحزن. أنا لم أر وجهها تقريبًا، لقد كان الظّلام شديدًا، وكنت أنظر إلى جرذ. أنا لا أتذكّر إلّا كيف أمسكت أنت بيدي، ولم تبك أبدًا. ثمّ ماتت هي بعد ذلك. أنا آسف.

شكرًا لك. الوداع. أوشك أرتيوم أن يقول: أبي، لكنّ كتلة علقت في حلقه. لعلّنا نلتقي مرّة أخرى. شدّ قناعه الغازيّ وانحنى وانسلّ تحت السّتارة، وركض على درجات السّلّم المقلقلة وهو يضغط بحذر الصّورة المجعّدة على صدره.

بدا السّلّم بلا نهاية. ويجب أن يتسلّقه ببطء وبحذر شديد. زقزقت الدّرجات وصرّت تحت قدميه. وفي أحد الأماكن تحرّكت نحو الأسفل بشكل غير متوقّع، ونجح أرتيوم بالكاد بأن ينتزع قدمه. تبعثرت بقايا أغصان ضخمة غطّاها الطّحلب وشجيرات صغيرة في كلّ مكان، ربّما حملها الانفجار إلى هنا، ونمت على الجدران نباتات اللّبلاب والطّحالب. وعبر فتحات في الغطاء البلاستيكيّ للحواجز الجانبيّة، يمكن رؤية الأقسام الصّدئة للآلة.

لم يلتفت للوراء مرّة، كلّ شيء كان أسود فوقه في الأعلى، وتلك إشارة سيّئة. فكّر فجأة ماذا لو انهار سرداق المحطّة، ولم يستطع التّغلّب على العائق؟ لو كانت اللّيلة مقمرة لمّا كان الوضع سيّئًا جدًّا، لكن لن يكون من السّهل توجيه نيران بطاريّة الصّواريخ في رؤية رديئة. وكلّما اقترب أكثر من نهاية السّلّم، كلّما أصبحت الزّخرفة الّتي على الجدران والأشعّة الرّفيعة الّتي اخترقت الشّقوق الطّوليّة أشدّ سطوعًا. لم يكن المخرج إلى السّرداق الخارجيّ مسدودًا بالحجارة، وإنّما بالأشجار السّاقطة. وبعد عدّة دقائق من البحث، اكتشف أرتيوم بابًا خفيًّا مقاومًا للضّغط استطاع المرور منه. فجوة هائلة بطول السّقف كلّه تقريبًا، فُتحت في سقف الدّهليز الّذي سقط عبره ضوء القمر. كانت الأرض مغطّاة بأغصان مكسورة وأشجار كاملة حتّى. ولاحظ أرتيوم عدّة أشياء غريبة بجانب أحد الجدران، كرات جلديّة رماديّة

كبيرة بطول قامة الإنسان تتدحرج في الدّغل. بدت منفرة، وخاف من الاقتراب منها كثيرًا. أشعل ضوء مصباحه وخرج إلى الشّارع.

تقع ردهة المحطّة العلويّة وسط ركام من إطارات منبسطة،كانت سرادقا وأكشاكًا للتّجّار سابقًا. وإلى الأمام رأى بناء ضخمًا. كان محنيًّا بشكل غريب، وأحد أجنحته نصف مدمّر. نظر أرتيوم حوله، لم يكن أولمان ورفاقه في مكان قريب. لابدّ أنّهم أُعيقوا على الطّريق. وكان لديه القليل من الوقت ليدرس فيه البيئة المحيطة به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل عشرون: وُلد ليزحف

أصغى أرتيوم بعد أن التقط أنفاسه لدقيقة واحدة، وحاول أن يكتشف عواء الدّارك ونز الفاجع. لم تكن الحدائق النّباتيّة بعيدة من هنا، ولم يستطع أن يفهم لماذا لم تصل هذه الوحوش إلى محطّتهم عبر السّطح قبل الآن. كلّ شيء كان هادئًا. لكن بعيدًا وفي مكان ما عوت كلاب بريّة بحزن، ولم يرغب أرتيوم في الاصطدام بها. إن كانت قد نجحت في النّجاة والبقاء حيّة على السّطح كلّ هذه السّنين، فيجب أن يكون شيء ما يميّزها عن الكلاب الّتي يربّيها سكّان المترو. وبعد أن انتقل أبعد قليلًا عن مدخل المحطّة، اكتشف شيئًا غريبًا، خندقًا قليل العمق حُفر بشكل غير متقن يطوّق السّرداق (الخيمة الكبيرة) وقد امتلأ بسائل داكن كما لو كان خندق حصن مائيّ؟ اقترب أرتيوم من أحد الأكشاك بعد أن قفز فوق الخندق، ونظر في داخله فوجده فارغًا تمامًا، ليس فيه سوى زجاج مكسّر على الأرض، وقد أُخِذ منه كلّ شيء آخر. تفحّص الأكشاك الأخرى حتّى تعثّر بواحد واعد بمتعة أكثر من الأكشاك الأخرى.

من الخارج كان يشبه قلعة صغيرة جدًّا، مكعّب الشّكل مكوّن من ألواح حديديّة لحمت ببعضها البعض، مع نافذة صغيرة جدًّا مصنوعة من لوح زجاجيّ. كُتبت علامة فوق النّافذة "صرّاف عملة". كان الباب محميًّا بقفل غير عاديّ، فلم يكن يفتح بمفتاح وإنّما بمجموعة أرقام صحيحة. اقترب أرتيوم من النّافذة وحاول فتحها لكنّه لم يستطع. لاحظ كتابة باهتة على عتبة النّافذة، فأشعل مصباحه ناسيًا الخطر. وبدا أنّ الّذي كتبها كان أعسر اليد، لكنّه استطاع أن يقرأ الأحرف غير المستويّة. تقول الكتابة: ادفنوني بالطّريقة البشريّة، شيفرة 767. وحين فهم ماذا كانت تعني، سمع صريرًا غاضبًا فوق رأسه. فعرف أرتيوم الصّوت فورًا، فقد صرخت المسوخ الطّائرة فوق كالينسكي بمثل هذا الصّوت تمامًا. أطفأ مصباحه بسرعة ولكن بعد فوات الآوان. سمع النّداء ثانية وكان فوقه مباشرة.

نظر أرتيوم حوله في يأس باحثًا عن مكان يختبىء فيه. وقرّر أن يحاول مع الأرقام المكتوبة على عتبة النّافذة. ضغط الأزرار بالأرقام بالتّسلسل الإجباريّ، وسحب القبضة نحوه، ويبدو أنه تصرّف بشكل صحيح، فقد سُمِعت تكّة بليدة داخل القفل، واستسلم الباب بصعوبة وصرّت مفصلاته الصّدئة. فلوى أرتيوم نفسه ودخل وأقفل على نفسه، ثمّ أشعل ضوءه مرّة أخرى. في زاوية من الكشك جلست مومياء ذابلة لامرأة، وأسندت ظهرها على الجدار. كانت تعصر رأس قلم حبر سميك في إحدى يديها، وفي اليد الأخرى قارورة بلاستيكيّة. كانت الجدران مغطّاة بكتابة بخطّ أنثوي أنيق من أعلاها إلى أسفلها. وهناك علبة حبوب فارغة، وأغلفة شوكولا ساطعة، وعلب مياه غازيّة ملقاة على الأرض، وفي إحدى الزّوايا خزنة نصف مفتوحة. لم يخف أرتيوم من الجثّة، وشعر بالشّفقة فقط على الفتاة المجهولة. ولسبب ما كان متأكّدًا من أنّها فتاة. سُمعت صيحة الوحش الطّائر مرّة أخرى، ثمّ تلتها صفعة جبّارة على السّقف هزّت الكشك كلّه، فسقط أرتيوم على الأرض وانتظر.

لم يتكرّر الهجوم، وبدأت صرخات المخلوق تبتعد أكثر، لهذا قرّر أن يقف. حين يأتي إلى الكشك يستطيع أن يختبىء طالما هو مستمتع في ملجأه. ولم تتعرّض جثّة الفتاة إلى الإزعاج والعبث طوال هذا الوقت، رغم الصّيّادين الكثيرين الّذين استمتعوا بالوليمة الّتي حولها. فكّر أرتيوم في أنّه خرج من الكشك، فلربّما يكون بمقدوره أن يقتل الوحش. ولكن إن أخطأ الهدف، أو كان الوحش مصفّحا فلن تتوفّر له فرصة ثانية. لهذا الأعقل أن ينتظر أولمان إن كان مايزال حيًّا.

بدأ أرتيوم بقراءة الكتابة اليدويّة الّتي على الجدار ليمضي الوقت. أنا أكتب لأنّني ضجرت، ولكي لا أصاب بالجنون. مازلت جالسًا في هذا الكشك طيلة الأيّام الثّلاثة الماضية، وأنا خائفة من الذّهاب إلى الخارج.. رأيت عشرة أشخاص لم يستطيعوا الهروب إلى داخل المترو، فاختنقوا وهم في وسط الشّارع.. شيء جيّد أنّني نجحت بأن أقرأ في الصّحيفة كيف أسدّ الشّقوق والدّرز بشريط لاصق.. سأنتظر حتّى تحمل الرّيح الغيوم بعيدًا..

كتبوا أنّه لن يبقى أيّ خطر آخر بعد يوم واحد.. 9 يوليو تموز.. حاولت الوصول إلى المترو.. نوع من جدار حديديّ يبدأ بعد المصعد.. لم أقدر أن أرفعه، ولم أستفد مهما ضربته، فلم يفتحه أحد.. بدأت أشعر بالسّوء فعلًا بعد عشرة دقائق، لهذا عدت إلى هنا.. هناك عدد كبير من الأموات هنا وهناك..كلّ شيء فظيع، لقد انتفخوا وأنتنوا وفاحت الرّوائح منهم.. كسرت الزّجاج في كشك بقّالة وأخذت الشّوكولاتا والمياه المعدنيّة.. الآن أنا لن أجوع كثيرًا.. أشعر بضعف رهيب.. لديّ خزنة مملوءة بالدّولارات والرّوبلات وليس لي أيّ فائدة منها.. ذلك غريب.. تبيّن أنّها مجرّد قطع صغيرة من الورق.. 10 يوليو تموز.. استمرّوا في القصف.. سمعت هديرًا مرعبًا طوال اليوم إلى اليمين من بروسبيكت مير، وأردت أن أركض إلى الخارج وألفت انتباههم، لكنّي لم أقدر.. أنا فعلا اشتقت لأمّي وليفا.. كنت ملقاة طوال اليوم ثرو اب، لكنّي نمت لاحقًا.. 11 يوليو تموز.. مرّ رجل تعرّض لحروق فظيعة.. لم أعرف أين كان يختبىء كلّ هذا الوقت.. كان يبكي ويتنفّس بصعوبة دائمًا.. ذلك مروّع فعلًا. ذهب باتّجاه المترو، ثمّ سمعت خبطة عالية بعدها، وعلى الأغلب أنّه كان يطرق ذلك الجدار أيضًا.. بعد ذلك ساد الهدوء على كلّ شيء.. وغدًا سألقي نظرة وأرى إن كانوا فتحوه له أم لا.

هزّت ضربة جديدة الكشك،لم يستسلم الوحش ويكف عن صيده. وترنّح أرتيوم وسقط تقريبًا على جسد ميّت، وبالكاد استطاع أن يتماسك ويتمسّك بطاولة العرض. انحنى للأسفل وانتظر دقيقة أخرى ثمّ تابع القراءة.

12 يوليو تموز، أنا عاجزة عن المغادرة.. أنا أرتعش وأرتجف.. أنا لا أفهم إن كنت نائمة أم لا.. تحدّث إليّ ليفا لمدّة ساعة اليوم، وقال أنّه سيتزوّجني قريبًا جدًّا.. ثمّ وصلت أمّي وكانت عيونها تفيض بالدّموع.. بعد ذلك تُركتُ وحيدة مرّة أخرى.. أشعر بوحدة وعزلة شديدة.. متى سينتهي كلّ شيء.. عاجزة.. متى سينقذوننا؟ بعض الكلاب هنا تأكل الجثث.. أخيرًا، شكرًا لكم.. كنت ملقاة ثرو اب. 13 يوليو تموز.. مايزال هناك بعض الطّعام المعلّب والشّوكولاتا والمياه المعدنيّة، لكنّي لم أعد أريدها.. لن تعود الحياة إلى وضعها الطّبيعيّ بعد سنة من الآن.. الحرب

الوطنيّة الكبرى استمرّت خمس سنوات.. لاشيء أطول منها.. كل شيء سيكون علي مايرام.. سيجدونني.. 14 يوليو تموز. لم أعد أريدها.. لم أعد أريدها.. ادفنوني بالطّريقة البشريّة، لا أريد أن أكون في هذا الصّندوق الحديديّ اللّعين... إنّه ضيّق.. شكرًا لفينازيبام.. (ليلة سعيدة)..

على الجوانب هناك كتابة أكثر، لكنّها كانت مشوّشة وممزّقة. وهناك أيضًا رسوم (جنيّات صغيرات إيمبس، وفتيات صغيرات في قبّعات واسعة أو أقواس، وجوه بشريّة) ومن الواضح أنّها كانت ترجو أن ينتهي الكابوس الّذي نجت منه.. هكذا فكّر أرتيوم. سنة أو سنتان، ويكمل كلّ شيء دورته، ويعود كلّ شيء كما كان من قبل.. الحياة سوف تستمرّ وسينسى الجميع ماحدث.. كم سنة مرّت منذ ذلك الوقت؟ البشريّة أبعدت نفسها أكثر من العودة إلى السّطح خلال هذا الوقت.. هل حلمت بأنّ هؤلاء الّذين نجحوا في الوصول إلى داخل المترو سوف ينجون ويبقون أحياء وحدهم؟

فكّر أرتيوم بنفسه، كان يريد دائمًا أن يؤمن بأنّه متى ما استطاع النّاس الخروج من المترو لكي يعيشوا كما عاشوا من قبل مرّة اخرى، فإنّهم سيتمكّنون من أن يرمّموا الأبنية الفخمة الّتي بناها أسلافهم، ويستوطنون فيها. وبذلك لن يحدّقوا بحول إلى الشّمس المشرقة، ولن يتنفّسوا مزيجًا من الأكسجين والنّتروجين الّذي لا طعم له والمصفّى بواسطة أقنعة غازيّة، وإنّما سيلتهمون بفرح وسرور الهواء المخضّب بعطور النّباتات، مع أنّه لم يعرف كيف هي رائحتها من قبل، ولكن يفترض أنّها رائعة. فقد كانت أمّه تستغرق في ذكرياتها عن الزّهور. ولكن، عند النّظر إلى جسد الفتاة المجهولة الذّابل، والّتي لم تعش لترى اليوم الغالي والعزيز الّذي ينتهي فيه كابوسها، بدأ يشكّ بإيمانه بذلك.

كيف يختلف أمله برؤية عودة الحياة السّابقة، عن أملها؟ خلال سنوات وجوده في المترو، لاحظ أنّ الإنسان لم يجمع القوّة ليتسلّق درجات السّلّم السّاطعة الّتي تؤدّي إلى مجده الس!ابق وعظمته في انتصار. بل على العكس، فقد قلّل من شأنه واعتاد على الظّلام. أغلب النّاس نسوا مسبقًا السّيادة المطلقة للبشريّة فوق العالم، والّتي كانت مرّة. وآخرون تاقوا إليها، ومجموعة ثالثة لعنتها.

سمع صوت بوق من الخارج فقذف ـرتيوم بنفسه إلى النّافذة. ووقفت عربة غير عاديّة أبدا على بقعة من الأرض أمام الأكشاك. لقد رأى السّيّارات سابقًا في طفولته البعيدة، ثمّ في صور في الكتب، وأخيرا أثناء تسلّقه إلى السّطح في السّابق. ولكنّ هذه لاتشبه أيًّا منها. فهي شاحنة ضخمة ذات ست عجلات، كانت مطليّة بالأحمر. وخلف مركبتها الّتي فيها صفّان من المقاعد، البدن المعدنيّ للشّاحنة وعليه خطّ أبيض على طول الجانب، وبعض أنابيب مكوّمة على سقفها، وضوءان دوّران أزرقان يومضان. وبدلًا من الصّراع للخروج من الكشك، سلّط أرتيوم ضوء مصباحه عبر الزّجاج وانتظر الرّدّ على الإشارة. أشعلت أضواء الشّاحنة، وأطفئت عدّة مرّات لكنّ أرتيوم كان عاجزًا عن مغادرة الكشك.فهناك ظلّان ضخمان يغوصان، ورأساهما في المقدّمة واحدًا تلو الآخر. الأوّل أمسك سقف الشّاحنة بمخالبه وحاول رفع المركبة، لكنّها كانت ثقيلة جدًا. وبعد أن رفع الوحش بدن

الشاحنة نصف متر عن الأرض مزّق كلا الأنبوبين، وصرخ بغضب وأسقطها. أمّا المخلوق الثّاني ضرب العربة في جابنها مع صراخ، محاولًا أن يقلبها. فُتح باب على مصراعيه، وقفز رجل يرتدي بدلة واقية على الإسفلت، وفي يديه رشّاش ضخم. رفع السّبطانة وانتظر عدّة ثوان. ومن الواضح أنّه كان يسمح للوحش بالاقتراب أكثر، ثمّ أطلق عليه رشّة من الطّلقات، فسمع صرير متضرّر في الأعلى. فتح أرتيوم القفل بسرعة وركض إلى الخارج. كان أحد الوحوش المجنّحة يحوم بدائرة كبيرة على ارتفاع ثلاثين مترًا فوق رؤوسهم استعدادًا ليضرب مرّة أخرى، لكنّ الآخر لم ير بأيّ مكان.

اصعد إلى المركبة، صرخ الرّجل الّذي يحمل الرّشّاش. وركض أرتيوم نحوه بأقصى سرعة، وتسلّق إلى داخل المركبة وجلس على المقعد الطّويل. أطلق رامي الرّشّاش الرّصاص عدّة مرّات، ثمّ قفز على مسند الأقدام وانسلّ إلى داخل العربة، وأغلق الباب خلفه بقوّة. وهدرت المركبة.

هل كنت تطعم الحمام؟ قال أولمان ساخرًا وهو ينظر إلى أرتيوم من وراء قناعه الغازيّ.

ظنّ أرتيوم أنّ الوحوش الطّائرة سوف تطارده. ولكن بدلًا من ذلك، طارت مبتعدة خلف المركبة، واستدار المخلوقان نحو فدنكه.

إنّهما يحميان عشًّا، قال المقاتل، نحن سمعنا عن ذلك. وإلّا لما هاجما المركبة بذلك الشّكل. وهما ليسا كبيرين تمامًا. أتساءل أين العشّ؟

فهم أرتيوم فجأة أين يكون عشّ الوحشين، ولماذا لم يجرؤ أحد حيّ أو أيّ شيء بمن فيهم الدّارك ونز، أن يقترب من المخرج من فدنكه.

في صالة محطّتنا تمامًا فوق السّلالم، قال.

هل الأمر كذلك؟ غريب، عادة ما تكون في أماكن أعلى، إنّها تعشّش على الأبنية، ردّ المقاتل.

على الأرجح أنّها نوع آخر. صحيح... آسف لقد تأخّرنا.

تبيّن أنّ عربة المركبة كانت مكتظّة بالبدلات وبالأسلحة الضّخمة. شغلت المقاعد الخلفية حقائب الظّهر والحقائب الأخرى، وشغل أولمان المقعد الخارجيّ. وانتهى المطاف بأرتيوم في الوسط، وعلى يساره خلف المقود بافل صديق أولمان من بروسبيكت مير.

ما الّذي سأعتذر عنه؟ لم يكن الأمر متعمَّدا، قال السّائق. شيء لم يحذّرنا منه الكولونيل. وكان لدينا انطباعًا بأنّ مدحلة بخاريّة مرّت فوق الشّارع الّذي يأتي من بروسبيكت مير إلى ريجسكايا. وأنا لا أعرف لماذا لم ينهار الجسر. لم يوجد أيّ مكان للاختباء فيه، ونحن بالكاد نجونا من بعض الكلاب.

ألم تر أيّ كلب بعد؟ سأل أولمان.

سمعتها فقط، ردّ أرتيوم.

حسنًا، ألقينا نظرة جيّدة عليها، قال بافل وهو يدير المقود.

ماذا عنها؟ كان أرتيوم مهتمًّا بالتّعلّم منه.

إنّه أمر ليس جيِّدًا. مزّقت صدّام المركبة، وكادت أن تقضم العجلة، علمًا أنّنا كنّا نتحرّك. ولم تتوقّف إلّا بعد أن خرج بيترو القائد ببندقيّة القنّاص، وأومأ إلى أولمان. لم يكن طريقنا سهلًا، فالأرض مغطّاة بالخنادق والحفر. والإسفلت مصدّع، لذلك أجبروا على شقّ طريقهم بحذر. وفي أحد الأماكن علقوا وأمضوا خمس دقائق حتّى عبروا جبل دبش الإسمنت، والّذي خلفه انهيار أحد الجسور.

نظر أريتوم إلى خارج النّافذة، وعصر البندقيّة الآليّة بيديه.

إنّها تسير بشكل جيّد. كان بافل يتحدّث عن المركبة.

أين وجدتموها؟ سأل أرتيوم.

في المستودع، وهناك قطع لم يقدروا أن يصلحوها، لهذا لم تذهب إلى النّيران حين كانت موسكو تحترق. والآن نحن نستخدمها من وقت لآخر، ليس للغرض الّذي صنعت من أجله طبعًا.

فهمتك.. والتفت أرتيوم مرّة أخرى نحو النّافذة.

كنّا محظوظين مع الطّقس، بدا بافل راغبًا في التّحدّث: لاتوجد غيمة واحدة في السّماء، وذلك جيّد. سنتمكن من أن نرى على بعد كبير من الرّبج، إن كنّا سنصل إليه.

أنا أفضّل أن أكون هناك في الأعلى بدلًا من التنقّل من بيت لآخر، قال أولمان.

صحيح، قال الكولونيل أنّ لا أحد تقريبًا يعيش فيها، لكنّي لا أحبّ كلمة تقريبًا.

انعطفت المركبة إلى اليسار وتحرّجت في شارع مستقيم وعريض قسمته حبكة من الأعشاب إلى نصفين. فعلى اليسار صفّ من بيوت من القرميد لم تتضرّر تقريبًا، وعلى اليمين امتدّت غابة سوداء كئيبة. لقد غطّت الطّريق جذور جبّارة في أماكن كثيرة، كانت تجبر المرء على الالتفاف حولها. ونجح أرتيوم برؤية كلّ هذا وهم يمرّون.

انظر إليها، ياله من جمال! قال بافل بإعجاب. فأمامهم مباشرة، برج أوستانكينو يسند السّماء ويرتفع مثل هراوة عملاقة تهدّد الأعداء الّذين اندحروا منذ زمن بعيد. كان بناء خياليًّا تمامًا. لم ير أرتيوم شيئًا مثله قطّ حتّى في صور الكتب والمجلّات. لقد أخبره زوج أمّه طبعًا عن بناء سايكلوبيًّا هائلًا، يقع على بعد كيلومترين من المحطّة فقط، لكنّ أرتيوم لم يقدر أن يتخيّل كم كان مذهلًا. وكان فمه مفتوحًا من الدّهشة في بقيّة الطّريق، وظلّ يحدّق في صورة البرج الظّليلة الفخمة ويلتهمها بعينيه. اختلطت فرحته برؤية إبداع اليد البشريّة هذا، مع مرارة إدراكه النّهائيّ باستحالة تكرار مثل هذا الإبداع مرّة أخرى.

كان قريبًا جدًّا طوال هذا الوقت ولم أكن أعرف، حاول التّعبير عن شعوره.

ردّ بافل: إن لم تأت إلى السّطح، فسيظلّ هناك الكثير الّذي لن تفهمه في حياتك. هل تعرف لماذا سمّيت محطّتكم بفدنكه على الأقلّ؟ إنّها تعني الإنجازات العظيمة لاقتصادنا. كانت هناك حديقة عامّة ضخمة مع كلّ أنواع الحيوانات والنّباتات. وهذا ما أخبرك به: أنت فعلًا محظوظ. لقد حاكت الطّيور الصّغيرة عشّها في مدخل محطّتكم، لأنّ بعض أبنيتها لانت كثيرًا بسبب أشعّة إكس. والآن لم تعد تتحمّل ضربة مباشرة من قاذف قنابل يدويّة حتّى.

لكنّها تحترم أصدقاءك المكسويّن بالرّيش، أضاف أولمان.

يمكن القول أنّها سقفكم. وبدأ الرّجلان بالضّحك، أمّا أرتيوم الّذي لم يستطع أن يضايق نفسه، ويصحّح لبافل بخصوص اسم محطّته، فقد حدّق أكثر بالبرج ولاحظ أنّ البناء الضّخم قد مال قليلًا، ولكنّه حقّق توازنًا دقيقًا ولم يسقط. كيف لشيء وُضِع هنا منذ عقود أن يبقى واقفًا وصامدًا؟ لقد مسحت البيوت المجاورة تمامًا، لكنّ البرج ارتفع فخورا وسط هذا الدّمار، كما لو أنّ قوّة سحريّة حفظته من قنابل الأعداء وصواريخهم.

كيف نجا شيء ممتع؟ تمتم أرتيوم.

لم يريدوا تدميره على الأغلب، قال بافل، وبأيّ حال إنّه بنية تحتيّة نافعة ونفيسة. كان أعلى ممّا هو عليه الآن بخمس وعشرين بالمئة، وكان له برج مدبّب على القمّة، لكنّه الآن كما ترى انفصل عند أرضيّة المراقبة والرّصد تمامًا.

لكن لماذا أبقوا عليه؟ هل لم يكترثوا له فعلًا؟ أعتقد أنّ الأمور لم تجر بشكل حسن مع الكرملين، قال أولمان مشكّكا.

اندفعت المركبة عبر البوّابة بقوّة خلف قضبان السّياج الحديديّة، واقتربت من أساس برج التّلفاز وتوقّفت. أخذ أولمان جهاز الرّؤية اللّيليّة والرّشاش، وقفز على الأرض. وبعد دقيقة واحدة أعطى الإشارة بالتّقدّم إلى الأمام. كل شيء هادئ، فحبا بافل أيضًا وخرج من العربة، وبعد أن فتح الباب الخلفيّ، بدأ بإخراج حقائب الظّهر مع المعدّات.

يجب أن تكون هناك إشارة بعد عشرين دقيقة، وسنحاول التقاطها من هنا.

وجد أولمان حقيبة الظّهر مع جهاز الإرسال اللّاسلكيّ، وبدأ يجمع هوائيًّا ميدانيًّا طويلًا من أقسام مضاعفة. وصل ارتفاع الهوائيّ إلى ستّة أمتار سريعًا، وتأرجح بكسل إلى الأمام والخلف في النّسيم الخفيف. جلس المقاتل عند جهاز الإرسال، ووضع سمّاعتا الرّأس مع الميكروفون على رأسه، وبدأ يصغي للبثّ. ومرّت دقائق مضجرة طويلة من الانتظار. وعلى الفور غطّاهم ظلّ حيوان منقرض، ولكن بعد أن رسم بضع دوائر فوق رؤوسهم، اختفى الوحش خلف البيوت. ومن الواضح أنّ لقاءً واحدًا مع أناس مسلّحين، كان كافيًا له لأن يتذكّر عدوًّا خطيرًا.

وكيف يبدو شكل هؤلاء الدّارك ونز على كل حال؟ فأنت أخصائيّ في ذلك. سأل بافل أرتيوم.

يبدون مروّعين جدًّا. مثل أناس أشكالهم فيها خطأ ما، كان أولمان يحاول أن يصفهم.

إنّهم النّقيض التّامّ للبشر. وواضح من الاسم ذاته (الدّراك ونز يعني سود)

ومن أيّ مكان أتوا؟ فلم يسمع بهم أحد من قبل، كما تعرف. ما قولك في ذلك؟

ليس مهمًّا ما لم تسمع به أبدا في المترو. عجّل أرتيوم ليبدّل الموضوع: من منكم يعرف أيّ شيء عن آكلي لحوم البشر في بارك بوبدي؟

ذلك صحيح، ابتهج السّائق: لقد وجدوا أناسًا وفي رقابهم إبر، ولكن لم يستطع أحد أن يقول من كان الفاعل. الدّودة الكبرى عبارة عن هراء كبير. لكن من أين هؤلاء الدّارك ونز خاصّتك؟

أنا رأيتها، قاطعه ارتيوم.

الدّودة؟ سأله بافل غير مصدّق.

شيء يشبهها. ربّما قطار ضخم ينفخ لدرجة يسد أذنيك. ولم أنجح في رؤية ما حدث، لقد مرّ من جانبي تمامًا.

كلّا، لا يمكن أن يكون قطارًا... ما هي القدرة الّتي تشغلّه؟ الفطر؟ القطارات تسير بالكهرباء. هل تعرف بماذا تذكّرني؟ بعربة الثّقب.

لماذا؟ فوجىء أرتيوم فقد سمع عن عربات ثقب، ولكن أن تكون الدّودة الكبرى الّتي تقضم وتحفر الممرّات الجديدة والّتي تكلّم عنها درون، مثل تلك الآلة، فهذه فكرة لم تخطر له من قبل. ألم يكن كلّ الإيمان بالدّودة الكبرى مبنيّ على رفض وإنكار الآلة؟

لا تقل أيّ شيء لأولمان عن العربة الثّاقبة ولا للكولونيل أيضًا، لأنّهما سيظنّان أنّني شخص مخبول وغريب الأطوار، قال بافل، الأمر هو أنّني جمعت معلومات في بوليس سابقًا، وتعقّبت كلّ مفتّش يرتدي ملابسًا مدنيّة. باختصار كنت متورّطا مع مخرّبين ومع التّهديد الدّاخلي، وفي أحد الأيّام صادفت أحد الفتيان وكان مقتنعًا بأنّه يسمع ضجيجًا دائمًا، وكأنّ مثقبًا آليًّا يعمل خلف الجدار في فجوة داخل جدار في نفق ملاصق لببوروفيتسكايا. بالطّبع قرّرت فورًا أنّه كان مجنونًا، لكنّه كان يعمل في البناء والعمار سابقًا ويعرف الكثير عن مثل هذه الأشياء.

ولكن من الّذي يحتاج أن يحفر هناك؟

لا فكرة لديّ، لكنّ رجلًا عجوزًا هذى بحماس عن بعض من الأوغاد، أرادوا أن يحفروا نفقًا إلى النّهر لكي يغمروا بوليس بالماء. وسمع هو بخططهم بطريقة ما. وعلى الفور أنذرت الجميع، ولكن لم يصدّقني أحد. اندفعت باحثًا عن الرّجل العجوز لكي أقدّمه كشاهد، لكنّه اختفى في مكان ما لسوء الحظّ. ربّما كان عميلًا محرّضا على الشّغب، وربّما... نظر بافل بحذر إلى أولمان وأخفض صوته، هو

فعلًا سمع أنّ العسكر يحفرون شيئًا سرّيًّا، فدفنوا الرّجل العجوز بنفس الوقت. ومنذ ذلك الوقت وفي ذهني العربة الثّاقبة، وهم ينتقدونني ويسخرون منّي كشخص مجنون، وبدأوا يوبّخونني بطريقة مهينة وبشكل سافر بخصوص العربة. هدأ وهو ينظر في وجه أرتيوم ويبحث عن رأيه وموقفه من قصّته.

هزّ أرتيوم كتفيه بشكل مبهم.

لم يسمع أيّ شيء لعين سوى الهواء الفارغ، بصق أولمان بغضب وهو يقترب: لا نستطيع الحصول على الإشارة اللّعينة من هنا. يجب أن نذهب إلى مكان أعلى، فعلى الأغلب أنّ ميلنك في مكان بعيد جدًّا.

بدأ أرتيوم وبافل بحزم المعدّات فورًا. ولم يرد أحد أن يفكّر في تفسير آخر. لماذا لم يقم فريق المطارد باتّصال؟ طوى أولمان الهوائيّ إلى أقسام، ووضع اللّاسلكيّ داخل حقيبة الظّهر، ورفع رشّاشه على كتفه ومشى نحو المدخل الزّجاجيّ المسقوف الّذي كان مخفيًّا خلف أعمدة برج التّلفاز الجبّارة. ناول بافل إحدى الحقائب لأرتيوم، وأخذ حقيبة الظّهر والبندقيّة، وفتح أبواب المركبة ولحقا بأولمان.

كان المكان في الدّاخل هادئًا وقذرًا وفارغًا، ومن الواضح أنّ النّاس فرّوا من هنا في عجلة من أمرهم، ولم يعودوا إليه أبدًا. سطع ضوء القمر بشكل مدهش عبر الزّجاج المكسور المغبرّ على المنصّات المقلوبة ومناضد مكتب التّذاكر، وعلى المركز الأمنيّ وبقايا قبّعة عسكرية نُسِيت على عجل، وعلى أبواب دوّارة مكسورة في المدخل، وعلى تعليمات مطبوعة ومزخرفة، وتحذيرات لزوّار برج التّلفاز. أطفأوا مصابيحهم اليدويّة ونظروا حولهم قليلًا، فوجدوا المخرج المؤدّي إلى الدّرج. المصاعد الّتي كانت سابقًا تأخذ النّاس للأعلى بأقلّ من دقيقة واحدة، تقف الآن على الطّابق الأوّل وأبوابها مفتوحة على مصراعيها دون أيّ فائدة لها. والفريق الآن يقترب من أصعب منطقة. شرح لهم أولمان أنّهم يجب أن يصلوا إلى ارتفاع أكثر من ثلاثمائة متر. وقد قطع أرتيوم المائتي متر الأولى بسهولة، فقد قست ساقيه أسابيع من السّفر حول المترو. لكنّه بدأ يذبل عند الثّلاثمائة وخمسين. امتدّ الدّرج الملتفّ إلى الأعلى، ولم يكن هناك أيّ فرق ملحوظ بين الطّوابق. كان الجوّ داخل البرج باردًا ورطبًا، وباستثناء الجدران الإسمنتيّة الجرداء كلّ ما يمكن رؤيته من خلال الأبواب المفتوحة عرضيًّا، غرف معدّات مهجورة.

قرّر أرتيوم أن يأخذوا أوّل استراحة بعد خمسمائة درجة، وكانت لخمس دقائق فقط لأنّه يخشى أن يضيّع اللّحظة الّتي يحاول فيها المطارد التّواصل معهم.

ضيّع أرتيوم العدّ بعد الدّرجة ثمانمئة. وامتلات ساقاه بالرّصاص وكلّ واحدة جديدة الآن، تزن ثلاث أضعاف الوزن عند بداية التّسلّق. أصبح رفع قدمه عن الأرض صعبًا جدًّا. وكانت الأرض تجرّه للخلف مثل المغناطيس، ففاض العرق على عيونه وطافت الجدران الرّماديّة كما لو في ضباب، وبدأت الدّرجات الماكرة تتشبّث بحذائه. لم يكن قادرًا على أن يقف ويرتاح، فخلفه كان بافل يلهث ويحمل ضعفي حمل أرتيوم. وبعد خمسة عشرة دقيقة تقريبًا، سمح لهم أولمان باستراحة. فهو أيضًا بدا متعبًا. كان صدره يرتفع وينخفض بقوّة تحت السّترة الواقية البشعة، وامتدت يده

إلى الجدار بحثا عن سند. سحب المقاتل علبة ماء من حقيبة الظهر وناولها لأرتيوم أوّلًا. وقد زُوِّد القناع الغازيّ بصمّام خاص تمرّ عبره قثطرة (أنبوبة) يستطيع المرء مص السّوائل من خلالها. أدرك أرتيوم أنّ الآخرين يريدون أن يشربوا أيضًا، لكنّه لم يقدر أن يبعد فمه عن الأنبوب المطّاطيّ حتّى أفرغ نصف العلبة. وبعد ذلك استوى على الأرض وأغلق عينيه.

هيّا، لقد اقتربنا، صاح أولمان. وهزّ أرتيوم وأوقفه على قدميه، وأخذ الحقيبة منه وحملها على كتفيه وتحرّك إلى الأمام.

لم يتذكّر أرتيوم الآن كم كان الوقت الّذي استغرقوه لتسلّق القسم الأخير. اندمجت الدّرجات والجدران في كلٍّ واحد بليد، وبدت الأشعّة وبقع الضّوء الّتي لطّخت الزّجاج، من الخلف مثل غيوم مشعّة. ولبعض الوقت حيّرته حقيقة أنّه كان معجبًا بألوانها القزحيّة الخفيفة. تدفّق الدّم إلى رأسه بقوّة، ومزّق الهواء البارد رئتيه، واستمرّ الدّرج إلى الأبد. وجلس أرتيوم على الأرض عدّة مرّات، لكنّهم رفعوه وأجبروه على المشي. لماذا كان يفعل هذا؟ لتستمرّ الحياة في المترو؟ صحيح. ليستطيعوا زرع الفطر وتربية الخنازير في فدنكه في المستقبل، فيعيش زوج أمّه وعائلة جينيكا هناك بسلام، ويستطيع النّاس الّذين لا يعرفهم الاستقرار في بيلوروسكايا وأليكسييفسكايا وريجيسكايا؟ لكي لا تختفي تدريجيًّا التّجارة النّشطة في بيلوروسكايا. لكي يتجوّل البراهمة في بوليس بأثوابهم، ويقلّبوا صفحات الكتب ويستوعبوا المعرفة القديمة وينقلوها إلى الأجيال اللّاحقة. لكي يستطيع الفاشيّون بناء رايخهم ويأسروا الأعداء العنصريّين ويعذّبوهم حتّى الموت. لكي تستطيع الدّودة الكبرى خطف الأطفال وأكل البالغين. لكي تسطيع المرأة في ماياكوفسكايا المساومة بطفلها في المستقبل وتكسب بعض الخبز لها وله. لكي لا تتوقّف سباقات الجرذان في بافليتسكايا. لكي يستمرّ مقاتلو اللّواء الثّوريّ بشنّ هجماتهم على الفاشيّين وبحججهم الدّياليكتيكيّة المضحكة. لكي يستطيع آلاف النّاس في المترو أن يتنفّسوا ويأكلوا ويحبّوا بعضهم بعضا ويهبوا الحياة لأولادهم، ويتغوّطوا ويناموا ويحلموا ويقاتلوا ويقتلوا ويتعرّضوا للنّهب والاغتصاب والخيانة والتّفلسف والكره. لكي يستطيع كلّ واحد أن يؤمن بفردوسه وجحيمه الخاصّين به... لكي تستمرّ في المترو الحياة الخالية من أيّ معنى والعقيمة والقذرة والمضطربة والمتنوّعة بشكل إعجازيّ لانهائيّ. فكّر بكلّ هذا وكأنّ ذراعًا مدوَّرا ضخمًا دار في ظهره ووكزه ليأخذ خطوة أخرى وأخرى وأخرى أيضًا، وبفضل ذلك واصل تحريك قدميه، وفجأة انتهى الكلّ. سقطوا في منطقة فسيحة،رواق واسع دائريّ وحلقة مغلقة. كانت واجهة جدارها الدّاخليّ من الرّخام، فشعر أرتيوم على الفور كما لو أنّه في بيته. وكان هناك جدار خارجيّ... بدأت السّماء خلف الجدار الخارجيّ الشّفّاف، وفي مكان بعيد في الاسفل تبعثرت بيوت صغيرة جدًّا قُسِّمت إلى أحياء بطرق ورقع من المنتزهات. وهناك أيضًا فوّهات سود ضخمة ومستطيلات من الأبنية العالية النّاجية... الكلّ، مدينة لا حدود لها، كتلة رماديّة تتحرّك باتّجاه الأفق المظلم، تُرَى من هنا. جلس أرتيوم على الأرض، واستند على الجدار ونظر لوقت طويل جدًّا إلى موسكو، وتحوّلت السّماء إلى لون قرنفليّ ببطء.

أرتيوم، انهض، كفاك جلوسًا، تعال لتساعدنا، هزّه أولمان من كتفه وناوله المقاتل رزمة كبيرة من الأسلاك، فحدّق أرتيوم بها بانشداه.

هذا الهوائيّ اللّعين لن يلتقط شيئًا، أشار أولمان إلى مسبار ملتوٍ طوله ستّة أمتار تبعثر على الأرض. سوف نجرّب الأنشوطة. يوجد باب إلى الشّرفة الهندسيّة في الطّابق الّذي تحتنا والمخرج يقع على طرف الحديقة النّباتيّة. أنا سأبقى هنا مع اللّاسلكيّ، واذهب أنت إلى الخارج مع باشكا، هو سيفلّ الهوائيّ وأنت ستثبّته. كن نشيطًا لأنّ الضّوء سيبدأ قريبًا.

أومأ ارتيوم برأسه. وتذكّر لماذا كان هنا، واستعاد طاقته بعد الإجهاد. شدّ شخص ذلك الذّراع المدوّر الخفيّ في ظهره، وبدأ الزّنبرك الدّاخليّ مرّة أخرى ينحلّ. لم تبق إلّا برهة صغيرة عن الهدف. أخذ بكرة الأسلاك وتحرّك باتّجاه باب الشّرفة. لم يستسلم الباب واضطرّ أولمان أن يطلق رشقة كاملة فيه قبل أن يتصدّع الزّجاج الّي غربلته الرّصاصات وي سقط. دفقة ريح جبّارة كادت أن تسقطهم على الأرض. ودخل أرتيوم إلى الشّرفة وطوّقه حاجز بارتفاع قامة الإنسان.

واو، انظر إليهم.

مدّ بافل منظاره الحربيّ له، ولوّح بيده في الاتّجاه المناسب. فضغط أرتيوم المنظار إلى عينيه ونظر فوق المدينة حتّى أشار له بافل في الاتّجاه الصّحيح. لقد التحمت الحدائق النّباتيّة وفدنكه معًا في دغل مظلم واحد يصعب اجتيازه، وارتفعت وسطه قبب بيضاء مقشّرة وسقوف خيام كبيرة. لم تترك سوى فجوتين فقط في هذه الغابة الكثيفة، درب ضيّق بين الخيام الكبيرة الرّئيسيّة (غالفنايا اليا، همس بافل بخوف) وبقعة ضخمة تشكّلت في وسط الحدائق تمامًا، وكأنّ الأشجار انسحبت للوراء في قرف من شرّ غير مرئيّ. كان منظرًا غريبًا ومنفّرا، مدينة كبيرة مثل عضو حيّ عملاق، ينبض ويرتجف، يمتدّ إلى عدّة كيلومترات مربّعة إلى الخارج. تلوّنت السّماء بألوان الصّباح بالتّدريج، فأصبح هذا الورم الفظيع مرئيًّا أكثر، غشاء حيّ متشابك مع عروق، وأشكال سوداء صغيرة جدًّا زحفت من مخارج بالوعة تتراكض في طريقة منظّمة كالنّمل... النّمل خصوصًا وأمّهم المدينة الّتي ذكّرت أرتيوم بتلّة نمل. هناك نملة واحدة كانت تسير بعيدًا عن الدّروب، وهاهو يراها جيًّدا

الآن، نحو بناء أبيض ينتصب لوحده. عبارة عن نسخة دقيقة لمدخل محطّة فدنكه. وصلت الأشكال السّوداء إلى الأبواب واختفت. وعرف أرتيوم المسار جيًّدا. تلك الأشكال كانت بجانب الباب تمامًا، ولم تأت من مكان بعيد. إنّ تدميرهم ممكن في الحقيقة وبسيط. والآن الشّيء الرّئيسيّ ألّا يفشل ميلنك. أطلق أرتيوم تنهيدة ارتياح، ولسبب ما تذكّر النّفق الأسود من أحلامه، لكنّه هزّ رأسه وبدأ بفكّ السّلك المعدنيّ. كانت الشّرفة تطوّق البرج، والسّلك الّذي طوله أربعون مترًا لم يكن كافيًا للدّوران، لهذا ربطا نهاية السّلك بالحاجز المعدنيّ ثمّ عاد إلى الدّاخل.

حصلت عليها، توجد إشارة، بدأ أولمان يصيح مبتهجًا عند رؤيتهما. لقد جئنا، الكولونيل يشتم ويلعن من الغضب ويسأل أين كنّا قبل ذلك. ضغط سمّاعات الأذن على رأسه، وأصغى إلى المزيد ثمّ أضاف: هو يقول أنّ كلّ شيء أفضل ممّا

اعتقدنا، وأنّهم وجدوا أربع منصّات جميعها في حالة ممتازة. لقد حفظت... في زيت تحت قماش من المشمّع... ويقول إنّ أنطون بطل، والمنصّات والصّواريخ جميعها مألوفة له، وستكون جاهزة قريبًا جدًّا. يجب أن نخبرهم بالإحداثيّات، كما أنّه يرسل تحيّاته لك يا أرتيوم.

فضّ بافل خارطة كبيرة للمنطقة الّتي قُسِّمت إلى أرباع، ونظر عبر منظاره المقرّب، وبدأ يملي لهم الإحداثيّات. كرّرها أولمان في ميكرفون جهازه اللّاسلكي.

سوف نشمّع المحطّة نفسها أيضًا في أيّ حال. راجع المقاتل الخارطة وصاح بعدّة أرقام أخرى. هذا كلّ شيء، لقد حصلوا على الإحداثيّات والآن سيقومون بالتّسديد. أزال أولمان سمّاعات الأذن وحكّ جبهته: سوف تستغرق بعض الوقت أيضًا، إنّ رجل الصّواريخ صاحبك هو الوحيد هناك الّذي يعرف كيف، لكنّ ذلك لا شيء، سوف ننتظر.

أخذ أرتيوم المنظار المقرّب وخرج إلى الشّرفة مرّة أخرى. شيء ما جرّه إلى تلّة النّمل المقزّزة، شعور مستبدّ وألم غير ملموس لا يمكن التّعبير عنه، مثل شيء ثقيل يضغط على صدره ولا يسمح له بالتّنفّس بعمق. ظهر النّفق الأسود أمام عينيه مرّة أخرى، وبدا واضحًا فجأة ومميّزًا كما لم يره أرتيوم حتّى في كوابيسه الّتي طاردته بلا شفقة. ولكن بات الآن عدم الخوف ممكنًا، فلن يستبدّ مصّاصو الدّماء بأحلامه بعد اليوم.

هذا كلّ شيء، يقول الكلونيل انتظروا التّحيّة، لقد أقلعت، والآن سوف نقلي هذه الخلوقات اللّعينة السّوداء خاصّتك، صاح أولمان.

وفي تلك اللّحظة تلاشت المدينة تحت أقدامهم، واختفت السّماء في هاوية مظلمة وخمدت الصّيحات السّعيدة خلف ظهره. ولم يبق سوى نفق أسود فارغ تجوّل فيه أرتيوم مرّات كثيرة سابقًا... من أجل ماذا؟ ازداد الزّمن سماكة وتخثّر. سحب الولّاعة البلاستيكيّة من جيبه وأشعلها، فقفزت منها شعلة سعيدة وبدأت ترقص على الفتيلة، وأنارت الفراغ المحيط بها. كان أرتيوم يعرف ماذا سيرى ويجب عليه الآن ألّا يخافه، ولذلك رفع رأسه ونظر إلى العيون السّود الضّخمة الّتي ليس فيها بياض أو بؤبؤ. ثمّ استمع إليه..

أنت الشّخص المختار، انقلب العالم رأسا على عقب. وفجأة رأى في تلك العيون الّتي لا قرار لها الجواب لكلّ شيء كان مبهمًا وغامضًا بالنّسبة له، وفي جزء من الثّانية. والجواب لكلّ شكوكه وتردّده وبحثه، وتبيّن له أنّ الجواب لم يكن ما توقّعه.

بعد أن اختفى في داخل نظرة الدّارك ونز المحدّقة، رأى الكون بعيونهم فجأة. حياة جديدة كانت تولد، ومئات وآلاف العقول الفرديّة اتّحدت في كلّ واحد. لقد سمحت بشرة الدّارك ونز السّوداء المرنة له، أن يتحمّل الشّمس الحارقة وصقيع يناير كانون الثاني. ومكنّته مجسّات التّخاطر النّاعمة من أن يلاطف أيّ مخلوق، ويلدغ العدو بشكل موجع. وكان منيعًا تمامًا ومحصّنًا ضدّ الألم.كان الدّارك ونز هم الورثة الحقيقيّون للكون المدمّر وطائر العنقاء الّذي ظهر من رماد البشر. وهم يملكون

عقلا حيًّا محبًّا للاستطلاع لا يشبه العقل البشريّ إطلاقا. لكنّه مكن أحدهم من التّواصل مع أرتيوم بطريقة ما، فرأى النّاس كما يراهم الدّارك ونز، النّاس يقاسون المرار ويعيشون تحت الأرض. ويردّون على بعضهم بعضا بالنّار والرّصاص، ويبيدون حاملي رايات الهدنة الّذين يرسلون لهم بأغنية السّلام، فينتزعون الرّايات البيضاء منهم ثمّ يطعنوهم في الرّقاب بالرّماح.

أدرك أرتيوم اليأس المتنامي النّاتج عن العجز في تأسيس تواصل ثابت، والوصول إلى تفاهم متبادل بسبب المخلوقات الحانقة وغير العاقلة الّتي تجلس في الأعماق في الممرّات السّفليّة بعد أن دمّرت عالمها الخاصّ بها. وتستمرّ في التّشاجر والتّخاصم فيما بينها، والّتي ستموت قريبًا جدًّا إن لم يستطع أحد أن يربّيها ويعلّمها من جديد. كان الدّارك ونز يمدّون يد المساعدة للنّاس، ولكنّ النّاس قبضوا عليها بكره ومقت مرّة أخرى. لقد رأى الرّغبة في تخليص أنفسهم من هذه الكائنات السّاخطة، لكنّه رأى أيضًا محاولات البحث اليائسة لإيجاد واحد من غير المحظوظين، ليصبح جسرًا بين العالمين، فيستطيع أن يشرح للنّاس أنّه ليس هناك ما يدعوهم إلى الخوف، ويساعد الدّارك ونز على التّواصل معهم.

فهم أرتيوم أنّه ليس هناك ما يقسم النّاس والدّارك ونز ويفرّقهم، وفهم أنّهم لا يتنافسون من أجل البقاء، وأنّهما نوعان من الأحياء أرادت لهما الطّبيعة أن يعملا معًا. فمن خلال معرفة الإنسان التقنيّة ومقدرة الدّراك ونز على تذليل المخاطر، يمكنهم نقل البشريّة إلى مستوى جديد، وتمكين العالم الّذي تعثّر وتوقّف عن مواصلة الدّوران حول محوره. ولأنّ الدّارك ونز عبارة عن قسم من الجنس البشريّ أيضًا وفرع جديد منهم ولد هنا في خرائب المدن الضّخمة المكتظّة الّتي كنستها الحرب. الدارك ونز هم النّتيجة الّتي خلّفتها الحرب الأخيرة. لقد كانوا أطفال العالم الّذين تكيّفيوا بالشّكل الأفضل مع الشّروط الجديدة للعبة، وهم لايحسّون بالإنسان بأعضائهم المعتادة فقط، وإنّما بمجسّات الشّعور أيضًا. تذكّر أرتيوم الضّجيج الغريب في الأنابيب، وتذكّر المتوحّشين الّذين يمنكهم سحر المرء بمجرّد نظرة عاجلة، والكتلة المقزّزة في قلب الكرملين وقدرتها على مهاجمة عقل المرء والانقضاض عليه. لم يكن الإنسان قادرًا على التّغلّب على تأثيرهم على العقل، أمّا الدّارك ونز فكأنّهم خلقوا من أجلهم، ولم يكن ينقصهم سوى شريك أو حليف أو صديق. شخص يمكنه أن يساعدهم في تأسيس تواصل مع إخوتهم الكبار الصمّ العمي، أي مع النّاس. وهكذا بدأ البحث الطّويل والمضني عن وسيط، بحث تُوّج بالتّوفيق والبهجة، فقد تمّ العثور على هذا المترجم والمفسّر، الشّخص المختار، لكنّه اختفى قبل أن يتمّ التّواصل معه. وبحثت مجسّات (الكومونر الفرد العاديّ) عنه في كلّ مكان، وأمسك به أحيانا ليبدأ الحوار معه، لكنّه كان ينتزع نفسه ويهرب بسبب خوفه. كان لابدّ من دعمه وإنقاذه وإيقافه وتحذيره من الخطر، وحثّه على الاستمرار. وحاول معه في بيته مرّة أخرى حيث يكون التّواصل معه أقوى وأوضح. وأخيرا توطد الاتّصال واستطاع الشّخص المختار أن يتقدّم خطوة أخرى جبانة نحو فهم مهمّته وقدره. لقد هُيِّأ وعُيِّن لهذه المهمّة لأنّه هو الّذي فتح الباب إلى المترو للنّاس وللدّارك ونز.

فكر أرتيوم بالتساؤل عمّا حدث لهنتر باختصار، لكن هذه الفكرة بدأت تلف في دوّامة إحساسات جديدة غير محتملة، وتلاشت في دوّامة هائجة من التّجارب واختفت بلا أثر. الآن لا شيء يشتّته ويلهيه عن هدفه الأساسيّ وفتح ذهنه مرّة أخرى على عقلهم. إنّه يقف الآن على عتبة شيء مهمّ بشكل لا يصدّق. لقد عرف هذا الشّعور وجرّبه في بداية رحلته الأسطوريّة الطّويلة، حين كان يجلس عند الموقد في أليكسييفسكايا. هذا الفهم الواضح، أنّ الكيلومترات من الأنفاق، والأسابيع من التّجوال، قادته إلى باب سرّيّ يعرف أنّ فتحه سيوفّر له منفذًا إلى كلّ أسرار الكون، ويسمح له أن يرتفع فوق النّاس البائسين الّذين حفروا عالمهم في الأرض المجمّدة العنيدة. رحلة أرتيوم الطّويلة أجبرته أن يفتح الباب بقوّة، ويستحمّ بضوء المعرفة المطلقة المتدفّقة ويعميه الضّوء. كانت العيون أداة خرقاء لا معنى لها، لا تناسب إلّا هؤلاء الّذين لم يروا شيئًا في حياتهم سوى قناطر النّفق الملوّثة بالسّخام وحجر الصّوان القذر للمحطّات. يجب على أرتيوم الآن أن يمدّ يده للشّخص الّذي بادر ومدّ يده له. صحيح أنّ اليد الممدودة مرعبة، لكنّها يد صديقة ووديّة بلاشك، وبعدها سيفتح الباب ويكون كلّ شيء مختلفًا. امتدّت آفاق جديدة غير مرئيّة جميلة ومهيبة أمامه، وملأ الفرح الشّديد والتّصميم قلبه. ولكن هناك قطرة ندم واحدة فقط لأنّه لم يفهم كلّ هذا في وقت مبكّر قبل الآن، وأنّه أجبِر على إبعاد أصدقائه وإخوته وإقصائهم.

أمسك قبضة الباب بقوّة وسحبها إلى الأسفل. اشتعلت قلوب الآلاف من الدّارك ونز البعيدين في الأسفل بالفرح الشّديد والأمل. وتبدّد الظّلام أمام عينيه، ووضع المنظار المقرّب على عينيه فرأى المئات من الأشكال السّوداء على الأرض البعيدة، تقف ساكنة بلا حراك وتنظر إليه الآن غير مصدّقة أنّ المعجزة الّتي طال انتظارها حدثت، وأنّ العداء الأخويّ الّذي لا معنى له وصل إلى نهايته.

في هذه الثّانية من الوقت رسم الصّاروخ الأوّل مسارًا دخّانيًّا متّقدا في السّماء بسرعة البرق، وضرب مركز المدينة. وعلى الفور خطّت السّماء المحمرّة ثلاثة شهب أخرى من نفس النّوع. اهتزّ أرتيوم وتراجع إلى الخلف وهو يأمل ويرجو أنّ إيقاف إطلاق الصّواريخ مازال ممكنًا. لكنّه فهم فجأة أنّ كلّ شيء انتهى مسبقًا، فقد ضرب لهب برتقاليّ (كثيب النّمل) وانطلقت غيمة سوداء متفحّمة إلى الأعلى، وطوّقته انفجارات جديدة من كلّ الجوانب، وتحطّمت المدينة وهي تنفث أنينًا متعبًا من الاحتضار. وحجبها دخّان أسود من الغابة المحترقة، وسقطت صواريخ أخرى من السماء، وكلّ وفاة كانت تخلّف تتردّد صدى ألم كئيب في روح أرتيوم.

حاول يائسا أن يكتشف في وعيه أثرًا على الأقلّ لذلك الحضور الّذي ملأه للتوّ ودفّأه ووعده بالخلاص له ولكل البشر، والّذي أعطاه معنى لوجوده. لكن لم يبق منه أي شيء، كان وعيه مثل نفق مترو مهجور. وشعر أريتوم بحدّة أنّ الضّوء الّذي كان قادرًا أن ينير به حياته ويجد طريقه، لن يظهر ثانية أبدًا. نحن أعطيناها لهم فعلًا، هيه؟ لن يعرفوا أن يضايقونا، كان أولمان يفرك يديه. آه، أرتيوم؟ أرتيوم.

تحوّلت كلّ الحدائق النّباتيّة وفدنكه إلى كتلة ناريّة واحدة، وارتفعت هبّات ضخمة من دخّان أسود دبق في السّماء الخريفيّة بتكاسل. وامتزج الوهج القرمزيّ للنّار

الهائلة البشعة مع أشعّة الشمس المشرقة الرّقيقة، فأصبحت متجهّمة وقريبة بشكل لا يحتمل. أمسك أرتيوم قناعه الغازيّ وانتزعه وأخذ نفسًا كاملًا من الهواء البارد المرّ، ثمّ مسح دموعه المتساقطة ولم يكترث بالصّيحات وبدأ بهبوط الدّرج. كان عائدًا الى المترو.. كان راجعًا إلى بيته وموطنه.

انتهت الرّواية

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

ملاحظة في المترو

مقدّمة..

الفصل الأول: نهاية الأرض

الفصل الثاني: الصيّاد

الفصل الثالث: إذا لم أرجع

الفصل الرابع: صوتُ الأنفاق

الفصل الخامس: مُقابل خراطيش

الفصل السّادس: حقوق الأقوياء

الفصل السّابع: خانية الظّلام

الفصل الثّامن: الرّايخ الرّابع

الفصل التاسع: أنت ستموت DU STIRBST

الفصل العاشر: نو باساران (لن يمرّوا)

الفصل الحادي عشر: أنا لا أؤمن به

الفصل الثّاني عشر: بوليس

الفصل الثّالث عشر: المكتبة الكبرى

الفصل الرّابع عشر: هناك في الأعلى

الفصل الخامس عشر: الخارطة

الفصل السّادس عشر: أغنية الموتى

الفصل السّابع عشر: أولاد الدّودة

الفصل الثّامن عشر: الحكومة السّلطة

الفصل التّاسع عشر: المعركة الحاسمة

الفصل عشرون: وُلد ليزحف

Notes

[←1]

- الدّارك ونز هم بشر تعرّضوا للإشعاع النّوويّ فحدث فيهم تغييرات جسديّة وعقليّة، تأقلموا من خلالها مع البيئة الملوّثة، وكانوا أقوى من البشر، وأذكى بكثير. ويعتبرون الهومو نوفوس، أي البشر الجدد، ومرحلة متطوّرة منه. فضّلت الإبقاء على الاسم بلفظ لغته لأنّ أيّ ترجمة له لن تدلّ عليهم على نحو صحيح (المترجم).

[←2]

- كائنات صمّاء وعمياء ينحدر أصلهم من البشر - المترجم.